مفتاح دار السعادة

ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة

للعلامة الإمام شيخ الإسلام

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر

ابن قيم الجوزية

المتوفى سنة ٧٥١ هجرية رحمه الله تعالى

قدم له، وضبط نصه، وعلق عليه، وخرج أحاديثه

علي بن حسن بن علي بن عبد الحميد

الحلبي الأثري

راجعه

فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد حفظه المولى

الجزء الأول

دار ابن عفان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

دار ابن عفان للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الخبر - العقربية

شارع أبو حدرية - تقاطع الشارع العاشر

ص.ب: ٢٠٧٤٥ - رمز بريدي ٣١٩٥٢ - ت: ٨٩٨٧٥٠٦

الأصالة للتنضيد والإخراج الفني / الأردن - الزرقاء - ص.ب (٣٣٦٩)

مفتاح دار السعادة

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

إِنَّ الحمدَ للَّهِ ، نَحمدُهُ ونستعينُهُ ونستغفرُهُ ، ونعوذُ باللَّهِ مِن شُرورِ أَنفُسِنا ومِن سيِّئات أَعْمالِنا ، مَن يَهْدِه اللَّهُ فلا مُضِلَّ له ، ومَنْ يُضْلِل فلا هادِيَ له .

وأَشهدُ أَنْ لا إِله إِلَّا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له .

وأَشهدُ أَنَّ محمّدًا عبدُهُ ورسولُهُ .

أَمَّا بَعْدُ :

فإِنَّ هذا كِتَابٌ عظيمٌ عُجاب ، يُدْهِشُ - مِن رائعِ نَظْمِهِ وبديع نَسَقِهِ - العقولَ والأَلْباب .

« وهو كتابٌ نفيس ، لا يُمِلُّ الجليس ، فيه مِن بدائع الفوائد ، وفرائد القلائد ما لا يُوجد ذلك لِسواه ، وفيه مِن البُحوثِ ما يَسْتَقْصِي كُلَّ علمٍ إِلى فنِّه ، واسمُهُ مُطابِقٌ لِمُسمَّاه ، ولَفْظُهُ مُوافِقٌ لِمَعْنَاه »[١].

ولو أَنِّي تَعَجَّلْتُ - باديَ بَدْءٍ - وادَّعيْتُ لِكُلِّ ناظرٍ فيه، لم يَسْبُرْ خبايا خَوَافيهِ : أَنَّه لم يُصَنَّفْ مِثْلُهُ ، ولم يُؤَلَّفْ شِبْهُهُ ، لَمَا أَبْعَدْتُ عن الصواب ، ولَـمَا

---

(١) مِن خاتمة النُّسخة المطبوعة مِن « المفتاح » (٢ / ٢٧٤) ، وهي من إِنشاء ناسخ المخطوطة .

قارَبْتُ الارْتِياب ..

إِذْ إِنَّ « فيه فوائِدَ مُرسَلَةً ، يُقْتَبَسُ مِن مجموعها معرفةُ العلمِ وفضلِهِ ، ومعرفةُ إِثباتِ الصانِع ، ومعرفةُ قَدْر الشريعة ، ومعرفةُ النّبوة ، وشدَّةُ الحاجةِ إِلى هذه المذكورات ، ومعرفةُ الردّ على المُنَجِّمين ، ومعرفةُ الطِّيَرةِ والفأْلِ والزَّجْر ، ومعرفةُ أُصولٍ نافعةٍ جامعةٍ ممّا تَكْمُلُ به النفسُ البشريّةُ »[1].

وإِذِ الأَمرُ كذلك ؛ فإِنَّ هذا الكتابَ - **بحقٍّ** - يلزمُ لِتَحْقيقِه وتَنْقيحِه - **حتَّى يكونَ كما أَرادهُ مُؤلِّفُهُ** - لَجْنَةٌ علميةٌ مُتكاملةٌ ؛ فيها المُحَدِّثُ ، والفقيهُ ، والمُفسِّرُ ، والمُتَكَلِّمُ ، والأُصوليُّ ، والنَّظَّارُ ، والمُؤَرِّخُ ، واللُّغويُّ ، والطبيبُ ، والفيلسوفُ ، والفَلَكيّ ، و .. و ..

.. وما ذاك إِلَّا لِتنوُّعِ فُنونِه ، وتعدُّدِ معارِفِهِ ، واختلافِ بحوثِه ..

وعليهِ ؛ فإِنَّ ما أَسلفتُهُ لك - أَخي القارئَ - هو اعتذارٌ بَيِّنٌ - مُقَدَّمًا - عمَّا قد تَرَاهُ من وَهَم في التعليق ، أَو غَلَطٍ في التَّوْثيق ، أَو سَهْوٍ عن تدْقيق ، لأَنَّ هذا الكتابَ - في حقيقتِه - بَحْرٌ عميق، حوى في جَوْفِهِ صُنوفَ الدُّرِّ وأَلوانَ العقيق ..

... وحتَّى لا أُعيق ، ولا أُطيلَ على القارئِ الطريق ، أَقِفُ في هذه الكلمةِ هُنا ، لعلَّنا نبلُغُ - بهذا الكتابِ - الأَمَلَ والمُنى ..

.. فاللَّهَ نَسأَلُ التوفيق ، والهدايةَ إِلى مسالِك التحقيق .

ولا يَسَعُني في خِتام هذه المقدّمة إِلّا أَنْ أَتقَدَّم بالشُّكرِ الجميل ، وأَدْعُوَ بالثَّوَاب الجزيل لفضيلة الأَخِ الكبير الشيخ **بكر بن عبدالله أبو زيد** - حفظه اللهُ ونَفَعَ به - على ما تَكرَّمَ به مِن التقديم لهذا العَمَل الَّذي أَرجو أَنْ يكونَ نافعًا ومُبارَكًا ؛ فجزاه اللهُ خيراً ، وزادَه فضْلًا وبِرًّا .

---

(١) « كشف الظنون » (٢ / ١٧٦١) حاجي خليفة .

مُوْجَزُ ترجمة (١)
الإمام العلَّامَةِ شمسِ الدين ابن القيِّم
رحمه اللَّه تعالى

مدخلٌ(٢):

« الإمامُ الجليلُ ابنُ القيِّم عَلَمٌ من أَعلامِ عُلماءِ الكتابِ والسنَّةِ ، وَمَنارٌ من مناراتِ الحقّ ، في هَدْيِهِ إشْراقٌ ونورٌ ورحمةٌ ، فلقد حَيّ - رضي اللَّه عنه - لربِّه وكتابِ ربِّه، وسُنَّةِ خاتَم النَّبيينَ ، حَيَّ حياةَ الصدِّيقين والشهداءِ ، يفتحُ قلبَه للنُّور ، لأَنَّه لا يُحبُّ أَنْ يحيا إلَّا في النُّور .

(١) تَرْجَمَ له الجمُّ الغفيرُ من أَئمّة العلمِ ؛ منهم : ابن رجب في « ذيل الطبقات » (٢ / ٤٤٧) وابن كثير في « البداية والنهاية » (١٤ / ٢٠٢) والذهبيّ في « ذيل العبر » (٥ / ٢٨٢) والصفديّ في « الوافي بالوفيات » (٢ / ٢٧٠) وابن العماد في « شذرات الذهب » (٦ / ١٥٦) وغيرهم كثيرٌ .

وقد أَفرده بالترجمةِ عددٌ من المعاصرين ؛ منهم عوض الله حجازي ، وعبدالعظيم شرف الدين ومحمد السنباطي .

وآخِرُ ذلك وأَحسنُه وأَوْعَبُهُ ما كتبه فضيلة الشيخ بكر أَبو زيد في كتابِه المستطاب « ابن قيم الجوزيّة حياته وآثاره » ، وهو مطبوعٌ مرارًا .

(٢) مِن كلام الشيخ عبدالرحمن الوكيل رحمه اللَّهُ تعالى في مقدمته لتحقيقه كتابَ « إعلام الموقِّعين » (١ / م - ن) للمؤلِّف ، وذلك قبل نحو رُبع قَرْنٍ مِن الزَّمن .

عاشَ يُحَطِّم طواغيتَ الشركِ ، وأَصنَامَ الوثنيَّةِ ، ويُدمِّر تلك الحُصونَ التي شيَّدَتْها شهواتُ الطُّغاةِ البُغاةِ من أَحْلاسِ الرِّمَمِ ، ورادةِ الإِثمِ في رَدْغَةِ المواخيرِ .

عاشَ والقرآنُ بين عينيهِ، وفي فِكرِهِ، وفي قلبِهِ، بل عاشَ والقرآنُ فَلَكٌ لا تدورُ حياتُهُ إِلَّا حولَه ، فأَعاد هو وشيخُه الجليلُ الإِمامُ ابنُ تيميَّةَ إِلى السُّنَّةِ بهاءها ورونَقها، وخلَّصاها مِمَّا شابها ، وبيَّنا لأَكثرِ الحقائقِ الإِسلاميَّةِ مفهوماتِها الصادقةَ الحقَّةَ ، وجَعَلا لكُلِّ حقيقةٍ ما هو لها دونَ نقصٍ أَو زيادةٍ .

ورَفَضَا بقُوَّةٍ ودرايةٍ علميَّةٍ ممتازةٍ ، ونباهةٍ فكريةٍ رائعةٍ ما افتراه المحَرِّفونَ والمؤَوِّلون والمُعَطِّلةُ والمُشَكِّكةُ مِن مفهوماتٍ ومُصطلحاتٍ ، ودَمَغُوهم بتجريدِ الكلماتِ المقدَّسةِ مِن حقائقها ومعانيها ، ثمَّ جاءوا لهذه الكلماتِ بما يُحِبُّ اللَّهُ أَن يكونَ لها .

ولهذا عاشا يُناضِلانِ الفلسفةَ والتصوُّفَ والكلامَ ، وأَدعياءَ الفقهِ والأُصولِ مِن عَبَدةِ الرأيِ والقياسِ ومُحلِّلي الإِثمِ بِاسْمِ الحِيَلِ ! وأَبَيَا في إِصْرارِ المؤمنِ وكِبريائِهِ أَنْ يَهْطَعَا للبغي في سطوتهِ الباغيةِ ، أَو أَنْ يَرْضَيَا السَّلامةَ يشتريانِها بمُداهنةِ الباطلِ ، ومُمالأَةِ الضلالةِ ، واستحبَّا السجنَ على الحُرِّيَّةِ .

ولم يَرْوِ لنا التاريخُ بعد عصر الإِمامينِ الجليلينِ قصَّةَ أُستاذٍ وتلميذِهِ تُشْبِهُ قصَّةَ الإِمام ابنِ تيميَّةَ وابنِ القيِّم ، فهما أَشبهُ بالمِصْباحِ ونورِهِ ، أَو بالشمسِ وضُوئِها ، فَرَضِيَ اللَّهُ عنهما وأَرضاهما » .

سَرْدُ الترجمةِ(١) :

○ هو محمَّدُ بن أَبي بكرِ بن سَعْد بن حَرِيز الزُّرْعي ثم الدمشقي ، المُلَقَّب بشمس الدين ، والمُكَنَّى بأَبي عبدالله ، والمعروفُ بابنِ قيِّم الجوزيَّةِ ، والجوزيَّةُ مدرسةٌ كان أَبوهُ قيِّمًا عليها .

○ وقد وُلد ابنُ القيم في ٧ من صفر سنة ٦٩١ هـ ، ونَشَأَ في بيتِ علمٍ وفضلٍ ، وتلقَّى علومَه الأُولى عن أَبيهِ ، وأَخذ العلم عن كثيرٍ من العُلَماءِ الأَعلامِ في عصرِهِ .

وله في كُلِّ فنٍّ إنتاجٌ قيِّمٌ .

○ وإلى جانبِ علمِه كان يذكرُ اللَّهَ ذِكْرًا كثيرًا ، ويقومُ الليلَ ، وكان سَمْحَ الخُلُقِ ، طاهرَ القلبِ .

وقد أُعْجِبَ بابنِ تيميَّةَ ؛ إذ الْتَقَى به سنة ٧١٢ هـ ولازَمَه طولَ حياتِه ، وتتلمَذَ عليه ، وتحمَّل معه أَعباءَ الجهادِ ، ونَصَر مذهبَه ، وحملَ لواء الجهادِ بعد وفاةِ شيخِه ابن تيميَّةَ سنة ٧٢٨ هـ ، وظلَّ يخدمُ العلمَ إلى أَنْ تُوُفِّي ليلةَ الخميس ١٣ رجب سنة ٧٥١ هـ .

○ وكان رحمه اللَّه بَحْرًا زاخِرًا بأَلوانِ العلومِ والمعارِف ، وكان مُبَرِّزًا في فقهِ الكتابِ والسنَّةِ ، وأُصولِ الدينِ ، واللُّغةِ العربيةِ ، وعلمِ الكلامِ ، وعلمِ السلوكِ ، وغيرِ ذلك .

---

(١) **وهي بقَلَم فضيلة الشيخ سيّد سابق حفظه اللَّه** ؛ وذلك في مُقدمةِ الطبعةِ التي حقَّقها الشيخُ الوكيل رحمه اللَّه لـ « إعلام الموقِّعين » (١ / ز - ل) .

وإنَّما اكتفيتُ - في هذا المقام - بنقل هذه الترجمةِ الَّتي كَتَبَها الشيخُ سيّد سابق ؛ لأَهميتها ، وعِزَّتها ، والدلالةِ على نهجِ كاتبها .

وقد انْتَفَعَ النَّاسُ به وتتلمذَ عليه العُلماءُ ، ولا تزالُ مُؤلفاتُه حتى اليومِ مصادرَ إِشعاعٍ ومناراتِ توجيهٍ .

○ وعالمٌ هذا شأنُهُ لا بُدَّ أَنْ يكونَ موضعَ إِعجابِ المُنْصِفين ، ومثارَ حقدِ الأَعداءِ والحاسدين – فلقد كان مُستقِلَّ الشخصيةِ ، لا يُصْدِرُ رأْيَه في المسائلِ إِلَّا بعد الوقوفِ على ما قالَتْهُ الطوائفُ المختلفةُ ، والنظرِ بعينٍ فاحصةٍ ، ورأْيٍ ثاقبٍ ، يَنْفي به الباطلَ ، ويُؤَيِّدُ به الحقَّ الذي يراه – جديرٌ بأَنْ تُسَلَّطَ عليه الأَضواءُ .

ومِن هنا قام مذهبُ ابن القيِّم على الانتخابِ[1]، بمعنى أَنَّه **لا يتبعُ مذهبًا مُعيَّنًا، وإِنَّما يَنْشُدُ الحقَّ أَينما وُجِدَ**، ويُحارِبُ الباطلَ أَينما وُجد، دون أَنْ يتأَثَّر بارتباطاتٍ نفسيّةٍ أَو اتجاهاتٍ من أَيِّ نوعٍ، إِلَّا الارتباطَ بالحقِّ، وبالحقِّ وحدَه .

○ وذلك الاتِّجاهُ يتمشّى مع إِصرارهِ على مُحاربةِ التقليد الأَعمى، والحِرْصِ على دَعْم اتجاهاتهِ وآرائِهِ بالكتابِ والسنّةِ ، ومُحارَبَةِ التأويلِ المُستجيبِ للأَهواءِ .

ومِن هنا الْتقى مع السَّلَفِ في تَرْك التأويل ، وإِجراءِ ظواهر النُّصوص على مواردِها ، وتَفْويض معانيها[2] إِلى اللَّهِ تعالى .

وقد كان يستهدفُ إِخراجَ المسلمين مِن خلافاتِهم ، وتضارُبِ آرائهم ، وخُصوصًا أَنَّ هذه الخِلافاتِ غريبةٌ على المُشتغلين بدينِ اللَّه ، وأَنَّ رُوحَ الإِسلام تأْباها ولا تسمحُ بها ، وأَنّ الأَوضاعَ العامَّةَ للمُجتمع الإِسلاميِّ آنذاك كانت غايةً في السوء من النَّواحي السياسيةِ والاجتماعيةِ والعلْميةِ ، ومِنْ شأْنِ هذه الخلافاتِ

---

(١) والأَصوبُ أَنْ يُقال : الاتِّباع . (ع) .

(٢) المُتعلّقة بذاتِ اللَّه سبحانه ، لا الأَصل اللُّغوي . (ع) .

أَنْ تزيدَ الطينَ بِلَّةً ، وأَنْ تَشْغَلَ المسلمين عن مُقاومةِ أَعدائهم[١] الذين تكالبوا عليهم في العُصور الوسطى .

وساعد العَدُوَّ على تحقيقِ مآربه تمزُّقُ البلادِ الإسلاميَّةِ إلى ممالكَ صغيرةٍ[٢] يحكُمُها العَجَمُ والمماليكُ ، وضياعُ هيبةِ الخِلافةِ التي وُجدت اسْمًا وتلاشَتْ فِعلًا ، فاسْتَغَلَّ التتارُ والصليبيُّون هذا الوضعَ السياسيَّ أَسوأَ استغلالٍ ، وإِنْ كانت الدائرةُ قد دارتْ على الأَعداءِ في نهاية المطافِ ، والحمدُ للَّه .

○ ولم تكُنِ الناحيةُ الاجتماعيَّةُ أَقلَّ سُوءًا من النَّاحيةِ السياسيَّةِ ، فقد كان النَّاسُ يعيشون في رُعبٍ وفَزَعٍ وخوفٍ من سوء المصير ، وخَيَّمَ الفقرُ ، وابْتُلِيَ الناسُ بالجوعِ والغلاءِ مع نَقْصٍ في الأَموالِ والثمراتِ ، وانطلق اللصُوصُ ينهَبون ويسلُبُون ، واستعان الأُمراءُ بهؤلاء اللصوصِ على تحقيقِ مآربِهم ، وظهر الفسادُ في المتاجِرِ وفي كُلِّ نواحي الحياة .

وَجَوٌّ كهذا لا يُمَكِّنُ مِن طَلَبِ العلمِ ، بل إِنَّه يصرفُ الأَذهانَ عن نُورِ المعرِفةِ ، وذلك هو الذي وَقَعَ في دُنيا الناسِ حينئذٍ ، ولذلك عاشوا عالةً على السَّابقين ، يُقَلِّدُونهم تقليدًا أَعمى ، ويَجْمُدُون على ترسُّم خطواتهم ، ولذلك خَمَدَت القرائحُ ، وعَجَزَتْ عن الابتكارِ والاجتهادِ والتجديدِ ، ولا يَنْقُضُ هذا وجودُ بعضِ أَفرادٍ كان لهم - إلى حَدٍّ ما - جُهْدٌ يُذْكَرُ فَيُشْكَرُ .

---

(١) في الكتاب : عدوِّهم . (ع) .

(٢) ما أَشبه الليلةَ بالبارحةِ ! فَحالُ الأُمَّةِ - اليوم - كذلك ، تفرُّقًا ، وتَشتُّتًا ، وتسلُّطًا ، واندحارًا ، وذُلًّا - ، ولكنْ أَنَّى لها - اليومَ - أَمثالُ ابنِ تيميَّة وابنِ القيِّم ، ومناهجهم العلميَّة العالية ؟!

وإِنْ وُجِدَ .. فأَنَّى لهم أَتْباعٌ صادقون ، وتلاميذُ مُخْلِصون ؟!

○ في هذا الجوِّ ظهر ابنُ القيِّم ظهورَ الغَيورِ على أُمَّتِه ، المُهتمِّ بحاضرها ، الباحِثِ عن خَيْرِ مصيرٍ لها في مُستقبلِها ، الراغبِ في إِنْهاضِها من كَبْوَتِها ، وإقالتِها مِن عثرَتِها ، وإِخْراجِها من ظُلُماتِ الخلافاتِ ، والعودةِ بها إلى طريقِ النورِ الذي سَلَكَهُ سَلَفُنا الصالحُ ، فَوَصَلُوا في نهايتِه إلى أكرمِ الغاياتِ في ضَوْءِ هذا الدينِ القويمِ ، وبتوجيهاتِ القرآنِ الكريمِ .

○ والأُصولُ الَّتي اعتمدَ عليها ابنُ القيِّم في استنباطِ أَحكامِه ؛ هي الكتابُ والسنَّةُ والإِجْماعُ - بشرطِ عدم العِلْمِ بالمخالفِ - وفتوى الصحابيِّ - إذا لم يُخالِفْهُ أَحدٌ من الصحابةِ ، فإِنِ اخْتَلَفُوا تَوَقَّفَ تَوَقُّفَ المُختار - ثم فتاوى التابعينَ ، ثم فتاوى تابِعيهم ، وهكذا ، والقياسُ ، والاستصحابُ ، والمصلحةُ ، وسدُّ الذرائع ، والعُرْفُ .

○ وأَمَّا بالنسبةِ إلى طريقتِه في البحثِ ؛ فقد كان يعتمدُ أَوّلًا على النُّصوصِ ، يَسْتنبطُ منها الأَحكامَ ، ويُكثِرُ من الأَدلَّةِ على المسأَلةِ الواحدةِ ، ويعرضُ آراءَ السَّابقين ، يختارُ منها ما يُؤَيِّدُه الدليلُ ، وقد يُبَيِّنُ وجهةَ كُلِّ فقيهٍ فيما ذهبَ إليه ، ويعرضُ أَدلَّةَ المخالفين ويُفَنِّدُها ، ويستعينُ بالأَحاديثِ على بيانِ معنى الآيةِ .

وهو في كُلِّ هذا لا يتعصَّبُ لمذهبٍ مُعيَّنٍ ، بل يجتهدُ ، ويدعو إلى الاجتهادِ ، ويُعْمِلُ فِكْرَهُ ، ولا يَدَّخِرُ في ذلك وُسعًا ؛ ويَنْشُدُ الحقَّ أَينما كانَ .

○ وقد كان ابنُ القيِّم يرجو مِن وراء ذلك كُلِّه أَنْ يَقْضِيَ على اختلافِ المسلمين الَّذي قادَهُم إلى الضعفِ والتفكُّك ، وأَنْ يجمعَهم على الاقتداءِ بالسلفِ في أَمرِ العقائدِ ، لأَنَّه رأَى أَنَّ مذهَبَ السَّلفِ أَسلمُ مذهبٍ[1]؛ وكان

---

(١) وأَعلمُهُ وأَحكمُهُ . (ع) .

يرجو أَنْ يَقُودَ المسلمين إلى التحرُّرِ الفكريِّ ، ونَبْذِ التقليدِ ؛ وإبْطالِ حِيَلِ المُتلاعبين بالدِّين ؛ وأَنْ يكونَ الفهمُ المُشْرِقُ الكاملُ لروح الشريعةِ الإسلاميةِ السَّمْحةِ ، هو النِّبراسَ ، وهو المُوَجِّهَ الحقيقيَّ في كُلِّ المواقفِ .

○ « تُوُفِّي رحمه وقتَ عشاءِ الآخرة ليلةَ الخميسِ ثالثَ عَشَرَ رَجبٍ سنة ٧٥١ هـ ، وصُلِّيَ عليه من الغدِ بالجامعِ عَقِيبَ الظُّهرِ ، ثمَّ بجامع جَرَّاح[١]، ودُفن بمقبرةِ الباب الصغير ؛ وشيَّعه خلقٌ كثيرٌ .

ورُئِيَتْ له مناماتٌ كثيرةٌ حَسَنةٌ رضي اللَّه عنه .

وكان قد رأىٰ قبلَ موتِه بمدَّةٍ الشيخَ تقيَّ الدين[٢] رحمه اللَّه في النَّومِ ، وسأَلَهُ عن منزِلَتِه ؟ فأَشار إلى عُلُوِّها فوقَ بعض الأَكابرِ ، ثم قال له : وأَنتَ كِدْتَ تلحقُ بنا ، ولكنْ أَنتَ الآنَ في طبقةِ ابن خُزَيمة رحمه اللَّه »[٣].

وبعد :

فتلك لَمْحَةٌ خاطِفةٌ عن هذا العالمِ الجليلِ ؛ والمُصْلِحِ الكبيرِ ، نُقَدِّمُها في إجْمالٍ نجدُ تفاصيلَه مع تفاصيلِ الجوانبِ الأُخرى لابنِ القيِّم في هذا الكتابِ .

نسأَلُ اللَّهَ أَنْ ينفعَ به ؛ وأَنْ يَجْزيَ مؤلِّفَهُ خيرَ الجزاءِ ، وأَنْ يُعِزَّ دينه ، ويُرشِدَ عبادَه بأَمثال ابن القيِّم من العُلماء الأَجلَّاء ، والفقهاء الذين أَراد اللَّهُ بهم خيرًا ، وأَرادوا لأُمَّتِهم النَّفعَ والإِرشاد .

وما توفيقُنا إلَّا باللَّهِ ، عليه توكَّلْنا وإليه أَنَبْنا ، وإليه المصيرُ .

---

(١) انظر « مُنادمة الأَطلال » (ص ٣٧١) لابن بدران . (ع)

(٢) هو شيخ الإِسلام ابن تيميَّة . (ع)

(٣) مِن نَقْل الشيخ عبدالرحمن الوكيل في مقدِّمته لـ « إعلام الموقِّعين » (١ / خ) عن « ذيل طَبَقات الحنابلة » (٢ / ٤٥٠) لابن رَجَب الحنبلي .

« مِفْتاح دار السَّعادة »

أَهَمِّيَّتُهُ * مَنْهَجُهُ

قد يصعُبُ على الباحِثِ – جدًّا – المُوازَنَةُ أَو المُفاضَلَةُ بين مؤلَّفاتِ عالمٍ ما ومُصنَّفاتِه ، فكيف إِذا كانت هذه المؤلَّفاتُ لعالمٍ موسوعيٍّ تتنافسُ مؤلَّفاتُهُ فيما بينَها أَيُّها أَعلى وأَغلى وأَحلى !!

وهذا الكتابُ الّذي بين أَيدينا مِن أَدَلِّ الشواهِدِ على ذلك وأَوضحِها ، فهو كتابٌ شاملٌ لكثيرٍ من المعارِف العلميَّةِ ، والفوائدِ الحديثيةِ والفِقْهيَّةِ ، وغير ذلك ..

ولِمَعرِفةِ ذلك أَعقدُ هذا المبحثَ بالمقاطع التالية :

١ – حول اسمِ الكتابِ واستمدادِهِ :

قال المؤلِّفُ – رحمه اللَّه – في (٢ / ٦٧) :

« التَّفكُّرُ والتَّذكُّرُ أصلُ الهُدى والصلاحِ ، وهما قُطبا السَّعادَةِ .

ولهذا وسَّعْنا الكلامَ في الفِكرِ في هذا الوجهِ ، لِعِظَمِ المنفعَةِ وشدَّةِ الحاجَةِ إِليهِ ، قال الحَسَنُ : ما زالَ أهلُ العلمِ يعودونَ بالتَّذكُّرِ على التَّفكُّرِ ، وبالتَّفكُّرِ على التَّذكُّرِ ، ويُناطقونَ القلوبَ حتى نَطَقَت ؛ فإذا لها أسماعٌ وأبصارٌ .

فاعْلَمْ أنَّ التفكُّرَ طلبُ القلبِ ما ليسَ بحاصِلٍ من العلومِ من أمرٍ هو حاصلٌ منها ، هذا حقيقتُهُ ؛ فإنَّهُ لو لم يَكُن ثَمَّ مُوَادُّ تكونُ مَوْرِدًا للفكرِ استحالَ

الفكرُ ، لأنَّ الفكرَ بغيرِ مُتعلّقٍ مُتفكَّرٍ فيه مُحالٌ ، وتلكَ الموادُّ هي الأُمورُ الحاصلَةُ ، ولو كانَ المطلوبُ بها حاصلًا عندَهُ لم يَتفكَّر فيهِ .

فإذا عُرِفَ هذا فالمُتفكِّرُ ينتقلُ من المقاماتِ والمبادىء التي عندَهُ إلى المطلوبِ الذي يُريدهُ ، فإذا ظَفِرَ به وتحصَّلَ له تذكَّرَ به ، وأبصَرَ مواقعَ الفعلِ والتَّركِ ، وما ينبغي إيثارُهُ وما ينبغي اجتنابُهُ ، فالتَّذكُّرُ هو مقصودُ التَّفكُّرِ وثمرتُهُ ، فإذا تَذكَّرَ عادَ بتذكُّرِهِ على تفكُّرِهِ فاسْتَخْرجَ ما لم يكُن حاصلًا عندهُ ، فهو لا يزالُ يُكرِّرُ بتفكُّرِهِ على تذكُّرِهِ ، وبتذكُّرِهِ على تفكُّرِهِ ما دامَ عاقلًا ؛ **لأنَّ العلمَ والإرادَةَ لا يقفانِ على حدٍّ ، بل هو دائمًا سائرٌ بينَ العلمِ والإرادَةِ .**

وإذا عَرَفْتَ معنى كونِ آياتِ الرَّبِّ تباركَ وتعالى تَبصِرَةً وذكرى يُتبصَّرُ بها من عَمَى القَلبِ ، ويُتذكَّرُ بها من غفلتهِ ، فإنَّ المُضادَّ للعلمِ إمَّا عَمى القَلبِ ؛ وزوالُهُ بالتَّبصُّرِ ، وإمَّا غفلتهُ ؛ وزوالُهُ بالتَّذكُّرِ .

والمقصودُ تنبيهُ القَلبِ مِنْ رَقدتهِ بالإشارَةِ إلى شيءٍ من بَعضِ آياتِ اللَّهِ ، ولو ذَهَبْنا نتتبَّعُ ذلكَ لَنَفِدَ الزَّمانُ ولم نُحِطْ بتفصيلِ واحدَةٍ من آياتهِ على التَّمامِ ، ولكنْ ما لا يُدْرَكُ جُملَةً لا يُتْرَكُ جُملةً .

وأحسَنُ ما أُنفِقَتْ فيه الأنفاسُ التَّفكُّرُ في آياتِ اللَّهِ وعجائبِ صُنعهِ ، والانتقالُ منها إلى تعلُّقِ القَلبِ والهمَّةِ به دونَ شيءٍ من مخلوقاتهِ .

فلذلكَ عَقَدْنا هذا الكتابَ على هذين الأصلين ؛ إذ هما أفضلُ ما يكتسبهُ العَبدُ في هذه الدَّار » .

أَقولُ : وهذا ما أَشارَ إليه ناسخُ المخطوطةِ البغدادية حيثُ كَتَبَ على طُرَّتِها : « موضوع هذا الكتاب التفكُّر والتذكُّر ، كما أَشار إلى ذلك المؤلِّفُ في بعض

فصولِه » .

وقال المؤلِّف - رحمه اللَّه - (١ / ٢١٤) :

« **والـمَقصودُ** أنَّ اللَّهَ سبحانهُ وتعالى لـمّا اقتَضَتْ حِكمتُهُ ورحمتُهُ إخراجَ آدمَ وذُرِّيَّتِهِ من الجنَّةِ أعاضَهُم أفضلَ منها ، وهو ما أعطاهُم مِن عَهدِهِ الذي جَعَلَهُ سببًا مُوصِلًا لهم إليه ، وطريقًا واضحًا بيِّنَ الدَّلالةِ عليه ؛ مَن تمسَّكَ به فازَ واهتَدى ، ومَن أعرَضَ عنهُ شَقِيَ وغَوى .

ولـمّا كان هذا العَهدُ الكريمُ والصِّراطُ المُستقيمُ والنَّبأُ العظيمُ لا يُوصَلُ إليه أبدًا إلّا مِن بابِ العلمِ والإرادَةِ - فالإرادَةُ بابُ الوصولِ إليه، والعلمُ مِفتاحُ ذلك البابِ المتوقِّفِ فتحُهُ عليه - وكمالُ كلِّ إنسانٍ إنَّما يَتِمُّ بهذين النَّوعين : **هِمَّةٌ تُرقِّيهِ ، وعلمٌ يُبَصِّرهُ ويَهديهِ**؛ فإنَّ مراتبَ السَّعادَةِ والفَلاحِ إنَّما تفوتُ العَبدَ من هاتَين الجهتَين، أو مِن إحداهُما، إمَّا أنْ لا يكونَ له علمٌ بها ، فلا يتحرَّكُ في طَلَبِها، أو يكونَ عالمًا بها ولا تنهَضُ هِمَّتُهُ إليها ، فلا يَزالُ في حضيضِ طَبعِهِ محبوسًا، وقلبهُ عن كمالِهِ الذي خُلِقَ له مصدودًا منكوسًا، قد أسامَ نفسَهُ مع الأنعامِ راعيًا مع الهَمَلِ، واستطابَ لُقَيماتِ الرَّاحةِ والبطالَةِ، واستَلانَ فِراشَ العجزِ والكَسَلِ، لا كَمَن رُفِعَ له عَلَمٌ فشمَّرَ إليه، وبُورِكَ له في تفرُّدِهِ في طريقِ طلبهِ، فَلَزِمَهُ واستقامَ عليه، قَد أَبَتْ غَلَباتُ شوقِهِ إلّا الهجرَةَ إلى اللَّهِ ورسولِهِ، ومَقَتَتْ نفسُهُ الرُّفقاءَ إلّا ابنَ سبيلٍ يُرافِقُهُ في سبيلِهِ .

ولـمّا كانَ كمالُ الإرادَةِ بحسبِ كمالِ مُرادها - **وشَرفُ العلمِ تابعٌ لشرفِ معلومِهِ** - كانت نهايَةُ سعادَةِ العَبدِ - الذي لا سعادَةَ له بدونها، ولا حياةَ له إلّا بها - أن تكونَ إرادتُهُ مُتعلِّقَةً بالمرادِ الذي لا يَبلى ولا يَفوتُ،

وعَزمَاتُ هِمَّتهِ مُسافرَةً إلى حضرَةِ الحيِّ الذي لا يموتُ، ولا سبيلَ له إلى هذا المطلبِ الأسنى والحظِّ الأوفى، إلّا بالعلمِ الموروثِ عن عبدِهِ ورسولِهِ وخليلِهِ وحبيبِهِ الذي بَعَثَهُ لذلكَ داعيًا، وأقامَهُ على هذا الطَّريقِ هاديًا، وجَعَلَهُ واسِطةً[١] بينَهُ وبينَ الأنامِ، وداعيًا لهم بإذنِهِ إلى دارِ السَّلامِ، وأبى سبحانهُ أن يفتحَ لأحدٍ منهم إلّا على يديهِ، أو يَقْبَلَ من أحدٍ منهم سعيًا إلّا أن يكونَ مُبتدئًا منه ومُنتهيًا إليه، فالطُّرقُ كلُّها إلّا طَريقَهُ ﷺ مسدودةٌ، والقلوبُ بأسرِها إلّا قلوبَ أتباعِهِ المُنقادَةَ إليه عن اللَّهِ محبوسةٌ مصدودةٌ .

فَحُقَّ على مَن كانَ في سعادَةِ نفسِهِ ساعيًا، وكان قلبهُ حيًّا عن اللَّهِ واعيًا ، أن يجعلَ على هذين الأصلينِ مدارَ أقوالِهِ وأعمالِهِ، وأن يُصَيِّرَها آخِيَّتَهُ[٢] التي إليها مَفزعُهُ في حياتِهِ ومآلِهِ، فلا جَرمَ كان وَضعُ هذا الكتاب مُؤسَّسًا على هاتينِ القاعدَتين، ومقصودُهُ التَّعريفَ بشرفِ هذين الأصلين، وسمَّيتُهُ « **مِفتاحَ دارِ السَّعادَةِ ومنشورَ وَلايَةِ أَهْلِ العلمِ والإرادَةِ** » ؛ إذ كانَ هذا من بعضِ النُّزْلِ[٣] والتُّحَفِ التي فتحَ اللَّهُ بها عَلَيَّ حينِ انقطاعي إليه عندَ بيتِهِ[٤]، وإلقائي نفسي ببابِهِ ، مِسكينًا، ذليلًا، وتعرُّضي لِنَفحاتِهِ في بيتِهِ، وحولَه بكرَةً وأصيلًا، فما خابَ من أنزلَ به حوائجَهُ، وعلَّقَ به آمالَهُ، وأصبحَ ببابِهِ مُقيمًا، وَبِحِماهُ نزيلًا .

ولـمّا كان العِلمُ إمامَ الإرادَةِ، ومُقدَّمًا عليها، ومُفصِّلًا لها، ومُرشِدًا لها قَدَّمْنا الكلامَ عليه على الكلامِ على المحبَّةِ .

---

(١) واسطَةَ تبليغٍ ودعوةٍ وهدايةٍ .

(٢) الآخِيَّة : هي مثلُ عُروةٍ تُشَدُّ إليها الدابّةُ .

(٣) العطاء .

(٤) هذه إشارةٌ مِن المؤلِّف رحمه اللَّه أنَّه صنَّف كتابَهُ هذا في جوار الكعبةِ ، ولعلَّه كان مُعتكفًا فيها ، وانظر ما سيأتي (٢ / ١٧١) من هذا الكتاب ، واللَّهُ تعالى أعلمُ .

ثمَّ نُتْبِعُهُ - إن شاءَ اللّهُ بعدَ الفراغِ منه - كتابًا في الكلامِ على المحبّةِ[١] أقسامِها، وأحكامِها، وفوائدِها، وثمراتِها، وأسبابِها، وموانِعِها، وما يُقوِّيها، وما يُضعِفُها، والاستدلالِ بسائرِ طُرُقِ الأدلّةِ من النَّقلِ والعقلِ والفِطرَةِ والقياسِ والاعتبارِ والذّوقِ والوَجْدِ[٢]، على تعلُّقها بالإلهِ الحقِّ الذي لا إلهَ غيرُهُ، بل لا يَنبَغي أن تكونَ إلّا له، ومِن أجلِهِ، والرَّدُّ على مَن أنكَرَ ذلك، وتبيينِ فسادِ قولِهِ عقلًا ونقلًا ، وفطرَةً وقياسًا ، وذوقًا وَوَجْدًا .

فهذا مضمونُ هذه التُّحفَة، وهذه عرائسُ معانيها الآن تُجْلَى[٣] عليكَ، وخُودُ[٤] أبكارِها البَديعَةِ الجمالِ تَرْفُلُ في حُلَلِها وهي تُزَفُّ إليكَ، فإمّا شمسٌ منازلُها بسعدِ الأسعَدِ، وإمّا خُودٌ تُزَفُّ إلى ضريرٍ مُقعَدٍ، فاختَرْ لنفسِكَ إحدى الخُطَّتين، وأنزِلْها فيما شئتَ من المنزلتين، **ولا بدَّ لكلِّ نعمَةٍ من حاسدٍ، ولكلِّ حقٍّ من جاحدٍ ومعاندٍ** .

هذا ، وإنَّ ما أُودِعَ من المعاني والنَّفائسِ رَهْنٌ عند مُتأمِّلِهِ ومُطالعِهِ ، له غُنْمُهُ وعلى مُؤلِّفِهِ غُرْمُهُ، وله ثمرتُهُ ومنفعتُهُ ولصاحبِهِ كَدَرُهُ ومشقَّتُهُ ، مع تعرُّضِهِ لمطاعنِ الطّاعنين، ولاعتراضِ المناقشين .

وهذه بضاعتُهُ المُزجاةُ وعقلُهُ المكدودُ يُعرَضُ على عقولِ العالَمينَ ،

---

(١) للمصنِّف رحمه اللّه كتابُ « عَقد مُحكَم الأَحبّاء .. » ، أَشار إِليه ابنُ رجب في « ذيل الطبقات » (٢ / ٤٤٩) ، وله أَيضًا كتابُ « روضة المحبِّين » ، وهو مطبوعٌ في مجلَّد كبير .

(٢) إشارة من المصنِّف رحمه اللّه إلى أذواق الصوفيّة ومواجيدهم التي يضعونها في غير مواضعها، ويصرفونها إلى غير جهتها الحقّة .

(٣) أي : تُكشَفُ ويُنظَرُ إليها .

وإلقائِهِ نفسَه وعِرْضَهُ بين مخالبِ الحاسدين، وأنيابِ البُغاةِ المُعتدين .

فلكَ أيُّها القارئُ صَفوُهُ ، ولمؤلِّفِهِ كَدَرُهُ - وهو الذي تجشَّمَ غِراسَهُ وتَعبَهُ - ولك ثمرُهُ، وها هو قد استُهدِفَ لسهام الرَّاشقين، واستَعذرَ إلى اللَّهِ من الزَّلَلِ والخطأِ، ثمَّ إلى عبادِهِ المُؤمنين » .

(**تنبيه**) : مِن النُّقول السابقة - أَخي القارئَ - يظهر لك أَمران مهمّان :

الأَوَّل : تسميةُ المؤلِّف لكتابِه « مِفْتاح دار السَّعادة ، ومنشور وَلَايَة أَهل العلم والإِرادة » ، وهي التسميةُ الموافقةُ لما جاء على غلاف النُّسخة المخطوطة البغداديَّة .

وطُبعت بعض طَبَعات الكتاب بحذف لفظ (أَهْل) ، وهو هكذا - أَيضًا - في غلاف النسخة المخطوطة السعوديَّة .

وسمَّاه مؤلِّفُه في « مدارج السَّالكين » (١ / ٩١) : « مِفْتاح دار السعادة ومطلب أَهل العلم والإِرادة » .

وأَفاد فضيلةُ الشيخ بكر أَبو زيد في كتابِه « ابن القيِّم » (ص ٣٠٢) أَنَّ الشيخ محمَّد بن عبدالعزيز بن مانع كان يعتبر صحّة عنوان الكتاب « .. ومنشور أَلوية العلم والإِرادة »[1].

واللَّهُ تعالى أَعلم .

الثاني : سببُ هذه التسمية ، ومبنى الكتاب عليها .

---

(١) وقد أَشار إلى هذه التسمية الأُستاذ عبدالجبَّار عبدالرحمن في « ذخائر التراث الإِسلامي » (١ / ٢٢٤) مُشيرًا إِلى أَنَّ طبعاتِه الأُولى قبل نحو قرنٍ من الزَّمن طُبعت بهذا الاسم . وانظر ما سيأَتي (ص ٤٥) .

٢ - منهج المؤلِّف في كتابِه :

لمَّا بنىٰ المُؤلِّفُ كتابَه على أَصْلَيِ **العلم والإرادة** ، وما لازَمَهما من موضوع التفكُّر والتذكُّر ؛ أفاضَ كثيرًا ، فأَدّاهُ ذلك إلى طَرْقِ موضوعاتٍ شتّى ، فقال في (٢ / ١٨٢) بعد استطرادِه حول مسأَلة الحِكمةِ : « .. وهذا فصلٌ معترضٌ ، وهو أَنفعُ فصول الكتاب ، ولولا الإِطالة لوسَّعْنا فيه المقال ، وأَكثرنا فيه مِن الشواهد والأَمثال .

ولقد فتح اللّٰهُ الكريمُ فيه الباب ، وأَرشد فيه إلى الصواب ، وهو المرجوُّ لتمام نعمتهِ ، ولا قوّة إلّا باللّٰه العليِّ العظيم » .

وقال في (٢ / ٢٤٥) بعد بيان منّة اللّٰهِ على خلقِه :

« فتدَبَّرْ هذا الفَصْلَ ؛ فإِنّه مِن الكُنوز في هذا الكتاب ، وهو حقيقٌ بأَنْ تُثنى عليه الخناصرُ ، وللّٰه الحمدُ والمنّة » .

وقال في خاتمة كتابِه :

« ولْيَكُن هذا آخرَ الكتاب ؛ وقَد جلبتُ إليكَ فيهِ نفائسَ في مثلها يتنافس المتنافسون ، وجَلَّيْتُ عليكَ فيه عرائسَ إلى مثلهنَّ بادَرَ الخاطِبون :

فإِنْ شئتَ اقتبَسْتَ منهُ معرفَةَ العلمِ وفضلِهِ ، وشدَّةِ الحاجَةِ إليهِ وشرفِهِ وشرف أهلِهِ ، وعِظَمِ موقعهِ في الدَّارين .

وإِنْ شئتَ اقتبَسْتَ منهُ معرفَةَ إثْباتِ الصَّانعِ بطُرُقٍ واضحاتٍ جليّاتٍ تَلِجُ القلوبَ بغيرِ استئذانٍ ، ومعرفَةَ حكمتهِ في خَلْقِهِ وأمرِهِ .

وإِنْ شئتَ اقتبسْتَ منهُ معرفَةَ قَدْرِ الشريعَةِ ، وشدَّة الحاجَةِ إليها ، ومعرفَةَ جلالتها وحكمتها .

وإِنْ شئتَ اقتبَسْتَ منهُ معرفَةَ النبوَّةِ وشدَّةِ الحاجَةِ إليها ، بل وضرورَةِ

الوجودِ إليها ، وأَنَّهُ يستحيلُ مِن أحكمِ الحاكمين أن يُخْلِيَ العالَمَ عنها .

وإنْ شئتَ اقتبَستَ منهُ معرفَةَ ما فطرَ اللَّهُ عليهِ العُقولَ مِن تحسينِ الحَسَنِ وتقبيحِ القبيح ، وأَنَّ ذلكَ أمرٌ عقليٌّ فِطْريٌّ ، بالأدلَّةِ والبراهين التي اشتملَ عليها هذا الكتابُ ، ولا تُوجدُ في غيرِهِ .

وإنْ شئتَ اقتبَسْتَ منهُ معرفَةَ الرَّدِّ على المُنجِّمين القائلين بالأحكامِ بأبلغِ طُرُقِ الرَّدِّ مِن نفسِ صناعتِهم وعِلْمِهم ، وإِلْزامِهم بالإِلْزامات المُفْحِمة التي لا جوابَ لهم عنها ، وإِبْداءِ تناقُضِهِم في صناعتِهم ، وفضائحِهم وكذبِهم على الخَلْقِ والأمرِ .

وإنْ شئتَ اقتَبستَ منهُ معرفَةَ الطِّيرَةِ والفألِ والزَّجْرِ ، والفَرْقِ بينَ صحيحِ ذلكَ وباطلِهِ ، ومعرفَةَ مراتبِ هذه في الشريعَةِ والقَدَرِ .

وإنْ شئتَ اقتبَسْتَ منهُ أُصولًا نافعَةً جامعَةً مما تَكْمُلُ بهِ النَّفسُ البشريَّةُ ، وتَنالُ بها سعادتَها في معاشِها ومعادِها ...

... إلى غيرِ ذلكَ منَ الفوائدِ التي ما كانَ منها صوابًا فمنَ اللَّهِ وحدهُ هو المانُّ به، وما كانَ منها من خطأ فمن مؤلِّفه ومنَ الشيطان، واللَّهُ بريءٌ منهُ ورسولهُ » .

وهذا يدفَعُنا إلى الوقوفِ على :

٣ - طريقته في الاستدلال والبحث والترجيح :

قال في آخرِ مقدّمتِه (١ / ١٧٤) بعد بحثِه مسأَلةَ جنَّة آدم ، هل هي جنَّةُ الخُلد أَم غيرها ؟ :

« فهذا موقفُ نَظرِ الفريقين، ونهايةُ إقدامِ الطَّائفتَين، فمَن كان عنده فضلُ علمٍ في هذه المسألة فَلْيَجُدْ به، فهذا وقتُ الحاجَةِ إليه، ومَن عَلِمَ مُنتهى

خُطوتِهِ، ومِقدارَ بضاعتِهِ فَلْيَكِلِ الأمرَ إلى عالمِهِ، ولا يَرضى لنفسِهِ بالتَّنقيصِ والإزْراءِ عليه ، ولْيكُن من أهلِ التُّلولِ الذين هم نظَّارَةُ الحربِ إذا لم يكُن من أهلِ الكرِّ والفرِّ والطَّعنِ والضَّربِ، فقد تلاقتِ الفُحولُ ، وتطاعنَتِ الأقرانُ ، وضاقَ بهم المجالُ في حلبةِ هذا المَيدانِ :

إذا تلاقى الفُحولُ في لَجَبٍ فَكيفَ حالُ البَعوض في الوَسَطِ

هذه مَعاقِدُ حُجَجِ الطَّائفتَين مُحتازةٌ[1] ببابكَ، وإليكَ تُساقُ، وهذه بضائعُ تُجَّار العلماءِ يُنادى عليها في سوقِ الكسادِ، لا في سوقِ النَّفاقِ، فمَن لم يكن لديهِ به شيءٌ من أسبابِ البيانِ والتَّبصِرَةِ فلا يَعْدِمْ مَنْ قَد استَفرغَ وُسعَهُ، وبَذَلَ جُهدَه مِن التَّصويبِ والمَعذِرَةِ، ولا يَرضى لنفسه بشرِّ الخُطَّتين وأبخَسِ الحَظَّين؛ جَهْلِ الحقِّ وأسبابِهِ، ومُعاداةِ أهلهِ وطُلّابهِ .

إذا عَظُمَ المَطلوبُ وأعْوزَكَ الرَّفيقُ النَّاصحُ العليمُ فارْحَلْ بهمَّتِكَ من بين الأمواتِ، وعليكَ بمُعلِّم إبراهيم ؛ فَقد ذَكَرْنا في هذه المسألةِ من النُّقولِ والأدلَّةِ والنُّكتِ البديعَة ما لعلَّهُ لا يُوجَدُ في شيءٍ من كتبِ المُصنِّفين، ولا يَعرِفُ قَدْرَهُ إلّا مَن كان مِنَ الفُضلاء المُنْصِفين .

ومِنَ اللّهِ سبحانه الاستمدادُ، وعليه التوكُّلُ وإليه الاستنادُ، فإنَّهُ لا يخيبُ مَن توكَّل عليه ، ولا يَضيعُ مَن لاذَ به ، وفوَّضَ أمرَهُ إليه ، وهو حَسبُنا ونِعمَ الوَكيلُ » .

وهذا المنهَجُ عند المؤلِّف - رحمه اللّه - انتشر في جميع مُؤلَّفاتِه ؛ فها هو يقولُ في كتابِه النَّافع « الفروسيَّة » (ص ٣٤٢) :

« فتأمَّلْ أَيها المُنْصِفُ هذه المذاهبَ ، وهذه المآخذَ ؛ لِتَعْلَمَ ضعفَ بضاعةِ

---

(١) مِن (الاحتياز) وهو الضمُّ والامتلاكُ .

مَنْ قمَّش شيئًا من العلم مِن غير طائلٍ ، وارتوى من غير مَوْرِدٍ ، وأَنكر غيرَ القولِ الذي قلَّده بلا علمٍ ، وأَنكر مَنْ ذَهبَ إِليه ، وأَفتى به ، وانْتَصرَ له ، وكأَنَّ مذهَبه وقولَ مَن قلَّده عِيارٌ على الأُمَّة ، بل عِيَارٌ على الكتابِ والسنَّةِ ، فهو المُحْكَمُ ونصوصُها مُتشابهةٌ ! فما وافق قولَ مَن قلَّده منهما ؛ احتجَّ به ، وقرَّره ، وصالَ به ! وما خالفه ؛ تأَوَّله ، أَو فوَّضه ! فالميزانُ الراجحُ هو قولُه ، ومذهبُه ، قد أَهْدَرَ مذاهبَ العلماءِ من الصَّحابةِ والتابعين وأَئمَّة المُسلمين ، فلا ينظرُ فيها إِلَّا نظرَ من ردَّها راغبًا عنها ، غيرَ مُتَّبعٍ لها ، حتى كأَنَّها شريعةٌ أُخرى !!

ونحنُ نبرأُ إِلى اللَّهِ من هذا الخُلُق الذّميم ، والمَرْتَعِ الذي هو على أَصحابه وَخيم ، ونُوالي عُلماءَ المسلمين ، ونتخيَّرُ من أَقوالهم ما وافق الكتابَ والسنَّة ، وَنَزِنُها بهما ، لا نزِنُهُما بقولِ أَحدٍ ؛ كائنًا مَن كان ، ولا نتَّخذُ من دون اللَّه ورسولِه رجلًا يُصيب ويُخطئ ، فنتَّبعُهُ في كُلِّ ما قال ، ونمنعُ - بل نُحرِّمُ - مُتابعةَ غيرهِ في كلِّ ما خالفه فيه .

وبهذا أَوصانا أَئمةُ الإِسلام ، فهذا عهدُهم إِلينا ، فنحنُ في ذلك على منهاجِهم وطريقِهم وهَدْيِهم ؛ دونَ مَن خالفَنا ، وباللَّهِ التوفيقُ » .

وقال في « طريق الهجرتين » (ص ٣٩٣) :

« عادتُنا في مسائل الدين كلِّها ، دِقِّها وجِلِّها ، أَنْ نقولَ بموجبها ، ولا نضربَ بعضَها ببعض ، ولا نتعصَّب لطائفةٍ على طائفة ، بل نُوافق كلَّ طائفةٍ على ما معها من الحقّ ، ونخالفُها فيما معها من خلاف الحقِّ ، لا نستثني من ذلك طائفةً ولا مقالةً ، ونرجو من اللَّه أَنْ نحيا على ذلك ، ونموتَ عليه ، ونلقى اللَّهَ به ، ولا قوَّةَ إِلَّا باللَّهِ » .

قال راقمُ هذه الحروف : وهذا منهجُنا ، وبه نَدينُ ، وعلى سَوِيّتِه نَمْشي ، والله الموفِّق .

وانظر أَخي القارئَ - لزيادة الفائدة - « مختصر الصواعق المرسلة » (١ / ١١٢) ، و « مدارج السالكين » (٢ / ٣٩٠) ، و « إِعلام الموقّعين » (٤ / ٢٥٠) ، كلّها للمصنِّف رحمه الله .

٤ - حول تَقْسيم الكتاب :

ذكر غيرُ واحدٍ مِن المُعْتَنين بهذا الكتاب ، دراسةً ، وتحقيقًا ، واختصارًا أَنَّ كتابَ « المِفْتاح » قسمان ..

وهذا كلامٌ صحيحٌ جدًّا وهو ما صرَّح به مُصنِّفُهُ رحمه اللهُ في مواطنَ :

فقال في (٢ / ٣٠٩ - ٣١٠) بعد كلامٍ : « وقد ذكرنا فصلًا مختصرًا في دلالةِ خَلْقِه على وحدانيّـته ، وصفات كمالِه ، ونُعوت جلالِه ، وأَسمائه الحُسنى ، وأَرَدْنا أَن نختمَ به **القسمَ الأَوّلَ** مِن الكتاب ، ثمَّ رأَينا أَنْ نُتْبِعَه فَصْلًا في دلالةِ دينِه وشرعِه على وحدانيَّته وعلمِه ، وحكمتِه ورحمته ، وسائر صفات كماله .. » .

وقال في (٢ / ٢٦٥) بعد أَنْ ذكر وجوبَ ابتهال العبد لربِّه ، وتضرُّعِهِ على بابِه : « وعسى أَن يَجيئَكَ في **القسم الثاني** مِن الكتاب ما تقرُّ به عينُك إِنْ شاء الله » .

فما هي حقيقة تقسيم الكتاب ؟!

وما هو مقدارُهُ الأَساس ؟!

قال فضيلةُ الأَخ الكبير الشيخ بكر أَبو زيد في كتابِه القَيِّم « ابن القيِّم ؛ حياته وآثاره » (ص ٣٠١) :

« والكتاب يتكون من قسمين في مجلد ، وقد أُبرِزَ في طبعته الأُولى كذلك ، أَمَّا في طبعة الأُستاذ محمود حسن الربيع فبدون تجزئة ، وتجزئة الكتاب إِلى قسمين هو الذي يوافق صنيع المؤلِّف رحمه اللَّه تعالى فإِنَّه قد أَشار في مواضعَ منه إِلى أَنَّ كتابه هذا يتكون من قسمين » .

ونَقَله عنه أَخونا الفاضل سليم الهلالي في « تنقيح الإِفادة » (١ / ١٤) ، وَوافَقَهُ .

« وقد وفّى ابن القيِّم رحمه الله تعالى بذلك ، فتكونُ صورةُ الكتابِ على ما يأتي :

أَولًا : مقدّمةٌ حافلةٌ ؛ أَقامَها على حكمةِ اللهِ سبحانه وتعالى في قصّةِ آدمَ عليه السلام ، ثمّ استطردَ فيها بتحريرِ الخلافِ حولَ الجنّةِ التي أُهْبِطَ منها ، ثمّ بيّنَ طريقتَه في كتابِه ، وأَنّه بناه على أَصلين . (١ / ١٠٣ - ٢١٨) .

ثانيًا : الأَصل الأَوّل من موضوعِ الكتابِ في (العلم) ، وفصّل في مبحثِ التفكُّرِ والتذكُّرِ بذكرِ حكمةِ التشريعِ ، وحكمتهِ عزّ وجلّ في مخلوقاتِه ، (١ / ٢١٩) إِلى (٢ / ٤٠٩) ، وهذا معظم الكتاب .

ثالثًا : الأَصل الثالث في (الإِرادة) ، وتضمّن ذلك البحث موضوع الحُسن والقُبح العقليّيْن ، إِلى آخرِ الكتاب ، (٢ / ٤١٩ إِلى ٣ / ٣٩٠) .

مع ما لابن القيِّم رحمه الله - خلال ذلك - من استطرادات »[1] .

---

(١) من أَوّل القوسين إِلى هنا من إِملاء الشيخ بكر أَبو زيد حفظه الله

قلتُ : وللمصنِّف رحمه الله كلامٌ في كتابِه يسْتَرعي الانتباه ، ويستَدْعي الوقوفَ والتأمُّلَ :

الموضع الأوَّل : قوله في (٢ / ٥٠٩) أَثناءَ ردِّه على المتكلِّمين الذين جعلوا الطَّاعةَ صادرةً عن خوفٍ مَحْضٍ دون محبّةٍ :

« وسنذكر في **القسم الثاني** (١) - إِنْ شاء اللّٰه - مِن هذا الكتاب بُطلانَ هذا المذهب مِن أَكثر من مئة وجه » .

وكرّر نحو هذا الكلام في (٢ / ٢٦٥ و ٤٤٨) و (٣ / ٢٦) .

أَقولُ : وهذا ما لم أَره واضحًا في كتابنا هذا ...

الموضع الثاني : قال في (٢ / ٤٥٢) :

« وسنذكر - إِنْ شاء اللّٰه - فصلًا فيما بعد نُبيِّن فيه أَنَّ جميع أَرباب المذاهب الباطلة سُوفِسْطائيَّة ، صريحًا ولزومًا ، قريبًا وبعيدًا » .

أَقولُ : وهذا كسابقهِ أَيضًا ؛ فسائر ما بعدَه في الرد على المُنَجِّمين وما يتّصل بأَحكامِهم .

فهذه مواضعُ بحثٍ وتأمُّلٍ للدارسين والباحثين .

والله - تعالى - الموفِّقُ للصواب ...

---

(١) وكلامُه هذا في منتصف المجلّد الثاني من المطبوعات القديمة !! فتأمَّلْ .

تَقْيِيمُ الكتابِ

على الرَّغمِ من كثرةِ مُراجَعَتي لكلامِ أَهل العلمِ حولَ هذا الكتاب ، لم أَجد منهم إِلَّا الثناءَ العَطِر ، والذِّكْرَ الطَّيِّبَ ، وتعظيمَ المؤلِّف ، وتبجيلَ مباحثِه ومعارفِه المطروقةِ في كتابِه هذا ...

وحُقَّ لهم ذلك ؛ لأَنَّ الإِمامَ ابنَ القيِّم - رحمه اللَّه - معروفٌ عند القاصي والداني بجودة البَحْثِ ، وقُوَّةِ الاستدلال ، ومتانةِ العبارة ، وجزالةِ اللفظ ، وضَبْطِ المعاني ، وسَلاسَةِ الإِنْشاء ...

وهذا كلُّهُ لا يمنعُ مِن توجيهِ نَقْدٍ ، أَو بيان خَطَأٍ ، أَو كشف وَهَمٍ ، فهذه طبيعةُ البَشَر ، ولا يَغُضُّ ذلك مِن قَدْر المُنْتَقَد بحالٍ من الأَحوالِ[1] .

وإِنَّ أَهمَّ ما وُجِّهُ لمؤلِّفنا من نَقْدٍ إِنَّما يتعلّق بترتيب الكتابِ :

قال المؤلِّف في (٢ / ٤٤) : « ونحن نذكر هنا فُصولًا منثورةً ، وإِنْ تضمَّنت بعضَ **التكرار وتركَ الترتيب** في هذا المقام الّذي هو أَهمُّ فُصولِ الكتاب .. » .

وقال في (٢ / ٢٠٠) : « فلا تَسْتَطِل هذا الفَصْل ، **وما فيه من نوع تكرارٍ** يشتملُ على مزيد فائدةٍ ؛ فإِنَّ الحاجةَ إِليه ماسّةٌ ، والمنفعةَ عظيمةٌ » .

---

(١) لا كمن يحسِبُ النَّقدَ تنقيصًا ، والتخطئةَ تعدِّيًا !!

وهذا الشيء جعل حاجي خليفة في « كشف الظنون » (٢ / ١٧٦١) يقول : « هو كتابٌ كبيرُ الحجم ، **وليس بمُرتَّب** » .

ومِمَّا يُضاف إلى ذلك مِن نَقْدٍ :

أ - وجودُ بعض المرويّات الضعيفةِ التي لم يُبيِّن ضعفَها ، ولم يكشف وهاءَها .

وقد بيّنتُ ذلك - بحمد اللَّه - في التعليق عليه .

ب - التوسُّع في الردّ على أَهل البدع ، من المُنجِّمين والمُتَطَيِّرين ونحوهِم ، مَعَ أَنَّه يكفيه في ردِّه عليهم النَّزْرُ اليسيرُ ، وهذا الأَمرُ جَعَلَ بَعْضَ وجوهِ الردِّ لا تبدو في موضعها اللائق بها مِن حيثُ القوَّة والمتانة .

ج - استعمالُ مُصطلحات فلسفيَّة وكلاميَّة غامِضة، دون بيانِها وشَرْحها، مِمّا يُعسِّرُ على القارئ - وبخاصّة في هذه العصور المتأخّرة - فهمَها واستيعابَها .

... وهذا كلُّه - كما ذكرتُ ، وأُكرِّرُ - لا يَنْقُصُ مِن القيمةِ العلميَّةِ العاليةِ التي تبوَّأَها هذا الكتابُ الفَرْدُ في بابِه ونهجِهِ وأُسلوبِهِ .

نسبة الكتاب إِلى مؤلِّفه

لستُ أَعرفُ أحدًا مِن النَّاس - عالمًا كان أَم جاهِلًا ، مُحبًّا كان أَم حاقدًا - إِلَّا ويُثبِتُ هذا الكتابَ لمؤلِّفنا الهُمام رحمه اللَّه تعالى .

ومِن باب التأصيلِ العلميِّ ، أَذكر وجوهًا عدَّة تُثْبِتُ بيقينٍ نسبةَ هذا الكتاب إِلى مؤلّفه الإِمام ابن قيِّم الجوزيَّة رحمه اللَّه تعالى :

أَوَّلًا : أَنَّ مخطوطاتِ الكتاب جميعَها تحمل في طُرَّتها اسمَ المؤلِّف .

وبعضُها ذكر ذلك في ختامها أَيضًا .

ثانيًا : أَنَّ أَهل العلم ينقلون عنه ، وينسبونه إِليه ، مثل السيوطي في « شرح سُنن النَّسائي » (٣ / ١٤١) ، والزَّبيدي في « شرح الإِحياء » (١ / ١٨٧) ، وطاش كُبري زاده في كتابِه « مِفْتاح السعادة » (مبحث: علم النجوم) وغيرهم .

ثالثًا : أَنَّ ابنَ القيِّمَ نفسه قد عزا إِليه - ناسبًا إِيَّاه لنفسِه - في عددٍ من مؤلّفاته ؛ كما في « المدارج » (١ / ٩١) و (٣ / ٤٩٠) ، و « زاد المعاد » (٣ / ١١٤) ، و « إِغاثة اللهفان » (٢ / ١٢٥) .

رابعًا : أَنَّ سائر مَن ترجم للمؤلِّف - رحمه اللَّه - ذَكرَ هذا الكتابَ مِن تواليفِه ؛ كابن رجب في « ذيل طبقات الحنابلة » (٢ / ٤٥٠) ، والصَّفدي في

« الوافي بالوفيات » (٢ / ٢٧١) ، وابن حَجَر في « الدرر الكامنة » (٢ / ٢٧١) ، والسيوطي في « بُغية الوعاة » (١ / ٦٣) ، والداوودي في « طبقات المفسِّرين » (٢ / ٩٣) وغيرهم .

خامسًا : أَنَّ الناظرَ في أُسلوب الكتاب ونَظْمِهِ لا يخفى عليه عُلُوُّ نَظْمِه وطريقتِه ، وجمالُ لفظِه وعبارتِه ، وهذا ما **يكاد** يتفرّدُ به ابنُ القيِّم رحمه اللّه ، ويتميَّز به عن سواه .

سادسًا : نقلُهُ عن شيوخِه وأَساتذتِه ، وبخاصَّة شيخ الإِسلام وعَلَم الأَعلام الإِمام ابن تيميَّة رحمه اللَّه تعالى ؛ في مواضعَ مُتَعَدِّدةٍ .

... واللَّهُ المُوفِّقُ .

النُّسَخُ المُعْتَمَدَةُ في التَّحقيقِ
والمنهجُ المُتَّبعُ في ذلك

اعتمدتُ في تحقيقي لهذا الكتابِ المباركِ على ثلاث نُسَخ مخطوطة ؛ واحدةٍ كاملة ، واثنتين ناقصتين :

الأُولى : النُّسخة البغداديَّة المحفوظة في المكتبة القادريَّة ، وعنها صورةٌ في مديرية الآثار العامَّة / حيازة المخطوطات ، برقم (٤٤٠٢١) .

وهي نُسْخَةٌ جيّدةٌ تامّةٌ في مُجلّد واحدٍ ، تقعُ في مئةٍ وسبعٍ وثمانين وَرَقَةً .

وتَبْرُزُ أَهمِّيَّةُ هذه النسخةِ وقيمتُها مِن ناحيتينِ :

الأُولى : أَنَّها منقولةٌ عن نُسخةٍ قُوبِلَتْ على نُسخةِ المُؤلِّفِ رحمه اللَّهُ .

الثانية : أَنَّها مقروءةٌ مِن قِبَلِ العلّامة الشيخ محمود شُكري الآلوسي ، وعليها تصحيحاتٌ وتعليقاتٌ بخطِّه .

وهاتانِ النَّاحيتانِ هما اللَّتان رَفَعَتا قيمةَ هذه النسخةِ وَقَدْرَها ، وإلَّا فإنَّها متأَخِّرةُ النَّسْخ ، حيثُ أَرّخ ناسخُها وقتَ انتهائهِ من نسخها بتاريخ أَحدَ عَشَرَ جمادى الأَولى عام ثلاث مئة وثلاثة وأَلف للهجرة .

وناسخُها هو محمَّد بن علي بن مُلَّا أَحمد سبتةَ البغدادي الحَنَفي[1].

(١) وقد تكرّم بتصويرها لي الأَخ الفاضل إياد عبداللطيف ، أَيَّده اللَّهُ .

النُّسخة الثانية : النسخة المحفوظة في مكتبة حائل في المملكة العربية السعوديَّة ، برقم (٤٥) .

وهي في مجلَّد واحد ، تقع في خمس صفحات ومئتين .

وهي تمثِّل النِّصفَ الأَول من الكتاب .

وناسخُها هو عبدالعزيز بن عُثمان بن رُكبان، وتاريخُ نسخِها يومُ الأَربعاء ، لثلاثٍ مَضَيْنَ من محرَّم سنة (١٣٢١ هـ) .

وهي نسخةٌ - أَيضًا - منقولةٌ عن أَصْلٍ دقيق ، وعليها - في مواضعَ عدّة - سماعاتُ المقابَلة(١).

النُّسخة الثالثة : النسخة المحفوظة في دار الكتب المصريَّة .

وهي قطعةٌ صغيرةٌ من الكتاب تقع في ثنتين وثلاثين ورقةً ، وهي عبارةٌ عن شرح حديث كُميل بن زياد في وصيَّة عليٍّ - رضي اللَّه عنه - له .

وهي ما ضمَّنه المصنِّفُ رحمه اللَّه الوجهَ التاسعَ والعشرين من وجوه تَفْضيل العلمِ(٢).

والنُّسخةُ - فوقَ هذا - ناقصةٌ مِن آخِرِها .

ويظهرُ لي في أَمر هذه النسخةِ شيآن :

الأَول : أَنَّ ناسخًا - أَو عالمًا - أَفرد شرحَ الوصيَّة المذكورة بالتصنيف ، مُسْتَلًّا إيّاها مِن كتابِ « المِفتاح » ، وليست هي قطعةً وُجِدَتْ هكذا مِن الكتاب ..

---

(١) وقد تفضَّل بتصويرها لي الأَخ الفاضل الشيخ عبداللَّه العُبيلان ، حفظه اللَّه ونَفَعَ به .

(٢) انظر (١ / ٢٢٨) من هذا الكتاب .

الثاني : أَنَّها نُسخةٌ قديمةٌ - فيما قدّرْتُ - ، قد تكونُ من منسوخات أَواخر القرن التاسع ، أَو أَوائل القرن العاشر(١)، واللَّهُ أَعلم .

وأَمَّا **منهجي في تحقيق الكتاب** ، فهو كما يأْتي :

١ - قابلتُ النُّسخةَ الثانيةَ على المطبوعِ ، وأَثبتُّ - في أَوائل الكتاب - أَهمَّ الفوارقِ ومواضعِ النقص .

ثمَّ حصلتُ على النُّسخة الأُولى ، فكرَّرتُ المقابلة ، مُثبتًا الصواب ، دون الإِشارة إِلى ما سواه .

والذي دَفَعَني لهذا خشيةُ إِثْقال الكتاب بالحواشي المتضمِّنة لفوارق النُّسخ ، وتصحيحات المطبوع ، ومواضع نقصِه ، ممّا لا يُشَكِّل كبيرَ فائدةٍ لجمهور القُرَّاء .

٢ - ضبطتُ نصَّ الكتابِ ضَبْطًا - أَحْسِبُهُ - تامًّا ، بالشَّكْلِ والحرَكات .

٣ - قسَّمْتُ الكتابَ إِلى فقراتٍ ، مُبيِّنًا بداياتِ الجُمَل ونهاياتِ الكلام ، مُستعينًا على ذلك بعلامات الترقيم والتفصيل .

٤ - عَزَوتُ الآياتِ القرآنيَّةَ إِلى مواضعها مِن كتاب اللَّهِ جلَّ في عُلاه .

٥ - خرَّجْتُ الأَحاديثَ النَّبويَّةَ الواردةَ في الكتابِ ، وكان مَنْهَجي مبنيًّا على ما يلي :

أ - ما كان في « الصيحيحن » أَو أَحدِهما ، اكتفيتُ فيه بالعزْو إِليه .

ب - ما كان خارجَ « الصحيحين » أَو أَحدِهما خرَّجْتُه تَخْريجًا علميًّا مُختصرًا لإِثباتِ صحَّتِه أَو ضعفِه ، وَفْقَ قواعد المحُدِّثين المعروفة .

فإِنْ كان ضعفُهُ يسيرًا تَطَلَّبْتُ له مِن الشواهدِ والمُتابعات ما يُرَقِّيهِ ويرفعُهُ إِلى

---

(١) وقد صوَّرها لي الأَخ الفاضل كمال عويس مُدير دار ابن عفَّان ، فجزاهُ اللَّهُ خيرًا .

درجة الثبوت .

ج - خرَّجْتُ سائرَ ما أشار إِليه المصنِّف من معانٍ وَرَدَتْ في الأَحاديث دون تصريحٍ منه برفعها ، سواءٌ منها ما كان صحيحًا أَو ضعيفًا ، مُبيِّنًا الوجهَ في ذلك .

د - لم أَتقصَّدْ تخريجَ الآثار ، إِلَّا ما سَنَحَ لي وتيسَّر .

هـ - ترجمتُ لعددٍ من الرواة والرِّجال الذين حَسِبْتُ أَنَّ العُثورَ عليهم فيه نوعٌ مِن العُسْر .

و - شَرَحْتُ كثيرًا من الكلماتِ الغريبةِ ، والمصطلحات العلمية التي مَلَأَت الكتاب ، وذكرتُ معانيَها ، ومقاصدَ المؤلِّف من ذكرها .

ز - جلُّ مباحثِ ابن القيِّم رحمه الله في كتابِه هذا حول حكمة المخلوقاتِ موجودةٌ في كتابِه « شفاء العليل » [١] ، فأَغنت هذه الإِشارة هنا عن تكرار العزو هناك .

ح - كتبتُ مقدّمةً للكتابِ ، مُعِينةً على الدخول إِليه .

ط - صنعتُ فهارس علميَّة فنِّية متنوّعة متعدِّدة[٢] ، تُقرِّبُ البعيد ، وتُيَسِّر العسير .

ي - علَّقت على ما سنح في البال بيانُه ، أَو التنبيهُ عليه ، أَو نقدُهُ .

ك - وضعت عناوين فرعيّة بين معكوفين لتسهيل النظر لِمُراجعِه .

... هذا ما وفَّقني اللَّهُ إِليه ، فإِنْ أَصبتُ فبمنَّةِ اللَّه وحده ، وإِنْ قصّرتُ فمن عَجْزي وضَعْفي ...

---

(١) من إِفادات فضيلة الأُستاذ الشيخ بكر أَبو زيد نفع اللهُ به .

(٢) ولقد أَكَّد عَلَيَّ فضيلةُ الأَخ الكبير الشيخ بكر أَبو زيد - مرارًا - بضرورة الاعتناء بفهارس هذا الكتاب ؛ لِما لها من أَهمِّيَّةٍ عُظمى في تسهيل تناوُل فوائدِه ، فجزاه اللهُ خيرَ الجزاءِ .

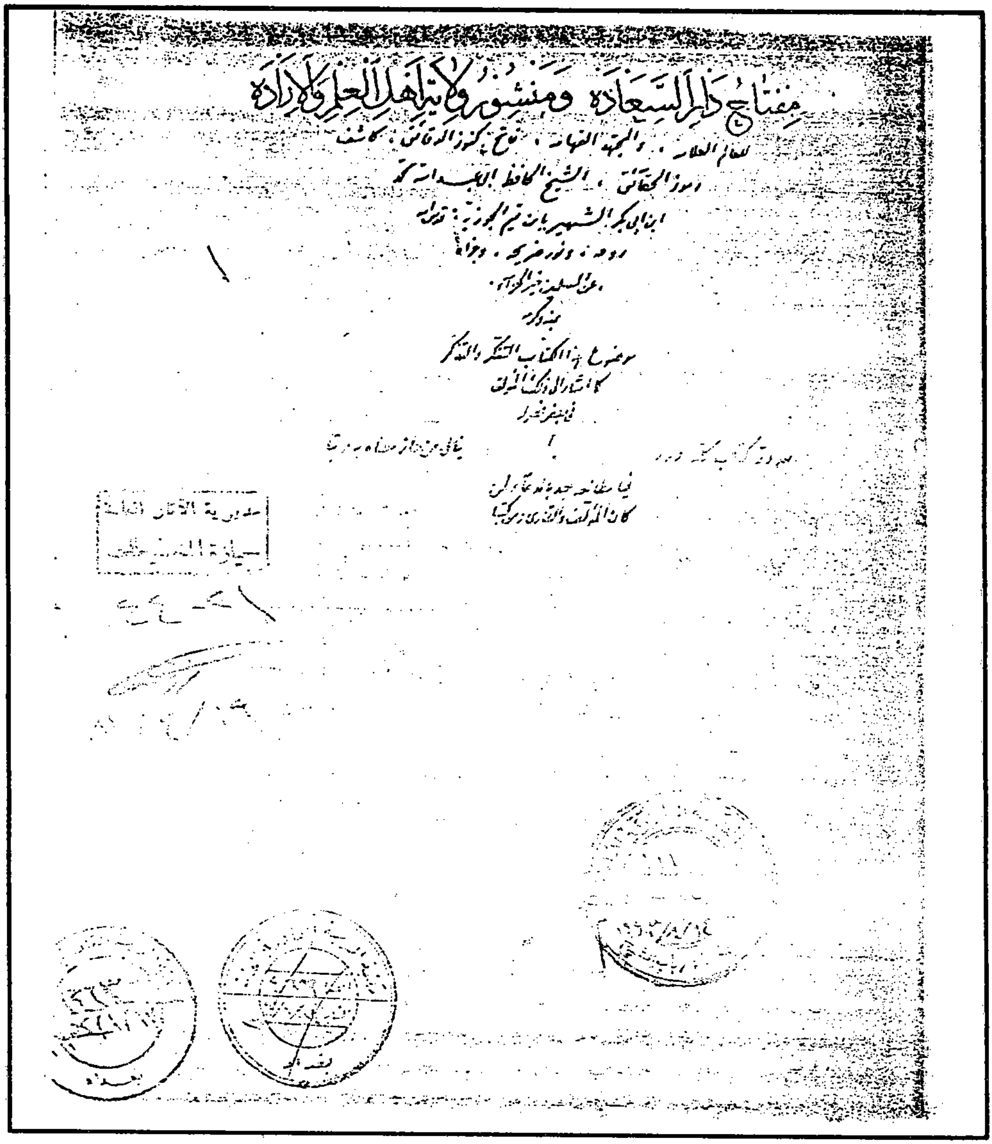
مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة
للعالم العلامة .. والمجتهد الفهامة . فاتح كنوز الدقائق . كاشف
رموز الحقائق . الشيخ الحافظ أبي عبد الله محمد
ابن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية . قدس الله
روحه . ونور ضريحه . وجزاه
عن المسلمين خير الجزاء .
بمنه وكرمه

صورة غلاف النسخة البغدادية

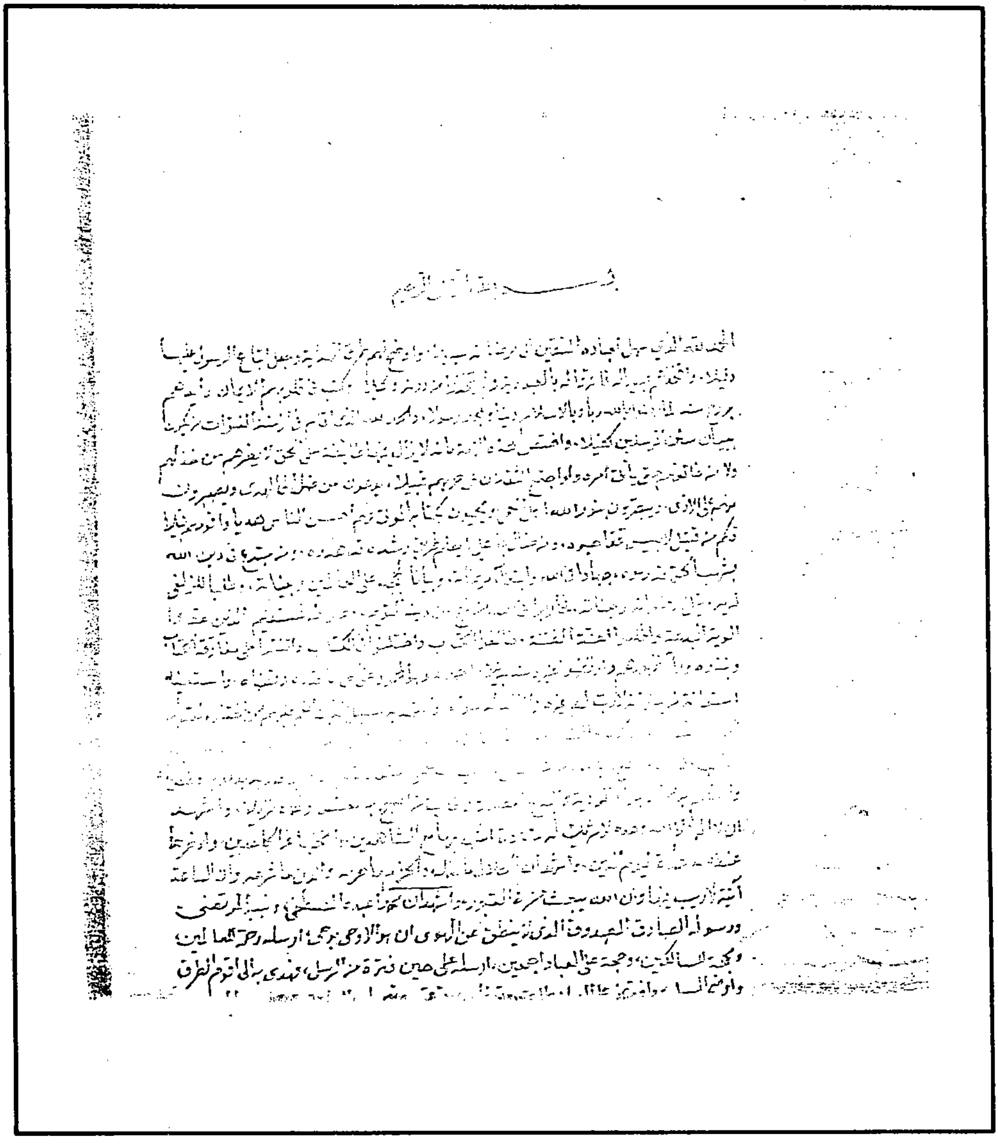

بسم الله الرحمن الرحيم

صورة الصفحة الأولى من النسخة البغدادية

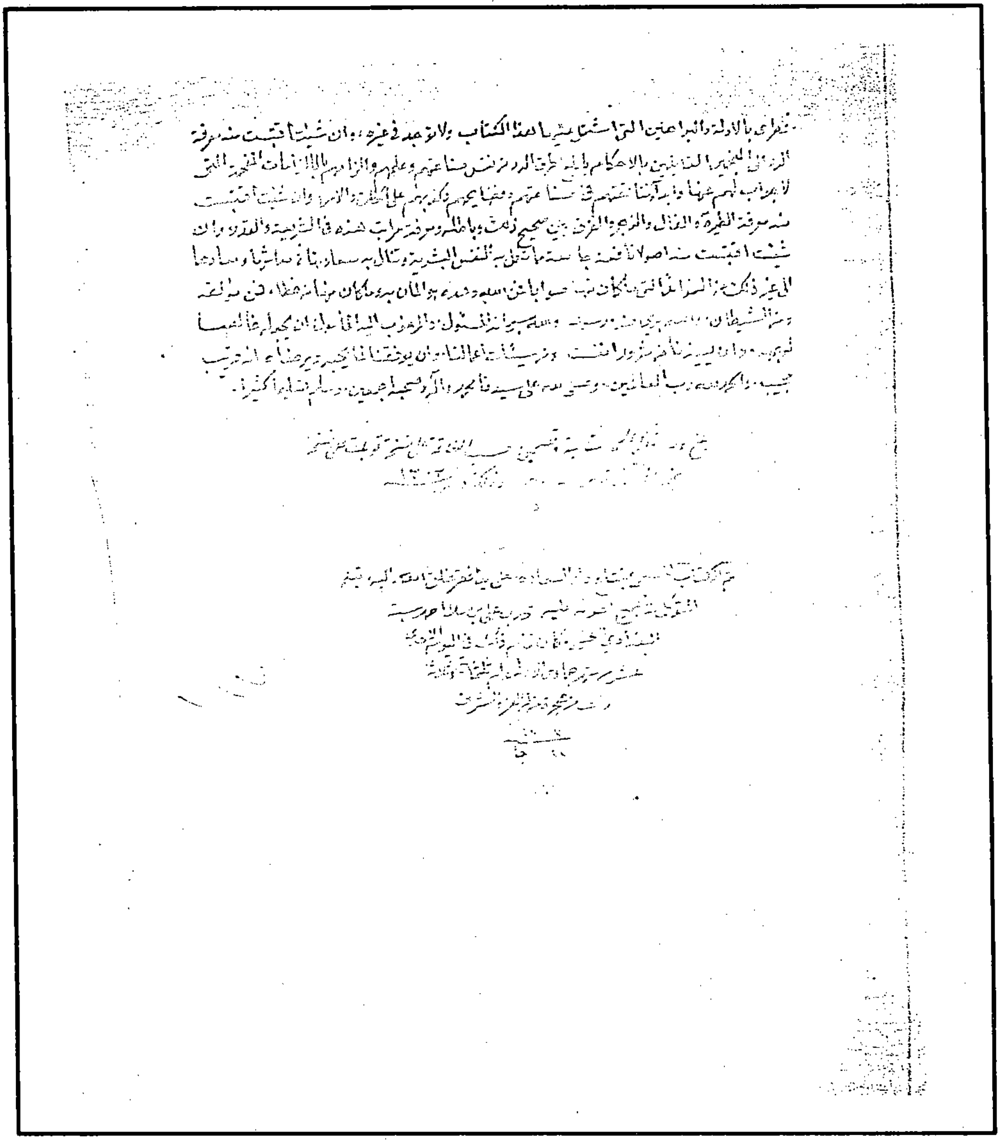

صورة الصفحة الأخيرة من النسخة البغدادية

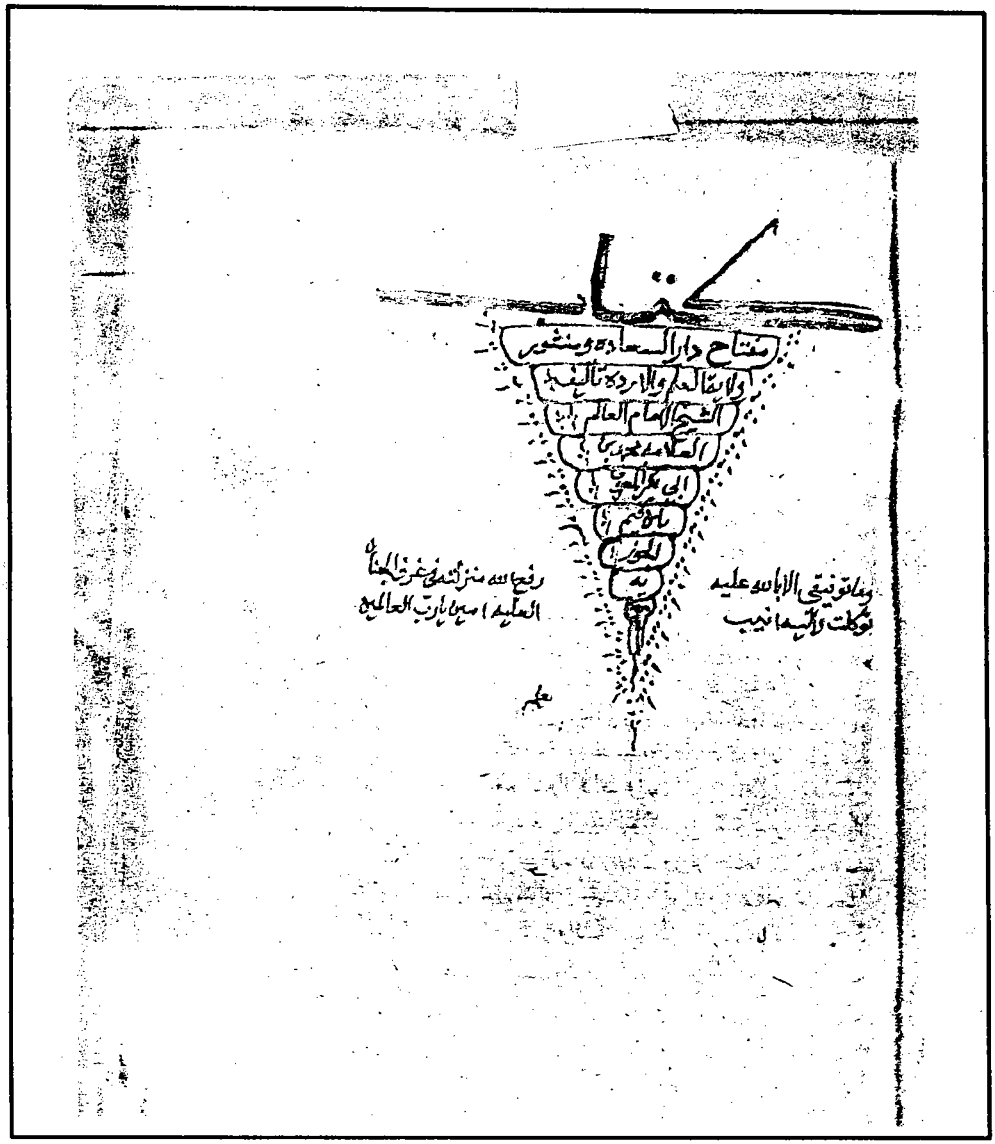

صورة غلاف النسخة السعودية

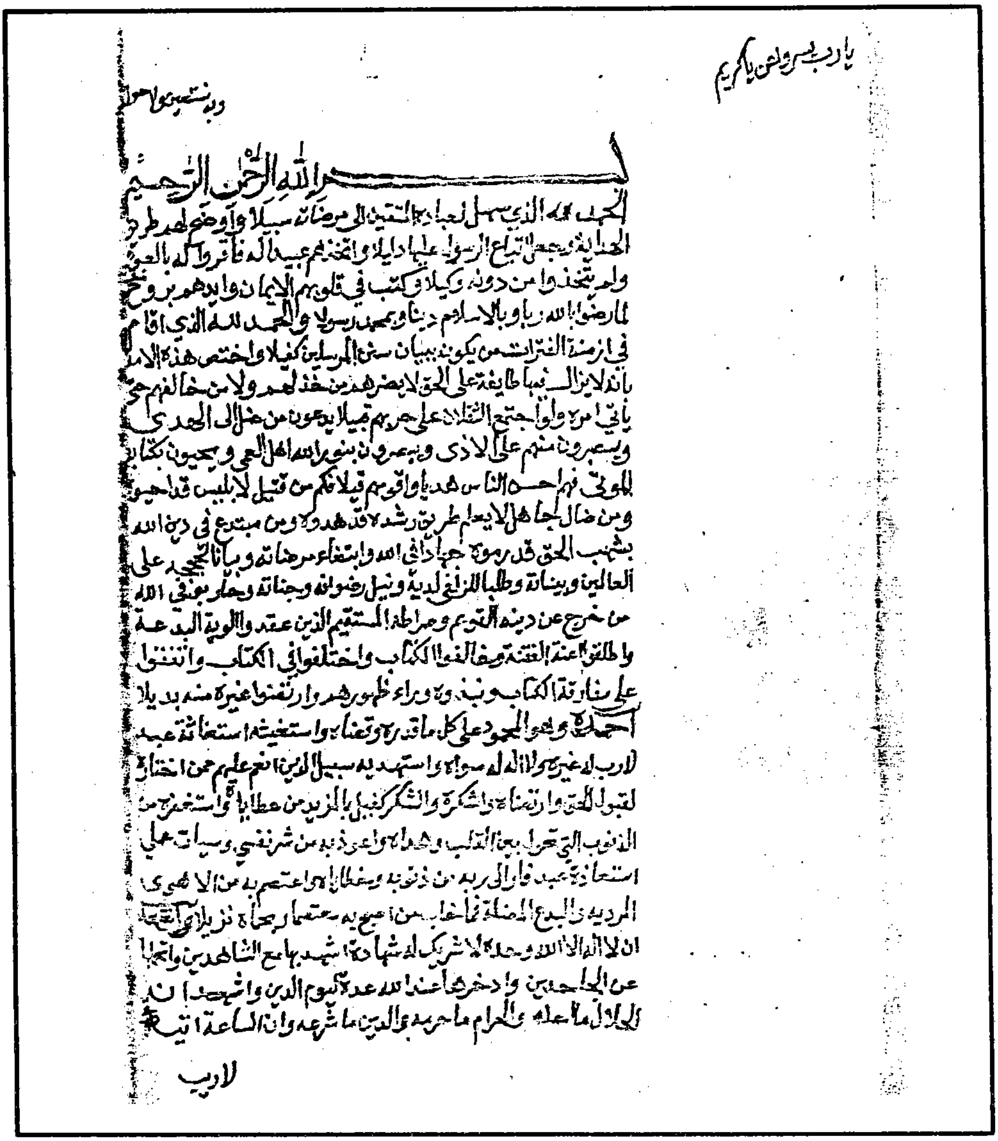

يا رب يسر وأعن يا كريم

وبه نستعين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي سهل لعباده المتقين إلى مرضاته سبيلا وأوضح لهم طريق
الهداية وجعل اتباع الرسول عليها دليلا واتخذهم عبيدا له فأقروا له بالعبودية
ولم يتخذوا من دونه وكيلا وكتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح
لما رضوا بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا والحمد لله الذي أقام
في أزمنة الفترات من يكون ببيان سنن المرسلين كفيلا واختص هذه الأمة
بأنه لا يزال فيها طائفة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى
يأتي أمره ولو اجتمع الثقلان على حربهم قبيلا يدعون من ضل إلى الهدى
ويصبرون منهم على الأذى ويبصرون بنور الله أهل العمى ويحيون بكتابه
الموتى فهم أحسن الناس هديا وأقومهم قيلا فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه
ومن ضال جاهل لا يعلم طريق رشده قد هدوه ومن مبتدع في دين الله
بشهب الحق قد رموه جهادا في الله وابتغاء مرضاته وبيانا لحججه على
العالمين وبيناته وطلبا للزلفى لديه ونيل رضوانه وجناته وحاربوا في الله
من خرج عن دينه القويم وصراطه المستقيم الذين عقدوا ألوية البدعة
وأطلقوا عنان الفتنة فهم مخالفوا الكتاب ومختلفون في الكتاب واتفقوا
على مفارقة الكتاب ونبذوه وراء ظهورهم وارتضوا غيره منه بديلا
أحمده وهو المحمود على كل ما قدره وقضاه واستعينه استعانة عبد
لا رب له غيره ولا إله له سواه واستهديه سبيل الذين أنعم عليهم ممن اختاره
لقبول الحق وارتضاه وأشكره والشكر كفيل بالمزيد من عطاياه وأستغفره من
الذنوب التي تحول بين القلب وهداه وأعوذ به من شر نفسي وسيئات عملي
استعاذة عبد فر إلى ربه من ذنوبه [illegible] واعتصم به من الأهواء
المردية والبدع المضلة [illegible] وأشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أشهد بها مع الشاهدين وأتحملها
عن الجاحدين وأدخرها عند الله عدة ليوم الدين وأشهد أن
الحلال ما أحله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه وأن الساعة آتية

لا ريب

صورة الصفحة الأُولى من النسخة السعوديّة

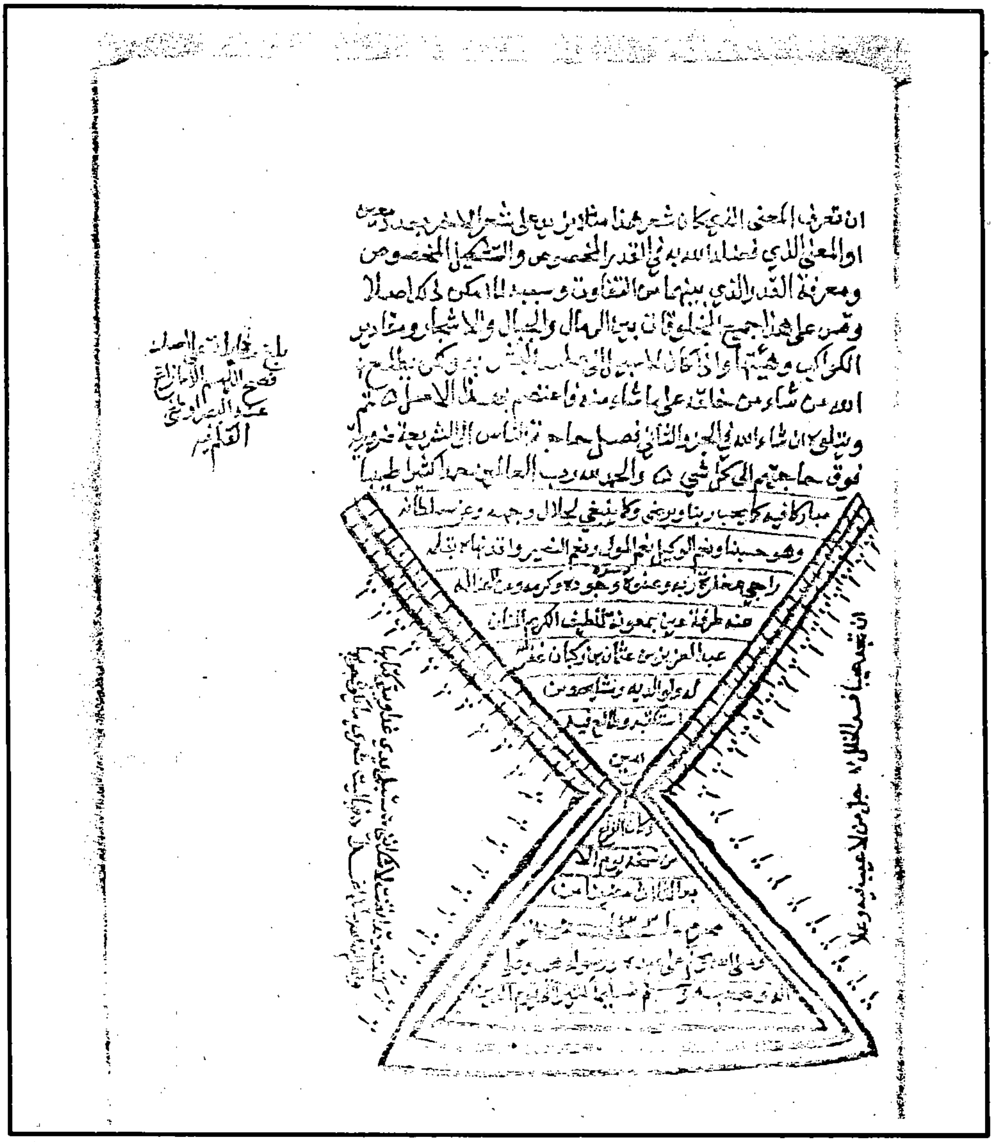
ان تعرف المعنى الذي كان شرعها مشتركا بينه على [illegible]
او المعنى الذي فضلها الله به في القدر المخصوص والتشكيل المخصوص
ومعرفة القدر الذي بينهما من التفاوت وسببه ان امكن ذلك اصلا
وقس على هذا جميع المخلوقات بين الرمال والجبال والاشجار ومقادير
الكواكب وهيئتها اذ كان لا [illegible]
الله من شاء من خلقه على ما شاء منه واعتصم بهذا الاصل ه تم
ويتلوه ان شاء الله في الجزء الثاني فصل حاجة الناس الى الشريعة ضرورية
فوق حاجتهم الى كل شي ه والحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا
مباركا فيه كما يحب ربنا ويرضى وكما ينبغي لجلال وجهه وعز جلاله
وهو حسبنا ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير ولا قوة الا بالله
راجي مغفرة ربه وعفوه وجوده وكرمه [illegible]
عنه طرفة عين بمعونة اللطيف الكريم المنان
عبد العزيز بن عثمان بن [illegible]
[illegible]

صورة الصفحة الأخيرة من النسخة السّعوديّة

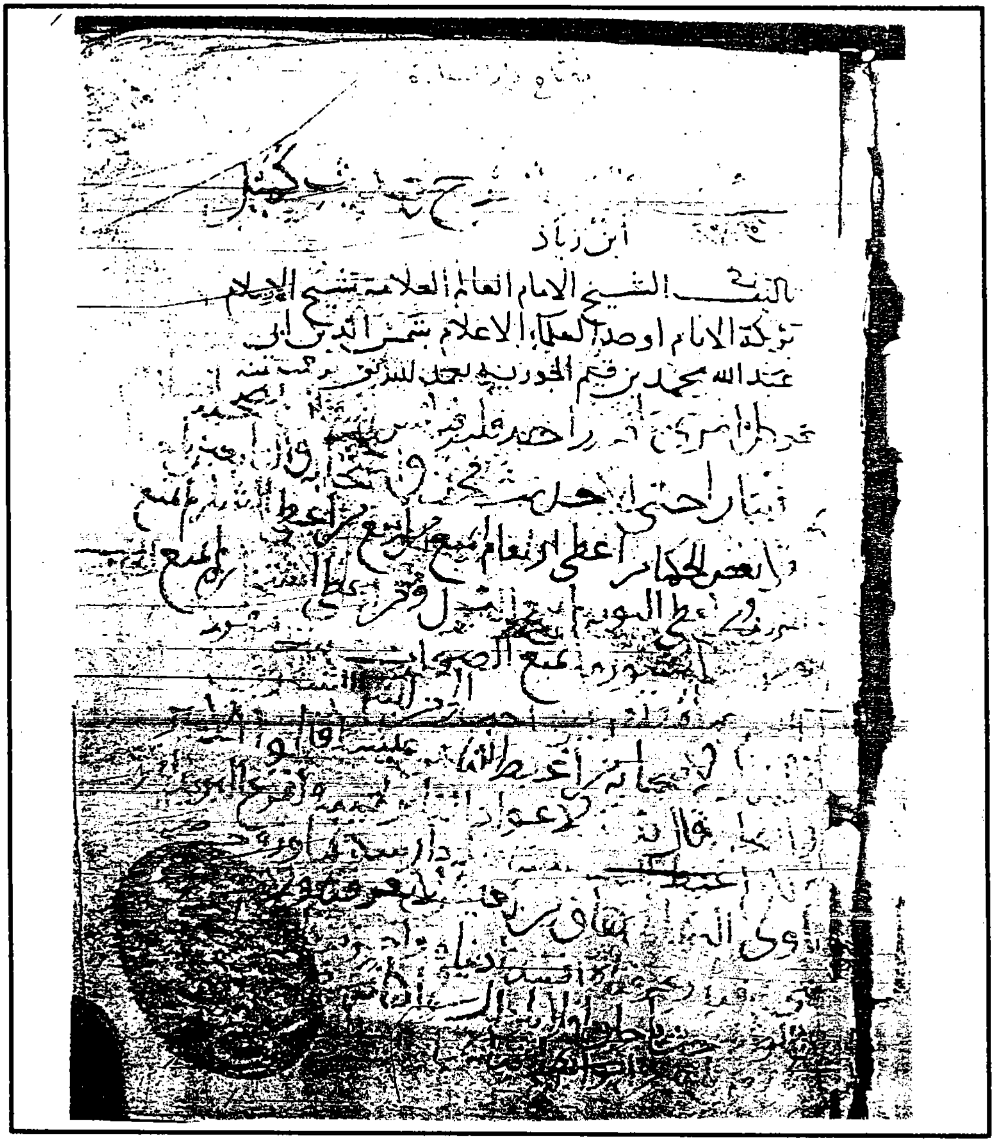
الشيخ الامام العالم العلامة شيخ الإسلام
بركة الانام اوحد العلماء الاعلام شمس الدين ابي
عبد الله محمد بن قيم الجوزية

صورة غلاف النسخة المصرية

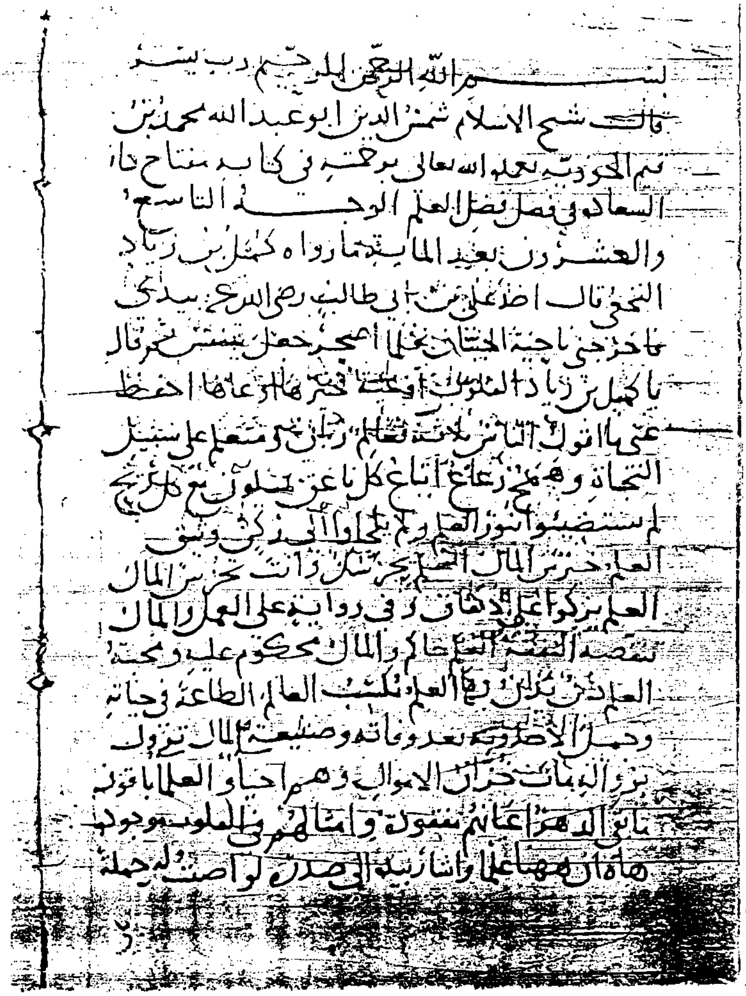

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر
قال شيخ الإسلام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن
قيم الجوزية تغمده الله تعالى برحمته في كتابه مفتاح دار
السعادة في فصل تفضيل العلم الوجه التاسع
والعشرون بعد المائة ما رواه كميل بن زياد
النخعي قال أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بيدي
فأخرجني ناحية الجبان فلما أصحر جعل يتنفس ثم قال
يا كميل بن زياد القلوب أوعية فخيرها أوعاها احفظ
عني ما أقول الناس ثلاثة فعالم رباني ومتعلم على سبيل
النجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح
لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا إلى ركن وثيق
العلم خير من المال العلم يحرسك وأنت تحرس المال
العلم يزكو على الإنفاق وفي رواية على العمل والمال
تنقصه النفقة العلم حاكم والمال محكوم عليه ومحبة
العالم دين يدان بها العلم يكسب العالم الطاعة في حياته
وجميل الأحدوثة بعد وفاته وصنيعة المال تزول
بزوال صاحبه مات خزان الأموال وهم أحياء والعلماء باقون
ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة
هاه إن ههنا علما وأشار بيده إلى صدره لو أصبت له حملة

صورة الصفحة الأولى من النسخة المصرية

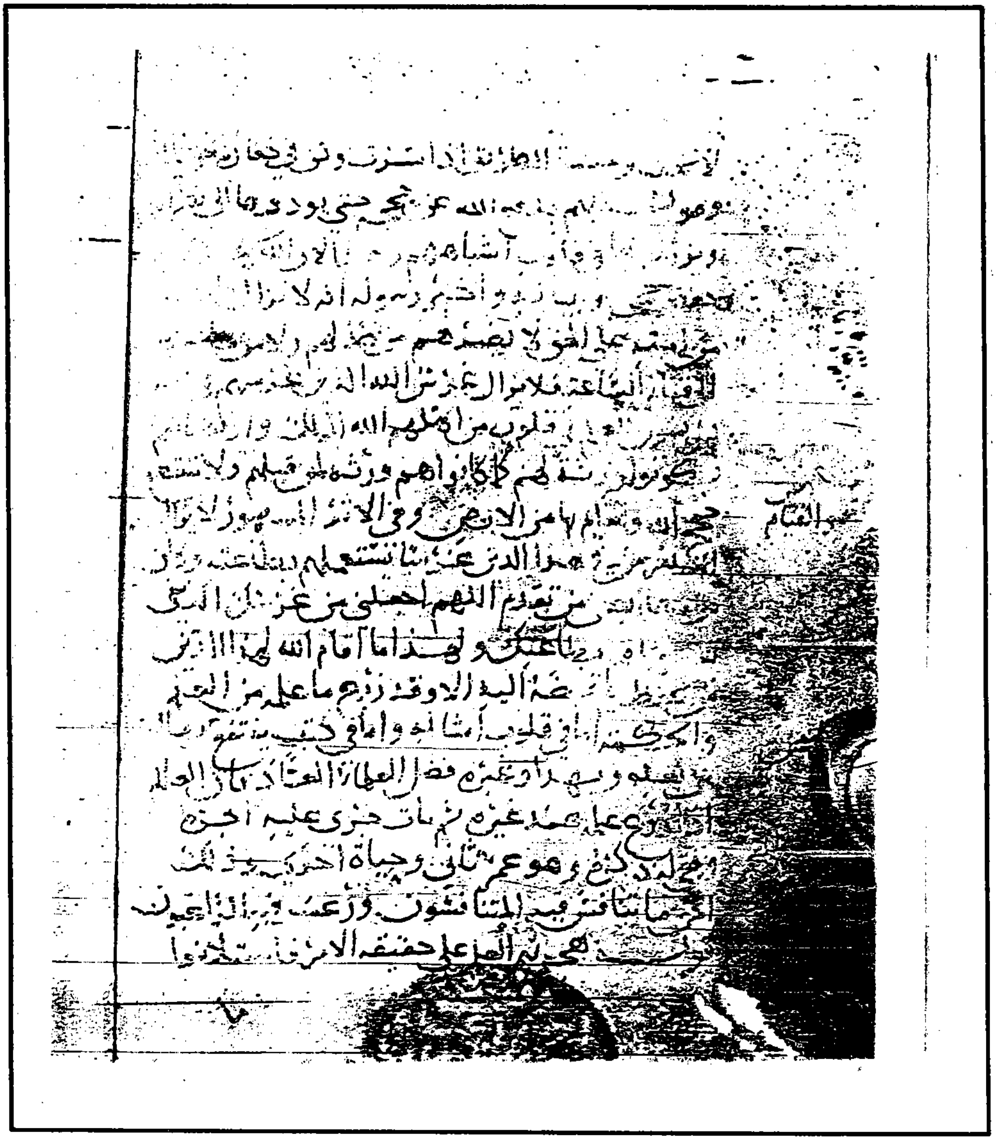

صورة الصفحة الأخيرة من النسخة المصريّة

الطَّبعاتُ السَّابقةُ لِـ « مِفتاح دار السَّعادة » عرضًا ونَقْدًا

طُبع هذا الكتابُ العُجابُ للمرّةِ الأُولى قبل نحو قرنٍ مِن الزَّمان ، وتحديدًا سنة (١٩٠٥ م) في مطبعة السعادة في القاهرة(١) .

ثمَّ طبع سنة (١٩١١ م) في الهند .

ثمَّ توالَتْ بعدَها طَبعاتُ الكتابِ ، فَنَشَرَهُ محمود حسن ربيع في القاهرة سنة (١٩٣٩ م) ..

وعنها مُعظَمُ الطبعات بعدَها ..

ولم أَقِفْ - فيما رأَيتُ - على نُسخةٍ مُحَقّقةٍ مضبوطةٍ لهذا الكتاب العظيم سوى ما قام به أَخونا الفاضل سليم الهلالي في « تنقيح الإِفادة » ؛ وهو في حقيقته اختصارٌ لكتابنا هذا ...

ثمَّ إِنِّي رأَيتُ - وأَنا على وَشْك الابتداء بهذه المقدّمة ، وبعد انتهائي من تحقيق الكتاب وتخريجهِ - نسخةً مِن هذا الكتاب ، كُتِب على غلافها : « حقَّقه وخرّج أَحاديثَه وعلّق عليه : حسَّان عبدالمنان الطيبي [و] عصام فارس

(١) « ذخائر التراث العربي الإِسلامي » (١ / ٢٢٤) عبدالجبَّار عبدالرحمن .

الحرستاني » ...

وفي (١ / ٧) منه ذِكْرُ أَنَّ مُتَوَلِّي تخريج أَحاديثِه وآثاره والحكم عليها هو حسَّان ..

وأَمَّا الآخَرُ - كما في الموضع السابقِ نفسِه - فقد تَوَلَّى (ضبط النَّص وتفصيله ، ووضع عناوين تُسَهِّل الرجوع إِلى موضوعاته - وذلك بين معقوفتين - وشرح غريبه ، وعمل فهرس أَطراف لأَحاديثِه وآثارِه ، وفهرس للموضوعات) كما قال هو ..

والنَّاشرُ للكتابِ هو دار الجيل (البيروتيّة) سنة (١٩٩٤ م) .

... ولمَّا رأَيتُ هذا الكتابَ ، سَعَيْتُ حثيثًا لأَرى جديدًا فيه ، يكشف لي شيئًا من خوافيه ، أَو يَحُلُّ لي إِشكالًا استوقَفَني ، أَو حديثًا فاتَني مصدرُهُ أَو حُكْمُهُ ، أَو ضَبْطًا لاسمٍ أَو مُصْطلحٍ زَلَلْتُ فيه ...

ولكنْ .. لم أَرَ مِن ذلك شيئًا الْبَتَّةَ ، ولا ما يُقارِبُهُ ، بل رأَيتُ الكثيرَ الكثيرَ مِن نقائضهِ ونواقضِه ...

وكنتُ أَنوي عَدَمَ التعرُّضِ لهذه النُّسخةِ ، ولا الإِشارةِ إِلى ما وَقَعَ فيه (المُحَقِّقان) !! لكنْ أَشارَ عَلَيَّ بعضُ الإِخوةِ طُلَّاب العلم بلزوم ذِكر نُبَذٍ من الأَخطاءِ العلميَّةِ التي وَقَعَت في التحقيق المُشار إِليه ، فَفَعَلْتُ[١] استجابةً لِطَلَبهم ، وحِرْصًا على إِبقاءِ العلم في مكانتهِ العليَّةِ اللَّائقةِ به وبأَهلِه .

فأَقولُ وباللّه التوفيق :

الأَغلاطُ العلميّةُ الموجودةُ في العَمَلِ المذكورِ تنقسم إِلى أَقسام عدَّة :

---

(١) دونما تَقَصٍّ ، ومِنْ غيرِ تدقيق في المُقابَلةِ والمُوازَنَة !!

أَوّلًا : حول « الصحيحين » ، ومسائل أُخرَ .

ثانيًا : في الحُكْم على الأَحاديث .

ثـالثًا : في العَزْو .

رابعًا : التصحيفات والتحريفات ، والسقط ، وأَغلاط الضَّبْط .

... فأَبدأُ بالقسمِ الأَوّل ، وهو :

أَوّلًا : حولَ « الصحيحَين » ، ومسائلَ أُخَرُ !!

فتعليقاتُهُ في هذا الباب عَجَبٌ عُجاب ، يَحَار فيها ذوو العقولِ والألباب !! إذ إنَّه أَتى باصطلاحاتٍ واستعمالات (مُبتكرة) لم يسطُرْها (أَحدٌ) من المنسوبين إلى العلمِ لا في غابر الزَّمان ولا في حاضرِه ! لا مِن (المتقدِّمين) ، ولا مِن (المُتأَخِّرين) !!

وأَوَّلُ ما وَقَعَتْ عليه عيني - في كتابِه هذا - مِن تعليقاتٍ له على « الصحيحين » أَو أَحدهما !! قولُه في (١ / ١٢٧) تعليقًا على حديث : « مَن عادى لي وليًّا » » ، حيث قال :

« أَخرجه البُخاري .. وابن حِبَّان .. من حديث أَبي هريرة ، وفي إِسناده ضعفٌ ظاهرٌ ، **وتهيَّب الذهبيُّ** أَنْ يردَّه لأَنّه في « الصحيح » .. » !!

أَقول: ولماذا لا يتهيَّبُ، وشأنُ « الصحيحين » -أَو أَحدهما- دَحْضٌ مَزَلَّةٌ!

لماذا لا يتهيَّب وهو يتكلَّم في حديثٍ مرويٍّ في أَصحّ الكُتُب بعد كتاب اللَّه سبحانه ؟!

فلا بُدَّ له أَن يتهيَّبَ ، ويتأَنَّى ويتثبَّت ؟!

لا أَنْ يُقْدِمَ ، ويتجرَّأَ !!

وبخاصةٍ فيما لم يُسبَق إِليه (العالِمُ) الذي يخشى اللَّه سبحانه ، ويتَّقيه حقَّ تُقاتِه !

أَقولُ : ولكي يقفَ القارئُ على (نُبَذٍ) من طريقةِ تعامُلِهِ مع « الصحيحينِ »، أُورِدُ أَمثلةً من ذلك :

١ - تكلَّم في (١ / ١٤٩) على حديثٍ بأَنَّه : « أَخرجه البخاريُّ .. » ! وإِنَّما هو مُعلَّقٌ عنده !

٢ - تكلَّم في (١ / ٢٧٧) على حديثٍ ، فقال : « أَخرجه أَحمدُ .. بإِسنادٍ لا يصحُّ » !!

مع أَنَّه مرويٌّ في « صحيح مُسلم » !!

٣ - عزا في (١ / ٢٨٥) حديثًا لمسلمٍ عن عُمر !!

مع أَنَّه في المتَّفق عليه عن أَبي هُريرة .

٤ - قال في (١ / ٣١٧) تعليقًا على حديث : « إِذا مات ابنُ آدم انقطع عملُه إِلَّا مِن ثلاثٍ .. » : « أَخرجه مسلمٌ (١٦٣١) **بإِسناد حَسَن** » !!

وهذا تعليقٌ غيرُ حَسَن ، وهل هذا اصطلاحٌ جارٍ عند أَهل العلم ؟! وهل صَنَعَ هذا في « الصحيح » أَحدٌ منهم ؟!

لكنْ مَن لم يتهيَّبْ مِن « الصحيح » لا يتهيَّبُ مِن الحكم عليه كيفما يشاءُ !! وبالطريقةِ التي يرىٰ !!

٥ - وفي (١ / ٣٢٠) سَوَّدَ نحو صفحتينِ ردًّا لحديثِ أَبي هُريرةَ في فَقْءِ موسى عليه السَّلام عينَ مَلَكِ الموت ، وهو حديثٌ مُتَّفَقٌ على صحّتِهِ !

ولقد أَقام كلامَه كلَّه فيه على : (أَخشى) و (أَظنّ) و (قد) و (يُحتمل) و (لعلَّ) !

وهذا - وحدَه - كافٍ لنقضِ كلامِهِ ، وردِّه ، مِن أَصلِه وأَساسِه ..

فلا أُطِيلُ في تَعَقُّبِ ما لا يُجْدي فيه التعقُّبُ !!

٦ - عزا في (١ / ٤٢٤) حديثًا للبخاري !

ولقد نبَّه الحافظُ ابنُ حَجَر في « الفتح » (٥ / ٣٤٢) إلى أنَّه مُرْسَلٌ عنده ! لكنْ ذكر - بَعْدُ - شاهدين له يُصَحِّحانِه !!

٧ - عزا المصنِّف (٢ / ٤٠) حديثًا للنَّسائي ! فتابَعَه (المحقّق) وزاد عليه : « بإسنادٍ فيه نَظَرٌ » !

مع أَنَّ الحديثَ في « صحيح مسلم » !

٨ - تكلَّم في (٢ / ٥٩) على حديثِ كَذِبات إبراهيم عليه السلام - وهو مُتَّفَقٌ عليه - مُعِلًّا إيّاه بالوقفِ ، مُشيرًا إلى أَنَّه (حقَّقَ) الكلامَ عليه في رسالة مُستَقلَّة[1]!!

وكلامُهُ فيه - إجمالًا - لا يخرُجُ عن مثال كلامِه في الحديث المتقدّم - هنا - برقم (٥) !! فلا أُعيدُ !

٩ - عزا في (٢ / ٨٥) حديثَ : « أَلَم أَجِدْكم ضُلَّالًا ، فهداكم اللَّه بي » لابن أَبي شيبةَ بإسنادٍ مُرْسل !!

وهو في ذلك مُتابع للفهارس !! فقد ذكره هكذا - فَقَط - صاحبُ « موسوعة أَطراف الحديث » (٢ / ٢٦١) !!

(فقلّده) دونما بحثٍ أَو مُراجعةٍ ، ودونما تنقيبٍ أَو (تحقيق) !! ومِن غَيْرِ (تتبُّعٍ) ولا (سَبْرٍ) !!

والحديثُ مرويٌّ في « الصحيحين » جميعًا !!!

---

(١) وقد وقفتُ عليها ، وهي في وَرَقات !! لم أَر فيها مِن قواعد النقد العلميّ شيئاً ، إلّا (أَظنُّ) و (قد) و ... !!

١٠ - عزا في (٢ / ٣٢٠) حديثًا للبخاري ومُسلم ، ثمّ قال : « وإسناده حسنٌ إن شاء اللّه » !!

ما شاء اللّهُ ! بَلْ : لا حولَ ولا قُوّة إلّا باللّهِ ..

أَين علمُ الحديثِ ؟ وأَين أَهلُه ؟ وأَين اصطلاحاتُهم ودقيقُ كلماتهم ؟!

١١ - عزا في (٢ / ٢٩١) أَثَرَ ابنِ عبّاسٍ المشهورَ في رجال قومِ نوحٍ الصالحين الّذين عُبِدوا من دون اللّه ، فقال : « أَخرجه البُخاري » .. وفي إِسنادهِ ضعفٌ ، وقد عِيبَ على البُخاريِّ إِخراجُهُ في « الصحيح » !!!

كذا قال !!

وهو كلامٌ جرائديٌّ إِنشائيٌّ !!

وَلِتَفْصيل ردِّه موضعٌ آخرُ .

ومع هذا وذاك ؛ فقد ردَّ الحافظُ ابنُ حَجَر ما تُكُلِّم فيه بكلامٍ قويٍّ متين ؛ فراجع « الفَتْح » (٨ / ٦٦٧ - ٦٦٨) .

أَقول :

وأَمّا التعليقاتُ ؛ ما هو موجودٌ منها في غير موضعِه ، وما هو غيرُ موجودٍ منها في موضِعِهِ ، فأَكثر مِن أَن تُحصى ، وأَكتفي بِإشاراتٍ سريعةٍ للدلالة على مُجْمَلِ العَمَل الذي قام به !!

١ - في (١ / ٢٨٢) أَورد المؤلّف حديثًا من طريق سفيان الثوري عن (سليمان التَّيْمي) عن خيثمة .. فسكت (المحقّق) ؟!

وإِنّما هو سليمان الأَعمش ، لا التَّيْميّ !

٢ - وفي (١ / ٢٩٨) أَعلَّ حديثًا بيزيدَ بن كيسان ، وفاته انقطاعٌ جليّ

لم يُنبَّه عليه !!

٣ - وفي الموضع نفسِه ، أَعلَّ حديثًا بعبداللَّه بن صالح كاتب الليثِ ! وفي سنده أَحمد بن يحيى بن زُكير ، وهو أَشدُّ منه ضعفًا !!

٤ - وفي (١ / ٣٧٧) علَّق (المعلِّق) في مسأَلة طُلوع الشمس قائلًا : « والشمس تجري لمستقرّ لها ، الأَرض هي التي تدور قبالة الشمس ، فيتكوَّن الليل والنّهار » !!

وهذا تعليقٌ مغلوطٌ ، مِن حيثُ مُخالفتُه لِمَا رواه الإِمام البخاري في « صحيحه » (٤٨٠٢) عن أَبي ذَرٍّ أَنَّ النَّبيّ ﷺ قال له : يا أَبا ذَرّ ! أَتدري أَين تَغْرُبُ الشمسُ ؟ قال : قلتُ : اللَّهُ ورسولُه أَعلم ، قال : فإِنَّها تذهبُ تسجدُ تحت العرش ، فذلك قولُه : ﴿ والشمسُ تَجْري لمستقرٍّ لها ، ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ .

ورواه مسلم (١٥٩) بأَطولَ منه .

وانظر « تفسير ابن كثير » (٦ / ٥٦٢ - ٥٦٣) .

٥ - علّق في (٢ / ٢٤٧) على قولِ المُصنِّف « ونسبوهم إِلى الزرق والزينجة والتلبيس » ! فقال : « الزرقة : خرزة للتأخيذ ، والزرق بالضم : النصال ، والزرق : العمى » !

مع أَنَّ الكلمةَ واردةٌ في غير هذه الأَبواب تمامًا ، وأُخِذت منها كلمة « زرّاق » باللغة الفارسيَّة ، وهي بمعنى « مُحتال » كما في « القاموس الفارسي » (٣٢٠) ، وانظر ما سيأتي (٣ / ٨١ ، ١٢٦) .

٦ - ذكر المؤلِّف (٢ / ٣٨٨) كلامًا فيه روايةٌ بين النّبيِّ ﷺ وبين

أَعدائه اليهود ، فقال (المحقِّق) : « هكذا وَرَدَ في الأَصل ، وفيه لبسٌ ، يُوضحه ما ... » !!!

فذكر كلامًا كرّر فيه ما ذكره المؤلِّفُ نفسُهُ سواءً بسواءٍ !!!

٧ - تكلّم المؤلِّف (١ / ١٣٦) على حديثٍ : « مَن سلك طريقًا يلتمسُ فيه علمًا ... » بكلامٍ طويلٍ فيه أَخْذٌ وعطاءٌ ، وسَلْبٌ وإِيجاب ، متعلِّقٌ بالعلل والجرح والتعديل !!

فلم يُناقِشْه في شيء ! ولم يُعَلِّق عليه بشيء !!

وأَمثالُ هذا كثيرٌ ، يُلْحَظُ بأَدنى مُقارنة بين كتابنا هذا ، وعمل (المحقِّق) في نُسختِه ، فلا أُطيل ...

وأَمّا القسمُ الثاني فهو :

ثانيًا : في الحُكم على الأحاديثِ :

فله فيه أَلوانٌ مِن الوَهَم والغَلَط ؛ فأَقولُ :

١ - في (١ / ٥٦) : ضعَّف حديثًا بسبب الحارث بن عبدالرحمن بن أَبي ذُباب (في أَحاديثِهِ مناكير) !

مع أَنَّه مِن رجال الشيخين ، وسكت عن حديثٍ آخر في سندهِ هذا الراوي نفسُهُ (٢ / ٣٥٩) ، والحديثُ مُتفقٌ على صحَّته !! وليس عنده هو تَفْريقٌ في النَّقد بين « الصحيحن » وغيرهما ! كما سيأْتي .

٢ - في (١ / ١٤٧) قال المؤلّف : « وقد رُوي عن عُمر بن الخطَّاب .. » !

ثمَّ ذكر أَثرًا ، فعلّق (المحقّق) بقولِهِ : « وهذا الإِسناد فيه نَظَرٌ » !

أَقولُ : أَيُّ إِسناد ، وهو لم يُورد إِلَّا المَتْنَ ، ولم تُشِر أَنت إِلى سندٍ ؟! فهذا حكمٌ على سَنَد بلا سَنَد !!

٣ - في (١ / ٢١٨) : أَعلَّ حديثًا بمسلمةَ بن قَعْنَب ، وهو ثقةٌ[1]، والعلَّةُ مِمّن قبلَه ، فهما راويان ؛ أَحدُهما ضعيفٌ ، والآخرُ متروك !!

٤ - في (٢ / ١٥٢) : (خرَّج) حديثًا مِن رواية عَمْرو بن شُعيب عن أَبيه عن جدِّه ، وصدَّره بقولِه : « حديث حسنٌ إِن شاء اللَّه تعالى » !

والمُلاحظة الأُولى : أَنَّ للحديث طرقًا أُخرى صحيحةً لذاتِها وباللفظ

---

(١) انظر « تهذيب الكمال » (٢٧ / ٥٧٣) .

نفسِه ، فلماذا أَعرض عنها ؟!

وأَمَّا الملاحظة الثانية : فإِنَّ (المحقّق) نفسَه قد قال في تعليقهِ على « إِغاثة اللهفان » (١ / ١٨١) : « واختُلف في رواية عمرو بن شعيب عن أَبيه عن جدِّه ، وأَميل إِلى تَضْعيفها ، ولم يَرَها مِن بابةِ الصحيح البُخاري ومسلم وابن حبَّان » !

فكيف التوفيق ؟!

على أَنَّ كلامَه الأَخير هذا فيه ما فيه !!

فإِنَّ المشهورَ عند (أَهل العلم) أَنَّ البخاريَّ يُصحِّحُ حديثَ عمرو بن شُعيب ، وإِنْ لم يُخَرِّج له في « صحيحِه » ، وكلامُهُ في « التاريخ الكبير » (٦ / ٣٤٢ - ٣٤٣) مشهور : « رأَيتُ أَحمد بن حنبل ، وعلي بن عبدالله ، والحُميدي ، وإِسحاق بن إِبراهيم يحتجُّون بحديث عمرو بن شُعيب »[1] .

وانظر « ضُعفاء العقيلي » (٣ / ٢٧٤) و « سُنن الترمذي » (٢ / ١٣٩) و « السِّير » (٥ / ١٦٧) و « تهذيب التهذيب » (٨ / ٤٤) ، و « ميزان الاعتدال » (٣ / ٢٦٤) ، و « طبقات الحنابلة » (١ / ١٧٣) و « تدريب الراوي » (٢ / ٢٥٨) ، و « تاريخ دمشق » (٨ / ق ٤٧٧) ، و « سُنن الدارقُطْنيّ » (٣ / ٥١) .

٥ - أَورد المؤلِّفُ (٢ / ٢٩١) عدَّة أَحاديث في تحريم عبادة القُبور واتِّخاذ المساجد عليها ، فكان ممّا ذكره حديث : « اللهم لا تجعل قبري وَثَنًا

---

(١) انظر « رواية عمرو بن شعيب عن أَبيه عن جدّه .. » (ص ٧٧) لصاحبنا الأَخ أَحمد عبدالله .

يُعْبَد » ، فصدَّره (المحقِّقُ) بقولِهِ : « حديث واحد ، في صحّته نَظَرٌ ؟[1] » !

ثمَّ رجّح في روايةٍ ذكرها أنَّها مُرسلةٌ !

ثمَّ ذكر طريقًا آخرَ (نظيفًا) ، لكنْ أَعلَّه بتكلُّفٍ ظاهرٍ قائلًا : « وهذا إِسنادٌ غريبٌ ، في قَلْبي منه شيء ، تفرّد به حمزةُ وليس بالمشهور ، ولم يُصرِّح مِن طريق من الطرق أَنَّه سمع منه ، فأَخشى أَنْ يكون مدار الحديث على المرسل الأَوَّل ، وإِلَّا فأَين أَصحاب سُهيل بن أَبي صالح المشهورون عن هذا الحديث ؟ بل هل من رجل واحدٍ آخر يُتابع حمزةَ على حديثِه هذا ؟ »[2] !!!

هذا كلامُهُ ، ويظهر منه أُسلوبُهُ ومَرَامُهُ !

وَلْنُناقِشْهُ :

١ - قولُه : « هذا إِسناد غريب .. » !

أَيُّ غرابةٍ فيه وهو مرويٌّ عند مشاهير أَئمّة الحديث كالحُمَيدِيّ وأَحمد ونحوهِما !؟

٢ - قولُه : « في قلبي منه شيء » !!

.. وهذا ليس بشيء ، فليس في علم الحديث - للمُبتدئين وأَشباهِهِم - : حدَّثني قلبي عن رَبِّي!! وإِنّما للكُبَراءِ منهم ذَوْقٌ في النَّقد عالٍ، لا يطولُهُ سواهم!!

٣ - قولُه : « تفرّد به حمزةُ .. » !!

فكان ماذا ؟! وكم مِن حديثٍ صحيحٍ ، أَو حسنٍ ، تفرَّد به راويهِ ؟!

وما هي ضوابطُ القَبُولِ والردِّ عندك !؟

٤ - قولُه : « وليس بالمشهور » !!

كيفَ ؛ وقد قال فيه هاشمُ بنُ القاسم : « رجل الكوفة » ، وقال فيه ابنُ

---

(١) والاستفهام منه !

(٢) وكرّر التعليقَ نفسَه (حرفيًا) في حاشيتِهِ على « إِغاثة اللهفان » (١ / ٢٧٥) !!

معين : « لا بأْس به » ، ووثَّقه ابنُ حِبَّان والعجليُّ ، وروىٰ عنه جماعةٌ !!

فَمَن هُو المشهورُ إِذن ؟!

وما هي شروطُ الشهرةِ ؟! وهل الشهرةُ شرطٌ في تصحيح حديث الراوي الثقةِ أَو الصدوق !!

٥ - قولُه : « ولم يُصرِّح مِن طريق من الطرق أَنَّه سمع منه » !!

أَيضًا ؛ فكان ماذا ؟! وليس هو بمدلِّس ، والمُعاصرةُ مُؤْذِنةٌ لمثلِه بالسماع من شيخِه .

وهل كلُّ الأَحاديث التي (خرَّجها) (المُحقِّق) اشترط على نفسِه فيها هذا اللزومَ لما لا يلزمُ ؟! وما الفرق - على قوله - بين المدلِّس وغيرِه ؟!

٦ - قولُه : « فأَخشى أَنْ يكون مدارُ الحديث على المرسل الأَوَّل » !!

هذه خشيةُ وسواسٍ ، وليست خشيةَ علمٍ ! وإِلَّا ، فكيف تولَّدَتْ هذه الخشيةُ مِن طريقَين مُخْتَلفَي الإِسْنادِ والمَخْرَجِ ، وليس بينهما راوٍ واحدٌ مُشترَكٌ !؟!

ثمَّ لماذا لم (تُسرِّب) هذه (الخشيةَ) في كثيرٍ من الأَحاديث التي هي على نَحْوِ هذا المِثال مِن قَبْلُ ومِن بَعْدُ ؟!

٧ - قولُه : « وإِلَّا فأَين أَصحابُ سُهيل بن أَبي صالحِ المشهورون عن هذا الحديثِ » !!

أَينَ هذا الشرطُ مِن علم الحديثِ ؟!

وهل أَنت مُلْزِمٌ نفسَك في كُلِّ إِسنادٍ أَنْ تبحثَ عن مشاهير أَصحاب الراوي لتعرفَ روايتَهم له عنه ؟!

وهل هذا شرطٌ مُعْتَبَرٌ ؟!

وأَين هي الأَفرادُ والمَفاريد في علم الحديث ؟!

(ولو) تأَمَّلْتَ أَولَ حديثٍ وآخِرَهُ مِن « صحيح البُخاري » لَمَا قُلْتَ الّذي قُلْته !! ولكنْ ...

٨ – قولُه : « بل هل من رجلٍ واحدٍ آخَرَ يُتابعُ حمزةَ على حديثِه هذا ؟ » !! هذا تَكْرارٌ لِمَا قبلَه ، فلا أُعيدُ ولا أُكَرِّرُ !!

أَقولُ : وله مِن مثلِ هذه الإِطْلاقاتِ العامَّةِ الكثيرُ الكثيرُ ، لَوْ قارَنَها (المتأمِّلُ) ، ودقَّق فيها (المُتفحِّصُ) لَخَرَجَ بأَضعافِ ما ذكرتُ ..

ولكنْ .. أَكتفي بالسَّابق ، حِرْصًا على اللاحقِ !

أَقولُ : وهُناك أَحاديثُ لم يظهر فيها حُكْمُهُ عليها !!

١ – في (١ / ٤٣) : قال في حديثٍ بعد عزوهِ : « وفي إِسناده ابنُ إِسحاق ، وقد عنعن ، وهو مدلِّسٌ ، ويشهدُ لبعضِه ما قَبله » !

فما هو حكمُهُ ؟! وهل كلُّه صحيح ؟! أَم كلُّه ضعيف ؟! أم نصفٌ هكذا ونصفٌ هكذا ؟!! مع التوكيد على قولِه : « لبعضه » !

٢ – في (١ / ١٠٥) : قال في حديثٍ بعد عزوهِ وسَرْدِ رجال سندِه : « وهُم ثقات » !

فكان ماذا ؟ فأَين شروطُ صحّة السند الأُخرى ؟!

وهل هذا يكفي للحُكم عليه بالثبوت ؟! أَم ماذا ؟!

٣ – ومثلُه قال في (١ / ١٥١) في سندين : « ورجالُهما ثقات » !!

فأَين الحُكْمُ عليهما ؟!

٤ – في (٢ / ٣٧٩) بعد عزوه حديثًا لمصادره ، نَقَلَ عن الهيثمي قولَه :

« رواه أَحمد ورجاله رجال الصحيح » ! فقال : وهو كما قال !!

ماذا قال ؟! فأَين الحُكْم عليه ؟! وماذا يستفيدُ القارئ من مُجرَّد ذلك ؟!

٥ - قال المصنِّفُ (١ / ٣١٨) : « ورُوي نحو هذا المعنى بِإسناد مُتّصل مرفوع » ، فعلّق (المحقّق) قائلًا : « ذكره ابنُ عبدالبرّ (١ / ٤٧ - ٤٨) !! » .

فكان ماذا ؟! فإِنَّ المصنِّف قبل سطور عزا الكلامَ كلَّه لابن عبد البرّ ، فهل ذِكْرُ الرقم - فَقَط - يُغني في الوقوف على الحُكْم ؟!

أَقولُ : ومِن هذا الباب ما قال فيه : « حديث قابل للتحسين » ، أَو : « حديثُ مُحتمل التحسين » !!

هل هو مُرْتَقٍ إِلى الحُسْن ؟ أَم لا يزالُ في حضيض الضعيف ؟! وهل قابليّتُهُ للتحسين دونَ وُجودِ ما يعضُدُها تُفيده ؟!

وكُلُّ حديثٍ ضعيفٍ الضعفَ اليسيرَ ، أَليس هو قابلًا للتحسين ؟! فما هو وَجْهُ التفريق بين هذا وما قَبلَه ؟!

ومن أَمثلةِ ذلك قولُه :

١ - في (١ / ٢٩) قال : « حديث قابل للتحسين » !

٢ - وفي (١ / ١٣٧) قال : « أَخرجه الحاكم » (١ / ٨٨) بِإسناد قابل للتحسين » !

٣ - وفي (١ / ٢٦٠) بعد سياقِه حديثًا من عدَّة طرق ، قال : « وبالجملة ؛ فإِنَّ هذه الطرق كلَّها ضعيفةٌ ، وهي محتملةٌ للتحسين جُملةً » !!

جُمْلَة .. ومُحْتَمِلَة !!

٤ - وفي (١ / ٣٢٠) قال في سندٍ عند الترمذي : « وهذا إِسنادُهُ

مُحْتَمِلٌ للتحسين ، ورُوي من غير هذه الطريق ، فأَخرجه الترمذي (٣٧٠٠) مِن حديث عبدالرحمن بن خَبّاب ، وإِسناده ضعيف » !!

فما هو حُكْمُه ؟! وهل ذلك الاحتمالُ ارتفع بالروايةِ الأُخرى الضعيفةِ ؟! أَم بَقِيَ الاحتمالُ في نفسِه (ضعيفًا) ؟!

٥ - وفي (١ / ٣٢٧) صدَّر حُكْمَه على حديثٍ بقولِه : « حديثٌ حسنٌ إِنْ شاء اللَّه تعالى » !!

ثمَّ خَتم بحثَه بقولِه : « وعليه فالحديث قابلٌ للتحسين » !!!

فبأَيِّهما نأخُذُ ؟! بالحكم الأَول ؟ أَم الأَخير ؟!

أَم أَنَّ الأَوّلَ يشرحه الأَخير ؟! أَم العكس ؟! لا أَدري ماذا أَقول !؟

٦ - ولعلَّ مثلَ الذي سَبَقَ - أَو غيره ! - قولُه في (١ / ٣٣٩) : « أَخرجه النَّسائي (٢ / ١٧٧) ، وابن ماجه (١٣٥٠) وفي إِسناده ضعفٌ ، وقد يُحَسَّنُ » !!

متى !! وكيف ؟! وبماذا ؟! ولماذا ؟!

أَيضًا ؛ لا أَدري ماذا أَقولُ !

٧ - صدَّر حُكمَهُ في (٢ / ٣٤) على حديثٍ بقولِه : « حديث حسن » ! ثمَّ حكم على سندٍ - مِن أَسانيدَ - بأَنَّه قابلٌ للتحسين !! ثمَّ قال : « قد تُوبِعَ عند أَبي نُعَيم في « الحلية » (٢ / ٥ - ٦) وإِسناده جيِّد » !! ثمَّ قال : وله عند البيهقي في « الدلائل » (٤ / ٤٠) مُختصرًا طريق أُخرى عن عروة مرسلًا ، وفي إِسنادها ضعفٌ » !!

أَقول : فَمِن أَين أَخذُ الحكم بالحُسْنِ ؟!

مِن السند القابل للتحسين ؟!

أَم مِن السند الجيِّد ؟!

أَم مِن السند الضعيف ؟!

أَم مِنها جميعًا ؟!

وهل ثمَّت فَرْق بين الحسن والصحيح لغيره أَم لا ؟!

وأَيُّهما أَعلى : الحديث الجيِّد أَم الحسن ؟!

٨ - خرَّج حديثًا في (٢ / ١٦٢) وحكم على أَول سندٍ له بأَنَّه : « إِسنادٌ ضعيفٌ » !!

ثمَّ ذكر له طريقًا آخر[١]، فيه راوٍ مُنكر الحديث ، وفيه انقطاعٌ !!

ثمَّ قال : « وللحديث شاهدٌ بإِسناد ضعيف أَيضًا من حديث أَبي موسى عند ابن السُّنِّي (٣٣٩) ، فيُحتمل أَن يُحَسَّن الحديثُ بِه » !!

فما هي النتيجةُ ؟!

٩ - قال في خاتمةِ عزوه لحديثٍ (٢ / ٣٤٧) : « وعلى أَيٍّ ، فالإِسنادُ - على جهالةِ حالٍ في سباع بن ثابت - يحتمل التحسين » !

ما هو الحُكْمُ ؟! وما هو الضابطُ له ؟!

على أَنَّ سِباعًا المذكور ذكره ابنُ قانع والبغوي في الصحابة ، ورجّح صُحبتَهُ الحافظُ ابنُ حجر في « الإِصابة » (رقم : ٣٠٧٨) والذهبي في « تجريد أَسماء الصحابة »[٢](١ / ٢٠٨) .

---

(١) مع أَنَّه - **عند التأَمُّل** - راجعٌ إِلى ما قبلَه !!

(٢) واختلفَ قولُ الذهبي في « الميزان » (٢ / رقم : ٣٠٧٦) فقال : « لا يكاد يُعرف » ! فاغترّ به مَن اغترَّ !

أَقولُ : وأَمَّا الأَحاديثُ ذات الشواهد والمتابعات والطرق ، فالقولُ فيها عَجَبٌ !! فهو في مواطنَ يُثَبِّتُها بها ، مِن ذلك :

١ - حكم على حديثٍ (١ / ٢٢) بأَنَّه : « حديثٌ صحيحٌ » !

ثمَّ قال : « أَخرجه أَحمد .. و .. ورجاله ثقات » !!

ثمَّ قال : « ويشهد له حديث عائشة .. وحديث ابن عبَّاس .. وسنداهما ضعيفان » !!!

٢ - حكم على حديثٍ (١ / ٢٢٠) بقولِه : « حديثٌ حسنٌ إِنْ شاء اللَّهُ تعالى » !

ثمَّ قال بعد ذكر مصادرِه : « .. من طرق عن ثوبان ، وفي أَسانيده كلام » !!

٣ - قال في حديثٍ (٢ / ٣٧٨) - بعد سَرْدِ سندِه - : « فانقطع الإِسناد ، وهي علَّةٌ في ضَعْف الإِسناد ، إِلَّا أَنَّ الحديثَ يصحُّ لشواهده » !

أَقولَ : فها هو - إِذَنْ - يُثَبِّتُ هذه الأَحاديثَ بشواهدِها أَو طرقها ! على (تنوُّع) في طرقِه للوصول إِلى ذلك !!

ولكنْ : نراه قد ضعَّف - في مَوَاطنَ أُخرَ - عددًا (لا بأس به) من الأَحاديث التي لها أَسانيدُ عدَّة ، وضعفُها مُحْتَمَلٌ ، سواءٌ بالشواهد أَو المُتابعات ، ولم يلتفِتْ لذلك !!

ولا يُقال : معلولةٌ ! أَو : يرجع بعضها إِلى بعض !! فليست هي كذلك !

ولا يُقال أَيضًا : شديدة الضعف جدًّا !! فليست هي كذلك !

ومن الأَمثلة على ذلك :

١ - حديث : « لمّا خَلَقَ اللَّه آدم ونَفَخَ فيه الروحَ عطس » ، ضعّفه في

(١ / ٥٦) مع أَنَّ له ثلاثةَ أسانيد تختلفُ مخارجُها عن بعضٍ ، وليس فيها متروكٌ !!

٢ - حديث العِرْباض بن سارية : « عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخُلفاء الرَّاشدين » ، ضعَّفه في (١ / ٧٨) مَعَ أَنَّ لَهُ طُرُقًا كثيرةً ، مُتبايِنة المخارج ، وكثيرٌ منها ليس فيه شديدُ ضعفٍ !

وصحّحه جماهيرُ المحدّثين قديمًا وحديثًا ، **بل لا أَعلمُ أَحدًا من أَهل العلمِ ضعَّفه البتَّة .**

نَعَم ؛ قد تكلَّم الواحدُ منهم أَو الاثنانِ في بعض طرقِه، لكنّ مجموعَها يجزم الباحثُ - مَعَهُ - بصحَّتِه وثبوتِه .

وكلامُهُ في حديث العرباض تخلَّله أَوهامٌ عدّة ، وأَغلاطٌ مُتعدّدة ، ليس هنا موقعُ مناقشتِه فيها !

٣ - ضعّف في (١ / ٩٤) حديثَ : « يحملُ هذا العلمَ مِن كلِّ خَلَفٍ عدولُه .. » ، مع أَنَّ له طرقًا كثيرة ، عددٌ منها خالٍ من الضعف الشديد .

وقد ثَبَّتَ الحديثَ جماعةٌ مِن العُلماء **المُتقدِّمين والمتأخِّرين** ، كالإِمام أَحمد والعلائي والقسطلّاني وغيرهم .

فَمَعَ مَن هو ؟! مَعَ المتقدِّمين ؟! أَم مع المتأَخّرين ؟!

الجواب : لا هؤلاءِ ولا أَولئك !

٤ - وصَنَعَ ذلك في (١ / ١١٩) مع حديث « فضل العالم على العابد كَفَضْلي على أَدناكم .. » .

وهو حديثٌ له طريقان وشاهد .

٥ - ومثلُه أيضًا صنيعُهُ في (١ / ١٢٠) في حديث « مَنْ سَلَكَ طريقًا يبتغي فيه علمًا .. » .

وله طريقان .

وقد حسَّنه من **المُتَقَدِّمين** حمزةُ الكِناني ، ومن **المُتأَخِّرين** الحافظ ابن حجر كما في « فتح الباري » (١ / ١٦٠) .

فأُكَرِّرُ له - هُنا - أَسئلتي المتقدّمة !

٦ - وفي (١ / ١٣٣) تَضْعيفُهُ لحديث : « الدنيا ملعونةٌ ، ملعون ما فيها .. » !

مع أَنَّ له طرقًا عدّة ، وشواهدَ متعدّدة .

وقد حسَّنه من **المتقدّمين** الترمذيُّ ، ووافقه من **المتأَخّرين** العراقيُّ ، كما في « تخريج الإِحياء » (١ / ١٠) و (٣ / ٢٠٢) .

٧ - وفي (١ / ١٤٣) ردُّهُ لحديث : « خَصْلتان لا يجتمعان في مُنافقٍ : حُسن سَمْتٍ وفقهٌ في دينٍ » .

مع أَنّ له طريقيْن يُقوِّي بعضُهما بعضًا ، أَحدُهما مسندٌ فيه ضعفٌ ، والآخرُ مُرْسلٌ صحيحُ الإِسناد .

٨ - وكذلك صنع في (١ / ٢٢٢) مع حديث : « فضل العلم خير من نفل العَمَل » .

وقد أَورد له خمس طرق ، اثنتان منها شديدتا الضعف - على حسب نقده ! - والطرق الباقية ضعفها يسير ... ومع ذلك ضعَّفه !!

٩ - تكلَّم في (١ / ٢٢٨) على حديث : « مَن دخل مسجدَنا هذا

ليتعلَّم خيرًا ، أو ليعلِّمَهُ .. » ، وصدَّر حُكْمَهُ عليه بقولِه : « حديث أشبه بالموقوف » !!

مع أَنَّ طرقه المرفوعة كثيرة ، وليس بخفيٍّ أَنَّ الوقفَ لا يُخالف الرفع **مُطْلَقًا** .

وقد نقل من « مصباح الزجاجة » للبوصيري ترجيحَ الدارقطني وقفَه !

ولم ينقُل أَنَّ البوصيريَّ نفسَه صحّحه مرفوعًا !!

١٠ - وردَّ أيضًا في (١ / ٢٦٣) حديثَ : « مَثَلُ أُمَّتي مَثَل المطر لا يُدرى أَوَّلُه خيرٌ أَم آخِرُهُ » !!

مع أَنَّه مرويٌّ مِن طُرُق عدّة ، عن غيرِ واحدٍ مِن الصحابة .

وقد حسَّنه مِن **المتقدِّمين** الترمذيُّ ، ومِن **المتأخرين** الحافظ الهيثمي ، والحافظ ابن حجر ، وانظر « الفتح » (٧ / ٤-٥) .

١١ - وضعَّف في (١ / ٢٨٤) حديثَ : « طَلَب العلم فريضةٌ على كل مُسلم » !!

ضاربًا الصَّفح عن طُرُقِه المُتكاثرة الّتي زادت على الخمسين ، وجمعها السيوطي في « جُزء » مُفْرَد ، جازِمًا بتحسينِه فيها !

ولقد عزا (المُحقِّقُ) مِن ضِمن ما عزا - للمراجعة ! - إِلى كتاب « المقاصد الحسنة » !! مع أَنَّ فيه تحسين الحديث عن غير واحدٍ مِن أَهل العلمِ ، فمن **المتقدِّمين** ابنُ القطَّان - راوي « سُنن ابن ماجه » - ، ومِن **المتأخِّرين** المِزِّي والعراقي وغيرهما .

١٢ - تكلَّم في (١ / ٤٢٤) على حديث : « إِذا أَبردتُم إِليَّ بريدًا فابْعَثُوه حَسَنَ الاسم حسَنَ الوجه » ، و (طوّل) في تَضْعيفِه ، والكلام على أَسانيده

بصُورةٍ لا تخلو من تكلُّفٍ ، حتَّى إنَّه لمَّا أَعْيَتْهُ الحيلةُ في نَقْد إسنادِ روايةٍ عند البزَّار قال : « فإنْ صحَّ نسبةُ ذلك اللفظ له ، **كان الوهم من البزَّار نفسِه** ، وقد عُرف عنه الوَهَم في بعض الأَحاديث ، فيكون هذا منها ؟[1]» !!

ولا حول ولا قوَّة إلَّا باللَّه .

وقد صحّح الحديثَ الحافظُ ابنُ حَجَرٍ في « مختصر زوائد البزَّار » (رقم ١٧٠٠) وغيرُهُ .

١٣ - ضعَّف في (٢ / ٢٧٧) حديثَ : « إذا ذُكِرَ القَدَرُ فأَمسِكوا .. » ، مُصدِّرًا عزوَه بطريقٍ فيه راوٍ شديدُ الضعف - عنده - ، بالإِضافةِ إلى انقطاع سندِه !

ثمَّ أَشار إلى طريقٍ أُخرى (مُنكرة) - على حدّ تعبيرِه - عِند أَبي نُعيم في « الحلية » !!

مع أَنَّ هذه الطريقَ - الثانية - قد حسَّن سندَها لذاتِه الحافظان ابنُ حَجَرٍ والعراقيُّ .

ثمَّ خَتَمَ قولَه بقولِه : « وفي الباب أَحاديث ، ولا تصلُحُ للتقويةِ ، ذكرها الأَلبانيُّ في « صحيحته » (٣٤) » !!

مع أَنَّ منها مرسلًا صحيحَ الإِسناد ! أَفلا يتقوَّى به ، ومَخْرَجُهُ مُختلِفٌ ؟!

١٤ - ردَّ في (٢ / ٣١٩) حديثَ : « اللهم بارِكْ لأُمَّتي في بُكورِها » لجهالةٍ في سنده !

ثمَّ قال : « رُوي من حديث عليّ ، وابن عُمر ، وابن عبَّاس ، وبُريدة ، وجابر ، وأَنس ، ولا يَثْبُتُ له إِسناد » ؟!!

---

(١) وعلامة الاستفهام منه ! فهل هو يَسأَلُ أَم يُقرِّر ؟!

فكان ماذا ؟!

وما هو الحديثُ الحَسَنُ لغيرِه ؟! وكيف يكون ؟

وهل هذه الأَسانيد التي (لا تَثْبُتُ) شديدةُ الضعف ؟!

مع أَنَّ الحديثَ قَد حسَّن سندَه الترمذيُّ من المُتقدّمين ، والمنذري وابن حَجَر والسَّخاوي من المتأَخّرين .

١٥ - ردّ في (٢ / ٣١٧) حديثَ الخوارج ، وقولَ النَّبيِّ ﷺ فيهم : « شرُّ قتلى تحت أَديم السَّماءِ .. » لضعفِ راوٍ من رواتِه !

ثمَّ قال : « وله طرق أُخرى عند .. و ... ، وفيها نظر !![1] » !

أَيُّ نَظَرٍ فيها ، وليس فيها متروكٌ ولا وضَّاعٌ !!

ومَخارِجُها مُتغايرةٌ تلتقي جميعًا عند أَبي أُمامة يُتابعُ الرواةُ فيها بعضُهم بعضًا ؟!

والحديثُ ؛ حسَّنه الترمذيُّ .

١٦ - ثمَّ ضعَّف في (٢ / ٣٦٧) حديثَ : « .. وأَصدقُها الحارث وهمَّام .. » !

مع أَنَّه مرويٌّ مِن طريقين مُرْسَلَيْنِ ، وله شاهِدٌ مُسْنَدٌ فيه جهالةٌ !!

وهل الحَسَنُ إِلَّا هذا[2] ؟!

أَقولُ : وهُناك صنفٌ ثالثٌ من (العَمَل) عنده !!

وهي أَحاديثُ ضعّف أَسانيدَها ، وسكت !! مع أَنَّ لها شواهدَ عدَّة أَعْرَضَ

---

(١) وعلامتا التعجبُ منه !

(٢) وكذا صَنَعَ في حديث « إِنَّما شفاء العِيّ السؤال » (٢ / ٢٠٤) وله طرقٌ عِدّةٌ تُحَسِّنُهُ في الشواهد !

عن ذِكْرِها وإيرادِها ، يتقوّى بها الحديثُ ، ويَرْتَقي إلى دَرَجةِ الثبوتِ !!

١ - ضعَّف في (١ / ٧٣) حديثَ : « اليهود مغضوبٌ عليهم ، والنَّصارى ضالُّون » لجهالةٍ في سنده !!

مع أَنَّ للحديثِ شواهدَ عدّة، كما تراها في « فتح الباري » (٨ / ١٥٩)، وتعليق العلَّامة أَحمد شاكر على « تفسير الطبري » (رقم ١٩٨) .

وقد صحّح الحديثَ الترمذيُّ وابنُ حِبّان وابن حجر ومُصَنِّفُنا ابن القيِّم .

٢ - ضعَّف في (١ / ١٢٧) الحديث القُدُسيّ الذي **رواه البُخاريُّ** : « مَن عادَىٰ لي وليًّا .. » بقولِه : « وفي إسناده ضعفٌ ظاهرٌ ، **وتهيَّب** الذهبيُّ أَن يردَّه (!)، لأَنَّه في « **الصحيح** » (!!)، انظر ترجمة خالد بن مَخْلَد في « الميزان » ، وعليه مدار الحديث » !!!

ولم يُشِرْ إلى طُرُقِه المُتكاثِرة الّتي حَشَدَها الحافظانِ ابنُ رجب في « جامع العلوم والحكم » (٣١٣) ، وابنُ حَجَر في « فتح الباري » (١١ / ٢٩٢) ، وتوسَّع في إيرادها وتنسيقها والكلامِ عليها شيخُنا الأَلباني في « السلسلة الصحيحة » (١٦٤٠) .

وقد صحّح الحديثَ مِن المُتقدّمين البخاريُّ ، وابن حبّان ، وأَبو القاسم المِهْرَوانيّ ، وابن الحَمّامي ، والبَغَوي ، ومِن المتأخرين جماعةٌ كثيرةٌ على رأسهم الحافِظان الذهبيُّ وابن حَجَر .

٣ - ضعّف في (١ / ٢٣٤) حديثَ : « مَن تعلَّم علمًا ممَّا يُبتغى به وجهُ اللّهِ .. » ! وقال : « فُلَيح ضعيفٌ » ! واكتفى !!!

مع أَنَّ للحديث شواهدَ عدّة ، منها عن كَعْب بن مالك ، ومنها عن

جابر ، وغيرها .

وأَسانيدها يسيرةُ الضعفِ ، مُتباينةُ المَخارِج !!!

٤ - ضعّف في (١ / ٣١٦) حديثَ : « إنَّ زيدَ بنَ عَمْرو بن نُفَيل يُبْعَثُ يومَ القيامةِ أُمَّةً وحدَه » ، وقال : « أَخرجه الحاكم ... مِن طريق الحُسين بن الفَزَع عن الواقدي مُرْسَلًا مُعضلًا ، والحُسين وشيخُه كذَّابان » !!!

هكذا قال واخْتارَ !

مَعَ أَنَّ للحديثِ طرقًا مُسندةً ، ليس فيها متروكٌ ولا كذَّابٌ ، من ذلك ما رواه أَبو يعلى في « مسنده » (٩٧٣) عن سعيد بن زيد بسند حسَّنه الهيثمي في « المجمع » (٩ / ٤١٧) .

وفي الباب عن غير واحدٍ .

٥ - وفي (١ / ٣٣٠) ضعَّفَ حديثَ : « إنَّ اللَّهَ جَعَلَ طعامَ ابن آدم مثلَ الدنيا .. » ، مُصدّرًا إيَّاه بقولِه : « في صحَّتِه نظر ؟[1]» ! ثم قال بعد إِيراد سنده : « وإِسنادُهُ ثقاتٌ ، إِلَّا أَنّي أَخشى تدليسَ الحَسَن البصريّ ... » !

ثمَّ ذكر له طريقًا آخر رجَّح إِرسالَه[2]!

أَفَلَا يكفي هذا الطريقِ المرسَل - عندك - مع ذاك المُسند الضعيف احتمالًا - عندك أَيضًا - لتحسينِه به ؟!

وقد صحّح الحديثَ ابنُ حبَّان والمنذري وغيرُهما .

٦ - ضعَّفَ في (١ / ٣٥٨) حديث : « إِنَّ بين السَّماء والأَرض مسيرة

---

(١) والاستفهام منه !

(٢) مع أَنَّه رُوي موصولًا من طريق ثقةٍ كبيرٍ أَيضًا !!

خمس مئة عام .. » لانقطاعِه !

مَعَ أَنَّ لهذا القَدْرِ منه شاهدًا - فيه ضعفٌ يسيرٌ - صحّحه ابنُ حِبّان وغيرُهُ.

أَفلا يتقوّيان ؟!

٧ - ضعّف حديثَ : « استحيوا من اللّهِ حقَّ الحياءِ » (١ / ٤٨٢) بقولِه : « .. بإِسناد ضعيف جدًّا » !

أَقول : وذلك لحالِ الصبّاح بن محمّد (عنده) جَرْيًا وراءَ ابنِ حبّان في إِفراطِه فيه كما قال الحافظُ ابنُ حجر ، حيثُ مالَ هُو إِلى تضعيفِه فقط ، وهو الصوابُ .

مع أَنَّ للحديثِ طريقًا أُخرى عن ابن مسعود ، وشاهدًا مُرسلًا ، كما تراه فيما يأتي (٢ / ٢٣٧) .

٨ - في (١ / ٥٠٥) ضعّف حديثَ : « لو لم تُذنِبوا لَخِفْتُ عليكم ما هو أَشدُّ مِن ذلك ؛ العُجْب » وقال : « إِسناده مُنكر » !

مع أَنَّ للحديثِ طريقًا آخَرَ عن أَبي سعيدٍ الخُدريِّ ، وقد ثبّتَهُ العُقيلي والمُنذري والهيثمي وغيرهم .

وانظر ما سيأتي (٢ / ٢٧٨) .

٩ - ضعّف في (٢ / ٣٤٠) حديثَ : « إِذا تطيّرْتَ فلا ترجِعْ » ، كونَه « مُرسلًا أو مُعضلًا » !!

ولم يذكر شواهدَه التي منها حديثُ حارثة بن النُعمان عند الطبراني ، وغيرُهُ عند غيرِه .

١٠ - ضعّف في (٢ / ٣٤٢) حديثَ رُويفِع بن ثابت : « .. حتّى إِنَّ

أَحدَنا لَيَطِيرُ له النصلُ والريشُ .. »)، بقولِه : « أخرجه أبو داود بإِسناد ضعيف » !

ولم يذكُر - ولا أَدري لماذا[١] ؟! - أَنَّ له طريقًا أُخرى في « سُنن أَبي داود » عَقِبَ ذاك مُباشرةً بسند صحيح !!

وله - أَيضًا - طريقٌ ثالثةٌ في « المُسْنَد » ، كما سيأتي (٣ / ٢٧٥) .

١١ - ضعَّف في (٢ / ٢٤٣) حديثَ : « أَخَذْنا فَأْلَك مِن فيك » مُعِلًّا إياه بالجهالةِ ! ثمَّ ذكر له إِسنادًا آخرَ فيه متروكٌ !!

أَمَّا الجهالة المذكورة فهو يريد بها الإِبهام ، فإِنَّ في السند المُشار إِليه راويًا مُبهمًا !!

ولكنَّ هذا الإِبهام زال وانْدَفَعَ بروايةٍ أُخرى لم يُوردها (المُحقّق) ، ولعلَّه لم يَقِفْ عليها !!

ثمَّ له شواهدُ أُخرُ ترى الإِشارةَ إِليها والكلامَ عليها في (٣ / ٢٧٧) من كتابنا هذا .

١٢ - ردَّ في (٢ / ٣٥٠) حديثَ : « دَعُوها ، ذميمةً » ناقلًا عن الإِمام البُخاريِّ قولَه فيه - بعد روايتِه له في « الأَدب المُفرد » - : « في إِسناده نَظَر » ، ثمَّ قال (المحقّق) : لعلَّه مِن أَجل ضعفٍ في عكرمةَ ، ومسلمٌ يحتجُّ بحديثِه ، والظاهرُ أَنَّ في بعض حديثِه نكارةً واضطرابًا » !!

أَمَّا البُخاريُّ رحمه اللَّه فإِعلالُه لحديثِ عكرمةَ مُقَيَّدٌ بروايتِهِ عن يحيى بن أَبي كثيرٍ كما قاله الحافظُ ابنُ حجَر ، وليس هذا الحديث من روايتِه !

---

(١) ولعلَّه غَفَلَ عنه ولم يتنبَّه له ؛ لأَنَّ أَبا داود عَطَفَ ذِكْرَ المتن على سابقِه ، مُكتفيًا بإِيراد السند ، واللَّه أَعلمُ .

ومَعَ ذلك فالحديثُ له شواهدُ وطُرُقٌ عدّة ، تقوّيه ، فانظر ما سيأتي (٢ / ٥١٩) .

أَقولُ : وعنده أَحاديثُ أُخَرُ مِن هذه البابةِ أَعرضتُ عنها هُنا !

وأَمَّا القسم الثالث :

ثالثًا : في العَزْوِ :

فكثيرٌ[١] ..

وأَسوقُ ها هُنا أَمثلةً عليه ، تَدُلُّ على أَلْوانِ ما وَقَعَ له :

١ - عزا في (١ / ٣٠) حديثَ أَبي هريرة القُدُسيِّ : « إِنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ يسأَلُ الملائكةَ .. » لمسلمٍ !

وهو - أَيضًا - في « صحيح البخاري » .

٢ - عزا في (١ / ٤٤) حديث : « اطّلعت في الجنَّة فرأَيتُ أَكثرَ أَهلها الفُقراء .. » للبخاري[٢]! عن عمران بن حُصَين !

وهو في « صحيح مسلم » - أَيضًا - عن ابن عبَّاس[٣].

٣ - وفي (١ / ٨٦) تعليقًا على قولِ المُصنِّف : « وفي الصحيح عن البراء بن عازب رضي اللَّه عنه في قولِه تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ الله الذين آمنوا . . . ﴾ ، وقال : نزلت في عذاب القبر .. » قال (المُحقِّق) : « حديثٌ حسنٌ إِنْ شاء اللَّه ، وهو مختصر حديث البراء ، أَخرجه عبدالرزَّاق و .. و .. » !!

أَقولُ : بل هذا حديثٌ آخرُ تمامًا !

وهو مرويٌّ في « الصحيحَين » باللفظِ نفسِه ، كما قال المصنِّفُ ، فانظر ما سيأتي (ص ٢٠٧) .

---

(١) وهي تكشفُ حقيقةَ دعاوى (التتبُّع) و (السَّبْر) ! سائلًا اللهَ - سبحانه - أَن يُلهِمَنا الصَّبْر !!

(٢) مُتابعةً للمصنِّف .

(٣) وهو مُعلَّق عند البخاري (٦٤٤٩) .

٤ - عزا المؤلِّف (١ / ١٤٧) حديثَ « كِلا المجلسين على خير .. » إلى ابن ماجه في « سننه » من حديث عبدالله بن عَمْرو بن العاص » ، فقال (المحُقِّق) : « وهم المؤلِّف في نسبتِه لابن ماجه ، لم أَجده في « السنن » ، ولا ذكره المِزّي في « التحفة » ، ولم يعزه أَحدٌ إليه » !

يا لَلَّهِ العَجَبُ !!

فالمؤلِّفُ - أَوَّلًا - مُصيبٌ في نسبتِه ، فهو في « سُنن ابن ماجه » (برقم : ٢٢٩) !

والمِزّي ذكره في « التحفة » (٦ / ٣٥٥) !

وعزاه إليه غيرُ واحدٍ مِن أَهل العلمِ ، كالعراقي في « تخريج الإِحياء » (١ / ١٠) !

فماذا أَقول !!

٥ - عزا في (١ / ٢٠٨) حديثَ : « اللهم إِنِّي أَعوذ بك مِن الهمِّ والحزَن .. » للبخاري !

وهو في « صحيح مسلم » أَيضًا .

٦ - عزا في (١ / ٢٢٨) حديثَ : « أَمّا أَحدُهم فآوىٰ إِلى اللَّه .. » للبخاري !

وهو في « صحيح مُسلم » أَيضًا .

٧ - عزا في (١ / ٢٣٢) حديثَ : « اسمع ! سَمِعَتْ أُذنك ، وعقل قلبك » لـ « الترمذي بهٰذا اللفظ ، والبخاري » !

أَقولُ : وسند الترمذيِّ فيه ضعفٌ ، لكنَّه يعتضدُ بما قوَّاه به الحافظُ في

« الفتح » (١٣ / ٢٥٦) و « التغليق » (٥ / ٣٢١) .

أَمَّا روايةُ البخاري فليس فيها موضعُ الشاهد الذي أَورده المصنِّفُ مِن أَجلِه .

فلا بُدَّ مِن التنويه ، أَو أَنْ لا تُذْكَرَ لِعَدَم الجَدْوَىٰ!

٨ - عزا في (١ / ٣٢٢) حديثَ الإِسراءِ للمتّفق عليه عن أَنس !!

وإِنَّما هو عنه عن مالك بن صَعْصعة .

٩ - قال المؤلّف في (١ / ٣٢٤) : « وقال محمَّد بن علي الباقر : عالم يُنتفع بعلمِه أَفضل مِن .. » فعلّق (المُحقّق) بقولِه : « جامع بيان العلم » !!

دون أَنْ يُنبِّه أَنَّ المذكورَ في « الجامع » إِنَّما هو عن جعفر بن محمَّد !!

١٠ - أَورد المؤلّف في (١ / ٣٩١) قولَ ضِمام بن ثعلبة للنَّبيِّ ﷺ : « بالذي نَصَبَ الجبال » فعزاه (المحقِّق) للنَّسائي ، ثمَّ قال : « وأَخرجه البخاري (٦٣) وغيره » !

أَقول : ومسلمٌ أَيضًا ، **لكنْ** كروايةِ البُخاري ؛ دون موضع الشاهد الذي أَورده المصنِّفُ مِن أَجله !!!

فتنبَّهْ !

١١ - عزا في (١ / ٣٩٩) حديثَ : « إِذا أَنشأَتْ[1] سحابةٌ بحريّةً .. » لـ « الموطأ » بلاغًا ، ثمَّ قال : (وقال ابنُ عبدالبرّ : هذا الحديثُ لا أَعرفه بوجهٍ من الوجوه في غير « الموطأ » ، إِلَّا ما ذكره الشافعيّ في « الأُم ») !!

ولم يذكر (المُحقِّق) مِن أَين (نَقَلَ) كلامَ ابنِ عبدالبرّ !!

وإِنَّما (تناوَلَه) مِن حاشية الأُستاذ محمَّد فؤاد عبدالباقي - رحمة اللَّه عليه -

---

(١) والصَّواب : « نشأت » !

على « الموطَّأ » ، وهذا الأَخير (أَخذه) مِن « شرح الزرقاني » (١ / ٣٨٩) !!!

١٢ - و (للمُحقِّق) مثلُ هذا (الصَّنيع) في (٢ / ٣٦٧) حيثُ عزا حديثًا لـ « جامع ابن وهب » (ص ٧) !!

ولم يذكر مصدرَ (تناوُلِه) له !

وإنَّما هو - كما هو معروفٌ لمن يعرفُ ! - من كلام شيخنا الأَلباني في « الصحيحة » (٩٠٤) (١٠٤٠) ، بدليلِ أَنَّ المؤلِّف نفسَه - رحمه اللَّه - قد عزا في (٢ / ٣٧٢) - بعد خمس صفحاتٍ فقط - حديثًا آخرَ لابنِ وهب صراحةً ، فقال (المحُقِّق) : « لم يذكر له إِسنادًا .. » !!

مع أَنَّه - كما ستراه في كتابنا (٢ / ٥٥٢) مرويٌّ في « جامع ابن وهب » - أَيضًا - (ص ٧) سواءً بسواءٍ !!

فلو كان نَقَلَهُ منه لنَقَلَهُ منه !!! وبخاصّةٍ أَنَّ الحديثين - كما هو ظاهرٌ - في الصفحة ذاتها !!

١٣ - أَورد المؤلّف في (١ / ٥٠٢) (أَثرًا) فيه حديثٌ قُدُسيٌّ : « أَنَا الجواد ، مَن أَعظم منّي جودًا ! ... » ! فقال (المحُقِّق) : « في هذا المعنى أَحاديثُ منها حديث عائشة عند البخاري .. ومسلم .. » !!!

أَقولُ : ليس هُو ، ولا قريبًا منه !!

وإِنَّما هذا حديثٌ موضوعٌ رواه الديلميُّ !!

وانظر (٢ / ٢٧١) فيما يأتي .

١٤ - وفي (٢ / ٣٤) : حديثُ عبداللَّه بن أُنيس : « قال : بَعَثني رسول اللَّه ﷺ إِلى خالد بن سفيان العرني .. » ، له في عَزْوِهِ خَلْطٌ ظاهرٌ في العَزْو

ودقَّتِه بين الأَسانيد والمُتون، يُقابَلَ ما ذكره فيما سَطَرْتُهُ ممّا سيأتي (٢ / ٣٥٧) .

١٥ - قال في (٢ / ١٣٦) تعليقًا على حديثِ : « أفلا أَكون عبدًا شكورًا » : « أَخرجه البخاري .. ومسلم من حديث عائشة » !

أَقول : روايةُ البخاري إِنَّما هي عن المُغيرة !

١٦ - ذكر المؤلِّف (٢ / ٣٤٨) أثرًا، ثمَّ قال : « وقد رُفع هذا الحديثُ » !!

فـ (خرَّج) (المُحقِّقُ) الأَثر بذكر مصادره قائلًا : « أَخرجه الخطيبُ ... و .. و .. من حديث أَبي الدرداء بِإسنادٍ لا يصحُّ » !!

فأَين الموقوفُ مِن المرفوعِ منها ؟!

جميعُ المصادر التي ذكرها الأَثرُ فيها (مرفوعٌ) سوى ابن عبدالبرّ فرواه موقوفًا !!!

و (المُحقِّق) خَلَطَ المصادرَ كلَّها بعضَها ببعضٍ !

١٧ - أَورد المؤلِّفُ (٢/٣٧١) كلامًا للإِمام أَبي داودَ في « سُننه » في سَرْدِ أَسماءِ مَن غيَّر أَسماءَهم النَّبيُّ، ثمَّ قال أَبو داود: «تركتُ أَسانيدَها للاختصار » .

فعلَّق (المحقِّقُ) قائلًا : « أَخرجه « سنن أَبي داود » ... » !!

ما هو الذي أَخرجه وإِنَّما هو كلامُهُ ؟!

والَّذي سَكتَ عن إِخراجِهِ وذِكْرِ أَسانيدِهِ لماذا لم تُخَرِّجْهُ ؟!

وانظر ما سيأتي (٣ / ٣١٨ - ٣٢٠) لمعرفة تخريجها تفصيلًا .

١٨ - أَورد المؤلِّف (٢ / ٣٧٩) حديثَ السيدة عائشةَ رضي اللَّهُ عنها : « ما تزوّجني رسول اللَّه ﷺ إِلَّا في شوَّال .. » ، فعزاه (المحقق) للترمذي وابن ماجه !!!

مع أنَّه في « صحيح مسلم » (١٤٢٣) .

١٩ - نقل المؤلِّف (٢ / ٣٩٩) عن ابن قُتيبة حديثًا رواه بسنده ، قال : حدَّثنا اسحاقُ بن راهويه : أَخبرنا عبدالرزَّاق ، عن مَعْمَر ، عن إِسماعيل ابن أبي[1] أُميَّة ، قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ : « ثلاثٌ لا يسلَم منهن أَحد : الطِّيَرة ، والظن ، والحسد(*) » ، قيل : فما المخرج منهن ؟ قال : « إِذا تطيرت، فلا ترجع ، وإِذا ظننت فلا تحقق ، وإِذا حسدت فلا تبغ »(*) هذه الأَلفاظ أَو نحوها » .

فعلَّق (المحقِّق) على موضع النجمة الأُولى بقوله : « حديثٌ مرسل مفصل[2]، إِسماعيل بن أُميَّة يروي عن التابعين ، وقد ذكر الحديثَ أَيضًا ابن حجر « الفتح » (١٠ / ٤٨٢) !! » .

وعلَّق على موضِع النَّجمة الثانيةِ بقولِه : « مرّ في معناه أَحاديث » !!

مُتَوَهِّمًا أَنَّهما حديثان !

وإِنَّما هما حديثٌ واحدٌ ، وقد خرَّجه هو (بنفسِه) في (٢ / ٢٤٠) من نُسختِهِ !

وانظر (٣ / ٣٦٩) من كتابنا هذا .

٢٠ - أَورد المصنِّف (٢ / ٣٩٧) حديث : « لا يُوْرِد ذو عاهةٍ على مُصِحّ » ، فعلَّق (المحقّق) قائلًا : « المشهور في كتب الحديث هو : « لا يُورِد مُمْرِض على مُصحّ » ، وهو لفظُ الصحيحين » !!!

كذا هنا ! مع أَنَّه عزاه (بنفسِه) فيما سبق من نُسخته (٢ / ٣٥٨) إِلى

---

(١) كذا (!) و (أَبي) زائدةٌ !!

(٢) هذا خطأٌ مطبعي عنده ، والصَّواب : « مُعْضَل » .

مسلمٍ وحدَه[1] !!

٢١ - قال في (١ / ١٦٩) في حديثٍ : « تقدّم تخريجُه » !!

.. ولم يتقدَّم !!!

٢٢ - وقال في (١ / ٢١٧) في حديثٍ : « تقدم تخريجُهُ » !!

... وإنَّما ذاك آخرُ !!

أقولُ : وهٰذانِ الحديثانِ - الأَخيرانِ - يفتحانِ لنا بابًا جديدًا مِن النقد لِعَمَلِ (المحقِّق) مِمّا يُعَدُّ خَلَلًا في (التحقيق) !!

وهو : أَحاديثُ (لم يقِف عليها) أَو (لم يُخَرِّجها)[2]!! وهي كثيرةٌ جدًّا : (فمِن) الأَحاديث التي لم يَقِفْ عليها :

١ - أَورد المؤلِّفُ (١ / ١٢٠) حديثَ : « مَن غَدَا لعلم يتعلَّمُهُ ، فَتَحَ اللَّهُ له به طريقًا إِلى الجنَّةِ ، وفَرَشَتْ له الملائكةُ أَكنافَها ... » ، فعلَّق عليه (المحقِّق) بقولِه : « ذكره ابنُ عبدالبرّ (١ / ٣٧) هكذا ، ولم يُسنده ، وهذا إِسناد ضعيف .. » !!!

فخرَّجهُ مُعلَّقًا هكذا !! مع أَنَّه موصولٌ عند جماعةٍ من المُصَنِّفين ، كما ستراه في (١ / ٢٥٤) من كتابنا هذا .

٢ - قال المؤلِّف في (٢ / ١٣٦) : « وفي الحديث المرفوع **المشهور** : « إِنَّ مِن الملائكة مَن هو ساجدٌ للَّه ، لا يرفعُ رأسَه منذ خُلِقَ ... ، فعلَّق عليه (المحقِّق) بقولِه : « يُشبِه أَنْ يكونَ ضعيفًا » !!!

---

(١) تَبَعًا للمصنِّف رحمه اللَّه .

(٢) وأَنا أُفرّق بين النوعين ، فتأَمَّلْ !!

هكذا !! يقولُ « يُشْبهُ » دون مصدرٍ ! ومن غير بيِّنةٍ !! وكأنّهُ بُخاريُّ زمانه !! أَو مَدِينيُّ أَوانِه !!

مع أَنَّ الحديث حسن الإِسناد ، ورواه جماعةٌ مِن المُصَنِّفين في تواليفهم ، كما ستراه في هذا الكتاب (٢ / ٥٠٨) .

٣ - أَورد المؤلِّف في (٢ / ٣٧٢) حديثَ : « لا تسمُّوه السائب ، وسمُّوه عبدَاللَّه » ، مُشيرًا إِلى أَنَّه ذكره ابنُ وهب ، فقال (المحقِّقُ) : « لم يذكر له إِسنادًا .. » !!

مع أَنَّه في « جامع ابن وهب » (ص ٧) ، كما سبقت الإِشارةُ إِليه[١]، وبيانُ ما فيهِ !

٤ - وأَورد المؤلِّفُ (٢ / ٣٩٧) حديثَ : « لا يُورِدُ ذو عاهةٍ على مُصِحٍّ » ، فعلَّق من حقَّق بقولِه : « المشهور في كتب الحديث هو : « لا يُورِد مُمْرِض على مُصِحّ » ، وهو لفظُ الصحيحين » !!

هكذا !! فغَيْرُ المشهور ، ما هو مصدرُهُ ؟!

وما هي دَرَجَتُهُ ؟!

سترى - أَخي طالبَ العلمِ - في (٣ / ٣٦٦) من كتابنا هذا مصدرَه ودرَجَتَه !

أَقولُ : وأَستطيعُ أَن أُلحقَ بما أَوردتُه له مِن أَحاديثَ لم يَقِفْ عليها عَشَراتِ غيرَها ، لكنّي لن أَجزمَ بذلك ، جاعلًا إِيَّاها محتملةً لذلك ، والاحتمالُ الآخر - وإِنْ كان ضعيفًا جدًّا - هو السهوُ والذُّهولُ !!

---

(١) انظر (ص ٧٦) ممَّا تقدَّم .

مِن ذلك :

١ - في (١ / ٦٢) قولُ آدمَ يومَ القيامةِ : وهل أَخرجكم منها إِلَّا خطيئةُ أَبيكم ؟ » !!

لم يُخرِّجه ، ولم يُشِرْ إِلى أَيِّ مصدرٍ له !

٢ - في (١ / ٧١) عدّة رواياتٍ سَرَدَها المؤلِّفُ مُتتاليةً ، لم يُخرِّج منها شيئًا !!

٣ - في (١ / ٨٩) حديثُ : « إِنّكم محشورون إِلى اللَّه حُفاةً عُراةً غُرلًا » ، لم يُخرِّجه ! ولكنْ عليه علامةُ العَزْو ، فلعلّه سقط من الطباعة !!

٤ - أَورد المؤلِّف (١ / ١٢٤) حديثَ : « إِذا كان يومُ القيامةِ يقولُ اللَّه للعابد ... » ، فلم يُخرِّجه !

٥ - أَورد المؤلِّف (١ / ١٢٩) حديثَ أَبي هُريرة : « هذا ميراثُ محمَّد ﷺ يُقسم بين وَرَثَتِه .. » فأَعرض عنه (المُحقِّق) !!

٦ - أَورد المؤلِّف (١ / ١٤٩) لفظًا آخرَ لحديث الرجل الذي كان يحبُّ سورةَ الإِخلاص ، فلم يُخرِّجه !! ولعلَّه توهَّم أَنَّه تابعٌ لِما قبلَه !!

٧ - أَورد المؤلِّف (١ / ١٨٢) حديثين ، فلم يتكلَّم عليهما بشيء !!

٨ - ومثلُهُ - أَيضًا - حديثان آخران في (١ / ١٩٦) !!

٩ - وكذا حديثٌ مرفوع مُرْسَل[١] في (١ / ١٩٧) !!

١٠ - وفي (١ / ٢٠١) حديث بدء الوحي !!

١١ - وفي (١ / ٢٠٨) حديثٌ آخر !

---

(١) ووقع عنده : « مرفوع ومرسَل » !

١٢ - وفي (١ / ٢١٦) حديثان !!

١٣ - وفي (١ / ٢١٧) حديثٌ !

١٤ - وفي (١ / ٢٢٦) ثلاثة أَحاديث !!!

١٥ - وفي (١ / ٢٣٨) حديثٌ !

١٦ - وفي (١ / ٢٥٢) حديثان !!

١٧ - وفي (١ / ٢٧٤) حديثٌ !

١٨ - وفي (١ / ٢٨٢) حديثٌ ! وأَظنُّ تخريجَهُ سَقَطَ مِن (الطَّبْع) !!

١٩ - وفي (١ / ٣٠٥) حديثٌ !

٢٠ - وفي (١ / ٣٦٨) حديثٌ !

٢١ - وفي (١ / ٥١١) حديثٌ !

٢٢ - وفي (٢ / ٢٣) حديثٌ !

٢٣ - وفي (٢ / ١١٨) حديثٌ ! وأَظنُّ تخريجَه سَقَطَ من (الطَّبْع) !!

٢٤ - وفي (٢ / ١٨٧) حديثٌ !

٢٥ - وفي (٢ / ٢٧٨) حديثٌ !

٢٦ - وفي (٢ / ٢٩١) حديثٌ !

٢٧ - وفي (٢ / ٣١٧) ثلاثة أَحاديث !!!

٢٨ - وفي (٢ / ٣٤٦) حديثان !!

٢٩ - وفي (٢ / ٣٤٩) حديثان !!

٣٠ - وفي (٢ / ٣٥١) حديثان !!

٣١ - وفي (٢ / ٣٩٣) حديثٌ !!

٣٢ - وفي (٢ / ٣٩٧) حديثٌ !!

... **أقولُ** : فهذه نحوُ خمسين حديثًا دون تخريجٍ ، في كتابٍ كُتِبَ عليه : « حقّقه وخرَّج أَحاديثَه ... » !!!

ولتكميل القولِ في هذا السياق أَقولُ :

وله نحو هذا (الصنيع) في أَحاديثَ أُخرى (كثيرة جدًّا) ضمَّن المصنِّف شيئًا مِن معانيها أَو أَلفاظها ، دون التصريح بكونها أَحاديثَ ، سواءٌ أَكانت صحيحةً أَم ضعيفةً !

فلم يُشِر إِلى شيءٍ منها ، ولم يتكلَّم على شيءٍ منها !!

فانظر على سبيل المثال - **لا الحَصْر** - المواضِع التالية : (١ / ١٠٦ و ١٥٤ و ١٩٣ و ٢٤٤ و ٢٦٣ و ٢٧٤ و ٢٧٦ و ٣٦٠ و ٣٩٤ و ٤١٩ و ٤٤٢ و ٤٤٧ و ٤٩٤ و ٥٠٩) و (٢ / ٣٦٢ و ٣٧٠) وغيرها كثيرٌ كثيرٌ !!

ولعلَّ **قريبًا** مِن ذلك ما وقع له في بعض تراجم الرواة :

كمثلِ قولِه في (١ / ١٢١) : « وعُثمان بن أَيمن : لم أَر له ترجمةً » !! مع أَنَّه مترجم في « تاريخ دمشق » لابن عساكر .

وكذا قولِه - في الموضع نفسه - : « وخالد بن يزيد ؛ إِنْ كان ابن عبدالرحمن بن أَبي مالك فضعيفٌ ، وإِنْ كان ابن صالح الدمشقي فصَدوقٌ » !! وهو مُصرَّح بأَنَّه ابنُ أَبي مالك في « شُعب الإِيمان » (١٥٧٦) للبيهقيِّ ، وغيره !

وله مِن مثلِ هذا مواضعُ عدَّة !!

أَقولُ : وصنفٌ آخَرُ ؛ وهو الآثارُ المرويَّةُ عن السَّلَف ؛ فلم يُخَرِّج منها شيئًا يكادُ يُذكرُ !! مُعْرِضًا عن تخريج الغالبيَّةِ العُظمى منها .

وأمَّا القسمُ الرابع ، وهو وما وَهِمَ أَو غَلِطَ فيه :

رابعًا : التصحيفات والتحريفات ، والسَّقط وأغلاط الضَّبْط :

فأَقولُ :

انتشرتْ هذه الصُّنوفُ مِن الخَلَل والخطأ والغَلَط في مَثَاني الكتابِ جميعِه بمجلَّديهِ ، ولا (**تكادُ**) تخلو صفحةٌ منه مِن ذلك، مَرَّت كلُّها على (المُحَقِّقَيْنِ) دونما تحقيق ، ومِن غير تدقيق ..

وقد اسْتَرعى انتباهي تعليقانِ - لم أرَ سواهما مثلَهما في الكتاب كلِّه - أَحببتُ أَنْ أَنقلَهما بدايةً :

في (٢ / ٢٣٧) تعليقًا على قول المؤلِّف : « إنَّ الكواكبَ الّتي مِن النعاد تشبه حال ... » إلخ ، قالا : « هكذا في الأَصل[1]، ولم نقِف على صحَّتِه ، فَلْيُحرَّر » !!

وفي (٢ / ٣٩٨) تعليقًا على سندٍ ذكره المؤلّف : « .. حدَّثني الأَصمعي ، عن بعض البصريِّين .. » ، قالا : (في المطبوع : « المصريِّين » ، والمُثْبَتُ من « تأْويل مُختلِف الحديث ») !!

أَقول : وكان الواجبُ أَن يتكرَّر مثلُ هذين التعليقين في عشراتِ المواضع المُشْكِلة مِن الكتاب ، التي انتشرتْ فيها أَلوان الغَلَط ، أَو اللَّبس ، أَو الإِشكال !! فلماذا هنا وهناك (فَقَط) ؟!!

وكنتُ أَوَدُّ - جدًّا - أَنْ أُلحِقَ هذه الأَغلاطَ - بصنوفها - في قائمةِ

---

(١) أَي : المطبوع !

الأَغلاط المطبعيّة[١] ! ولكنْ صدَّني عن ذلك أمران :

الأوّل : أَنَّ عُظْمَها - بل تسعةَ أَعشارِها - مُتابَعَةٌ للمطبوعةِ السَّابقةِ بِعُجَرِها وبُجَرِها !

الثاني : الكثرةُ الكاثرةُ التي يظهرُ للمدقِّقِ - جَلِيًّا - أَنَّها صادرةٌ عن (الطَّبْع) ، وليست من أَغلاط (الطَّبْع) !

.. وقد آنَ الوقتُ لإِيراد (أَمثلةٍ) ممّا ذكرتُ ، أَرجو أَنْ يتّسعَ لها صدرُ (المحقِّقين) ، لما في ذلك مِن خدمَةٍ للعلمِ وأَهلِه ، لا أُريدُ بها مجرَّدَ النَّقدِ للنقدِ !

١ - في (١ / ١٣٠) : « فقيه أَشدّ على شيطان من أَلف عابد » !

سقط منه كلمةُ : [واحد] ، فالصوابُ : « فقيهٌ [واحدٌ] أَشدُّ علي الشيطان ... » إِلخ ، كما في المخطوط ومصادر التخريج .

٢ - في (١ / ١٣٢) : « ورُوي عن عبدالله بن عمرو .. » !

والصواب : « عبدالله بن عُمر » .

٣ - في (١ / ١٣٤) : « .. عن الربيع بن أنس ، قال : قال رسولُ اللّه .. » !

وقد سقطَ منه : [عن أَنس] ، فالصواب : « عن الربيع بن أَنس ، [عن أَنس] قال : قال رسولُ اللّه .. » .

٤ - في (١ / ١٣٥) مِن الشعر الذي أَورده المصنفُ : « تميل ظباه أَخدعا كل مايل » !

والصوابُ : « تُميل ظِباه أخدعي كلِّ مائلِ » .

---

(١) وهي غيرُ موجودةٍ أَصلًا !! ولكنْ فَرَضًا !

٥ - في (١ / ١٤٠) : « عن عبدالله بن عمر .. » !

والصَّوابُ : « عن عبدالله بن عَمْرو .. » .

٦ - في (١ / ٢١٧) : « حدَّثنا هلال بن عبدالرحمن الجعفي » !

والصواب : « .. الحَنَفي » .

٧ - في (١ / ٢٦٢) : « في حديث عبدالله بن عمر » !

والصواب : « عبدالله بن عَمْرو » .

٨ - في (١ / ٣٠١) : « سمعتُ أَبي الخناجر[١] » !

والصواب : « ابنَ أَبي الخناجر » ، كما في المخطوطِ ، وترجمتِه[٢] مِن « سير أَعلام النبلاء » (١٣ / ٢٤٠) .

٩ - في (١ / ٤١٨) : « ثمَّ تأَمَّل أَوَّلًا ذوات الأَربع .. » !

والصواب : « .. أُولي ذوات الأَربع .. » .

١٠ - في (١ / ٤٤٧) : « وقد أَفرد لها الحافظ بن عبد الواحد المقدسيّ كتابًا » !

وقد سقط منه اسمه [محمد]، والصواب : « [محمَّد] بن عبدالواحد » .

١١ - في (١ / ٤٥٢) : « زيادة كبد حوت ذي النون » !

وقوله : [حوت ذي] ! لا أَصل لها في المخطوط ، ولا في نصِّ الرواية !!

١٢ - في (١ / ٤٥٤) : « من حديث عبدالله بن أَبي بكر ، عن أَنس ،

---

(١) وهي هكذا في المطبوع !

(٢) وقد فاتني في تعليقي على « جزء طرق حديث : طلب العلم فريضة .. » (ص ٢٥) موضعُ ترجمتِه ! فَلْيُستدرك .

عن النَّبيّ ﷺ » !

والصواب : « مِن حديث عُبيداللَّه بن أَبي بكر بن أَنس ، عن أَبيه ، عن النَّبي ﷺ » .

١٣ - في (١ / ٤٥٥) : « ولو كان الماءان رقيقان ضعيفان » !

والصواب : « .. رقيقَيْن ضعيفينِ » .

١٤ - في الصفحة نفسها : « بل ينزل من بين ترائبها إلى محلّه ، ومنها : أَنَّها لمّا كانت مملأً .. » !

أَقول : قد سَقَطَ سطرٌ ونِصفٌ ، والصوابُ : « بل ينزل مِن بين ترائبها إِلى محلِّه [بخلاف ماء الرجل ، فلو أُعطيت المرأَةُ تلك الآلةَ تحتاجُ إِلى آلةٍ أُخرى يُوصل بهاء الماءُ إِلى محلِّه] ، ومنها : أَنَّها لمَّا كانت محلًّا .. » ..

١٥ - في (١ / ٤٧٧) : « وقولُه : ﴿ وهم يُسأَلون ﴾ في صلاح تلك الآلهة .. » !

والصواب : « .. نَفْيٌ لصلاحِ تلك الآلهة » .

١٦ - في (١ / ٤٩٥) : « وإِذا كان المتكلّمون عند النَّاس هم هؤلاءِ الطائفتان » !

والصواب : « .. الطائفتين » .

١٧ - في (١ / ١٥٢) : « فقولوا : ربَّنا ولك الحمد ، يسمع اللَّه لكم أَي يجيبكم » !

فَجَعَلَ قولَه : « أَي يُجيبكم » ضِمْنَ الحديثِ داخلَ علامَتي التنصيص ! وإِنَّما هو شرحٌ له !!

١٨ - في (١ / ١٦٦) جَعَلَ الشعر نَثْرًا !!

١٩ - في (١ / ١٨٦) صوَّبَ شِعْرًا (حوّره) المؤلِّف ، وإنَّما هو صوابٌ أيضًا لما استدلّ به عليه !!

٢٠ - في (١ / ٣٠٠) : « وكان محمَّد بن عبدالرحمن إلَّا ، وقص عنقه داخل في بدنِه » !!!

والصواب : « وكان محمَّد بن عبدالرحمن الأَوْقَصُ ... » ! وهذا لَقَبُهُ كما في « نزهة الألْباب » (رقم : ٢٨٠) ، وترجمته في « تاريخ بغداد » (٢ / ٣٠٩) .

٢١ - في (١ / ٣٦٤) : جَعَلَ كلامًا من قول المؤلِّف آيةً ! وذلك بوضِعه بين القوسَينْ المُزهّرين المعروفين !!

٢٢ - في (١ / ٣٩٠) زاد كلمةً في آيةٍ : ﴿ [الله] الذي جَعَلَ لكم الأَرض مهدًا ﴾ ! وليست منها !!

٢٣ - في (١ / ٤٩٨) : « وإنْ كان أَثل الوادي يجمع بيننَا » !

والصواب : « وإنْ كان أَثْلُ الوادِ يجمعُ بيننا » .

٢٤ - في (٢ / ٧) : « إلَّا بالعبور على هذا الجسم » !

والصواب : « .. على هذا الجِسر » .

٢٥ - في (٢ / ٢١) : « وإنْ لم يرد النَّبيَّ عنه شرع » !

والصواب : « وإنْ لم يرد بالنَّهي عنه شرعٌ » .

٢٦ - في (٢ / ٢٦) : « وإذا كان هذان القِسمان موجودان » !

والصواب : « وإذا كان هذا القسمان موجودين » .

٢٧ - في (٢ / ٢٦) : « .. وإمَّا لأَنَّ المنفعةَ الحاصلةَ للساحر ، لمَّا كانت مغمورةً مُستهلكةً في جَنْب المفسدةِ العظيمةِ فيه ، جُعلت كُلًّا منفعةً . » !

والصَّواب : « .. كَلَا مَنْفعَةٍ » ، وهو استعمالٌ عربيٌّ معروف ، وقد استعمَل المؤلّفُ مثله في (٢ / ١٣٩ - طبعة الجيل) !!

٢٨ - في (٢ / ٤٠) : « فقال : « أَما فإِنَّك إذا توضّأت .. » !

وقد سقط منه كلمة [الوضوء] ، والصواب : « .. أَمَّا [الوضوء] ؛ فإِنَّك .. » .

٢٩ - في (٢ / ٤٧) : « ترتب المعلومات والمسببات على عللها وأَسبابها » !

والصواب : « ترتُّب المعلولات و ... » .

٣٠ - في (٢ / ٤٨) : « فلمَّا عرفت علَّته ، يعني حكمته ، والفقه ، وعرفت ما تضمنه .. » !

والصواب : « فلمَّا عرفت علَّته - يعني حكمَته - وأَلِفَتْهُ ، وعرفت ما تضمّنه » .

٣١ - في (٢ / ٦٢) : « فإِنَّ الفعلَ لو حَسُن لذاتِه أَو لصفتِه ، لكان راجعًا على الحسن في كونِه .. » !

والصواب : « لكان راجعًا على القُبْحِ في كونِه .. » .

٣٢ - في (٢ / ٦٣) : « بل القادر المختار لا يُرجّح أَحد مقدريه على الآخر إِلَّا بمرجح » !

والصوابُ : « أَحد مقدوريه » .

٣٣ - في (٢ / ٦٨) : « وكذلك الإمام سعيد بن علي الزنجاني » !

والصواب : « سَعْد » .

٣٤ - في (٢ / ٨٤) : « وهو مِن أَقبح النسبة وأَخبثه » !

والصواب : « .. التشبيه » .

٣٥ - في (٢ / ٩٣) : « وأَوجبوا على الربِّ تعالى بها ، وحرموه وشبهوه بخلقه في أَفعاله » !

والصواب : « .. وحرّموا ، وشبّهوه » .

٣٦ - في الصفحة ذاتها : « فلزمهم بذلك اللوازم الشنيعة » !

والصواب : « .. فَلَزِمَتْهُ بذلك .. » .

٣٧ - في (٢ / ٩٨) : « وهل هذا إِلَّا دعوة مجرّدة » !

والصواب : « دعوىٰ » .

٣٨ - في (٢ / ٩٨) : « أَو ضروريًّا بوسط » !

والصواب : « .. بواسطة » .

٣٩ - في (٢ / ١٠١) : « وكونها محمودة مشكورة مثني على فاعلها » !

والصواب : « .. مُثْنًى » على فاعلها » .

٤٠ - في (٢ / ١٠٣) : « وأَتباعهم محبوسون في قبور تلك العبارات » !

والصواب : « في قُيُودِ .. » .

٤١ - في (٢ / ١٠٦) : « ولا بد أَن تكن قضاياه .. » !

والصواب : « أَنْ تكونَ » .

٤٢ - في (٢ / ١٠٧) : « قولكم مِن منارات الغلط .. » !

والصواب : « قولكم : مِن مَثَارات الغَلَط » .

٤٣ - في (٢ / ١١) : « وكون الإِنقاذ مُوافقًا للغَرَض ، وتركه مُخالفًا له ، لا ينبغي أَن يكون في ذاتِه ... » !

والصوابُ : « .. لا يَنْفي .. » .

٤٤ - في (٢ / ١١٣) : « فإِن فرض حيث لا تنافيه » !

والصواب : « .. حيثُ لا ثناءَ فيه » .

٤٥ - في الصفحة ذاتها : « كيف والكذب مُتضمّن لفساد وتظلم العالم » !

والصواب : « .. لفساد نَظْم العالَم » .

٤٦ - في (٢ / ١١٥) : « إِلى مُجرد العادة والمنشأ والوباء » !

والصواب : « والمنشأ والمَرْبىٰ » .

٤٧ - في (٢ / ١١٥) : « لا أَنَّكم لا تثبتون علّته » !

والصواب : « .. لا تَثْبُتُونَ عَلَيْهِ » .

٤٨ - في (٢ / ١٥١) : « إِنَّ الشرائع تأتي بمجازات العقول ، لا بمحالات العقول » !

والصوابُ : « .. تأتي بمَحَارات العقول .. » .

٤٩ - في (٢ / ١٧٣) : « فإِنَّ ثبوت الوجود بدون نظر المكلف .. » !

والصواب : « .. ثبوت الوجوب .. » .

٥٠ - في (٢ / ١٩٣) : « قيل لكم : صِغَر الجنَّة لا يوجب ضعف الأَثر .. » !

والصواب : « .. صِغَر الجُـثَّة » .

٥١ - في (٢ / ١٩٥) : « وهل هذا إِلَّا دور ممتنع في بداية العقول ؟! » !

والصواب : « في بَدَائه العقول » .

٥٢ - في الصفحة ذاتها : « أَنَّ هؤلاء لمَّا عجزوا عن معرفة طالع القرآن ، أَقاموا طالع السنَّة مقام القرآن ، ومعلوم أَنَّ هذا غاية في الفساد » !

والصواب : « .. عن معرفة طالع القِرَان ، أَقاموا طالعَ سُنَّة القِرَانِ مقام القِران .. » !! وهي اصطلاحاتٌ فَلَكيَّةٌ، ليست ذات صِلَةٍ لا بِقرآنٍ ولا بسنّةٍ !

٥٣ - في (٢ / ٢٢٤) : « وعلى حسب محاسدة بعضها بعضًا » !

والصواب : « مُحاشَدة » .

٥٤ - في (٢ / ٢٢٧) : « فصارت ستة ذكورًا وستة إِناثًا ، وليست على الأَوائل ، واحد ذكر وثلاثة أُخر أُنثى » !!

والصواب : « .. وليست على الولاء، بل واحد ذكر، وثلاثة أُخَر أُنثى » .

٥٥ - في (٢ / ٢٤٠) : « قالوا : إِنَّهم متوسّطة » !

والصواب : « فأَلوانهم متوسِّطة » .

٥٦ - في (٢ / ٣٢٠) : « ومنها الجزاية » !

والصواب : « الخزَارة » .

٥٧ - في (٢ / ٣٢٧) : « وكان حكمه فيهم أَن يضربوا بالحديد » !

والصواب : « بالجريد » ..

٥٨ - في الصفحة ذاتها : « ناتئ الجبهة ، سفاط » !

والصواب : « سِناط » .

٥٩ - في (٢ / ٣٣٠) : « في سلاح آدميّ » !

والصواب : « في مِسْلاخ آدميّ » .

٦٠ - في (٢ / ٣٣٣) : « وكذب هذه الطائفة وجهلها وزُرقُها يُغني شهرته عند الخاصة والعامة عند تكليف إِرادة ، وكلّما كان » !!

والصواب : « .. تُغني شهرتُها عند الخاصة والعامَّة عن تكلُّف إِيراده ، وكلَّما كان [المنجم أَكذب ، بالزَّرْق أَعرف ، كان على الجُهَّال أَدْرَجَ] » .

وما بين المعكوفتين ساقطٌ منه !!

٦١ - في (٢ / ٣٣٣) : « قبل أَن ينتبه النَّاس من نومهم ليلًا ، يسمع عُطاسًا » !

والصوابُ : « .. مِن نومِهم ، لئلّا يسمعَ عُطاسًا » .

٦٢ - وكرّرها في آخر الصفحة ذاتها !!

٦٣ - في (٢ / ١٢٣) : « قولكم : إِنَّ الإِغراق والإِهلاك بخس منه تعالى » !

والصوابُ : « .. يَحْسُنُ منه تعالى » .

٦٤ - في (٢ / ١٢٤) : « قولكم : العقلان مِن حيث الصفات .. » !!

والصوابُ : « الفِعْلان » .

٦٥ - في (٢ / ١٥٠) : « وإِمَّا اصطلاح طار سيم » !!!

والصوابُ : « وإِمَّا اصطلاحٌ طارٍ ، سمَّيْتُم .. » .

٦٦ - في (٢ / ١٩١) : « مع كون هذه الكواكب عبيده وخَلْقٌ مسخر بأَمره » !!

والصواب : « .. وخَلْقًا مُسَخَّرًا بأَمره » .

٦٧ - في (٢ / ٢٠٤) : أَوْرَدَ المؤلِّف شعرًا :

« برزوا نحوهم بسبعة آلا ف أَن يهم عجائبا .... » !

هكذا أَثبته !

والصوابُ :

بَرَزوا نحوهم بسبعةِ آلافٍ أَرَتْهُمُ عجائبًا في اللقاء

٦٨ - في (٢ / ٢٠٩) : « ووضعوا آلة الذبح المسمّى » !

والصواب : « آلة الزِّيج » .

٦٩ - في (٢ / ٢١٠) : « لما أَنذرهم به الكذَّابون من اللَّه رب العالمين .. » !!

وقد سقط منه : [النَّاس ، فأَذِنَ] ، والصواب : « لِمَا أَنذرهم به الكذَّابون مِن [النَّاس ، فأَذِنَ] اللَّهُ ربُّ العالَمين » .

٧٠ - في (٢ / ٢٢٩) : « في تمام اثني عشر درجة » !

والصواب : « ثِنْتَيْ عشرةَ درجةً » .

---

(١) وانظر ما يأتي (٢ / ٣٠١) .

٧١ - في (٢ / ٢٣٠) : « وليس ذلك عائد إلى طبيعة العضو » !

والصواب : « وليس ذلك عائدًا إلى .. » .

٧٢ - في (٢ / ٢٤٦) : « وكذلك حشرة الأَرض » !

والصواب : « حُرُوشُ الأَرض » .

٧٣ - في (٢ / ٢٥٠) : « وكان تركهم لهذه المقاتلة خيرًا لهم منها » !

والصوابُ : « المُقابَلَة » .

٧٤ - في (٢ / ٢٨٠) : « المفضل بن سهل » !

والصوابُ : « الفَضل بن سهل » .

٧٥ - في (٢ / ٢٨٥) : « عبدالرحمن بن ساباط » !

والصوابُ : « .. بن سابِط » .

٧٦ - في (٢ / ٢٨٨) شِعر :

كأنَّها برج رومي يشــيده بأَن يجص وآجر وأَحجار !!

والصوابُ :

كأنَّهـــا بُرْجُ روميٍّ يُشَيِّدُهُ بَانٍ بِجِــصٍّ وآجُرٍّ وأَحــجارِ

٧٧ - في (٢ / ٢٩٠) : « وحري إن كانت دار مملكتهم » !

والصواب : « وحرًانُ كانت ... » .

٧٨ - في (٣١٧) : « خير من قتيل قتلوه » !

والصواب : « خيرُ قتيلٍ مَن قتلوه » .

٧٩ - في (٢ / ٣٤٥) : « عن ذر عن عبدالله بن مسعود » !

والصواب : « عن زِرّ عن عبدالله بن مسعود » .

٨٠ - في (٢ / ٣٤٨) : « وتوكل على الله ، وقطع بأَحسن الطيرة .. » !

والصواب : « وقَطَعَ هاجِسَ الطِّيرَةِ » .

٨١ - في (٢ / ٣٤٧) : « قال أَبو عبيدة في « الغريب » .. » !

والصواب : « أَبو عُبَيد » .

٨٢ - في (٢ / ٣٥٩) : « فقال الحارث بن أَبي ذئاب » !

والصواب : « ... ذُباب » .

٨٣ - في الصفحة ذاتها : « وقال مسدد : حدَّثنا يحيى بن هشام ، عن يحيى بن أَبي كثير » !

وقد سقط منه : [سعيد ، عن] ، والصواب : « .. حدَّثنا يحيى بن [سعيد ، عن] هشام .. » .

٨٤ - في (٢ / ٣٦٧) : « عن ابن ربيعة .. » !

والصوابُ : « عن ابن لهيعة » .

٨٥ - في (٢ / ٣٦٩) : « سمعتُ أَو كان » !

والصواب : « سمعتُ أَوْسًا » .

٨٦ - في (٢ / ٣٧٤) : « إِذ قد تنزل بالإِنسان بلا مشيئةٍ بما في اسمه » !

والصوابُ : « .. ينزل بالإِنسانِ بلاءٌ مُشَبَّهٌ بما في اسمه » .

٨٧ - في (٢ / ٣٧٩) : « ومُعاوية بن حكيم » !

والصواب : « وحكيم بن مُعاوية » .

٨٨ - في (٢ / ٣٨٧) : « أَنَّه [ﷺ] رأَى في منامه أَنَّه يقرأ النحل » !!!

والصواب : « أَنَّه رأَى في منامِه بَقَرًا تُنْحَرُ » .

٨٩ - في (٢ / ٣٩٨) : « نحو حلوان » !

والصواب : « نحو سَفَوان » .

٩٠ - في (٢ / ٤٠٠) : « والمد في الأَصب » !

والصواب : « والمدّ في الأُمْنِيَّة » .

.... **أَقولُ** : فهذا نَحْوُ مئةِ موضعٍ ، وما تركتُهُ أَكثر ، فانظر على سبيل المثالِ - وقارِنْ - : (١ / ٦٦ و ١٥٨ و ٤٦٤ و ٤٨٠ و ٨٩) و (٢ / ٨٩ و ١٥٥ و ١٨٥ و ١٩٢ و ١٩٣ و ٢٢٤ و ٣٣٣) و (١ / ١٩٩ و ٤٩١) و (٢ / ١٣ و ٢٤٨ و ١٢٣ و ١٢٥ و ١٢٧ و ١٣٠ و ٢٠٥ و ٢٠٧ و ٢٠٩ و ٢١٠ و ٢١٧ و ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٤٨ و ٢٨٥ و ٢٨٨ و ٢٥٧ و ٢٥٩ و ٢٦١ و ٢٦٢ و ٢٧٣ و ٢٨٢ و ٢٨٣ و ٣٤٣ و ٣٩٧ و ٣٧٤ و ٣٩٦ و ... » و (١ / ٩٠ و ٢٢٩ و ٥٢٠ و ٣٥ و ١٢٠ و ١٢٦ و ١٩٣) ، و (٢ / ٤١ و ٥٨ و ٦٢ و ٨ و ٩٣ و ١٢٥ و ٢٠٦ و ٣٨٠) !!

وغيرُها كثيرٌ ..

وَبَعْدُ :

فإِنَّ ما سَبَقَ وأَوردتُه في هذه المقدِّمة - وقد طال - ليس كلُّه - عِندي -

مَحْضَ الصواب - وإِنْ كنتُ إخالُهُ كذلك - بل إِنَّ بعضَه مِمّا يحتملُ الخطأَ ، وتجوزُ فيه المناقشة ..

وعليه ؛ فإِنَّ مجالَ الأَخذ والردِّ مفتوحٌ بضوابطِه العلميَّةِ الدقيقةِ ، لا بمجرَّد التشويش ، والتشنيع ، والإِنشاءِ الذي يُحْسِنُهُ كُلُّ أَحَدٍ !!

ولقد حرصتُ فيما كتبتُ أَن يَكونَ قَلَمي لطيفَ العبارة ، حسَنَ التصرُّف ، رقيقَ المأخَذِ ، واللَّهَ أَرجو أَن أَكونَ وُفِّقْتُ فيما أَردتُ ...

ثمَّ ليس بخفيٍّ على ذي نَظَرٍ أَنَّ البحثَ والردَّ والنَّقْدَ مجالٌ رَحْبٌ لمن هو له أَهلٌ ، فيسعدُ به ، ويهنأُ برؤيتِه ، ويستفيدُ بمطالعتِه ، فتزدادُ به القلوبُ محبّةً ، والنفوسُ صَفَاءً .

أَمَّا الَّذين هَمُّهُمُ النقدُ المحْضُ ، والردُّ الجامدُ ، والتشويهُ المُفْتَعَلُ ، فاللَّه حسيبُهم ، والوقتُ أَغْلى مِن أَنْ يضيعَ في تعقُّبهم ..

وأَخيرًا :

فمعذرةً للإِخوةِ القُرّاء ، فإِنَّ هَمَّ العلمِ ثقيلٌ ، وهو فضّاحٌ لمن ليس له أَهلٌ ، فاللهمَّ اجْعَلْنا مِن أَهلِه ، ومِن الصادقين في طلبِه ، ومِن العامِلين بحُكْمِهِ .

وآخر دعوانا أَنِ الحمدُ للَّه ربِّ العالَمين .

وكتب

أَبو الحارث الحلبيُّ الأَثريُّ

مَعَ ظُهر يوم الثلاثاءِ

لخمسٍ بقينَ من شهر جُمادى الآخِر

سنة خمسَ عشرةَ بعد الأَربع مئة والأَلف للهجرة ..

مفتاح دار السعادة

ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة

للعلامة الإمام شيخ الإسلام

شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر

ابن قيم الجوزية

المتوفى سنة ٧٥١ هجرية رحمه الله تعالى

[مقدِّمة المُصنِّف]

الحمدُ للهِ الَّذي سَهَّلَ لِعِبادِهِ المُتَّقينَ إلى مَرضاتِهِ سَبيلا، وأوضَحَ لَهُم طَريقَ الهِدايَةِ وَجعَلَ اتِّباعَ الرَّسولِ عَلَيها دَليلا، واتَّخذَهُم عَبيدًا لَهُ فأقَرُّوا لَهُ بالعُبوديَّةِ ولَم يَتَّخِذوا مِن دونِهِ وَكيلا ، وَكَتَبَ في قُلوبِهِم الإيمانَ وأيَّدَهُم بِروحٍ مِنهُ لَمَّا رَضُوا باللَّهِ رَبًّا وَبالإسلامِ دينًا وَبِمُحمَّدٍ رَسولا .

والحمدُ للَّهِ الَّذي أقامَ في أزمِنَةِ الفَتَراتِ مَن يَكونُ بِبَيانِ سُنَنِ المُرسَلينَ كَفيلا، واختصَّ هذه الأُمَّةَ بأنَّهُ لا تَزالُ فيها طائفَةٌ على الحَقِّ لا يَضُرُّهُم مَن خَذَلَهُم وَلا مَن خالَفَهُم حتّى يأتيَ أمرُهُ[1]ولَو اجتَمَعَ الثَّقلانِ على حَربِهِم قَبيلا ؛ يَدْعونَ مَن ضَلَّ إلى الهُدى ، وَيَصبِرونَ مِنهُم عَلى الأذى ، وَيُبَصِّرونَ بِنورِ اللَّهِ أهلَ العَمى ، وَيُحيونَ بِكتابِهِ المَوتى ، فَهُم أحسَنُ النَّاسِ هَديًا وأقوَمُهُم قيلا .

فَكَم مِن قَتيلٍ لإبليسَ قَد أحيَوْهُ ، ومِن ضالٍّ جاهِلٍ لا يَعلَمُ طَريقَ رُشدِهِ قَد هَدَوْهُ ، وَمِن مُبتَدِعٍ في دينِ اللَّهِ بِشُهُبِ الحَقِّ قَد رَمَوْه ! جِهادًا في اللَّه ، وَابتِغاءَ مَرضاتِهِ ؛ وَبيانًا لِحُجَجِهِ على العالَمينَ وَبيِّناتِهِ ، وَطَلَبًا للزُّلفى لَدَيهِ وَنَيلِ رِضوانِهِ وَجَنَّاتِهِ ، فحارَبوا في اللَّهِ مَن خَرَجَ عَن دينِهِ القَويم، وَصِراطِهِ المُستَقيم ؛

---

(١) إشارة إلى أَحاديث الطائفة المنصورة ، وهي مُتواترةٌ ؛ انظر « قَطْف الأَزهار المُتناثرة » (رقم : ٨١) ، و « نظم المُتناثر » (رقم : ١٤٥) ، و « لَقْط اللآلئ المُتناثرة » (رقم : ٢٠) .

الَّذينَ عَقَدوا ألوِيَةَ البِدعَةِ ، وأطلَقوا أعِنَّةَ الفِتنةِ ، وَخالَفوا الكِتابَ ، واختَلَفوا في الكِتابِ ، وَاتَّفَقوا عَلى مُفارَقَةِ الكِتابِ[١]، وَنَبَذوهُ وَراءَ ظُهورِهِم ، وارتَضَوا غَيرَهُ عَنهُ بَديلا .

أحمَدُهُ وهوَ المَحمودُ عَلى كلِّ ما قَدَّرَهُ وَقَضاه ، وأستعينُهُ[٢] استعانَةَ مَن يَعلَمُ أنَّهُ لا رَبَّ لَهُ غَيرُهُ وَلا إلهَ لَهُ سِواه ، وَأستَهديهِ سَبيلَ[٣] الَّذينَ أنعَمَ عَلَيهِم مِمَّن اختارَهُ لِقَبولِ الحَقِّ وارتَضاه ، وأشكُرُهُ والشُّكرُ كَفيلٌ بالمَزيدِ مِن عَطاياه ، وأستَغفِرُهُ مِن الذُّنوبِ التي تَحُولُ بينَ القَلبِ وَهُداه ، وأعوذُ بِهِ[٤] من شَرِّ نَفسي وسيِّئاتِ عَمَلي استِعاذَةَ عَبدٍ فارٍّ إلى رَبِّهِ بِذُنوبِهِ وَخَطاياه ، وأعتَصِمُ بهِ مِن الأهواءِ المُرْدِيَةِ والبِدَعِ المُضِلَّةِ ، فما خابَ مَن أصبَحَ بِهِ مُعتَصمًا وَبِحِماهُ نَزيلا .

وأشهَدُ أن لا إلهَ إلّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ ، شهادَةً أشهَدُ بها مَعَ الشاهِدينَ ، وأتَحَمَّلُها عَن الجاحِدين ، وأدَّخِرُها عندَ اللَّهِ عُدَّةً لِيَومِ الدِّين .

وأشهدُ أنَّ الحلالَ ما حَلَّلَه ، وَالحَرامَ ما حَرَّمَه ، والدِّينَ ما شرَعَه ، وأنَّ السَّاعَةَ آتِيةٌ لا رَيبَ فيها ، وأنَّ اللَّهَ يَبعَثُ مَن في القُبور .

وأشهدُ أنَّ مُحمَّدًا عَبدُهُ المُصطَفى ، وَنَبيُّهُ المُرتَضى ، وَرَسولُهُ الصَّادِقُ المَصدوقُ ، الَّذي لا يَنطِقُ عَن الهَوى إنْ هُوَ إلّا وَحيٌ يُوحى ، أرسَلَهُ رَحمَةً لِلعالَمينَ ، وَمَحَجَّةً لِلسَّالِكينَ ، وحُجَّةً على العِبادِ أجمَعين ،

---

(١) تضمينٌ من المُصنِّف - رحمه اللَّه - لمقدِّمة الإمام أحمد رحمه اللَّه على كتابه « الرَّدّ على الجهميَّة » (ص : ٥٢ - مجموعة « عقائد السلف ») ، وَتَلَقَّفها عنه - أَيضًا - غيرُ واحدٍ .

(٢) في « الأصل » : « وأستغيثهُ استغاثةَ عبدٍ لا ربَّ له غيرُهُ » .

(٣) في « المطبوع » : « سُبُل » .

(٤) في « المطبوع » : « باللَّه » .

أرسَلَهُ على حينِ فَترَةٍ مِن الرُّسُل ، فَهدى بِهِ إلى أقوَمِ الطُّرُقِ وأوضَحِ السُّبُل ، وافترَضَ على العِبادِ طاعَتَهُ ، وتَعظيمَه ، وَتَوقيرَه ، وَتَبجيلَه ، والقِيامَ بِحقوقِهِ ، وسَدَّ إليهِ جَميعَ الطُّرُق ، فَلَم يَفتَح لأحدٍ إلّا مِن طَريقِهِ ؛ فَشرَحَ لَهُ صَدرَه ، وَرَفَعَ لَهُ ذِكرَه ، [وَوَضَعَ عنهُ وِزرَهُ ، وَجَعَلَ الذِّلَّةَ والصَّغارَ على مَن خالَفَ أمرَهُ ، هدى به مِن الضَّلالَةِ][1] وَعلَّمَ بهِ مِن الجَهالَة ، وَبَصَّرَ بِهِ مِن العَمى ، وأرشَدَ بِهِ مِن الغَيِّ ، وَفَتَحَ بِهِ أعيُنًا عُميًا ، وآذانًا صُمًّا ، وقُلوبًا غُلفًا .

فَلَم يَزَل - صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسلَّم - قائمًا بأمرِ اللَّهِ لا يَرُدُّهُ عَنهُ رادّ ، داعيًا إلى اللَّه لا يَصُدُّهُ عَنهُ صادّ ، إلى أن أشرَقَت بِرِسالَتِهِ الأرضُ بَعدَ ظُلُماتِها ، وتَألَّفَت [به][1] القُلوبُ بَعدَ شَتاتِها ، وَسارَت دَعوَتُهُ مَسيرَ[2] الشمسِ في الأقطار ، وَبَلَغَ دينُهُ ما بَلَغَ اللَّيلُ والنَّهار[3] ، فَلَمَّا أكمَلَ اللَّهُ بِهِ الدِّين ، وأتَمَّ بِهِ النِّعمَةَ على عِبادِهِ المُؤمنين ، استأثَرَ بِهِ ، وَنَقَلَهُ إلى الرَّفيقِ الأعلى مِن كَرامَتِه ، والمَحَلِّ الأرفَعِ الأسنى مِن أعلى جَنَّاتِهِ ، فَفارَقَ الأُمَّةَ وَقَد تَرَكها على المحجَّةِ البَيضاء ، التي لا يَزيغُ عَنها إلّا مَن كانَ مِن الهالِكينَ[4] .

فَصَلَّى اللَّهُ عَليهِ وَعَلى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرين ، صَلاةً دائِمةً بِدوامِ السَّماواتِ والأرَضين ، مُقيمةً عَليهم أبدًا لا تَرومُ انتِقالًا عَنهُم ولا تَحويلا .

---

(١) ساقط من « المطبوع » .

(٢) في « المطبوع » : « سَيْر » .

(٣) وفي ذلك حديثٌ رواه أحمد (٤ / ١٠٣) ، والحاكم (٤ / ٤٣٠) ، والبيهقي (٩ / ١٨١) ، وابن منده في « الإيمان » (١٠٨٥) عن تميم الداري بسند صحيح .

(٤) وصحَّ في ذلك حديثٌ نبويٌّ ، تراه وتخريجه في رسالتي « الأربعون حديثًا في الدَّعوة والدُّعاة » (رقم : ٦) .

أمَّا بَعد :

فإنَّ اللَّهَ سبحانَهُ لما أهبَطَ آدمَ أبا البَشرِ من الجنَّةِ ، لِمَا له في ذلك مِن الحِكَمِ التي تَعجزُ العُقولُ عن مَعرِفَتها ، والألسُنُ عن صفَتها ، فكانَ إهباطُهُ منها عَينَ كمالِه ، ليَعودَ إليها على أحسَنِ أحوالِهِ ، فأرادَ سبحانَهُ أن يُذيقَهُ وَوَلَدَهُ مِن نَصَبِ الدُّنيا ، وغُمومِها وهمومِها وأوصابِها[1] ، ما يُعظِّمُ به عندَهُم مقدارَ دخولِهِم إليها في الدَّارِ الآخِرَةِ ؛ فإنَّ الضدَّ يُظهِرُ حُسْنَهُ الضدُّ ، ولو تَرَبَّوا في دارِ النَّعيم لم يَعرِفوا قَدْرَها .

وأيضًا ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ أرادَ أمرَهُم ، ونَهيَهُم ، وابتلاءَهُم ، واختبارَهُم ، - وليسَت الجنَّةُ دارَ تكليفٍ - فأهبَطَهُم إلى الأرضِ ، وعَوَّضَهُم بذلك أفضَلَ الثَّوابِ الذي لم يَكُن لِيُنالَ بدونِ الأمرِ والنَّهي .

وأيضًا ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ أرادَ أن يَتَّخِذَ منهم أنبياءَ، ورُسلًا، وأولياءَ، وشُهَداءَ ، يُحبُّهُم ويُحبُّونَهُ ، فَخلَّى بينهُم وبينَ أعدائهِ ، وامتَحَنَهُم بهم ، فلمّا آثَروه وبَذلوا نُفوسَهُم وأموالَهُم في مَرضاتِهِ ومحابِّه : نالوا مِن مَحَبَّته ورضوانِهِ والقُربِ منه ما لم يكن لِيُنالَ بدونِ ذلك أصلًا ؛ فَدَرجةُ الرِّسالةِ والنبوَّةِ والشهادَةِ والحُبِّ فيه والبُغضِ فيه وَموالاةِ أوليائه ومُعاداةِ أعدائه عنده مِن أفضَلِ الدَّرجات ، ولم يَكُن يُنالُ هذا إلّا على الوَجه الذي قَدَّرَهُ وقضاه مِن إهباطِهِ إلى الأرضِ ، وَجَعْلِ مَعيشتِه ومَعيشةِ أولادهِ فيها .

وأيضًا ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ له الأسماءُ الحُسنى ؛ فَمِن أسمائهِ : الغَفورُ ، الرَّحيمُ ، العَفُوُّ ، الحَليمُ ، الخافِضُ ، الرَّافِعُ ، المُعِزُّ ، المُذِلُّ ، المُحيي ،

---

(١) النَّصَب والوَصَب : التَّعَب والمَرَض .

المُميتُ، الوارِثُ، الصَّبورُ(١) ؛ ولا بُدَّ مِن ظهورِ آثارِ هذه الأسماءِ ... فاقتَضَت حكمَتُهُ سبحانَهُ أن يُنزِلَ آدَمَ وذُرِّيَّتَهُ دارًا يُظهِرُ عليهم فيها أثَرَ أسمائِهِ الحُسنى ، فَيَغفِرُ فيها لِمَنْ يشاءُ ، وَيَرحَمُ مَن يشاءُ ، وَيَخفِضُ مَن يشاءُ ، ويَرفعُ مَن يشاءُ ، ويُعِزُّ مَن يشاءُ ، ويُذِلُّ مَن يشاءُ ، ويَنتَقِم ممَّن يشاءُ ... وَيُعطِي وَيَمنَعُ ، [ويَقبِضُ](٢) وَيَبسُطُ ، إلى غَيرِ ذلكَ مِن ظهورِ أثَرِ أسمائه وصفاتِهِ .

وأيضًا ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ المَلِكُ الحَقُّ المُبينُ، والمَلِكُ هو الذي يأمُرُ وَيَنهى ، وَيُثيبُ ويُعاقِبُ ، ويُهينُ ويُكرِمُ ، وَيُعِزُّ وَيُذِلُّ ، فاقتَضى مُلكُهُ سبحانَهُ أن يُنزِلَ آدَمَ وذُرِّيَّتَهُ دارًا تَجري عليهم فيها أحكامُ المَلِكِ ، ثمَّ ينقُلُهُم إلى دارٍ يُتِمُّ عليهم فيها ذلك .

وأيضًا ؛ فإنَّهُ - سبحانَهُ - أنزَلَهُم إلى دارٍ يَكونُ إيمانُهُم فيها بالغَيبِ(٣) هو الإيمانَ النَّافِعَ ، وأمَّا الإيمانُ بالشهادَةِ فكلُّ أحدٍ يؤمِنُ يومَ القيامَةِ ، يومَ لا يَنفعُ نَفسًا إلّا إيمانُها في الدُّنيا ، فلو خُلقوا في دارِ النَّعيمِ لَم ينالوا درجةَ الإيمانِ بالغَيبِ ، واللذَّةُ والكرامةُ الحاصلةُ بذلك لا تَحصُلُ بدونهِ ، بل كان الحاصِلُ لَهُم في دارِ النَّعيم لذَّةً وكرامةً غَيرَ هذه .

وأيضًا ؛ فإنَّ اللّهَ سبحانَهُ خَلَقَ آدَمَ مِن قَبضةٍ قَبَضها مِن جَميعِ الأرضِ(٤)، والأرضُ فيها الطيِّبُ والخَبيثُ ، والسَّهلُ والحَزْنُ ، والكريمُ واللئيمُ ، فعَلِمَ

---

(١) لم يصحَّ اسمُ (الصَّبُور) مِن أَسماء اللّهِ الحُسنى ، فتنبَّه .

(٢) ساقط من « المطبوع » .

(٣) في « المطبوع » بعدها : « والإيمانُ بالغيبِ هو ... » وما هنا أضبطُ للسِّياق .

(٤) أخرج أحمد (٤ / ٤٠٠) ، وأبو داود (٤٦٩٣) ، والترمذي (٢٩٥٥) ، والحاكم (٢ / ٢٦١)، وابن حبان (٦١٦٠) مِن طُرُق عن عَوف الأعرابي، عن قَسامَة بن زهير،=

سبحانَهُ أنَّ في ظَهرِهِ مَن لا يَصلُحُ لمُساكنَتِهِ في دارِهِ، فأنزَلَهُ إلى دارٍ استَخرَجَ فيها الطيِّبَ والخَبيثَ من صُلبِهِ، ثمَّ مَيَّزَهُم سبحانَهُ بدارَينِ ؛ فَجَعَلَ الطيِّبينَ أهلَ جِوارِهِ ومُساكنَتِهِ في دارِهِ، وَجَعَلَ الخَبيثينَ أهلَ دارِ الشقاءِ دارِ الخُبثاءِ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿ لِيَميزَ اللهُ الخَبيثَ منَ الطيِّبِ ويَجعَلَ الخَبيثَ بَعضَهُ على بَعضٍ فَيَركُمَهُ جَميعًا فَيَجعَلَهُ في جَهنَّمَ أولئكَ هُمُ الخاسِرون ﴾ [الأنفال:٣٧] .

فلَمَّا عَلِمَ سبحانَهُ أنَّ في ذُرِّيَّتِهِ مَن لَيسَ بأهلٍ لِمُجاوَرَتِهِ، أنزلَهُم دارًا استَخرَجَ منها أولئكَ وألحَقَهُم بالدّارِ التي هم لها أهلٌ ، حكمةً بالغةً ، وَمشيئةً نافذَةً، وذلك تَقديرُ العَزيزِ العَليمِ .

وأيضًا ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ لمّا قال للملائكَةِ : ﴿ إنّي جاعِلٌ في الأرضِ خليفَةً قالوا أتَجعَلُ فيها مَن يُفسِدُ فيها ويَسفِكُ الدِّماءَ وَنَحنُ نُسَبِّحُ بِحَمدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : ٣٠]، أجابهُم بقوله : ﴿ إنِّي أعلَمُ ما لا تَعلَمونَ ﴾.

ثمَّ أظهَرَ سبحانَهُ علمَهُ لِعِبادِهِ ولِمَلائكَتِهِ بما جَعَلَهُ في الأرضِ من خَواصِّ خَلقِهِ ورُسُلِهِ وأنبيائهِ وأوليائهِ، وَمن يَتَقرَّبُ إليه وَيَبذُلُ نَفسَهُ في مَحَبَّتِهِ وَمَرضاتِهِ مَعَ مُجاهَدَةِ شَهوَتِهِ وهَواهُ، فَيترُكُ مَحبوباتِهِ تَقَرُّبًا إلَيَّ، وَيَترُكُ شَهواتِهِ ابتِغاءَ مَرضاتي، وَيَبذُلُ دَمَهُ وَنَفسَهُ في مَحَبَّتي، وأخُصُّهُ بِعِلمٍ لا تَعلَمونَهُ(١)؛ يُسَبِّحُ بِحَمدي آناءَ اللَّيلِ وأطرافَ النَّهارِ، وَيَعبدُني مَعَ مُعارَضاتِ الهَوى والشهوةِ

= عن أَبي موسى الأشعري عن النَّبيّ ﷺ أنّه قال : « إنَّ اللّه تعالى خَلَقَ آدم مِن قبضةٍ قبضها مِن جميع الأرض؛ فجاءَ بَنو آدمَ على قَدْرِ الأرضِ، منهم الأحمرُ والأسودُ، والأبيضُ والأصفرُ، وبينَ ذلك، والسَّهلُ والحَزْنُ، والخبيثُ والطَّيِّبُ » . وسندهُ صحيحٌ .

وانظر « البداية والنهاية » (١/٨٥-٨٦) لابن كثير .

(١) علمٌ مُنضَبِطٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ ، وليس كَتُرَّهات الكشفِ الصُّوفيّ !!

والنَّفسِ والعَدوِّ إذ تَعْبُدونني أنتُم مِن غَيرِ مُعارضٍ يُعارِضُكُم، ولا شهوَةٍ تَعتَريكُم: ولا عَدوٌّ أُسلِّطُهُ عَلَيكُم ، بل عِبادَتُكُم لي بِمَنزِلَةِ النَّفَس لأحَدِهِم .

وأيضًا ؛ فإنِّي أريدُ أن أُظهرَ ما خَفِيَ عليكُم من شأن عَدوِّي وَمُحارَبته لي وَتَكَبُّره عَن أمري وَسَعيِهِ في خلافِ مَرضاتي .

وهذا وهذا كانا كامنَيْنِ مُستَتريْنِ في أبي البَشرِ[١] وأبي الجِنِّ[٢] فأنزلَهُم دارًا[٣] أظهَرَ فيها ما كانَ اللَّهُ سبحانَهُ مُنفرِدًا بعلمِهِ لا يَعلَمُهُ سواهُ ، وظَهَرَت حِكمَتُهُ وتَمَّ أمرُهُ، وَبدا للمَلائكَةِ مِن علمِهِ ما لَم يكونوا يَعلَمون .

وأيضًا ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ لمَّا كانَ يُحِبُّ الصَّابِرينَ، وَيُحبُّ المُحسنين، ويُحبُّ الذينَ يُقاتِلونَ في سبيله صفًّا، ويحبُّ التوَّابين، ويُحبُّ المُتَطَهِّرينَ، وَيُحبُّ الشاكرينَ، وكانت مَحَبَّتُهُ أعلى أنواعِ الكرامات؛ اقتَضَتْ حكمَتُهُ أن أسكَنَ آدَمَ وَبَنيهِ دارًا يأتونَ فيها بهذه الصِّفات التي ينالون بها أعلى الكرامات من مَحبَّتِهِ ؛ فكان إنزالُهُم إلى الأرضِ مِن أعظَمِ النِّعَم عليهم ؛ ﴿ والله يَختَصُّ برَحمَتِهِ مَن يَشاءُ والله ذو الفَضلِ العَظيم ﴾ [البقرة : ١٠٥] .

وأيضًا ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ أرادَ أن يَتَّخِذَ مِن آدَمَ ذُرِّيَّةً يُواليهم ويودُّهم ويُحبُّهم ويُحبُّونَهُ ؛ فَمَحَبَّتُهُ لَهُم هي غايَةُ كمالهم ونهايَةُ شرَفِهم، ولَم تكُن لِتَتحقَّقَ[٤] هذه المَرتَبَةُ السَّنيَّةُ إلّا بِمُوافقة رِضاهُ واتِّباعِ أمرِهِ ، وتَركِ إراداتِ النَّفسِ وشهواتِها التي يكرَهُها مَحبوبُهُم، فأنزَلَهُم دارًا أمرَهُم فيها ونَهاهُم؛ فقاموا بأمرِهِ

---

(١) أي : آدم عليه السَّلام .

(٢) هو إبليسُ لَعَنَهُ اللَّهُ .

(٣) في « الأصل » : « فأنزلَهم إلى دارِ ظَهَرَ ... » .

(٤) في « المطبوع » : « يمكن تحقيقُ » .

وَنَهيهِ ، فنالوا دَرَجَةَ مَحبَّتِهِم له ، فأنالَهُم دَرَجَةَ حُبِّه إيَّاهُم، وَهذا مِن تَمامِ حِكمَتِهِ وكمالِ رَحمَتِهِ ، وَهُوَ البرُّ الرَّحيم .

وأيضًا ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ لمَّا خَلَقَ خَلْقَهُ أطوارًا وأصنافًا، وَسَبَقَ في حُكمِهِ تَفضيلُهُ آدَمَ وَبنيهِ على كثيرٍ من مَخلوقاتِهِ : جَعَلَ عُبوديَّتَهُ أفضَلَ دَرَجاتِهِم - أعني العُبوديَّةَ الاختياريَّةَ التي يأتونَ بها طَوعًا واختيارًا لا كَرهًا واضطرارًا -.

وقَد ثَبَتَ أنَّ اللَّهَ سبحانَهُ أرسَلَ جبريلَ إلى النَّبيِّ ﷺ يُخيِّرُهُ بينَ أن يَكونَ مَلِكًا نَبيًّا أو عَبدًا نبيًّا ، فَنَظَرَ إلى جِبريلَ كالمستشيرِ له ؟ فأشارَ إليه أنْ : تَواضَعْ، فقال : « بَل أن أكونَ عَبدًا نبيًّا »(١).

وَذَكَرَهُ سبحانَهُ باسم عُبوديَّتِهِ في أشرَفِ مقاماتِهِ؛ في مقامِ الإسراءِ، ومقامِ الدَّعوةِ، ومقامِ التَّحدِّي :

فقال في مقامِ الإسراءِ : ﴿ سُبحانَ الَّذي أسرى بِعَبدِهِ لَيلًا ﴾ [الإسراء:١]، ولَم يَقُل : (بِرَسولِهِ) ، ولا : (نَبيِّهِ)؛ إشارَةً إلى أنَّهُ نالَ(٢) هذا المَقامَ الأعظَمَ بكمالِ عُبوديَّتِهِ لربِّهِ .

وقال في مقامِ الدَّعوة : ﴿ وأنَّهُ لَمَّا قامَ عَبدُ اللهِ يَدعوهُ كادوا يَكونونَ عَلَيهِ لِبَدًا ﴾ [الجِنّ : ١٩] .

وقال في مقامِ التحدِّي : ﴿ وَإنْ كُنتُم في رَيبٍ مِمَّا نَزَّلنا على عَبدِنا فَأْتوا

---

(١) رواه أحمد (٢ / ٢٣١) ، وابن حبان (٦٣٦٥) ، والبزّار (٢٤٢٦) ، وأبو يعلى (٦١٠٥) عن أبي هريرة .

وقال الهيثميُّ في « المجمع » (٩ / ١٩ - ٢٠) : « ورجالهُ رجالُ الصَّحيح » .

وسندهُ صحيحٌ .

(٢) في « المطبوع » : « قام » .

بِسورةٍ مِن مِثلِهِ ﴾ [البقرة : ٢٣] .

وفي « الصَّحيحين »[١] في حَديثِ الشفاعةِ وَتراجُعِ الأنبياءِ فيها، وقولِ المَسيحِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم : « اذهَبوا إلى مُحمَّدٍ؛ عَبدٍ غَفرَ اللَّهُ لَهُ ما تَقدَّمَ مِن ذَنبِهِ وَما تأخَّر »؛ فدلَّ ذلك على أنَّهُ نالَ ذلكَ المقامَ الأعظَمَ بكمالِ عُبوديَّتِهِ للَّه، وكمالِ مَغفِرَةِ اللَّه له .

وإذا كانت العُبوديَّةُ عند اللَّه بهذه المَنزلةِ اقتَضَتْ حكمَتُهُ أن أسكَنَ آدَمَ وَذُرِّيَّتَهُ دارًا ينالونَ فيها هذه الدرَجةَ بكمالِ طاعَتِهم للَّه، وَتَقرُّبهم إليه بمَحابِّهِ ، وَتَركِ مألوفاتِهم مِن أجلِهِ، فكانَ ذلك مِن تَمامِ نِعمَتِهِ عَلَيهم وإحسانِهِ إليهم .

وأيضًا ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ أرادَ أن يُعَرِّفَ عِبادَهُ الذينَ أنعَمَ عَلَيهم تمامَ نعمَتهِ عَليهم، [وَيُعَرِّفَهم][٢] قدرَها؛ ليكونوا أعظَمَ مَحبَّةً [لهُ][٣]، وأكثرَ شكرًا، وأعظَمَ التِذاذًا بما أعطاهُم مِن النَّعيم، فأراهُم سبحانَهُ فِعْلَهُ بأعدائه، وما أعدَّ لَهُم مِن العَذابِ وأنواعِ الآلام، وأشهَدَهُم تخليصَهُم مِن ذلك، وَتخصيصَهُم بأعلى أنواعِ النَّعيم ليَزدادَ سرورُهُم، وَتَكمُلَ غِبطَتُهُم، وَيَعظُمَ فَرَحُهُم، وَتَتمَّ لَذَّتُهُم، وكانَ ذلك من إتمامِ الإنعامِ عليهِم وَمَحبَّتِهِم .

ولم يَكُن بُدٌّ في ذلك من إنزالِهِم إلى الأرضِ، وامتحانِهِم، واختبارِهِم، وتَوفيقِ مَن شاءَ منهُم - رَحمةً منهُ وَفَضلًا - وخِذلانِ مَن شاءَ منهُم - حكمَةً منهُ وَعَدلًا - وهو العَليمُ الحَكيم .

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٤٧٦) ، ومسلم (١٩٣) عن أنس بن مالك .

(٢) ساقطة من « المطبوع » .

(٣) ساقطة من « المطبوع » .

ولا رَيبَ أنَّ المُؤمنَ إذا رأى عَدوَّهُ وَ [عَدُوَّ][١] مَحبوبِهِ - الذي هو أحبُّ الأشياءِ إليه - في أنواعِ العَذابِ والآلام، وهو يَتَقلَّبُ في أنواعِ النَّعيمِ واللَّذَّةِ : ازدادَ بذلك سُرورُه[٢]، وَعَظُمَت لَذَّتُهُ، وكمُلَت نِعمَتُهُ[٣].

وأيضًا ؛ فإنَّهُ سبحانهُ إنَّما خَلَقَ الخَلْقَ لِعبادَتِهِ - وهي الغايةُ [المطلوبَةُ][٤] منهم - ، قال تعالى : ﴿ وَما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلّا لِيَعبُدونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] .

ومَعلومٌ أنَّ كمالَ العُبوديَّةِ المَطلوبَ مِن الخَلقِ لا يَحصُلُ في دارِ النَّعيمِ والبَقاءِ، إنَّما يَحصُلُ في دارِ المحنةِ والابتلاءِ، وأمَّا دارُ البقاءِ فدارُ لَذَّةٍ وَنعيمٍ، لا دارُ ابتلاءٍ وامتحانٍ وَتَكليفٍ .

وأيضًا ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ اقتَضَتْ حكمتُهُ خَلْقَ آدَمَ وذُرِّيَّتِهِ مِن تَركيبٍ مستَلزِمٍ لِداعي الشهوةِ والغَضَبِ[٥] وداعي العَقلِ والعلمِ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ خَلَقَ فيهِ العَقلَ والشهوةَ ونَصَبَهُما داعيين بمُقتضياتِهما[٦]؛ لِيُتمَّ مُرادَهُ ويُظهرَ لِعبادِهِ عزَّتَهُ في حكمَتِهِ وجَبَروتِهِ ورَحمتِهِ وبرِّه ، ولُطفَهُ في سُلطانِهِ ومُلكِهِ؛ فاقتَضَتْ حكمَتُهُ ورحمتُهُ أن أذاقَ أباهُم وَبيلَ مُخالَفَتِهِ، وعَرَّفَهُ[٧] ما يَجني عَواقِبَ إجابةِ

---

(١) ساقطة من « المطبوع » ! وقد أفسد سقوطُها المعنى !!

(٢) في « المطبوع » : « سرورًا » .

(٣) في « الأصل » : « وكَمُل نعيمُه » .

(٤) ساقطة مِن « المطبوع » .

(٥) في « المطبوع » : « والفتنة » .

(٦) في « المطبوع » : « بمقتضياتها » .

(٧) في « الأَصل » : « وعرَّفهم » .

الشهوةِ والهوى؛ ليكونَ أعظَمَ حذَرًا فيها وأشدَّ هروبًا؛ وهذا كحالِ رَجُلٍ سائرٍ على طَريقٍ قد كَمِنَت الأعداءُ في جَنَباتِهِ وَخَلفَهُ وأمامَهُ وهو لا يَشعُرُ، فإذا أُصيبَ منها مَرَّةً بمُصيبةٍ استَعَدَّ في سيرِهِ، وأخَذَ أُهبةَ عَدوِّه، وأعَدَّ له ما يَدفَعُهُ [بهِ](١)، ولولا أنَّهُ ذاقَ ألَمَ إغارَةِ عَدوِّهِ عليهِ وتَبييتِهِ له لَمَا سَمَحَتْ نَفسُهُ بالاستِعدادِ والحَذَرِ وأخذِ العُدَّةِ .

فَمِن تمامِ نِعمَةِ اللَّهِ على آدَم وَذُرِّيَّتِهِ أَنْ أراهُم ما فَعَلَ العدوُّ بهم [وبأَبيهم](٢)، فاستَعدُّوا له وأخَذوا أُهبَتَهُ ...

فإن قيلَ : كانَ من المُمكن أن لا يُسلَّطَ عَليهم العَدوَّ ؟

قيلَ : قَد تَقدَّمَ أنَّهُ سبحانَهُ خَلَقَ آدَمَ وذريَّتَهُ على بُنيةٍ وَتَركيبٍ مستَلزِمٍ لمُخالَطَتِهم لعَدوِّهِم وابتلائِهم به، ولو شاءَ لَخلَقَهُم كالمَلائكةِ الذينَ هم عقولٌ بلا شهواتٍ، فلم يكن لعَدوِّهِم طريقٌ إليهم، ولكنْ لو خُلِقوا هكذا لكانوا خَلْقًا آخَرَ غَيرَ بني آدَم؛ فإنَّ بني آدَم قَد رُكِّبوا على العَقلِ والشهوةِ .

وأيضًا ؛ فإنَّهُ لمَّا كانت مَحبَّةُ اللَّه وَحدَهُ هي غايةَ كمالِ العَبدِ وسَعادَتِهِ التي لا كمالَ له ولا سَعادَةَ بدونها أصلًا، وكانت المَحبَّةُ الصَّادِقَةُ إنَّما تَتَحقَّقُ بإيثارِ المَحبوبِ على غَيرِهِ من مَحبوبات النُّفوس واحتمال أعظَمِ المشاقِّ في طاعَتِهِ وَمَرضاتِهِ - فبهذا تَتحَقَّق المَحبَّةُ وَيُعلَمُ ثبوتُها في القَلبِ - اقتَضَتْ حكمَتُهُ سبحانَهُ إخراجَهُم إلى هذه الدَّارِ المَحفوفةِ بالشهواتِ ومحابِّ النُّفوسِ

---

(١) ساقطة من « المطبوع » .

(٢) ساقطة من « المطبوع » .

التي بإيثارِ [المحبوبِ][(١)] الحقِّ عليها والإعراضِ عنها يتحقَّقُ حبُّهم له وإيثارُهم إيَّاهُ على غَيرِهِ؛ ولذلكَ يَتحمَّلُ المشاقَّ الشديدةَ، ورُكوبَ الأخطارِ، واحتمالَ الملامةِ ، والصَّبرَ على دواعي الغيِّ والضَّلالِ، [وبمُجاهَدَتها][(٢)] يَقوى سلطانُ المَحبَّةِ وتَثبت شجَرَتُها في القَلبِ، وتطعمُ ثمَرتُها على الجوارحِ؛ فإنَّ المَحبَّةَ الثَّابتةَ اللازمةَ على كثرةِ المَوانِعِ والعَوارِضِ والصَّوارِفِ هي المَحبَّةُ الحَقيقيَّةُ النَّافعةُ، وأمَّا المَحبَّةُ المَشروطةُ بالعافيةِ والنَّعيمِ واللذَّةِ وحصولِ مرادِ المُحبِّ من مَحبوبِهِ فليسَت مَحبَّةً صادقةً ولا ثباتَ لها عند المُعارَضاتِ والموانِعِ؛ فإنَّ المُعَلَّقَ على الشرطِ عَدَمٌ عندَ عَدمِهِ ! **ومَن وَدَّكَ لأمرٍ وَلَّى عندَ انقضائه**[(٣)]، وَفَرْقٌ بينَ مَن يَعبُدُ اللَّهَ على السرَّاءِ والرَّخاءِ والعافيةِ فَقَط، وبين مَن يَعبُدُهُ على السرَّاءِ والضرَّاءِ والشدَّةِ والرَّخاءِ والعافيةِ والبلاءِ .

وأيضًا ؛ فإنَّ اللَّه سبحانَهُ له الحَمدُ المُطلَقُ الكاملُ الذي لا نهايةَ بَعدَهُ، فكانَ[(٤)] ظهورُ الأسبابِ التي يُحمَدُ عَليها مِن مُقتَضى كونِهِ مَحمودًا، وهي من لوازِمِ حَمدِهِ تعالى، وهي نوعان : فَضلٌ، وَعَدلٌ، إذ هو سبحانَهُ المَحمودُ على هذا وعلى هذا ، فلا بُدَّ من ظهورِ أسبابِ العَدلِ واقتضائها لمُسمَّياتِها ليترَتَّبَ[(٥)] عليها كمالُ الحَمدِ الذي هو أهلُهُ؛ فكما أنَّهُ سبحانَهُ مَحمودٌ على إحسانِهِ وَبرِّهِ

---

(١) ساقطة من « المطبوع » .

(٢) ساقط من « المطبوع » .

(٣) عزى هذه الكلمةَ الخطابيُّ في « العُزلة » (ص ١٥١) لبعض الحُكماء .

(٤) في « المطبوع » : « وكان » .

(٥) في « الأصل » : « المرتّب » .

وَفَضلِهِ وثوابِهِ، فهو مَحمودٌ على عَدلِهِ وانتقامِهِ [وَعقابِهِ][١]، إذ مَصدرُ[٢] ذلكَ كلِّهِ عَن عزَّتِهِ وحكمَتِهِ .

ولهذا نبَّهَ سبحانَهُ على هذا كثيرًا - كما في سورة الشعراء - حيثُ يَذكُرُ في آخرِ كلِّ قصَّةٍ من قَصَص الرُّسُل وأمَمِهِم : ﴿ إنَّ في ذلكَ لآيةً وَما كانَ أكثَرُهُم مُؤمنين وَإنَّ رَبَّكَ لَهُوَ العَزيزُ الرَّحيمُ ﴾ [الشعراء:٩]؛ فأخبَرَ سبحانَهُ أنَّ ذلكَ صادِرٌ عن عزَّتِهِ المُتضمِّنةِ كمالَ قُدرَتِهِ، وحكمَتِهِ المُتضمِّنَةِ كمالَ علمهِ ووضعَهُ الأشياءَ مواضِعَها اللائقةَ بها : فما[٣] وَضَعَ نعمَتَهُ ونجاتَهُ لِرُسلِهِ ولأتباعِهِم ، ونقمتَهُ وإهلاكَهُ لأعدائهِم ، إلّا في محلِّها اللائقِ بها ؛ لكمالِ عِزَّتِهِ وحكمَتِهِ ، ولهذا قالَ سبحانَهُ عَقيبَ إخبارِهِ عَن قَضائهِ بينَ أهلِ السَّعادَةِ والشقاوَةِ ومَصيرِ كُلٍّ منهُم إلى ديارِهم التي لا يَليقُ بهم ولا بِغَيرِهِم ولا تَقتَضي حكمَتُهُ سواها : ﴿ وَقُضِيَ بينَهُم بِالحَقِّ وقيلَ الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمين ﴾ [الزمر : ٧٥] .

وأيضًا ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ اقتَضَتْ حكمَتُهُ وحَمدُهُ أنْ فاوَتَ بينَ عبادِهِ أعظَمَ تفاوُتٍ وأبيَنَهُ؛ ليَشكُرَهُ مَن ظَهَرَت عليه نعمَتُهُ وفَضلُهُ، وَيَعرفَ أنَّهُ قَد حُبِيَ بالإنعامِ وخُصَّ دونَ غَيرِهِ بالإكرامِ، ولَو تساوَوا جَميعُهُم في النِّعمَةِ والعافيَةِ لَم يَعرف صاحبُ النِّعمَةِ قَدرَها، وَلَم يَبذُل شكرَها، إذ لا يَرى أحدًا إلّا في مثلِ حالِهِ .

---

(١) ساقطة من « المطبوع » .

(٢) في « المطبوع » : « يصدر » .

(٣) في « المطبوع » : « ما » !

وَمِن أقوى أسبابِ الشكرِ وأعظَمِها استِخراجًا له من العَبدِ أن يَرى غَيرَهُ في ضدِّ حالِهِ الذي هو عليها من الكمالِ والفَلاحِ .

وفي الأثَرِ المَشهورِ[١]: « إنَّ اللَّهَ سبحانَهُ لمَّا أرى آدَمَ ذُريَّتَهُ وتَفاوُتَ مراتِبِهِم، قال : يا رَبِّ، هلَّا سَوَّيتَ بَينَ عبادِكَ ! قال : إنِّي أحبُّ أن أُشكَرَ »، فاقتَضَتْ مَحبَّتُهُ سبحانَهُ لأن يُشكرَ خَلْقَ الأسبابِ التي يكونُ شكرُ الشاكِرينَ عندها أعظَمَ وأكمَلَ، وهذا هو عَينُ الحكمَةِ الصَّادِرَةِ عَن صفَةِ الحَمد .

وأيضًا ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ لا شيءَ أحبُّ إليه من العَبدِ مِن تذلُّلِهِ بينَ يَدَيهِ وخُضوعِهِ وافتِقارِهِ وانكسارِهِ وتَضرُّعِهِ إليه .

وَمَعلومٌ أنَّ هذا المَطلوبَ من العَبدِ إنَّما يَتمُّ بأسبابِهِ التي يَتَوَقَّف عليها، وحصولُ هذه الأسباب في دارِ النَّعيمِ المُطلَقِ والعافيةِ الكاملةِ يَمتَنعُ؛ إذ هو مُستَلزِمٌ للجَمعِ بينَ الضِّدَّين .

وأيضًا ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ له الخَلقُ والأمرُ، والأمرُ هو شرعُهُ وأمرُهُ وَدينُهُ الذي بَعَثَ به رُسُلَهُ ، وأنزَلَ به كتُبَهُ، وَليسَت الجنَّةُ دارَ تكليفٍ تجري عليهم فيها أحكامُ التَّكليفِ ولوازِمُها، وإنَّما هي دارُ نَعيمٍ وَلذَّةٍ، فاقْتَضَتْ[٢] حكمَتُهُ سبحانَهُ استخراجَ آدَمَ وذُرِّيَّتِهِ إلى دارٍ تَجري عَليهِم فيها أحكامُ دينِهِ وأمرِهِ، ليَظهَرَ فيهِم مُقتَضى الأمر ولوازِمُهُ؛ فإنَّ اللَّه سبحانَهُ كما أنَّ أفعالَهُ وَخَلْقَهُ من لوازِمِ كمالِ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « الشُّكر » (رقم : ١٦٥) ومِن طريقه البيهقي في « شعب الإيمان » (رقم : ٤٤٤١) مِن طريقين عن الحسن مُرسلًا .

ورواه أحمد في « الزهد » (ص ٤٧) من قولِ بكر بن عبدالله المُزَني مقطوعًا عليه .

وحريٌّ بهذا الأثر (المشهور) أن يكون مِن الإسرائيليَّات !

(٢) في « المطبوع » : « اقتضت » .

أسمائِهِ الحُسنى وصفاتِهِ العُلى ، فكذلكَ أمرُهُ وشرعُهُ وما يَترتَّبُ عليه من الثَّوابِ والعِقابِ .

وَقَد أرشدَ سبحانَهُ إلى هذا المَعنى في غَيرِ مَوضِعٍ من كتابِهِ ، فقال تَعالى : ﴿ أيَحْسَبُ الإنسانُ أن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة:٣٦]، أي : مُهمَلًا مُعطَّلًا لا يُؤمَرُ ولا يُنهى ، ولا يُثابُ ولا يُعاقَب، وهذا يَدُلُّ على أنَّ هذا مُنافٍ لكمالِ حكمَتِهِ، وأنَّ ربوبيَّتَهُ وعِزَّتَهُ وحكمَتَهُ تأبى ذلك، ولهذا أخرَجَ الكلامَ مخرَجَ الإنكارِ على مَن زَعَمَ ذلك، وهو يدلُّ على أنَّ حُسْنَهُ مستَقرٌّ في الفِطَرِ والعُقولِ، وقُبحَ تَركِهِ سُدًى(١) معطَّلًا أيضًا مستقرٌّ في الفِطَرِ، فكيفَ يُنْسَبُ إلى الرَّبِّ ما قُبْحُهُ مُستَقرٌّ في فِطَرِكُم وعُقولِكُم ؟

وقال تَعالى : ﴿ أفَحَسِبتُم أنَّما خَلَقناكُم عَبَثًا وَأنَّكُم إلينا لا تُرجَعون فَتعالى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ لا إلـه إلّا هو رَبُّ العَرشِ الكريم ﴾ [المؤمنون:١١٥]؛ نزَّه نفسَهُ سبحانَهُ عَن هذا الحُسبانِ(٢) الباطلِ المُضادِّ لمُوجَبِ أسمائِه وصِفاتِهِ، وأنَّهُ لا يَليقُ بجلالِهِ نِسبتُهُ إليه .

ونظائرُ هذا في القُرآنِ كثيرةٌ .

وأيضًا ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ يُحبُّ مِن عبادِهِ أمورًا يَتَوَقَّفُ حُصولُها منهم على حُصولِ الأسبابِ المُقتَضيَةِ لها، ولا تَحصُلُ إلّا في دارِ الابتلاءِ والامتحانِ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ يُحبُّ الصَّابرينَ، ويُحبُّ الشاكرينَ ، ويُحبُّ الذينَ يُقاتِلونَ في

---

(١) في « المطبوع » : « سدا » !

(٢) كذا في « المطبوع »، وفي « الأصل » : « الحساب »، وفي هامش « الأصل » إشارةٌ إلى وجود نُسخة فيها : « الحسبان » .

سبيلِهِ صَفًّا، ويُحبُّ التَّوابينَ، ويُحبُّ المُتَطهِّرينَ .

ولا رَيبَ أنَّ حصولَ هذه المَحبوبات بدونِ أسبابِها مُمتَنِعٌ كامتناعِ حصولِ المَلزوم بدونِ لازمه، واللَّهُ سبحانَهُ أفرَحُ بتوبَةِ عبده حينَ يَتوبُ إليه مِن الفاقِدِ لراحلَتِهِ التي عليها طعامُهُ وشرابُهُ في أرضٍ دَوِّيَّةٍ مُهلكَةٍ إذا وَجَدَها ؛ كما ثَبَتَ في « الصَّحيح »[1] عن النَّبي ﷺ أنَّهُ قال : « للَّهُ أشدُّ فَرَحًا بِتَوبَةِ عَبدِهِ المُؤمن من رجلٍ في أرضٍ دَوِّيَّةٍ مُهلِكَةٍ معه راحلتهُ عليها طعامُهُ وشرابُهُ، فنامَ فاستَيقَظَ وقَد ذَهَبَت، فَطَلَبها حتى أدرَكَهُ العَطَش، ثم قال : أرجعُ إلى المَكانِ الذي [كُنتُ][2] فيه فأنامُ حتى أموتَ، فوَضَعَ رَأْسَهُ على ساعدِهِ ليَموتَ، فاستَيقَظَ وعنده راحلَتُهُ عليها زادُهُ وطعامُهُ وشرابُهُ، فاللَّهُ أشدُّ فَرَحًا بِتوبَةِ العَبدِ المُؤمن من هذا براحلَتِهِ » .

وسيأتي - إن شاءَ اللَّهُ - الكلامُ على هذا الحَديثِ وَذكرُ سرِّ هذا الفَرَح بِتَوبَةِ العَبدِ .

والمَقصودُ أنَّ هذا الفَرَحَ المَذكورَ إنَّما يكون بعدَ التَّوبةِ من الذُّنوبِ، فالتَّوبةُ والذَّنبُ لازِمانِ لهذا الفَرح ، ولا يوجَد المَلزومُ بدون لازمِهِ، وإذا كانَ هذا الفَرَحُ المَذكورُ إنَّما يحصُلُ بالتَّوبةِ المُستَلزِمَةِ للذَّنب، فحصولُه في دارِ النَّعيم التي لا ذَنبَ فيها ولا مخالَفَة ممتَنِعٌ .

ولمَّا كانَ هذا الفَرحُ أحبَّ إلى الربِّ سبحانَهُ من عَدمِهِ اقتَضَتْ مَحبَّتُهُ له خَلْقَ الأسبابِ المُفْضِيةِ إليه لِيَترتَّبَ عليها المُسبَّبُ الذي هو مَحبوبٌ له .

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨) ، ومسلم (٢٧٤٤) عن ابن مسعود .

(٢) ساقطة من « المطبوع » .

وأيضًا ؛ فإنَّ اللَّه سبحانَهُ جَعَلَ الجنَّةَ دارَ جزاءٍ وَثوابٍ، وقَسَّمَ منازِلَها[١] بينَ أهلِها على قَدْرِ أعمالِهِم، وعلى هذا خَلَقَها سبحانَهُ لِمَا له في ذلك من الحكمةِ التي اقتَضَتْها أسماؤه وصِفاتُهُ ؛ فإنَّ الجنَّةَ درجاتٌ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، وَبينَ الدَّرجتين كما بَين السَّماءِ والأرض؛كما في « الصَّحيح »[٢] عَن النَّبي ﷺ أنَّهُ قال : « إنَّ الجنَّةَ مئةُ دَرَجةٍ، بَينَ كلِّ دَرَجَتَينِ كما بَينَ السَّماءِ والأرض » .

وحكمةُ الربِّ سبحانَهُ مُقتَضيَةٌ لعمارَةِ هذه الدَّرجاتِ كلِّها، وإنَّما تَعمُرُ وَيقعُ التَّفاوُتُ فيها بحَسبِ الأعمالِ، كما قال غيرُ واحدٍ من السَّلَف : « يَنجونَ من النَّارِ بعَفو اللَّه وَمَغفِرَتِهِ، ويَدخُلونَ الجنَّة بفَضلِهِ ونعمَتِهِ ومَغفِرَتِهِ، ويتقاسمونَ المنازِلَ بأعمالِهِم » .

وعلى هذا حَمَلَ غيرُ واحدٍ ما جاءَ من إثباتِ دخولِ الجنَّة بالأعمالِ، كقوله تعالى : ﴿ وَتِلكَ الجنَّةُ التي أُورِثْـتُموها بما كُنتُم تعمَلون ﴾ [الزخرف:٧٢]، وقولِهِ تعالى : ﴿ ادْخُلوا الجَنَّةَ بما كُنتُم تعمَلون ﴾ [النحل:٣٢] .

قالوا : وأمَّا نفيُ دخولِها بالأعمالِ كما في قوله ﷺ : « لَن يَدخُلَ الجنَّةَ أحدٌ بِعَمَلِهِ، قالوا : ولا أنتَ يا رَسولَ اللَّه ؟ قال : ولا أنا »[٣]، فالمُرادُ منه نفيُ أصلِ الدُّخول .

---

(١) شَطَحَ قَلَمُ ناسخ « الأصل » فأثبتَها : « منازلهم » !

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٩٠) و (٧٤٢٣) عن أبي هُريرة .

(٣) رواه البخاري (٥٦٧٣) ، ومسلم (٢٨١٦) عن أبي هريرة .

وأحسَنُ من هذا أن يُقال : الباءُ المُقتَضِيَةُ للدُّخولِ غيرُ الباءِ التي نُفِيَ معها الدُّخولُ؛ فالمُقتَضيةُ هي باءُ السببيَّةِ الدَّالَّةُ على أنَّ الأعمالَ سببٌ للدُّخولِ مُقتَضيةٌ له كاقتضاءِ سائرِ الأسباب لمُسبَّباتها، والباءُ التي نُفِيَ بها الدُّخولُ هي باءُ المُعاوَضةِ والمُقابَلة[١]، التي في نحو قولهم : اشتَريتُ هذا بهذا .

فأخبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ دخولَ الجنَّة ليسَ في مُقابَلَةِ عَمَلِ أحدٍ، وأنَّهُ لولا تَغمُّدُ اللَّهِ سبحانَهُ لعَبدِهِ برَحمَتِهِ لَمَا أدخَلَهُ الجنَّة، فليسَ عملُ العَبدِ - وإنْ تناهى - مُوجِبًا بِمُجَرَّده لِدُخول الجَنَّة، ولا عِوضًا لها، فإنَّ أعمالَه - وإنْ وقَعَتْ منه على الوَجه الذي يُحبُّهُ اللَّهُ ويَرضاه - فهي لا تُقاومُ نعمةَ اللَّه التي أنعمَ بها عليهِ في دار الدُّنيا، ولا تُعادِلُها، بل لو حاسَبَهُ لوَقَعَتْ أعمالُهُ كلُّها في مقابلة اليَسير من نِعَمِهِ، وَتَبقى بَقيَّةُ النِّعَم مُقتَضِيَةً لِشكرِها، فلو عَذَّبهُ في هذه الحالةِ لَعَذَّبه وهو [غيرُ][٢] ظالمٍ له، ولو رَحِمَهُ لكانت رحمتُهُ خيرًا له من عمله ؛ كما في « السُّنَن »[٣] من حديث زَيد بن ثابت وحُذَيفةَ بن اليَمان - وغيرهما - مَرفوعًا إلى النَّبيّ ﷺ أنَّه قال : « إنَّ اللَّهَ لو عَذَّب أهلَ سمواتِهِ وأهلَ أرضه لَعَذَّبَهُم وهو غيرُ ظالمٍ لهم، ولو رَحِمَهُم لكانت رحمتُه خيرًا لهُم من أعمالهم » .

والمَقصودُ أنَّ حِكمتَهُ سبحانه اقتضَتْ خَلْقَ الجنَّة درجاتٍ بَعضُها فوق

---

(١) انظر « مجموع فتاوى شيخ الإسلام » (٨ / ٧٠) ، و « تجريد التَّوحيد المفيد » (ص ٧٦) للمقريزي، بتحقيقي .

(٢) ساقطة من « المطبوع » .

(٣) رواه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، والآجُرّي (ص١٨٧)، وأحمد (١٨٩/٥)، والبيهقي (٢٠٤/١٠) وابن أبي عاصم (٢٤٥) ، بسندٍ جيّد ، وصحّحه ابن حبّان (٧٢٧) .

بَعض، وعمارتَها بآدَم وذريَّتِهِ وإنزالَهُم فيها بِحَسَب أعمالهم، ولازمُ هذا إنزالُهُم إلى دار العَمَل والمُجاهدة .

وأيضًا ؛ فإنَّهُ سبحانه خَلَقَ آدمَ وذريَّتَهُ لِيَستَخلِفَهُم في الأرض، كما أخبر سبحانه في كتابه بقولِهِ : ﴿ إنِّي جاعِلٌ في الأرضِ خَليفَةً ﴾ [البقرة:٣٠]، وقولِهِ : ﴿ وَهُوَ الَّذي جَعَلَكُم خلائفَ الأرضِ ﴾ [الأنعام:١٦٥]، وقال: ﴿ وَيَستَخلِفَكُم في الأرضِ ﴾ [الأعراف:١٢٩] .

فأرادَ سبحانه أن ينقلَه وذُرِّيَّتَهُ من هذا الاستخلاف إلى تَوريثه جنَّةَ الخُلدِ، وعَلِمَ سبحانه - بِسابِقِ علمِهِ - أنَّه لِضَعفِه وقُصورِ نَظرِهِ قَد يَختارُ العاجلَ الخَسيسَ على الآجلِ النَّفيس، فإنَّ النَّفسَ مُولَعَةٌ بِحُبِّ العاجلةِ وإيثارِها على الآخِرَة، وهذا من لوازم كونهِ خُلِقَ من عَجَل[1] وكونهِ خُلِقَ عَجولًا[2]، فعلمَ سبحانه ما في طَبيعتهِ من الضَّعف والخَور، فاقتَضَتْ حِكمتُه أنْ أدخَلَهُ الجنَّة ليَعرفَ النَّعيمَ الذي أُعِدَّ له عَيانًا فيكونَ إليه أشوقَ، وعليه أحرصَ، وله أشدَّ طلبًا، **فإنَّ مَحبَّةَ الشيء وَطَلَبَهُ والشَّوقَ إليه من لوازِم تَصوُّرِه**، فَمَن باشر طِيبَ شيء ولَذَّتَهُ وتذوَّق به لم يَكَد يصبرُ عنه، وهذا لأنَّ النَّفسَ ذوَّاقةٌ توَّاقةٌ ، **فإذا ذاقَتْ** تاقَتْ، ولهذا إذا ذاقَ العَبدُ طعمَ حلاوَة الإيمان وخالَطَت بشاشتُه قلبَه رسخَ فيه حبُّه، ولم يُؤْثِر عليهِ شيئًا أبدًا .

وفي « الصَّحيح »[3] من حديث أبي هُرَيرة رضي اللَّه عنه المَرفوعِ : « إنَّ

---

(١) كما في سورة الأنبياء : ٣٧ .

(٢) كما في سورة الإسراء : ١١ .

(٣) رواه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩) عن أبي هُريرة مُطوّلًا .

الله عزَّ وجلَّ يسألُ الملائكةَ ، فيقول : ما يسألُني عبادي ؟ فيقولون : يسألونَكَ الجنَّة، فيقول : وهل رَأَوها ؟ فيقولون : لا يا رَبِّ، فيقول : كيف لو رَأَوها ؟ فيقولون : لو رَأَوها لكانوا أشدَّ طلبًا » .

فاقتَضَتْ حِكمتُهُ أنْ أراها أباهُم وأسكنَه إيَّاها، ثم قَصَّ على بنيه قِصَّتَهُ ، فصاروا كأنَّهُم مُشاهِدون لها حاضِرون مع أبيهم، فاستجاب مَن خُلِقَ لها، وخُلِقَت له ، وسارع إليها فلم يُثنِهِ عنها العاجلةُ، بل يَعُدُّ نَفسَهُ كأنَّه فيها، ثم سَباهُ العَدوُّ ، فيراها وَطَنهُ الأوَّلَ [وَقَد أُخرِجَ منه][1]، فهو دائمُ الحنين إلى وَطنِهِ، ولا يَقَرُّ له قَرارٌ حتى يَرى نَفسَه فيه ، كما قيل :

نَقِّل فُؤادَكَ حيثُ شِئْتَ مِنَ الهَوى ما الحُبُّ إلّا لِلحَبيبِ الأوَّلِ
كم مَنزِلٍ في الأرضِ يَألَفُهُ الفَتى وَحَنينُهُ أبدًا لأوَّلِ مَنزِلِ

ولي مِن أبياتٍ تُلِمُّ بهذا المَعنى :

وحيَّ على جنَّاتِ عَدنٍ فإنَّها منازِلُكَ الأُولى وفيها المُخَيَّمُ
ولكنَّنا سبيُ العَدوِّ فَهَل تَرى نَعودُ إلى أوطانِنا ونُسَلِّمُ

فَسِرُّ هذه الوجوهِ أنَّهُ - سبحانه وتعالى - سبَقَ في حُكمِه وحكمتِه أنَّ الغاياتِ المَطلوبةَ لا تُنال إلّا بأسبابها التي جعَلَها اللّهُ أسبابًا مُفْضِيَةً إليها، ومِن تلك الغاياتِ أعلى أنواع النَّعيم وأفضلُها وأجلُّها ، فلا تُنالُ إلّا بأسبابٍ نَصَبَها مُفْضِيةٍ إليها .

وإذا كانت الغاياتُ التي هي دونَ ذلك لا تُنالُ إلّا بأسبابِها - مع ضَعفِها وانقِطاعها - كتحصيل المأكولِ والمَشروبِ والمَلبوسِ والولدِ والمالِ والجاهِ

---

(١) ساقطة من « المطبوع » .

في الدُّنيا ؛ فكيف يُتوهَّم حُصولُ أعلى الغايات وأشرفِ المقامات بلا سَبَبٍ يُفضي إليه ؟! ولم يَكُن تَحصيلُ تلك الأسبابِ إلّا في دارِ المُجاهدة والحَرْث، فكان إسكانُ آدَمَ وذُريَّتِهِ هذه الدّارَ التي ينالون فيها الأسبابَ المُوصِلَةَ إلى أعلى المَقامات من إتمامِ إنعامه عليهم .

وسِرُّها أيضًا أنَّه سبحانه جعَلَ الرِّسالةَ والنبوَّةَ والخُلَّةَ والتَّكليمَ والولايةَ والعبوديَّةَ من أشرف مقامات خلقِه ونهاياتِ كمالهم؛ فأنزلهم دارًا أخرَجَ منهم الأنبياءَ، وبعث فيها الرُّسُل، واتَّخذَ مِنهم مَن اتَّخذَ خليلًا، وكلَّم موسى تكليمًا، واتَّخَذَ منهم أولياءَ وشهداءَ وعبيدًا وخاصَّةً يُحبُّهُم ويُحبُّونَهُ، وكان إنزالُهُم إلى الأرض من تمامِ الإنعامِ والإحسانِ .

و [سِرُّها][1] أيضًا أنَّهُ أظهرَ لخَلقه من آثارِ أسمائِه وجَريانِ أحكامِها عليهم ما اقتضَتْهُ حكمتُه ورحمتُه وعلمُه .

وسرُّها أيضًا أنَّه تعرَّف إلى خَلقِهِ بأفعالِه وأسمائِه وصفاتِه، وما أحدثه في أوليائِهِ وأعدائِهِ مِن كرامتِه وإنعامِهِ على الأولياء ، وإهانتِهِ وإشقائِهِ للأعداء ، ومِن إجابتِهِ دَعَواتِهِم ، وقضائِه حوائجَهم، وتفريج كُرُباتِهم، وكشفِ بلائهم، وتصريفهم تحتَ أقدارِهِ كيف يشاءُ، وتقليبهم في أنواع الخيرِ والشرِّ، فكان في ذلك أعظمَ دليلٍ لهم على أنَّه ربُّهم ومليكُهُم، وأنَّه اللَّه الذي لا إلهَ إلّا هو، وأنَّه العليمُ الحكيمُ السَّميعُ البصيرُ، وأنَّه الإلهُ الحقُّ ، وكلُّ ما سِواهُ باطلٌ .

فتظاهرَتْ أدلَّةُ ربوبيَّتِهِ وتوحيدِهِ في الأرضِ وتنوَّعتْ ، وقامَتْ من كلِّ جانبٍ ، فعَرَفَهُ المُوَفَّقون مِن عبادِهِ ، وأقرُّوا بتوحيده إيمانًا وإذْعانًا ، وجَحَدَهُ

---

(١) ساقطة من « المطبوع » .

المَخذُولون مِن[1] خليقتهِ ، وأشركوا به ظُلمًا وكفرانًا، فَهَلَكَ مَن هَلَكَ عن بيِّنةٍ وحيَّ من حيَّ عن بيِّنةٍ ، واللَّهُ سميعٌ عليمٌ .

ومَن تأمَّل آياتهِ المشهودَةَ والمَسموعةَ في الأرضِ ورأى آثارَها، عَلِمَ تمامَ حكمتهِ في إسْكانِ آدمَ وذُريَّتهِ في هذه الدَّار إلى أجلٍ معلومٍ، فاللَّهُ سبحانهُ إنَّما خلقَ الجنَّة لآدمَ وذُريَّته ، وجعلَ الملائكةَ فيها خَدَمًا لهم، ولكنِ اقتَضَتْ حكمتهُ أنْ خَلقَ لهم دارًا يتزوَّدون منها إلى الدَّار التي خُلِقَت لهم، وأنَّهم لا ينالونها إلّا بالزَّاد، كما قال تعالى في هذه الدَّار : ﴿ وتَحمِلُ أثقالَكُمْ إلى بَلَدٍ لَمْ تَكونوا بالِغيهِ إلّا بِشِقِّ الأنْفسِ إنَّ ربَّكُم لَرؤوفٌ رَحيمٌ ﴾ [النحل:٧٠]، فهذا شأنُ الانتقالِ في الدُّنيا من بلدٍ إلى بلدٍ، فكيفَ الانتقالُ من الدُّنيا إلى دارِ القَرار ؟!

وقال تعالى : ﴿ وتَزَوَّدوا فإنَّ خَيرَ الزَّادِ التَّقوى ﴾ [البقرة:١٩٧]، فباع المَغْبُونون منازِلَهُم منها بأبخَسِ الحظِّ وأنقصِ الثَّمن، وباعَ المُوفَّقون نُفوسَهُم وأموالَهُم من اللَّهِ، وجعلوها ثَمنًا للجنَّة ؛ فربحَت تجارتُهم ، ونالوا الفَوزَ العظيم، قال اللَّه تعالى : ﴿ إنَّ الله اشتَرى مِن المُؤمنينَ أنفسَهُم وأموالَهُم بأنَّ لَهُم الجنَّة ﴾ [التوبة:١١١] .

فهو سبحانهُ ما أخرجَ آدمَ منها إلّا وهو يُريدُ أن يُعيدَه إليها أكملَ إعادةٍ، كما قيل على لسانِ القدر[2] : يا آدمُ لا تجزَعْ مِن قولي لك : اخرُجْ منها، فلك خلقتُها ، فإنِّي أنا الغنيُّ عنها وعن كلِّ شيءٍ وأنا الجوادُ الكريمُ، وأنا لا أتمتَّعُ فيها فإنِّي أُطعِمُ ولا أُطعَمُ، وأنا الغنيُّ الحميدُ، ولكنِ انزِل إلى دار البَذْرِ، فإذا بَذَرْتَ فاستوى الزَّرعُ على سُوقهِ وصارَ حصيدًا ، فحينئذٍ فتعالَ فاستَوْفهِ أحوجَ ما أنت

(١) في « المطبوع » : « على » .

(٢) في هذا التعبير شيءٌ !!

إليه، الحبَّةُ بعشر أمثالها ، إلى سبعِ مئةِ ضعفٍ ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ، فإنِّي أعلمُ بمصلحتكَ منكَ، وأنا العليمُ[١] الحكيمُ .

فإنْ قيل : ما ذكرتموه من هذهِ الوجوهِ وأمثالها إنَّما يتمُّ إذا قيلَ : إنَّ الجنَّة التي أُسكِنَها آدمُ وأُهبِطَ منها جنَّةُ الخُلد التي أُعِدَّت للمتَّقين والمؤمنين[٢] يوم القيامة، وحينئذٍ يظهرُ سرُّ إهباطِهِ [آدمَ][٣] وإخراجِهِ منها ! ولكنْ قد قالت طائفةٌ - منهم أبو مُسلم[٤] ومُنذرُ بن سعيد البَلُّوطي[٥] وغيرُهما - : إنَّها كانت جنَّةً في الأرض في موضعٍ عالٍ منها ! لا أنَّها جنَّةُ المأوى التي أعدَّها اللَّهُ لعبادهِ المؤمنين يومَ القيامة .

وذكر مُنذر بنُ سعيد هذا القولَ في « تفسيرهِ » عن جماعةٍ فقال : « وأمَّا قولُه لآدم : ﴿ اسكُنْ أنتَ وزَوجُكَ الجنَّةَ ﴾ [البقرة : ٣٥] فقالت طائفةٌ : أسكن اللَّهُ تعالى آدمَ ﷺ جنَّةَ الخُلدِ التي يدخلُها المؤمنون يومَ القيامةِ، وقال آخَرون : هي جنَّةٌ غيرُها جعلها اللَّهُ لهُ، وأسكنه إيَّاها ليست جنَّةَ الخُلد » .

قال : « وهذا قولٌ تكثُرُ الدَّلائلُ الشاهدَةُ له، والمُوجِبَةُ للقول به[٦]؛ لأنَّ الجنَّةَ التي تُدْخَلُ بعد القيامة هي من حيِّزِ الآخرةِ، وفي اليوم الآخِرِ تُدخَل؛ ولم

(١) في « المطبوع » : « العليّ » .
(٢) في « الأصل » : « أعدَّها اللَّهُ لعباده المؤمنين » .
(٣) ساقطة مِن « المطبوع » .
(٤) هو الأصبهانيّ ، المتوفَّى سنة (٣٢٢هـ)، ترجمته في « لسان الميزان » (٨٩/٥) .
(٥) المتوفَّى سنة (٣٥٥ هـ) ، ترجمته في « نفح الطِّيب » (١ / ٣٧٢) .
(٦) انظر تفصيل المصنِّف حولَ هذه المسألة في « حادي الأرواح » (ص ٧٦-٧٧) . وراجع « البداية والنِّهاية » (٧٤/١) لابن كثير، و « المحرَّر الوجيز » (١٨٢/١) لابن عطيّة .

يأتِ بعدُ، وقد وَصَفَها اللَّه لنا في كتابهِ بصفاتها، ومُحالٌ أن يصفَ اللَّه شيئًا بصفةٍ ثمَّ يكون ذلك الشيءُ بغير تلك الصِّفَة التي وصَفها به، والقولُ بهذا دافعٌ لِما أخبر اللَّهُ به » .

قالوا : وَجَدنا اللَّهَ تبارَكَ وتعالى وصفَ الجنَّة التي أُعدَّت للمتَّقين بعد قيام القيامة بدارِ المُقامة، ولم يُقِمْ آدم فيها .

وَوَصفَها بأنَّها جنَّةُ الخُلد ولم يُخَلِّد آدمَ فيها .

وَوَصفَها بأنَّها دارُ جزاءٍ ولم يَقُل : إِنَّها دارُ ابتلاء، وقد ابتلى آدمَ فيها بالمعصيَة والفتنةِ .

وَوَصفَها بأنَّها ليس فيها حَزَنٌ ، وأنَّ الدَّاخلين إليها يقولون : ﴿ الحَمدُ للهِ الَّذي أذهبَ عنَّا الحَزَنَ ﴾ [فاطر : ٣٤] وقد حَزِنَ فيها آدمُ .

وَوَجدناه سمَّاها دارَ السَّلام ، ولم يَسْلَم فيها آدمُ من الآفاتِ التي تكونُ في الدُّنيا .

وسمَّاها دارَ القرار ، ولم يستقرَّ فيها آدمُ .

وقال فيمن يَدخلُها : ﴿ وَما هُم مِنها بمُخرَجين ﴾ [الحِجر : ٤٨] وقد أُخرجَ منها آدمُ بمعصيته .

وقال : ﴿ لا يَمَسُّهُم فِيها نَصَبٌ ﴾ [الحِجْر : ٤٨] وقد نَدِمَ آدم فيها هاربًا فارًّا عند إصابتهِ المعصيةَ، وطَفِقَ يخصِفُ وَرَقَ الجنَّة على نفسِه، وهذا النَّصَبُ بعينه الذي نفاه اللَّهُ عنها .

وَأخبَرَ أنَّه لا يُسمَعُ فيها لغوٌ ولا تأثيمٌ ، وقد أثمَ فيها آدمُ ، وأُسمع فيها ما هو أكبر من اللغوِ وهو أنَّه أُمِرَ فيها بمعصيةِ ربِّه .

وأخبر أنَّه لا يُسمع فيها لغوٌ ولا كذبٌ، وقد أسمعه فيها إبليسُ الكذبَ وغرَّه ، وقاسَمَهُ عليه أيضًا بعد أن أسمَعَهُ إيَّاه .

وقد شربَ آدمُ من شرابها الذي سمَّاه في كتابهِ ﴿ شرابًا طهورًا ﴾ [الإنسان : ٢١] أي : مُطهِّرًا من جميع الآفات المذمومة، وآدمُ لم يُطهَّر من تلك الآفات .

وسمَّاها اللَّهُ تعالى ﴿ مَقعَدِ صِدْقٍ ﴾ [القمر : ٥٥] وقد كَذَب إبليسُ فيها آدمَ، ومقعدُ الصِّدق لا كذبَ فيه .

وَعِلِّيُّون لم يكُن فيها استحالةٌ قطُّ ولا تبديلٌ ، ولا يكونُ بإجماع المُصلِّين، والجنَّةُ في أعلى عليِّين، واللَّهُ تعالى إنَّما قال : ﴿ إنِّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً ﴾ [البقرة : ٣٠] ولم يقُل : إنِّي جاعلٌ في جنَّة المأوى، فقالت الملائكةُ : ﴿ أتجعَلُ فيها مَن يُفسِدُ فيها وَيَسفِكُ الدِّماءَ ﴾ [البقرة : ٣٠]؛ والملائكةُ أتقى للَّه من أن تقول ما لا تعلم ، وهم القائلون : ﴿ لا عِلمَ لنا إلَّا ما عَلَّمتَنا ﴾ [البقرة : ٣٢] وفي هذا دلالةٌ على أنَّ اللَّه قد كانَ أعلمهم أنَّ بني آدم سَيُفسِدونَ في الأرضِ، وإلَّا فكيف كانوا يَقولون ما لا يعلمون، واللَّهُ تعالى يقول - وقولهُ الحقُّ - : ﴿ لا يَسبِقونَهُ بالقَولِ وهُم بأَمرِهِ يَعمَلون ﴾ [الأنبياء:٢٧]، والملائكةُ لا تقولُ ولا تعملُ إلَّا بما تُؤمَرُ به لا غير، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَيَفعَلونَ ما يُؤمَرون ﴾ [النحل:٥٠] .

واللَّهُ تعالى أخبرنا أنَّ إبليس قال لآدم : ﴿ هَل أدلُّكَ على شجَرَةِ الخُلدِ ومُلكٍ لا يَبلى ﴾ [طه:١٢٠]، فإنْ كان [اللَّهُ] قد أسكَن [آدَمَ][١] جنَّةَ الخُلد،

(١) ساقطٌ من « المطبوع » ، وقد استدركته من « الأصل » ومن كلام المصنِّف في « حادي الأرواح » (ص : ٦٠) .

والملكَ الذي لا يبلى، فكيفَ لم يَرُدَّ عليه نصيحتَه ويُكذِّبْهُ في قوله؛ فيقولُ : وكيفَ تدلُّني على شيءٍ أنا فيه وقد أُعطِيتُهُ واخترتُه ؟! بل كيف لم يَحْثُ التُّرابَ في وجهه ويسبَّه؛ لأنَّ إبليسَ لئن كان يكونُ بهذا الكلام مُغْوِيًا له إنَّما كان يكون زاريًا عليه ، لأنَّه إنَّما وَعَدَهُ على معصيةِ ربِّه بما كان فيه لا زائدًا عليه[1]، ومثلُ هذا لا يُخاطَبُ به إلّا المجانين الذين لا يَعقلونَ؛ لأنَّ العِوَضَ الذي وعدَه به بمعصيةِ ربِّه قد كان أحرزَه وهو الخُلدُ والمُلكُ الذي لا يَبلى !

ولم يُخبر اللَّهُ آدمَ إذ أسكنه الجنَّة أنَّه فيها من الخالدين ، ولو كان فيها من الخالدين لَمَا رَكَنَ إلى قول إبليسَ، ولا قَبِلَ نصيحتَهُ، ولكنَّه لـمَّا كان في غير دار خُلودٍ غَرَّهُ بما أطمعهُ فيه من الخُلد، فقبلَ منه، ولو أخبر اللَّهُ آدمَ أنَّه في دارِ الخُلد ثمَّ شكَّ في خبر ربِّه لسمَّاه كافرًا، ولَمَا سمَّاه عاصيًا، لأنَّ مَن شكَّ في خبرِ اللَّه فهو كافرٌ، ومن فعلَ غيرَ ما أمره اللَّه به وهو مُعتقدٌ للتَّصديق بخبر ربِّه فهو عاصٍ، وإنَّما سمَّى اللَّهُ آدمَ عاصيًا ولم يُسمِّه كافرًا .

قالوا : فإنْ كان آدمُ أُسكِن جنَّةَ الخُلد - وهي دارُ القُدُسِ التي لا يدخُلُها إلّا طاهرٌ مُقدَّسٌ - فكيف تَوَصَّلَ إليها إبليسُ الرِّجسُ النَّجِسُ الملعونُ المذمومُ المدحورُ حتَّى فَتَنَ فيها آدمَ، وإبليسُ فاسقٌ قد فسقَ عن أمرِ ربِّه ، وليست جنَّةُ الخُلدِ دارَ الفاسقين، ولا يدخُلُها فاسقٌ البتَّة إنَّما هي دارُ المتَّقين، وإبليس غيرُ تقيٍّ، فبعدَ أَنْ قيلَ له : ﴿ اهبِط مِنها فَما يَكونُ لَكَ أنْ تَتَكبَّرَ فيها ﴾ [الأعراف:١٣]، أيُفسَحُ[2] له أنْ يرقى إلى جنَّة المأوى فوق السَّماء السَّابعة

---

(١) في « الأصل » : « عنه » .

(٢) في « المطبوع » : « انفسح » !!

بعد السَّخَط والإيعاد له بالعُتُوِّ والاستكبار !؟

هذا مُضادٌّ لقولِهِ تعالى : ﴿ اهبِطْ منها فما يكون لك أن تَتَكبَّر فيها ﴾ [الأعراف:١٣]، فإنْ كانت مخاطبتُه آدمَ بما خاطبه به وقاسَمَه عليه ليس تكبُّرًا ، فليس تَعقِلُ العربُ التي أُنزل القُرآن بلسانها ما التَّكبُّر ؟

ولعلَّ مَن ضَعُفَت رويَّتُه وقَصُرَ بَحثُه أن يقولَ : إنَّ إبليسَ لم يَصِلْ إليها، ولكنّ وسوستَه وصلَت، فهذا قولٌ يُشبِهُ قائلَهُ ويُشاكِلُ مُعتَقِدَهُ !

وقولُ اللَّه تعالى حكَمٌ بينَنا وبينهُ، وقولهُ تعالى : ﴿ وَقاسَمَهُما ﴾ [الأَعراف : ٢١] يردُّ ما قال؛ لأنَّ المُقاسمةَ ليسَت وسوسةً، ولكنَّها مُخاطبةٌ ومُشافهةٌ، ولا تكونُ إلّا مِن اثنين ، وشاهدينِ غيرِ غائبين، ولا أحدِهما .

وممّا يدلُّ على أنَّ وسوستَه كانت مخاطبةً قولُ اللَّه تعالى : ﴿ فَوَسوَسَ إليهِ الشيطانُ قال يا آدَم هَل أدلُّكَ على شجَرَة الخُلدِ ومُلكٍ لا يَبلى ﴾ [طه: ١٢٠]، فأخبر أنَّه قال له، ودلَّ ذلك على أنَّه إنَّما وسوس إليه مُخاطِبًا، لا أنَّه أوقع ذلك بِنَفسِه بلا مُقاولة، **فَمَن ادَّعى على الظَّاهر تأويلًا ولـم يُقِمْ عليه دليلًا لـم يَجِبْ قَبولُ قولِـه .**

وعلى أنَّ الوَسوسةَ قد تكونُ كلامًا مسموعًا أو صَوتًا؛ قال رُؤبةُ[1]:

وَسوَسَ يَدعو مُخلِصًا رَبَّ الفَلَق ....

وقال الأعشى :

تسمعُ للحَلْي وَسْواسًا إذا انصَرَفَت كما استعانَ بريحِ عِشْرِقٌ زَجِلُ[2]

---

(١) هو رُؤْبَة بن العجَّاج، توفِّي سنة (١٤٥هـ) انظر ترجمته في « البداية والنهاية » (٩٦/١٠)، و « لسان الميزان » (٤٦٢/٢) .

(٢) قال في « القاموس » (ص:١٣٠٤) : « نَبْتٌ زَجِلٌ : صوَّتَ فيه الرِّيحُ » . =

قالوا : وفي قولِ إبليس لهما : ﴿ ما نَهاكُما ربُّكما عن هذهِ الشجَرَة ﴾ [الأَعْراف : ٢٠] دليلٌ على مُشاهدتهِ لهما وللشجرة .

ولمّا كان آدمُ خارجًا من الجنَّة وغيرَ ساكنٍ فيها، قال اللَّه : ﴿ أَلَم أنهَكُما عَن تِلكُما الشجرَة ﴾ [الأعراف:٢٢]، ولم يَقُل : عن هذه الشجرة، كما قال له إبليسُ، لأنَّ آدمَ لم يكن حينئذٍ في الجنَّة ولا مُشاهِدًا للشجرة، مع قولهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ إليه يَصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعمَلُ الصَّالحُ يَرفَعُهُ ﴾ [فاطر:١٠]، فقد أخبر سبحانه خَبَرًا مُحْكَمًا غيرَ مُشتبهٍ أنَّه لا يصعدُ إليه إلّا كلمٌ طيِّبٌ وعملٌ صالحٌ، وهذا ممّا قدَّمنا ذِكرَهُ أنَّه لا يلجُ المُقَدَّسَ المُطَهَّرَ إلّا مُقدَّسٌ مُطهَّرٌ طيِّبٌ، وَمَعاذَ اللَّه أن تكونَ وَسوَسةُ إبليسَ مُقدَّسةً أو طاهرةً أو خيرًا، بل هي شرٌّ كلُّها، وظلمةٌ، وخَبَثٌ، ورجسٌ، تعالى اللَّه عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا .

وكما أنَّ أعمالَ الكافرين لا تلجُ القُدُسَ الطَّاهِرَ ولا تَصِلُ إليه لأنَّها خبيثةٌ غيرُ طيِّبةٍ، كذلك لا تَصِلُ - ولم تَصِلْ - وسوسةُ إبليس، ولا وَلَجت القُدُسَ، قال تعالى : ﴿ كلّا إنَّ كتَّابَ الفجَّار لَفي سجِّين ﴾ [المطفِّفين:٧] .

وقد رُويَ عن النَّبي ﷺ أنَّ آدم نامَ في جنَّته[1]، وجنَّةُ الخُلْد لا نومَ فيها

= والعِشرِقُ : « نَبتٌ مِن الأغلاس ... » كما في « القاموس » (ص : ١١٧٤) أيضًا .

(١) قال المصنِّف رحمه اللَّه في « حادي الأرواح » (ص : ٦٢) : « موقوفٌ من رواية ابن أبي نجيح عن مجاهد » .

قلتُ : وفي سماع ابن أبي نجيح من مجاهد كلامٌ معروفٌ .

وتصديرُ المصنِّف له بصيغَةِ التَّمريض إشعارٌ بضعفه .

وانظر « تفسير الطبري » (١ / ٢٢٩) ، و« الدُّرّ المنثور » (١ / ٥٢) للسيوطي .

بإجماعٍ من المسلمين لأنَّ النَّومَ وفاةٌ، وقد نَطَقَ بهِ القرآن[١]، والوفاةُ تقلُّبُ حالٍ، ودارُ السَّلامِ مُسلَّمةٌ من تقلُّب الأحوالِ، والنَّائمُ ميِّتٌ أو كالميِّت .

قالوا : وقد رُويَ عنه ﷺ أنَّه قال لأُمِّ حارثةَ لمّا قالت له : يا رسولَ اللَّه، إنَّ حارثة قُتِلَ معك فإنْ كان صارَ إلى الجنَّة صبرتُ واحتسبتُ، وإن كان صارَ إلى ما سوى ذلك رأيتَ ما أفعلُ ! فقال لها رسولُ اللَّهِ ﷺ : « أوَجنَّةٌ واحدةٌ هي !، إنَّما هي جِنانٌ كثيرةٌ »[٢].

فأخبر ﷺ أنَّ للَّه جنَّاتٍ كثيرةً، فلعلَّ آدم أسكنه اللَّهُ جنَّةً من جنَّاتهِ ليست هي جنَّةَ الخُلد .

قالوا : وقد جاء في بَعض الأخبار أنَّ جنَّة آدمَ كانت بأرض الهندِ[٣] !

قالوا : وهذا وإنْ كان لا يُصَحِّحُهُ رواةُ الأخبارِ ونَقَلَةُ الآثارِ، فالذي تقبلُهُ الألبابُ ويشهدُ له ظاهرُ الكتابِ أنَّ جنَّة آدمَ ليست جنَّةَ الخُلد ولا دارَ البقاء، وكيفَ يجوزُ أن يكونَ اللَّهُ أسكنَ آدمَ جنَّةَ الخُلد ليكونَ فيها منَ الخالدينَ وهو قائلٌ للملائكة : ﴿ إنِّي جاعِلٌ في الأرضِ خَليفةً ﴾ [البقرة:٣٠] ؟ وكيفَ أخبرَ الملائكةَ أنَّه يريدُ أن يجعلَ في الأرضِ خليفةً ثمَّ يُسكِنُه دارَ الخُلود، ودارُ الخلودِ لا يدخُلُها إلّا من يخلُد فيها، كما سُمِّيتْ بدار الخلودِ فقد سمَّاها اللَّه بالأسماءِ التي تقدَّم ذِكْرُنا[٤] لها تسميةً مُطلقةً لا خصوصَ فيها، فإذا قيل

(١) كما في قوله تعالى : ﴿ الله يَتوفّى الأنفسَ حينَ مَوتِها والّتي لَم تَمُت في مَنامِها ﴾ [الزُّمَر : ٤٢] .

(٢) رواه البخاري (٢٨٠٩) عن أنس .

(٣) قارن بِـ « البعث والنشور » (ص ١٤١) ، و « سلسلة الأحاديث الضعيفة » (٤٠٣) و (٢٨٦) .

(٤) وفي « حادي الأَرواح » (١١٨ - ١٢٤) - للمصنِّف - فصلٌ مُفرَدٌ في أَسماء =

للجنَّة : دارُ الخُلد، لم يَجُز أن يُنْقَضَ مسمًّى هذا الاسم بحالٍ .

فهذا بعضُ ما احتجَّ به القائلون بهذا المذهب .

وعلى هذا ، فإسْكانُ آدمَ وذُريَّتِهِ في هذه الجنَّةِ لا يُنافي كونَهم في دارِ الابتلاءِ والامتحانِ، وحينئذٍ كانت تلك الوجوهُ والفوائدُ التي ذكرتموها مُمكِنةَ الحُصولِ في الجنَّة .

فالجوابُ أن يُقال : هذا فيه قولانِ للنَّاس، ونحنُ نَذكرُ القولين، واحتجاجَ الفريقين، ونُبيِّنُ ثبوتَ الوجوهِ التي ذكرناها وأمثالَها على كلا القولين .

ونَذكُرُ أوَّلًا قولَ من قال : إنَّها جنَّةُ الخُلد التي وعدَها اللَّهُ المتَّقين وما احتَجُّوا به، وما نقضوا به حُجَجَ مَن قال : إنَّها غيرُها ، ثمَّ نُتبِعُها مقالةَ الآخَرين وما احتَجُّوا به، وما أجابوا به عن حُجَج مُنازِعيهم من غير انتصابٍ لنُصرَةِ أحَدِ القَولين وإبطالِ الآخر، إذ ليسَ غَرَضُنا ذلك، وإنَّما الغَرَضُ ذِكرُ بعضِ الحِكَم والمصالحِ المُقتضية لإخراج آدمَ من الجنَّة وإسكانهِ في الأرض في دار الابتلاءِ والامتحانِ .

وكان الغَرَضُ بذلك الردَّ على مَن زَعَمَ أنَّ حكمةَ اللَّه سبحانه تأبى إدْخالَ آدمَ الجنَّةَ، وتعريضَه للذَّنب الذي أُخرجَ منها به، وأنَّه أيُّ فائدَةٍ في ذلك ! والرَّدَّ على مَن أبطَل أن يكونَ له في ذلك حكمةٌ وإنَّما هو صادرٌ عن مَحْض المشيئةِ التي لا حِكمَةَ وراءها .

ولمّا كان المقصودُ حاصلًا على كلِّ تقديرٍ - سواءٌ كانت جنَّةَ الخُلد أو غيرَها - بيَّنَّا الكلامَ على التَّقديرين ، وَرَأَينا أنَّ الرَّدَّ على هؤلاء بِدَبُّوسِ السَّلَّاق(١)

= الجنَّةِ ومعانيها واشتقاقاتها .

(١) كذا في « الأصل » وفي « المطبوع » ! وفي حاشية المطبوعة (ص ١٤) ما نصُّه : =

يُحصِّلُ غَرَضًا ولا يزيلُ مَرَضًا، فَسَلَكْنا هذا السَّبيلَ ليكون قولُهم مردودًا على كُلِّ قولٍ من أقوالِ الأئمَّة .

وباللَّه المُستعان ، وعليه التُّكلان ، ولا حولَ ولا قوَّة إلّا باللَّه .

فنقولُ : أمَّا ما ذكرتُموه مِن كون الجنَّة التي أُهبِط منها آدُم ليست جنَّةَ الخُلد ، وإنَّما هي جنَّةٌ غيرُها ، فهذا ممّا قد اختلف فيه النَّاسُ :

والأشهرُ عند الخاصَّةِ والعامَّةِ الذي لا يَخْطُرُ بقلوبهم سواه أنَّها جنَّة الخُلد التي أُعِدَّت للمتَّقين، وقد نصَّ غيرُ واحدٍ من السَّلف على ذلك .

واحتجَّ مَنْ نَصَرَ هذا بما رواه مُسلمٌ في « صحيحِه »[1] من حديث أبي مالكٍ الأَشجَعيِّ عن أبي حازمٍ عن أبي هريرة، وأبي مالك عن رِبْعِيِّ بن حِرَاشٍ عن حُذَيفَة قالا : قال رسولُ اللَّه ﷺ : « يجمعُ اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ النَّاسَ، [فيقومُ المؤمنون][2] حتى يُزلِفَ لهم الجنَّةَ، فيأتون آدمَ عليه السَّلام، فيقولون : يا أبانا اسْتَفتِح لنا الجنَّةَ، فيقول : وهل أَخرجكم من الجنَّة إلّا خطيئةُ أبيكُم آدم ... » وذكرَ الحديث .

قالوا : فهذا يدُلُّ على أنَّ الجنَّة التي أُخرِج منها آدمُ هي بعينها التي يُطْلَب منه أن يستفتحَها لهم .

قالوا : ويدُلُّ عليه أنَّ اللَّه سبحانه قال : ﴿ قُلنا يا آدَمُ اسكُن أنتَ وَزَوجُكَ

= « هكذا في الأُصول، ويظهر أن يكون كنَّى به عن اللسان » .

أَقول : يقال : لسان سَلَّاق : أَي : حَدِيدٌ ذَلِقٌ ، ومنه : خطيب سَلَّاق : أي بليغ حادُّ اللسان ، والله أَعلم .

(١) (رقم : ١٩٥) .

(٢) زيادة من « الأصل » .

الجنَّة ﴾ [البقرة:٣٥]، إلى قوله : ﴿ اهبِطُوا بعضُكم لبَعض عَدوّ ولكُم في الأرضِ مُستَقرٌّ ومتاعٌ إلى حين ﴾(١) [فهذا يدُلُّ على أنَّ هُبوطَه من الجنَّة إلى الأرضِ، مِن وجهين :

أحدهما : مِن لفظِ قوله : ﴿ اهبِطُوا ﴾، فإنَّ الهُبوطَ نُزولٌ من عُلُوٍّ إلى سُفولٍ .

والثَّاني : قوله : ﴿ وَلَكُم في الأرضِ مُستقرٌّ ﴾(١)](٢)،عَقيبَ قولِه : ﴿ اهبِطُوا ﴾، فدلَّ على أنَّهم لم يكونوا أوَّلًا في الأرضِ .

وأيضًا ؛ فإنَّه سبحانه وصفَ الجنَّةَ التي أُسكِنها آدمُ بصفاتٍ لا تكونُ في الجنَّة الدُّنيويَّة، فقال تعالى : ﴿ إنَّ لكَ ألّا تَجوعَ فيها ولا تَعرى وأنَّكَ لا تظمأُ فيها ولا تَضحى ﴾ [طه : ١١٨-١١٩]، وهذا لا يكونُ في الدُّنيا أصلًا، ولو كان الرَّجلُ في أطيبِ منازلِها فلا بدَّ أن يعرضَ له الجوعُ والظَّمأُ والتَّعرِّي والضَّحِيُّ (٣) للشمس .

وأيضًا ؛ فإنَّها لو كانت الجنَّةُ في الدُّنيا لَعَلِمَ آدمُ كذبَ إبليس في قوله: ﴿ هل أدلُّكَ على شجرَة الخُلدِ ومُلكٍ لا يَبلى ﴾ [طه:١٢٠]، فإنَّ آدمَ كان يعلم أنَّ الدُّنيا مُنقضيَةٌ فانيةٌ ، وأنَّ مُلكَها يبلى .

وأيضًا ؛ فإنَّ قصَّة آدمَ في (البقرةِ) ظاهرةٌ جدًّا في أنَّ الجنَّة التي أُخرجَ منها فوقَ السَّماء، فإنَّه سبحانه قال : ﴿ وإذْ قُلنا للملائِكَة اسجُدوا لآدَمَ فَسَجَدوا إلّا إبليسَ أبى واستَكبَرَ وكانَ مِنَ الكافرينَ وقُلنا يا آدَمُ اسْكُنْ أنتَ وزَوجُكَ الجنَّةَ وكُلا مِنها رَغَدًا حيثُ شِئتُما ولا تَقرَبا هذه الشجرَةَ فتَكونا من

(١) البقرة : ٣٦ .

(٢) ساقط من « المطبوع » !

(٣) هو البُروزُ والظُّهورُ لها .

الظالمين فأزلَّهما الشيطانُ عنها فأخرجَهُما ممَّا كانا فيه وقُلنا اهْبِطُوا بَعضُكُم لبَعضٍ عَدُوٌّ ولكُم في الأرضِ مُستقرٌّ وَمَتاعٌ إلى حينٍ فتلقَّى آدَمُ من ربِّه كلماتٍ فتابَ عليه إنَّهُ هو التَّوَّابُ الرَّحيم ﴾ [البقرة:٣٤-٣٧]، فهذا إهباطُ آدمَ وحوَّاءَ وإبليسَ من الجنَّة، ولهذا أتى فيه بضمير الجَمْع .

وقيل : إنَّه خطابٌ لهم وللحيَّة ! وهذا يحتاجُ إلى نقلٍ ثابتٍ، إذ لا ذكرَ للحيَّة في شيءٍ من قصَّة آدم وإبليس .

وقيل : خطابٌ لآدم وحوَّاء ، وأتى فيه بلفظِ الجمع ، كقوله تعالى : ﴿ وكُنَّا لِحُكمِهم شاهِدين ﴾ [الأنبياء : ٧٨] !

وقيل : لآدم وحوَّاء وذُريَّتهما !

وهذه الأقوالُ ضعيفةٌ غيرَ الأوَّل؛ لأنَّها بين قولٍ لا دليلَ عليه، وبينَ ما يدُلُّ ظاهرُ الخطابِ على خلافِه، فَثَبَتَ أنَّ إبليسَ داخلٌ في هذا الخطاب ، وأنَّه من المُهبَطين من الجنَّة .

ثمَّ قال تعالى : ﴿ قُلنا اهْبِطُوا منها جَميعًا فإمَّا يَأتينَّكُم منِّي هُدًى فمَن تَبِعَ هُدايَ فلا خَوفٌ عَلَيهِم ولا هُم يَحزَنون ﴾ [البقرة:٣٨] ، وهذا الإهباطُ الثَّاني لا بدَّ أن يكونَ غيرَ الأوَّل - وهو إهباطُه من السَّماء إلى الأرض - ، وحينئذٍ فتكون الجنَّةُ التي أُهبِطوا منها أوَّلًا فوقَ السَّماء ، وهي جنَّةُ الخلد .

وقد ذهَبَت طائفةٌ - منهم الزَّمخشريُّ - إلى أنَّ قوله : ﴿ اهبِطُوا مِنها جميعًا ﴾ خطَابٌ لآدَمَ وحوَّاءَ خاصَّةً ، وعبَّر عنهما بالجمع لاستتباعِهما ذُرِّيَّتَهما[1]؛ قال[2]: والدَّليلُ عليه قولُه تعالى: ﴿ قالَ اهبِطا مِنْها جَميعًا بعضُكم

(١) في « المطبوع » : « ذرياتهما » .
(٢) في « الكشاف » (١ / ١٢٨) .
وانظر « حادي الأرواح » (ص ٥٥) للمصنِّف .

لبَعضٍ عَدوّ فإمَّا يأتينَّكم منِّي هُدًى ﴾ [طه:١٢٣] .

وقال : ويدُلُّ على ذلك قولُه : ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدايَ فلا خَوفٌ عَليهم ولا هُم يَحزَنون والَّذينَ كفَروا وَكذَّبوا بآياتِنا أُولئكَ أصحابُ النَّارِ هُم فيها خالِدون ﴾ [البقرة:٣٨-٣٩]، وما هو إلّا حُكمٌ يَعُمُّ النَّاسَ كلَّهم .

ومعنى ﴿ بَعضُكم لِبَعضٍ عَدُوٌّ ﴾ : ما عليه النَّاسُ مِن التَّعادي والتَّباغضِ وتَضليلِ بعضِهم لبعض !

وهذا الذي اختارهُ أضعفُ الأقوالِ في الآيةِ ؛ فإنَّ العداوةَ التي ذكرها اللَّهُ إنَّما هي بين آدمَ وإبليس وذُرِّيَّاتهما ، كما قال تعالى : ﴿ إنَّ الشيطانَ لكُم عَدُوٌّ فاتَّخِذوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر:٦] [وَلا عَدُوَّ][1] .

وأمَّا آدمُ وزوجُهُ فإنَّ اللَّه سبحانه أخبرَ في كتابِهِ أنَّه خَلَقَها منه لِيَسكُنَ إليها .

وقال سبحانه : ﴿ ومِن آياته أنْ خلقَ لكُم من أنفُسِكُم أزواجًا لتَسكنوا إليها وجعَلَ بينَكُم مَودَّةً ورحمةً ﴾ [الروم:٢١]، فهو سُبحانه جعل المودَّةَ بين الرَّجل وزوجِهِ ، وجَعَلَ العداوَة بين آدمَ وإبليسَ وذُرِّيَّاتهما .

ويدُلُّ عليه - أيضًا - عَوْدُ الضَّمير إليهم بلفظِ الجَمْع ، وقد تقدَّم ذكرُ آدمَ وزوجِهِ وإبليسَ في قولِهِ : ﴿ فأزلَّهما الشَّيطانُ عنها فأخرَجَهُما ممَّا كانا فيه ﴾ [البقرة : ٣٦] ، فهؤلاء ثلاثةٌ آدمُ وزوجُهُ[2] وإبليسُ ، فلماذا يعودُ الضَّميرُ على بعض المذكور مع مُنافرتِه لطريق الكلام ، ولا يعودُ على جميع المذكورِ مع أنَّه وَجْهُ الكلام !؟

---

(١) ساقطة من « المطبوع » .

(٢) في « المطبوع » : « وحوَّاء » .

فإنْ قيل : فما تصنعون بقوله : ﴿ قَالَ اهبِطا منها جميعًا بعضُكم لبعضٍ عَدوٌّ ﴾ [طه:١٢٣]، وهذا خطابٌ لآدم وحوَّاء، وقد أخبر بعداوةِ بعضِهم بعضًا ؟

قيل : إمَّا أن يكونَ الضَّميرُ في قوله: ﴿ اهبِطا ﴾ راجعًا إلى آدمَ وزوجِه، أو يكونَ راجعًا إلى آدم وإبليسَ، ولم يذكر الزَّوجةَ لأنَّها تَبَعٌ له :

وعلى الثَّاني فالعداوةُ المذكورةُ للمخاطَبين بالإهْباط وهما آدمُ وإبليسُ .

وعلى الأوَّل تكونُ الآيةُ قد اشتملت على أمرين :

أحدُهما : أمرُهُ لآدمَ وزوجِه بالهبوط .

والثَّاني : جعلُهُ العداوةَ بين آدمَ وزوجِهِ وإبليسَ، ولا بُدَّ أن يكون إبليسُ داخلًا في حُكم هذه العداوةِ قطعًا، كما قال تعالى : ﴿ إنَّ هذا عدوٌّ لكَ ولِزَوجِكَ ﴾ [طه:١١٧]، وقال لذريَّته : ﴿ إنَّ الشَّيطانَ لكُم عَدوٌّ فاتَّخِذوهُ عَدوًّا ﴾ [فاطر:٦] .

وتأمَّلْ كيف اتَّفقت المواضعُ التي فيها العدواةُ على ضمير الجمع دونَ التَّثنيَة .

وأمَّا ذِكرُ الإهباطِ؛ فتارَةً يأتي بلفظِ ضمير الجمع، وتارةً بلفظِ التَّثنية، وتارَةً يأتي بلفظِ الإفراد لإبليسَ وحدَه، كقولِه تعالى : ﴿ قالَ ما مَنَعَكَ أنْ لا تَسجُدَ إذ أمَرتُكَ قال أنا خَيرٌ منهُ خَلَقتَني من نارٍ وخَلَقتَهُ من طين قال فاهبِط منها فما يكونُ لكَ أن تَتَكبَّر فيها ﴾ [الأعراف:١٢-١٣]، فهذا الإهْباطُ لإبليسَ وحدَه، والضَّميرُ في قولِه: ﴿ مِنها ﴾ قيل: إنَّه عائدٌ إلى الجنَّة، وقيل: عائدٌ إلى السَّماء، وحيث أتى [بصيغةِ][1] الجمعِ كان لآدمَ وزوجِه وإبليس؛ إذ مدارُ

---

(١) ساقط من « المطبوع » .

القصَّة عليهم، وحيثُ أتى بلفظِ التَّثنية؛ فإمَّا أن يكونَ لآدَم وزوجِه - إذ هما اللذان باشرا الأكلَ من الشجرَة وأقدَما على المعصيَة -، وإمَّا أن يكونَ لآدمَ وإبليسَ إذ هما أَبَوا الثَّقلين، فذَكَر حالَهما وما آلَ إليه أمرُهما ليكونَ عظَةً وعبرةً لأولادهما - والقولانِ محكيَّانِ في ذلك -، وحيث أتى بلفظ الإفراد فهو لإبليسَ وحدَه .

وأيضًا ؛ فالذي يُوضِّح أنَّ الضَّميرَ في قوله: ﴿ اهبِطا مِنها جَميعًا ﴾ لآدمَ وإبليسَ أنَّ اللَّه سبحانه لمّا ذكر المعصيةَ أفردَ بها آدمَ دون زوجِه ، فقال : ﴿ وَعَصى آدمُ رَبَّهُ فَغَوى ثمَّ اجتَباهُ ربُّه فتابَ عليه وهَدى قال اهْبِطا مِنها جَميعًا ﴾ [طه: ١٢١-١٢٣] وهذا يدلُّ على أنَّ المُخاطَبَ بالإهباطِ هو آدمُ وَمَنْ زَيَّن له المعصيةَ، ودخلت الزَّوجةُ تَبَعًا ؛ وهذا لأنَّ المقصودَ إخبارُ اللَّه تعالى لعباده المُكلَّفين مِن الجنِّ والإنسِ بما جرى على أبويهما مِن شُؤم المَعصيةِ ومُخالفةِ الأمر لئلّا يقتدوا بهما في ذلك .

فذِكْرُ أبويِ الثَّقلين أبلغُ في حُصول هذا المعنى مِن ذكرِ أبويِ الإنسِ فقط .

وقد أخبرَ اللَّهُ سبحانه عن الزَّوجةِ أنَّها أَكَلَتْ مع آدم، وأخبر أنَّه أهبَطَهُ وأخرجَه مِن الجنَّة بتلك الأَكْلَة، فعُلِم أنَّ هذا اقتضاءُ حُكمِ الزَّوجَة وأنَّها صارَتْ إلى ما صارَ إليه آدمُ، فكان تجريدُ العناية إلى ذِكر الأبوينِ اللّذينِ هما أصلُ الذُّرِّيَّة أَوْلى من تجريدِها إلى ذكر أبي الإنس وأُمِّهم ، واللَّه أعلم .

وبالجُملة ؛ فقولُه : ﴿ اهبِطُوا بعضُكم لبعضٍ عَدوٌّ ﴾ [البقرة : ٣٦] ، ظاهرٌ في الجَمْعِ ، فلا يَسُوغُ حَملُه على الاثنين في قوله: ﴿ اهبِطا ﴾ .

قالوا : وأمَّا قولكُم : إنَّه كيف وسوسَ له بعد إهباطِه منها ؟ ومُحالٌ أن

يصعدَ إليها بعد قولِه تعالى: ﴿ اهبِط ﴾ !

فجوابُه من وجوهٍ :

أحدها : أنَّه أُخرج منها ومُنع من دخولها على وجهِ السُّكنى والكرامةِ واتِّخاذِها دارًا، فَمِن أين لكُم أنَّه مُنع مِن دخولها على وجهِ الابتلاءِ والامتحانِ لآدمَ وزوجِه، ويكونُ هذا دُخولًا عارضًا كما يدخل الشُّرَطُ[1] دارَ من أُمِروا بابتلائِه ومحنتِه، وإنْ لم يكونوا أهلًا لِسُكنى تلك الدَّارِ .

الثَّاني : أنَّه كان يدنو من السَّماء فيُكَلِّمُهُما، ولا يدخُلُ عليهما دارَهما .

الثَّالث : أنَّه لعلَّه قامَ على الباب فناداهما وقاسَمَهُما ولم يَلِج الجنَّة .

الرَّابع : أنَّه قد رُويَ[2] أنَّه أرادَ الدُّخولَ عليهما، فمنعته الخَزَنَة، فدخل في فَمِ الحيَّة حتى دَخلَت به عليهما، ولا يشعر الخَزَنَةُ بذلك !

قالوا: ومما يدُلُّ على أنَّها جنَّةُ الخُلد بعَينها أنَّها جاءَت مُعرَّفَةً بلام التَّعريف في جميعِ المواضعِ ؛ كقولِه : ﴿ اسكُنْ أنتَ وزَوجُكَ الجنَّة ﴾ [البقرة:٣٥]، ولا جنَّةَ يعهدُها المُخاطَبون ويَعرِفونها إلّا جنَّةَ الخُلدِ الّتي وعَدَ الرَّحمنُ عبادَه بالغيبِ ، فقد صارَ هذا الاسمُ عَلَمًا عليها بالغَلَبَةِ ، وإنْ كان في أصل الوضع عبارةً عن البُستانِ ذي الثِّمار والفواكهِ، وهذا كالمدينةِ لِطَيْبَةَ[3]، والنَّجم للثريَّا، ونظائرِها .

فحيثُ وردَ اللفظُ مُعرَّفًا بالألف واللام انصَرَفَ إلى الجنَّة المعهودةِ المعلومةِ في قلوب المؤمنين ، وأمَّا إنْ أُريد به جنَّةٌ غيرُها فإنَّها تجيء مُنَكّرةً ،

(١) أي : الشُّرطة .

(٢) صيغةُ تَمريضٍ ، إشارةٌ إلى وهاءِ الخبَرِ المرويِّ في ذلك .

(٣) كما في « صحيح مسلم » (١٣٨٥) ، وفيه : « طابة » ، و « مُسند أَحمد » =

كقوله : ﴿ جنَّتين من أعنابٍ ﴾ [الكهف:٣٢]، أو مقيَّدةً بالإضافةِ ، كقوله : ﴿ وَلَولا إذ دخَلتَ جنَّتكَ ﴾ [الكهف:٣٩]، أو مقيَّدةً من السِّياقِ بما يدلُّ على أنَّها جنَّةٌ في الأرض ، كقوله : ﴿ إنَّا بَلَوْناهُم كما بَلَوْنا أصحابَ الجنَّة إذ أقسَموا لَيَصرِمُنَّها مُصبِحينَ ﴾ [القلم:١٧]، الآيات .

فهذا السِّياقُ والتَّقييدُ يدلُّ على أنَّها بستانٌ في الأرض .

قالوا : وأيضًا ؛ فإنَّه قد اتَّفقَ أهلُ السنَّةِ والجماعةِ على أنَّ الجنَّةَ والنَّارَ مخلوقتانِ، وقد تواترتِ الأحاديثُ عن النَّبيِّ ﷺ بذلك كما في « الصَّحيحين »[1] عن عبداللَّه بن عُمَر عن النَّبي ﷺ أنَّه قال : « إنَّ أحدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مقعدُه بالغداة والعَشيِّ؛ إنْ كان من أهلِ الجنَّة فَمِن أهل الجنَّة، وإنْ كان مِن أهل النَّار فمِن أهل النَّار، يُقال: هذا مقعدُك حتى يبعَثَكَ اللَّهُ يومَ القيامة » .

وفي « الصَّحيحين »[2] من حديث أبي سعيد الخُدْرِيِّ عن النَّبي ﷺ قال : « اختصمتِ الجنَّةُ والنَّارُ ، فقالت الجنَّةُ : ما لي لا يدخُلُني إلّا ضعفاءُ النَّاس وسَقَطُهم ؟ وقالت النَّار : ما لي لا يَدخلُني إلّا الجبَّارون والمتكبِّرون ؟ فقال للجنَّة : أنت رحمتي أرحمُ بك من أشاءُ، وقال للنَّار : أنت عذابي أُعذِّبُ بك من أشاء » .

وفي « السُّنن »[3] عن أبي هريرة أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « لمّا خلقَ اللَّهُ الجنَّةَ والنَّارَ أرسلَ جبريلَ إلى الجنَّةِ وفقال : اذهَبْ فانظُر إليها وإلى ما أعددتُ

= (٥ / ٨٩) ، وفيه : « طَيْبة » ، عن جابر بن سَمُرة .

(١) رواه البخاري (١٣٧٩) ، ومسلم (٢٨٤٦) .

(٢) رواه البخاري (٤٨٠٠) ، ومسلم (٢٨٦٦) .

(٣) رواه أبو داود (٤٧٤٤) ، والترمذي (٢٥٦٣) ، والنسائي (٧ / ٣) ، وأحمد (٢ / ٣٣٢ و ٣٧٣) ، وصحّحه ابنُ حِبّان (٧٣٩٤) ، والحاكم (١ / ٢٦) وسندُهُ حَسَنٌ .

لأهلها، قال: فذهبَ فنظر إليها وإلى ما أعدَّ اللَّهُ لأَهلها .. » الحديث .

وفي « الصَّحيحين »[١] في حديث الإسراءِ : « ثمَّ رُفِعَتْ لي سِدْرةُ المُنتهى، فإذا وَرَقُها مثل آذانِ الفِيَلَة، وإذا نَبْقُها مثل قِلالِ هَجَر، وإذا أربعةُ أنهارٍ: نهرانِ ظاهرانِ، ونهرانِ باطنانِ، فقلتُ : ما هذا يا جبريلُ ؟ قال : أمَّا النَّهرانِ الظَّاهرانِ فالنِّيلُ والفُراتُ، وأمَّا الباطنانِ فنهرانِ في الجنَّة » .

وفيه[٢] أيضًا : « ... ثمَّ أُدْخِلْتُ الجنَّة، فإذا جنابذُ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسكُ »[٣].

وفي « صحيح البُخاري »[٤] عن أنس عن النَّبي ﷺ قال : « بينما أنا أسيرُ في الجنَّة إذا أنا بنهرٍ حافَّتاه قِبابُ الدُّرِّ المُجوَّفِ، قال : قلت : ما هذا يا جبريلُ ؟ قال : هذا الكوثرُ الذي أعطاك ربُّكَ، فضرب المَلَكُ بيده فإذا طينُه مِسكٌ أذْفَر » .

وفي « صحيح مُسلم »[٥]- في حديث صلاة الكُسوفِ - أنَّ النَّبيّ ﷺ جعل يتقدَّمُ ويتأخَّرُ في الصَّلاة، ثمَّ أقبلَ على أصحابِه، فقال: « إنَّه عُرضَت عَليَّ[٦] الجنَّةُ والنَّارُ فَقُرِّبت منِّي الجنَّة حتى لو تناولتُ منها قِطْفًا لأخذتُه، فلو أخذتُه لأكلتُم منه ما بَقِيَتِ الدُّنيا » .

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٧) ، ومسلم (١٦٤) عن أنس .

(٢) أي : حديث الإسراء .

(٣) رواه البخاري (رقم : ٣٤٩) ، ومسلم (١٦٣) .

(٤) (٦٥٨١) .

(٥) (رقم : ٩٠١) عن عائشة ، ونحوه في (٩٠٧) منه عن ابن عبَّاس ، وهو في « صحيح البخاري » (٧٤٥) بنحوه عن أسماء .

(٦) في « المطبوع » : « لي » .

وفي « صحيح مُسلم »[١] عن ابن مسعودٍ في قوله تعالى : ﴿ ولا تَحسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلوا في سَبيلِ اللهِ أمواتًا بَل أحياءٌ عندَ ربِّهم يُرزَقون ﴾ [آل عمران:١٦٩]: « أرواحُهم في جوف طيرٍ خُضْرٍ، لها قناديلُ مُعلَّقةٌ بالعرش تسرحُ من الجنَّة حيث شاءَت، ثمَّ تأوي إلى تلك القناديلِ فاطَّلع عليهم ربُّكَ اطِّلاعَةً، فقال: هل تشتهون شيئًا ؟ فقالوا: أيَّ شيءٍ نشتهي ونحن نَسرَحُ من الجنَّة حيث شِئنا ! ... » الحديث .

وفي الصَّحيح[٢] من حديث ابن عبَّاس قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ : « لمّا أُصيبَ إخوانُكم بأُحُدٍ جَعَل اللَّهُ أرواحَهُم في أجواف طيرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أنهارَ الجنَّة، وتأكلُ مِن ثمارِها، وتأوي إلى قناديلَ مِن ذهب مُعلَّقةٍ في ظلِّ العرش، فلمّا وَجَدوا طِيبَ مأكلِهم ومَشربِهم وَمَقِيلِهم ، قالوا : مَن يُبَلِّغ عنَّا إخوانَنا أنَّا في الجنَّة نُرزَقُ لئلّا يَزهَدوا في الجهاد ولا يَنْكُلُوا عن الحربِ ؟! فقال اللَّه : أنا أُبلِّغُهم عنكم، فأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ ولا تَحسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلوا في سَبيلِ اللهِ ﴾ [آل عمران:١٦٩] .

---

(١) (برقم : ١٨٨٧) .

(٢) لعلَّ المصنِّف يقصد : « في الحديث الصحيح »، إذ ليس الحديثُ في واحدٍ من « الصحيحين » !

وقد رواه أحمد (١ / ٢٦٦) ، وأبو داود (٢٥٢٠) ، والحاكم في « المستدرك » (٢ / ٨٨)، والبيهقي في « سُننه » (٩ / ١٦٣)، وأبو يعلى (٤ / ٢١٩) وفي سنده مدلّسان !

ولكنْ للحديث طُرُقٌ وشواهد تُثبِتُهُ كما تراها في « السَّبيل الهاد » (٢١٩/١-٢٢١) لأخينا الفاضِل مساعد الرَّاشد، و « الصحيح المسند مِن أسباب النُّزول » (ص : ٣٠-٣١) لأخينا الكبير الشيخ مُقبل بن هادي الوادعي .

وفي « المُوطَّأ »[١] من حديث كَعبِ بن مالكٍ أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: « إنَّما نَسَمةُ المؤمنِ طائرٌ يَعْلُقُ في الجنَّة حتى يُرْجِعَهُ اللَّهُ إلى جسدِهِ يوم يبعثُه » .

وفي « البُخاري »[٢] أنَّ إبراهيمَ ابنَ رسول اللَّه ﷺ لمّا توفِّي قال رسولُ اللَّه ﷺ: « إنَّ له مُرضِعًا في الجنَّة » .

وفي « صحيح البُخاري »[٣] عن عِمران بن حُصين ، قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ: « اطَّلعتُ في الجنَّة فرأيتُ أكثرَ أهلها الفُقراءَ ، واطَّلعتُ في النَّار فرأيتُ أكثرَ أهلها النِّساءَ » .

والآثارُ في هذا الباب أكثرُ من أن تُذْكَر .

وأمَّا القولُ بأنَّ الجنَّة والنَّار لم تُخلقا بعدُ ! فهو قولُ أهلِ البدعِ من ضُلّالِ المعتزلةِ ومَن قال بقولهم، وهُم الذين يقولون : إنَّ الجنَّة التي أُهبط منها آدمُ[٤] كانت جنَّةً بشرقيّ الأرضِ !

وهذه الأحاديثُ وأمثالُها تردُّ قولَهم .

قالوا : وأمَّا احتجاجُكم بسائر الوجوهِ التي ذكرتُموها في الجنَّةِ، وأنَّها مُنتفِيةٌ في الجنَّة التي أُسكِنَها آدمُ من اللغوِ والكذبِ والنَّصَبِ والعُرْيِ وغير ذلك،

---

(١) (١٦٥ - رواية يحيى) .
ورواه أبو مُصعب الزُّهْري في « موطئه » (رقم : ٩٩٢) ، وأحمد (٣ / ٤٥٥) ، والنسائي (٤ / ١٠٨) ، وابن ماجه (٤٢٧١) بسند صحيح .

(٢) (برقم : ١٣٨٢) .

(٣) رواه البخاري (٥١٩٨) و (٦٥٤٦) و (٦٤٤٩) عن عمران ، ورواه مسلم (٢٧٣٧) عن ابن عبَّاس .

(٤) زِيدَ في « الأَصل » هنا : « أَنَّها » ! .

فهذا كلُّه حقٌّ ، لا نُنكره نحن ولا أحدٌ من أهل الإسلامِ، ولكنْ هذا إنَّما هو إذا دَخَلَها المؤمنون يومَ القيامةِ كما يدلُّ عليه سياقُ الكلامِ، وهذا لا ينفي أن يكونَ فيها بين آدمَ وإبليسَ ما حكاه اللَّهُ عزَّ وجلَّ مِن الامتحان والابتلاء، ثمَّ يصيرُ الأمرُ عند دُخولِ المؤمنين إليها إلى ما أخبر اللَّهُ عزَّ وجلَّ به، فلا تَنَافيَ بين الأمرين .

قالوا : وأمَّا قولُكُم : إنَّ الجنَّةَ دارُ جزاءٍ وثوابٍ، وليست دارَ تكليفٍ، وقد كلَّفَ اللَّه سبحانه آدمَ فيها بالنَّهي عن الشجرة !

فجوابُه من وجهين :

أحدهما : أنَّه إنَّما يمتنعُ أن تكونَ دارَ تكليفٍ إذا دَخَلَها المؤمنون يومَ القيامة ، فحينئذٍ ينقطعُ التَّكليفُ، وأمَّا امتناعُ وقوعِ التَّكليفِ فيها في دار الدُّنيا فلا دليلَ عليه .

الثَّاني : أنَّ التَّكليفَ فيها لم يكُن بالأعمالِ التي يُكلَّف بها النَّاسُ في الدُّنيا من الصِّيامِ والصَّلاةِ والجهادِ ونحوِها، وإنَّما كان حَجْرًا عليه في شجرةٍ من جُملةِ أشجارِها، وهذا لا يمتنعُ وقوعُهُ في جنَّة الخُلد ، كما أنَّ كُلَّ أحدٍ مَحْجورٌ عليه أن يَقرَبَ أهلَ غيره فيها:

فإن أَرَدتم بأنَّ الجنَّة ليست دارَ تكليف امتناعَ وقوعِ مثلِ هذا فيها في وقتٍ من الأوقاتِ ! فلا دليلَ لكُم عليه .

وإنْ أردتم أنَّ غالبَ التَّكاليفِ التي تكونُ في الدُّنيا مُنتفيَةٌ فيها ، فهو حقٌّ، ولكنْ لا يدُلُّ على مَطلوبِكُم .

قالوا: وهذا كما أنَّه مُوجَبُ الأدلَّةِ وقولُ سَلَف الأُمَّة ، فلا يُعرَف بقولِكم

قائلٌ من أئمَّة العلمِ، ولا يُعَرَّجُ عليه ، ولا يُلتفت إليه .

وقال الأوَّلون :

الجوابُ عمَّا ذكرتم من وجهين؛ مُجمَلٍ ومُفصَّلٍ :

أمَّا المُجمَل : فإنَّكم لم تأتُوا على قولِكم بدليلٍ يتعيَّنُ المَصيرُ إليه ، لا من قرآنٍ، ولا من سنَّةٍ، ولا مِن أثرٍ ثابتٍ عن أحدٍ من أصحاب رسول اللَّه ﷺ، ولا التَّابعين، لا مُسنَدًا ولا مقطوعًا، ونحن **نُوجِدُكم** مَن قال بقولنا:

هذا أحدُ أئمَّةِ الإسلام سُفيان بن عُيَينةَ ، قال في قولِه عزَّ وجلَّ : ﴿ **إنَّ لكَ أنْ لا تَجوعَ فيها ولا تَعرى** ﴾ [طه:١١٨]، قال[1]: « يعني في الأرض » .

وهذا عبدُاللَّه بن مُسلم بن قُتيبة ، قال في « معارِفه »[2] بعد أن ذَكَرَ خَلقَ اللَّهِ لآدمَ وزوجِه: « إنَّ اللَّه سبحانهُ أخرجهُ من مشرقِ جنَّةِ عَدنٍ إلى الأرض التي منها أُخِذَ » .

وهذا أُبَيٌّ قد حكى الحسنُ عنه أنَّ آدم لمّا احتُضرَ اشتهى قِطفًا من قِطفِ الجنَّة فانطلقَ بنوه ليطلبوهُ له ، فَلَقِيَتْهُم الملائكةُ، فقالوا: أين تُريدون يا بني آدم ؟ قالوا : إنَّ أبانا اشتهى قِطفًا من قِطفِ الجنَّة، فقالوا لهم: ارجِعوا فقد كُفيتموه، فانتَهَوا إليه ، فقبضوا روحَه ، وغسَّلوه ، وحنَّطوه ، وكفَّنوه ، وصلَّى عليه جبريلُ وبنوه خلفَ الملائكة ، ودفنوه ، وقالوا : هذه سُنَّتُكم في موتاكم .

وهذا أبو صالحٍ ، قد نَقَلَ عن ابن عبَّاس في قوله: ﴿ **اهبِطُوا منها** ﴾ قال : « هو كما يُقال : هَبَطَ فلانٌ في أرض كذا وكذا » .

---

(١) لم يذكر هذا الأثَرَ أحمدُ صالح محايري في جَمْعِهِ « تفسير سفيان بن عُيينة » !

(٢) (ص ١١) .

وهذا وَهبُ بن مُنبِّهٍ يَذكُرُ أنَّ آدمَ خُلِقَ في الأرض، وفيها سكَنَ ، وفيها نُصِبَ له الفردوسُ ، وأنَّه كان بِعَدن، وأَنَّ سَيْحُون وجَيْحُون [والفُرات][1] انقسمت من النهر الذي كان في وسَط الجنَّة وهو الذي كان يَسقيها .

وهذا مُنذرُ بن سعيد البلُّوطي ، اختارهُ في « تفسيرهِ » ونَصرَه بما حَكَيناهُ عنه، وحكاهُ في غيرِ التَّفسير عن أبي حنيفة [رضي اللّه عنه، ومَن قال بقولِه، والذين رَدُّوا عليهِ مقالَتَهُ لم يُنكِروا نسبتَهُ إلى أبي حنيفة، وإنَّما ناقَضوهُ بكونِه خالَفَ أبا حنيفَة][2] فيما خالَفَه فيه، فَلِمَ قال بقولِه في هذه المسألة ؟!

وهذا أبو مُسلمٍ الأصبهانيُّ صاحبُ « التَّفسير » وغيره، أحدُ الفُضَلاء المشهورين قال بهذا، وانتصَر له واحتجَّ عليه بما هو معروفٌ في كتابه .

وهذا أبو محمَّد عبدُالحقِّ بن عطيَّة ذكرَ القولينِ في « تفسيره »[3]، في قصَّة آدم في البَقَرة .

وهذا أبو محمَّد بن حَزم ذكر القولينِ في كتاب « المِلَل والنِّحل »[4] له، فقال: « وكان المُنذر بن سعيد القاضي يذهبُ إلى أنَّ الجنَّةَ والنَّارَ مخلوقتانِ، إلّا أنَّه يقول: إنَّها ليست هي التي كان فيها آدمُ وامرأتُه » .

وممَّن حكى القولين أيضًا أبو عيسى الرُّمَّاني[5] في « تفسيرهِ »، واختارَ أنَّها

(١) ساقطة من « المطبوع » .

(٢) ساقط من « المطبوع » !

(٣) « المحرَّر الوجيز » (١ / ١٨٢) .

(٤) « الفِصَل » (٤ / ١٤٢) .

(٥) لم يتبيَّن لي من هو ؟ ويشتركُ معه في النِّسبة مُفسِّرٌ معروفٌ هو أبو الحسن الرُّمَّاني، عليٌّ بن عيسى، وهو متوفًّى سنةَ (٣٨٤ هـ) كما في « طبقات المفسّرين » للسيوطي (ص ٢٤) فلعلَّهُ هو له كُنْيَتانِ !!

جنَّةُ الخُلد، ثمَّ قال[١]: « والمذهبُ الذي اخترناه قولُ الحسن وعَمْرو بن واصِلٍ وأكثرِ أصحابنا، وهو قولُ أبي عليٍّ وشيخِنا أبي بكر، وعليه أهلُ التَّفسير » .

وممَّن ذكرَ القولين أبو القاسم الرَّاغبُ في « تفسيره »[٢] فقال : « واختُلف في الجنَّة التي أُسكِنَها آدمُ ، فقال بعضُ المُتكلِّمين : كان بُستانًا جعله اللَّه له امتحانًا ولم يكُن جنَّة المأوى » .

ثمَّ قال : « وَمَن قال : لم تكُن جنَّةَ الخُلْدِ[٣]؛ لأنَّه لا تكليفَ في الجنَّة ، وآدمُ كان مُكلَّفًا » .

قال : « وقد قيل في جوابِه: إنَّها لا تكونُ دارَ التَّكليف في الآخرَة، ولا يمتنعُ أن تكون في وقتٍ دارَ تكليفٍ دون وقتٍ، كما أنَّ الإنسانَ يكونُ في وقتٍ مُكلَّفًا دونَ وقتٍ » .

وممَّن ذكر الخلافَ في المسألةِ أبو عبداللَّه بن الخطيب الرَّازيُّ في « تفسيره »[٤] فذكر هذين القولينِ ، وقولًا ثالثًا - وهو التوقُّفُ - ، قال : « لإمْكانِ الجميع وعَدمِ الوصولِ إلى القطع » ، كما سيأتي حكايةُ كلامِهِ .

ومِن المُفسِّرين مَن لم يَذكُر غيرَ هذا القولِ ، وهو أنَّها لم تكُن جنَّة الخُلد، إنَّما كانت حيثُ شاءَ اللَّهُ من الأرض، وقالوا: كانت تطلُعُ فيها الشمسُ والقمرُ، وكان إبليسُ فيها ثمَّ أُخرج، قال: « ولو كانت جنَّة الخُلد لَمَا أُخرجَ منها » .

وممَّن ذكرَ القولين أيضًا أبو الحسن الماوَرْدِيُّ فقال في « تفسيره »[٥]:

---

(١) أي : الرُّمَّانيُّ .

(٢) لم يُطْبَعْ منه إلَّا المقدّمة .

(٣) في « المطبوع » : « لم يكُن جنَّة المأوى » .

(٤) « مفاتيح الغيب » (٣ / ٣ - ٤) .

(٥) « النُّكت والعيون » (١ / ١٠٤) .

« واختُلفَ في الجنَّة التي أُسكِنَها على قولين :

أحدهما : أنَّها جنَّة الخُلد .

الثَّاني : أنَّها جنَّةٌ أعدَّها اللَّهُ لهما[١]، وجعلها دارَ ابتلاء، وليست جنَّةَ الخُلد التي جعلها اللَّهُ دارَ جزاءٍ .

وَمَن قال بهذا اختَلَفوا فيه على قولين :

أحدُهما : أنَّها في السَّماء، لأنَّه أَهْبَطَهُما منها، وهذا قولُ الحَسَن .

الثَّاني : أنَّها في الأرضِ، لأنَّه امتَحَنَهُما فيها بالنَّهيِ عن الشجرَة التي نُهيا عنها دونَ غيرها من الثِّمار، وهذا قول ابن يحيى[٢]، وكان ذلك بعد أن أُمر إبليسُ بالسُّجود لآدمَ ، واللَّهُ أعلمُ بصوابِ ذلك » ، هذا كلامه .

وقال ابنُ الخطيب في « تفسيره »[٣]: « اختلفوا في أنَّ الجنَّةَ المَذكورة في هذه الآيةِ هل كانت في الأرضِ أو في السَّماء ؟ وبتقديري أنَّها كانت في السَّماء، فهل هي الجنَّةُ التي هي دارُ الثَّواب وجنَّةُ الخُلدِ أو جنَّةٌ أخرى ؟

فقال أبو القاسم البَلْخيّ وأبو مُسلم الأصبهانيّ : « هذه الجنَّةُ في الأرض[٤] » ، وحَمَلا الإهْباطَ على الانتقالِ من بُقعة إلى بُقعةٍ كما في قوله تعالى : ﴿ اهْبِطوا مِصْرًا ﴾ .

القول الثَّاني : وهو قولُ الجُبَّائيّ : أنَّ تلك الأرضَ كانت في السَّماءِ السَّابعةِ، قال: والدَّليلُ عليه قولهُ ﴿ اهْبِطُوا ﴾ ، ثمَّ إنَّ الإهْباطَ الأوَّلَ كان من السَّماء السَّابعة إلى السَّماء الأولى، والإهباطُ الثَّاني كان من السَّماء إلى الأرض » .

---

(١) إلى هُنا فقط الموجودُ من كلامِ الماوَرْدِيِّ في المطبوع مِن « تفسيره » .
(٢) وفي « حادي الأرواح » (ص ٤٩) : « ابن بحر » .
(٣) هو الرازي في « مفاتيح الغيب » (٣ / ٣ - ٤) .
(٤) وهذا هو القولُ الأوّلُ .

قال : « والقولُ الثَّالث - وهو قول جمهور أصحابنا - : أَنَّ هذه الجنَّةَ هي دارُ الثَّوابِ، والدَّليلُ عليه : أنَّ الألفَ واللَّامَ في لفظِ ﴿ الجنَّة ﴾ لا يُفيدُ العمومَ ؛ لأنَّ سُكنى آدمَ جميعَ الجِنانِ مُحالٌ، فلا بدَّ مِن صَرفها إلى المَعهودِ السَّابقِ، والجنَّةُ المعهودةُ المعلومةُ بين المسلمين هي دارُ الثَّواب، فوَجَبَ صرفُ اللَّفظ إليها » .

قال : « والقولُ الرَّابعُ : أنَّ الكُلَّ مُمكنٌ، والأدلَّةُ النَّقليَّةُ ضعيفةٌ ومُتعارضةٌ، فوجبَ التوقُّفُ وتركُ القطع » .

قالوا : ونحن لا نُقلِّد هؤلاء، ولا نعتمدُ على ما حُكِيَ عنهم، والحُجَّةُ الصَّحيحةُ حَكَمٌ بين المتنازِعِين .

قالوا : وقد ذَكَرنا [مِن الأدلَّةِ][(١)] على هذا القولِ ما فيه كفايةٌ .

أمَّا الجوابُ المُفصَّلُ : فنحن نتكلَّم على ما ذَكَرتم من الحُجَج ليَنكشفَ وجهُ الصَّواب، فنقولُ وباللَّهِ التَّوفيقُ :

أمَّا استدلالُكُم بحديث أبي هُريرَة وحُذيفَة[(٢)] حينَ يقولُ النَّاس لآدم: « استفتِحْ لنا الجنَّة، فيقول : وهل أخرَجَكُم منها إلّا خطيئةُ أبيكم ؟ » فهذا الحديثُ لا يدُلُّ على أنَّ الجنَّةَ التي طَلَبُوا منه أن يستفتحَها لهم هي التي أُخرج منها بعينها؛ فإنَّ الجنَّة اسمُ جنسٍ لِكُلِّ بستانٍ يُسمَّى جنَّةً ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْناهُم كما بَلَوْنا أصْحابَ الجنَّةِ إذْ أقسَموا لَيَصرِمُنَّها مُصْبِحِينَ ﴾ [القلم:١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالوا لَن نُؤمِنَ لكَ حتى تَفجُرَ لنا من الأرضِ يَنبُوعًا أو تَكونَ لكَ جنَّةٌ من نَخيلٍ وعِنَبٍ ﴾ [الإسراء:٩٠-٩١]، وقال تعالى :

(١) ساقط من « المطبوع » .

(٢) رواه مسلمٌ (١٩٥) .

﴿ ومَثَلُ الّذين يُنفِقُونَ أَموالَهُمُ ابتِغاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وتَثْبيتًا مِن أنفُسِهِم كَمَثَلِ جنَّةٍ بِرَبْوةٍ ﴾ [البقرة:٢٦٥]، وقال تعالى : ﴿ واضْرِبْ لَهُم مَثَلًا رجُلَين جَعَلْنا لأَحَدِهما جنَّتينِ من أعنابٍ وحَفَفناهُما بِنَخْلٍ ﴾، إلى قولِه : ﴿ ولَولا إذ دَخَلْتَ جَنَّتكَ قُلتَ ما شاءَ الله لا قوَّة إلّا باللهِ ﴾ [الكهف:٣٢-٣٩]، فإنَّ الجنَّةَ اسمُ جنسٍ، فهُم لمّا طَلَبوا مِن آدمَ أن يَستفتحَ لهم جنَّةَ الخُلدِ أخبرَهم بأنَّه لا يَحْسُنُ منه أن يُقْدِمَ على ذلك وقد أخرجَ نفسَه وذُرِّيَّتَهُ من الجنَّةِ التي أسكَنه اللّهُ إيَّاها بذنبه وخطيئتِه، هذا الذي دلَّ عليه الحديثُ .

وأمَّا كونُ الجنَّةِ التي أُخرجَ منها هي بعَينها التي طَلَبُوا منه أن يستفتحَها لهم، فلا يدُلُّ الحديثُ عليه بشيءٍ من وجوه الدَّلالاتِ الثَّلاثِ[1]، ولو دلَّ عليه لوجبَ المصيرُ إلى مدلولِ الحديثِ وامتَنَع القولُ بمُخالفتهِ، وهل مدارُنا إلّا على فهم مُقتضى كلام الصَّادق المصدوق ﷺ !

قالوا: وأمَّا استدلالُكم بالهُبوطِ ، وأنَّه نزولٌ من عُلُوٍّ إلى سُفْل، فجوابه من وجهين :

أحدهما : أنَّ الهُبوطَ قد استُعمِلَ في النُّقْلةِ من أرضٍ إلى أرضٍ، كما يُقال: هبط فلانٌ بلدَ كذا وكذا، وقال تعالى: ﴿ اهْبِطُوا مِصرًا فإنَّ لكُم ما سألتُم ﴾

---

(١) وهي : دلالةُ المطابقة، ودلالةُ التضمُّن، ودلالة الالتزام :
فدلالةُ الشيء على كُلّ معناه يُسمَّى : مُطابقةً .
ودلالتُه على بعضهِ يُسمَّى : تضمُّنًا .
ودلالته على ما يلزمُ مِن جهةِ الخارج يسمَّى : التزامًا .
كذا في تعليق سماحة أُستاذِنا العلاّمة الشيخ عبدالعزيز بن باز حفظه اللّه على رسالة « التَّنبيهات اللطيفة » (ص: ٢١ - بتحقيقي) للعلاّمة عبدالرَّحمن بن ناصر السَّعدي رحمه اللّه .

[البقرة:٦١]، وهذا كثيرٌ في نَظْمِ العَرَب ونَثرِها ، قال :

إنْ تَهبِطينَ بلادَ قَـوْ م يَرْتَعونَ من الطِّلاحِ[١]

وقد روى أبو صالحٍ عن ابن عبَّاس رضيَ اللَّه عنهما قال: هو كما يُقال: هَبَطَ فلانٌ أرضَ كذا وكذا .

الثَّاني : أنَّا لا نُنازِعكُم في أنَّ الهُبوطَ حقيقةٌ ما ذكرتموهُ، ولكنْ مِن أين يلزمُ أن تكونَ الجنَّةُ التي منها الهبوطُ فوقَ السَّماوات ؟ فإذا كانت في أعلى الأرض أَمَا يَصِحُّ أن يُقال : هبطَ منها كما يهبطُ الحَجَرُ من أعلى الجبل إلى أسفله ونحوه !

وأمَّا قولُهُ تعالى : ﴿ ولكُم في الأَرْضِ مُستَقَرٌّ وَمَتاعٌ إلى حينٍ ﴾ [الأعراف:٢٤] فهذا يدُلُّ على أنَّ الأرضَ التي أُهْبِطوا إليها لهم فيها مُسْتَقَرٌّ ومتاعٌ إلى حينٍ، ولا يدُلُّ على أنَّهم لم يكونُوا في جنَّةٍ عاليةٍ أعلى من الأرض التي أُهبطوا إليها تُخالِفُ تلكَ الأرضَ في صفاتِها وأشجارِها ونعيمِها وطيبِها، فإنَّ اللَّهَ سبحانه فاوَتَ بين بقاعِ الأرضِ أعظَمَ تفاوتٍ وأبيَنَهُ - وهذا مشهودٌ بالحِسِّ - فمِن أين لكم أنَّ تلك لم تكُن جنَّةً تميَّزتْ عن سائرِ بقاعِ الأرضِ بما لا يكونُ إلّا فيها ، ثُمَّ أُهبِطُوا منها إلى الأرض الّتي هي محَلُّ التَّعَبِ والنَّصَبِ والابتلاءِ والامتحانِ، وهذا بعينهِ هو الجوابُ عن استدلالِكم بقوله تعالى : ﴿ إنَّ لكَ ألّا تَجوعَ فيها وَلا تَعرى ﴾ [طه:١١٨]، إلى آخِرِ ما ذكرتموهُ .

مع أنَّ هذا حُكْمٌ مُعلَّقٌ بشرطٍ، والشرطُ لم يَحصُل، فإنَّه سبحانه إنَّما قال ذلك عَقِيبَ قولِه تعالى : ﴿ ولا تَقْرَبا هذه الشجرَةَ ﴾ ، فقولُه : ﴿ إنَّ لكَ

---

(١) مُفردها : طِلْح، وهي الشجرُ العِظَام .

أَلّا تَجوعَ فيها ولا تَعرى ﴾ [طه:١١٨]، هو صيغةُ وَعدٍ مُرتبِطةٌ بما قبلَها، والمعنى: إنِ اجْتَنَبْتَ الشجرَةَ التي نهيتُكَ عنها، ولم تَقرَبْها كان لك هذا الوعدُ، **والـحُكمُ الـمُعَلَّقُ بالشرطِ عَدَمٌ عند عَدَمِ الشرطِ** ، فلمّا أكلَ من الشجرَة زالَ استحقاقُه لهذا الوعدِ .

قالوا: وأمَّا قولكم : إنَّه لو كانت الجنَّةُ في الدُّنيا لَعَلِمَ آدمُ كَذِبَ إبليسَ في قولِه : ﴿ هَل أدلُّكَ على شجَرَةِ الخُلدِ ومُلكٍ لا يَبلى ... ﴾ إلى آخرِه ...

.. فدَعوى لا دليلَ عليها، لأنَّه لا دليلَ لكُم على أنَّ اللَّه سبحانه كان قد أَعلَمَ آدمَ حين خَلَقَهُ أنَّ الدُّنيا مُنقضيةٌ فانيةٌ، وأنَّ مُلكَها يبلى ويزولُ .

وعلى تقديرِ أنْ يكونَ آدمُ حينئذٍ قد أُعْلِمَ ذلك، فقولُ إبليسَ: ﴿ هَل أدلُّك على شجَرَةِ الخُلدِ ومُلكٍ لا يَبلى ﴾ لا يدُلُّ على أنَّه أرادَ بالخُلد ما لا يتناهى، **فإنَّ الـخُلدَ في لُغة العربِ هو اللُّبْثُ الطَّويلُ**، كقولهم: قيدٌ مُخلَّدٌ، و : حبسٌ مخلَّدٌ، وقد قال تعالى لثمودَ : ﴿ أتبْنونَ بكلِّ رِيعٍ آيَةً تَعبَثونَ وتَتَّخذونَ مصانعَ لعلَّكم تَخْلُدُون ﴾ [الشعراء:١٢٩] .

وكذلك قولُه : ﴿ ومُلْكٍ لا يبلى ﴾ [طه:١٢٠]، يُرادُ به الملكُ الطَّويلُ الثَّابتُ .

وأيضًا ؛ فلا وجهَ للاعتذارِ عن قول إبليسَ مَعَ تحقُّقِ كذبِه، ومُقاسمَتِهِ آدمَ وحوَّاءَ على الكذبِ، واللَّهُ سبحانهُ قد أخبرَ أنَّهُ قاسَمَهُما ودَلّاهما بغُرورٍ، وهذا يدُلُّ على أنَّهما اغترَّا بقوله، فغرَّهما بأنْ أَطْمَعَهُما في خُلدِ الأبدِ والمُلكِ الذي لا يبلى .

وبالـجُملةِ ؛ فالاستدلالُ بهذا على كونِ الجنَّة التي أُسكِنَها آدمُ هي جنَّةُ

الخُلدِ التي وُعِدَها المتَّقون غيرُ بيِّنٍ .

ثمَّ نقولُ : لو كانت الجنَّةُ هي جنَّةَ الخُلدِ التي لا يزولُ مُلكُها لكانت جميعُ أشجارِها شجَرَ الخُلدِ ! فلم يكن لتلك الشجرَةِ اختصاصٌ من بين سائرِ الشجَرِ بكونها شجرةَ الخُلد، وكان آدمُ يَسخَرُ من إبليس إذ قد عَلِمَ أنَّ الجنَّةَ دارُ الخُلد !

فإنْ قُلتم : لعلَّ آدمَ لمْ يعلم حينئذٍ ذلك ، فغرَّهُ الخبيثُ وخَدَعَهُ بأنَّ هذه الشجرَة وحدَها هي شجرَةُ الخُلد !

قُلنا : فاقْنَعوا منَّا بهذا الجوابِ بعينِه عن قولِكم : لو كانت الجنَّةُ في الدُّنيا لَعَلِمَ آدمُ كذبَ إبليس في ذلك ؛ لأنَّ قولَه كان خداعًا وغُرورًا مَحْضًا على كُلِّ تقدير ، فانقلَبَ دليلُكم حُجَّةً عليكم، وباللّهِ التَّوفيق .

قالوا: وأمَّا قولُكم: إنَّ قصَّةَ آدمَ في البقرَة ظاهرَةٌ جدًّا في أنَّ جنَّة آدمَ كانت فوقَ السَّماءِ، فنحنُ نُطالبُكم بهذا الظُّهورِ، ولا سبيلَ لكُم إلى إثباتِه .

[وأمَّا][1] قولُكُم : إنَّه كرَّر فيه ذِكْرَ الهُبوطِ مرَّتين، ولا بدَّ أن يُفيدَ الثَّاني غيرَ ما أفادَ الأوَّلُ ، فيكونُ الهبوطُ الأوَّلُ مِن الجنَّةِ ، والثَّاني من السَّماءِ !

فهذا فيه خلافٌ بين أهل التَّفسير:

فقالت طائفةٌ هذا القولَ الذي ذكرتُموه .

وقالت طائفةٌ - منهم النَّقَّاشُ وغيرُهُ - : إنَّ الهبوطَ الثَّاني إنَّما هو من الجنَّةِ إلى السَّماءِ، والهبوطُ الأوَّلُ إلى الأرضِ، وهو آخِرُ الهبوطَين في الوقوعِ، وإنْ كان أوَّلَهُما في الذِّكر .

---

(١) ساقطٌ مِن « المطبوع » .

وقالت طائفةٌ : أتى به على جهةِ التَّغليظِ والتَّأكيدِ ، كما تقول للرَّجل : اخرجْ ... اخرُجْ !

وهذه الأقوالُ ضعيفةٌ، فأمَّا القولُ الأوَّلُ فيظهرُ ضعفُه من وجوهٍ :

أحدها : أنَّه مُجرَّدُ دعوى لا دليلَ عليها من اللفظِ ولا من خبرٍ يجبُ المصيرُ إليه، وما كان هذا سبيلُهُ لا يُحمَلُ القرآنُ عليه .

الثَّاني : أنَّ اللَّهَ سبحانه قد أَهبَطَ إبليسَ لَمّا امتنعَ من السُّجودِ لآدمَ إهباطًا كونيًّا قَدَرِيًّا ، لا سبيلَ إلى التَّخلُّفِ عنه، فقال تعالى : ﴿ اهْبِط منها فَمَا يكونُ لكَ أن تتَكبَّرَ فيها فاخْرُج إنَّكَ مِنَ الصَّاغرين ﴾ [الأعراف:١٣] وقال في موضعٍ آخرَ : ﴿ فاخرُجْ منها فإنَّكَ رَجِيمٌ وإنَّ عليكَ اللَّعنَةَ إلى يومِ الدِّين ﴾ [الحِجْر:٣٤-٣٥]، وفي موضعٍ آخرَ : ﴿ اخرُجْ منها مَذْءومًا مَدحُورًا لَمَن تَبِعَكَ منهم لأملأنَّ جهنَّمَ منكُم أجمَعين ﴾ [الأعراف:١٨] .

وسواءٌ كان الضَّميرُ في قولِه : ﴿ منها ﴾ راجعًا إلى السَّماء، أو إلى الجنَّة، فهذا صريحٌ في إهْباطِه وطَردِهِ ولَعنِهِ وإدْحارِهِ - والمدحورُ: المُبعَدُ- ، وعلى هذا فلو كانت الجنَّةُ فوقَ السَّماواتِ لكان قَد صَعِدَ إليها بعد إهباطِ اللَّه له !

وهذا ؛ وإنْ كان مُمْكِنًا فهو في غاية البُعدِ عن حكمةِ اللَّهِ، ولا يقتضيه خَبَرُهُ، فلا يَنبغي أن يُصارَ إليه .

وأمَّا الوجوهُ الأربعَةُ التي ذكرتُموها مِن صُعودِهِ للوَسوَسَةِ - فهي مع أمر اللَّهِ تعالى بالهُبوطِ مُطْلَقًا وطردِهِ ولعنهِ ودُحورِهِ - لا دليلَ عليها لا منَ اللفظِ ولا منَ الخَبَرِ الذي يجبُ المصيرُ إليهِ، وما هي إلّا احتمالاتٌ مُجَرَّدةٌ، وتقديراتٌ لا دليلَ عليها .

الثَّالثُ : أنَّ سياقَ قصَّةِ إهْباطِ اللَّهِ تعالى لإبليسَ ظاهرةٌ في أنَّهُ إهْباطٌ إلى الأرضِ من وجوهٍ :

أحدُها : أَنَّه سبحانه نبَّه على حِكمةِ إهباطِه بما قام به من التَّكبُّر المُقتضي غايَةَ ذُلِّه وطردِهِ **ومُعاملتهِ بنقيضِ قَصدِهِ**، وهو إهباطُهُ مِن فوق السَّماوات إلى قرارِ الأرض ،ولا تَقتضي الحكمةُ أن يكون فوقَ السَّماء مع كِبْرِهِ ومُنافاةِ حالهِ لحالِ الملائكةِ الأكرمين .

الثَّاني : أنَّه قال : ﴿ فاخْرُجْ منها فإنَّكَ رجيمٌ وإنَّ عليكَ لَعنَتي إلى يَومِ الدِّين ﴾ [الحِجْر:٣٤-٣٥]، وكونُهُ رجيمًا ملعونًا ينفي أن يكونَ في السَّماء بين المُقرَّبين المُطهَّرين .

الثَّالث : أنَّه قال : ﴿ اخْرُجْ منها مَذْءومًا مَدْحُورًا ﴾ [الأعراف:١٨] ومَلَكُوتُ السَّماواتِ لا يعلوهُ المذؤوم المدحورُ أبدًا .

وأمَّا القولُ الثَّاني؛ فهو القولُ الأوَّلُ بعينه مع زيادَةِ ما لا يَدُلُّ عليه السِّياقُ بحالٍ من تقديمِ ما هو مُؤخَّرٌ في الواقعِ وتأخيرِ ما هو مُقدَّمٌ فيه ، فَيُرَدُّ بما رُدَّ به القولُ الذي قبلَه .

وأمَّا القولُ الثَّالث ، وهو أنَّه للتَّأكيد ؛ فإنْ أُريدَ التَّأكيدُ اللفظيُّ المُجرَّدُ فهذا لا يَقَعُ في القرآن، وإنْ أُريدَ به أَنَّه مُستلزمٌ للتَّغليظِ والتَّأكيدِ مع ما يشتملُ عليه من الفائدةِ فصحيحٌ .

فالصَّوابُ أن يُقال : أُعيدَ الإهْباطُ مرَّةً ثانيةً لأنَّه علَّق عليه حُكمًا غيرَ المُعلَّقِ على الإهْباطِ الأوَّلِ؛ فإنَّه علَّقَ على الأوَّلِ عداوَةَ بعضِهم بعضًا ، فقال : ﴿ اهْبِطُوا بعضُكم لِبَعضٍ عَدوٌّ ﴾ [الأعراف:٢٤]، وهذه جملةٌ حاليَّةٌ، وهي

اسميَّةٌ بالضَّميرِ وحدَهُ عند الأكثرين، والمعنى: اهبِطوا مُتعادِين، وعلَّقَ على الهُبوطِ الثَّاني حُكمَينِ آخرَين :

أحدهما : هبوطُهما جميعًا .

والثَّاني : قولُه : ﴿ **فإمَّا يأتينَّكُم منِّي هُدًى فَمَن تَبعَ هُداي فلا خَوفٌ عَلَيهِم ولا هُم يَحزَنون** ﴾ [البقرة:٣٨]، فكأنَّه قيل: اهبِطوا بهذا الشرطِ مأخوذًا عليكم هذا العَهدُ، وهو أنَّه مهما جاءكم منِّي هُدًى فمن اتَّبَعَهُ منكم فلا خَوفٌ عليه ولا حُزنٌ يلحقُهُ .

ففي الإهباطِ الأوَّلِ إيذانٌ بالعقوبَة ومقابَلَتِهم على الجريمة .

وفي الإهباطِ الثَّاني رُوحُ التَّسليَةِ والاستبشارِ بِحُسنِ عاقبةِ هذا الهُبوطِ لمَن تَبعَ هُداي، ومصيرُهُ إلى الأمنِ والسُّرورِ المُضادِّ للخَوفِ والحُزْنِ، فَكَسَرَ هَمَّهُ بالإهباطِ الأوَّلِ، وَجَبَرَ مَن اتَّبعَ هُداه بالإهباطِ الثَّاني على عادتِه سبحانه ولُطفِه بعباده وأهلِ طاعته كما كَسَرَ آدمَ بالإخراجِ من الجنَّة وَجَبَرَهُ بالكلماتِ التي تلقَّاها منه فتابَ عليه وهَدَاه .

ومَن تدبَّر حِكْمَتَهُ سُبحانه ولُطفَه وبرَّه بعبادهِ [وأحبابِه][1] وأهلِ طاعتِهِ في كَسرِهِ لهم ثمَّ جَبرِهِ بعدَ الانكسارِ كما يَكْسِرُ العبدَ بالذَّنب ويُذِلُّه به ثمَّ يَجبُرُهُ بتوبتِه عليه ومغفرتِه لهُ، وكما يَكْسِرُهُ بأنواع المصائبِ والمِحَن ثمَّ يَجبُرُهُ بالعافيةِ والنِّعمةِ : انْفَتَحَ له بابٌ عظيمٌ من أبوابِ معرفتِه ومحبَّتِه، وعَلِمَ أنَّه أرحمُ بعبادِه من الوالدَةِ بولدها[2]، وأنَّ ذلك الكسرَ هو نفسُ رحمتِه به وبرِّه ولُطفِهِ ، وهو أعلمُ بمصلحةِ عَبدِه منه ، ولكنَّ العبدَ - لضَعفِ بصيرتِه ومعرفتِه

---

(١) ساقط من « المطبوع » .

(٢) وقد صحَّ في ذلك حديثٌ ؛ رواه البخاري (٥٩٩٩) ، ومسلم (٢٧٥٤) .

بأسماءِ ربِّه وصفاتِه - لا يكادُ يَشعُر بذلك، ولا ينالُ رضا المحبوبِ وقُربَه والابتهاجَ والفَرَحَ بالدُّنوِّ منه والزُّلفى لديه إلّا على جِسرٍ من الذلَّةِ والمسكنةِ، وعلى هذا قام أمرُ المحبَّةِ، فلا سبيلَ إلى الوصولِ إلى المَحبُوبِ إلّا بذلك ، كما قيل :

تذلَّلْ لِمَن تَهْوى لِتَحْظى بِقُرْبِهِ فَكَم عِزَّةٍ قَد نالَها العَبدُ بالذُّلِّ
إذا كانَ مَن تَهوى عَزيزًا ولَم تَكُن ذليلًا لهُ فاقْرَا السَّلامَ على الوَصلِ

وقال آخرُ :

اخْضَعْ وذِلَّ لِمَن تُحِبُّ فليسَ في شَرْعِ الهَوى أَنفٌ يُشَالُ ويُعْقَدُ

وقال آخرُ :

وما فَرِحَتْ بالوَصلِ نفسٌ عَزيزَةٌ وما العِزُّ إلّا ذُلُّها وانْكِسارُها

قالوا : وإذا عُلم أنَّ إبليسَ أُهْبِطَ من دارِ العزِّ عَقِبَ امتناعِه وإبائِهِ من السُّجود لآدم ، ثبتَ أنَّ وسوَستَه له ولزوجِهِ كانت في غير المحلِّ الذي أُهبط منه، واللَّهُ أعلمُ .

قالوا : وأمَّا قولُكم : إنَّ الجنَّة إنَّما جاءَت مُعرَّفةً باللّام، وهي تنصرفُ إلى الجنَّة التي لا يَعْهَدُ بنو آدمَ سواها، فلا ريبَ أنَّها جاءَتْ كذلك، ولكنَّ العَهدَ وقعَ في خطابِ اللَّه تعالى آدم لسُكناها بقوله : ﴿ اسْكُنْ أنتَ وزوجُكَ الجنَّة ﴾ [البقرة: ٣٥]، فهي كانت معهودَةً عندَ آدم، ثمَّ أَخبَرَنا سبحانه عنها مُعرِّفًا لها بلام التَّعريف، فانصرَفَ العُرْفُ بها إلى تلك الجنَّةِ المعهودَةِ في الذِّهن، وهي التي سَكَنها آدمُ ثمَّ أُخْرِجَ منها، فمِن أينَ في هذا ما يَدُلُّ على مَحَلِّها وموضعِها بنفيٍ أو إثباتٍ ؟!

وأمَّا مجيءُ جنَّةِ الخُلدِ معرَّفةً باللّام ؛ فلأنَّها الجنَّةُ التي أَخبرت بها الرُّسلُ لأُمَمِهم ، وَوَعَدَها الرَّحمنُ عبادَه بالغَيبِ، فحيث ذُكِرت انصَرَفَ الذِّهنُ إليها دونُ غيرِها لأنَّها قد صارَتْ معلومةً في القلوبِ مُستقِرَّة فيها، ولا ينصرفُ الذِّهنُ إلى غيرها، ولا يتوجَّهُ الخِطابُ إلى سواها .

وقد جاءَت الجنَّةُ في القرآن مُعرَّفةً باللّامِ، والمرادُ بستانٌ في بُقعة من الأرض ؛ كقولِهِ تعالى : ﴿ إنَّا بَلَوناهم كما بَلَونا أصحابَ الجنَّةِ إذ أَقسَموا لَيَصرِمُنَّها مُصْبِحِين ﴾ [القلم:١٧]، فهذا لا ينصرفُ الذِّهنُ فيها لا إلى جنَّةِ الخُلد ولا إلى جنَّة آدمَ بحالٍ .

قالوا : وأمَّا قولُكُم : إنَّه قد اتَّفق أهلُ السُّنَّة والجماعةِ على أنَّ الجنَّةَ والنَّارَ مخلوقتان، وأنَّه لم يُنازِعْ في ذلك إلّا بعضُ أهل البدع والضَّلال، واستدلالُكم على وجودِ الجنَّةِ الآن: فحقٌّ لا نُنازِعُكم فيه، وعندنا من الأدلَّةِ على وُجودِها أضعافُ ما ذكرتُم، ولكنْ أيُّ تلازمٍ بين أنْ تكونَ جنَّةُ الخُلدِ مخلوقَةً وبين أن تكونَ هي جنَّةَ آدمَ بعينها، فكأنَّكم تزعُمون أنَّ كلَّ مَن قال: إنَّ جنَّةَ آدمَ هي جنَّةٌ في الأرض، فلا بدَّ له أنْ يقولَ: إنَّ الجنَّةَ والنَّارَ لم يُخلقا بعدُ ! وهذا غَلَطٌ منكم، منشؤُهُ مِن توهُّمِكم أنَّ كلَّ مَن قال بأنَّ الجنَّة لم تُخلق بعد؛ فإنَّه يقولُ: إنَّ جنَّةَ آدمَ هي في الأرض، وكذلك بالعكس؛ أنَّ كُلَّ مَن قال: إنَّ جنَّة آدم في الأرض، فيقولُ: إنَّ الجنَّةَ لم تُخلق:

فأمَّا الأوَّلُ : فلا ريبَ فيه، وأمَّا الثَّاني : فَوَهَمٌ لا تلازُمَ بينَهما؛ لا في المذهبِ ولا في الدَّليل بحالٍ، فأنتم نَصَبتُم دليلَكم مع طائفةٍ نحنُ وأنتم مُتَّفقون على إنكارِ قولِهم وردِّه وإبطالِه ، ولكنْ لا يلزمُ من هذا بُطلانُ هذا القولِ الثَّالثِ،

وهذا واضحٌ .

قالوا: وأمَّا قولُكم: إنَّ جميعَ ما نفاهُ اللَّهُ سبحانهُ عن الجنَّة من اللَّغوِ والعذابِ وسائرِ الآفاتِ التي وُجد بعضُها من إبليسَ عَدُوِّ اللَّه، فهذا إنَّما يكونُ بعد القيامةِ إذا دَخلها المُؤمنون، كما يدُلُّ عليه السِّياق !

فجوابُهُ من وجهين:

أحدُهما : أنَّ ظاهرَ الخَبرِ يَقْتضي نَفيَهُ مُطْلَقًا، لقولِه تعالى : ﴿ **لا لَغْوٌ فيها ولا تأثيمٌ** ﴾ [الطُّور:٢٣]، ولقولِه تعالى : ﴿ **لا تَسمَعُ فيها لاغيةً** ﴾ [الغاشية:١١]، فهذا نفيٌ عامٌّ لا يجوزُ تخصيصُه إلّا بمُخصِّص بيِّنٍ، واللَّهُ سبحانه قد حَكَمَ بأنَّها دارُ الخُلدِ حُكمًا مُطلقًا، فلا يدخُلُها إلّا خالدٌ فيها، فتخصيصُكم هذه التَّسميَةَ بما بعد القيامةِ خلافُ الظَّاهرِ .

الثَّاني : أنَّ ما ذكرتُم إنَّما يُصارُ إليه إذا قامَ الدَّليلُ السَّالمُ عن المُعارض المُقاوِم أنَّها جنَّةُ الخُلد بعَينها، وحينئذٍ يتعيَّنُ المصيرُ إلى ما ذكرتم .

فأمَّا إذا لم يقُم دليلٌ سالمٌ على ذلك ، ولم تُجْمِع الأُمَّةُ عليه فلا يَسُوغُ مُخالفةُ ما دلَّتْ عليه النُّصوصُ البيِّنَةُ بغير مُوجِبٍ، واللَّهُ أعلمُ .

قالوا : وممَّا يدُلُّ على أنَّها ليست جنَّةَ الخُلدِ التي وُعِدَها المتَّقون أنَّ اللَّهَ سبحانه لمّا خَلَقَ آدمَ أعلمه أنَّ لِعُمُرِهِ أجلًا ينتهي إليه، وأنَّه لم يَخْلُقْهُ للبقاءِ، ويدُلُّ على هذا ما رواه التِّرمذيُّ في « جامعِه »[1] قال: حدَّثنا محمَّد بن بَشَّار،

---

(١) (برقم : ٣٣٦٨) .

ورواه ابن خزيمة في « التوحيد » (ص ٦٧) ، والحاكم (١ / ٦٤) ، وابن أبي عاصم في « السُّنَّة » (٢٠٦) ، وابن حبان (٦١٦٧) ، وسندهُ حسنٌ .

وله طريقٌ أُخرى عند الطبري في « تاريخه » (١ / ٩٦) والحاكم (٢ / ٥٨٥) .

قال: حدَّثنا صَفوانُ بن عيسى : حدَّثنا الحارثُ بن عبدالرَّحمن بن أبي ذُبَاب، عن سعيد بن أبي سعيدٍ المَقْبُري ، عن أبي هُرَيرَة رضي اللَّه عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ : « لمّا خَلقَ اللَّهُ آدمَ ونَفَخَ فيه الرُّوحَ عَطَسَ، فقال: الحمدُ للَّهِ يا ربُّ، فقال له ربُّه: يرحمُكَ اللَّهُ يا آدمُ، اذهب إلى أُولئكَ الملائكَةِ إلى مَلإٍ منهم جُلوس ، فقل: السَّلامُ عليكُم، فقالوا : وعليكَ السَّلامُ، ثمَّ رَجَعَ إلى ربِّه فقال : إنَّ هذه تحيَّتُكَ وتحيَّةُ بَنِيكَ بينهم، فقال اللَّهُ له - ويداه مقبوضتان -: اختر أيَّتَهما شئتَ ! فقال: اخترتُ يمين ربِّي - وكلتا يديْ ربّي يمينٌ مباركةٌ - ثمَّ بَسَطَها فإذا فيها آدمُ وذُرِّيَّتُهُ، قال: أيْ ربِّ ما هؤلاء ؟ قال: هؤلاء ذرِّيتُك، فإذا كلُّ إنسانٍ مكتوبٌ عُمُرُهُ بين عينيهِ، فإذا رجلٌ أضوَؤُهم - أو: مِن أضوئهم - قال: يا ربِّ مَنْ هذا ؟ قال: هذا ابنك داودُ، وقد كتبتُ له عُمر أربعين سنةً، قال: يا ربِّ زِدْ في عُمرهِ، قال: ذاك الذي كتبتُ له، قال: أيْ ربِّ، فإنِّي قد جعلتُ له من عُمُري ستِّين سنةً، قال: أنت وذاك، قال: ثمَّ أُسكِنَ الجنَّةَ ما شاءَ اللَّه، ثمَّ أُهْبِطَ منها، وكان آدمُ يَعُدُّ لنفسِه، فأتاهُ مَلَكُ الموتَ، فقال له آدمُ: قد عجَّلتَ أليس قد كُتِبتْ لي ألفُ سنةٍ ! قال: بلى، ولكنَّك جَعَلتَ لابنِك داودَ ستِّين سنةً، فجَحَد فجحدَت ذرِّيَّته، ونسيَ فنسيت ذُرِّيَّته، قال: فمِن يومئذٍ أُمر بالكتابِ والشهودِ » .

هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ مِن هذا الوجهِ، ورُويَ من غير وجهٍ عن أبي هُرَيرَة عن النَّبيِّ ﷺ .

قالوا : فهذا صريحٌ في أنَّ آدمَ لم يكُن مخلوقًا في دار الخُلد التي لا يموتُ مَن دَخَلَها، وإنَّما خُلقَ في دار الفناءِ التي جعلَ اللَّهُ لها ولأهلِها أجلًا معلومًا

وفيها أُسكِن .

فإنْ قيلَ: فإذا كان آدمُ قد عَلِمَ أنَّ له عُمُرًا ينتهي إليه ، وأنَّه ليس من الخالدين، فكيف لم يُكَذِّبْ إبليسَ وَيعْلَمْ بطلانَ قولِه حيثُ قال له : ﴿ هَل أدلُّكَ على شَجَرَةِ الخُلدِ ومُلكٍ لا يبلى ﴾ [طه:١١٨]، بل جوَّز ذلك وأكلَ من الشجرَةِ طَمَعًا في الخُلد !؟

فالجوابُ ما تقدَّم مِن الوجهَين، إمَّا أن يكونَ المُرادُ بالخُلد المُكثَ الطَّويلَ، لا أبدَ الأبدِ، أو يكونَ عدوُّهُ إبليسُ لمّا قاسَمَه وزَوجَهُ وغرَّهما وأطمَعَهُما بدوامِهما في الجنَّة نسيَ ما قُدِّرَ له من عمره .

قالوا: والمُعوَّلُ عليه في ذلك قولُه تعالى للملائكة :﴿ إنِّي جاعِلٌ في الأَرضِ خَليفَةً ﴾ [البقرة:٣٠]، وهذا الخليفةُ هو آدمُ باتِّفاقِ النَّاس ،ولمّا عَجِبَت الملائكةُ من ذلك وقالوا : ﴿ أَتَجعلُ فيها مَن يُفسِدُ فيها ويَسفِكُ الدِّماءَ ونحنُ نُسبِّحُ بحمدِكَ ونُقدِّسُ لك ﴾ [البقرة:٣٠]، عرَّفهم سبحانه أنَّ هذا الخليفةَ الذي هو جاعِلُهُ في الأرضِ ليسَ حالُه كما توهَّمتُم من الفسادِ، بل أُعَلِّمهُ من عِلْمي ما لا تعلمونهُ، فأَظْهَرَ من فضلِهِ وشرَفِهِ بأنْ علَّمهُ الأَسماءَ كلَّها، ثمَّ عَرَضَهُم على الملائكة فلم يعرفوها ، و ﴿ قالوا سُبحانَكَ لا عِلمَ لنا إلّا ما عَلَّمتنا إنَّكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢]، وهذا يدُلُّ على أَنَّ هذا الخليفةَ الذي سبقَ به إخبارُ الربِّ تعالى لملائكتِه، وأظهَرَ تعالى فضلَه وشرَفَه وأعلَمه بما لم تعلَمه الملائكةُ، هو خليفةٌ مَجعولٌ في الأرضِ ، لا فوقَ السَّماء .

فإنْ قيل : قولُه تعالى : ﴿ إنِّي جاعلٌ في الأرضِ خليفةً ﴾ إنَّما هو بمعنى : سأجعلُه في الأرضِ، فهي مآلُهُ ومصيرُهُ، وهذا لا يُنافي أنْ يكونَ في جنَّة الخُلد

فوق السَّماء أوَّلًا، ثمَّ يصيرَ إلى الأرضِ للخلافةِ الّتي جَعَلَها اللَّهُ له، واسمُ الفاعلِ هنا بمعنى الاستقبالِ، ولهذا انتصَبَ عنه المفعولُ !

فالجوابُ: أنَّ اللَّه سبحانه أعلمَ ملائكتَه بأنَّهُ يخلقُهُ لخلافةِ الأرضِ، لا لسُكنى جنَّةِ الخُلودِ، وخَبَرُهُ الصِّدقُ، وقولُه الحقُّ، وقد عَلِمَتِ الملائكةُ أنَّهُ هو آدمُ، فلو كان قد أسكنهُ دارَ الخُلودِ فوقَ السَّماءِ لم يَظهَر للملائكةِ وقوعُ المُخْبَر، ولم يحتاجوا إلى أن يُبيِّنَ لهم فَضلَه وشَرَفَهُ وعِلْمَهُ المُتضمِّنَ ردَّ قولِهم : ﴿ أَتَجعَلُ فيها مَن يُفسِدُ فيها ويَسفِكُ الدِّماء ﴾ [البقرة: ٣٠]، فإنَّهُم إنَّما سألوا هذا السُّؤالَ في حقِّ الخليفةِ المَجعولِ في الأرضِ؛ فأمَّا مَن هو في دارِ الخُلدِ فوقَ السَّماء فلم تَتوهَّم الملائكةُ منه سَفكَ الدِّماء والفسادَ في الأرض ، ولا كان إظهارُ فضلِهِ وشرفِه وعلمِهِ وهو فوقَ السَّماء بِرادٍّ لقولِهم وجوابًا لسؤالِهم، بل الذي يَحصُلُ به جوابُهُم وضدُّ ما توهَّموه إظهارُ تلكَ الفضائلِ والعلومِ منه ، وهو في مَحَلِّ خلافتِه التي خُلِقَ لها، وتوهَّمت الملائكةُ أنَّهُ لا يحصُلُ منه هناكَ إلّا ضدُّها مِن الفسادِ وسَفْكِ الدِّماء، وهذا واضحٌ لمن تأمَّلَهُ .

وأمَّا اسمُ الفاعلِ وهو ﴿ جاعِلٌ ﴾ وإنْ كان بمعنى الاستقبال فلأنَّ هذا إخبارٌ عمَّا سيفعلُه الربُّ تعالى في المُستقبل مِن جَعلِه الخليفةَ في الأرضِ، وقد صدَقَ وعدَه، ووقَع ما أخبرَ به، وهذا ظاهرٌ في أنَّه مِن أوَّل الأمرِ جَعَلَه خليفةً في الأرض .

وأمَّا جَعْلُهُ في السَّماء أوَّلًا ثمَّ جعلُهُ خليفةً في الأرض ثانيًا - وإنْ كان مِمَّا لا يُنافي الاستخلافَ المذكور - فهو مِمَّا لا يقتضيهِ اللفظُ بوجهٍ، بل يقتضي ظاهِرُهُ خلافَهُ، **فلا يُصارُ إليه إلّا بدليلٍ يُوجِبُ المصيرَ إليه، وحولَه نُدندن .**

قالوا : وأيضًا ؛ فمِن المعلومِ الذي لا يُخالفُ فيه مسلمٌ أنَّ اللَّه سبحانهُ خلقَ آدمَ من تُرابٍ، وهو ترابُ هذه الأرضِ بلا ريبٍ ، كما روى الترمذيُّ في « جامعه »[1] من حديث عَوفٍ، عن قَسامَةَ بن زُهير، عن أبي موسى الأشعريِّ رضي اللَّه عنه قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: « إنَّ اللَّهَ تَبارَكَ وَتعالى خَلَقَ آدَمَ مِن قَبضَةٍ قَبضَها مِن جَميعِ الأرضِ؛ فَجاءَ بَنو آدَمَ على قَدْرِ الأرضِ، فَجاءَ مِنهُمُ الأحمرُ والأبيَضُ والأسوَدُ، وَبَينَ ذلكَ، وَالسَّهلُ والحَزْنُ، وَالخبيثُ وَالطَّيبُ » .

قال التّرمذيُّ : هذا حديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ .

وَقَد رواهُ الإمامُ أحمدُ في « مُسندِهِ » من طُرُقٍ عِدَّةٍ .

وَقَد أخبرَ سُبحانَهُ أنّه خَلَقَهُ من تُرابٍ، وأخبرَ أنَّهُ خَلقهُ من سُلالَةٍ مِن طينٍ، وأخبرَ أنّه خَلَقَهُ من صَلصالٍ من حَمَأٍ مَسنونٍ .

وَالصَّلصالُ ؛ قيلَ فيهِ : هوَ الطِّينُ اليابسُ الَّذي لهُ صَلصَلَةٌ ما لَم يُطبَخ، فإذا طُبِخَ فَهوَ فَخَّار، وقيل فيهِ : هوَ المُتَغيِّرُ الرَّائحة، من قَولِهم: صَلَّ؛ إذا أنتَنَ .

وَالحَمأُ: الطِّينُ الأسوَدُ المُتغيِّر .

والمسنونُ، قيل : المَصبوبُ، مِن: سَنَنْتُ الماءَ، إذا صَبَبتُه، وَقيل: المُنتِنُ المُسَنُّ، من قَولِهم: سننتُ الحَجَرَ على الحَجَرِ إذا حَكَكتهُ، فإذا سالَ بَينَهما شَيءٌ فَهوَ سَنينٌ، وَلا يَكونُ إلا مُنتِنًا .

---

(١) (برقم : ٢٩٥٥) .
ورواه أحمدُ (٤ / ٤٠٠ و ٤٠٦) ، وأبو داود (٤٦٩٣) ، والحاكم (٢ / ٢٦١) ، والبيهقي في « الأسماء والصِّفات » (ص ٣٨٥) ، وابن حبان (٦١٦٠) ، بسندٍ صحيحٍ .

وَهذهِ كُلُّها أطوارٌ للتُّرابِ الَّذي هوَ مَبدؤُهُ الأوَّلُ ، كما أخبرَ عن خَلقِ الذُّرِّيَّةِ من نُطفَةٍ، ثُمَّ من عَلقَةٍ، ثُمَّ من مضغَةٍ .

وهذهِ أحوالُ النُّطفَةِ الَّتي هيَ مَبدأُ الذُّرِّيَّةِ، وَلَم يُخْبِرْ سُبحانَهُ أنَّهُ رَفَعَهُ منَ الأرضِ إلى فَوقِ السَّمواتِ، لا قَبلَ التَّخليقِ ولا بَعدَهُ، وإنَّما أخبرَ عَن إسجادِ المَلائكَةِ لهُ، وَعَن إدخالِه الجَنَّةَ، وَما جَرى لهُ مَعَ إبليسَ بَعدَ خَلقِه، فأخبرَ سُبحانَهُ بالأُمورِ الثَّلاثةِ في نَسَقٍ واحِدٍ، مُرتَبِطًا بَعضُها بِبَعضٍ .

قالوا: فَأينَ الدَّليلُ الدَّالُّ على إصْعادِ مادَّتِه، وَإصْعادِهِ بَعدَ خَلقِهِ إلى فَوقِ السَّمواتِ ؟ هذا ممّا لا دَليلَ لَكُم عَلَيهِ أصلًا، وَلا هوَ لازِمٌ من لَوازِمِ ما أخبَرَ اللَّهُ بِهِ .

قالوا: وَمنَ المَعلومِ أنَّ ما فَوقَ السَّمواتِ لَيسَ بِمَكانٍ للطِّينِ الأرضيِّ المُتَغيِّرِ الرَّائحَةِ الَّذي قَد أنتَنَ من تَغيُّرِهِ، وَإنَّما مَحلُّهُ هذه الأرضُ الَّتي هيَ مَحَلُّ المُتَغَيِّراتِ وَالفاسِداتِ، وأمّا ما كان فوقَ الأفلاكِ فلا يلحقُهُ تغيُّرٌ ولا نَتَنٌ ولا فسادٌ ولا استحالةٌ .

قالوا: وهذا أمرٌ لا يرتابُ فيه العُقَلاءُ .

قالوا: وقد قال تعالى : ﴿ وأمَّا الّذينَ سُعِدُوا ففي الجَنَّةِ خالدين فيها ما دامَتِ السَّمواتُ والأرضُ إلّا ما شاءَ ربُّكَ عطاءً غَيرَ مَجْذوذٍ ﴾ [هود:١٠٨]، فأخبر سبحانه أنَّ هذا العطاءَ في جنَّة الخُلد غيرُ مقطوعٍ، وما أُعْطِيَهُ آدمُ فقد انقَطعَ، فلم تَكن تلكَ جنَّةَ الخُلد .

قالوا : وأيضًا ؛ فلا نِزاعَ في أنَّ اللَّهَ تعالى خَلَقَ آدمَ في الأرضِ كما تَقدَّم، ولم يذكُر في قصَّتِه أنَّه نقلَه إلى السَّماء، ولو كان تعالى قد نَقَلَهُ إلى السَّماءِ

لكانَ هذا أَوْلى بالذِّكرِ، لأنَّهُ مِن أعظَمِ أنواعِ النِّعَم عليهِ، وأكبرِ أسبابِ تَفْضيلهِ وتَشريفهِ، وأبلَغُ في بيانِ آياتِ قُدرتهِ وربوبيَّتِهِ وحكمتِهِ ، وأبلغُ في بيان المقصودِ من عاقبةِ المعصيَةِ، وهو الإهْباطُ من السَّماء الّتي نُقِلَ إليها، كما ذَكَرَ ذلك في حقِّ إبليس، فحيثُ لم يَجِيءْ في القُرآن ولا في السُّنَّة حرفٌ واحدٌ أنَّه نَقَلَهُ إلى السَّماء وَرَفَعَهُ إليها بعدَ خَلْقهِ في الأرضِ عُلِمَ أنَّ الجنَّةَ التي أُدخِلَها لم تكُن هي جنَّةَ الخُلد التي فوق السَّماوات !

قالوا: وأيضًا ؛ فإنَّه سبحانه قد أَخبرَ في كتابه أنَّه لم يخلُق عبادَهُ عَبَثًا ولا سُدًى، وأنكرَ على مَن زعمَ ذلك، فدلَّ على أَنَّ هذا مُنافٍ لحكمتِهِ، ولو كانت جنَّةُ آدم هي جنَّةَ الخُلدِ لكانوا قد خُلقوا في دارٍ لا يُؤمَرونَ فيها ولا يُنهَون ! وهذا باطلٌ بقولِه : ﴿ أيَحسَبُ الإنسانُ أن يُترَكَ سُدًى ﴾ [القيامة:٣٦]، قال الشافعيُّ وغيرهُ: مُعَطَّلًا لا يُؤمَرُ ولا يُنهى، وقال: ﴿ أفحَسِبتُم أنَّما خَلَقناكُم عَبَثًا ﴾ [المؤمنون:١١٨]، فهو تعالى لم يخلُقْهُم عبثاً ولا تَرَكَهُم سُدًى ، وجنَّةُ الخُلد لا تكليفَ فيها .

قالوا : وأيضًا؛ فإنَّهُ خَلَقها جزاءً للعاملين ، بقولِه تعالى : ﴿ نِعْمَ أجرُ العامِلين ﴾ [آل عمران : ١٣٦] ، وجزاءً للمتَّقين ، بقولِه : ﴿ وَلَنِعْمَ دارُ المُتَّقين ﴾ [النحل : ٣٠] ، ودارَ الثَّوابِ ، بقوله : ﴿ ثوابًا مِن عندِ الله ﴾ [آل عمران : ١٨٥] ، فلم يكُن ليُسكِنَها إلّا مَن خَلقها لهم مِن العاملين، ومن المتَّقين، ومَن تَبِعهم من ذُرِّياتهم ، وغيرِهم من الحورِ والوِلدان .

وبالجُملَةِ ؛ فحِكمتُهُ تعالى اقتَضَتْ أنَّها لا تُنالُ إلّا بعدَ الابتلاءِ والامتحانِ والصَّبرِ والجهادِ وأنواعِ الطَّاعاتِ، وإذا كانَ هذا مُقتَضى حِكمتهِ فإنَّهُ سبحانهُ لا

يفعلُ إلّا ما هو مُطابِقٌ لها .

قالوا: فإذا جَمعَ ما أخبرَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ به مِن أنَّهُ خَلَقَهُ منَ الأرضِ، وجَعَلَهُ خليفةً في الأرضِ، وأنَّ إبليسَ وسوَسَ له في مكانِهِ الذي أسكنهُ فيه بعد أنْ أهبَطَ إبليسَ من السَّماء، وأنَّهُ أخبرَ ملائكتَه أنَّهُ جاعلٌ في الأرضِ خليفةً، وأنَّ دارَ الخُلدِ (١) لا لَغوٌ فيها ولا تأثيمٌ، وأنَّ مَن دَخلَها لا يَخرُجُ منها أبدًا، وأنَّ مَن دَخلَها يُنَعَّمُ ، ولا يَبؤُسُ، وأنَّهُ لا يخافُ ولا يحزَنُ، وأنَّ اللَّهَ سبحانهُ حرَّمها على الكافرينَ ، وعدوُّ اللَّهِ إبليسُ أكفرُ الكافرين، فَمُحالٌ أن يَدخُلَها أصلًا لا دُخولَ عُبورٍ، ولا دُخولَ قرارٍ، وأنَّها دارُ نَعيمٍ لا دارُ ابتلاءٍ وامتحانٍ ... إلى غيرِ ذلك ممَّا ذكَرناهُ - من مُنافاةِ أوصافِ جنَّة الخُلدِ للجنَّة التي أُسكِنَها آدمُ - **إذا جُمعَ ذلك بعضهُ إلى بعضٍ، ونُظِرَ فيه بعَينِ الإنصافِ والتَّجرُّد عن نُصرةِ المقالاتِ تبين الصَّوابُ من ذلك، واللَّه المُستعانُ .**

قال الآخَرونَ : بل الجنَّةُ التي أُسكِنَها آدمُ عندَ سَلفِ الأُمَّة وأئمَّتها وأهلِ السُّنَّة والجماعة هي جنَّةُ الخُلدِ، ومَن قال: إنَّها كانت جنَّةً في الأرضِ بأرضِ الهندِ، أو بأرضِ جُدَّةَ، أو غيرَ ذلك، فهو من المُتَفلسِفَةِ والمُلحدينَ والمُعتزِلَةِ، أو من إخوانِهم المُتكلِّمين المُبتَدعين، فإنَّ هذا يقولُه مَن يقولهُ مِن المُتَفلسفَةِ والمُعتزِلةِ، والكتابُ يَرُدُّ هذا القَول، وسلفُ الأُمَّةِ وأئمَّتُها مُتَّفقونَ على بُطلان هذا القول :

قال تعالى :﴿ وإذْ قُلنا للملائِكَةِ اسجُدوا لآدَمَ فَسَجَدوا إلّا إبليسَ أبى واستَكبرَ وكانَ من الكافرين وقُلنا يا آدمُ اسكُن أنتَ وزَوجُكَ الجنَّةَ وكُلَا منها

---

(١) في « المطبوع » : « الجنة » !

رَغَدًا حيثُ شئتُما ولا تَقرَبا هذهِ الشجَرَةَ فتكونا مِنَ الظَّالمين فأزلَّهُما الشيطانُ عنها فأخرجَهُما ممَّا كانا فيه وقُلنا اهبِطوا بعضُكُم لبَعضٍ عدوٌّ ولكُم في الأرضِ مُستقرٌّ ومتاعٌ إلى حين ﴾ [البقرة ٣٤ - ٣٦]؛ فقَد أخبَرَ سبحانهُ أنَّهُ أمَرهُم بالهُبوطِ وأنَّ بَعضَهُم لبَعضٍ عَدوٌّ .

ثمّ قال : ﴿ ولكُم في الأرضِ مُستَقرٌّ ومَتاعٌ إلى حين ﴾ [البقرة : ٣٦]، وهذا يُبيِّن أنَّهم لم يكونوا في الأرضِ، وإنَّما أُهْبِطُوا إلى الأرضِ، فإنَّهُم لو كانوا في الأرضِ وانتَقلوا منها إلى أرضٍ أُخرى كما انتَقَلَ قومُ موسى مِن أرضٍ إلى أرضٍ، كانَ مستقرُّهم ومتاعُهم إلى حينٍ في الأرضِ قبلَ الهُبوط كما هو بعدَهُ !

وهذا باطلٌ .

قالوا : وقَد قال تعالى في سورَة الأعراف [١٣] لمّا قال إبليسُ : ﴿ أنا خَيرٌ منهُ خَلَقْتَني من نارٍ وخَلَقتَهُ مِن طين ﴾ : ﴿ قال فاهبِطْ مِنها فما يكونُ لكَ أن تَتكبَّرَ فيها فاخرُجْ إنَّكَ مِن الصَّاغرين ﴾ ، فقولُهُ : ﴿ اهبِطْ مِنها فما يكونُ لكَ أن تتكبَّر فيها ﴾ يُبيِّن اختصاصَ الجنَّةِ التي في السَّماء بهذا الحُكم، بخلافِ جنَّةِ الأرضِ، فإنَّ إبليسَ كانَ غَيرَ ممنوعٍ من التكبُّر فيها .

والضَّميرُ في قوله : ﴿ منها ﴾ عائدٌ إلى معلومٍ وإنْ كانَ غيرَ مذكورٍ في اللفظِ، لأنَّ العلمَ به أغنى عن ذِكْرِهِ .

قالوا : وهذا بخلافِ قوله : ﴿ اهْبِطُوا مِصرًا فإنَّ لكُم ما سألتُم ﴾ [البقرة: ٦١]؛ فإنَّهُ لم يذكر هُنا ما أُهبِطُوا منه، وإنَّما ذكرَ ما أُهبطُوا إليه، بخلافِ إهباطِ إبليسَ، فإنَّهُ ذكرَ مبدأَ هبوطِه وهو الجنَّةُ، والهُبوطُ يكونُ مِن عُلوٍّ إلى

أسفَلَ ، وبنو إسرائيلَ كانوا بجبال الشَّراةِ[1] المُشرِفَةِ على المِصْرِ الذي يَهبِطونَ إليه، ومَن هبطَ من جبلٍ إلى وادٍ قيلَ لهُ : أُهبِطَ .

قالوا: وأيضًا فبنو إسرائيلَ كانوا يسيرون ويرحَلون، والذي يسيرُ ويرحلُ إذا جاءَ بلدَةً يُقال: نَزلَ فيها؛ لأنَّ مِنْ عادَتِهِ أن يركَبَ في مسيرِه، فإذا وَصلَ نَزلَ عن دوابِّهِ، ويقال: نَزَلَ العَدوُّ بأرضِ كذا ، ونَزَلَ القَفَلُ [2] ونحوُه .

ولفظُ النُّزول كلفظِ الهُبوط فلا يُستعملُ « نزلَ » و « هبطَ » إلّا إذا كان من عُلوٍّ إلى أسفل .

وقال تعالى عقِبَ قولِه : ﴿ اهبِطُوا بَعضُكُم لِبَعضٍ عَدُوٌّ ولكُم في الأرضِ مُستَقرٌّ ومَتاعٌ إلى حينٍ قال فيها تَحيَونَ وفيها تَموتُون ومنها تُخرَجونَ ﴾ [الأعراف : ٢٤ - ٢٥]، فهذا دليلٌ على أنَّهم لم يكونوا قبلَ ذلكَ في مكانٍ فيه يَحيَون وفيه يموتون ومنه يُخرَجون، والقرآنُ صريحٌ في أنَّهم إنَّما صاروا إليه بعدَ الإهباط .

قالوا: ولو لم يكُن في هذا إلّا قصَّةُ آدمَ وموسى[3] لكانت كافيَةً؛ فإنَّ موسى عليه السَّلامُ إنَّما لامَ آدمَ عليه السَّلامُ لِمَا حصلَ له ولذريَّته بالخروجِ[4] من الجنَّة من النَّكَدِ والمشقَّةِ، فلو كانت بُستانًا في الأرضِ لكان غيرُهُ من

---

(١) انظر « معجم البلدان » (٣ / ٢٠٤) ، و « ما اتفق لفظه وافترق مسمّاه » (ق ٢٢٠) للحازمي ، و « الأمكنة والمياه » (ق ١٧٨) للإسكندريّ .

(٢) قال في « القاموس » (ص ١٣٥٥): « قَفَلَ قُفولًا، رجعَ، فهو قافلٌ، والجمعُ قُفَّالٌ، والقَفَلُ: اسمُ الجمع » .

(٣) كما في حديث احتجاجهما المروي في « صحيح البخاري » (٣٤٠٩) ، و « صحيح مسلم » (٢٦٥٢) .

(٤) في « المطبوعة » : « من الخروج » .

بساتين الأرضِ يُعوِّضُ عنهُ، وموسى أعظمُ قَدرًا من أن يلومَهُ على أن أخرجَ نفسه وذُرِّيَّتَهُ من بُستانٍ في الأرضِ .

قالوا : وكذلكَ قولُ آدمَ يومَ القيامةِ لَمَّا يرغبُ إليه النَّاسُ أن يستفتحَ لهم بابَ الجنَّةِ، فيقول: « وهل أخرجَكُم منها إلّا خطيئةُ أبيكُم »[١] فإنَّ ظهورَ هذا في كونِها جنَّةَ الخُلدِ ، وأنَّهُ اعتذَرَ لهم بأنَّهُ لا يَحسُنُ منه أن يستفتحَها وقد أُخرجَ منها بخطيئتهِ : من أظهَرِ الأدلَّةِ .

قال الأوَّلون : أمَّا قولكُم : إنَّ مَن قالَ : إنَّها جنَّةٌ في الأرضِ ، فهوَ من المُتَفلسِفَةِ والمُلحدينَ والمُعتزِلَةِ، أو من إخوانِهِم، فقد أوجَدناكُم مَن قال بهذا، وليسَ من أحدٍ من هؤلاء .

ومُشاركةُ أهلِ الباطلِ للحقِّ[٢] في المسألةِ لا يدلُّ على بطلانِها، ولا تكونُ إضافتُها لهم مُوجبةً لبُطلانِها ما لم يختَصَّ بها .

فإنْ أردَتُم أنَّه لم يقُل بذلك إلّا هؤلاء، فليسَ كذلك، وإنَّ أردتُم أنَّ هؤلاء من جُملةِ القائلين بهذا ، لم يُفدكُم شيئًا !

قالوا : وأمَّا قولكُم : وسَلَفُ الأُمَّةِ وأئمَّتُها مُتَّفقونَ على بُطلانِ هذا القولِ، فنحنُ نُطالبكُم بنقلٍ صحيحٍ عن واحدٍ من الصَّحابة ومَن بَعدهم من أئمَّةِ السَّلف فضلًا عن اتِّفاقهم .

قالوا : ولا يوجَد عن صاحبٍ ولا تابعٍ ولا تابعِ تابعٍ خَبرٌ يصحُّ موصولًا ولا شاذًّا ولا مَشهورًا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: إنَّ اللَّه تعالى قد أسكنَ آدمَ جنَّة الخُلد التي هي دارُ المُتَّقين يومَ المعاد !!

---

(١) كما في حديث الشفاعة، المُخرَّج في « صحيح مسلم » (١٩٥) عن أبي هريرة .
(٢) أي : لأهل الحقِّ .

قالوا : وهذا القاضي مُنذرُ بن سعيدٍ قَد حَكى عن غيرِ واحدٍ من السَّلف أنَّها ليست جنَّةَ الخُلد، فقال: « ونحنُ نُوجِدُكم أنَّ أبا حنيفةَ فقيهَ العراق ومَن قال بقوله قَد قالوا: إنَّ جنَّةَ آدمَ التي خلَقها اللَّهُ ليست جنَّةَ الخُلدِ » ، وليسوا عند أحدٍ من العلماء[1] من الشاذِّين ، بل مِن رؤساء المُخالفين، وهذه الدَّواوينُ مشحونةٌ من عُلومهم، وقد ذَكرنا قولَ ابن عُيَينة .

وقد ذكرَ ابنُ مُزَيْنٍ[2] في « تفسيره »، قال: سألتُ ابنَ نافعٍ عن الجنَّةِ أمَخلوقةٌ ؟ فقال : السُّكوتُ عن هذا أفضلُ !

قالوا : فلو كان عند ابن نافعٍ أنَّ الجنَّةَ التي أُسكِنها آدمُ هي جنَّةُ الخُلد ، لم يَشُكَّ أنَّها مخلوقةٌ ، ولم يتوقَّف في ذلك .

وقال ابن قُتيبة في كتابه « غَريب القُرآن »[3] في قولِه تعالى :﴿ وقُلنا اهبِطوا منها ﴾ [البقرة : ٣٨]: قال ابنُ عبَّاس رضي اللَّه عنهما في روايةِ أبي صالحٍ : هو كما يُقال : « هبَطَ فلانٌ أرضَ كذا وكذا » ، ولم يَذكُر في كتابهِ غيرَهُ، فأينَ إجماعُ سلفِ الأُمَّة وأئمَّتها !؟

قالوا : وأمَّا احتجاجُكُم بقولِه تعالى : ﴿ وَلَكُم فِي الأرضِ مُستَقرٌّ ﴾ [البقرة : ٣٦]، عَقِيبَ قولِه : ﴿ اهْبِطُوا ﴾ فهذا لا يدُلُّ على أنَّهم كانوا في

---

(١) في « المطبوع » : « العالمين » .

(٢) لعلّه يحيى بن إبراهيم بن مُزَين » ، المتوفَّى سنة (٢٥٩ هـ)، ترجمته في « فهرست ابن خير » (٣٠٣) و « تاريخ ابن الفَرَضي » (٢ / ٤٦) .

له كتاب « تفسير الموطأ » مخطوطٌ .

وفي المخطوطة البغدادية : « وقد ذكر ابنُ جرير .. » .

ولم يذكر « تفسيرَ ابن مُزين » فضيلةُ الشيخ بكر أَبو زيد في « موارد ابن القيِّم » !

وسيأتي (ص ٤٣٨) من هذا الجزءِ ذِكْرُ (ابن مُزين الطُّلَيطلي) فلعلّه هو !

(٣) « تفسير غريب القرآن » (ص ٤٦) له !

جنَّةِ الخُلد ، فإنَّ أحدَ الأقوالِ في المسألةِ أنَّها كانت جنَّةً في السّماء غيرَ جنَّة الخُلد ، كما حكاهُ الماوَرديُّ في « تفسيره »، وقد تقدَّم .

وأيضًا ؛ فإنَّ قولَه : ﴿ ولَكُم فِي الأرضِ مُستقرٌّ ﴾ [البقرة ٣٦]، يدُلُّ على أنَّ لهم مُستقرًّا إلى حينٍ في الأرضِ المُنقطِعَةِ عن[1] الجنَّةِ ولا بدَّ، فإنَّ الجنَّةَ أيضًا لها أرضٌ؛ قال اللَّهُ تعالى عن أهلِ الجنَّةِ : ﴿ وَقالوا الحَمدُ للهِ الذي صَدَقَنا وعَدْهُ وأورَثَنا الأرضَ نَتبَوَّأُ منَ الجنَّةِ حيثُ نشاءُ فَنِعمَ أجرُ العامِلين ﴾ [الزمر : ٧٤]، فدلَّ على أنَّ قولَه : ﴿ ولَكُم في الأرضِ مُسْتَقَرٌّ ﴾ [البقرَة : ٣٦] المرادُ به الأرضُ الخاليةُ من تلك الجنَّةِ، لا كُلُّ ما يُسمَّى أرضًا، وكانَ مُستَقرُّهُم الأوَّلُ في أرضِ الجنَّةِ، ثمَّ صاروا في أرضِ الابتلاءِ والامتحانِ، ثمَّ يصيرُ مُستقرُّ المؤمنين يومَ الجزاءِ أرضَ الجنَّةِ أيضًا، فلا تَدُلُّ الآيةُ على أنَّ جنَّةَ آدمَ هي جنَّةُ الخُلد .

قالوا : وهذا هو الجوابُ بعينِهِ عن استدلالِكُم بقولِه تعالى : ﴿ قالَ فيها تَحْيَوْنَ وفيها تَموتونَ ومنها تُخرَجُون ﴾ [الأعراف : ٢٥]، فإنَّ المُرادَ به الأرضُ التي أُهبِطوا إليها وجُعلَت مسكنًا لهم بَدلَ الجنَّة، وهذا تفسيرُ المُستقرِّ المَذكورِ في (البقرَة) مع تضمُّنهِ ذِكرَ الإخراجِ منها .

قالوا : وأمَّا قولُهُ تعالى لإبليسَ : ﴿ اهبِطْ مِنها فما يَكونُ لكَ أن تَتكبَّرَ فيها ﴾ [الأعراف : ١٣]، وقولُكُم: إنَّ هذا إنَّما هو في الجنَّةِ التي في السَّماء، وإلّا فجنَّةُ الأرضِ لم يُمنَع إبليسُ منَ التكبُّر فيها ! فهو دليلٌ لنا في المسألة؛ فإنَّ جنَّةَ الخُلدِ لا سبيلَ لإبليسَ إلى دُخولها والتكبُّرِ فيها أصلًا، وقد

---

(١) في « الأصل » : « من » .

أَخْبَرَ تعالى أنَّه وسوَسَ لآدمَ وزوجِهِ، وكذَبهما، وغرَّهما، وخانهُما، وتكبَّرَ عليهما، وحسَدهما، وهما حينئذٍ في الجنَّة، فدلَّ على أنَّها لم تكُن جنَّةَ الخُلد، ومُحالٌ أن يَصعَدَ إليها بَعدَ إهباطِهِ وإخراجِهِ منها .

قالوا: والضَّميرُ في قولِه : ﴿ اهْبِطُوا منها ﴾ إمَّا أن يكونَ عائدًا إلى السَّماء، كما هو أحدُ القولين، وعلى هذا فيكونُ سبحانهُ قد أهبَطَه من السَّماء عقِبَ امتناعهِ من السُّجود، وأخبرَ أنَّهُ ليسَ له أن يتكبَّرَ [فيها][1]، ثمَّ تكبَّرَ وَكَذبَ وخانَ في الجنَّة، فدلَّ على أنَّها ليسَت في السَّماء .

أو يكونَ عائدًا إلى الجنَّة على القولِ الآخَر ، ولا يلزمُ من هذا القولِ أن تكونَ الجنَّةُ التي كادَ فيها آدمَ وغرَّهُ وقاسَمهُ كاذبًا هي تلكَ التي أُهْبِطَ منها، بل القُرآنُ يدُلُّ على أنَّها غيرُها كما ذكرناه .

فعلى التَّقديرين لا تَدُلُّ الآيَةُ على أنَّ الجنَّةَ التي جرى لآدمَ مع إبليسَ ما جرى فيها هي جنَّةُ الخُلد .

قالوا: وأمَّا قولكُم: إنَّ بني إسرائيلَ كانوا بجبالِ الشَّراةِ المُشْرِفَةِ على الأرضِ التي يَهْبِطونَ [إليها][2] وهم كانوا يَسيرونَ ويَرحلونَ، فلذلك قيلَ لهم: ﴿ اهبِطُوا ﴾ ! فهذا حقٌّ لا نُنازِعُكُم فيه، وهو بعَينهِ جوابٌ لنا، فإنَّ الهُبوطَ يدُلُّ على أنَّ تلكَ الجنَّةَ كانت أعلى من الأرضِ التي أُهبِطوا إليها، وأمَّا كونُها جنَّةَ الخُلدِ، فلا .

قالوا: والفرقُ بين قوله: ﴿ اهبِطوا مصرًا ﴾ وقولِهِ: ﴿ اهبِطوا منها ﴾

---

(١) ساقط من « المطبوع » .

(٢) ساقط من « المطبوع » .

بِأنَّ[١] الأوَّلَ لنهايةِ الهُبوط وغايتِهِ، و ﴿ اهبِطوا منها ﴾ مُتضمِّنٌ لمبدئِهِ وأوَّلِهِ، ولا تأثيرَ له فيما نحنُ فيه فإنَّ « هَبطَ من كذا إلى كذا » يتضمَّنُ معنى الانتقالِ من مكانٍ عالٍ إلى مكانٍ سافلٍ، فأيُّ تأثيرٍ لابتداءِ الغايَةِ ونهايتِها في تَعيين محلِّ الهُبوطِ بأنَّهُ جنَّةُ الخُلد !؟

قالوا: وأمَّا قصَّةُ موسى ولومِهِ لآدمَ على إخراجِهِ من الجنَّة؛ فلا يدُلُّ على أنَّها جنَّةُ الخُلد .

وقولُكم: لا يُظَنُّ بموسى أنَّه يلومُ آدمَ على إخراجِهِ نفسَهُ وذريَّتَهُ من بستانٍ في الأرضِ ! تَشنيعٌ لا يُفيد شيئًا، أفتَرى كان ذلك بُستانًا مثلَ آحادِ هذه البساتين المقطوعَةِ الممنوعَةِ التي هي عُرضَةُ الآفاتِ والتَّعبِ والنَّصَبِ والظَّمأِ والحَرثِ والسَّقي والتَّلقيحِ وسائرِ وجوهِ النَّصَبِ الذي يلحقُ هذه البساتين ؟

ولا ريبَ أنَّ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلام أعلمُ وأجلُّ من أن يلومَ آدمَ على خُروجِهِ وإخراجِ بنيهِ من بُستانٍ هذا شأنُهُ، ولكنْ مَن قالَ بهذا ؟ وإنَّما كانت جنَّةً لا تلحقُها آفةٌ ولا تَنقطعُ ثمارُها، ولا تغورُ أنهارُها، ولا يجوعُ ساكنُها، ولا يظمأُ، ولا يَضحى للشمس، ولا يَعرى، ولا يمسُّه فيها التَّعبُ والنَّصبُ والشقاءُ، ومِثلُ هذه الجنَّةِ يَحسُنُ لومُ الإنسانِ على التَّسبُّبِ في خُروجِهِ منها .

قالوا : وأمَّا اعتِذارُ آدمَ عليه السَّلام يومَ القيامَةِ لأهلِ الموقفِ بأنَّ خطيئتَه هي التي أخرَجتْهُ من الجنَّة ! فلا يَحْسُنُ أن يستفتحَها لهم ! فهذا لا يستَلزِمُ أن تكونَ هي بعَينها التي أُخرِجَ منها، بل إذا كانت غيرَها كان أبلَغَ في

---

(١) في « المطبوع » : « فإن » .

الاعتذارِ، فإنَّهُ إذا كان الخُروجُ من غيرِ جنَّةِ الخُلدِ حَصَلَ بسَبَب الخطيئة، فكيف يليقُ استفتاحُ جنَّةِ الخُلد والشفاعَةُ فيها وقد[١] خرجَ من غيرها بِخطيئةٍ !؟

فهذا موقفُ نَظرِ الفريقين، ونهايةُ إِقدامِ الطَّائفتَين، فمَن كان عنده فضلُ علمٍ في هذه المسألة فَلْيَجُدْ به، فهذا وقتُ الحاجَةِ إليه، ومَن عَلِمَ مُنتهى خُطوتهِ، ومِقدارَ بضاعتهِ فَلْيكِلِ الأمرَ إلى عالمهِ، ولا يَرضى لنفسِهِ بالتَّنقيصِ والإزراءِ عليه ، ولْيكُن من أهلِ التُّلولِ الذين هم نظَّارَةُ الحربِ إذا لم يكُن من أهلِ الكرِّ والفَرِّ والطَّعنِ والضَّربِ، فقد تلاقتِ الفُحولُ ، وتطاعنَتِ الأقرانُ ، وضاقَ بهم المجالُ في حلبةِ هذا المَيدانِ :

إذا تلاقى الفُحولُ في لَجَبٍ فَكيفَ حالُ البَعوض[٢]في الوَسَطِ .

هذه مَعاقِدُ حُجَجِ الطَّائفتَين مُحتازةٌ ببابكَ، وإليكَ تُساقُ، وهذه بضائعُ تُجّار العلماءِ يُنادى عليها في سوقِ الكسادِ، لا في سوقِ النَّفاق، فمَن لم يكن لديهِ[٣] به شيءٌ من أسبابِ البيانِ والتَّبصِرَةِ فلا يَعدمْ مَنْ قَد استفرغَ وُسعَهُ، وبَذَلَ جُهدَهُ، مِن التَّصويبِ والمَعذِرَةِ، ولا يَرضى لنفسه بشرِّ الخُطَّتين وأبخَسِ الحَظَّين؛ جَهْلِ الحقِّ وأسبابِهِ، ومُعاداةِ أهلهِ وطُلّابهِ .

وإذا عَظُمَ المَطلوبُ وأعْوَزَكَ الرَّفيقُ النَّاصحُ[٤] العليمُ فارْحَلْ[٥] بهمَّتِكَ

---

(١) في « المطبوع » : « ثم » !

(٢) في « المطبوع » : « الغصيص » !

(٣) في « المطبوع » : « له به » !

(٤) في « المطبوع » : « الصالح » !

(٥) في « الأصل » : « فترحَل » .

من بين الأمواتِ، وعليكَ بمُعلِّم إبراهيم[١] ؛ فَقد ذَكَرْنا في هذه المسألةِ من النُّقولِ والأدلَّةِ والنُّكتِ البديعَة ما **لعلَّهُ** لا يُوجَدُ في شيءٍ من كتبِ المُصنِّفين، ولا يَعرفُ قَدْرَهُ إلّا مَن كان منَ الفُضلاء المُنْصِفين .

ومنَ اللّهِ سبحانه الاستمدادُ، وعليه التوكُّلُ وإليه الاستنادُ، فإنَّهُ لا يخيبُ مَن توكَّل عليه ، ولا يَضيعُ مَن لاذَ به ، وفوَّضَ أمرَهُ إليه ، وهو حَسبُنا ونِعمَ الوَكيلُ .

□ □ □ □ □

---

(١) ولقد قرأتُ عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنَّه - رحمه اللّه - لمّا كان يُغلَقُ عليه فهمُ مسألةٍ كان يُمرِّغُ أنفه في التراب ، ويقول : « يا معلّم إبراهيم علِّمْني » .

١ - فَصلٌ :
[عهدُ اللهِ سبحانه لِآدَمَ وبنيهِ]

ولمَّا أَهْبَطَهُ سبحانهُ منَ الجنَّةِ ، وعرَّضَهُ وذُرِّيَّتَهُ لأنواعِ المِحَنِ والبلاءِ، أعطاهُم أفضلَ ممَّا مَنعهَم، وهو عَهْدُهُ الذي عَهِدَ إليه وإلى بنيهِ، وأخبرَ أنَّهُ من تمسَّكَ به منهم صارَ إلى رضوانه ودارِ كرامته .

قال تعالى عَقِبَ إخراجِهِ منها : ﴿ قُلنا اهْبِطُوا مِنها جَميعًا فإمَّا يَأتينَّكُم منِّي هُدًى فَمِن تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوفٌ عَليهم ولا هُم يَحزَنون ﴾ [البقرة : ٣٨]، وفي الآيةِ الأُخرى قال : ﴿ اهْبِطا منها جَميعًا فإمَّا يَأتِيَنَّكم منِّي هُدًى فَمِن اتَّبعَ هُدايَ فلا يَضِلُّ ولا يَشقى ومَن أعرَضَ عَن ذِكري فإنَّ لهُ معيشَةً ضَنْكًا ونَحشُرُهُ يومَ القيامَةِ أعمى قالَ ربِّ لمَ حَشَرْتَني أعمى وقد كُنتُ بَصيرًا قال كذلكَ أتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وكذلكَ اليومَ تُنسى ﴾ [طه : ١٢٣ - ١٢٦] .

فلمَّا كَسرَهُ سبحانهُ بإهباطِهِ من الجنَّةِ جَبرَهُ وذُرِّيَّتَهُ بهذا العَهدِ الذي عَهدَ إليهم[١]، فقال تعالى : ﴿ فإمَّا يأتِيَنَّكُم منِّي هُدًى ﴾ وهذه هي « إنْ » الشرطيَّة المؤكَّدَة بِـ « ما » الدَّالَّةِ على استغراق الزَّمان[٢]، والمعنى: أيَّ وقتٍ وأيَّ حينٍ أتاكُم منِّي هُدى .

---

(١) في « الأصل » : « عَهِدَه » .

(٢) انظر « خِزانة الأَدب » (٨ / ٤٤١) للبغدادي .

وجَعل جوابَ هذا الشرطِ جُملَةً شرطيَّةً ، وهي قولُه : ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فلا يَضلُّ ولا يَشقى ﴾ [طه : ١٢٣]، كما تقولُ : إنْ زُرتَني؛ فَمن بَشَّرني بقدومكَ فهو حُرٌّ، وجوابُ الشرطِ يكونُ جملَةً تامَّةً؛ إمَّا خبرًا مَحْضًا كقولكَ : إنْ زُرتني أكرمتُكَ، أو خَبَرًا مقرونًا بالشرطِ كهذا، أو مؤكَّدًا بالقسم، أو بـ « إنْ » واللام، كقوله تعالى : ﴿ وإنْ أطَعْتُموهُم إنَّكُم لَمُشركون ﴾ [الأنعام : ١٢١]، وإمَّا طَلبًا؛ كقول النَّبي ﷺ : « إذا سألتَ فاسألِ اللّهِ وإذا استَعَنتَ فاستَعِنْ باللَّهِ »[١] وقوله : « ... وإذا لَقِيتُموهم فاصبِروا »[٢]، وقوله تعالى : ﴿ وإذا حلَلْتُم فاصطادُوا ﴾ [المائدة : ٢]، ﴿ فإذا انسَلَخَ الأشهرُ الحُرمُ فاقتُلوا المُشركين حيثُ وجَدتُموهُم ﴾ [التَّوبة : ٥] .

وأكثرُ ما يأتي هذا النَّوعُ مع « إذا » التي تُقيِّدُ[٣] تحقيقَ وقوعِ الشرطِ [لِسرٍّ؛ وهو إفادتُه تحقيقَ الطَّلب عند تحقُّق الشرطِ، أي :][٤] فمتى تحقَّق الشرطُ فالطَّلبُ مُتحقِّقٌ، فأتى بـ « إذا » الدَّالَّةِ على تحقُّقِ[٥] الشرطِ، فَعُلِمَ تحقُّقُ[٥] الطَّلب عندها، وقد يأتي مع « إنْ » قليلًا، كقولِه تعالى : ﴿ وإنْ كَذَّبوكَ فقُل لي عَمَلي ولكُم عَمَلُكم ﴾ [يونس : ٤١] .

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (١ / ٢٩٣ و ٣٠٣)، والطبراني في « الكبير » (١٢٩٨٨) و (١٢٩٨٩) عن ابن عباس بسندٍ صحيح .

(٢) قطعةٌ من حديثٍ رواه البخاري (٢٩٦٥)، ومسلم (١٧٤٢) عن عبدالله بن أبي أوفى، أوَّله : « لا تتمنَّوا لقاءَ العدوّ ... » .

(٣) في « المطبوع » : « تُفيد » !

(٤) ساقط من « المطبوع » !

(٥) في « المطبوع » : « تحقيق » .

وإمَّا[١] جُملةً إنشائيةً ؛ كقوله لعبدِهِ الكافر : إنْ أسلَمتَ فأنتَ حرٌّ، ولامرأتِهِ : إنْ فَعَلتِ كذا فأنتِ طالقٌ، فهذا إنشاءٌ للعِتقِ والطَّلاقِ عند وُجودِ الشرطِ - على رأيٍ - ، أو إنشاءٌ له حالَ التَّعليقِ ويتأخَّرُ نفوذُهُ إلى حينِ وجودِ الشرطِ - على رأيٍ آخرَ - .

وعلى التَّقديرين، فجوابُ الشرطِ جملَةٌ إنشائيَّةٌ .

والمقصودُ أنَّ جوابَ الشرطِ في الآيَةِ المذكورَةِ جُملةٌ شرطيَّةٌ، وهي **قولُه** تعالى :﴿ فَمَن تَبعَ هُدايَ فلا خَوفٌ عَلَيهِم ولا هُم يحزَنون ﴾ [البقرة : ٣٨]، وهذا الشرطُ يقتضي ارتباطَ الجُملةِ الأُولى بالثَّانيةِ ارتِباطَ العلَّةِ بالمَعلولِ، والسَّببَ بالمُسبِّبِ، فيكونُ الشرطُ الذي هو مَلزومُ علَّةٍ مُقتضيًا للجزاءِ الذي هو لازمٌ، فإنْ كان بينهما تلازُمٌ مِن الطَّرفين كان وجودُ كُلٍّ منهما بدونِ [دخولِ][٢] الآخر ممتنعًا، كدخولِ الجنَّة بلا إسلامٍ ، وارتفاعِ الخوفِ والحُزنِ والضَّلالِ والشقاءِ مع متابعةِ الهَوى .

وهذه هي عامَّةُ شروطِ القُرآن والسُّنَّة ، فإنَّها أسبابٌ وعِلَلٌ، **والحُكمُ ينتفي بانتفاءِ علَّتِهِ** ، وإنْ كان التَّلازُمُ بينهما من أحدِ الطَّرفين كان الشرطُ ملزومًا خاصًّا، والجزاءُ لازمًا عامًّا، فمتى تحقَّق الشرطُ الملزوم الخاصُّ تحقَّق الجزاءُ[٣] اللازمُ العامُّ، ولا يلزَمُ العكسُ ،كما يقال : إنْ كان هذا إنسانًا فهو حيوانٌ، وإن كان البيعُ صحيحًا فالمُلْكُ ثابتٌ .

وهذا غالبُ ما يأتي في قياسِ الدَّلالةِ[٤]؛ حيثُ يكونُ الشرطُ دليلًا على

---

(١) تكميلٌ لِأشكالِ ورودِ جوابِ الشرط .

(٢) ساقطة من « الأصل » .

(٣) في « المطبوع » : « الشرط » .

(٤) انظر « الكُلِّيَّات » (٤ / ٢٦-٢٧) لأبي البقاء الكَفَويّ .

الجزاء، فيلزمُ من وجودِه وجودُ الجزاءِ، لأنَّ الجزاءَ لازِمُهُ ، ووجودُ الملزوم يستلزمُ وجودَ اللازم ، ولا يلزمُ من عدمِه عَدمُ الجزاء .

وإنْ وقعَ هذا الشرطُ بين علَّةٍ ومعلولٍ : فإنْ كان الحُكمُ معلَّلًا بِعِلَلٍ صحَّ ذلك وجازَ أن يكون الجزاءُ أعمَّ من الشرطِ، كقولك: إنْ كان هذا مُرتدًّا فهو حلالُ الدَّمِ، فإنَّ حِلَّ الدَّمِ أعمُّ من حِلِّهِ بالردَّةِ، إلّا أن يُقال: إنَّ حُكمَ العلَّةِ المُعيَّنةِ ينتفي بانتفائِها، وإنْ ثبتَ الحُكمُ بعلَّة أخرى فهو حكمٌ آخرُ .

وأمَّا حُكمُ العلَّةِ المُعيَّنَةِ فمُحالٌ أن يُنفى مع زوالها، وحينئذٍ فيعودُ التَّلازُم من الطَّرفين، ويلزمُ من وجودِ كُلٍّ واحدٍ من الشرطِ والجزاءِ وجودُ الآخرِ، ومن عدمِه عدمُه .

وتمامُ تحقيق هذا في مسألةِ تعليل الحُكمِ الواحدِ بعلَّتين؛ وللنَّاس فيه نزاعٌ مشهورٌ، وفصلُ الخِطاب فيها أنَّ الحُكمَ الواحدَ إنْ كان واحدًا بالنَّوعِ - كَحِلٍّ[(١)] الدَّم، وثُبوتِ المُلكِ ، ونقضِ الطَّهارَةِ - جازَ تعليلُهُ بالعِلَل المُختلفةِ، وإنْ كان واحدًا بالعَين - كحِلِّ الدَّم بالرِّدَّةِ، وثبوتِ المُلْك بالبيع، أو الميراث، ونحو ذلك - لم يَجُز تعليلُهُ بعلَّتين مُختلفتَين، وبهذا التَّفصيل يزولُ الاشتباهُ في هذه المسألةِ، واللَّهُ أعلم .

ومَن تأمَّل أدلَّةَ الطَّائفتَين وجَدَ كُلَّ ما احتَجَّ به مَن رأىٰ تعليلَ الحُكمِ بعللٍ مُختلفةٍ إنَّما يدُلُّ على تعليلِ الواحدِ بالنَّوعِ بها، وكلُّ مَن نَفى تعليلَ الحُكمِ بعلَّتين إنَّما يتمُّ دليلُهُ على نفيِ تعليلِ الواحدِ بالعَينِ بهما.

فالقولان عند التَّحقيق يَرجعانِ إلى شيءٍ واحدٍ .

---

(١) في « الأصل » : « كحالٍ » .

والمقصودُ أنَّ اللَّه سبحانه جعلَ اتِّباعَ هُداه وعَهْدَهُ الذي عَهِدَه إلى آدمَ سببًا ومُقتضيًا لعدم الخَوفِ والحُزنِ والضَّلالِ والشقاءِ، وهذا الجزاءُ ثابتٌ بثبوتِ الشرطِ ، مُنتَفٍ بانتفائِهِ، كما تقدَّم بيانُهُ .

ونفيُ الخوفِ والحُزنِ عن مُتَّبعِ الهُدى نفيٌ لجميعِ أنواعِ الشرورِ، فإنَّ المكروهَ الذي ينزلُ بالعبدِ متى عَلِمَ بحصولِهِ فهو خائفٌ منه أن يقعَ به ، وإذا وَقعَ به فهو حزينٌ على ما أصابَهُ منه ، فهو دائمًا في خوفٍ وحزنٍ ، فكلُّ خائفٍ حزينٌ ، وكلُّ حزينٍ خائفٌ ، وكلٌّ مِن الخوفِ والحُزنِ يكونُ على فِعل المحبوب وحصولِ المكروه .

فالأقسامُ أربعةٌ :

خَوفٌ من فوتِ المَحبوبِ وحُصولِ المَكروهِ، وهذا جِماعُ الشرِّ كلِّه، فنفى اللَّهُ سبحانهُ ذلك عن مُتَّبع هُداه الذي أنزلهُ على ألسنَةِ رسلِهِ، وأتى في نفي الخَوفِ بالاسمِ الدَّالِّ على نفي الثُّبوت واللزومِ، فإنَّ أهلَ الجنَّة لا بدَّ لهم من الخَوفِ في الدُّنيا، وفي البرزَخِ، ويومَ القيامة، حيثُ يقولُ آدمُ وغيرهُ من الأنبياء: « نفسي ... نفسي »[١] فأخبرَ سُبحانهُ أنَّهم وإنْ خافوا فلا خَوفٌ عليهم، أي : لا يلحقُهم الخَوفُ الذي خافوا منه، وأتى في نفي الحُزنِ بالفعلِ المُضارعِ الدَّالِّ على نَفيِ التَّجدُّد والحُدوثِ، أي : لا يلحقُهم حزنٌ ولا يحدُثُ لهم إذا تَذكَّروا[٢] ما سَلَفَ منهم، بل هُم في سرورٍ دائمٍ لا يَعرِضُ لهم حزنٌ على ما فاتَ .

وأمَّا الخَوفُ : فلمَّا كان تعلُّقُهُ بالمُستقبلِ دونَ الماضـي نفى لحوقَهُ لهم

---

(١) قطعة من حديث الشفاعة المتقدم .

(٢) في « المطبوع » : « إذا لم يذكروا » .

جُملَةً ، أي : الذي خافوا منه لا ينالُهُم ولا يلُمُّ بهم - والله أعلم -، فالحزينُ إنَّما يحزنُ في المُستقبل على ما مضى، والخائفُ إنَّما يخافُ في الحال ممَّا يَستقبلُ، فلا خوفٌ عليهم، أي : لا يلحقُهم ما خافوا منه، ولا يعرِضُ لهم حُزنٌ على ما فات .

وقال في الآيةِ الأخرى : ﴿ فَمَن اتَّبعَ هُدايَ فلا يَضلُّ ولا يَشقى ﴾ [طه : ١٢٣]، فنفى عن متَّبع هداه أمرَين: الضَّلالَ، والشقاءَ، قال عبدالله بن عبَّاس رضي اللَّهُ عنهما : تكفَّلَ اللَّهُ لمَن قَرَأَ القرآنَ وعملَ بما فيه أن لا يضلَّ في الدُّنيا، ولا يشقى في الآخِرَة[١]، ثمَّ قرأ : ﴿ فإمَّا يأتِيَنَّكُم منِّي هُدًى فَمَن اتَّبعَ هُدايَ فلا يَضِلُّ ولا يَشقى ﴾ [طه : ١٢٣] .

والآيةُ نفَتْ مُسمَّى الضَّلالِ والشقاءِ عن مُتَّبع الهُدى مُطلقًا، فاقتَضَت الآيةُ أنَّهُ لا يَضلُّ في الدُّنيا، ولا يشقى [فيها][٢]، ولا يضلُّ في الآخرَة، ولا يشقى فيها، فإنَّ المراتبَ أربعةٌ: هُدًى وشقاوَةٌ في الدُّنيا، وهدًى وشقاوَةٌ في الآخرَة .

لكنَّ ابنَ عبَّاسٍ رضيَ اللَّهُ عنهما ذَكَرَ في كلِّ دارٍ أظهرَ مرتبتَيها، فذكرَ الضَّلالَ في الدُّنيا، إذ هو أظهرُ لنا وأقربُ من ذكرِ الضَّلالِ في الآخرَة، [وَذكرَ الشَّقاءَ في الآخرة؛ إذ هو أظهرُ عندَ النَّاسِ مِن الضَّلالِ فيها، بل كثيرٌ من النَّاس لا يحصُل في ذهنِه حقيقةُ الضَّلال في الآخرة][٣].

---

(١) أخرجه الفريابي ، وسعيدُ بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حُميد ، ومحمد بن نَصر، وغيرهم .

انظر « الدر المنثور » (٥ / ٦٠٧) .

(٢) ساقط من « المطبوع » .

(٣) ساقط من « المطبوع » !

وأيضًا؛ فضلالُ الدُّنيا أضلُّ ضلالٍ في الآخرَة، وشقاءُ الآخرَة مُستلزمٌ للضَّلالِ فيها، فنبَّهَ بكلٍّ مرتبةٍ على الأُخرى؛ فنبَّهَ بنفيِ ضلالِ الدنيا على نفي ضلالِ الآخرَة؛ **فإنَّ العبدَ يموتُ على ما عاشَ عليه، ويُبعثُ على ما ماتَ عليه** .

قال اللَّهُ تعالى في الآية الأُخرى : ﴿ ومَن أعرَضَ عَن ذِكري فإنَّ لهُ مَعيشةً ضَنْكًا ونَحشرُهُ يومَ القيامَةِ أعمى قال ربِّ لِمَ حَشَرْتَني أعمى وقد كُنتُ بَصيرًا قالَ كذلكَ أتَتْكَ آياتُنا فَنسيتَها وكذلكَ اليَومَ تُنسى ﴾ [طه : ١٢٤-١٢٦]، وقال في الآيَة الأُخرى : ﴿ ومَن كانَ في هذهِ أعمى فهو في الآخِرَة أعمى وأضلُّ سبيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٢]، فأخبَرَ أنَّ مَن كانَ في هذه الدَّار ضالًّا فهو في الآخرَة أضلُّ .

وأمَّا نَفيُ شقاءِ الدُّنيا فَقَد يقالُ: إنَّهُ لمّا انتفى عنه الضَّلالُ فيها، وحصلَ له الهُدى - والهُدى فيه(٢) مِن بردِ اليَقينِ وطمأنينة القلبِ، وذَوقِ طعم الإيمان، - فوجدَ حلاوتَهُ وفرحةَ القلبِ به ، وسرورَه ، والتَّنعُّمَ به ، ومصيرَ القلب حيًّا بالإيمان، مُستنيرًا به، قويًّا به، قد نالَ به غذاءَهُ ودواءَهُ وشفاءَهُ وحياتَهُ ونورَهُ وقوَّتَهُ ولذَّتَهُ ونعيمَهُ ما هو أجلُّ أنواعِ النَّعيمِ، وأطيبُ الطيِّبات، وأعظمُ اللذَّات، قال اللَّه تعالى : ﴿ مَن عَمِلَ صالحًا مِن ذكرٍ أو أُنثى وهو مؤمنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حياةً طيِّبةً ولَنَجزينَّهُم أجرَهُم بأحسنِ ما كانوا يَعملون ﴾ [النحل : ٩٧]، فهذا خبرُ أصدقِ الصَّادقين، ومَخبرُهُ عند أهلِهِ عينُ - بل حقُّ - اليقين؛ فلا بدَّ لكلِّ مَن عملَ صالحًا [وهو مُؤمنٌ](٢) أن يُحيِيَهُ اللَّهُ حياةً طيِّبَةً بحسب إيمانِهِ وعملِه .

(١) كذا في « الأصل » ، ومثله في « المطبوع » .

(٢) ساقطٌ من « المطبوع » .

ولكن يغلطُ الجُفاةُ الأجلافُ في مُسمَّى الحياة، حيثُ يظنُّونها التَّنعُّمَ في أنواعِ المآكلِ والمشاربِ والملابس والمناكح، أو لذَّةَ الرِّياسةِ والمالِ وقهرِ الأعداءِ والتَّفنُّنِ بأنواعِ الشهوات؛ ولا ريبَ أنَّ هذه لذَّةٌ مشتركةٌ بين البهائمِ، بل قد يكونُ حظُّ كثيرٍ من البهائم منها أكثرَ من حظِّ الإنسان، فَمَن لم تكُن عندهُ إلّا اللذَّةُ التي تُشاركهُ فيها السِّباعُ والدَّوابُّ والأنعامُ فذلك ممَّن يُنادى عليه من مكان بَعيدٍ، ولكنْ أين هذه اللذَّةُ من اللذَّةِ بأمرٍ إذا خالطَ بشاشتُهُ القلوبَ سَلاَ[1] عن الأبناءِ والنِّساءِ والأوطانِ والأموالِ والإخوانِ والمساكنِ، ورضيَ بتركها كلِّها والخُروجِ منها رأسًا، وعرَّضَ نفسَه لأنواعِ المكارِه والمشاقِّ، وهو مُتَحَلٍّ[2] بهذا، مُنشرحُ الصَّدرِ به، يَطِيبُ له قتلُ ابنهِ وأبيهِ وصاحبتِه وأخيهِ، لا تأخذُه في ذلك لومَةُ لائم ، حتى إنَّ أحدَهم ليتلقَّى الرُّمحَ بصدرِهِ ويقولُ : « فُزتُ وربِّ الكعبَة »[3]، ويستطيلُ الآخرُ حياتَهُ حتى يُلقي قُوتَه مِن يدِهِ، ويقول: « إنَّها لحياةٌ طويلةٌ إنْ صَبَرتُ حتى آكلَها »[4]، ثمَّ يتقدَّمُ إلى المَوت فَرِحًا مَسرورًا ، ويقول الآخر مع فقره : « لو علم الملوكُ وأَبناء الملوكِ ما نحنُ عليه لجالدونا عليه بالسيوف » ، ويقولُ الآخر: « إنَّهُ لَتمُرُّ بالقلبِ

---

(١) طابَتْ نفسُه بعد الفراق .

(٢) في « الأصل » : « محمّل » .

(٣) من حديث رواه البخاري (٢٨٠١) عن أنس .

(٤) من حديث رواه مسلم (١٩٠١) عن أنس ، - وأَصلُه في « صحيح البخاري » (٤٠٤٦) - .

وقال الحافظ في « الفتح » (٧ / ٣٥٤) :

« وفي الحديث ما كان الصحابةُ عليه من حُبِّ نصر الإسلام ، والرَّغبةِ في الشهادة ابتغاءَ مرضاة الله » .

أوقاتٌ يرقُصُ فيها طَرَبًا » .

وقال بعضُ العارفين: « إنَّهُ لَتمُرُّ بي أوقاتٌ، أقولُ فيها: إنْ كانَ أهلُ الجنَّة في مثل هذا إنَّهم لفي النَّعيم[١] » .

ومَن تأمَّلَ قولَ النَّبي ﷺ لمَّا نهاهُم عن الوصالِ، فقالوا : إنَّكَ تُواصِل ! فقال: « إنِّي لستُ كهيئتكُم، إنِّي أظلُّ عندَ ربِّي يُطعمني ويَسقيني »[٢]، عَلِمَ أنَّ هذا طَعامُ الأرواحِ وشرابُها، وما يَفيضُ علينا من أنواعِ البهجَةِ واللذَّةِ والسُّرورِ والنَّعيمِ الذي رسولُ اللَّه ﷺ في الذُّروَةِ العُليا منه، وغيرُه إذا تعلَّقَ بغُبارِهِ رأى مُلكَ الدُّنيا ونعيمَها بالنِّسبةِ إليه هباءً منثورًا، بل باطلًا وغُرورًا .

وغَلِطَ مَن قال: إنَّه كانَ يأكلُ ويشربُ طعامًا وشرابًا يغتذي به بدنُه ؛ لوجوهٍ :

أحدُها : أنَّه قال ﷺ : « أظلُّ عند ربِّي يُطعمني ويَسقيني » ، ولو كان أكلًا وشُربًا لم يكُن وصالًا ولا صَومًا .

الثَّاني : أنَّ النَّبيَّ ﷺ أخبرَهم أنَّهم ليسوا كهيئتهِ في الوصال ، فإنَّهم إذا واصَلوا تَضرَّرُوا بذلك ، وأمَّا هو ﷺ فإنَّهُ إذا واصلَ لا يتضرَّرُ بالوصالِ .

فلو كانَ يأكلُ ويشربُ لكانَ الجوابُ : وأنا أيضًا لا أُواصلُ ؛ بل آكلُ وأشربُ كما تأكلونَ وتَشربونَ ، فلمَّا قرَّرهم على قولهم : « إنَّكَ تواصلُ »

---

(١) في « المطبوع » : « عيش طيّب » .

(٢) رواه البخاري (٧٢٤١) ، ومسلم (١١٠٤) عن أَنس .

وفي الباب عن ابن عُمر ، وعائشة ، وأبي هريرة .

- ولم يُنكِرهُ عليهم - دلَّ على أنَّهُ كان مُواصِلًا، وأنَّهُ لم يكن يأكلُ أكلًا وشُربًا يُفطِّرُ الصَّائمَ .

الثَّالث : أنَّهُ لو كان أكلًا وشُربًا يُفطِّرُ الصَّائمَ لم يصحَّ الجوابُ بالفارقِ بينهم وبينهُ ، فإنَّهُ حينئذٍ يكونُ ﷺ هو وهُم مُشترِكين في عَدم الوصال، فكيف يصحُّ الجوابُ بقوله : « لستُ كهيئتكُم » ؟!

وهذا أمرٌ يعلمُهُ غالبُ النَّاس أنَّ القلبَ متى حصلَ له ما يُفرِحهُ وَيَسرُّه من نَيلِ مطلوبِهِ[1] ووصالِ حبيبِهِ، أو ما يغمُّهُ ويسوؤهُ ويُحزِنهُ شُغِلَ عن الطَّعام والشراب، حتى إنَّ كثيرًا من العُشاق تمُرُّ به الأيَّامُ لا يأكلُ شيئًا، ولا تطلبُ نفسه أكلًا .

وقد أفصح القائلُ في هذا المعنى :

لها أحاديثُ مِن ذِكراكَ تَشغَلُها
عَنِ الشرابِ وتُلْهيها عَن الزَّادِ
لها بوجهِكَ نورٌ تَستَضيءُ بِهِ
ومِن حَديثِكَ في أعقابِها حادِي
إذا اشتَكَتْ مِن كَلالِ السَّيرِ أوعَدَها
روحُ القُدومِ فتَحيا عند ميعادِ

والمقصودُ أنَّ الهُدى مُسلتزمٌ لسعادةِ الدُّنيا ، وطِيبِ الحياةِ ، والنَّعيمِ العاجلِ ، وهو أمرٌ يشهدُ بِهِ الحِسُّ والوَجدُ ، وأمَّا سعادَةُ الآخِرَةِ فَغيبٌ يُعلَمُ

---

(١) في « المطبوع » : « مطلبه » .

بالإيمانِ، فذكرها ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللَّهُ عنهما لكونها أهمَّ، وهي الغايَةُ المطلوبةُ، وضلالُ الدُّنيا أظهرُ، وبالنَّجاةِ منه ينجو من كلِّ شرٍّ، وهو أصْلُ ضلالِ الآخرَةِ وشقائها، فلذلك ذَكَرهُ وحدَهُ .

واللَّهُ أعلم .

□ □ □ □ □ □

٢ - فصلٌ :
[حظُّ الأعداءِ وحظُّ الأَولياءِ]

وهذانِ الأصلانِ[١] - أعني الضَّلالَ والشقاءَ - يذكرُهما سبحانهُ [كثيرًا][٢] في كلامهِ، ويُخبِرُ أنَّهما حظُّ أعدائهِ، ويذكُرُ ضِدَّهما - وهما الهُدى والفلاحُ - كثيرًا، ويُخبرُ أنَّهما حظُّ أوليائهِ :

أمَّا الأوَّل : فكقولِه تعالى : ﴿ إنَّ المُجرِمينَ في ضَلالٍ وسُعُرٍ ﴾ [القمر : ٤٧]، فالضَّلالُ الضَّلالُ، والسُّعُرُ هو الشقاءُ والعذابُ، وقال تعالى : ﴿ قَد خَسِرَ الَّذينَ كَذَّبوا بِلِقاءِ اللهِ وما كانوا مُهتَدين ﴾ [يونس : ٤٥] .

وأمَّا الثَّاني : فكقولِه تعالى في أوَّلِ (البقرَة) وقد ذكرَ المؤمنين وصفاتِهم : ﴿ أُولئكَ على هُدًى من ربِّهم وأُولئكَ هُمُ المُفلِحون ﴾ [البقرة : ٥]، وكذلك في أوَّلِ (لُقمان[٣]) ، وقال في (الأنعامِ) : ﴿ الَّذينَ آمَنوا ولَم يَلْبِسوا إيمانَهُم بظُلمٍ أولئكَ لَهُم الأمنُ وهُم مُهتَدونَ ﴾[الأنعام : ٨٢] .

ولـمّا كانت سورةُ أُمِّ القُرآن أعظمَ سورةٍ في القُرآن[٤]، وأفرضَها قراءةً على

---

(١) في « المطبوع » : « الضلالان » .

(٢) ساقط من « المطبوع » .

(٣) آية : ٥ .

(٤) كما رواه البخاري (٤٤٧٤) عن أَبي سعيد ابنِ المُعلَّى .

الأُمَّة[١]، وأجمَعها لكلِّ ما يحتاجُ إليه العبدُ[٢]، وأعمَّها نفعًا، ذكرَ فيها الأمرَين؛ فأمرَنا أن نَقولَ : ﴿ اهْدِنا الصِّراطَ المُستَقيمَ صِراطَ الَّذينَ أنعَمتَ عَلَيهِم ﴾ [الفاتحة : ٦] ، فذكرَ الهدايَةَ والنِّعمةَ - وهما الهُدى والفلاحُ - ، ثمَّ قال : ﴿ غَيرِ المَغضوبِ عَلَيهِم ولا الضَّالِّين ﴾ [الفاتحة : ٧]، فَذكرَ المَغضوبَ عليهم وهم أهلُ الشقاءِ، والضَّالِّين وهم أهلُ الضَّلالِ، وكلٌّ من الطَّائفتَين له الضَّلالُ والشقاءُ، لكنْ ذَكرَ الوَصفَين معًا لتكونَ الدَّلالةُ على كلٍّ منهما بصريحِ لفظِهِ .

وأيضًا ؛ فإنَّهُ ذكرَ ما هو أظهرُ الوَصفَين في كُلِّ طائفةٍ، فإنَّ الغَضَبَ على اليَهودِ أظهرُ لعنادِهم الحقَّ بعدَ معرفته، والضَّلالَ في النَّصارى أظهرُ لِغَلَبَة الجهلِ فيهم، وقد صحَّ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « اليهودُ مغضوبٌ عليهم ، والنَّصارى ضالُّون »[٣] .

---

(١) كمثلِ ما في قوله ﷺ : « لا صلاةَ لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » .
رواه البخاري (٧٥٦) ، ومسلم (٣٩٤) عن عُبادة .

(٢) انظر ما كتبه العلامة السَّعديُّ في « تيسير الكريم الرَّحمن » (١ / ٣٧ - ٣٨) في تقرير هذا الأمر .

(٣) رواه أحمد (٤ / ٣٧٨)، والطيالسي (١٠٤٠)، والطبراني (١٧ / رقم : ٢٣٧) عن عديّ بن حاتم بسندٍ حسَّنه الترمذيُّ (٢٩٥٤) و (٢٩٥٥) وصحّحه ابنُ حِبَّان (٧٢٠٦) .
قلتُ : وفيه جهالةُ عبَّاد بن حُبَيش .
ولكنّ الحديث حسنٌ بشواهدِهِ ، منها حديث أَبي ذَرّ عن ابن مردويه بسندٍ حسنٍ ، كما قال الحافظ في « الفتح » (٨ / ١٥٩) .
وانظر « تفسير الطبري » (رقم ١٩٨) وتعليق الشيخ أَحمد شاكر عليه .

٣ - فَصلٌ :
[ثوابُ الجنّ وعِقابُهم]

وقولُهُ تعالى : ﴿ فإمَّا يأتِينَّكم منِّي هُدًى ﴾ [طه : ١٢٣] هو خطابٌ لمَن أُهبِطَ[١] من الجنَّة بقولِه : ﴿ اهبِطا منها جميعًا بَعضُكم لِبَعضٍ عَدوٌّ ﴾ [طه : ١٢٣]، [ثمَّ قال][٢]: ﴿ فإمَّا يَأتِيَنَّكُم منِّي هُدًى .. ﴾، وَكِلَا الخطابَينِ لأَبَوي الثَّقلينِ، وهو دليلٌ على أنَّ الجنَّ مأمورونَ مَنهيُّونَ، داخلون تحتَ شرائع الأنبياء، وهذا ممَّا لا خلافَ فيه بين الأُمَّة، وأنَّ نبيَّنا بُعِثَ إليهم كما بُعِثَ إلى الإنس، كما لا خلافَ بينها أنَّ مُسيئَهم مُستحقٌّ للعقاب .

وإنَّما اختلَفَ عُلماءُ الإسلام في المُسلم منهم ، هل يدخُل الجنَّة ؟ فالجمهورُ على أنَّ مُحسِنَهم في الجنَّة، كما أنَّ مُسيئَهم في النَّار، وقيل: بل ثوابُهم سلامتُهم من الجحيمِ، وأمَّا الجنَّةُ فلا يَدخلُها أحدٌ من أولادِ إبليسَ، وإنَّما هي لبني آدمَ وصالحي ذُريَّتِهِ خاصَّةً .

وحُكِيَ هذا القولُ عن أبي حَنيفةَ رحمه اللَّه تعالى .

واحتجَّ الأوَّلون بوجوه :

أحدُها : هذه الآيةُ؛ فإنَّهُ سبحانه أخبَرَ أنَّ مَن اتَّبعَ هُداهُ فلا يَخافُ ولا يحزن، ولا يضلُّ ولا يشقى، وهذا مُستلزمٌ لكمال النَّعيم، ولا يُقال : إنَّ الآيةَ

---

(١) في « المطبوع » : « أهبطه » .

(٢) زيادة من « المطبوع » .

إنَّما تدُلُّ على نفي العذابِ فقط، ولا خلافَ أنَّ مؤمنيهم لا يُعاقَبُون، لأنَّا نقولُ: لو لم تَدُلَّ الآيةُ إلّا على أمرٍ عَدَمِيٍّ فقط لم يكُن مَدحًا لمُؤمني الإنس، ولَمَا كان فيها إلّا مجرَّدُ أمرٍ عَدَميٍّ ، وهو عدمُ الخَوف والحزنِ .

ومعلومٌ أنَّ سياقَ الآيَةِ ومقصودَها إنّما أُرِيدَ به أنَّ مَن اتَّبعَ هُدى اللَّهِ الذي أنزلَه حصلَ له غايَةُ النَّعيم، واندَفَعَ عنه غايَةُ الشقاء، وعبَّرَ عن هذا المعنى المطلوبِ بنفي الأُمورِ المذكورةِ لاقتضاءِ الحال؛ لذلك فإنَّهُ لمَّا أُهبِطَ آدمُ من الجنَّةِ حصلَ له منَ الخَوفِ والحُزنِ والشقاءِ ما حصلَ، فأخبَرَهُ سبحانه أنَّهُ مُعطيهِ[1] وذُريَّتِه عَهدًا؛ مَن اتَّبعهُ منهم انتفى عنه الخَوفُ والحزنُ والضَّلالُ والشقاءُ .

ومعلومٌ أنَّهُ لا ينتفي ذلكَ كلُّه إلّا بدخول دارِ النَّعيم، ولكنَّ المقامَ بذكرِ التَّصريحِ بنفي غايَةِ المكروهات أَوْلى .

الثَّاني : قولُه تعالى : ﴿ وإذْ صَرَفْنا إليكَ نَفَرًا مِن الجِنِّ يَستَمِعونَ القُرآنَ فلمَّا حضَروهُ قالوا أَنْصِتوا فلمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إلى قَومِهِم مُنذِرينَ قالوا يا قَومَنا إنَّا سَمِعْنا كتابًا أُنزِلَ مِن بَعدِ موسى مُصدِّقًا لِما بَينَ يَدَيهِ يَهدي إلى الحقِّ وإلى طَريقٍ مُستقيمٍ يا قَومَنا أَجيبوا داعيَ اللهِ وآمِنوا به يَغفِرْ لكُم مِن ذنوبِكُم ويُجِرْكُم مِن عَذابٍ أليمٍ ﴾ [الأحقاف : ٢٩ - ٣١] ، فأخبرَنا سُبحانه عن نذيرِهم إخبارًا بقوله : إنَّ من أجابَ داعيَهُ غَفَرَ له وأجارَهُ منَ العذابِ، ولو كانت المغفرَةُ لهم إنَّما ينالونَ بها مُجرَّدَ النَّجاةِ من العذاب كان ذلك حاصِلًا بقولِه : ﴿ ويُجِرْكُم مِن عذابٍ أليمٍ ﴾ [الأحقاف : ٣١] ، بل تمامُ

---

(١) في « الأصل » : « يُعطيه » .

المغفرةِ دخولُ الجنَّةِ والنَّجاةُ من النَّار، فكلُّ مَن غَفَرَ اللَّهُ لهُ فلا بدَّ من دخولِهِ الجنَّة .

الثَّالث : قولُه تعالى في الحُور العِينِ : ﴿ لَم يَطْمِثْهُنَّ إنسٌ قَبلَهُم ولا جانٌّ ﴾ [الرَّحمن : ٧٤] فهذا يدُلُّ على أنَّ مؤمني الجنِّ والإنسِ يدخلونَ الجنَّة، وأنَّهُ لم يسبق مِن أحدٍ منهم طَمْثٌ لأحدٍ من الحُور، فدلَّ على أنَّ مُؤمنيهم يتأتَّى منهم طَمْثُ الحُورِ العِينِ بعدَ الدُّخولِ، كما يتأتَّى من الإنسِ، ولو كانوا ممَّن لا يدخُلُ الجنَّةَ لَمَا حَسُنَ الإخبارُ عنهم بذلك .

الرَّابع : قولُه تعالى : ﴿ فإنْ لَم تَفعَلوا ولَن تَفعَلوا فاتَّقُوا النَّارَ التي وَقودُها النَّاسُ والحِجارَةُ أُعِدَّتْ للكافِرين وبَشِّرِ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ أنَّ لَهُم جنَّاتٍ تَجري من تَحتِها الأنهارُ كُلَّما رُزِقوا منها مِن ثَمَرَةٍ رزقًا قالوا هذا الذي رُزِقْنا مِن قَبلُ وَأُتُوا بهِ مُتشابهًا ولَهُم فيها أزواجٌ مُطهَّرةٌ وهُم فيها خالِدون ﴾ [البقرة : ٢٤ - ٢٥] .

والجِنُّ منهم مؤمنٌ ومنهم كافرٌ ؛ كما قال صالِحُوهم : ﴿ وأَنَّا منَّا المسلِمونَ ومنَّا القاسِطونَ ﴾ [الجن : ١٤]، [فكما دخلَ كافرهُم في الآيةِ الثَّانيةِ وجبَ أن يدخُلَ مؤمنُهم في الآيَة الأولى][1].

الخامس : قولُه عن صالِحيهم : ﴿ فَمَن أسلَمَ فأُولئكَ تَحرَّوْا رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٤] ، والرَّشَدُ هو الهُدى والفلاحُ ، وهو الذي يَهدي إليه القُرآنُ ، ومَن لم يَدخُلِ الجنَّة لم يَنَلْ غايَةَ الرُّشدِ ، بل لم يحصُلْ له من الرُّشدِ إلّا

---

(١) ليس في « الأصل » .

مُجرَّدُ العَدَم[١] .

السَّادس : قولُه تعالى : ﴿ سابِقوا إلى مَغفِرَةٍ مِن رَبِّكُم وجنَّةٍ عَرضُها كَعَرْضِ السَّمٰواتِ والأرضِ أُعِدَّت للَّذينَ آمَنوا باللهِ ورسُلِهِ وذلك فَضلُ الله يُؤتيهِ مَن يشاءُ والله ذو الفَضلِ العَظيم ﴾ [الحديد : ٢١]، ومؤمنُهم ممَّن آمَن باللَّهِ ورسلهِ ، فيدخُل في المُبشَّرين ويستحقُّ البشارَة .

السَّابعُ : قولُه تعالى : ﴿ والله يَدعو إلى دار السَّلامِ ويَهدي مَن يشاءُ إلى صراطٍ مُستقيم ﴾ [يونس : ٢٥]، عَمَّ سبحانهُ بالدَّعوة، وخصَّ بالهدايَةِ المُفْضِيَةِ إليها، فَمَنْ هداهُ إليها فهو مِمَّن دعاهُ إليها، فمَن اهتَدى من الجنِّ فهو مِن المَدعُوِّين إليها .

الثَّامن : قولُه تعالى : ﴿ وَيَومَ نَحشرُهُم جميعًا يا مَعشَرَ الجنِّ قَد استَكثَرتُم من الإنسِ وقالَ أولياؤُهُم من الإنسِ ربَّنا استَمتَعَ بعضُنا بِبَعضٍ وبَلَغْنا أجَلَنا الَّذي أجَّلْتَ لنا قال النَّارُ مَثواكُم خالدينَ فيها إلّا ما شاءَ الله إنَّ ربَّكَ حَكيمٌ عليمٌ وكذلكَ نُوَلِّي بَعضَ الظَّالمين بَعضًا بما كانوا يَكسِبون يا مَعشَرَ الجنِّ والإنسِ ألَم يأتِكُم رُسلٌ منكُم يَقُصُّونَ عليكُم آياتي ويُنذِرُونَكُم لقاءَ يومِكُم هذا قالوا شَهِدْنا على أنفُسِنا وغَرَّتْهُم الحياةُ الدُّنيا وشَهِدوا على أنفسِهِم أنَّهم كانوا كافرين ذلك أنْ لم يكُن ربُّكَ مُهلِكَ القُرى بظُلمٍ وأهلُها غافِلونَ ولِكُلٍّ دَرَجاتٌ ممَّا عَمِلوا ﴾ [الأنعام : ١٢٨ - ١٣٢]، وهذا عامٌّ في الجنِّ والإنسِ ، فأخبَرَ[٢] تعالى أنَّ لكلِّهم درجاتٍ مِن عَملهِ ، فاقتَضى أن

---

(١) في « المطبوع » : « العلم » .

(٢) في « المطبوع » : « فأخبرهم » .

يكونَ لمُحسِنهم دَرجاتٌ من عملِهِ كما لِمُحسِنِ الإنس .

التَّاسع : قولُه تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ قالوا ربُّنا الله ثمَّ استَقاموا تتنزَّلُ عليهم الملائكةُ أنْ لا تَخافوا ولا تَحزَنوا وأبشِروا بالجنَّةِ التي كنتُم تُوعَدونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] .

وقولُه تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ قالوا ربُّنا الله ثمَّ استقاموا فلا خَوفٌ عليهم ولا هُم يَحزَنون أُولئكَ أصحابُ الجنَّةِ خالدينَ فيها جزاءً بما كانوا يعمَلون ﴾ [الأحقاف : ١٣ - ١٤] .

ووجهُ التَّمسُّك بالآيَةِ من وجوهٍ ثلاثةٍ:

أحدُها : عمومُ الاسمِ المَوصولِ فيها .

الثَّاني : تَرتيبُهُ الجزاءَ المذكورَ على المسألةِ لِيَدُلَّ على أنَّهُ مُستَحَقٌّ بها، وهو قولُ: ﴿ ربُّنا الله ﴾ مع الاستقامةِ، والحُكمُ يعمُّ بعموم علَّتِهِ، فإذا كان دخولُ الجنَّةُ مُرتَّبًا على الإقرارِ باللَّهِ وربوبيَّتِهِ مع الاستقامَةِ على أمرِهِ، فمَن أتى بذلكَ[1] استحقَّ الجزاءَ .

الثَّالث : أنَّهُ قال : ﴿ فَلا خَوفٌ عَليهم ولا هُم يحزَنون أُولئكَ أصحابُ الجنَّةِ خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعملون ﴾ [الأحقاف : ١٤] فدلَّ على أنَّ كلَّ مَن لا خوفٌ عليه ولا حُزنٌ فهو من أهلِ الجنَّة .

وقد تقدَّم في أوَّلِ الآياتِ قولُه تعالى : ﴿ فَمن تَبِعَ هُدايَ فلا خَوفٌ عليهم ولا هم يحزَنون ﴾ [البقرة : ٣٨]، وأنَّهُ مُتناوِلٌ للفريقينِ، ودلَّتْ هذه الآيةُ على أنَّ مَن لا خَوفَ عليه ولا حُزْنَ فهو من أهلِ الجنَّة .

العاشر : أنَّهُ إذا دخلَ مُسيئهُم النَّارَ بعدلِ اللَّهِ، فدخولُ مُحسِنهم الجنَّة

---

(١) في « المطبوع » : « ذلك » .

بفضلِهِ ورحمتِهِ أَوْلى، فإنَّ رحمتَهُ سبقَت غَضَبَهُ[١]، والفضلُ أغلبُ من العَدلِ، ولهذا لا يدخُلُ النَّارَ إلّا مَن عَملَ أعمالَ أهلِ النَّار .

وأمَّا الجنَّةُ فيدخُلُها من لم يعملْ خَيرًا قَطُّ[٢]، بل يُنشئ لها أقواما يُسكِنُهم إيَّاها من غَيرِ عملٍ عملوه، ويرفعُ فيها درجاتِ العبدِ من غيرِ سَعيٍ منه، بل بما يصلُ إليه مِن دعاء المؤمنين وصلاتهم وصَدَقتِهم وأعمالِ البرِّ التي يُهدونها إليه[٣]، بخلاف أهلِ النَّار؛ فإنَّهُ لا يُعذِّبُ فيها بغيرِ عَملٍ أصلًا .

وقَد ثبتَ بنصِّ القُرآن وإجماع الأمَّة أنَّ مُسيءَ الجنِّ في النَّار بعدلِ اللَّه، وبما كانوا يَكسِبون، فمُحسِنُهم في الجنَّة بفضلِ اللَّه وبما كانوا يعملون .

لكنْ قيل : إنَّهم يكونون في رَبَضِ الجنَّة يراهُم أهلُ الجنَّة ولا يَرونَهُم، كما كانوا في الدُّنيا يَرَونَ بني آدم من حيثُ لا يَرَونهُم !

ومثلُ هذا لا يُعْلَمُ إلّا بتوقيفٍ تنقطعُ الحُجَّةُ عندَه، فإنْ ثَبَتَتْ حجَّةٌ يجب اتِّباعُها، وإلّا فهو ممَّا يُحكى ليُعلم، وصحَّتُهُ موقوفَةٌ على الدَّليلِ، واللَّهُ أعلم .

□□□□□

---

(١) كما رواه البخاري (٧٥٥٤) عن أبي هُريرة ، مرفوعًا .

(٢) انظر رسالة « حُكم تارك الصَّلاة » لشيخنا الألباني ، بتقديمي - نشر دار الجلالين - الرياض .

(٣) وفي ذلك بحثٌ وخلافٌ، يُراجع تحقيقُه في « أحكام الجنائز » (ص ٢١٥-٢٢٦) لشيخنا الألباني - الطبعة الجديدة .

٤ - فَصلٌ :
[مَدارُ الإِيمانِ وقاعدتُهُ]

ومُتابَعةُ هُدى اللَّهِ الَّتي[١] رتَّبَ عليها هذه الأُمورَ هي تصديقُ خبرِهِ من غَيرِ اعتراضِ **شبهةٍ** تقدَحُ في تَصديقِهِ، وامتثالُ أمرِهِ من غيرِ اعتراضِ **شهوةٍ** تمنعُ امتثالَهُ .

وعلى هذين الأصلين مدارُ الإِيمانِ، وهما تَصديقُ الخبرِ، وطاعَةُ الأمرِ، ويَتبَعُهما أمرانِ آخرانِ، وهما نفيُ شبهاتِ الباطلِ الوارِدَةِ عليه، المانِعَةِ من كمالِ الامتثال[٢]، وأن لا يَخمِشَ بها وجهَ تَصديقِهِ، ودفعُ شهواتِ الغيِّ الوارِدَةِ عليه، المانِعةِ من كمالِ الامتثالِ .

فهنا أربعةُ أمورٍ :

أحدها : تَصديقُ الخبر .

الثَّاني : بذلُ الاجتهادِ في ردِّ الشبهاتِ التي تُوحيها شياطينُ الجنِّ والإنس في مُعارضتِه .

الثَّالث : طاعةُ الأمرِ .

الرَّابع : مُجاهَدةُ النَّفس في دفعِ الشهوات التي تحولُ بين العبدِ وبين

---

(١) في « الأصل » : « الّذي » .

(٢) في « المطبوع » : « التصديق » .

كمال الطَّاعةِ .

وهذان الأمران - أعني الشبُهاتِ والشهواتِ - أصلُ فساد العبد وشقائِهِ، في معاشِهِ ومعادِهِ ، كما أنَّ الأصلين الأوَّلين - وهما تصديقُ الخبرِ وطاعةُ الأمرِ - أصلُ سعادَتِهِ وفلاحِهِ في معاشِهِ ومعادِهِ .

وذلك أنَّ العبدَ له قُوَّتان: قوَّةُ الإدراكِ والنَّظرِ وما يَتبَعُها من العلمِ والمَعرفةِ والكلامِ، وقوَّةُ الإرادَةِ والحُبِّ وما يتبعُهُ من النِّيَّةِ [والعِلمِ][(١)] والعزمِ والعملِ؛ فالشبهةُ تُؤثِّرُ فسادًا في القُوَّةِ العلميَّةِ النَّظريَّةِ ما لم يُداوِها بدَفعها، والشهوَةُ تؤثِّرُ فسادًا في القوَّةِ الإراديَّة العمليَّة ما لم يُداوِها بإخراجها .

قال اللَّهُ تعالى في حقِّ نبيِّه يذكُر ما منَّ به عليه مِنْ نزاهته وطهارتِهِ ممّا يلحقُ غيرَهُ من ذلك : ﴿ والنَّجمِ إذا هَوى ما ضلَّ صاحبُكم وَما غَوى ﴾ [النجم : ١ - ٢] ، فـ ﴿ ما ضلَّ ﴾ دليلٌ على كمالِ علمِهِ ومعرفتِهِ، وأنَّهُ على الحقِّ المُبين، و ﴿ ما غَوى ﴾ دليلٌ على كمالِ رُشدِهِ، وأنَّهُ أبرُّ العالَمين، فهو الكاملُ في علمِه، وفي عملِه .

وقد وصفَ ﷺ بذلك خُلفاءَهُ مِن بعدِهِ، وأمَرَ باتِّباعهم على سُنَّتهم[(٢)]، فقال: « عليكُم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الرَّاشِدينَ المَهديِّين مِن بَعدي » رواه الترمذيُّ وغيره[(٣)] .

---

(١) ساقط من « المطبوع » .

(٢) في « الأصل » : « سُنَنِهم » .

(٣) حديثٌ صحيحٌ ، يُنظر تخريجه في تعليقي على رسالة « الدُّرر الغالية في آداب الدعوة والداعية » (ص ٣٢-٣٣) لابن باديس .

ومَن ضعّفه مِن المُعاصرِين المُبتدئين فقد خالَفَ هديَ جماهير المحدِّثين ، بل عُموم المسلمين !

فالرَّاشدُ ضدُّ الغاوي ، والمَهديُّ ضدُّ الضَّالِّ ، وقد قال تعالى : ﴿ كالَّذينَ مِن قَبلِكُم كانوا أشدَّ منكُم قُوَّةً وأكثَرَ أموالًا وَأولادًا فاستَمتَعوا بِخَلاقِهِم فاستَمتَعتُم بِخَلاقِكُم كما استَمتَعَ الَّذينَ من قَبلِكُم بِخَلاقِهِم وخُضْتُم كالَّذي خاضُوا أُولئكَ حَبِطَتْ أعمالُهُم في الدُّنيا والآخرَةِ وأُولئكَ هم الخاسرون ﴾ [التوبة : ٦٩] ، فذكرَ تعالى الأصلينِ ، وهما داءُ الأوَّلين والآخرين :

أحدهما : الاستمتاعُ بالخَلاق ، وهو النَّصيبُ من الدُّنيا، والاستمتاعُ به مُتضمِّنٌ لنَيل الشهواتِ المانعَةِ من مُتابَعةِ الأمر، بِخلافِ المُؤمن فإنَّهُ وإن نالَ من الدُّنيا وشَهَواتِها فإنَّهُ لا يستمتعُ بنصيبهِ كلِّه ، ولا يُذْهِبُ طيِّباتِهِ في حياتهِ الدُّنيا، بل ينالُ منها ما ينالُ ليتقوَّى به على التزوُّدِ لمعادهِ .

والثَّاني : الخوضُ بالشُّبهاتِ الباطلةِ، وهو قولُه : ﴿ وخُضتُم كالَّذي خاضوا ﴾، وهذا شأنُ النُّفوسِ الباطلةِ التي لـم تُخْلَقْ للآخرَةِ، لا تزالُ ساعيَةً في نَيل شهواتِها ، فإذا نالَتْها فإنَّما هي في خوضٍ بالباطلِ الذي لا يُجْدِي عليها إلّا الضَّررَ العاجلَ والآجلَ .

وَمِنْ تمامِ حكمةِ اللَّه تعالى أنَّهُ يبتلي هذه النُّفوسَ بالشقاءِ والتَّعبِ في تحصيل مُراداتها وشهواتها، فلا تتفرّغُ للخوضِ بالباطل إلّا قليلًا، ولو تفرَّغَتْ هذه النُّفوسُ الباطوليَّةُ(١) لكانت أئمَّةً تَدعو إلى النَّارِ ، وهذا حالُ من تَفرَّغَ منها كما هو مُشاهَدٌ بالعيانِ ، وسواءٌ كان المعنى: (وخُضتُم كالحزبِ الذي خاضُوا) أو: (كالفريقِ الذي خاضُوا) ، فإنَّ (الذي) يكونُ للواحدِ والجَمعِ، ونظيرُهُ قولُه تعالى : ﴿ والَّذي جاءَ بالصِّدقِ وصدَّقَ به أولئكَ هُم

---

(١) أي : المبنيّة على الباطل، والقائمة على البطالةِ عياذًا باللَّهِ .

المُتَّقون لهم ما يَشاؤُنَ عندَ ربِّهم ذلك جزاءُ المُحسنين ﴾ [الزُّمر : ٣٣]، لكنْ لا يَجري على جمعٍ تصحيحٍ، فلا يجيءُ: (المسلمون الذي جاءوا) وإنَّما يجيءُ غالبًا في اسمِ الجمعِ، كالحزبِ، والفريقِ، أو حيثُ لا يُذكَرُ الموصوفُ وإنْ كان جَمعًا، كقول الشاعر :

وإنَّ الذي حانَت بِثَلْجٍ[1] دمـــاؤهم
هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالـدِ

أو حيثُ يُرادُ الجنسُ دونَ الواحدِ والعَددِ، كقولِه تعالى : ﴿ والذي جاءَ بالصِّدقِ وصدَّقَ به ﴾، ثمَّ قال : ﴿ أولئكَ هُم المتَّقون ﴾، ونظيرهُ الآيَةُ التي نحنُ فيها، وهي قولُه : ﴿ وخُضتُم كالذي خاضُوا ﴾ أو كانَ المعنى على القول الآخر: (وخُضتم خَوضًا كالخَوضِ الذي خاضُوا) فيكونُ صفةً لمصدرٍ محذوفٍ كقولك : اضرِب كالذي ضَرَبَ، و: أَحْسِن كالذي أحسَنَ، ونظائرِهِ .

وعلى هذا فيكونُ العائدُ منصوبًا محذوفًا، وحذفُهُ في مثل ذلكَ قياسٌ مُطَّرِدٌ .

وعلى القَولين ، فقَد ذمَّهُم سبحانهُ على الخَوضِ بالباطلِ واتِّباعِ الشهواتِ، وأخبرَ أنَّ مَنْ كانت هذه حالَتُهُ فقد حَبِطَ عملُهُ في الدُّنيا والآخرَة ، وهو من الخاسرين .

ونظيرُ هذا قولُ أهلِ النَّار لأهلِ الجنَّة وقد سأَلوهم: كيف دخلوها ؟ ﴿ قالوا لم نَكُ مِن المُصلِّين ولم نكُ نُطعِمُ المِسكينَ وكُنَّا نخوضُ معَ الخائضينَ وكُنَّا نكذِّبُ بيومِ الدِّين ﴾ [المدثر : ٤٣ - ٤٦]، فذكروا

[1] (١) في « المطبوع » : « جاءت تقبح » !

الأصلين : الخوضَ بالباطلِ وما يتبعهُ من التَّكذيبِ بيومِ الدِّين، وإيثارَ الشهواتِ وما يستلزمُهُ مِنْ تَركِ الصَّلواتِ، وإطعام ذوي الحاجات .

فهٰذانِ الأصلانِ هما ما هما .

واللَّهُ وليُّ التَّوفيق .

□□□□□

٥ - فَصلٌ :
[صِفَةُ القَلْبِ السَّليم]

والقلبُ السَّليمُ الذي ينجو من عذابِ اللّهِ هو القلبُ الذي قَد سَلِمَ من هذا وهذا، فهو القلبُ الذي قَد سلَّمَ لِرَبِّه، وسلَّم لأمرِهِ، ولم تبقَ فيه مُنازَعةٌ لأمرِهِ ولا مُعارضةٌ لخبرِهِ، فهو سليمٌ ممّا سِوَىٰ اللّهِ وأمرِه، لا يريدُ إلّا اللّه، ولا يفعلُ إلّا ما أمرَهُ اللّه، فاللّهُ وحدَهُ غايتُهُ، وأمْرُهُ وشرعُهُ وسيلتُهُ وطريقتُهُ ، لا تعترضُهُ شبهةٌ تَحُولُ بينه وبين تَصديقِ خبره، لكنْ لا تمرُّ عليه إلّا وهي مُجتازَةٌ تعلمُ أنَّهُ لا قَرار لها فيه، ولا شهوَةَ تَحُولُ بينَهُ وبين متابَعةِ رضاه .

ومتى كانَ القلبُ كذلك فهو سليمٌ منَ الشرك ، وسليمٌ من البدع ، وسليمٌ من الغيِّ، وسليمٌ من الباطل ، وكلُّ الأقوالِ التي قِيلَت في تفسيرِه فذلك يتضمَّنُها .

وحقيقتُه أنَّهُ القلبُ الذي قد سَلّمَ لعبوديَّةِ ربِّهِ حُبًّا وخوفًا وطمعًا ورجاءً؛ فَفَنِيَ بحبِّه عن حبِّ ما سواه، وبخوفِهِ عن خوف ما سواهُ، وبرجائهِ عن رجاءِ ما سواهُ، وسلَّم لأمره ولرسوله تَصديقًا وطاعةً، كما تَقدَّم، واستسلَمَ لقضائه وقَدَرِهِ فلم يتَّهِمْهُ ، ولم يُنازِعْهُ ، ولم يتسخَّطْ[1] لأقدارِهِ ، فأسلَمَ لربِّه انقيادًا وخضوعًا، وذُلًّا وعبوديَّةً، وسلَّم جميعَ أحوالِهِ وأقوالِهِ وأعمالِهِ وأذواقِه ومواجيدِهِ

---

(١) في « الأصل » : « يسخط » .

ظاهرًا وباطنًا من مِشكاة رسولهِ، وعَرْضِ ما جاءَ مِن سواها عليها؛ فما وافَقها قَبِلَهُ، وما خالَفها ردَّهُ، وما لم يتبيَّن له فيه مُوافقةٌ ولا مخالفةٌ وقّفَ أمرَهُ وأرجأهُ إلى أن يتبيَّنَ له، وسالَم أولياءَه وحِزبَه المُفلحين الذَّابِّين عن دينه وسنَّةِ نبيِّهِ، والقائمينَ بها، وعادى أعداءَه المُخالِفين لكتابهِ وسنَّةِ نبيِّه الخارجين عنهما، الدَّاعينَ إلى خلافِهما .

□ □ □ □ □

٦ - فَصلٌ :

[التلاوةُ هي الاتِّباعُ]

وهذه المُتابَعةُ هي التلاوَةُ التي أثنى اللَّهُ على أهلِها في قولِه تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ يَتلونَ كتابَ اللهِ ﴾ [فاطر : ٢٩]، وفي قولِه : ﴿ الَّذينَ آتيناهُم الكتابَ يَتلونَهُ حقَّ تِلاوَتِهِ ﴾ [البقرة : ١٢١]، [والمعنى: يتَّبعونَ كتابَ اللَّهِ حقَّ اتِّباعه، وقال تعالى: ﴿ اتْلُ ما أُوحيَ إليكَ مِن الكتاب ﴾ [العنكبوت : ٤٥]][(١)]، وقال : ﴿ إنَّما أُمِرْتُ أَن أعبُدَ ربَّ هذه البَلدَةِ الذي حرَّمها وله كلُّ شيءٍ وأُمِرتُ أنْ أكونَ من المُسلمين وأن أتلُوَ القُرآنَ ﴾ [النحل : ٩٠ - ٩٢] .

فحقيقةُ التِّلاوَةِ في هذه المَواضِعِ هي التِّلاوَةُ المُطلَقَةُ التَّامَّةُ، وهي تلاوَةُ اللَّفظِ والمعنى؛ فتلاوَةُ اللفظِ جزءُ مُسمَّى التِّلاوَةِ المُطْلَقَةِ ، وحقيقةُ اللفظِ إنَّما هي الاتِّباعُ ، يقال : اتْلُ[(٢)] أثَر فلانٍ ، وتلوتُ أثَرهُ ، وقفوتُهُ وقصصتُهُ ، بمعنى تَبعتُهُ خلفهُ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ والشمسِ وضُحاها والقَمرِ إذا تَلاها ﴾ [الشمس : ١ - ٢]، أي : تَبعَها في الطُّلوع بعدَ غَيْبتِها ، ويُقال : جاءَ القومُ يتلو بعضُهم بعضًا، أي : يتَّبع، ويُسمَّى تالي الكلام تاليًا لأنَّهُ يُتْبِعُ بعضَ الحروف بعضًا، لا يُخرِجُها جُملةً واحدَةً ، بل يُتْبِعُ بَعضَها بعضًا مُرتَّبةً ، كُلَّما انقضى

---

(١) ساقط من « المطبوع » !

(٢) انظر « القاموس المحيط » (١٦٣٤) ، و « الصحاح » (٧٩ - مختاره) .

حرفٌ أو كلمةٌ أتبعَهُ بحرفٍ آخرَ وكلمةٍ أُخرى، وهذه التِّلاوَةُ وسيلةٌ وطريقٌ[١].

والمقصودُ التِّلاوَةُ الحقيقيَّةُ وهي تلاوَةُ المَعنى واتِّباعُهُ ؛ تَصديقًا بخبرِهِ وائتمارًا بأمرِهِ، وانتهاءً عن نهيِهِ، وائتمامًا به، حيثُ ما قادكَ انقَدْتَ معه، فتلاوَةُ القُرآنِ تتناوَلُ تلاوَةَ لفظِهِ ومعناهُ، **وتلاوَةُ المَعنى أشرفُ من مُجرَّد تلاوَةِ اللفظِ**[٢]، وأهلُها هم أهلُ القُرآن الذين لهم الثَّناءُ في الدُّنيا والآخرَةِ، فإنَّهم أهلُ تلاوَةٍ ومُتابَعَةٍ حقًّا .

□□□□□

---

(١) في « المطبوع » : « وطريقة » .

(٢) وهذا ما قصَّر به - اليومَ - جماهيرُ القُرّاء ، فضلًا عن عُمومِ المُسلمين .

٧ - فَصلٌ :
[معنى الذِّكْر]

ثمَّ قال تعالى : ﴿ ومَن أعرَضَ عن ذِكري فإنَّ لهُ مَعيشةً ضَنكًا ونحشُرُهُ يومَ القيامَةِ أعمى ﴾ [طه : ١٢٤]، لمّا أخبرَ سبحانهُ عن حالِ مَن اتَّبعَ هداهُ في مَعاشهِ ومَعادهِ أخبرَ عن حالِ مَن أعرَضَ عنه ولم يَتَّبِعْهُ، فقال : ﴿ وَمَن أعْرَضَ عَن ذِكْري فإنَّ لهُ مَعيشَةً ضَنكًا ﴾، أي : عن الذِّكرِ الذي أنزلَه[1]، فالذِّكرُ هنا مصدرٌ مُضافٌ إلى الفاعلِ، كـ (قِيامي) و (قِراءَتي) ، لا إلى المفعول، وليسَ المعنى: (ومَن أعرَضَ عن أن يذكُرَني) ، بل هذا لازمُ المعنى ومقتضاه من وجهٍ آخَرَ سنذكُرهُ .

وأحسنُ من هذا الوجهِ أن يُقالَ : الذِّكرُ هنا مُضافٌ إضافةَ الأسماءِ ، لا إضافَةَ المصادر إلى معمولاتها، والمعنى: (ومن أعرَضَ عن كتابي ولم يَتَّبعْهُ)، فإنَّ القُرآن يُسمَّى ذكرًا ؛ قال تعالى : ﴿ وهذا ذِكرٌ مُبارَكٌ أنزلناه ﴾ [الأنبياء : ٥٠]، وقال تعالى : ﴿ ذلكَ نَتلوهُ عليكَ من الآياتِ والذِّكرِ الحَكيم ﴾ [آل عمران : ٥٨] وقال تعالى : ﴿ إنْ هوَ إلّا ذِكرٌ للعالَمين ﴾ [يوسف : ١٠٤]، وقال تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ كَفَروا بالذِّكرِ لَمَّا جاءهُم وإنَّهُ

(١) في « المطبوع » : « أنزلته » .

لكتابٌ عزيزٌ ﴾ [فصلت : ٤١]، وقال تعالى : ﴿ إنَّما تُنذِرُ مَن اتَّبعَ الذِّكرَ وخَشيَ الرَّحمنَ ﴾ [يس : ١١] .

وعلى هذا ، فإضافتُهُ كإضافَةِ الأسماءِ الجوامِدِ التي لا يُقصَدُ بها إضافَةُ العاملِ إلى معمولِهِ، ونظيرُهُ في إضافَةِ اسم الفاعلِ : ﴿ غافِرِ الذَّنبِ وقابِلِ التَّوبِ شديدِ العقابِ ﴾ [غافر : ٣]، فإنَّ هذه الإضافاتِ لم يُقْصَدْ بها قصدُ الفعلِ المُتجدِّد، وإنَّما قُصِدَ بها قصدُ الوصفِ الثَّابتِ اللازمِ، وكذلك جَرَتْ أوصافًا على أعرفِ المعارفِ - وهو اسمُ اللَّه تباركَ وتعالى - في قولهِ تعالى : ﴿ تنزيلُ الكتابِ منَ اللهِ العَزيزِ العليمِ غافِرِ الذَّنبِ وقابلِ التَّوبِ شديدِ العقابِ ذي الطَّوْلِ لا إلهَ إلّا هوَ إليهِ المَصيرُ ﴾ .

□□□□□

٨ - فَصلٌ :

[المُعرِضون عن الذِّكْرِ]

وقولُهُ تعالى : ﴿ فإنَّ لهُ مَعيشةً ضَنْكًا ﴾ فسَّرها غيرُ واحدٍ من السَّلَفِ بعذابِ القَبرِ[١]، وجعلوا هذه الآيَةَ أحدَ الأدلَّةِ الدَّالَّةِ على عذابِ القَبرِ ولهذا قال: ﴿ ونحشُرُهُ يومَ القِيامَةِ أعمى قال ربِّ لِمَ حَشَرْتَني أعمى وقَد كُنتُ بَصيرًا قال كذلكَ أتَتْكَ آياتُنا فَنَسِيتَها وكذلكَ اليومَ تُنسى ﴾ أي : تُترَكُ في العذابِ، كما تَرَكْتَ العملَ بآياتِنا، فذكرَ عذابَ البَرزَخِ، وعذابَ دارِ البوارِ .

ونظيرُهُ قولُهُ تعالى في حقِّ آل فِرعَون : ﴿ النَّارُ يُعرَضونَ عليها غُدُوًّا وعَشِيًّا ﴾ [غافر : ٤٦]، فهذا في البرزَخِ : ﴿ ويومَ تَقومُ السَّاعةُ أَدخِلوا آلَ فِرعَونَ أشدَّ العذاب ﴾ [غافر : ٤٦]، فهذا في القيامَة الكُبرى .

ونظيرُهُ قولُهُ تعالى : ﴿ وَلو تَرى إذِ الظَّالِمونَ في غَمَراتِ المَوتِ والملائكَةُ باسِطو أيديهِم أَخْرِجوا أنفُسَكُم اليومَ تُجزَونَ عَذابَ الهُونِ بما كُنتُم تقولُون على اللهِ غَيرَ الحقِّ وكنتُم عن آياتهِ تَستكبرونَ ﴾ [الأنعام : ٩٣] ، فقولُ الملائكَةِ : ﴿ اليومَ تُجزَونَ عَذابَ الهُونِ ﴾ المُرادُ به

---

(١) انظر « تفسير ابن جرير » (٢٠٧٧١) ، و « إثبات عذاب القبر » (رقم ٩) ، و « مصنف عبدالرزاق » (٦٧٤١) ، و « الدر المنثور » (٤ / ٣١١) .

عذابُ البرزَخ[١]، الذي أوَّلُه يومُ القَبض والمَوتِ .

ونظيرُهُ قولُه تعالى: ﴿ وَلو تَرى إذ يَتوفَّى الَّذينَ كَفَروا الملائكَةُ يَضرِبونَ وُجوهَهُم وأدبارَهُم وذوقوا عَذابَ الحريق ﴾ [الأنفال : ٥٠]، فهذه الإذاقَةُ هي في البَرزَخِ، وأوَّلُها حينَ الوفاة، فإنَّهُ معطوفٌ على قولِهِ : ﴿ يَضرِبونَ وُجوهَهُم وأدبارَهُم ﴾، وهو من القولِ المحذوفِ مَقُولُه[٢] لدلالةِ الكلامِ عليه، كنظائرِهِ، وكلاهما واقعٌ وقتَ الوفاة .

وفي « الصَّحيح »[٣] عن البراءِ بن عازبٍ رضيَ اللَّهُ عنهُ في قولِه تعالى : ﴿ يُثبِّتُ اللهُ الَّذينَ آمَنوا بالقَولِ الثَّابتِ في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧]، قال: نَزلتْ في عذابِ القبرِ .

والأحاديثُ في عذابِ القَبرِ تكادُ تبلُغُ حدَّ التَّواتُر .

والمقصودُ أنَّ اللَّهَ سبحانهُ أخبَرَ أنَّ مَن أعرَضَ عن ذِكرِهِ - وهو الهُدى الذي مَن اتَّبعهُ لا يَضِلُّ ولا يَشقى - فإنَّ له معيشَةً ضَنكًا، وتكفَّلَ لمَن حَفِظَ عَهدَهُ أن يُحيِيَهُ حياةً طيِّبةً ويجزيَهُ أجرَهُ في الآخِرَةِ، فقال تعالى : ﴿ مَن عَمِلَ صالحًا مِن ذَكرٍ أو أُنثى وهو مؤمنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حياةً طيِّبةً ولَنجزِيَنَّهُم أجرَهُم بأحسَنِ ما كانوا يَعمَلون ﴾ [النحل : ٩٧] .

فأخبَرَ سبحانهُ عن فلاحِ مَن تمسَّكَ بعهدهِ عِلمًا وعَملًا في العاجلَةِ بالحياةِ الطيِّبَةِ، وفي الآخرَةِ بأحسَنِ الجزاءِ، وهذا بعكسِ مَنْ له المعيشَةُ الضَّنكُ في

---

(١) انظر « إثبات عذاب القبر » (ص ٨٦) .

(٢) في « الأصل » : « قوله » .

(٣) رواه البخاري (١٣٦٩) ، ومسلم (٢٨٧١) .

الدُّنيا والبَرزَخِ ، ونسيانُهُ في العذابِ بالآخرَة .

وقال سُبحانه : ﴿ ومَن يَعْشُ عَن ذِكرِ الرَّحمن نُقَيِّضْ له شيطانًا فهو له قرينٌ وإنّهم لَيَصُدُّونهم عن السَّبيلِ ويَحسَبُونَ أنّهم مُهتَدون ﴾ [الزخرف : ٣٦]، فأخبرَ سُبحانه أنَّ مَن ابتلاهُ بقرينهِ من الشياطين وضلالِه به، إنَّما كان بسبَبِ إعراضِهِ وعَشْوِهِ عن ذكرِهِ الذي أنزلَهُ على رسولِهِ، فكانَ عقوبَةُ هذا الإعراضِ أنْ قيَّضَ له شيطانًا يُقارِنُهُ فيصُدُّهُ عن سبيلِ ربِّهِ وطريقِ فلاحِهِ، وهو يحسبُ أنَّهُ مُهتَدٍ ، حتى إذا وافى ربَّه يومَ القيامَة مَع قرينهِ، وعايَنَ هلاكَهُ وإفلاسَهُ ، قال : ﴿ يا لَيتَ بيني وَبَينَكَ بُعدَ المشرقَين فبئسَ القَرين ﴾ [الزخرف : ٣٨] .

وكُلُّ مَن أعرَضَ عن الاهتداء - بالوَحي الذي هو ذِكْرُ اللَّهِ - فلا بدَّ أن يقولَ هذا يومَ القيامَة .

فإنْ قيلَ : فهل لهذا عُذرٌ في ضلالِه إذا كان يحسبُ أنَّهُ على هُدًى ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَحسَبونَ أنّهم مُهتَدون ﴾ [الزخرف : ٣٦] ؟!

قيل : لا عُذرَ لهذا وأمثالِه من الضُّلّالِ الذين منشأُ ضلالِهم الإعْراضُ عن الوَحيِ الذي جاءَ به الرَّسولُ ﷺ ، ولو ظنَّ أنّه مُهتَدٍ فإنّه مُفرِّطٌ بإعْراضِهِ عن اتِّباعِ داعي الهُدى ، فإذا ضلَّ فإنَّما أُتيَ من تَفريطِهِ وإعراضِهِ، وهذا بخلافِ من كان على ضلالةٍ لِعَدَم[1] بُلوغِ الرِّسالَة وعجزِهِ عن الوصول إليها، فذاك له حُكمٌ آخرُ، والوَعيدُ في القرآن إنَّما يتناولُ الأوَّل، وأمَّا الثَّاني : **فإنَّ اللَّه لا يُعذِّبُ أحدًا إلّا بعدَ إقامَةِ الحُجَّةِ عليه** ، كما قال تعالى : ﴿ وَما كُنَّا مُعذِّبين حتى

---

(١) في « المطبوع » : « ضلاله بعدم » .

نَبعثَ رَسولًا ﴾ [الإسراء : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ رُسُلًا مُبشِّرين ومُنذِرين لئلّا يكونَ للنَّاسِ على اللهِ حُجَّةٌ بعدَ الرُّسل ﴾ [النساء : ١٦٥] .

وقال تعالى في أهلِ النَّار : ﴿ وما ظَلَمْناهُم ولكنْ كانوا هُم الظَّالمينَ ﴾ [النحل : ١١٨] .

وقال تعالى : ﴿ أن تَقولَ نَفسٌ يا حَسرَتى على ما فرَّطتُ في جَنْبِ اللهِ وإنْ كنتُ لمِنَ السَّاخرين أو تقولَ لَو أنَّ الله هَداني لكُنتُ من المُتَّقين أو تقولَ حينَ تَرى العذابَ لو أنَّ لي كرَّةً فأكونَ من المُحْسِنين بلى قد جاءتكَ آياتي فَكَذَّبتَ بِها واستَكبَرتَ وكُنتَ مِن الكافرينَ ﴾ [الزمر : ٥٦ - ٥٩] ...

وهذا كثيرٌ في القُرآن .

□□□□□

٩ - فَصلٌ :
[عمى البَصَر أم البصيرة ؟]

وقولُهُ تعالى : ﴿ ... ونَحشُرُهُ يومَ القِيامَةِ أعمى قالَ ربِّ لِمَ حَشَرْتَني أعمى وقَد كُنتُ بَصيرًا ﴾ [طه ١٢٤ - ١٢٥]، اختُلفَ فيه: هل هو مِن عمى البصيرَة أو من عمى البَصَر ؟

والذين قالوا : هو مِن عمى البَصيرَة، إنَّما حَمَلَهُم على ذلك قولُهُ : ﴿ أسْمِع بِهِم وأَبْصِر يومَ يأتونَنا ﴾ [مريم : ٣٨]، وقولُهُ : ﴿ لقد كُنتَ في غَفلةٍ من هذا فكَشَفْنا عنكَ غِطاءَكَ فبصَرُكَ اليومَ حَديدٌ ﴾ [ق : ٢٤]، وقولُهُ : ﴿ يومَ يَرَوْنَ الملائكةَ لا بُشرى يومئذٍ للمُجرمين ﴾[الفُرقان : ٢٢]، وقولُهُ : ﴿ لتَرَوُنَّ الجَحيمَ ثمَّ لتَرَوُنَّها عينَ اليَقين ﴾ [التكاثر : ٦ - ٧] .

ونظائرُ هذا مِمَّا يُثبِتُ لهم الرُّؤيَةَ في الآخرَةِ ، كقولِهِ تعالى : ﴿ وَتَراهُم يُعرَضونَ عليها خاشعينَ منَ الذُّلِّ يَنظُرونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ [الشورى : ٤٥]، وقولِه : ﴿ يومَ يُدَعُّونَ إلى نارِ جَهَنَّم دعًّا هذه النَّارُ التي كنتُم بها تُكذِّبون أفَسِحْرٌ هذا أم أنتُم لا تُبصِرون ﴾ ، وقولِه : ﴿ ورأى المُجرمونَ النَّارَ فَظَنُّوا أنَّهم مُواقِعُوها ﴾ [الكهف : ٥٣] .

والذين رجَّحوا أنَّهُ مِن عمى البَصَر ، قالوا : السِّياقُ لا يَدُلُّ إلّا عَليه ، لقولِه[1] : ﴿ قال ربِّ لم حَشَرْتَني أعمى وقَد كُنتُ بَصيرًا ﴾ [طه : ١٢٥]،

---

(١) في « الأصل » : « كقوله » ، ولعلّ ما أثبتُّ هو الصواب ، وهي ساقطةٌ من =

وهو لم يكُن بَصيرًا في كُفرِهِ قطُّ، بل قد تبيَّن له حينئذٍ أنَّهُ كانَ في الدُّنيا في عمًى عن الحقِّ، فكيفَ يقولُ: وقد كنتُ بَصيرًا ؟! وكيفَ يُجابُ بقولِه : ﴿ كذلك أَتَتكَ آياتُنا فَنَسيتَها وكذلك اليومَ تُنسى ﴾ ؟!

بل هذا الجوابُ فيه تنبيهٌ على أنَّهُ من عمى البَصَر، **وأنَّه جُوزِيَ مِن جنسِ عملِه**، فإنَّهُ لمَّا أعرَضَ عَن الذِّكر الذي بَعثَ اللَّهُ بِهِ رسولَهُ، وعُمِّيت عنهُ بَصيرتُهُ، أعمى اللَّهُ بَصَرَهُ يومَ القيامَةِ، وتَرَكَهُ في العَذابِ كما تَرَكَ الذِّكْرَ في الدُّنيا، فجازاهُ على عمى بَصيرتهِ عمى بصرِهِ في الآخرَةِ، وعلى تَرْكهِ ذِكرَهُ تَرْكَهُ في العَذابِ .

وقال تعالى : ﴿ ومَن يَهْدِ الله فَهوَ المُهتَدِ ومَن يُضلِلْ فَلَن تَجِد لهُم أولياءَ مِن دُونهِ ونحشُرُهم يومَ القيامَةِ على وُجوهِهِم عُمْيًا وبُكمًا وصُمًّا ﴾ [الإسراء : ٩٧]، وقد قيلَ في هذه الآيَةِ أيضًا : إنَّهم عُميٌ وبُكمٌ وصُمٌّ عن الهُدى، كما قيلَ في قولِهِ : ﴿ ونحشُرُهُ يومَ القيامَةِ أعمى ﴾، قالوا: لأنَّهم يتكلَّمونَ يومئذٍ، ويَسمعونَ ويُبصرونَ .

ومَن نصرَ أنَّ العمى والبَكَمَ والصَّمَمَ المُضادَّ للبَصرِ والسَّمعِ والنُّطقِ، قال بَعضُهم: هو عمًى وصَممٌ وبَكَمٌ مُقيَّدٌ لا مُطلَقٌ، فهم عُميٌ عن رؤيَةِ ما يسرُّهُم وسماعِه، ولهذا قد رُويَ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللَّهُ عنهُما قال: « لا يَرَونَ شيئًا يسُرُّهُم »(١).

وقالَ آخرونَ : هذا الحَشرُ حينَ تتوفَّاهم الملائكَةُ يَخْرُجونَ من الدُّنيا

= « المطبوع » .

(١) قارن بـ « الدر المنثور » (٥ / ٦٠٩ - ط ٢٠) .

كذلك، فإذا قاموا من قُبورهم إلى الموقفِ قاموا كذلك، ثمَّ إنَّهُم يَسمعونَ ويُبصِرونَ فيما بعدُ، وهذا مرويٌّ عن الحَسَن .

وقال آخَرونَ: هذا إنَّما يكونُ إذا دَخلوا النَّارَ واستَقرُّوا فيها سُلبوا الأسماعَ والأبصارَ والنُّطقَ حينَ يقولُ لهم الربُّ تبارك وتعالى : ﴿ اخْسَؤُوا فيها ولا تُكلِّمونِ ﴾ [المؤمنون : ١٠٨]، فحينئذٍ ينقطعُ الرَّجاءُ، وتَبكَمُ عقولُهم، فيصيرونَ بأجمعِهم عُمْيًا بُكمًا صُمًّا ؛ لا يُبصِرونَ ولا يَسمعونَ ولا يَنطِقونَ، ولا يُسْمَعُ منهم بعدَها إلّا الزَّفيرُ والشهيقُ.

وهذا منقولٌ عن مُقاتل .

والذين قالوا: المُرادُ به العمى عن الحُجَّة، إنَّما مُرادهم أنَّهم لا حُجَّةَ لهم ، ولم يُريدوا أنَّ لهم حُجَّةً هم عُميٌ عنها ، بل هم عُميٌ عن الهُدى ، كما كانوا في الدُّنيا، فإنَّ العَبدَ يموتُ على ما عاشَ عليهِ، ويُبعَثُ على ما ماتَ عليهِ .

وبهذا يظهَرُ أنَّ الصَّوابَ هو القولُ الآخِرُ، وأنَّهُ عمى البَصرِ؛ فإنَّ الكافرَ يعلمُ الحقَّ يومَ القيامَةِ عِيانًا ، ويُقِرُّ بما كان يجحدُهُ في الدُّنيا ، فليسَ هو أعمى عن الحقِّ يومئذٍ .

وفصلُ الخطابِ أنَّ الحشرَ هو الضَّمُّ والجمعُ ، ويُرادُ به تارَةً الحشرُ إلى موقفِ القيامَةِ ، لقولِ النَّبيِّ ﷺ : « إنَّكُم محشورونَ إلى اللَّهِ حُفاةً عُراةً غُرلًا »(١)، وكقولِه تعالى : ﴿ وإذا الوُحوشُ حُشِرَت ﴾ [التكوير : ٥] ، وكقولِه تعالى : ﴿ وحَشرناهُم فلم نُغادِرْ منهم أحدًا ﴾ [الكهف : ٤٧] ، ويُرادُ به

---

(١) رواه البخاري (٤٥٢٧) ، ومسلم (٢٨٦٠) عن عائشة .
وفي الباب عن عدّةٍ من الصحابة .

الضَّمُّ والجمعُ إلى دارِ المستَقرِّ، فحشرُ المتَّقين: جمعُهم وضمُّهم إلى الجنَّةِ، وحشرُ الكافرين : جمعُهم وضمُّهم إلى النَّار .

قال تعالى : ﴿ يومَ نحشرُ المُتَّقينَ إلى الرَّحمنِ وَفدًا ﴾ [مريم : ٨٥]، وقال تعالى : ﴿ احشُروا الَّذينَ ظَلموا وأزواجَهم وما كانوا يَعبُدونَ من دُونِ الله فاهْدُوهُم إلى صراطِ الجَحيمِ ﴾ [الصافّات : ٢٢]، فهذا الحشرُ هو بعدَ حشرِهم إلى الموقِفِ، وهو حشرُهم وضمُّهم إلى النَّارِ؛ لأنَّهُ قَد أخبَرَ عنهم أنَّهم: ﴿ قالوا يا وَيلَنا هذا يومُ الدِّين هذا يومُ الفَصلِ الذي كُنتم به تُكذِّبونَ ﴾ [الصافات : ٢٠ - ٢١] .

ثم قال تعالى : ﴿ احْشُروا الَّذينَ ظَلَموا وأزواجَهُم ﴾ وهذا[1] الحشرُ الثَّاني، وعلى هذا فَهُمْ ما بينَ الحشرِ الأوَّلِ من القُبورِ إلى المَوقِف، والحشرِ الثَّاني من الموقفِ إلى النَّارِ؛ فعندَ الحشرِ الأوَّلِ يسمعونَ ويُبصِرونَ ويُجادلونَ ويتكلَّمونَ، وعندَ الحشرِ الثَّاني يُحْشَرونَ على وُجوهِهِم عُميًا وبُكمًا وصُمّاً.

فلكُلِّ موقفٍ حالٌ يليقُ به، ويَقتَضيهِ عدلُ الرَّبِّ تباركَ وتعالى وحكمتُهُ، فالقرآنُ يُصَدِّقُ بعضُهُ بعضًا : ﴿ ولو كانَ مِن عندِ غَيرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيهِ اختلافًا كثيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

□□□□□

(١) في « الأصل » : « وهو » .

١٠ - فَصلٌ :

[العلمُ والإِرادة]

والمَقصودُ أنَّ اللَّهَ سبحانهُ وتعالى لمّا اقتَضَتْ حِكمتُهُ ورحمتُهُ إخراجَ آدمَ وذُرِّيَّتِهِ من الجنَّةِ أعاضَهُم أفضلَ منها ، وهو ما أعطاهُم مِن عَهدِهِ الذي جَعَلَهُ سببًا مُوصِلًا لهم إليه ، وطريقًا واضحًا بيِّنَ الدَّلالةِ عليه ؛ مَن تمسَّكَ به فازَ واهتَدى ، ومَن أعرَضَ عنهُ شَقِيَ وغَوى .

ولمّا كان هذا العَهدُ الكريمُ والصِّراطُ المُستقيمُ والنَّبأُ العظيمُ لا يُوصَلُ إليه أبدًا إلّا مِن بابِ العلمِ والإرادَةِ؛ **فالإرادَةُ** بابُ الوصولِ إليه، **والعلمُ** مِفتاحُ ذلك البابِ المتوقِّفِ فتحُهُ عليه .

وكمالُ كلِّ إنسانٍ إنَّما يَتِمُّ بهذين النَّوعين، **هِمَّةٌ تُرقِّيهِ** ، **وعلمٌ يُبَصِّرهُ ويَهديهِ**؛ فإنَّ مراتبَ السَّعادَةِ والفَلاحِ إنَّما تفوتُ العَبدَ من هاتَين الجهتَين، أو مِن إحداهُما، إِمَّا أنْ لا يكونَ له علمٌ بها ، فلا يتحرَّكُ في طَلَبِها، أو يكونَ عالمًا بها ولا تنهَضُ همَّتُهُ إليها ، فلا يَزالُ في حضيضِ طَبعِهِ محبوسًا، وقلبُهُ عن كمالِهِ الذي خُلِقَ له مصدودًا منكوسًا، قد أسامَ نفسَهُ مع الأنعامِ راعيًا مع الهَمَلِ، واستطابَ لُقَيماتِ الرَّاحَةِ والبطالَةِ، واستَلانَ فِراشَ العجزِ والكَسَلِ، لا كَمَن رُفِعَ له عَلَمٌ فشمَّرَ إليه، وبُورِكَ له في تفرُّدِهِ في طريقِ طلبِهِ، فَلَزِمهُ واستقامَ عليه، قَد أَبَتْ غَلَباتُ شوقِهِ إلّا الهجرَةَ إلى اللَّهِ ورسولِهِ، ومَقَتَتْ نفسُهُ الرُّفقاءَ إلّا

ابنَ سبيلٍ يُرافِقهُ في سبيلهِ .

ولمّا كانَ كمالُ الإرادةِ بحسبِ كمالِ مُرادها - **وشَرفُ العلمِ تابعٌ لشرفِ معلومهِ** - كانت نهايةُ سعادةِ العَبدِ - الذي لا سعادَةَ له بدونها، ولا حياةَ له إلّا بها - أن تكونَ إرادتُهُ مُتعلِّقَةً بالمرادِ الذي لا يَبلى ولا يَفوتُ، وعَزَماتُ هِمَّتهِ مُسافرَةً إلى حضرَةِ الحيِّ الذي لا يموتُ، ولا سبيلَ له إلى هذا المطلبِ الأسنى والحظِّ الأوفى، إلّا بالعلمِ الموروثِ عن عبدهِ ورسولهِ وخليلهِ وحبيبهِ الذي بَعثَهُ لذلكَ داعيًا، وأقامَهُ على هذا الطَّريقِ هاديًا، وجَعلهُ واسطةً[١] بينَهُ وبينَ الأنامِ، وداعيًا لهم بإذنهِ إلى دارِ السَّلامِ، وأبى سبحانهُ أن يفتحَ لأحدٍ منهم إلّا على يديهِ، أو يَقْبَلَ من أحدٍ منهم سعيًا إلّا أن يكونَ مُبتدئًا منه ومُنتهيًا إليه، فالطُّرقُ كلُّها إلّا طَريقَهُ ﷺ مسدودةٌ، والقلوبُ بأسرِها إلّا قلوبَ أتباعهِ المُنقادَةَ إليه عن اللّهِ محبوسةٌ مصدودةٌ .

فَحُقَّ على مَن كانَ في سعادَةِ نفسهِ ساعيًا، وكان قلبهُ حيًّا عن اللّهِ واعيًا أن يجعلَ على هذين الأصلينِ مدارَ أقوالهِ وأعمالهِ ، وأن يُصَيِّرَها آخِيَّتَهُ[٢] التي إليها مَفزعُهُ في حياتهِ ومآلهِ، فلا جَرَمَ كان وَضعُ هذا الكتاب مُؤسَّسًا على هاتينِ القاعدَتين، ومقصودُهُ التَّعريفَ بشرفِ هذين الأصلين ، وسمَّيتُهُ « **مِفتاحَ دارِ السَّعادَةِ ومنشورَ وَلَايَةِ[٣] أَهْلِ العلمِ والإرادَةِ** »؛ إذ كانَ هذا من بعضِ النُّزُلِ[٤]

---

(١) واسطَةَ تبليغٍ ودعوةٍ وهدايةٍ .

(٢) الآخِيّة : هي مثلُ عُروةٍ تُشَدُّ إليها الدابّةُ .

(٣) « بفتحات ثلاث » ، قاله الشيخ بكر أبو زيد في « ابن القيِّم حياته وآثاره » (ص ٣٠٠ - ط ٢) .

(٤) العطاء .

والتُّحفِ التي فتحَ اللَّهُ بها عَلَيَّ حينَ انقطاعي إليه عندَ بيتِهِ، وإلقائي نفسي ببابهِ مِسكينًا ذليلًا، وتعرُّضي لِنَفحاتِهِ في بيتِهِ، وحولَه بكرَةً وأصيلًا، فما خابَ من أنزلَ به حوائجَهُ، وعلَّقَ به آمالَهُ، وأصبَحَ ببابِهِ مُقيمًا، وَبِحِماهُ نزيلًا .

ولمّا كان العِلمُ إمامَ الإرادَةِ، ومُقدَّمًا عليها، ومُفصِّلًا لها، ومُرشِدًا لها قَدَّمْنا الكلامَ عليه على الكلامِ على المحبَّةِ .

ثمّ نُتبِعُهُ - إن شاءَ اللَّهُ بعدَ الفراغِ منه - كتابًا في الكلامِ على المحبَّةِ[1] وأقسامِها، وأحكامِها، وفوائدِها، وثمراتِها، وأسبابِها، وموانِعها، وما يُقوِّيها، وما يُضعِفُها، والاستدلالِ بسائرِ طُرُقِ الأدلَّةِ من النَّقلِ والعقلِ والفِطرَةِ والقياسِ والاعتبارِ والذَّوقِ والوجدِ[2] على تعلُّقها بالإلهِ الحقِّ الذي لا إلهَ غيرُهُ، بل لا يَنبَغي أن تكونَ إلّا له، ومِن أجلِهِ، والرَّدِّ على مَن أنكَرَ ذلك، وتبيينِ فسادِ قولِهِ عقلًا ونقلًا ، وفطرَةً وقياسًا ، وذوقًا ووجدًا .

فهذا مضمونُ هذه التُّحفَةِ، وهذه عرائسُ معانيها الآن تُجْلَى[3] عليكَ، وخُودُ[4] أبكارِها البَديعَةِ الجمالِ تَرْفُلُ في حُلَلِها وهي تُزَفُّ إليكَ، فإمَّا شمسٌ منازِلُها بسعدِ الأسعَدِ، وإمَّا خُودٌ تُزَفُّ إلى ضريرٍ مُقعَدٍ، فاختَرْ لنفسِكَ إحدى الخُطَّتين ، وأنزِلْها فيما شئتَ من المنزلتين، **ولا بدَّ لكلِّ نعمَةٍ من حاسِدٍ، ولكلِّ**

---

(١) وللمصنِّف رحمه اللَّه كتابُ « روضة المحبّين » ، فلعلَّه هو الذي أشارَ إلى تأليفه هنا ، وهو مطبوعٌ في مجلَّد كبير .

(٢) إشارة من المصنِّف رحمه اللَّه إلى أذواق الصوفيّة ومواجيدهم التي يضعونها في غير مواضعها، ويصرفونها إلى غير جهتها الحقّة .

(٣) أي : تنظر إليها .

(٤) مُفردها: خَوْد، وهي الناعمة الشابة .

حقٍّ من جاحدٍ ومعاندٍ .

هذا ، وإنَّ ما أُودِعَ من المعاني والنَّفائسِ رَهْنٌ عند متأمِّلِهِ ومُطالعِهِ ، له غُنْمُهُ وعلى مُؤلِّفهِ غُرْمُهُ، وله ثمرتُهُ ومنفعتُهُ ولصاحبِهِ كَدَرُهُ ومشقَّتُهُ مع تعرُّضهِ لمطاعنِ الطَّاعنين، ولاعتراضِ المناقشين .

وهذه بضاعتهُ المُزجاةُ وعقلُهُ المكدودُ يُعرَضُ على عقولِ العالَمينَ، وإلْقاؤهُ نفسَه وعِرضَهُ بين مخالبِ الحاسدين، وأنيابِ البُغاةِ المُعتدين .

فلكَ أيُّها القارئُ صَفوُهُ ، ولمؤلِّفهِ كَدرُهُ - وهو الذي تجشَّمَ غِراسَهُ وتَعبَهُ - ولك ثمرُهُ، وها هو قد استُهدِفَ لسهام الرَّاشقين، واستَعذرَ إلى اللَّهِ من الزَّللِ والخطأِ، ثمَّ إلى عبادهِ المُؤمنين .

اللـهـمَّ فعياذًا ممَّن قَصُرَ في العلمِ والدِّينِ باعُهُ، وطالَتْ في الجَهلِ وأَذى عبادِكَ ذراعُهُ، فهو لجهلهِ يرى الإحسانَ إساءَةً، والسُّنَّةَ بدعَةً، والعُرفَ نُكرًا، ولِظُلمهِ يَجزي بالحسنةِ سيِّئةً كاملةً، وبالسَّيِّئةِ الواحدَةِ عشرًا، قد اتَّخذَ بَطْرَ الحقِّ وغَمْطَ النَّاسِ[١] سُلَّمًا إلى ما يُحبُّهُ من الباطلِ ويَرضاهُ، ولا يَعرفُ من المَعروفِ ولا يُنكِرُ من المُنكرِ إلَّا ما وافقَ إرادتَهُ أو حالَفَ هواهُ، يَستطيلُ على أولياء الرَّسول وحزبِهِ بأصغريهِ[٢]، ويُجالسُ أهلَ الغيِّ والجهالةِ ويُزاحِمُهم بركبتيهِ[٣] ، قد ارتَوى من ماءٍ آجِنٍ[٤] وتضلَّعَ ، واستشرفَ إلى مراتبِ وَرثةِ

(١) وهو الكِبْرُ الذي بيَّنه الرَّسول ﷺ ، وحذَّر منه، ونفَّر عنه ، كما رواه مسلم (٩١) عن ابن مسعود .

(٢) وهما القلبُ واللِّسان .

(٣) ومِن هذا الصِّنْف كثيرٌ ! لا يزال (بعضُهم) بالعلمِ مُتَستِّرين ، وبالسُّنةِ مُتَلَفِّعين ، تغطيةً لحالهم ، وتمويهًا على أَتْباعِهم .

(٤) هو الماء المتغير الطعم واللون .

الأنبياءِ وتطلَّعَ، يركُضُ في ميدانِ جهلهِ مع الجاهلين، ويبرُزُ عليهم في الجهالةِ فيظنُّ أنَّهُ من السَّابقين، وهو عندَ اللَّهِ ورسولهِ والمؤمنين عن تلكَ الوراثَةِ النَّبويَّةِ بمعزِل، وإذا أُنزِلَ الوَرَثةُ منازلَهُم منها فمنزلتُهُ منها أقصى وأبعَدُ مَنزِل .

نَزَلوا بِمَكَّةَ في قبائلِ هاشمٍ وَنَزَلْتَ بالبَيداءِ أبعَدَ مَنزِلِ

وعياذًا بِكَ ممَّن جعلَ الملامَةَ بضاعتَهُ، والعَذْلَ نصيحتَهُ، فهو دائمًا يُبدي في الملامَةِ ويُعيد ، ويُكرِّرُ على العَذْلِ فلا يُفيد ولا يَستفيد .

بل عياذًا بكَ من عَدوٍّ في صورَةِ ناصحٍ، ووليٍّ في مِسلاخِ[1] بعيدٍ كاشِحٍ، يجعلُ عداوتَهُ وأذاهُ حَذَرًا وإشفاقًا، وتنفيرَهُ وتخذيلَهُ إسعافًا وإرفاقًا، وإذا كانت العَينُ لا تكادُ إلّا على هؤلاءِ تَفتَحُ، والميزانُ بهم يخفُّ ولا يَرجَحُ، فما أحرى اللَّبيبَ بأن لا يُعيرَهم من قلبِه جُزءًا من الالتفات، ويُسافرَ في طريقِ مَقصِدهِ بينهم سَفَرَهُ إلى الأحياءِ بينَ الأموات ...

وما أحسَنَ ما قالَ القائلُ :

وفي الجَهلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلِهِ
وأجسامُهُم قبلَ القُبورِ قُبورُ
وأرواحُهُم في وحشَةٍ من جُسومِهم
وليسَ لهُم حتى النُّشورِ نُشورُ

اللهمَّ فلكَ الحمدُ وإليكَ المُشتكى، وأنتَ المُستعانُ وبكَ المُستغاثُ، وعليكَ التُّكلانُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلّا بكَ، وأنتَ حسبُنا ونِعمَ الوَكيل .

فَلْنشرعِ الآنَ في المقصودِ بحولِ اللَّهِ وقوَّتِهِ ، فنقولُ :

---

(١) هو - في الأَصل - جِلدُ الحيّة .

الأصلُ الأوَّل (١)

في العلم وفضله وشَرَفه

وبيان عُموم الحاجة إليه

وتوقُّف كمال العبد ونجاته في مَعاشه ومَعاده عليه

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ شَهِدَ الله أنَّهُ لا إلهَ إلّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولو العِلمِ قائمًا بالقِسْطِ لا إلهَ إلّا هوَ العَزيزُ الحَكيم ﴾ [آل عمران : ١٨] .

استشهدَ سبحانهُ بأُولي العلم على أَجَلِّ مشهودٍ عليه، وهو تَوحيدُهُ فقال : ﴿ شَهِدَ الله أنَّهُ لا إلهَ إلّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولو العِلمِ قائمًا بالقِسطِ ﴾ .

وهذا يدُلُّ على فَضلِ العلمِ وأهلِهِ من وجوهٍ :

أحدُها : استشهادُهُم دونَ غَيرهم من البَشرِ .

والثاني : اقترانُ شهادَتِهِم بشهادتهِ .

والثالث : اقترانُها بشهادَةِ ملائكتِهِ .

والرابع : أنَّ في ضمنِ هذا تَزكيتَهُم وتَعديلَهُم؛ فإنَّ اللَّهَ لا يَستَشهدُ مِن خَلقهِ إلّا العُدولَ، ومنه الأثَرُ المَعروفُ عن النَّبيِّ ﷺ : « يحملُ هذا العلمَ من كلِّ خَلَفٍ عُدولُهُ ؛ يَنفُونَ عنهُ تحريفَ الغالينَ ، وانتِحالَ المُبْطِلين ، وتأويلَ

---

(١) مِن هنا إلى (٢ / ٣٩٨) ، ويتلوه - بَعْدُ - الأَصلُ الثاني .

الجاهلين »[١].

وقال مُحمَّد بن أحمد بن يَعقوبَ بن شيبَة : رأيتُ رجلًا قدَّم رجلًا إلى إسماعيلَ بنِ إسحاقَ القاضي، فادَّعى عليه دَعوى، فسأَلَ المُدَّعى عليه ؟ فأنكرَ، فقال للمُدَّعي : أَلكَ بيِّنَةٌ ؟ قال : نعم، فلانٌ وفلانٌ، قال : أمَّا فلانٌ فمِن شُهودي ، وأمَّا فلانٌ فليسَ من شُهودي ، قال : فيَعرفُهُ القاضي ؟ قال : نعم ، قال : بماذا ؟ قال : أعرفهُ بكَتْبِ الحديثِ، قال : فكيفَ تعرفهُ في كَتبِهِ الحديثَ ؟ قال : ما علمتُ إلّا خَيرًا، قال : فإنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « يحملُ هذا العلمَ من كُلِّ خلفٍ عدولهُ »، فمَن عدّلَهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ أَوْلى ممَّن عدَّلْتَهُ أنتَ، فقال : قُم فهاتهِ، فقَد قَبِلْتُ شهادتَهُ[٢].

وسيأتي - إن شاءَ اللَّهُ - الكلامُ على هذا الحديث في موضعهِ .

الخامسُ : أنَّهُ وصَفَهُم بكونهم أُولي العلم، وهذا يدُلُّ على اختصاصِهم به، وأنَّهم أهلُهُ وأصحابُهُ ، ليسَ بمُستعارٍ لهم .

السَّادسُ : أنَّهُ سبحانهُ استشهدَ بنفسه وهو أجلُّ شاهدٍ، ثمَّ بخِيارِ خلقهِ وهم ملائكتُهُ والعلماءُ من عبادهِ، ويكفيهم بهذا فضلًا وشَرفًا .

السَّابعُ : أنَّهُ استَشهَدَ بهم على أجلِّ مشهودٍ به وأعظمهِ وأَكبرهِ ، وهو شهادَةُ أنْ لا إلهَ إلّا هُوَ، والعظيمُ القَدْرِ إنَّما يَستَشهدُ على الأمرِ العَظيمِ أكابرَ الخَلْقِ وساداتِهم .

---

(١) لي جُزءٌ مُفرَدٌ في تخريجهِ، عنوانه : « إتحاف ذوي الشَّرف، بطُرق حديث : يحملُ هذا العلمَ مِن كلِّ خَلَف ... »، وسَيُشير المصنّف - بَعدُ - إلى شيءٍ من طُرقه .

وانظر تعليقي على كتاب « الحِطَّة » (ص ٧٠-٧١) لصدِّيق حسن خان .

(٢) روى القصةَ الخطيبُ البغداديُّ في « شرف أصحاب الحديث » (رقم ٥٧) .

الثَّامنُ : أنَّهُ سبحانهُ جعلَ شهادتَهُم حُجَّةً على المُنكِرينَ، فهُم بمنزلةِ أدلَّتهِ وآياتهِ وبراهينهِ الدَّالَّةِ على توحيدهِ .

التَّاسعُ : أنَّهُ سبحانهُ أفرَدَ الفِعلَ المُتضمِّنَ لهذه الشهادة الصَّادرةِ منه ومن ملائكتهِ ومنهم، ولم يَعطِفْ شهادتَهم بفعلٍ آخرَ على شهادتهِ، وهذا يدُلُّ على شدَّةِ ارتباطِ شهادتِهم بشهادتهِ، فكأنَّهُ سبحانهُ شهدَ لنفسِهِ بالتَّوحيدِ على ألسنتهِم، وأنطَقَهُم بهذه الشهادَةِ، فكانَ هوَ الشاهدَ بها لنفسِهِ إقامةً وإنطاقًا وتعليمًا، وهم الشاهدونَ بها له إقرارًا واعترافًا وتَصديقًا وإيمانًا .

العاشرُ : أنَّهُ سبحانه جَعلهُم مُؤدِّينَ لحقِّهِ عندَ عبادِهِ بهذهِ الشهادَةِ، فإذا أدَّوْها فَقد أدَّوا الحقَّ المشهودَ به، فثبتَ الحقُّ المشهودُ به، فوجَبَ على الخَلْقِ الإقرارُ به، وكان ذلك غايَةَ سعادتِهِم في معاشِهم ومعادِهم، وكُلُّ مَن نالَهُ الهُدى بشهادتهم، وأقرَّ بهذا الحقِّ بسببِ شهادتِهم، فلَهُم من الأجرِ مثلُ أجرهِ .

وهذا فَضلٌ عظيمٌ لا يَدري قَدْرَهُ إلّا اللَّهُ، وكذلكَ كُلُّ مَن شهِدَ بها عَن شهادتِهم فلهُم من الأجرِ مثلُ أجرهِ أيضًا .

فهذه عَشرَةُ أوجهٍ في هذه الآيَةِ .

الوجهُ الحادي عَشَر في تفضيل العلم وأهلهِ: أنَّهُ سبحانهُ نَفى التَّسويَةَ بين أهلهِ وبينَ غيرهم، كما نَفى التَّسويَةَ بينَ أصحابِ الجنَّةِ وأصحابِ النَّار، فقال تعالى : ﴿ قُل هَل يَستَوي الَّذينَ يَعلَمونَ والَّذينَ لا يَعلَمون ﴾ [الزمر : ٩]، كما قال تعالى : ﴿ لا يَستَوي أصحابُ النَّارِ وأصحابُ الجنَّة ﴾ [الحشر : ٢٠]، وهذا يدُلُّ على غايَةِ فضلِهم وشَرفِهم .

الجهل والعلم لا يستويان

الوجهُ الثَّاني عَشَر : أنَّهُ سبحانهُ جعلَ أهلَ الجهلِ بمنزلةِ العُميان الذين لا

الجاهل بمنزلة الأعمى

يُبصِرون ، فقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَعلمُ أَنَّما أُنزِلَ إليكَ من ربِّكَ الحقُّ كَمَن هو أعمى ﴾ [الرعد : ١٩]، فما ثَمَّ إلّا عالمٌ أو أعمى، وقد وصفَ سبحانهُ أهلَ الجهلِ بأنَّهم صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ في غيرِ موضعٍ من كتابهِ .

ظهور الحق لأهل العلم

الوجه الثَّالثَ عَشَر : أنَّهُ سبحانهُ أخبَرَ عن أُولي العلم بأنَّهُم يَرونَ ما أُنزِلَ إليه من ربِّهِ حقًّا، وجَعلَ هذا ثناءً عليهم واستشهادًا بهم ، فقال تعالى : ﴿ وَيَرى الَّذينَ أُوتوا العلمَ الذي أُنزِلَ إليكَ من ربِّكَ هو الحقَّ ﴾ [سبأ : ٦] .

أهل الذكر هم أهل العلم

الوجهُ الرَّابعَ عَشَر : أنَّهُ سبحانهُ أمَرَ بسؤالهم والرُّجوعِ إلى أقوالهم، وجعَلَ ذلكَ كالشهادَةِ منهم، فقال : ﴿ وما أرسَلْنا قَبْلَكَ إلّا رجالًا نُوحي إليهم فاسْأَلوا أهلَ الذِّكرِ إنْ كُنتُم لا تَعلَمون ﴾ [النحل : ٤٣]، وأهلُ الذِّكرِ هم أهلُ العلمِ بما أُنزِلَ على الأنبياءِ .

الشهادةُ لهم والاستشهاد بهم

الوجهُ الخامسَ عَشَر : أنَّهُ سبحانهُ شهِدَ لأهلِ العلم شهادَةً في ضمنها الاستشهادُ بهم على صحَّةِ ما أنزلَ اللَّهُ على رسولهِ، فقال تعالى : ﴿ أَفَغَيرَ اللهِ أبتَغي حَكَمًا وهو الَّذي أنزلَ إليكُم الكتابَ مُفَصَّلًا والَّذينَ آتيناهُم الكتابَ يَعلَمونَ أنَّهُ مُنَزَّلٌ مِن ربِّكَ بالحقِّ فلا تكونَنَّ مِن المُمتَرين ﴾ [الأنعام : ١١٤] .

إيمانُ أهل العلم

الوجهُ السَّادسَ عَشَر : أنَّهُ سبحانهُ سلَّى نبيَّهُ بإيمانِ أهلِ العلمِ به، وأمرَهُ أنْ لا يَعبأَ بالجاهلين شيئًا، فقال تعالى : ﴿ وقُرْآنًا فَرَقْناهُ لتَقرَأَهُ على النَّاسِ عَلى مُكْثٍ ونَزَّلناهُ تَنزيلًا قُلْ آمِنوا به أوْ لا تُؤمِنوا إنَّ الَّذينَ أُوتوا العلمَ مِن قَبلِهِ إذا يُتلى عَليهم يَخِرُّونَ إلى(١) الأذقانِ سُجَّدًا ويَقولونَ سُبحانَ ربِّنا إنْ كانَ وَعدُ ربِّنا

(١) كذا، وهذا تحريف فاحش، صوابه (يخرّون للأذقان).

لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦ - ١٠٨]، وهذا شرفٌ عظيمٌ لأهلِ العلمِ، وتحتَهُ أنَّ أهلَهُ العالِمونَ قَد عَرفوهُ، وآمَنوا به، وصدَّقوا، فسَواءٌ آمَنَ به غيرُهُم أو لا !

الكتابُ آيات بيِّنات في صدور أهل العلم

الوجهُ السَّابعَ عَشَر : أنَّهُ سبحانهُ مَدَحَ أهلَ العلمِ، وأثنى عليهم، وشرَّفهُم بأنْ جعلَ كتابَهُ آياتٍ بيِّناتٍ في صُدورهم، وهذه خاصَّةٌ ومَنْقَبَةٌ لهم دونَ غيرِهم، فقال تعالى : ﴿ وكذلكَ أنزَلْنا إليكَ الكتابَ فالَّذينَ آتيناهُم الكتابَ يُؤمنونَ بهِ ومِن هؤلاء مَن يؤمنُ بهِ وما يَجحَدُ بآياتِنا إلّا الكَافِرون وما كنتَ تَتلو مِن قَبلِهِ مِن كتابٍ ولا تَخُطُّهُ بيمينِكَ إذًا لارتابَ المُبطِلون بَل هو آياتٌ بيِّناتٌ في صُدورِ الَّذينَ أُوتوا العلمَ وما يجحَدُ بآياتِنا إلّا الظَّالمون ﴾ [العنكبوت : ٤٧ - ٤٩]، وسواءٌ كان المعنى أنَّ القرآنَ مُستقرٌّ في صُدورِ الذين أُوتوا العلمَ، ثابتٌ فيها، محفوظٌ، وهو في نفسهِ آياتٌ بيِّناتٌ، فيكونُ قد أخبرَ عنه بخَبَرَين :

أحدهما : أنَّهُ آياتٌ بيِّناتٌ .

الثَّاني : أنَّهُ محفوظٌ، مُستقِرٌّ ، ثابتٌ في صُدورِ الذين أُوتوا العلمَ .

أو كان المعنى: أنَّهُ آياتٌ بيِّناتٌ في صُدورِهم، أي : كَونُهُ آياتٍ بيِّناتٍ معلومٌ لهم ، ثابتٌ في صُدورهم، والقولانِ مُتلازمان، ليسا بمختلِفين .

وعلى التَّقديرين: فهو مدحٌ لهم، وثناءٌ عليهم في ضِمنه الاستشهادُ بهم، فتأمَّلْهُ .

طَلَبُ المزيد من العلم

الوجهُ الثَّامنَ عشَر : أنَّهُ سبحانهُ أمَرَ نبيَّهُ أن يسألَهُ مَزيدَ العلمِ، فقال تعالى: ﴿ فتَعالى اللهُ المَلِكُ الحقُّ ولا تَعْجَلْ بالقُرآنِ من قَبلِ أنْ يُقضى إليك وَحيُهُ وقُل رَبِّ زِدني عِلمًا ﴾ [طه : ١١٤]، وكفى بهذا شَرَفًا للعلمِ أنْ أمَرَ

نبيَّهُ أن يسأَلَهُ المزيدَ منه .

رفعة درجات أهل العلم

الوجهُ التَّاسعَ عشَر : أنَّهُ سبحانهُ أخبرَ عن رِفعَةِ دَرَجاتِ أهلِ العلمِ والإيمانِ خاصَّةً، فقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا إذا قيلَ لكُم تَفَسَّحوا في المجالسِ فافْسَحُوا يَفسَحِ الله لكُم وإذا قيلَ انشُزوا فانشُزوا يَرفَعِ الله الَّذينَ آمَنوا منكُم والَّذين أُوتوا العلمَ درجاتٍ والله بما تعمَلونَ خَبيرٌ ﴾ [المجادلة : ١١] .

وقد أخبَرَ سبحانهُ في كتابهِ برَفعِ الدَّرجاتِ في أربعَةِ مواضع :

أحدها : هذا .

والثَّاني : قولُه : ﴿ إنَّما المُؤمِنونَ الَّذينَ إذا ذُكِرَ الله وَجِلَت قلوبُهم وإذا تُلِيَتْ عليهم آياتُهُ زادَتْهُم إيمانًا وعلى ربِّهم يتوكَّلون الَّذين يُقيمون الصَّلاةَ وممَّا رَزَقْناهُم يُنفِقون أُولئكَ هم المؤمِنون حقًّا لهم دَرَجاتٌ عندَ ربِّهم ومَغفِرَةٌ ورزقٌ كريمٌ ﴾ [الأنفال : ٢ - ٤] .

والثَّالث : قولُه تعالى : ﴿ ومَنْ يأْتِهِ مُؤمِنًا قد عَمِلَ الصَّالحاتِ فأُولئكَ لهم الدَّرجاتُ العُلى ﴾ [طه : ٧٥] .

والرَّابع : قولُه تعالى : ﴿ وفضَّلَ الله المُجاهدينَ على القاعدينَ أجرًا عَظيمًا دَرجاتٍ منهُ ومغفِرَةً ورَحمَةً ﴾ [النساء : ٩٥ - ٩٦] .

فهذه أربعةُ مواضعَ، في ثلاثةٍ منها الرِّفعةُ بالدَّرجاتِ لأهلِ الإيمان، الذي هو العلمُ النَّافعُ والعملُ الصَّالحُ، والرَّابعُ الرِّفعَةُ بالجهادِ، فعادَت رِفعَةُ الدَّرجاتِ كلّها إلى العلمِ والجهادِ **اللَّذينِ بهما قِوامُ الدِّين**[1] .

---

(١) والعِلْمُ هو الأَصلُ ، فتأمَّلْ .

الاستشهاد بأقوال أهل العلم يوم القيامة

الوجهُ العشرون : أنَّهُ سبحانهُ استشهَدَ بأهلِ العلمِ والإيمانِ يومَ القيامَةِ على بُطلانِ قولِ الكُفَّار، فقال تعالى : ﴿ وَيومَ تَقومُ السَّاعةُ يُقسِمُ المُجرِمونَ ما لَبِثوا غَيرَ ساعَةٍ كذلكَ كانوا يُؤفَكون وقالَ الَّذينَ أُوتوا العلمَ والإيمانَ لَقَد لَبِثتُم في كتابِ اللهِ إلى يومِ البَعثِ فهذا يومُ البَعثِ ولكنَّكُم كنتُم لا تَعلمون ﴾ [الروم : ٥٥ - ٥٦] .

أهل العلم هم أهل الخشية

الوجهُ الحادي والعشرون : أنَّهُ سبحانهُ أخبرَ أنَّهُم أهلُ خَشيتِهِ، بل خَصَّهُم مِن بينِ النَّاسِ بذلك، فقال تعالى : ﴿ إنَّما يَخشى اللهَ من عبادِهِ العُلماءُ إنَّ اللهَ عَزيزٌ غفورٌ ﴾ [فاطر : ٢٨]، وهذا حَصْرٌ لخشيتهِ في أُولي العلم .

وقال تعالى : ﴿ جَزاؤهُم عندَ ربِّهم جنَّاتُ عَدْنٍ تَجْري مِن تحتِها الأنهارُ خالدينَ فيها أبدًا رضيَ اللهُ عنهُم ورَضُوا عنهُ ذلكَ لِمَن خَشِيَ ربَّهُ ﴾ [البيِّنة : ٨] .

وقد أخبَرَ أنَّ أهلَ خَشيتهِ هم العُلماءُ، فَدلَّ على أنَّ هذا الجزاءَ المذكورَ للعلماءِ بمجموعِ النَّصَّين .

وقال ابنُ مَسعودٍ رضيَ اللَّهُ عنه : « كفى بخشيةِ اللَّهِ علمًا، وكفى بالاغترارِ باللَّهِ جهلًا »(١).

أهل العلم هم المنتفعون بضرب اللهِ الأمثالَ

الوجهُ الثاني والعشرون : أنَّهُ سبحانهُ أخبَرَ عن أمثالِهِ التي يَضربُها لعبادِهِ ؛ يدلُّهم على صحَّةِ ما أخبَرَ به : أنَّ أهلَ العلمِ هم المُنتَفِعون بها

---

(١) رواه ابنُ المبارك في « الزهد » (ص ١٥) ، وأحمد في « الزهد » (ص ١٥٨)، والطبراني في « الكبير » (٩ / ٢١١) .

وقد روى الدارميّ (١ / ١٠٦)، وأبو نُعيم في « الحلية » (٢ / ٩٥) هذه الكلمةَ عن مسروق .

المُختَصُّونَ بعلمها، فقال تعالى : ﴿ وتلكَ الأمثالُ نَضرِبُها للنَّاسِ وما يَعقِلُها إلّا العالِمون ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

وفي القرآن بضعَةٌ وأربَعونَ مثلًا .(١)

وكان بَعضُ السَّلَفِ(٢) إذا مرَّ بمَثَلٍ لا يَفهمُهُ ، يَبكي ويقول: لستُ من العالِمين .

رفعة الدرجة بعلم الحُجَّة

الوجهُ الثَّالثُ والعشرون : أنَّهُ سبحانهُ ذَكرَ مُناظرةَ إبراهيمَ لأبيهِ وقومِهِ، وغَلَبَتَهُ لهم بالحُجَّةِ ، وأخبرَ عن تَفضيلِهِ بذلك ، ورَفعِهِ دَرَجتَهُ بعلمِ الحُجَّةِ ، فقال تعالى عَقِيبَ مُناظرَتِهِ لأبيهِ وقومِهِ في سورة الأنعامِ : ﴿ وتلكَ حُجَّتُنا آتيناها إبراهيمَ على قومِهِ نَرفَعُ دَرجاتٍ مَن نشاءُ إنَّ ربَّكَ حكيمٌ عليمٌ ﴾ [آية : ٨٣] .

قال زَيدُ بن أسلمَ رضيَ اللَّهُ عنه: نَرفَعُ دَرجاتٍ مَن نشاءِ بعلمِ الحُجَّة(٣).

علم العباد بربِّهم

الوجهُ الرَّابعُ والعشرون : أنَّهُ سبحانهُ أخبرَ أنَّهُ خَلَقَ الخَلْقَ، ووضَعَ بيتَهُ الحرامَ، والشهرَ الحرامَ والهَدْيَ والقلائدَ، لِيَعلَمَ عبادُهُ أنَّهُ بكلِّ شيءٍ عليم، وعلى كلِّ شيءٍ قَديرٌ، فقال تعالى : ﴿ الله الَّذي خَلَقَ سَبعَ سَمواتٍ ومِنَ الأرضِ مثلَهُنَّ يَتَنزَّلُ الأمرُ بينَهُنَّ لتَعلَموا أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قَديرٌ وأنَّ الله قَد أحاطَ بكلِّ شيءٍ عِلمًا ﴾ [الطلاق : ١٢]، فدلَّ على أنَّ عِلمَ العباد بربِّهم وصفاتِهِ

---

(١) وقد جمعها المصنِّفُ رحمه اللَّه في كتابه الماتِع « إعلام الموقِّعين » (١ / ١٦٣ - ٢١١) .

(٢) هو عَمرو بن مُرَّة، فيما رواه ابنُ أبي حاتمٍ، كما في « تفسير ابن كثير » (٣/٦٦٠) .

(٣) رواه أبو الشَّيخ ، كما في « الدُّر المنثور » (٣ / ٣١٠ - ط ٢) .

خير ممّا يجمع ..

وعبادتِهِ وحدَهُ هو الغايَةُ المَطلوبَةُ من الخَلْقِ والأمرِ .

فَرَحُ أهل العلم

الوجهُ الخامسُ والعشرون : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ أمَرَ أهلَ العلمِ بالفَرَحِ بما آتاهُم، وأخبَرَ أنَّهُ خبيرٌ بما يَجمعُ النَّاسَ، فقال تعالى : ﴿ قُل بِفَضلِ اللهِ وبرَحمَتِهِ فبذلكَ فَلْيَفرَحوا هو خَيرٌ ممَّا يَجمَعون ﴾ [يونس : ٥٨]، وفُسِّرَ فضلُ اللَّهِ بالإيمانِ، ورحمتُهُ بالقرآنِ، والإيمانُ والقرآنُ هما **العلمُ النَّافعُ والعملُ الصَّالحُ**، وهما الهُدى ودينُ الحقِّ، وهما أفضلُ علمٍ وأفضلُ عملٍ .

الحكمة هي العلم

الوجهُ السَّادسُ والعشرون : أنَّهُ سبحانهُ شهِدَ لمَن آتاهُ العلمَ بأنَّهُ قد آتاهُ خَيرًا كثيرًا، فقال تعالى : ﴿ يُؤتي الحِكمَةَ مَن يَشاءُ وَمَن يُؤتَ الحِكمَةَ فَقَد أُوتيَ خَيرًا كثيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦٩]، قال ابنُ قُتَيبَة والجمهورُ : الحِكمَةُ إصابَةُ الحقِّ[1] والعملُ به، وهيَ العلمُ النّافعُ والعَملُ الصَّالحُ .

العلم مِن أجلّ النِّعَم

الوجهُ السَّابعُ والعشرون : أنَّهُ سبحانهُ عَدَّدَ نِعَمَهُ وفَضْلَهُ على رسولِهِ، وجَعَلَ مِن أَجَلِّها أنْ آتاهُ الكتابَ والحِكمَةَ، وعلَّمهُ ما لم يكُن يَعلَم، فقال تعالى: ﴿ وأنزَلَ اللهُ عليكَ الكتابَ والحِكمَةَ وعلَّمَكَ ما لم تكُن تعلَمُ وكانَ فَضلُ اللهِ عَلَيكَ عَظيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] .

نعمةُ العلم واجبة الشكر

الوجهُ الثَّامنُ والعشرون : أنَّهُ سبحانهُ ذكَّرَ عبادَهُ المؤمنينَ بهذه النِّعمَةِ، وأمَرَهُم بشُكرِها، وأن يذكروهُ على إسْدائها إليهم، فقال تعالى : ﴿ كما أَرسَلْنا فيكُم رَسولًا مِنكُم يَتلو عَلَيكُم آياتِنا ويُزَكِّيكُم ويُعلِّمُكُم الكتابَ والحِكمَةَ ويُعلِّمُكُم ما لَم تَكونوا تَعلَمون فاذكُروني أذكُرْكُم واشكُروا لي ولا تَكفُرون ﴾ [البقرَة : ١٥١ - ١٥٢] .

---

(١) وهي وَضْعُ الشيء في موضعِه ، ولا يكونُ هذا إلَّا بالعلمِ .

العلمُ مِنَّةٌ مِن الله

الوجهُ التَّاسعُ والعشرون : أنَّهُ سبحانهُ لـمَّا أخبرَ ملائكتَهُ بأنَّهُ يُريدُ أن يجعَلَ في الأرضِ خَليفَةً، قالوا لهُ : ﴿ أتَجعَلُ فيها مَن يُفسِدُ فيها ويَسفِكُ الدِّماءَ ونَحنُ نُسبِّحُ بحَمدِكَ ونقدِّسُ لكَ قال إنِّي أعلمُ ما لا تَعلَمون وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها ثُمَّ عَرَضَهُم عَلى الملائكَةِ فقال أَنبِئوني بأسماءِ هؤلاءِ إنْ كُنتُم صادِقِين قالوا سُبحانَكَ لا علمَ لنا إلَّا ما عَلَّمْتَنا إنَّكَ أنتَ العليمُ الحَكيمُ ﴾ [البقرة : ٣٠ - ٣٢] ... إلى آخر قصَّةِ آدمَ، وأمرَ الملائكَةَ بالسُّجودِ لهُ، فأبى إبليسُ، فلَعَنهُ وأخرَجَهُ من السَّماء .

وبيانُ فَضلِ العلـمِ من هذه القصَّةِ من وجوهٍ :

أحدها : أنَّهُ سبحانهُ ردَّ على الملائكَةِ لمّا سألوا: كيفَ يجعَلُ في الأرضِ مَن هم أطوَعُ له منه ؟ فقال : ﴿ إنِّي أعلمُ ما لا تَعلَمون ﴾ ، فأجابَ سؤالَهم بأنَّهُ يعلمُ مِن بواطنِ الأُمور وحقائِقها ما لا يعلمونهُ، وهو العليمُ الحكيمُ، فظَهَرَ مِن هذا الخليفَةِ مِن خيارِ خَلقِهِ، ورُسلِهِ، وأنبيائِهِ، وصالحي عبادِهِ، والشهداء، والصِّدِّيقين، والعُلماءِ، وطَبقاتِ أهلِ العلمِ والإيمانِ مَن هو خَيرٌ من الملائكَةِ، وظَهَرَ مَن إبليسَ مَنْ هو شرُّ العالَمين، فأخرَجَ سبحانهُ هذا وهذا، والملائكَةُ لم يكُن لها علمٌ لا بهذا، ولا بهذا، ولا بما في خَلقِ آدمَ وإسكانِهِ الأرضَ من الحِكَم الباهرَةِ .

الثَّاني : أنَّهُ سبحانهُ لـمَّا أرادَ إظهارَ تَفضيلِ آدمَ وتَمييزِه وفَضلِه ميَّزَهُ عليهم بالعلمِ، فعلَّمَهُ الأسماءَ كلَّها، ثمَّ عَرَضَهُم على الملائكَةِ ، فقال : ﴿ أنبِئوني بأسماءِ هؤلاءِ إن كُنتُم صادقين ﴾ [البقرة : ٣١]، جاءَ في التَّفسير(١) أنَّهُم

---

(١) انظر « زاد المَسير » (١ / ٦٣) ، و« تَفسير ابن كثير » (١ / ١٣٣)، و « تَفسير =

قالوا : لَن يخلُقَ ربُّنا خَلقًا هو أكرَمُ عليهِ منَّا، فَظنُّوا أنَّهُم خيرٌ وأفضلُ من الخليفةِ الذي يجعلُهُ اللَّهُ في الأرضِ، فلمَّا امتحنَهُم بعلمِ ما علَّمهُ لهذا الخليفةِ أقرُّوا بالعجزِ، وجَهْلِ ما لم يَعلَموهُ، فقالوا : ﴿ سُبحانَكَ لا عِلمَ لنا إلّا ما عَلَّمْتَنا إنَّكَ أنتَ العليمُ الحكيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢]، فحينئذٍ أظهَرَ لهُم فَضلَ آدَمَ بما خصَّهُ بهِ من العلمِ ، فقال : ﴿ يا آدمُ أَنْبِئهُم بأسمائِهِم فلمَّا أنبأهم بأسمائهم ﴾ [البقرة : ٣٣] ، أقرُّوا له بالفَضلِ .

الثَّالث : أنَّهُ سبحانهُ لمّا أنْ عرَّفهُم فَضلَ آدمَ بالعلمِ، وعَجْزَهم عن معرفَةِ ما علَّمَهُ، قال لهم : ﴿ أَلَمْ أقُل لَكُم إنِّي أعلَمُ غَيبَ السَّمواتِ والأرضِ وأعلَمُ ما تُبدونَ وما كنتُم تَكتُمون ﴾ [البقرة : ٣٣]، فعرَّفهم سبحانهُ بالعلمِ، وأنَّهُ أحاطَ عِلمًا بظاهِرهم وباطنِهم، وبغيبِ السَّمواتِ والأرضِ ،فتعرَّفَ إليهم بصفَةِ العلمِ، وعرَّفهُم فضلَ نبيِّه وكليمهِ بالعلمِ، وعَجزَهم عمَّا آتاهُ آدمَ من العلمِ ، وكفى بهذا شرفًا للعلم .

الرَّابع : أنَّهُ سبحانهُ جَعَلَ في آدمَ مِن صِفاتِ الكمالِ ما كانَ به أفضلَ من غَيرِهِ من المخلوقاتِ، وأرادَ سبحانهُ أن يُظهِرَ لملائكتهِ فضلَهُ وشَرفَهُ، فأظهَرَ لهم أحسَنَ ما فيهِ وهو عِلمُهُ، فدلَّ على أنَّ العلمَ أشرَفُ ما في الإنسانِ، وأنَّ فَضلَهُ وشَرفَهُ إنَّما هو بالعلمِ .

ونَظيرُ ذلكَ ما فَعَلهُ بِنَبيِّهِ يوسُفَ عليه السَّلام لمَّا أرادَ إظهارَ فضلهِ وشَرفِهِ على أهلِ زمانهِ كلِّهم ، أظهَرَ للمَلِكِ وأهلِ مصرَ مِن علمهِ بتأويلِ رُؤياهُ

= الطَّبري » (١ / ٤٨٨) .

ما عَجَزَ عنه عُلماءُ التَّعبيرِ[1]، فحينئذٍ قدَّمَهُ ، ومكَّنَهُ ، وسلَّمَ إليهِ خَزائنَ الأرضِ ، وكانَ قبلَ ذلكَ قَد حَبَسَهُ على ما رآهُ من حُسنِ وَجهِهِ، وجمالِ صورَتِهِ، ولمَّا ظَهَرَ له حسنُ صُورَةِ علمِهِ، وجمالُ معرفتِهِ ، أطلَقَهُ من الحَبسِ ،ومكَّنهُ في الأرضِ، فدلَّ على أنَّ صورَةَ العلمِ عندَ بني آدمَ أبهى وأحسنُ من الصُّورَةِ الحِسيَّةِ، ولو كانت أجملَ صورَةٍ .

وهذا وجهٌ مُستقلٌّ في تفضيلِ العلمِ، مُضافٌ إلى ما تَقدَّمَ، **فتمَّ به ثلاثون وجهًا** .

ذمّ أهل الجهل

الوجهُ الحادي والثَّلاثون : أنَّهُ سبحانهُ ذَمَّ أهلَ الجَهلِ في مواضعَ كثيرةٍ من كتابِهِ :

فقال تعالى : ﴿ ولكنَّ أكثَرَهُم يَجهَلون ﴾ [الأنعام : ١١١] .

وقال : ﴿ ولكنَّ أكثَرَهُم لا يعلمون ﴾ [الأنعام : ٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ أم تَحسَبُ أنَّ أكثَرَهُم يَسمَعونَ أو يَعقِلونَ إنْ هُم إلّا كالأنعامِ بل هُم أضلُّ سَبيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٤]، فلم يقتصِر سبحانهُ على تشبيهِ الجُهَّال بالأنعامِ، حتى جَعلَهُم أضلَّ سبيلًا منهم .

وقال : ﴿ إنَّ شرَّ الدَّوابِّ عندَ اللهِ الصُّمُّ البُكمُ الَّذينَ لا يعقلون ﴾ [الأنفال : ٢٢]، أخبرَ أنَّ الجُهَّالَ شرُّ الدَّوابِّ عندهُ، على اختلافِ أصنافِها من الحميرِ ، والسِّباعِ، والكلابِ، والحشراتِ، وسائرِ الدَّوابِّ، فالجُهَّالُ شرٌّ منهم، **وليسَ على دينِ الرُّسل أضرُّ من الجهَّالِ، بل هم أعداؤهم على الحقيقةِ .**

وقال تعالى لنبيِّهِ وقد أعاذَهُ : ﴿ فلا تكونَنَّ من الجاهلين ﴾ [الأنعام : ٣٥] .

---

(١) أي : تفسيرُ الرؤى والأحلام .

وقال كليمُهُ موسى عليه السَّلام : ﴿ أعوذُ باللهِ أن أكونَ من الجاهلين ﴾ [البقرة : ٦٧] .

وقال لأوَّلِ رُسُلهِ نوحٍ عليه السَّلام : ﴿ إنِّي أَعِظُكَ أن تكونَ منَ الجاهلينَ ﴾ [هود : ٤٦] .

فهذه حالُ الجاهلين عندَهُ، والأوَّلُ حالُ أهلِ العلمِ عندهُ .

وأخبرَ سبحانهُ عن عُقوبتِه لأعدائِهِ أنَّهُ مَنعَهُم عِلمَ كتابهِ ومعرفَتَهُ وفِقهَهُ، فقال تعالى : ﴿ وإذا قَرأْتَ القُرآنَ جَعَلْنا بَينَكَ وبينَ الَّذينَ لا يُؤمنونَ بالآخِرَةِ حِجابًا مَستورًا وجَعَلنا على قُلوبِهِم أَكِنَّةً أن يَفقهوهُ وفي آذانِهِم وَقرًا ﴾ [الإسراء : ٤٥ - ٤٦] .

وأمَرَ سبحانهُ نبيَّهُ بالإعْراضِ عنهُم ، فقال : ﴿ وأعْرِضْ عَن الجاهلين ﴾ .

وأثنى على عبادهِ بالإعراضِ عنهم ومُتارَكَتِهم، كما في قولِه تعالى : ﴿ وإذا سَمِعُوا اللَّغْوَ أعرَضوا عنهُ وقالوا لنا أعمالُنا ولكُم أعمالُكُم سلامٌ عليكم لا نَبتَغي الجاهلين ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وإذا خاطَبهُم الجاهِلونَ قالوا سلامًا ﴾[الفرقان:٦٣] .

وكلُّ هذا يَدُلُّ على قُبحِ الجَهلِ عندهُ، وبُغضِهِ للجهلِ وأهلِهِ، وكذلك هو عندَ النَّاسِ ،فإنَّ كلَّ أَحدٍ يتبرَّأُ منه وإنْ كان فيه .

الوجهُ الثَّاني والثَّلاثون : **أنَّ العلمَ حياةٌ ونورٌ، والجهلَ موتٌ وظُلْمَةٌ،** العلمُ حياةٌ ونورٌ والشرُّ كلُّهُ سَببُهُ عَدَمُ الحياةِ والنُّور ، والخَيرُ كلُّهُ سببُهُ النُّورُ والحياةُ، فإنَّ النُّورَ يكشفُ عن حقائقِ الأشياءِ، ويُبيِّنُ مراتبَها، والحياةُ هي المُصَحِّحَةُ لصفاتِ الكمالِ، والمُوجِبَةُ لتَسديدِ الأقوالِ والأعمالِ، وكُلُّ ما تصرَّفَ من الحياةِ فهو خيرٌ كلُّه، كالحياءِ؛ الذي سَببُهُ كمالُ حياةِ القَلبِ وتصوُّرُه حقيقةَ القُبحِ ونَفرَتُهُ

منه، وضدُّهُ الوقاحَةُ والفُحشُ ؛وسبَبُهُ موتُ القَلبِ وعدمُ نَفرَتِهِ من القبيحِ ، وكالحَياءِ[1]، الذي هو المَطَرُ الذي به حياةُ كُلِّ شيءٍ، قال تعالى : ﴿ أَوَمَنْ كانَ مَيْتًا فأَحيَيناهُ وجَعَلنا لهُ نورًا يَمشي به في النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ ليسَ بخارجٍ منها ﴾ [الأنعام : ١٢٢]، كانَ مَيْتًا بالجهلِ قلبُهُ، فأحياهُ بالعلمِ، وجعَلَ له من الإيمانِ نورًا يمشي به في النَّاس .

وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذين آمَنوا اتَّقوا الله وآمنوا برسولِهِ يُؤْتِكُم كِفلَينِ مِن رَحمتهِ ويجعَلْ لكُم نُورًا تَمشونَ بِهِ ويَغفِرْ لكُم والله غَفورٌ رَحيمٌ لِئَلَّا يعلَمَ أهلُ الكتابِ أَلَّا يَقدِرونَ على شيءٍ مِن فَضلِ الله وأنَّ الفَضلَ بيدِ الله يُؤتيهِ مَن يشاءُ والله ذو الفَضلِ العَظيم ﴾ [الحديد : ٢٨ - ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ الله وليُّ الَّذينَ آمَنوا يُخرِجُهُم من الظُّلُماتِ إلى النُّور والَّذينَ كفَروا أولياؤُهم الطَّاغوتُ يُخرِجونَهُم مِن النُّورِ إلى الظُّلُماتِ أُولَئِكَ أصحابُ النَّارِ هم فيها خالدونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وكذلكَ أوحَينا إليكَ رُوحًا مِن أمرِنا ما كُنتَ تَدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكنْ جَعَلناهُ نورًا نَهدي به مَن نَشاءُ مِن عبادِنا وإنَّكَ لتَهدي إلى صِراطٍ مُستَقيم ﴾ [الشورى : ٥٢]؛ فأخبَرَ أنَّهُ رُوحٌ تَحصُلُ به الحياةُ، ونورٌ تَحصُلُ به الإضاءَةُ والإشراقُ، فجمعَ بين الأصلين الحياةِ والنُّورِ .

وقال تعالى : ﴿ قَد جاءَكُم مِنَ الله نورٌ وكتابٌ مُبينٌ يَهدي بِهِ الله مَن اتَّبعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ويُخرِجُهُم من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ بإذنِهِ ويَهديهِم إلى صراطٍ مُستقيم ﴾ [المائدة : ١٥ - ١٦] .

---

(١) ويُقال : « الحَيَا » مقصورًا ، كما في « القاموس المحيط » (ص ١٦٤٩) .

وقال تعالى : ﴿ فآمِنوا باللهِ ورَسولِهِ والنُّورِ الَّذي أنزَلْنا واللهُ بما تَعمَلونَ خبيرٌ ﴾ [التغابن : ٨] .

وقال تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ قَد جاءَكُم بُرهانٌ مِن ربِّكُم وأنزَلنا إليكُم نورًا مُبينًا ﴾ [النساء : ١٧٤] .

وقال تعالى : ﴿ قَد أنزَلَ اللهُ إليكُم ذِكْرًا رسولًا يتلو عليكُم آياتِ اللهِ مُبيِّناتٍ ليُخرِجَ الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ ﴾ [الطلاق : ١١] .

وقال تعالى : ﴿ اللهُ نورُ السَّمواتِ والأرضِ مَثَلُ نُورِهِ كمِشكاةٍ فيها مِصباحٌ المِصباحُ في زُجاجةٍ الزُّجاجَةُ كأنَّها كوكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجرَةٍ مُبارَكةٍ زَيتونَةٍ لا شرقيَّةٍ ولا غَربيَّةٍ يكادُ زَيتُها يُضيءُ ولو لم تَمْسَسْهُ نارٌ نورٌ على نورٍ يَهدي اللهُ لِنُورِهِ مَن يشاءُ ويَضرِبُ اللهُ الأمثالَ للنَّاسِ واللهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ ﴾ [النور : ٣٥] ؛ فضرَبَ سبحانهُ مَثلًا لنورِهِ الذي قَذَفَهُ في قَلبِ المؤمنِ ، كما قالَ أُبيُّ بن كَعبٍ رضيَ اللَّهُ عنه : « مَثَلُ نورِهِ في قَلبِ عبدِهِ المؤمنِ ... »[1]، وهو نورُ القُرآنِ والإيمانُ الذي أعطاهُ إيَّاهُ، كما قالَ في آخرِ الآيَةِ : ﴿ نورٌ على نُورٍ ﴾ يعني نُورَ الإيمانِ على نُورِ القُرآنِ ، كما قالَ بعضُ السَّلفِ : « يكادُ المؤمنُ ينطقُ بالحكمَةِ وإنْ لم يَسمَع فيها بالأثرِ، فإذا سمعَ فيها بالأثَرِ كان نُورًا على نورٍ » .

وقَد جمَعَ اللَّهُ سبحانهُ بينَ ذكرِ هذين النُّورَين - وهما الكتابُ والإيمانُ - في غيرِ موضعٍ من كتابِهِ ، كقولِه : ﴿ ما كُنتَ تَدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ

---

(١) انظر « تفسير الطَّبري » (١٨ / ١٣٦) و « الدُّر المنثور » (٦ / ١٩٧ - ط ٢) .

ولكنْ جَعَلْناهُ نورًا نَهدي به مَن نشاءُ من عبادِنا ﴾ [الشورى : ٥٢]، وقولِه تعالى : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحمَتِهِ فبذلكَ فَلْيَفرَحوا هو خيرٌ ممَّا يَجمَعون ﴾ [يونس : ٥٨]، ففضلُ اللَّهِ: الإيمانُ، ورحمتهُ : القُرآن، وقولِه تعالى : ﴿ أوَمَن كانَ مَيْتًا فأحيَيْناهُ وجَعَلْنا لهُ نُورًا يَمشي بهِ في النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ ليسَ بخارِجٍ منها ﴾ [الأنعام : ١٢٢].

وقَد تَقدَّمَت الآياتُ .

وقال في آيَةِ النُّور : ﴿ نورٌ على نورٍ ﴾، وهو نورُ القرآنِ على نور الإيمانِ[١].

وفي حديث النوّاس بن سَمعان رضيَ اللَّهُ عنه عن النَّبي ﷺ: « إنَّ اللَّهَ ضَرَبَ مَثَلًا صراطًا مُستقيمًا، وعلى كَنَفَي الصِّراطِ سُورانِ لهما أبوابٌ مُفتَّحةٌ، وعلى الأبوابِ سُتورٌ ، وداعٍ يَدعو على الصِّراطِ ، وداعٍ يَدعو فَوقَهُ ؛ ﴿ واللهُ يَدعُو إلى دارِ السَّلامِ ويَهدي مَن يشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيم ﴾ [يونس : ٢٥]، والأبوابُ التي على كَنَفَي الصِّراطِ حدودُ اللَّهِ فلا يَقَع أحدٌ في حُدودِ اللَّهِ ، حتى يَكشِفَ السِّترَ ، والذي يَدعو من فَوقِهِ واعظُ ربِّهِ » ، رواه التِّرمذيُّ - وهذا لفظُهُ - ، والإمامُ أحمدُ[٢] ، ولفظهُ : « ... والدَّاعي على رأسِ الصِّراطِ كتابُ اللَّهِ، والذي فوقَ الصِّراط واعظُ اللَّهِ في قلبِ كُلِّ مؤمنٍ » ، فَذكرَ الأصلَين ؛ وهما داعي القرآن وداعي الإيمان .

وقال حُذَيفَةُ : « حدَّثَنا رسولُ اللَّهِ ﷺ أنَّ الأمانَةَ نَزلت في جَذْرِ قلوبِ

---

(١) في « المطبوعة » : « وهو نور الإيمان على نور القرآن » .

(٢) رواه الترمذي (٢٨٥٩) ، وأحمد (٤ / ١٨٣) ، والحاكم (١ / ٧٣) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (١٨ و ١٩) ، والرامَهُرمُزي في « الأمثال » (٣) ، وأبو الشيخ في « الأمثال » (٢٨٠) من طرق عن النوّاس بن سمعان بسند صحيح .

الرِّجال، ثمَّ نزلَ القرآنُ، فَعَلِمُوا من الإيمان، ثمَّ عَلِموا من القرآن »(١).

وفي « الصَّحيحين »(٢) من حديثِ أبي موسى الأَشعَري رضيَ اللَّهُ عنهُ عن النَّبي ﷺ : « مَثَلُ المُؤمنِ الذي يقرأُ القُرآنَ كمثلِ الأُتْرُجَّةِ، طعمُها طيِّبٌ وريحُها طيِّبٌ، ومَثَلُ المؤمن الذي لا يَقرأ القرآنَ كَمثلِ التَّمرَةِ، طعمُها طَيِّب ولا ريحَ لها، ومَثل المنافقِ الذي يقرأُ القرآنَ كالرَّيحانَة، ريحُها طيِّبٌ وطعمُها مُرٌّ، ومَثلُ المُنافق الذي لا يَقرأ القُرآنَ كمثلِ الحنظَلَةِ، طعمُها مرٌّ ولا ريحَ لها » .

فجعلَ النَّاسَ أربعَةَ أقسامٍ :

الأوَّل : أهلُ الإيمان والقرآنِ، وهم خيارُ النَّاس .

الثَّاني : أهلُ الإيمانِ الذين لا يقرؤونَ القرآن، وهم دونَهم، فهؤلاء هم السُّعَداء .

والأشقياءُ قسمان :

أحدهما : مَن أُوتيَ قرآنًا بلا إيمانٍ، فهو منافقٌ .

والثَّاني : مَن لا أُوتيَ قرآنًا ولا إيمانًا .

والمقصودُ أنَّ القرآنَ والإيمانَ هما نورٌ يجعلُهُ اللَّهُ في قلبِ مَن يشاءُ مِن عبادِهِ، وأنَّهما أصلُ كُلِّ خيرٍ في الدُّنيا والآخِرَة، وعِلمُهُما أَجَلُّ العُلومِ وأفضلُها، بل لا عِلمَ في الحقيقةِ ينفعُ صاحِبَهُ إلّا علمُهما : ﴿ والله يهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مُستقيم ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

الوجه الثَّالث والثَّلاثون : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ جَعلَ صَيدَ الكلبِ الجاهلِ

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩٧) ، ومسلم (١٤٣) .

(٢) رواه البخاري (٥٠٢٠) ، ومسلم (٧٩٧) .

الكلب المعلَّم أفضلُ من الجاهل!

مَيتةً يَحرُمُ أكلُها، وأباحَ صَيدَ الكلبِ المُعلَّم[١]، وهذا أيضًا من شرَفِ العلمِ : أنَّهُ لا يُباحُ إلّا صَيدُ الكلبِ العالمِ، وأمَّا الكلبُ الجاهلُ فلا يَحِلُّ أكلُ صَيدِهِ، فدلَّ على شرَفِ العلمِ وفضلِهِ، قال تعالى : ﴿ يَسألونَكَ ماذا أُحِلَّ لهم قُل أُحِلَّ لكُمُ الطيِّباتُ وما عَلَّمتُم من الجوارحِ مُكَلِّبين تُعَلِّمونَهنَّ ممَّا عَلَّمكُم الله فكُلُوا ممَّا أَمْسَكْنَ عليكُم واذْكُروا اسمَ اللهِ عليه واتَّقُوا الله إنَّ الله سريعُ الحِسابِ ﴾ [المائدة : ٤]، ولولا مَزيَّةُ العلمِ والتَّعليمِ وشَرَفُهما كان صَيدُ الكلبِ المعلَّمِ والجاهلِ سواءً .

سَفَرُ نبيٍّ طلبًا للعلم

الوجهُ الرَّابعُ والثَّلاثون : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ أخبرَنا عن صفيِّهِ وكليمهِ - الذي كَتبَ له التَّوراةَ بيدِهِ[٢]، وكلَّمهُ منه إليه - أنَّهُ رحلَ إلى رجلٍ عالمٍ يتعلَّمُ منه، ويزدادُ علمًا إلى علمهِ، فقال : ﴿ وإذْ قالَ موسى لفتاهُ لا أبرَحُ حتى أبْلُغَ مجمعَ البَحرين أو أمضيَ حُقُبًا ﴾ [الكهف : ٦٠]، حِرصًا منه على لقاء هذا العالِمِ، وعلى التعلُّم منه، فلمَّا لَقيَهُ سلكَ معه مَسلَكَ المُتعلِّم مع مُعلِّمهِ ، وقال له : ﴿ هَل أتَّبِعُكَ على أن تُعلِّمَنِ ممَّا عُلِّمتَ رُشدًا ﴾[الكهف : ٦٦]، فبدأهُ بعدَ السَّلام بالاستئذانِ على مُتابعتِه ، وأنَّه لا يَتَّبِعُهُ إلّا بإذنـهِ ، وقال : ﴿ على أَنْ تُعلِّمَنِ ممَّا عُلِّمتَ رُشدًا ﴾ فلم يَجئْ **مُمتَحِنًا ولا مُتعَنِّتًا** ، وإنَّما جاءَ مُتعلِّمًا مُستزيدًا علمًا إلى علمهِ ، وكفى بهذا فَضلًا وشَرفًا للعلم ، فإنَّ نبيَّ اللَّهِ وكليمَهُ سافرَ ورَحلَ حتى لقيَ النَّصَب من سَفرِهِ في تعلُّم ثلاثِ

(١) كما في « صحيح البخاري » (١٧٥) ، ومسلم (١٩٢٩) عن عديِّ بن حاتم .

(٢) كما رواه الدارمي في « الرّد على المَريسيّ » (ص ٣٥) والحاكم (٢ / ٣١٩) والبيهقيّ في « الأَسماء والصفات » (ص ٤٠٣) - وصحّحه الحاكم - عن ابن عُمر رضي اللهُ عنهما .

مسائلَ من رجلٍ عالمٍ، ولمّا سمعَ به لم يَقَرَّ له قرارٌ حتى لقيَهُ، وطلَبَ منه مُتابعَتَهُ وتَعليمَهُ .

وفي قصَّتِهما عِبَرٌ وآياتٌ وحِكَمٌ ليسَ هذا موضعَ ذِكرِها .

فضل التَّفقُّه في الدين

الوجهُ الخامسُ والثَّلاثون : قولُه تعالى : ﴿ وما كانَ المؤمنون ليَنفِروا كافَّةً فلولا نَفَرَ من كلِّ فرقَةٍ منهم طائفةٌ ليَتفَقَّهوا في الدِّين وليُنذِروا قومَهُم إذا رَجَعوا إليهم لعلَّهُم يَحذَرون ﴾ [التَّوبَة : ١٢٢]، نَدَبَ تعالى المؤمنين إلى التَّفقُّهِ في الدِّين؛ وهو تعلُّمُهُ، وإنذارِ قومهم إذا رَجعوا إليهم؛ وهو التَّعليمُ .

وقَد اختُلِف في الآيَةِ، فقيلَ : المعنى : أنَّ المؤمنينَ لم يكونوا ليَنفِروا كلُّهُم للتَّفقُّه والتَّعلُّم، بل يَنبغي أن يَنفِروا من كلِّ فرقةٍ منهم طائفةٌ، تتفقَّه تلك الطَّائفةُ ثمَّ ترجع تُعلِّم القاعدينَ، فيكونُ النَّفيرُ على هذا نَفيرَ تعلُّم، والطَّائفةُ تقالُ على الواحدِ فما زادَ .

قالوا : فهو دليلٌ على قَبولِ خَبرِ الواحدِ[١]، وعلى هذا حَمَلَها الشافعيُّ وجماعةٌ .

وقالت طائفةٌ أُخرى : المعنى : وما كان المُؤمنون لينْفِروا إلى الجهاد كلِّهم، بل يَنبغي أن تَنفِرَ طائفَةٌ للجهاد، وفرقةٌ تقعُدُ تتفقَّهُ في الدِّين، فإذا جاءَت الطَّائفَةُ التي نَفرَتْ فقَّهَتْها القاعِدَةُ وعلَّمَتْها ما أُنزِلَ من الدِّينِ والحلالِ والحرامِ .

وعلى هذا فيكونُ قولُهُ : ﴿ ليَتفقَّهوا ﴾ و ﴿ ليُنذِروا ﴾ للفِرقَةِ التي نَفَرَت منها طائفةٌ، وهذا قولُ الأكثرين .

وعلى هذا فالنَّفيرُ نفيرُ جهادٍ على أصلِهِ[٢] فإنَّهُ حيثُ استُعملَ إنَّما يُفْهَم

---

(١) وأمّا ما يُشَنْشِنُ به بعضُ العقلانيِّين (الجهلة) مِن ردِّ خبَرِ الواحد ! فهو كلامٌ يُخالفُ العقلَ الصَّريحَ والنَّقلَ الصحيحَ ، فلا أُطيلُ .

(٢) فالعلمُ جهادٌ وأيُّ جهادٍ .

منه الجهادُ ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ انْفِروا خِفافًا وثِقالًا وجاهِدوا بأموالِكُم وأنفُسِكُم ﴾ [التوبَة : ٤١]، وقال النَّبيُّ ﷺ : « لا هِجرَة بعدَ الفتحِ، ولكنْ جهادٌ ونيَّة، وإذا استُنفِرتُم فانفِروا »(١)، هذا هو المَعروفُ من هذه اللَّفظَةِ .

وعلى القولين فهو تَرغيبٌ في التَّفقُّه في الدِّين، وتعلُّمِه، وتعليمِه؛ فإنَّ ذلكَ يعدِلُ الجهادَ ، بل رُبَّما يكونُ أفضَلَ منهُ، كما سيأتي تقريرهُ في الوجه الثَّامن والمئة إن شاءَ اللَّهُ تعالى .

صلاح القوّتين العِلميَّة والعَمليَّة

الوجهُ السَّادسُ والثَّلاثون : قولُه تعالى : ﴿ والعَصرِ إنَّ الإنسانَ لفي خُسرٍ إلَّا الَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ وتَواصَوْا بالحَقِّ وتَواصَوْا بالصَّبرِ ﴾، قال الشافعي رضي اللَّهُ عنه: لو فكَّرَ النَّاسُ كلُّهم في هذه السُّورَةِ(٢) لكفَتهُم .

وبيانُ ذلك أنَّ المراتب أربعٌ، وباستكمالِها يحصُلُ للشخصِ غايةُ كمالِهِ :

إحداها : معرفةُ الحقِّ .

الثَّانية : عملُهُ به .

الثَّالثة : تعليمُهُ مَن لا يُحسِنُهُ .

الرَّابعَة : صَبرُهُ على تعلُّمِهِ، والعَملِ به، وتَعليمِهِ .

فَذَكَرَ تعالى المراتبَ الأربعَ في هذه السُّورَة، وأقسَمَ سُبحانهُ في هذه السُّورَةِ بالعَصرِ أنَّ كُلَّ أحدٍ في خُسرٍ، **إلَّا الَّذينَ آمَنوا** وعَملوا الصَّالحاتِ، وهم الذينَ عَرفوا الحقَّ، وصدَّقوا به .

---

(١) رواه البخاري (٣٠٧٧) ، ومسلم (١٣٥٣) عن ابن عباس .

(٢) وفي رسالتي « قاعدةُ النَّصر في ظلالِ سورة العَصر » بيانُ ذلك وتفصيلُه .

فهذه مرتبةٌ .

وعملوا الصَّالحات، وهم الذين عَمِلوا بما عَلِمُوه من الحقِّ .

فهذه مرتبةٌ أُخرى .

وتَواصَوْا بالحقِّ؛ وصَّى به بعضُهم بعضًا؛ تعليمًا وإرشادًا .

فهذه مرتبةٌ ثالثةٌ .

وتَواصَوْا بالصَّبرِ؛ صَبَروا على الحقِّ، ووصَّى بعضُهم بعضًا بالصَّبرِ عليه، والثَّباتِ .

فهذه مرتبةٌ رابعةٌ .

وهذا نهايَةُ الكمالِ؛ فإنَّ الكمالَ أنْ يكونَ الشخصُ كاملًا في نفسه، مُكمِّلًا لغيرِهِ، وكمالُه بإصلاحِ قُوَّتيهِ العِلميَّةِ والعَمليَّةِ، فصلاحُ القُوَّةِ العلميَّةِ بالإيمانِ، وصلاحُ القوَّةِ العَمليَّة بعملِ الصَّالحاتِ، وتكميلِهِ غَيرَهُ، وتعليمِهِ إيَّاهُ، وصبرِهِ عليهِ، وتوصيتِهِ بالصَّبرِ على العلمِ والعملِ .

فهذه السُّورَةُ على اختصارها هي من أجمعِ سُوَرِ القرآن للخيرِ بحذافيرِهِ، والحمدُ للهِ الذي جَعلَ كتابَهُ كافيًا عن كلِّ ما سواهُ، شافيًا من كلِّ داءٍ، هاديًا إلى كلِّ خيرٍ .

العِلمُ بعدَ الجهلِ : مِنَّةٌ

الوجهُ السَّابعُ والثَّلاثون : أنَّهُ سبحانهُ ذكرَ فَضلَهُ ومِنَّتَهُ على أنبيائِهِ، ورسلِهِ، وأوليائهِ، وعبادِهِ، بما آتاهُم من العلمِ؛ فَذَكَرَ نِعمتَهُ على خاتَمِ أنبيائهِ ورسلِهِ بقوله: ﴿ وأنزَلَ الله عَلَيكَ الكتابَ والحِكمَةَ وعلَّمَكَ ما لم تَكُن تَعلَمُ وكانَ فَضلُ اللهِ عَلَيكَ عظيمًا ﴾ [النساء : ١١٣]، وقَد تقدَّمتْ هذه الآيَةُ .

وقال في يوسُف: ﴿ ولـمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتيناهُ حُكمًا وعِلمًا وكذلكَ نَجزي

المُحسِنين ﴾ [يوسف : ٢٢] .

وقال في كليمهِ موسى: ﴿ ولمَّا بَلَغَ أشُدَّهُ واستَوى آتيناهُ حُكمًا وعِلمًا وكذلكَ نَجزي المُحسنين ﴾ [القَصَص : ١٤] .

ولمَّا كانَ الذي آتاهُ موسى مِن ذلك أمرًا عظيمًا؛ خصَّهُ به على غيرِهِ، - ولا يَثبُت له إلّا الأقوياءُ أُولو العَزمِ - هيَّأهُ له بعدَ أن بَلغَ أشدَّهُ واستوى، يَعني : تمَّ وكمُلَت قوَّتهُ .

وقال في حقِّ المسيح : ﴿ يا عيسى ابنَ مريمَ اذكُرْ نِعمَتي عليكَ وعلى والدتكَ إذ أيَّدْتُكَ بِروحِ القُدُسِ تُكلِّمُ النَّاسَ في المَهدِ وكهلًا وإذ علَّمتكَ الكتابَ والحِكمَةَ والتَّوراةَ والإنجيلَ ﴾ [المائدَة : ١١٠] .

وقالَ في حقِّهِ: ﴿ ويُعَلِّمُهُ الكتابَ والحكمَةَ والتَّوراةَ والإنجيلَ ﴾ [آلِ عمران : ٤٨] ، فجعلَ تَعليمَهُ ممَّا بشَّرَ به أُمَّهُ، وأقرَّ عَينها به .

وقال في حقِّ داودَ: ﴿ وآتيناهُ الحِكمَةَ وفَصْلَ الخِطابِ ﴾[ص:٢٠] .

وقال في حقِّ الخَضِرِ صاحبِ موسى وفتاه : ﴿ فَوجدا عَبدًا مِن عبادِنا آتيناهُ رَحمةً من عندِنا وعلَّمناهُ من لَدُنَّا علمًا ﴾ [الكهف : ٦٥]؛ فَذكرَ من نِعَمِهِ عليه تَعليمَه، وما آتاهُ من رَحمةٍ .

وقال تعالى يَذكُرُ نِعمتَهُ على داودَ وسُليمانَ : ﴿ وداودَ وسُليمانَ إذ يَحكُمانِ في الحَرْثِ إذ نَفَشَتْ فيهِ غَنَمُ القَومِ وكنَّا لِحُكمهِم شاهدينَ فَفهَّمناها سُليمانَ وكُلًّا آتينا حُكمًا وعِلمًا ﴾ [الأنبياء : ٧٩]، فذكرَ النَّبيَّيْنِ الكريمَيْنِ، وأثنى عليهما بالحُكمِ والعلمِ، وخصَّ بفَهمِ القَضيَّةِ أحدَهما .

وقَد ذكرتُ الحُكمَينِ الداووديَّ والسُّليمانيَّ وَوَجْهَيْهِما، وَمَنْ صارَ مِن

الأئمَّة إلى هذا، وَمَنْ صارَ إلى هذا، وترجيحَ الحُكمِ السُّليمانيِّ من عدَّة وجوه، ومُوافقتَه للقياس وقواعدِ الشرع في كتابِ « الاجتهاد والتَّقليد » (١).

وقال تعالى : ﴿ قُل مَن أنزَلَ الكتابَ الذي جاءَ به موسى نُورًا وهُدًى للنَّاسِ تجعلونهُ قراطيسَ تُبدونَها وتُخفونَ كثيرًا وعُلِّمتُم ما لم تعلموا أنتُم ولا آباؤكُم قلِ الله ﴾ [الأنعام : ٩١]، يَعني : الذي أنزلَهُ، جعلَ سبحانهُ تعليمَهم ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلًا على صحَّةِ النُّبوَّةِ والرِّسالَةِ؛ إذ لا يُنالُ هذا العلمُ إلّا من جهَةِ الرُّسلِ، فكيفَ يقولونَ : ما أنزَلَ اللَّهُ على بَشرٍ من شيءٍ ؟

وهذا مِن فَضلِ العلمِ وشرَفِهِ، وأنَّهُ دليلٌ على صحَّةِ النُّبوَّةِ والرِّسالَةِ، واللَّهُ المُوفِّق للرَّشاد .

وقال تعالى : ﴿ لقَد منَّ الله على المؤمنينَ إذ بَعَثَ فيهم رَسولًا مِن أنفُسِهِم يَتلو عليهم آياتهِ ويُزكِّيهم ويُعلِّمُهُم الكتابَ والحكمَةَ وإنْ كانوا من قَبلُ لفي ضَلالٍ مُبينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ هُو الذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رَسولًا مِنهُم يَتلو عليهِم آياتهِ ويُزكِّيهِم ويُعلِّمهُم الكتابَ والحِكمَةَ وإنْ كانوا من قَبلُ لفي ضلالٍ مُبينٍ وآخَرينَ منهم لمَّا يَلْحَقُوا بهِم وهو العَزيزُ الحكيمُ ذلك فَضلُ اللهِ يُؤتيهِ من يشاءُ والله ذو الفَضلِ العظيم ﴾ [الجمعة : ٢ - ٤]، يعني : وبَعثَ في آخرينَ منهم لمَّا يَلحقوا بهم .

وقَد اختُلفَ في هذا اللَّحاقِ المَنفيِّ، فَقيلَ: هو اللَّحاقُ في الزَّمانِ، أي:

---

(١) أشارَ إلى هذا الكتابِ المصنِّفُ - رحمه اللَّه - في « تهذيب سُنَن أبي داود » (٦ / ٣٤١) .

ولا نعلمُ عنه شيئًا آخرَ !

يتأخَّر زمانُهُم عنهم، وقيلَ : هو اللَّحاقُ في الفَضلِ والسَّبقِ .

وعلى التَّقديرَين : فامتنَّ عليهم سبحانهُ بأنْ علَّمهُم بعدَ الجَهلِ، وهداهُم بعدَ الضَّلالَةِ، ويا لها من منَّةٍ عَظيمةٍ فاتَت المِنَنَ، وجلَّت أن يَقدِرَ العبادُ لها على ثَمنٍ !

أوّل سُوَر القرآن نزولًا تدلُّ على فضل العلم

الوجهُ الثَّامنُ والثَّلاثون : أنَّ أوَّل سورَةٍ أنزلَها اللَّهُ في كتابِهِ سورَةُ القَلَم؛ فَذَكَرَ فيها ما مَنَّ به على الإنسانِ من تعليمِهِ ما لم يَعلم، فَذكَر فيها فَضلَهُ بتَعليمِهِ، وتَفضيلَهُ الإنسانَ بما علَّمهُ إيَّاهُ، وذلكَ يدُلُّ على شرَفِ التَّعليمِ والعلمِ؛ فقال تعالى : ﴿ اقرَأْ باسْمِ ربِّكَ الَّذي خَلَقَ خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَق اقرَأ وربُّكَ الأكرَمُ الذي علَّمَ بالقَلَمِ علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعلَم ﴾ [العلق : ١-٥] ، فافتتَحَ السُّورَةَ بالأمرِ بالقراءَةِ النَّاشئةِ عن العلمِ، وذكَرَ خَلْقَهُ خُصوصًا وعُمومًا، فقال : ﴿ ... الَّذي خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَقٍ اقرَأ وربُّكَ الأكرَمُ ﴾، وخصَّ الإنسانَ من بينِ المخلوقات؛ لِمَا أودَعهُ من عجائبِهِ وآياتِهِ الدَّالَّةِ على ربوبيَّتِهِ وقُدرتِهِ، وعلمِهِ وحكمتِهِ، وكمالِ رَحمتِهِ، وأنَّهُ لا إلهَ غيرُهُ، ولا ربَّ سواهُ .

وذَكرَ هنا مبدأَ خَلقِهِ مِن عَلَقٍ لكونِ العَلَقَةِ مبدأَ الأطوارِ التي انتقلتْ إليها النُّطفَةُ، فهي مبدأُ تعلُّقِ التَّخليق، ثمَّ أعادَ الأمرَ بالقراءةِ مُخْبِرًا عن نفسهِ بأنَّهُ الأكرَمُ؛ وهو الأفعلُ[1] من الكرم - وهو كثرةُ الخيرِ - ولا أحدَ أولى بذلك منه سبحانهُ؛ فإنَّ الخيرَ كلَّهُ بيدَيهِ، والخيرُ كلُّهُ منه، والنِّعمُ كلُّها هو مولاها، والكمالُ كلُّهُ والمجدُ كلُّه له، فهو الأكرَمُ حقًّا .

ثمَّ ذكرَ تعليمَهُ عُمومًا وخُصوصًا، فقال : ﴿ الذي علَّمَ بالقَلم ﴾، فهذا يدخُلُ فيه تعليم الملائكَةِ والنَّاسِ .

---

(١) يقصدُ المصنّفُ رحمه اللّه صيغةَ (أَفْعَل) ، وهي من صيغ المبالغة .

ثمَّ ذكرَ تعليمَ الإنسانِ خصوصًا ، فقال : ﴿ علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعلَم ﴾ ، فاشتملَتْ هذه الكلماتُ على أنَّهُ مُعطي المُوجوداتِ كلِّها بجميعِ أقسامها ، فإنَّ الوجودَ له مراتبُ أربَعٌ :

إحداها : مرتَبتُها الخارجيَّةُ، المَدلولُ عليها بقوله: ﴿ خَلَقَ ﴾ .

المرتبةُ الثَّانيةُ : الذِّهنِيَّةُ المدلولُ عليها بقولِه : ﴿ علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعلَم ﴾ .

المرتبةُ الثَّالثةُ والرَّابعةُ : اللَّفظيَّةُ والخَطِّيَّةُ، فالخَطِّيَّةُ مُصرَّحٌ بها في قولِه : ﴿ الذي علَّمَ بالقَلَمِ ﴾، واللَّفظيَّةُ من لوازِمِ التَّعليم بالقَلَمِ، فإنَّ الكتابَةَ فرعُ النُّطقِ، والنُّطقُ فَرعُ التَّصوُّر .

فاشتملتْ هذه الكلماتُ على مراتبِ الوجودِ كلِّها ، وأنَّهُ سبحانهُ هو مُعطِيها بخلقهِ وتعليمهِ ، فهو الخالقُ المُعلِّمُ ، وكلُّ شيءٍ في الخارج فبِخَلقهِ وُجِدَ ، وكلُّ علمٍ في الذِّهن فبتعليمهِ حَصَلَ ، وكلُّ لَفظٍ في اللِّسانِ أو خَطٍّ في البنانِ فبأقدارِهِ وخَلقِهِ وتعليمهِ .

وهذا من آياتِ قُدرَتهِ ، وبراهين حكمتهِ ، لا إلهَ إلّا هو الرَّحمن الرَّحيم .

والمقصودُ أنَّهُ سبحانهُ تعرَّفَ إلى عبادهِ بما علَّمهُم إيَّاهُ بحكمتهِ من الخطِّ واللَّفظِ والمعنى، فكانَ العِلمُ أحَدَ الأدلَّةِ الدَّالَّةِ عليه، بل مِن أعظمِها وأظهرِها ، وكفى بهذا شَرفًا وفَضلًا له .

شلطان العلـ **الوجهُ التَّاسعُ والثَّلاثون** : أنَّهُ سبحانهُ سمَّى الحُجَّةَ العلميَّةَ سُلطانًا، قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللَّهُ عنهما : « كلُّ سُلطانٍ في القرآنِ فهو حُجَّةٌ »، وهذا كقولِه تعالى : ﴿ قالوا اتَّخَذَ الله ولَدًا سبحانهُ هو الغَنيُّ له ما في السَّمواتِ وما في

الأرضِ إنْ عندكم مِن سُلطانٍ بهذا أتَقولونَ على اللهِ ما لا تَعلمون ﴾ [يونس : ٦٨]، يعني : ما عندكُم مِن حُجَّةٍ بما قُلتُم ، إنْ هو إلّا قَولٌ على اللّه بلا علمٍ .

وقال تعالى : ﴿ إنْ هيَ إلّا أسماءٌ سَمَّيتُموها أنتُم وآباؤكُم ما أنزَلَ اللهُ بها من سُلطانٍ ﴾ [النجم : ٢٣] ، يعني ما أنزَلَ اللّهُ بها حُجَّةً ولا بُرهانًا، بل هي مِن تِلقاءِ أنفسِكُم وآبائكُم .

وقال تعالى : ﴿ أم لكُم سُلطانٌ مُبينٌ فَأْتُوا بكتابِكُم إنْ كُنتُم صادقِينَ ﴾ [الصافات : ١٥٦] ، يعني : حُجَّةٌ واضحةٌ، فَأْتُوا بها إن كُنتُم صادقِينَ في دَعواكُم .

إلّا مَوضعًا واحدًا اختُلِفَ فيه ، وهو قولُه : ﴿ ما أَغنى عَنِّي مالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلطانيَه ﴾ [الحاقة : ٢٨ - ٢٩] ، فقيلَ : المُرادُ به القُدْرَةُ والمُلكُ ، أي : ذَهَبَ عنّي مالي ومُلكي ، فلا مالَ لي ولا سُلطانَ ، وقيلَ : هو على بابِهِ، أي : انقَطَعَت حُجَّتي ، وبَطَلَت ، فلا حاجَةَ لي .

والمقصودُ أنَّ اللّهَ سبحانهُ سمَّى عِلمَ الحُجَّة سُلطانًا؛ لأنَّها تُوجِبُ تسلُّطَ صاحِبِها واقتدارَهُ ، فله بها سُلطانٌ على الجاهلين، **بل سُلطانُ العلمِ أعظمُ من سُلطانِ اليدِ ، ولهذا يَنقادُ النَّاسُ للحُجَّةِ ما لا يَنقادونَ لليَدِ؛ فإنَّ الحُجَّةَ تنقادُ لها القلوبُ ، وأمَّا اليدُ فإنَّما ينقادُ لها البَدَنُ ، فالحُجَّةُ تأسِرُ القَلبَ وتقودُهُ، وتُذِلُّ المُخالفَ، وإنْ أظهَرَ العنادَ والمُكابَرَة فَقَلبُهُ خاضعٌ لها، ذليلٌ مقهورٌ تحتَ سُلطانها**[1]، بل سُلطانُ الجاهِ إنْ لم يكُن معه علمٌ يُساسُ به ، فهو بمنزلَةِ سُلطانِ السِّباعِ والأُسُودِ ونحوِها ، قُدرةٌ بلا عِلمٍ ولا رَحمَةٍ ،

---

(١) وهذا كلامٌ علميٌّ عالٍ ؛ فَرَحِمَ اللّهُ المؤلِّفَ ، ما أبلغَه وما أعلَمَه !

بخلافِ سُلطانِ الحُجَّةِ، فإنَّهُ قُدْرَةٌ بعلمٍ ورَحمَةٍ وحكمَةٍ، ومَن لم يكُن له اقتدارٌ في علمهِ ، فهو إمَّا لضَعفِ حُجَّتهِ وسلطانهِ ، وإمَّا بقَهرِ سلطانِ اليَدِ والسَّيفِ له ، وإلّا **فالحُجَّةُ ناصرَةٌ نفسَها ، ظاهرَةٌ على الباطلِ قاهرةٌ له .**

الجهل من صفات أهل النّار

الوجهُ الأربعون : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ وَصَفَ أهلَ النَّارِ بالجهلِ ، وأخبَرَ أنَّهُ سدَّ عليهم طُرُقَ العِلمِ ، فقال تعالى حكايَةً عنهُم : ﴿ وقالوا لَو كُنَّا نَسمَعُ أو نَعقِلُ ما كُنَّا في أصحابِ السَّعيرِ فاعتَرَفوا بذَنبهم فسُحقًا لأصحابِ السَّعير ﴾ [الملك : ١٠ - ١١]، فأخبَروا أنَّهم كانو لا يَسمَعونَ ولا يَعقِلونَ .

والسَّمعُ والعقلُ هما أصلُ العلمِ وبهما يُنالُ، وقال تعالى : ﴿ ولَقَد ذَرَأْنا لجهنَّمَ كثيرًا من الجنِّ والإنسِ لهُم قلوبٌ لا يَفقَهونَ بها ولهُم أعيُنٌ لا يُبصِرونَ بها ولهُم آذانٌ لا يَسمَعُونَ بها أولئكَ كالأنعامِ بل هُم أَضَلُّ أولئكَ هم الغافلون ﴾ [الأعراف : ١٧٩]، فأخبَرَ سبحانهُ أنَّهُم لم يحصُل لهم علمٌ من جهَةٍ من جهاتِ العلمِ الثَّلاث ، وهي : العقلُ والسَّمعُ والبَصَرُ ، كما قالَ في موضعٍ آخَر : ﴿ صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فهم لا يَعقِلون ﴾ [البقرة : ١٧] .

وقال تعالى : ﴿ أفلَم يَسيروا في الأرضِ فتَكونَ لهُم قلوبٌ يَعقلونَ بها أو آذانٌ يَسمعونَ بها فإنَّها لا تَعمى الأبصارُ ولكنْ تَعمى القلوبُ التي في الصُّدورِ ﴾ [الحجّ : ٤٦] ، وقال تعالى : ﴿ وجَعَلْنا لهُم سَمعًا وأبصارًا وأفئدَةً فما أغنى عنهُم سمعُهُم ولا أبصارُهُم ولا أفئدتُهُم مِن شيءٍ إذْ كانوا يَجحدونَ بآياتِ اللهِ وحاقَ بهم ما كانوا به يَستهزِءُون ﴾ [الأحقاف : ٢٦]، فقد وصفَ أهلَ الشقاءِ كما ترى بعَدَمِ العِلمِ وشبَّهَهُم بالأنعامِ تارَةً وتارَةً بالحمارِ الذي يحمِلُ الأسفارَ ، وتارَةً جعلهم أضلَّ من الأنعامِ، وتارَةً جعلَهم شرَّ الدَّوابِّ عندهُ، وتارَةً

جعلَهم أمواتًا غيرَ أحياءٍ، وتارةً أخبرَ أنَّهُم في ظُلماتِ الجهلِ والضَّلالِ، وتارةً أخبرَ أنَّ على قلوبهم أكنَّةً، وفي آذانهم وَقرًا، وعلى أبصارهم غشاوَةً .

وهذا كلُّهُ يدلُّ على قُبحِ الجهلِ، وذمِّ أهلِهِ وبُغضهِ لهم، كما أنَّهُ يُحِبُّ أهلَ العلمِ ويمدحُهُم ويُثني عليهم - كما تقدَّم - ، واللَّهُ المُستعان .

الفقه في الدين من علامات الخير

الوجهُ الحادي والأربعون : ما في « الصَّحيحين »[1] من حديثِ مُعاويَةَ رضيَ اللَّهُ عنهُ قال : سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقولُ : « مَن يُرِدِ اللَّهُ به خيرًا يُفقِّهْهُ في الدِّين » ، وهذا يدُلُّ على أنَّ من لم يُفقِّهه في دينهِ لم يُرِدْ به خيرًا، كما أنَّ مَن أرادَ به خيرًا فقَّهَهُ في دينهِ، ومن فقَّهَهُ في دينهِ فقَد أرادَ به خيرًا ، إذا أُرِيدَ بالفقهِ العلمُ المستلزمُ للعَملِ.

وأمَّا إنْ أُرِيدَ به مُجرَّدُ العلمِ فلا يدُلُّ على أنَّ من فَقُهَ في الدِّينِ فقد أُريدَ به خيرًا؛ فإنَّ الفقهَ حينئذٍ يكونُ شرطًا لإرادةِ الخيرِ، وعلى الأوَّلِ يكونُ مُوجِبًا ، واللَّهُ أعلم .

العلمُ كالغيث

الوجهُ الثَّاني والأربعون : ما في « الصَّحيحين »[2] أيضًا من حديثِ أبي موسى رضيَ اللَّهُ عنهُ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ مَثلَ ما بعَثني اللَّهُ به من الهُدى والعلمِ، كمثلِ غيثٍ أصابَ أرضًا، فكانَت منها طائفَةٌ طيِّبَةٌ قَبلَت الماءَ فأنبتَت الكلأَ والعُشبَ الكثيرَ، وكانَ منها أجادبُ أمسَكَت الماء، فنفعَ اللَّهُ بها النَّاسَ، فشربوا منها وسُقوا وزَرعوا، وأصابَ طائفةً منها أُخرى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنبِتُ كلأً؛ فذلكَ مَثَلُ مِن فَقِهَ في دينِ اللَّهِ، ونفعهُ ما بعَثني اللَّهُ به فعَلِمَ وعَلَّمَ ، ومَثَلُ من لم يَرفَع بذلك رأسًا، ولم يقبَل هُدى اللَّهِ الذي أُرسلتُ به » :

---

(١) رواه البخاري (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧) .

(٢) رواه البخاري (٧٩) ، ومسلم (٢٢٨٢) .

شبَّهَ ﷺ العلمَ والهُدى الذي جاءَ به بالغَيثِ؛ لِمَا يحصُلُ بكلٍّ واحدٍ منهما مِن الحياةِ والمنافعِ والأغذيةِ والأدويةِ وسائرِ مصالحِ العبادِ، فإنَّها[1] بالعلمِ والمطرِ .

وشبَّه القُلوبَ بالأراضي التي يقعُ عليها المطرُ لأنَّها المَحَلُّ الذي يُمسِكُ الماءَ، فَيُنْبِتُ سائرَ أنواعِ النَّباتِ النَّافعِ، كما أنَّ القلوبَ تعي العلمَ فيُثمِرُ فيها ويزكو ، وتَظهرُ بركتُهُ وثمرتُهُ .

ثمَّ قسَّمَ النَّاسَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ بحسبِ قَبولهم واستعدادِهم لحفظِهِ، وفَهمِ معانيهِ، واستنباطِ أحكامِهِ، واستخراجِ حِكَمِهِ وفوائدِهِ:

أحدُها : أهلُ الحفظِ والفهمِ الذين حَفِظوهُ وعَقلوهُ، وفهموا معانيَه واستَنبطوا وجوهَ الأحكامِ والحِكَمِ والفوائدِ منه؛ فهؤلاء بمنزلةِ الأرضِ التي قَبِلت الماءَ - وهذا بمنزلَةِ الحفظِ - فأنبَتَت الكلأَ والعُشبَ الكثيرَ - وهذا هو الفَهمُ فيه والمعرفَةُ والاستنباطُ - فإنَّهُ بمنزلةِ إنباتِ الكلأِ والعُشبِ بالماءِ، فهذا مثلُ الحُفَّاظِ الفُقهاءِ ، وأهلِ الرِّوايَةِ والدِّرايَةِ .

القسمُ الثَّاني : أهلُ الحفظِ الذينَ رُزِقوا حفظَهُ ونقلَهُ وضَبطَهُ، ولم يُرزَقوا تفقُّهًا في معانيه ولا استنباطًا ولا استخراجًا لوجوه الحِكَمِ والفوائدِ منه؛ فهم بمنزلةِ مَن يقرأُ القرآنَ ويحفظُهُ ويُراعي حروفَه وإعرابَهُ ولم يُرزَق فيه فَهمًا خاصًّا عن اللَّه، كما قال عليُّ بن أبي طالبٍ - رضيَ اللَّهُ عنه - : « إلّا فَهمًا يؤتيهِ اللَّهُ عَبدًا في كتابِهِ »[2].

---

(١) أي : هذه الأمور كلّها لا حياةَ لها ولا دوامَ إلّا بالعلمِ أو المَطر .
وسيأتي - بَعدُ - في كلامِ المصنّف ما يُبَيِّن ذلك .

(٢) رواه البخاري (١١١) .

والنَّاسُ متفاوتونَ في الفَهمِ عَن اللَّهِ ورسولهِ أعظمَ تفاوتٍ، فرُبَّ شخصٍ يفهمُ من النَّصِّ حُكمًا أو حكمَين، ويفهمُ منه الآخرُ مئةً أو مئتَيْنِ .

فهؤلاء بمنزلةِ الأرضِ التي أمسكَت الماءَ للنَّاسِ فانتَفعوا به؛ هذا يشربُ منه، وهذا يَسقي منه، وهذا يزرعُ .

فهؤلاء القِسمانِ هم السُّعداءُ، والأوَّلون أرفعُ درجةً وأعلى قَدْرًا، ﴿ وذلك فَضلُ اللهِ يُؤتيهِ مَن يشاءُ والله ذو الفَضلِ العظيمِ ﴾ [الجمعة : ٤] .

القسم الثَّالث : الذين لا نَصيبَ لهم منه؛ لا حفظًا ولا فهمًا ولا روايةً ولا درايةً، بل هم بمنزلةِ الأرضِ التي هي قِيعانٌ؛ لا تُنبِتُ ولا تُمسِكُ الماءَ، وهؤلاء هم الأشقياءُ .

والقسمانِ الأوَّلانِ اشتركا في العلمِ والتَّعليم كلٌّ بحسبِ ما قَبِلَهُ ووَصلَ إليهِ؛ فهذا يعلِّمُ ألفاظَ القرآن ويحفظُها، وهذا يعلِّمُ معانيَه وأحكامَه وعلومَه .

والقسم الثَّالث : لا علمَ له ولا تَعليمَ ! فهُم الذينَ لم يَرفَعوا بهدي اللَّهِ رأسًا، ولم يَقبلوهُ، وهؤلاء شرٌّ من الأنعامِ، وهم وقودُ النَّار .

فقَد اشتملَ هذا الحديثُ الشريفُ العظيمُ على التَّنبيهِ على شرفِ العلمِ والتَّعليمِ، وعِظَمِ موقعِهِ، وشقاءِ مَن لَيسَ من أهلِهِ .

وذَكرَ أقسامَ بني آدمَ بالنِّسبَةِ فيه إلى شقيِّهم وسعيدِهم، وتقسيم سعيدِهم إلى سابقٍ مُقرَّبٍ وصاحبِ يمينٍ مُقتَصِدٍ[1] .

وفيه دلالةٌ على أنَّ حاجَةَ العبادِ إلى العلمِ كحاجتهم إلى المَطر، بل أعظمُ، وأنَّهُم إذا فَقَدوا العلمَ فهم بمنزلَةِ الأرضِ التي فَقَدَت الغَيثَ .

قال الإمامُ أحمَد : النَّاسُ مُحتاجونَ إلى العلمِ أكثرَ من حاجتهم إلى

(١) كما في الآية (٣٢) من سورة فاطِر .

الطَّعامِ والشرابِ؛ لأنَّ الطَّعامَ والشرابَ يُحتاجُ إليه في اليومِ مرَّةً أو مرَّتين، والعلمُ يُحتاجُ إليه بعدَدِ الأنفاسِ(١).

وقد قال تعالى: ﴿ أنزَلَ من السَّماءِ ماءً فسالَتْ أوديَةٌ بِقَدَرِها فاحتَمَلَ السَّيلُ زَبَدًا رابيًا ومِمَّا يُوقِدونَ عليه في النَّارِ ابتِغاءَ حِليَةٍ أو مَتاعٍ زَبَدٌ مثلُهُ كذلكَ يَضرِبُ الله الحقَّ والباطلَ ﴾ [الرعد : ١٧]؛ شبَّه سبحانهُ العلمَ الذي أنزلهُ على رسولِه بالماء الذي أنزلَهُ مِن السَّماءِ لِمَا يحصُلُ بكُلٍّ واحدٍ منهما من الحياةِ ومصالحِ العبادِ في معاشِهم ومعادِهم.

ثمَّ شبَّه القلوبَ بالأوديَةِ: فقلبٌ كبيرٌ يَسَعُ علمًا كثيرًا، كوادٍ عظيمٍ يسعُ ماءً كثيرًا، وقلبٌ صغيرٌ إنَّما يسعُ علمًا قليلًا، كوادٍ صَغيرٍ إنَّما يَسَعُ ماءً قليلًا؛ فقال اللَّهُ تعالى: ﴿ فسالَتْ أوديَةٌ بقَدَرِها فاحتَمَلَ السَّيلُ زَبَدًا رابيًا ﴾؛ هذا مَثَلٌ ضربهُ اللَّهُ تعالى للعلم حينَ تُخالِطُ القلوبَ بشاشتُهُ؛ فإنَّهُ يَستخرجُ منها زَبَدَ الشبهاتِ الباطلةِ، فَيَطفو على وجهِ القَلبِ، كما يستخرجُ السَّيلُ من الوادي زَبدًا يعلو فوقَ الماءِ.

وأخبرَ سبحانهُ أنَّهُ رابٍ، أي: يَطفو ويعلو على الماء، لا يَستقرُّ في أرضِ الوادي، كذلك الشبهاتُ الباطلةُ إذا أخرجها العلمُ رَبَتْ فوقَ القلوبِ وطَفَتْ، فلا تستقرُّ فيه بل تُجفى وتُرمى، ويستقرُّ في القلبِ ما ينفعُ صاحبَهُ والنَّاسَ من الهُدى ودينِ الحقِّ، كما يستقرُّ في الوادي الماءُ الصَّافي، ويذهبُ الزَّبدُ جفاءً، وما يعقلُ عن اللهِ أمثالَهُ إلَّا العالِمونَ.

ثمَّ ضربَ سبحانهُ لذلكَ مَثلًا آخَرَ، فقال: ﴿ ومِمَّا يُوقِدونَ عليه في النَّارِ ابتغاءَ حِليَةٍ أو متاعٍ زَبَدٌ مثلهُ ﴾ [الرعد : ١٧]، يعني أنَّ ممَّا يُوقَدُ عليه بنو

---

(١) انظر ما سيأتي (ص ٣٠١).

آدمَ من الذَّهبِ والفضَّةِ والنُّحاسِ والحديدِ يخرجُ منه خَبَثُهُ وهو الزَّبدُ الذي تُلقيهِ النَّارُ وتُخرِجهُ من ذلك الجوهَر بسببِ مُخالطتها، فإنَّهُ يُقذَفُ ويُلقى به ويستقرُّ الجوهَرُ الخالصُ وحدَهُ .

وضَرَبَ سبحانهُ مَثلًا بالماءِ لِمَا فيهِ من الحياةِ والتَّبريدِ والمنفعَةِ، ومَثلًا بالنَّارِ لِما فيها من الإضاءَةِ والإشراقِ والإحراقِ، فآياتُ القرآنِ تُحيي القلوبَ كما تَحْيىٰ الأرضُ بالماءِ، وتُحرقُ خَبثَها وشُبُهاتِـها وشهواتِها وسخائمَها كما تُحرقُ النَّارُ ما يُلقى فيها، وتُمَيِّزُ جيِّدَها من زَبَدِها كما تُميِّزُ النَّارُ الخَبَثَ من الذَّهبِ والفضَّةِ والنُّحاسِ ونحوهِ منه .

فهذا بعضُ ما في هذا المَثلِ العظيمِ من العِبَرِ والعلم ، قال اللَّه تعالى : ﴿ وتلكَ الأمثالُ نضربُها للنَّاسِ وما يَعقلُها إلّا العالِمُون ﴾ [العنكبوت:٤٣] .

هداية العلم من أعظم الهداية

الوجهُ الثَّالثُ والأربعون : ما في « الصَّحيحين »(١)- أيضًا - من حديثِ سَهلِ بن سَعدٍ رضيَ اللَّهُ عنه أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال لعليٍّ رضيَ اللَّهُ عنه : « لَأَنْ يَهديَ بكَ اللَّهُ رجلًا واحدًا خيرٌ لكَ من حُمْرِ النَّعَم »، وهذا يدُلُّ على فَضلِ العلمِ والتَّعليم، وشرفِ منزلةِ أهلهِ، بحيثُ إذا اهتَدى رجلٌ واحدٌ بالعالمِ كان ذلكَ خيرًا له من حُمْرِ النَّعَم - وهي خيارُها وأشرفُها عندَ أهلها - فما الظَّنُّ بمَن يَهتدي به كلَّ يومٍ طوائفُ من النَّاس !!

الدعوة إلى السنّة

الوجهُ الرَّابعُ والأربعون : ما روى مُسلمٌ في « صحيحه »(٢) من حديث أبي هُرَيرَة رضيَ اللَّهُ عنهُ قال : قال رسول اللَّهِ ﷺ : « مَن دَعا إلى هُدًى كانَ له من الأجرِ مثلُ أجورِ مَن تَبعَهُ لا يَنقُصُ ذلك من أجورهم شيئًا، ومَن دعا إلى

(١) رواه البخاري (٣٠٠٩) ، ومسلم (٢٤٠٦) .
(٢) (برقم ٢٦٧٤) .

ضلالةٍ كانَ عليهِ من الإثمِ مثلُ آثامِ مَن تَبِعَهُ لا يَنقُصُ ذلك من آثامهم شيئًا »؛ أخبرَ ﷺ أنَّ المُنتَسِبَ إلى الهُدى بَدعوتهِ له مثلُ أجرِ مَن اهتَدى به، والمتَسبِّبُ إلى الضَّلالةِ بدعوتهِ عليهِ مثلُ إثمِ مَن ضلَّ به؛ لأنَّ هذا بَذلَ قُدرَتَهُ في هدايةِ النَّاس، وهذا بذلَ قُدرتَهُ في ضلالِهم ، فنزّلَ كلَّ واحدٍ منهما بمنزلةِ الفاعلِ التَّامِّ .

وهذه قاعدَةُ الشريعَةِ - كما هو مذكورٌ في غيرِ هذا المَوضع - ؛ قال تعالى : ﴿ لِيَحمِلوا أوزارَهُم كامِلَةً يومَ القِيامَةِ وَمِن أَوزارِ الَّذينَ يُضِلُّونهم بغيرِ علمٍ ألَا ساءَ ما يَزِرُونَ ﴾ [النحل : ٢٥]، وقال تعالى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أثقالَهُم وأثقالًا مَعَ أثقالِهِم ﴾ [العنكبوت : ١٣]؛ **وهذا يدُلُّ على أنَّ مَن دعا الأُمَّةَ إلى غَيرِ سنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ فهو عدوُّهُ حقًّا**؛ لأنَّهُ قَطَعَ وصولَ أجرِ مَن اهتَدى بسنَّتهِ إليه، وهذا من أعظَمِ معاداتهِ، نعوذُ باللَّهِ من الخِذلانِ .

الوجهُ الخامسُ والأربعون : ما خرَّجاهُ في « الصَّحيحين »[1] من حديثِ ابن مَسعودٍ رضيَ اللَّهُ عنه ، قال : قال رَسولُ اللَّهِ ﷺ : « لا حَسَدَ إلّا في اثنَتَين : رجلٌ آتاهُ اللَّهُ مالًا فسلَّطهُ على هَلَكَتِهِ في الحقِّ، ورجلٌ آتاهُ اللَّهُ الحِكمَةَ فهو يَقضي بها ويُعلِّمُها » ؛ فأخبرَ ﷺ أنَّهُ لا يَنبَغي لأحَدٍ أن يَحسُدَ أحدًا - يعني حَسَدَ غِبطَةٍ - ويتمنَّى مثلَ حالِهِ من غيرِ أن يتمنَّى زوالَ نعمَةِ اللَّهِ عنهُ، إلّا في واحدَةٍ من هاتَين الخَصْلتَين؛ وهي الإحسانُ إلى النَّاس بعلمِهِ أو بمالِهِ، وما عَدا هذين فلا يَنبغي غِبطتُهُ ولا تمنِّي مثلِ حالِه ، لقلَّةِ منفعَةِ النَّاس به . العلم فضل العالم

---

(١) رواه البخاري (٧٣) ، ومسلم (٨١٦) .

فضل العالم على العابد

الوجهُ السَّادسُ والأربعون : قال التِّرمذي[1]: حدَّثنا محمَّد بن عبدِالأعلى : حدَّثنا سَلَمَةُ بنُ رجاءَ : حدَّثنا الوليدُ بن جميل[2]: حدَّثنا القاسمُ ؛ عن أبي أُمامَةَ الباهليِّ قال : ذُكِرَ لرسولِ اللَّهِ ﷺ رجلانِ أحدُهما عالمٌ ، والآخَرُ عابدٌ، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « فَضلُ العالمِ على العابدِ كَفَضلي عَلى أدناكُم »، ثمَّ قال رسولُ اللَّه ﷺ : « إنَّ اللَّهَ وملائكتَهُ وأهلَ السَّمواتِ والأرضِ حتّى النَّملَةَ في جُحرِها، وحتّى الحوتَ في بحرِهِ ، لَيُصلُّونَ على مُعلِّمي النَّاس الخَيرَ » .

قال التِّرمذيُّ : هذا حديثٌ حَسَنٌ غَريبٌ، سمعتُ أبا عمَّار الحُسين بن حُريثٍ الخُزاعيَّ، قال: سمعتُ الفُضيلَ بن عِياضٍ يقول : عالمٌ عاملٌ مُعلِّمٌ يُدعى كبيرًا في ملكوتِ السَّمواتِ .

وهذا مرويٌّ عن الصَّحابَةِ ؛ قال ابنُ عبَّاسٍ : عُلماءُ هذه الأُمَّةِ رجلانِ : فرجلٌ أعطاهُ اللَّهُ علمًا فَبَذَلَهُ للنَّاسِ ولم يأخُذ عليهِ صَفَدًا،[3] ولم يَشْتَرِ به ثمنًا، أُولئكَ يُصلِّي عليهم طيرُ السَّماءِ وحيتانُ البَحرِ ودوابُّ الأرضِ والكرامُ

---

(١) في « سننه » (٢٦٨٥) .

ورواه تمّام في « فوائده » (٦٩) ، والطبراني في « الكبير » (٨ / ٢٧٨) ، وابن عبدالبرّ في « الجامع » (١ / ٣٨) من طريق الوليد بهِ .

والوليد : ضعيفٌ .

وله شاهدٌ مرسلٌ : رواه الدّارمي (١ / ٩٧ - ٩٨) عن الحسن بسند فيه انقطاعٌ .

ولطرفه الثاني شاهدٌ عن أبي الدرداء ، سيُورده المصنّف بَعد ...

(٢) في « المطبوع » : « حُميد » !

وانظر له « تهذيب الكمال » (٣١ / ٧ - ٩) و « تهذيب التهذيب » (١١ / ٦٣٢) .

(٣) أي : عطاءً .

الكاتبونَ، ورجلٌ آتاهُ اللَّهُ عِلمًا فضنَّ به عن عبادِهِ، وأخَذ به صَفَدًا واشترى به ثمنًا، فذلكَ يأتي يومَ القيامَةِ مُلْجَمًا بلجامٍ من نارٍ .

ذكرهُ ابنُ عَبدِالبرِّ [١] مرفوعًا ! وفي رَفعِهِ نظرٌ !!

وقولُه : « إنَّ اللَّهَ وملائكتَهُ وأهلَ السَّمواتِ والأرضِ يُصَلُّونَ على معلِّمِ النَّاسِ الخَيرَ » ؛ لمّا كان تعليمُهُ للنَّاسِ الخَير سببًا لنجاتهم وسعادتهم وزكاةِ نُفوسهم ، **جازاهُ اللَّهُ من جنسِ عملِهِ** بأن جعلَ عليهِ مِن صلاتهِ وصلاةِ ملائكتهِ وأهلِ الأرضِ ما يكونُ سببًا لنجاتهِ وسعادتهِ وفلاحهِ .

وأيضًا ؛ فإنَّ مُعلِّمَ النَّاسِ الخيرَ لمّا كانَ مُظهِرًا لدينِ الرَّبِّ وأحكامهِ ومُعرِّفًا لهم بأسمائهِ وصفاتهِ، جعَلَ اللَّهُ مِن صلاتهِ وصلاةِ أهلِ سمواتهِ عليه ما يكونُ تنويهًا به، وتشريفًا له ، وإظهارًا للثَّناءِ عليه بينَ أهلِ السَّماءِ والأرضِ .

الوجه السَّابع والأربعون : ما رواهُ أبو داودَ والتِّرمذي [٢] من حديثِ أبي

---

(١) في « جامع بيان العلم وفضله » (١ / ٣٨) .

ورواه الطبراني في « الأوسط » (٢٠٧ - مجمع البحرين) .

وقال الهيثمي في « المجمع » (١ / ١٢٤) - بعد عزوه لـ « الأوسط » - : « وفيه عبدُاللَّه ابن خِراش ؛ ضعفه البخاري وأبو زُرعة وأبو حاتم وابنُ عديّ ، ووثَّقه ابنُ حبّان ! » .

وجزم بضعفهِ الحافظُ العراقيُّ في « تخريج الإحياء » (١ / ٦٠) .

(٢) رواه أبو داود (٣٦٤١) - والترمذي (٢٦٨٢) ، وأحمد (٥ / ١٩٦) ، كلاهما بإسقاط داود بن جميل - وابنُ ماجه (٢٢٣) ، والدارمي (١ / ٩٨) ، وابن عبدالبرّ في « الجامع » (١ / ٣٩) من طريق عبداللَّه بن داود، عن عاصم بن رجاء، عن داود بن جميل، عن كثير بن قَيس ، عن أبي الدرداء .

قلتُ : وداود بن جميل ضعيفٌ .

ورواية الترمذي - بإسقاطه - أعلّها هو نفسه بأنها ليست مُتّصلة ! =

رضا الملائكة بطالب العلم

الدَّرداء رضيَ اللَّهُ عنهُ قال : سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول : « مَن سَلَكَ طريقًا يبتَغي فيه عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ به طريقًا إلى الجنَّةِ، وإنَّ الملائكَة لَتَضَعُ أجنحتَها رِضًا لطالبِ العلمِ، وإنَّ العالمَ ليَستغفرُ له مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ حتى الحيتانُ في الماءِ، وفضلُ العالمِ على العابدِ كفَضلِ القَمَرِ على سائرِ الكواكبِ، إنَّ العُلَماءَ ورَثَةُ الأنبياءِ، إنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنَّما ورَّثوا العلمَ؛ فمَن أخَذَهُ أخَذَ بحظٍّ وافرٍ » .

وقد رواهُ الوليدُ بن مُسلم(١)، عن خالدِ بن يَزيدَ ، عَن عثمانَ بن أيمَنَ ، عن أبي الدَّرداءِ ، قال : سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول : « مَن غَدا لعلم يتعلَّمُهُ فتحَ اللَّهُ له به طريقًا إلى الجنَّةِ وفَرَشتْ له الملائكَةُ أكنافَها، وصلَّتْ عليه ملائكةُ السَّماءِ وحيتانُ البحرِ، وللعالمِ من الفَضلِ على العابدِ كفَضلِ القمرِ ليلَةَ البَدرِ على سائرِ الكواكبِ، والعلماءُ وَرَثَةُ الأنبياء، إنَّ الأنبياء لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا إنَّما ورَّثوا العلمَ؛ فمَن أخَذَ بالعلمِ أخَذَ بحظٍّ وافرٍ، وموتُ العالمِ مُصيبَةٌ

= وللحديث عند أبي داود (٣٦٤٢) طريقٌ أُخرى يتقوّى بها .

وهو الذي جزم به الحافظ ابن حجَر في « فتح الباري » (١ / ١٦٠) ونقل تحسينه عن حمزة الكِنانيّ .

وطريقٌ ثالثٌ عند الخطيب في « تاريخِه » (١ / ٣٩٨) وفيه انقطاعٌ .

(١) علّقه هكذا ابنُ عبدالبرّ في « الجامع » (١ / ٤٤) .

ووَصله البيهقي في « شعب الإيمان » (١٥٧٦ - طبع الهند) ، وأبو يعلى - كما في « جمع الجوامع » (٢٨٨٢٣ - ترتيبه) - ومن طريقه ابنُ عساكر في « تاريخه » (١١ / ق ٧٣) وفي سنده خالد بن يزيد بن أبي مالك وهو ضعيفٌ، وقد ضعفه بعضهم جدًّا .

وفي إسناده أيضًا عثمان بن أيمن؛ ترجم له ابنُ عساكر في « تاريخه » (١١ / ق ٧٣) دون جرح أو تعديل ، والوليدُ بن مُسلم مِن مُدَلِّسي التسويةِ !

(تنبيه) : قال الدكتور عبدالعليّ عبدالحميد في تعليقه على « الشعب » (٤ / ٣٣٢) : عُثمان بن أيمن لم أعرفه، ولعلّه مصحّف عن « عُثمان بن أبي سودة » !!

قلتُ : والأمر على غير قولِه كما رأيتَ ! .

لا تُجبَرُ ، وثُلمةٌ لا تُسَدُّ، ونجمٌ طُمِسَ، ومَوتُ قَبيلةٍ أيسَرُ من مَوتِ عالِمٍ »، وهذا حديثٌ حَسَنٌ (١).

والطَّريقُ التي يَسلُكُها إلى الجنَّة جزاءٌ على سلوكِهِ في الدُّنيا طريقَ العلمِ الموصلَة إلى رضا ربِّهِ .

وَوضعُ الملائكَة أجنحَتها له تواضُعًا، وتوقيرًا، وإكرامًا لِمَا يَحملُهُ من ميراثِ النبوَّةِ ويطلبُهُ، وهو يدلُّ على المحبَّةِ والتَّعظيمِ؛ فمن محبَّةِ الملائكَةِ له وتعظيمِه تَضَعُ أجنحَتَها له؛ لأنَّهُ طالبٌ لِمَا به حياةُ العالَمِ ونجاتُهُ، فَفيهِ شبَهٌ من الملائكَةِ، وبينَهُ وبينَهُم تناسُبٌ، فإنَّ الملائكَةَ أنصحُ خَلقِ اللَّهِ وأنفعُهم لبني آدم، وعلى أيديهم حَصَلَ لهم كلُّ سعادَةٍ وعلمٍ وهدى، ومِنْ نفعِهم لبني آدم ونُصحِهم أنَّهُم يَستَغفرونَ لمُسيئهم، ويُثنونَ على مؤمنيهم، ويُعينونهم على أعدائهم من الشياطين ، ويحرِصونَ على مصالح العَبدِ أضعافَ حرصِهِ على مصلحَةِ نفسهِ، بل يُريدونَ له من خَيرِ الدُّنيا والآخرَةِ ما لا يُريدُ العَبدُ ولا يَخطُرُ له ببالٍ؛ كما قال بعضُ التَّابعين: وجَدنا الملائكَةَ أنصحَ خَلقِ اللَّهِ لعبادِهِ ، وَوَجَدنا الشياطين أغشَّ الخَلقِ للعباد .

وقال تعالى : ﴿ الَّذينَ يَحمِلُونَ العَرشَ ومَن حَولَهُ يُسَبِّحونَ بحمدِ ربِّهِم ويُؤمنونَ به ويَستَغفرونَ للذينَ آمَنوا ربَّنا وَسِعتَ كُلَّ شيءٍ رَحمَةً وعلمًا فاغفِرْ للَّذينَ تابوا واتَّبعُوا سبيلَكَ وقِهِمْ عَذابَ الجَحيم ربَّنا وأدخِلْهُم جنَّاتِ عَدنٍ التي وعَدتَهُم ومَن صَلَحَ مِن آبائِهِم وأزواجِهِم وذُرِّيَّاتِهِم إنَّكَ أنتَ العَزيزُ الحكيمُ

(١) لعلَّ المصنِّف - رحمه اللَّه - يُريد حُسنَ أصلِ الحديث، وهو الروايةُ السابقةُ عن أبي الدرداء ، فإنْ كان كذلك ؛ فنعم ، وإنْ كان غيرَ هذا ؛ فلا .
نعم؛ بعضُ فِقراته لها شواهد في الحديثِ السابق، لكنَّ فِقراتٍ أخرى منها لا شواهدَ لها .

وَقِهِم السَّيِّئاتِ ومَن تَقِ السَّيِّئاتِ يومَئذٍ فَقَد رَحِمْتَهُ وذلكَ هو الفَوزُ العَظيمُ ﴾ [غافر : ٧ - ٩]، فأيُّ نُصحٍ للعبادِ مثلُ هذا إلّا نُصحُ الأنبياء !

فإذا طَلَبَ العَبدُ العلمَ فَقَد سَعى في أعظَمِ ما يَنصحُ به عبادَ اللّهِ ، فلذلك تُحِبُّهُ الملائكَةُ وتُعظِّمُهُ، حتى تَضَعَ أجنحَتَها له رِضًا ومحبَّةً وتعظيمًا .

قال أبو حاتم الرَّازي: سمعتُ ابنَ أبي أُوَيس يقول : سمعتُ مالكَ بن أنس يقول: مَعنى قولِ رسولِ اللّهِ ﷺ : « تضعُ أجنحَتها » يعني: تبسُطها بالدُّعاء لطالبِ العلمِ بَدَلًا من الأيدي .

وقال أحمدُ بن مَروان المالكي[1] في كتاب « المُجالَسَة » له :

حدَّثنا زكريَّا بنُ عبدالرَّحمن البَصريّ، قال : سمعتُ أحمَدَ بن شُعيب يقولُ : كُنَّا عندَ بَعضِ المُحدِّثين بالبَصرَة فحدَّثَنا بحديثِ النَّبي ﷺ : « إنَّ الملائكَة لتَضَعُ أجنحتَها لطالبِ العلمِ ... »، وفي المجلسِ معنا رجلٌ من المعتزلَة ، فجعَلَ يَستهزِئُ بالحديث ، فقال : واللّهِ لأطرُقَنَّ غدًا نَعلي بمساميرَ، فأطأُ بها أجنحةَ الملائكَة ! فَفَعَل، ومشى في النَّعلين؛ فجفَّتْ رِجلاهُ جميعًا ، ووقَعَتْ في رِجْلَيْهِ الآكِلَةُ .

وقال الطَّبرانيُّ : سمعتُ أبا يَحيى زكريَّا بن يَحيى السَّاجي قال : كُنَّا نمشي في بعضِ أزقَّةِ البَصرَة إلى بابِ بعضِ المُحدِّثين، فأسرَعنا المشيَ، وكانَ معنا رجلٌ ماجنٌ مُتَّهمٌ في دينِهِ، فقالَ : ارفَعوا أرجلَكُم عن أجنحَةِ الملائكَة لا

---

(١) هو الدِّينَوَرِيُّ ، المتوفى بعد سنة (٣٣٢ هـ) ، كما في « السِّيَر » (١٥ / ٤٢٨) ، وانظر - للفائدة أيضًا - « المجالسة » (ق ٢١٥) له ، والخبرُ في « المجالسة » (برقم : ٢١٥١ - نُسختي المخطوطة المرقَّمة) ، والحديثُ المذكورُ عنده سيأتي تخريجُهُ في التعليق التالي .

وانظر « مشيخة أبي عبدالله الرازي » (ص ٩٦) والتعليق عليها .

تَكسروها ! كالمُستهزئِ ؛ فما زالَ من موضعهِ حتّى جفَّت رجلاهُ وسَقَطَ .

وفي « السُّنَن » و « المسانيد »[1] من حديثِ صَفوانَ بن عسَّالٍ، قال: قلتُ: يا رسولَ اللّه ﷺ إنّي جئتُ أطلبُ العلمَ، قال : « مَرحبًا بطالبِ العلمِ؛ إنَّ طالبَ العلم لَتَحُفُّ به الملائكَةُ وتُظِلُّهُ بأجنحتها، فيركبُ بعضُهم بعضًا حتى تبلغَ السَّماء الدُّنيا من حبِّهم لما يطلبُ ... »، وذكرَ حديثَ المَسحِ على الخُفَّين .

قال أبو عَبداللّهِ الحاكم : وإسنادهُ صحيحٌ .

وقال ابنُ عبدالبَر : هو حديثٌ صحيحٌ حَسَنٌ ثابتٌ محفوظٌ مَرفوعٌ، ومثلُهُ لا يُقالُ بالرَّأيِ .

ففي هذا الحديثِ حَفُّ الملائكَةِ له بأجنحتها إلى السَّماء، وفي الأوَّلِ وضعُها أجنحتَها له ؛ فالوضعُ تواضُعٌ وتوقيرٌ وتبجيلٌ ، والحَفُّ بالأجنحَةِ حِفظٌ وحمايَةٌ وصيانةٌ .

فتَضمَّنَ الحديثانِ تَعظيمَ الملائكَة له ، وحُبَّها إيّاهُ ، وحياطَتَهُ وحفظَهُ؛ فلو لم يكن لطالبِ العلمِ إلّا هذا الحظُّ الجزيلُ لكفى بِهِ شَرَفًا وفَضْلًا .

وقولُه ﷺ : « إنَّ العالمَ ليَستغفرُ له مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ حتى الحيتانُ في الماء »؛ فإنَّهُ لمّا كانَ العالمُ سببًا في حُصولِ العلمِ الذي به نجاةُ النُّفوس من أنواعِ المُهلِكات، وكانَ سعيهُ مقصورًا على هذا ، وكانَت نجاةُ العبادِ على يَديهِ ؛ جُوزيَ من جنسِ عملهِ، وجُعِلَ مَن في السَّمواتِ والأرضِ ساعيًا في نجاتهِ من أسبابِ الهَلَكاتِ باستغفارهم له .

(١) رواه أحمد (٤ / ٢٣٩ و ٢٤٠ و ٢٤١) ، والنسائي (١ / ٩٨) ، وابن ماجه (٢٢٦) ، والطبراني (٧٣٥٢) ، وعبدالرزاق (٧٩٥) ، وصحّحه ابنُ خزيمة (١٩٣) ، وابن حبان (٨٦) بسند حسن .

وألفاظُهُ يَقرُبُ بعضُها مِن بعضٍ .

وإذا كانت الملائكَةُ تَستغفرُ للمؤمنين ، فَكَيفَ لا تَستَغفرُ لخاصَّتهم وخُلاصتهم ؟!

وقد قيلَ : إنَّ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ - المستغفرينَ للعالِمِ - عامٌّ في الحيوانات ناطِقها وبهيمِها، طيرِها وغيره .

ويُؤكِّدُ هذا قولُهُ: « حتى الحيتانُ في الماء، وحتى النَّملَةُ في جُحْرِها »، فقيلَ : سَبَبُ هذا الاستغفار أنَّ العالِمَ يُعلِّمُ الخَلْقَ مُراعاةَ هذه الحيواناتِ ويُعرِّفُهم ما يَحِلُّ منها وما يَحرُمُ ، ويُعرِّفُهُم كيفيَّةَ تناولِها ، واستخدامِها ، وركوبِها، والانتفاعِ بها، وكيفيَّةَ ذبحِها على أحسنِ الوجوه وأرفقِها بالحيوان، والعالِمُ أشفَقُ النَّاس على الحيوان ، وأقومُهم ببيان ما خُلقَ له .

وبالجُملَة ؛ فالرَّحمَةُ والإحسانُ التي خُلِقَ بهما ولهما الحيوانُ ، وكُتِبَ لهما حظُّهما منه إنَّما يُعرفُ بالعلمِ، فالعالِمُ مُعرِّفٌ لذلك ، فاستحقَّ أن تَستَغفرَ له البهائمُ، واللَّهُ أعلم .

وقولُه : « وَفَضلُ العالِمِ على العابدِ كفَضلِ القَمَرِ على سائرِ الكواكب » ، تَشبيهٌ مُطابقٌ لحالِ القَمَرِ والكواكب؛ فإنَّ القمرَ يُضيءُ الآفاقَ، ويمتدُّ نورُه إلى العالم، وهذه حالُ العالِم، وأمّا الكوكبُ فنورُهُ لا يُجاوزُ نَفسَهُ، أو ما قَرُبَ منه، وهذه حالُ العابدِ الذي يُضيءُ نورُ عبادَتهِ عليه دونَ غَيرِهِ، وإنْ جاوَزَ نورُ عبادَتهِ غَيرَهُ فإنَّما يُجاوِزُهُ غَيرَ بَعيدٍ ، كما يُجاوزُ ضوءُ الكوكب له مُجاوَزَةً يَسيرةً .

ومِن هذا الأثَرِ (١) المرويُّ : « إذا كانَ يومُ القيامَةِ يقولُ اللَّهُ للعابدِ : ادخلِ

---

(١) رواه الخطيبُ البغداديُّ في « الفقيه والمتفقه » (١ / ٢٠) عن ابن عبّاس مرفوعًا .
وفي سنده محمد بن مروان السُّدِّي وهو متروكٌ .
=

الجنَّةَ؛ فإنَّما كانَت منفعتُكَ لنفسكَ، ويُقالُ للعالِم : اشفَعْ تُشفَّع؛ فإنَّما كانت مَنفعتُكَ للنَّاس » .

وروى ابن جُريج عَن عطاءٍ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللَّهُ عنهما : « إذا كانَ يومُ القيامَة يُؤتى بالعابدِ والفقيهِ، فيُقال للعابد : ادخلِ الجنَّة، ويُقال للفقيه : اشفع تُشفَّع »[(١)].

وفي التَّشبيهِ المذكورِ لطيفةٌ أُخرى : وهو أنَّ الجَهلَ كالليلِ في ظُلمتهِ وحِندسهِ، والعلماءُ والعُبّادُ بمنزلَةِ القَمَرِ والكواكبِ الطَّالعةِ في تلكَ الظُّلمَة، وفَضلُ نورِ العالِم فيها على نورِ العابدِ كفَضلِ نورِ القَمَرِ على الكواكب .

وأيضًا؛ فالدِّينُ قِوامُهُ وزينتُهُ وأمنَتُهُ بعُلمائهِ وعُبَّادهِ، فإذا ذَهَبَ عُلماؤهُ وعُبَّادهُ ذهَبَ الدِّينُ ، كما أنَّ السَّماءَ أَمَنَتُها وزينتُها بقمرها وكواكبها؛ فإذا خُسفَ قمرُها وانتَثَرَتْ كواكبُها أتاها ما تُوعَدُ، وفَضلُ عُلماء الدِّين على العبادِ كفَضلِ ما بينَ القَمَرِ والكواكب .

فإنْ قيلَ : كيفَ وقَعَ تَشبيهُ العالـمِ بالقَمَرِ دونَ الشمسِ ، وهي أعظمُ نورًا ؟

قيل : فيه فائدتان :

إحداهما : أنَّ نورَ القمَرِ لمّا كان مُستفادًا من غيرهِ كانَ تَشبيهُ العالـمِ الذي نورُهُ مُستفادٌ من شمسِ الرِّسالَةِ بالقَمَرِ أولى من تَشبيهِهِ بالشمسِ .

الثَّانية : أنَّ الشمسَ لا يختلفُ حالُها في نورها، ولا يلحقُها محاقٌ[(٢)]،

= وله شواهدُ - شديدةُ الضعف - ذكرها الزَّبيديُّ في « إتحاف السَّادة » (١/١٠٧) فَلتُنظَر . وَرحِمَ اللَّهُ المصنِّف في تحرِّيه بقوله : « وفي الأثَر المرويِّ ... » دون عزوٍ للنَّبي ﷺ .

(١) انظر ما قبلَه .

(٢) مُثلّثة الميم، وهو أن يستترَ القمرُ ، فلا يُرى غدوةً ، ولا عشيةً ، سُمِّي بذلك لأنَّه طلع مع الشمس فَمَحقَتْهُ . « قاموس » (١١٩١) .

ولا تفاوُتٌ في الإضاءة ، وأمَّا القَمَرُ فإنَّهُ يَقلُّ نورهُ ويكثُرُ ، ويمتلىءُ ويَنقُصُ ؛ كما أنَّ العُلماءَ في العلمِ على مراتبِهِم مِن كثرتِه وقلَّتِهِ ، فيُفَضَّلُ كلٌّ منهم في علمِهِ بحسبِ كثرتِهِ وقلَّتِهِ وظهورِهِ وخفائِهِ ، كما يكونُ القمَرُ كذلك ، فعالمٌ كالبَدرِ ليلَةَ تَمامِهِ ، وآخَرُ دونَهُ بليلَةٍ ثانيَةٍ وثالثةٍ ، وما بَعدَها إلى آخرِ مراتبهِ ، وهم دَرجاتٌ عندَ اللَّهِ .

فإنْ قيلَ : تَشبيهُ العلماء بالنُّجوم أمرٌ معلومٌ ، كقولِه ﷺ : « أصحابي كالنُّجوم ... »[1]، ولهذا هي في تَعبيرِ الرُّؤيا عبارَةٌ عن العلماء، فكيفَ وقَعَ تَشبيهُهُم هنا بالقمر ؟

قيلَ : أمَّا تَشبيهُ العُلَماء بالنُّجوم؛ فإنَّ النُّجومَ يُهتَدى بها في ظُلُماتِ البرِّ والبحرِ ، وكذلكَ العلماء، والنُّجومُ زينةٌ للسَّماء، فكذلكَ العلماءُ زينةٌ للأرضِ، وهي رجومٌ للشياطين حائلةٌ بينهم وبين استراقِ السَّمعِ لئلّا يُلَبِّسوا بما يَسْتَرِقُونَهُ من الوَحي الواردِ إلى الرُّسلِ من اللَّهِ على أيدي ملائكتِهِ، وكذلك العلماءُ رجومٌ لشياطين الإنسِ والجنِّ، الذين يُوحِي بَعضُهم إلى بَعضٍ زُخرفَ القولِ غرورًا .

فالعُلماءُ رجومٌ لهذا الصِّنفِ من الشياطين، **ولولاهم لَطُمِسَت معالمُ الدِّين بتلبيسِ المضلِّين** ، ولكنَّ اللَّهَ سبحانهُ أقامَهُم حُرَّاسًا وحَفَظَةً لدينِهِ ، ورُجومًا لأعدائهِ وأعداءِ رُسلهِ .

فهذا وجهُ تَشبيهِهِم بالنُّجوم .

---

(١) رواه ابن عبدالبر في « الجامع » (٢ / ٩١) ، وابن حزم في « الأحكام » (٦ / ٨٢) عن جابرٍ .

وهو حديثٌ ضعيفٌ جدًّا .

وانظر « التلخيص الحبير » (٤ / ١٩٠) و « سلسلة الأحاديث الضعيفة » (رقم ٥٨) .

وأمَّا تَشبيهُهُم بالقَمَرِ ؛ فذلك إنَّما كانَ في مقامِ تَفضيلِهم على أهلِ العبادَةِ المُجرَّدَةِ، ومُوازَنَةِ ما بينهما من الفَضلِ .

والمعنى : أنَّهم يَفضُلونَ العبادَ الذين ليسوا بعلماءَ ، كما يفضُلُ القَمَرُ سائرَ الكواكبِ ، فكلٌّ من التَّشبيهيْنِ لائقٌ بموضعِهِ، والحمدُ للَّه .

وقولُه : « إنَّ العلماءَ ورثَةُ الأنبياء »؛ هذا من أعظمِ المناقبِ لأهلِ العلمِ ؛ فإنَّ الأنبياءَ خيرُ خلقِ اللَّهِ، فوَرَثَتُهُم خيرُ الخَلْقِ بعدَهُم، ولمّا كان كلُّ موروثٍ[1] ينتقلُ ميراثُهُ إلى ورثتهِ - إذ هم الذينَ يقومون مقامَهُ مِن بَعدِهِ -، ولم يكن بعدَ الرُّسلِ مَن يقومُ مقامَهُم في تبليغِ ما أُرسِلوا به إلّا العلماءُ كانوا أحقَّ النَّاسِ بميراثهم .

وفي هذا تَنبيهٌ على أنَّهم أقرَبُ النَّاسِ إليهم؛ فإنَّ الميراثَ إنَّما يكونُ لأقرَبِ النَّاسِ إلى الموروثِ [1]؛ وهذا كما أنَّهُ ثابتٌ في ميراثِ الدِّينار والدِّرهم، فكذلكَ هو في ميراث النبوَّة، واللَّهُ يختصُّ برحمتهِ من يشاءُ .

وفيه - أيضًا - إرشادٌ وأمرٌ للأُمَّةِ بطاعتِهِم، واحترامِهِم، وتعزيرِهِم، وتوقيرِهِم، وإجلالِهِم؛ فإنَّهُم وَرَثَةُ مَن هذه بعضُ حُقوقِهم على الأُمَّةِ، وخُلفاؤهم فيهم .

وفيه تنبيهٌ على أنَّ محبَّتَهُم من الدِّين، وبُغضَهم مُنافٍ للدِّين، كما هو ثابتٌ لموروثِهم .

وكذلكَ مُعاداتُهُم وُمحاربتُهُم معاداةٌ ومحاربةٌ للَّهِ كما هو في موروثِهم .

قال عليٌّ رضيَ اللَّه عنهُ : محبَّةُ العلماء دِينٌ يُدانُ اللَّهُ به .

وقال ﷺ فيما يَرويه عن ربِّهِ عزَّ وجلَّ : « مَن عادى لي وليًّا فَقَد بارَزني

---

(١) كذا في « الأصل » وفي « المطبوع » ، ولعلّ الصواب : « مُورِّث » .

بالمُحارَبةِ ... »[١]، ووَرَثةُ الأنبياء ساداتُ أولياءِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ .

وفيه تنبيهٌ للعلماء على سُلوكِ هَدي الأنبياء وطريقتِهم في التَّبليغ ؛ من الصَّبرِ، والاحتمالِ، ومُقابلةِ إساءَةِ النَّاسِ إليهم بالإحسانِ، والرِّفقِ بهم، واستجلابهم إلى اللَّهِ بأحسَنِ الطُّرُق، وبَذلِ ما يُمكِنُ من النَّصيحَةِ لهم؛ فإنَّهُ بذلكَ يحصُلُ لهم نصيبُهُم من هذا الميراثِ العظيم قَدرُهُ ، الجليلِ خَطَرُهُ .

وفيه - أيضًا - تنبيهٌ لأهلِ العلمِ على تربيَةِ الأُمَّةِ كما يُربِّي الوالدُ وَلَدَهُ؛ فيربُّونهم **بالتَّدريج والتَّرقِّي من صغارِ العلمِ إلى كبارهِ**[٢]، وتحميلِهم منه ما يُطيقونَ ، كما يفعلُ الأبُ بولدِهِ الطِّفل في إيصالِهِ الغِذاءَ إليه؛ فإنَّ أرواحَ البَشرِ بالنِّسبَةِ إلى الأنبياء والرُّسل كالأطفالِ بالنِّسبَةِ إلى آبائهم، بل دونَ هذه النِّسبَةِ بكثيرٍ، ولهذا كلُّ روحٍ لم يُربِّها الرُّسلُ لم تُفلح ولم تَصلُح لصالحةٍ؛ كما قيل :

ومَن لا يُـرَبِّيـهِ الرَّسولُ ويَسقِـهِ   لُبانًا له قَد دَرَّ مِن ثَدْيِ قُدسِهِ
فَـذاكَ لَقيطٌ ما لهُ نسبَةُ الْوَلاَ   ولا يَتعدَّى طَـورَ أبنـاءِ جنسهِ

وقولُه : « إنَّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثوا دينارًا ولا درهمًا، إنَّما ورَّثوا العلمَ »، هذا من كمالِ الأنبياءِ وعِظَمِ نُصْحِهم للأُمَم ، وتمامِ نعمَة اللَّهِ عليهم وعلى أُمَمِهم ، أَنْ أزاحَ جميعَ العِلَل، وحَسَمَ جميعَ الموادِّ التي تُوهِمُ بعضَ النُّفوسِ أنَّ الأنبياءَ من جنسِ الملوكِ الَّذينَ يُريدونَ الدُّنيا ومُلكَها ! فحماهُم سبحانَهُ وتعالى من ذلكَ أَتَمَّ الحمايَة .

ثمَّ لمَّـا كان الغالبُ على النَّاسِ أنَّ أحدَهم يريدُ الدُّنيا لولدِهِ مِن بعـدِهِ

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢) ، وانظر « جامع العُلوم والحِكَم » (ص ٣١٣) للحافظ ابن رجب ، و « السلسلة الصحيحة » (١٦٤٠) لشيخنا الألباني .

(٢) انظر كتابي « علم أصول البدع » (ص ٢٥١) .

ويسعى ويتعبُ ويَحرِمُ نفسَهُ لولدِهِ، سدَّ هذه الذَّريعَة عن أنبيائهِ ورسلهِ، وقطعَ هذا الوَهَم الذي عساهُ أن يُخالطَ كثيرًا من النُّفوس التي تقولُ : فلعلَّهُ إنْ لم يطلب الدُّنيا لنفسهِ فهو يُحصِّلها لولده! فقال ﷺ : « نحنُ معاشرَ الأنبياء لا نُورَثُ، ما تَركنا فهو صَدَقَةٌ »(١) فلم تُورِّثِ الأنبياءُ دينارًا ولا درهمًا وإنَّما ورَّثوا العلمَ .

وأمَّا قولُه تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيمانُ داودَ ﴾ فهو ميراثُ العلمِ والنُّبوَّةِ ، لا غَير، وهذا باتِّفاقِ أهلِ العلمِ من المُفسِّرينَ وغيرهم، وهذا لأنَّ داودَ عليه السَّلامُ كان له أولادٌ كثيرٌ سوى سليمان، فلو كانَ المَوروثُ هو المالَ لم يكُن سُليمان مُختصًّا به .

وأيضًا؛ فإنَّ كلامَ اللّهِ يُصانُ عن الإخبارِ بمثلِ هذا؛ فإنَّهُ بمنزلَةِ أن يُقال: ماتَ فلانٌ وَوَرِثَهُ ابنُهُ، ومنَ المَعلومِ أنَّ كلَّ أحدٍ يرثُهُ ابنُهُ، وليسَ في الإخبارِ بمثلِ هذا فائدةٌ !

وأيضًا؛ فإنَّ ما قَبْلَ الآيَةِ وما بَعدَها يُبيِّنُ أنَّ المُرادَ بهذه الوراثَةِ وراثَةُ العلمِ والنُّبوَّةِ، لا وراثَةُ المالِ، قال اللّهُ تعالى : ﴿ ولَقَد آتينا داوودَ وسُليمانَ عِلْمًا وقالا الحمدُ للهِ الَّذي فضَّلَنا على كثيرٍ مِن عبادهِ المُؤمنين وَوَرِثَ سليمانُ داوودَ ﴾ [النمل : ١٥]، وإنَّما سيقَ هذا لبيانِ فَضلِ سليمانَ وما خَصَّهُ اللّهُ به من كرامتهِ وميراثهِ ما كانَ لأبيهِ من أعلى المواهب، وهو العلمُ والنُّبوَّةُ ؛ ﴿ إنَّ هذا لَهُوَ الفَضلُ المُبين ﴾ [النمل : ١٦] .

وكذلكَ قولُ زكريَّا ﷺ : ﴿ وإنِّي خِفْتُ المَواليَ مِن وَرائي وكانَت امرَأَتي عاقِرًا فَهَبْ لي مِن لَدُنكَ وَليًّا يَرِثُني ويَرِثُ مِن آلِ يَعقوبَ واجعَلْهُ رَبِّ رَضيًّا ﴾ [مريم : ٥ - ٦]، فهذا ميراثُ العلمِ والنُّبوَّةِ والدَّعوَةِ إلى اللّهِ ، وإلّا فلا

(١) رواه البخاري (٦٧٢٨) ، ومسلم (١٧٥٧) .

يُظَنُّ بنبيٍّ كريمٍ أنَّهُ يخافُ عُصبتَهُ أن يَرِثوهُ مالَهُ ، فيسألَ اللَّهَ العَظيمَ وَلَدًا يمنعُهم ميراثَهُ ، ويكونُ أحقَّ به منهم !

وقد نزَّهَ اللَّهُ أنبياءَهُ ورسلَهُ عن هذا وأمثالِهِ .

فبُعدًا لمَن حرَّفَ كتابَ اللَّهِ وردَّ على رسولِهِ كلامَهُ، ونَسَبَ الأنبياءَ إلى ما هم أبرياءُ مُنَزَّهون عنهُ، والحَمدُ للَّهِ على تَوفيقهِ وهدايتِهِ .

ويُذكرُ (١) عن أبي هُرَيرَةَ رضيَ اللَّهُ عنهُ أنَّهُ مرَّ بالسُّوقِ ، فَوجدَهُم في تجاراتهم وبيوعاتهم، فقال: أنتم ههنا فيما أنتُم فيه وميراثُ رسولِ اللَّهِ ﷺ يُقسَّمُ في مسجدِهِ ! فقاموا سراعًا إلى المسجدِ ، فلم يَجدوا فيه إلّا القرآن والذِّكرَ ومجالسَ العلمِ ! فقالوا: أينَ ما قلتَ يا أبا هُرَيرَة ؟ فقال : هذا ميراثُ مُحمَّد ﷺ يُقسَّمُ بين وَرَثتِهِ وليسَ بمواريثكم ودنياكُم .أو كما قال .

وقولُهُ : « فَمَن أخذَهُ أخذَ بحظٍّ وافرٍ » : أعظمُ الحظوظِ وأجداها ما نفعَ العَبدَ ودامَ نفعُهُ له، وليسَ هذا إلّا حظَّهُ من العلمِ والدِّينِ؛ فهو الحظُّ الدَّائمُ النَّافعُ ، الذي إذا انقَطَعَت الحظوظُ لأربابها فهو موصولٌ له أبدَ الآبدين؛ وذلكَ لأنَّهُ موصولٌ بالحَيِّ الذي لا يموتُ ، فلذلكَ لا يَنقطعُ ولا يفوتُ، وسائرُ الحُظوظ تُعدَم وتتلاشى بتلاشي مُتعلَّقاتها، كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنا إلى ما عَمِلوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنثورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣]؛ فإنَّ الغايَةَ لمَّا كانتْ مُنقطعَةً زائلةً تبعَتْها أعمالُهُم، فانقَطَعَت عنهم أحوجَ ما يكونُ العاملُ إلى عملِهِ !

وهذه هي المُصيبَةُ التي لا تُجبَرُ، عياذًا باللَّهِ، واستعانَةً به وافتقارًا، وتوكُّلًا

---

(١) رواه الطبراني في « الأوسط » (٢٠٦ - مجمع البحرين) .
وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١ / ١٢٤) : « وإسناده حسن » !
قلتُ : مع أنَّ فيه مجهولَين !

عليه ، ولا حولَ ولا قوّة إلّا باللّهِ .

وقولُهُ : « موتُ العالمِ مُصيبَةٌ لا تُجبَرُ، وثُلمَةٌ لا تُسَدُّ، ونَجمٌ طُمِسَ، ومَوتُ قَبيلَةٍ أيسَرُ من موتِ عالمٍ » : لمَّا كانَ صلاحُ الوُجود بالعلماء، ولولاهم كانَ النَّاسُ كالبهائمِ بل أسوأَ حالًا، كانَ موتُ العالمِ مُصيبَةً لا يَجبُرها إلّا خَلَفُ غيرِهِ له .

وأيضًا؛ **فإنَّ العلماءَ هم الَّذينَ يَسُوسونَ العبادَ والبلادَ والممالكَ**[1]، **فموتُهم فسادٌ لنظامِ العالمِ**؛ ولهذا لا يزالُ اللَّهُ يَغرِسُ في هذا الدِّين منهم خالفًا عن سالفٍ، يحفظُ بهم دينَهُ وكتابَهُ وعبادَهُ .

وتأمَّلْ إذا كانَ في الوجودِ رجلٌ قَد فاقَ العالِمَ في الغنى والكرم، وحاجتُهم إلى ما عندَهُ شديدةٌ، وهو مُحسِنٌ إليهم بكلِّ مُمكنٍ، ثمَّ ماتَ وانقَطَعَتْ عنهم تلكَ المادَّةُ ! فموتُ العالمِ أعظمُ مُصيبةً من موتِ مثلِ هذا بكثيرٍ .

ومثلُ هذا يموتُ بموتهِ أمَمٌ وخلائقُ ، كما قيل :

تَعَلَّمْ ما الرَّزيَّةُ فَقْدَ مالٍ ... ولا شاةٌ تَموتُ ولا بَعيرُ

ولكنَّ الرَّزِيَّةَ فَقْدُ حُرٍّ ... يموتُ بمَوتهِ بَشرٌ كثيرُ

وقال آخرُ :

فما كانَ قَيسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ ... ولكنَّـهُ بُنيانُ قومٍ تَهَدَّما

الوجهُ الثَّامنُ والأربعون : ما رَوى التِّرمذيُّ[2] من حديثِ الوَليدِ بن مُسلمٍ : حدَّثنا رَوحُ بن جَناحٍ ، عن مُجاهدٍ ، عن ابن عبَّاسٍ رضيَ اللَّهُ عنهما ، شدَّة الفقيه على الشيطان

---

(١) أنَّى لهم هذا – اليوم – في ظلِّ هذا الواقع النَّكد الذي تعيشُه الأمّة بعيدًا عن هدي الوَحيَين العظيمين !! فلا أقلَّ مِن أن يعيَ ذلك الدُّعاة وطلبةُ العلمِ !

(٢) (برقم ٢٦٨١) .

ورواه ابن ماجه (٢٢٢) ، والطبراني في « الكبير » (١١ / ٧٨) ، وابن حبان في =

قال : قال رسولُ اللّهِ ﷺ : « فقيهٌ واحِدٌ أشدُّ على الشيطان من ألفِ عابدٍ » .

قال التِّرمذيُّ : غريبٌ لا نَعرفهُ إلّا من هذا الوجه من حديثِ الوَليد بن مُسلم .

قلتُ: قَد رواهُ[1] أبو جَعفَر محمَّد بن الحسَن بن علي اليَقطيني : حدَّثنا عُمر ابن سَعيد بن سِنانٍ: حدَّثنا هشام بن عمَّار: حدَّثنا الوَليدُ بن مُسلم: حدَّثنا روحُ بن جَناح ، عن الزُّهري ، عن سعيد بن المُسيِّب، عن أبي هُرَيرَة عن النَّبي ﷺ .

قال الخطيبُ:[2] والأوَّلُ هو المحفوظُ عن روح، عن مجاهد، عن ابن عبَّاس، وما أرى الوَهَمَ وقعَ في هذا الحديث إلّا من أبي جعفر؛ لأنَّ عُمَرَ بن سِنان عنده: عن هشام بن عمَّار، عن الوَليد، عن رَوْح، عن الزُّهري، عن سعيد حديثُ: « في السَّماء بيتٌ يقالُ له: البَيتُ المَعمورُ حيالَ الكعبَةِ »[3] وحديثُ ابن عبَّاسٍ ،كانا في كتابِ ابن سنانٍ عن هشام يتلو أحدَهما الآخرَ؛ فكتبَ أبو جعفَر إسنادَ حديثِ أبي هُرَيرَة رضيَ اللّهُ عنهُ، ثمَّ عارَضَهُ سهوٌ أو زاغَ نظرهُ ، فنزلَ إلى متنِ حديث ابن عبَّاس، فركَّبَ متنَ هذا على إسنادِ هذا ، وكلٌّ واحدٍ منهما ثقةٌ مأمونٌ، بريءٌ من تعمُّدِ الغلط .

= « المجروحين » (١ / ٢٩٥) ، وابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (١ / ٢٦) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١ / ٢٤) ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١٩٢) .

وقولُ الترمذيِّ : « غريبٌ » بمعنى : ضعيفٌ .

وهو حديثٌ ضعيفٌ جدًّا شبهُ موضوعٍ .

(١) وهذه الرواية في « الفقيه والمتفقه » (١ / ٢٤) .

(٢) في « الفقيه والمتفقه » (١ / ٢٥) .

(٣) أخرجه ابنُ عديّ في « الكامل » (٣ / ١٠٠٤) عن أَبي هُريرة .

وحَكَمَ ابنُ الجوزيِّ في « الموضوعات » (١ / ١٤٦) بأنَّه كذبٌ .

وقال أبو أحمد الحاكم : « لا أصل له » .

كذا في « ميزان الاعتدال » (٢ / ٥٧) .

وقد رواهُ أبو أحمدَ بنُ عديّ (١) عن محمَّد بن سَعيد بن مِهران : حدَّثنا شيبانُ : حدثنا أبو الرَّبيعِ السَّمَّان، عن أبي الزِّناد، عن الأعرج، عن أبي هُرَيرَة رضيَ اللَّهُ عنهُ، قال : قال رسول اللَّهِ ﷺ : « لكلِّ شيءٍ دعامَةٌ، ودعامَةُ الإسلامِ الفقهُ في الدِّين، والفقيهُ أشدُّ على الشيطان من ألفِ عابدٍ » .

ولهذا الحديثِ(٢) علَّةٌ؛ وهو أنَّهُ رُوي من كلام أبي هريرَة، وهو أشبهُ؛ رواه هانىء بن يَحيى : حدَّثنا يَزيدُ بن عِياضٍ : حدَّثنا صَفوانُ بن سُليم ، عن سُليمان ابن يسارٍ ، عن أبي هُرَيرَة رضيَ اللَّهُ عنه ، قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « ما عُبِدَ اللَّهُ بشيءٍ أفضلَ من فقهٍ في الدِّين » .

قال : وقال أبو هُرَيرَة: لَأَنْ أفقهَ ساعةً أحبُّ إليَّ من إحياءِ لَيلَةٍ أُصلِّيها حتى أُصبحَ، والفَقيهُ أشدُّ على الشيطان من ألفِ عابدٍ، ولكلِّ شيءٍ دعامَةٌ ودعامَةُ الدِّين الفقه (٣).

وقد رُويَ بإسنادٍ فيه مَنْ لا يُحتجُّ به من حديثِ عاصمِ بن أبي النُّجود ، عن زِرِّ بن حُبيش ، عن عمر بن الخطَّاب يرفعُهُ : « إنَّ الفقيهَ أشدُّ على الشيطان من ألفِ وَرِع وألفِ مُجتهد وألفِ مُتَعبِّد »(٤).

---

(١) في « الكامل » (١ / ٣٦٩) .
ورواه الخطيب في » الفقيه » (١ / ٢١) ، وأبو نُعَيم في « الحلية » (٢ / ١٩٢) .
وفي سندهِ كذّابٌ .

(٢) يُريد حديثَ : « فقيهٌ واحدٌ أشدُّ على الشيطان من ألف عابدٍ » .

(٣) هذه الرواية عند الخطيب في « الفقيه » (١ / ٢٥ ، ٢٦) .
وأصلُ الحديث رواه ابن عبدالبر في « الجامع » (١ / ٣٢)، والدارقطني (٣ / ٧٩) ، وأبو نُعيم في « الحلية » (٢ / ١٩٢)، والطبراني في « الأوسط » (٢٠١)، والآجرّي في « أخلاق العُلماء » (٩) .
وقال الهيثمي في « المجمع » (١ / ١٢١) : « وفيه يزيد بن عِياض، وهو كذّاب » .

(٤) رواه الخطيبُ في « الفقيه » (١ / ٢٦) .

وقال المُزَني : رُويَ[١]عن ابن عبَّاسٍ أنَّهُ قال : إنَّ الشياطين قالوا لإبليسَ : يا سيِّدنا ما لنا نَراكَ تَفرَحُ بموتِ العالمِ ما لا تَفرَحُ بموتِ العابدِ، والعالمُ لا نُصيبُ منه والعابدُ نُصيبُ منه، قال: انطَلقوا، فانطَلقوا إلى عابدٍ فأَتَوْهُ في عبادَتهِ فقالوا : إنَّا نُريدُ أن نسألكَ ! فانصَرَف ، فقال إبليس : هل يَقدرُ ربُّكَ أن يجعَلَ الدُّنيا في جوفِ بَيضَة ؟ فقال : لا أدري، فقال: أترونَهُ كَفرَ في ساعَةٍ ؟! ثمَّ جاؤوا إلى عالمٍ في حلقتهِ يُضاحكُ أصحابَهُ ويُحدِّثهم، فقالوا : إنَّا نريدُ أن نسألكَ ! فقال : سَل، فقال : هَل يَقدِرُ ربُّكَ أن يَجعَلَ الدُّنيا في جَوفِ بَيضَةٍ ؟ قال : نعم ، قالوا : كيفَ ؟ قال : يقولُ : كُن فَيكون ؟ فقال : أترونَ ذلكَ لا يَعدو نَفسَهُ، وهذا يُفسِدُ عليَّ عالَمًا كثيرًا .

وقد رُوِيَتْ هذه الحكايَةُ على وجهٍ آخر ، وأنَّهُم سألوا العابدَ فقالوا : هَل يَقدِرُ ربُّكَ أن يَخلُقَ مثلَ نَفسهِ ؟ فقال : لا أدري، فقال: أترونَهُ لم تَنفعْهُ عبادتُهُ مع جهلهِ ! وسألوا العالمَ عن ذلكَ ؟ فقال : هذه المسألةُ مُحالٌ ؛ لأنَّهُ لو كان مثلُهُ مخلوقًا، فكونهُ مخلوقًا وهو مثلُ نفسهِ مستحيلٌ، فإذا كان مخلوقًا لم يكن مثلَه ، بل كان عبدًا من عبيدِه ، وخلقًا من خَلقهِ، فقال : أترونَ هذا يَهدمُ في ساعَةٍ ما أبنيه في سنين ! أو كما قال .

ورُوِيَ عن عبداللّهِ بن عُمر : « فَضلُ العالمِ على العابدِ سَبعينَ درجَةً بينَ كلِّ درجَتين حُضْرُ[٢] الفرسِ سبعين عامًا »[٣]، وذلك أنَّ الشيطان يضعُ البدعَة

---

(١) وهي قصَّة ظاهرة الصَّنعة ، واللّهُ أعلم .

وقد أوردها هكذا - مُعضَلةً - الخطيب في « الفقيه » (١ / ٢٦) .

(٢) هو ارتفاعه في عَدوهِ ، « القاموس » (٤٨١) .

(٣) وسيأتي تخريجُ هذا الأثرِ - وقد رُوي مرفوعًا - في الوجه التاسع عشر بعد المئة .

فيُبصِرها العالمُ فيَنهى عنها، والعابِدُ مُقبلٌ على عبادةِ ربِّهِ لا يتوجَّهُ لها ولا يَعرفها !

وهذا معناهُ صحيحٌ؛ فإنَّ العالمَ يُفسِدُ على الشيطانِ ما يَسعى فيه ويَهدمُ ما يبنيهِ ، فكلَّما أرادَ إحياءَ بدعَةٍ وإماتَةَ سنَّةٍ حالَ العالِمُ بينَهُ وبينَ ذلكَ ، فلا شيءَ أشدُّ عليه من بقاءِ العالمِ بين ظَهرانَي الأُمَّةِ، ولا شيءَ أحبُّ إليه من زوالِهِ من بينَ أظهُرهم ، ليتمكَّنَ من إفسادِ الدِّين وإغواءِ الأُمَّة، وأمَّا العابدُ فغايتهُ أن يُجاهدَ ليسلَمَ منه في خاصَّةِ نفسه، وهيهاتَ له ذلك !

العلم يستثني صاحِبَه من اللّعن

الوجهُ التَّاسعُ والأربعون : ما روى التِّرمذيُّ[1] من حديثِ أبي هُرَيرَة رضيَ اللَّهُ عنه ، قال : سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول : « الدُّنيا ملعونَةٌ ، ملعونٌ ما فيها ، إلّا ذكرُ اللَّهِ وما والاه وعالمٌ ومتعلِّمٌ » .

قال التِّرمَذيُّ : هذا حديثٌ حَسَنٌ .

ولمّا كانت الدُّنيا حَقيرَةً عندَ اللَّهِ لا تُساوي لديهِ جناحَ بعوضَةٍ[2] كانَت - وما فيها - في غايَةِ البُعدِ منه، وهذا هو حقيقةُ اللَّعنَة، وهو سبحانهُ إنَّما خَلَقها

---

(١) (برقم ٢٣٢٣) .

ورواه - أيضًا - ابن ماجه (٤١١٢)، والبيهقي في « الشعب » (١٥٨٠)، وابن أبي عاصم في « الزهد » (١٢٦)، والبغوي في « شرح السنة » (٤٠٢٨)، وابن عبدالبر في « الجامع » (١ / ٢٧ - ٢٨)، وابن الجوزي في « الواهيات » (١٣٣٠) من طريق سفيان عن عطاء بن قُرّة عن عبدالله بن ضَمرة عن أبي هريرة .

وحسَّنَهُ التِّرمِذيُّ .

وانظر « تهذيب الكمال » (١٥ / ١٢٩ - ١٣٠) .

وللحديث طُرُقٌ أُخرى عن عَدَدٍ من الصحابة .

(٢) كما صحَّ عنه ﷺ ، في الحديث الذي رواه الترمذي (٢٣٢١) وابنُ ماجه (٤١١٠) وغيرُهما من طرقٍ ، وهو حديثٌ صحيحٌ ؛ انظر تخريجه في « الصحيحة » (٩٤٣) .

مزرَعَةً للآخرَة [١] ومَعْبَرًا إليها يتزوَّدُ منها عبادُه إليه، فلم يكن يُقَرِّبُ منها إلّا ما كانَ مُتضمِّنًا لإقامَةِ ذكرِهِ ومُفْضِيًا إلى محابِّهِ ، وهو العلمُ الذي به يُعرَفُ اللَّهُ ، ويُعبَدُ ، ويُذكَر، ويُثنى عليه ، وبهِ يُمَجَّدُ، ولهذا خلقها وخلَقَ أهلها؛ كما قالَ تعالى : ﴿ وما خَلَقتُ الجنَّ والإنسَ إلّا ليَعبدون ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، وقال : ﴿ الله خَلَقَ سبعَ سمواتٍ ومنَ الأرضِ مثلَهُنَّ يتَنزَّلُ الأمرُ بينهنَّ لتعلموا أنَّ الله على كلِّ شيءٍ قَديرٌ وأنَّ الله قَد أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

فتضمَّنت هاتانِ الآيتانِ أنَّهُ سبحانهُ إنَّما خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ وما بينهما ليُعرَفَ بأسمائِهِ وصفاتِهِ ، وليُعبَد .

فهذا المطلوبُ وما كانَ طريقًا إليه منَ العلمِ والتَّعليم لهو المُستثنى من اللَّعنَة ، واللَّعنةُ واقعةٌ على ما عَدَاهُ؛ إذ هو بَعيدٌ عن اللَّهِ وعَن محابِّه وعَن دينهِ .

وهذا هو مُتَعَلَّق العقاب في الآخرَة؛ فإنَّهُ كما كانَ مُتعلَّقَ اللَّعنَةِ التي تتضمَّن الذَّمَّ والبُغضَ فهو مُتعلَّقُ العقاب، واللَّهُ سبحانهُ إنَّما يُحِبُّ من عبادهِ ذكرَه وعبادتَهُ ومعرفتَهُ ومحبَّتَهُ ولوازمَ ذلكَ وما أفضى إليه ، وما عَداهُ فهو مبغوضٌ له ، مذمومٌ عندَهُ .

الوجهُ الخمسون : ما رواه التِّرمذي [٢] من حديثِ أبي جَعفَر الرَّازي ،

---

(١) هذا تعبيرٌ جميلٌ في وَصفِ الدنيا .
وربَّما نسبه (البعضُ) إلى النَّبي ﷺ !
ولا يصحُّ ذلك عنه؛ فانظر « تخريج الإحياء » (١٩/٤)، و « الأسرار المرفوعة » (١٩٩) .
(٢) (برقم ٢٦٤٧) .
ورواه الطبراني في « الصغير » (١٣٦/١)، والعُقيلي في « الضعفاء » (١٧/٢)، والآجري =

طَلَبُ العلمِ في سبيل اللَّه سبحانه

عن الرَّبيع بن أنس [، عَنْ أَنَس ،] قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « مَن خَرَجَ في طلبِ العلمِ فهو في سبيلِ اللَّهِ حتى يرجع » .

قال التِّرمذي: هذا حديثٌ حَسَنٌ غَريبٌ، رواهُ بعضهم فلم يَرفعهُ .

وإنَّما جُعِلَ طَلَبُ العلمِ من سبيلِ اللَّهِ لأنَّ به قَوامَ الإسلام، كما أنَّ قَوامَهُ بالجهادِ ، فَقَوامُ الدِّين بالعلمِ والجهادِ .

ولهذا كانَ الجهادُ نوعين : جهادٌ باليَدِ والسِّنانِ؛ وهذا المُشاركُ فيه كثيرٌ، والثَّاني : **الجهادُ بالحُجَّةِ والبيانِ؛ وهذا جهادُ الخاصَّة من أتباعِ الرُّسلِ، وهو جهادُ الأئـمَّة، وهو أفضلُ الجهادَين لعظمِ منفعتهِ وشدَّةِ مُؤنتهِ وكثرَةِ أعدائهِ**[1]، قال تعالى في سورة الفرقان [٥١-٥٢] وهي مَكيَّة : ﴿ ولو شِئنا لَبَعَثْنا في كُلِّ قَريَةٍ نَذيرًا فلا تُطِعِ الكافرينَ وجاهِدْهُم بهِ جهادًا كبيرًا ﴾ .

فهذا جهادٌ لهم بالقرآن وهو أكبرُ الجهادَين، وهو جهادُ المنافقين أيضًا؛ فإنَّ المنافقين لم يكونوا يُقاتلونَ المسلمين، بل كانوا معهم في الظَّاهرِ ، وربَّما كانوا يقاتلونَ عدوَّهُم معهم، ومع هذا فقد قال تعالى : ﴿ يا أيُّها النَّبيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ والمُنافقين واغلُظْ عَلَيهم ﴾ [التوبة : ٧٣]، ومعلومٌ أنّ جهادَ المنافقين بالحُجَّةِ والقرآن .

= في « أخلاق العلماء » (٢٨) ، وابن عبدالبر في « الجامع » (١ / ٥٥) ، وأبو نُعيم في « الحلية » (١٠ / ٢٩٠) ، وفي « أخبار أصبهان » (١ / ١٠٣) .

وفي إسناده أبو جعفر الرازي ؛ وهو سَيِّئُ الحفظ، ومثله خالد بن يزيد .

وما بين المعكوفتين ساقطٌ من المطبوع !

(١) فلْيتأمَّلْ هذا دُعاةُ الإثارةِ العاطفية ، والتهييج الحماسيّ السِّياسيّ !

وَلْتُنْظَر رسالتي « ضوابط الأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر عند شيخ الإسلام ابن تيميّة » .

والمقصودُ أنَّ سبيلَ اللَّهِ هي الجهادُ وطلبُ العلمِ ودعوةُ الخَلْقِ به إلى اللَّه، ولهذا قال مُعاذٌ رضيَ اللَّهُ عنه: عليكم بطَلبِ العلمِ؛ فإنَّ تعلُّمَهُ للَّهِ خشيَةٌ، ومُدارَستَهُ عبادَةٌ، ومُذاكرتهُ تَسبيحٌ، والبَحثَ عنهُ جهادٌ.(١)

ولهذا قَرَنَ سبحانهُ بينَ الكتابِ المنزَّلِ والحديدِ النَّاصر، كما قال تعالى: ﴿ لَقَد أرسَلْنا رُسُلَنا بالبَيِّناتِ وأنزَلْنا مَعَهُم الكتابَ والميزانَ ليَقومَ النَّاسُ بالقِسطِ وأنزَلنا الحَديدَ فيهِ بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للنَّاسِ وليَعلَمَ الله مَن يَنصُرُه ورُسُلَهُ بالغَيبِ إنَّ الله قَويٌّ عَزيز ﴾ [الحديد: ٢٥]، فذكرَ الكتابَ والحديدَ، إذ بهما قَوامُ الدِّينِ، كما قيل:

فما هوَ إلّا الوَحيُ أو حَدُّ مُرهَفٍ تُمِيلُ ظِباهُ أخْدَعَي كُلِّ مائلِ

فهذا شفاءُ الدَّاء من كلِّ عاقلٍ وهذا دواءُ الدَّاءِ من كلِّ جاهلِ

ولمَّا كانَ كلٌّ من الجهادِ بالسّيفِ والحُجَّةِ يُسمَّى سبيلَ اللَّهِ، فسَّرَ الصَّحابَةُ رضيَ اللَّهُ عنهم قولَه: ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرَّسولَ وأُولي الأمرِ منكُم ﴾ [النساء: ٥٩]، بالأُمراء والعلماء؛ فإنَّهُم المُجاهِدون في سبيلِ اللَّهِ؛ هؤلاء بأيديهم وهؤلاء بألسنتهم، **فطَلَبُ العلمِ وتعليمُه من أعظمِ سبيلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.**

قال كعبُ الأحبار: طالبُ العلمِ كالغادي الرّائحِ في سبيلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

---

(١) رواه - مرفوعًا - ابنُ عبدالبر في « جامع بيان العلم » (١ / ٦٥) وقال: « ليس له إسنادٌ قويٌّ، وقد رُوِّيناه من طرق شتّى موقوفًا ».

وانظر « الترغيب والترهيب » (١ / ٩٥)، و « تخريج الإحياء » (١ / ١١)، و « تنزيه الشريعة » (١ / ٢٨١).

وسيأْتي زيادةُ بيانٍ وتخريجٍ له في الوجه العاشر بعد المئةِ.

وجاءَ عن بَعضِ الصَّحابَةِ رضيَ اللَّهُ عنهُم: إذا جاءَ المَوتُ طالبَ العلمِ وهو على هذه الحال ماتَ وهو شهيدٌ .

وقال سفيانُ بن عُيَينَة : من طَلَبَ العلمَ فَقَد بايَعَ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ .

وقال أبو الدَّرداء : مَن رأى الغُدُوَّ والرَّواحَ إلى العلمِ ليسَ بجهادٍ فَقَد نقَصَ عقلَه ورأْيَه[١] .

الوَجهُ الحادي والخمسون : ما رواهُ التِّرمذي[٢]: حدَّثنا محمودُ بن غَيلان: حَدَّثنا أبو أُسامَة، عَن الأعمَش، عَن أبي صالح، عن أبي هُرَيرَة، قال : قال رسول اللَّهِ ﷺ : « مَن سَلَكَ طريقًا يلتَمِسُ فيهِ علمًا سهَّلَ اللَّهُ له طريقًا إلى الجنَّة » . طلب العلم طريق الجنة

قال التِّرمذي : هذا حديثٌ حسنٌ .

قال بعضُهم : ولم يقُل في هذا الحديث : صحيحٌ ؛ لأنَّهُ يقالُ : دلَّسَ الأعمشُ في هذا الحديث؛ لأنَّهُ رَوَاهُ بعضُهم[٣]فقالَ : حُدِّثتُ عن أبي صالحٍ[٤]!

والحديثُ رواهُ مسلم في « صحيحه »[٥] من أوجهٍ عن الأعمش عن أبي صالح .

---

(١) « جامع بيان العلم » (رقم ١٥٩) .

(٢) (برقم ٢٦٤٦) .

(٣) هو أسباط بن محمد؛ رواه عنه النسائي في « الكبرى » (٧٢٩٠) .

ولكنّ روايةَ الجماعة - كما سيأتي - أرجحُ ؛ لكثرتهم وثقتِهم ، ولأنَّ إحدى روايات مسلم فيها التَّصريحُ بالتحديث .

(٤) ولو قُلنا بهذا؛ لكان السند ضعيفًا لجهالة شيخ الأعمش !

(٥) (برقم ٢٦٩٩) .

ورواه أحمد (٢ / ٢٥٢ و ٣٢٥ و ٤٠٧)، وأبو داود (٣٦٤٣)، وابن ماجه (٢٢٥)، وأبو خيثمة في « العلم » (٢٥)، والبغوي في « شرح السنة » (١٣٠) والآجُرّي في « أخلاق العُلماء » (٢٧)، من طرق عن الأعمش به .

قال الحاكمُ في « المُستدرك »(١): هو صحيحٌ على شرطِ البخاري ومسلم؛ رواهُ عن الأعمش جماعةٌ؛ منهم زائدَةُ وأبو مُعاويَةَ وابنُ نُمير .

وقَد تقدَّمَ حديثُ أبي الدَّرداء في ذلك، فالحديث محفوظٌ وله أصلٌ .

وقَد تظاهَرَ الشرعُ والقَدَرُ على انَّ **الجزاء من جنسِ العملِ**، فكما سلكَ طريقًا يطلبُ فيه حياةَ قلبِهِ ونجاته من الهلاكِ ، سلكَ اللَّهُ به طريقًا يُحصِّلُ له ذلك .

وقد رُويَ من حديثِ عائشَةَ رضي اللَّه عنها؛ رواهُ ابنُ عدي (٢) من حديث محمَّد بن عبدِالمَلك الأنصاري، عن الزُّهْري، عن عُروَة، عنها مرفوعًا، ولفظُهُ : « أوحى اللَّهُ إليَّ: إنَّهُ من سَلَكَ مَسلكًا يطلُبُ العلمَ سهَّلتُ له به طريقًا إلى الجنَّة » .

أهل العلم دعا لهم النبيّ ﷺ

الوجهُ الثَّاني والخمسون : أنَّ النَّبيَّ ﷺ دعا لِمَن سمعَ كلامَهُ ووَعاهُ وبلَّغَهُ بالنُّضرَةِ - وهي البَهجَةُ ونضارَةُ الوجهِ وتحسينُه - ؛ ففي التِّرمذي(٣)وغيره من حديث ابن مَسعودٍ عن النَّبيِّ ﷺ قال : « نَضَّرَ اللَّهُ امْرَءًا سمعَ مقالَتي فوَعاها ، وحَفِظَها وبلَّغها، فرُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَن هو أفقَهُ منه،

(١) (١ / ٨٩) وزاد : « ولم يُخرِّجاه » !! وأنت تراه في « صحيح مُسلم » !

(٢) في « الكامل » (٦ / ٢١٧٠) .

ومحمد بن عبدالملك الأنصاري مُنكر الحديث؛ كما في « اللسان » (٥ / ٢٦٥) .

وانظر - لزيادة البيان - « إتحاف السادة المُتَّقين » (١ / ٩٥) .

(٣) (برقم ٢٦٥٧) .

ورواه أحمد (١ / ٤٣٧)، والحُميدي (٨٨)، وابن ماجه (٢٣٢)، وابن حبان (٧٤)، والبغوي (١/٢٣٦)، والحاكم في « معرفة علوم الحديث » (ص ٢٦٠)، وابن عبدالبر (١/٤٠) .

وسنده صحيحٌ .

ثلاثٌ لا يُغَلُّ عليهنَّ قلبُ مسلمٍ : إخلاصُ العملِ للَّه ، ومناصحَةُ أئمَّةِ المسلمين، ولزومُ جماعتهم؛ فإنَّ دعوَتهُم تُحيطُ مِنْ ورائهم » .

وَرَوى هذا الأصلَ عن النَّبيِّ ﷺ ابنُ مَسعودٍ ومعاذُ بن جَبَلٍ وأبو الدَّرداء وجُبير بن مُطْعِم وأنسُ بن مالك وزَيدُ بن ثابت والنُّعمان بن بشير(١) .

قال التِّرمذي : حديثُ ابن مَسعودٍ حديثٌ حَسَنٌ، وحديثُ زَيد بن ثابتٍ حديثٌ حَسَنٌ .

وأخرَجَ الحاكمُ في « صحيحه »(٢) حديثَ جُبير بن مُطعِم والنُّعمان بن بشير .

وقال في حديث جُبير: على شرط البخاري ومسلم .

ولو لم يكُن في فَضلِ العلمِ إلّا هذا وَحدَهُ لكفى به شرفًا؛ فإنَّ النَّبيَّ ﷺ دعا لمَن سمعَ كلامَهُ ووعاهُ ، وحَفِظَهُ وبلَّغهُ .

وهذه هي مراتبُ العلمِ :

أوَّلـها وثانيها : سماعهُ وعَقْلُهُ ؛ فإذا سمعهُ وعاهُ بقلبهِ؛ أي : عَقَلَهُ واستقرَّ في قلبهِ كما يَستقرُّ الشيءُ الذي يُوعى في وعائه ولا يَخرُجُ منه، وكذلكَ عَقْلُهُ هو بمنزلَةِ عَقْلِ البَعيرِ والدَّابَّة ونحوها حتى لا تَشرُدَ وتَذهَبَ، ولهذا كانَ الوَعيُ والعَقْلُ قَدْرًا زائدًا على مُجرَّد إدراكِ المعلوم .

---

(١) لولا خشيةُ الإطالةِ والتكرار لخرَّجْتُها جميعًا ، وانظر التعليق التالي .

(٢) (١ / ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨) .

وهذا الحديثُ متواترٌ ؛ فهو مرويٌّ عن بضعةٍ وعشرين صحابيًّا ، كما في « نظم المُتناثر » (ص ٢٤-٢٥) للكتّاني .

ولأُستاذنا الفاضل الشيخ عبدالمحسن العبّاد حفظه اللّه دراسةٌ مفصَّلةٌ لهذا الحديث روايةً ودرايةً، وهي مطبوعةٌ .

المرتبَة الثَّالثة : تعاهُدُه وحِفظُهُ حتى لا ينساهُ فيَذهَبُ .

المرتبَة الرَّابعَة : تبليغهُ وبثُّهُ في الأُمَّة ليَحصلَ به ثمرتُهُ ومقصودُهُ؛ وهو بثُّهُ في الأُمَّةِ، فهو بمنزلةِ الكَنزِ المدفونِ في الأرضِ الذي لا يُنْفَقُ منه وهو مُعرَّضٌ لذهابه، فإنَّ العلمَ ما لم يُنفَقْ منه ويُعلَّم فإنَّهُ يُوشِكُ أن يَذهَبَ، فإذا أُنفقَ منه نما وزكا على الإنفاق .

فَمَن قامَ بهذه المراتب الأربع دخَلَ تحتَ هذه الدَّعوَةِ النَّبويَّةِ المتضمِّنَةِ لجمالِ الظَّاهرِ والباطنِ، فإنَّ النَّضرَةَ هي البَهجَةُ والحسنُ الذي يُكساهُ الوجهُ من آثارِ الإيمان وابتهاج الباطن به وفرح القَلبِ وسرورهِ والتذاذِهِ به ، فتُظهِرُ هذه البَهجَةُ والسُّرورُ والفَرحَةُ نضارَةً على الوجهِ، ولهذا يجمعُ له سبحانهُ بينَ السُّرور والنَّضرَة، كما في قوله تعالى : ﴿ فَوقاهُم الله شرَّ ذلكَ اليوم ولقَّاهُم نَضرَةً وسُرورًا ﴾ [الإنسان : ١١] .

فالنَّضرَةُ في وُجوهِهم، والسُّرورُ في قُلوبِهم، فالنَّعيمُ وطِيبُ القلبِ يُظهِرُ نضارَةً في الوجهِ ، كما قالَ تعالى : ﴿ تَعرفُ في وُجوهِهم نَضرَةَ النَّعيم ﴾ [المُطفّفين : ٢٤] .

والمقصودُ أنَّ هذه النَّضرَةَ في وجهِ مَن سَمِعَ سُنَّةَ رسولِ اللَّهِ ﷺ - وَوَعاها وحَفِظها وبلَّغها - هي أثَرُ تلكَ الحلاوَةِ والبَهجَةِ والسُّرورِ الذي في قلبهِ وباطنهِ .

وقولُه ﷺ: « رُبَّ حاملِ فقهٍ إلى مَن هو أفقهُ منه » ، تنبيهٌ على فائدَة التَّبليغ ، وإنَّ المبلَّغَ قَد يكونُ أفهَمَ من المبلِّغ، فيحصُلُ له في تلكَ المقالَةِ ما لم يحصُل للمبلِّغ .

أو يكونُ المعنى : أنَّ المبلَّغ قَد يكونُ أَفقهَ من المبلِّغ ، فإذا سمعَ تلكَ المقالَةَ حملها على أحسَنِ وجوهِها واستَنبَطَ فِقهَها وعَلمَ المُرادَ منها .

وقولُه ﷺ : « ثلاثٌ لا يُغَلُّ عليهنَّ قلبُ مسلمٍ ... » إلى آخِرِهِ ؛ أي : لا يحملُ الغِلَّ ولا يَبقى فيه معَ هذه الثَّلاثَة؛ فإنَّها تنفي الغِلَّ والغِشَّ وفَسادَ القَلبِ وسخائمهُ، فالمُخلِصُ للَّه إخلاصُهُ يمنعُ غِلَّ قلبه ، ويُخرِجُهُ ويُزيلُهُ جملَةً ؛ لأنَّهُ قَد انصَرفَتْ دواعي قلبِهِ وإرادتهِ إلى مَرضاةِ ربِّهِ، فلم يَبْقَ فيه موضعٌ للغِلِّ والغش، كما قال تعالى : ﴿ كذلكَ لِنَصرِفَ عنهُ السُّوءَ والفحشاءَ إنَّهُ من عبادِنا المُخلَصين ﴾ [يوسف : ٢٤] ، فلمَّا أخلَصَ لربِّه صَرَفَ عنه دواعي السُّوءِ والفحشاءِ .

ولهذا لمَّا علمَ إبليسُ أنَّهُ لا سَبيلَ له على أهلِ الإخلاصِ استثناهُم من شرْطتِهِ التي اشترطها للغوايَةِ والإهلاكِ ، فقال : ﴿ فَبِعزَّتكَ لأُغوينَّهُم أجمعين إلّا عبادَكَ مِنهُم المُخلَصين ﴾ [ص : ٨٣]، قال تعالى : ﴿ إنَّ عبادي لَيسَ لكَ عَلَيهِم سُلطانٌ إلّا مَن اتَّبعَكَ مِنَ الغاوينَ ﴾ [الحجر : ٤٢] .

فالإخلاصُ هو سبيلُ الخلاصِ ،والإسلامُ مركبُ السَّلامَة، والإيمانُ خاتَمُ الأمان .

وقولُه : « ومناصَحةُ أئمَّة المسلمين » ؛ هذا أيضًا مُنافٍ للغِلِّ والغِشِّ؛ فإنَّ النَّصيحَةَ لا تُجامِعُ الغِلَّ، إذ هي ضِدُّهُ، فمَن نَصَحَ الأئمَّة والأُمَّة فقَد بَرِىءَ من الغِلِّ .

وقولُه : « ولزومِ جماعتَهم » ؛ هذا أيضًا ممَّا يُطَهِّر القَلبَ مِنَ الغِلِّ والغِشِّ؛ فإنَّ صاحبَهُ - لِلُزومِهِ جماعَةَ المسلمين - يُحِبُّ لهم ما يُحبُّ لنفسهِ، ويكرهُ لهم ما يكرَهُ لها ، ويسوؤهُ ما يسوؤهُم ، ويسرُّهُ ما يسرُّهُم .

وهذا بخلاف مَن انحازَ عنهم واشتَغَل بالطَّعنِ عليهم والعَيبِ والذَّمِّ؛ كفِعلِ **الرَّافضَةِ والخوارجِ والمعتَزلَةِ وغيرهم** ؛ فإنَّ قلوبَهُم مُمتلئةٌ غِلًّا وغِشًّا، ولهذا تجدُ الرَّافضَة أبعَدَ النَّاسِ من الإخلاصِ ، وأغشَّهم للأئمَّةِ والأُمَّة، وأشدَّهُم بُعدًا عَن جماعَةِ المُسلمين .

فهؤلاء أشدُّ النَّاسِ غِلًّا وغِشًّا بشهادَةِ الرّسولِ والأُمَّةِ عليهم، وشهادتِهم على أنفسهم بذلك، فإنَّهُم لا يكونونَ قطُّ إلّا أعوانًا وظَهرًا على أهلِ الإسلامِ ، فأيُّ عدوٍّ قامَ للمُسلمين كانوا أعوانَ ذلك العدوِّ وبطانَتَهُ !

وهذا أمرٌ قَد شاهَدَتْهُ الأُمَّةُ منهم، ومَن لم يُشاهِدْهُ فَقَد سمعَ منه ما يُصِمُّ الآذانَ ويُشجي القلوب .

وقولُه : « فإنَّ دعوتَهُم تحيطُ من ورائهم »؛ هذا من أحسَنِ الكلامِ وأوجَزِهِ وأفخمِهِ معنًى؛ شبَّهَ دعوَةَ المسلمين بالسُّورِ والسِّياجِ المُحيطِ بهم، المانعِ مِن دخولِ عدوِّهم عليهم، فتلكَ الدّعوَةُ التي هي دعوَةُ الإسلامِ - وهم داخلوها - لمّا كانَت سُورًا وسياجًا عليهم أخبَرَ أنَّ مَن لَزِمَ جماعَةَ المسلمين أحاطَتْ به تلكَ الدّعوَةُ التي هي دعوَةُ الإسلام كما أحاطَتْ بهم، **فالدَّعوَةُ تجمَعُ شملَ الأُمَّةِ وَتلُمُّ شَعَثَها وتحيطُ بها، فمن دَخَلَ في جماعتها أحاطَت به وشَمِلَتْهُ .**

الأمر النّبوي بتبليغ العلم

الوجهُ الثَّالثُ والخمسون : أنَّ النَّبيَّ ﷺ أمَرَ بتبليغِ العلمِ عنه؛ ففي « الصَّحيحين » [1] من حديثِ عبداللَّه بن عَمرو ، قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « بلِّغوا عنِّي ولَو آيَةً، وحدِّثوا عَن بني إسرائيلَ ولا حَرَجَ ، ومَن كذَبَ عليَّ متعمِّدًا فليتبَوَّأ مقعَدَهُ من النَّار » .

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦١) .
ولم أرَهُ في « صحيح مُسلم » .
وانظر تعليقي على « جزء مَن كذب عَلَيَّ » (رقم : ٦٠) للطبراني .

وقال : « ليبلِّغ الشاهدُ منكُم الغائبَ »[1]، روى ذلك أبو بَكرَة ، ووابصَةُ ابن مَعبَد ، وعمَّارُ بن ياسِر ، وعبداللَّه بن عُمر ، وعبداللَّهِ بن عبَّاسٍ ، وأسماء بنتُ يَزيدَ بن السَّكَن ، وحُجَيرٌ ، وأبو قُرَيعَ، وسَرَّاء بنتُ نبهان ، ومُعاوِيَة بن حَيْدَةَ القُشَيري ، وعمُّ أبي حَرَّةَ ، وغيرُهم .

فأمَرَ ﷺ بالتَّبليغ عنه لِمَا في ذلكَ من حُصولِ الهُدى بالتَّبليغ ، وله ﷺ أجرُ من بَلَّغَ عنه وأجرُ من قَبِلَ ذلكَ البلاغَ .

وكلَّما كَثُرَ التَّبليغُ عنه تضاعَفَ له الثَّوابُ ، فلهُ مِن الأجرِ بعَدَدِ كلِّ مُبلِّغٍ وكلِّ مُهتَدٍ بذلك البلاغِ سوى ما له من أجرِ عَمَلِهِ المختَصِّ به، فكلُّ مَن هُدِيَ واهتَدى بتبليغهِ فلهُ الأجرُ، لأَنَّهُ هو الدَّاعي إليه، ولو لم يكُن في تبليغ العلمِ عنه إلَّا حصولُ ما يُحِبُّهُ ﷺ لكفى به فضلًا .

وعلامَةُ المُحبِّ الصَّادقِ أن يَسعى في حُصولِ محبوبِ محبوبهِ ، ويبذلَ جهدَهُ وطاقَتَهُ فيها .

ومعلومٌ أنَّهُ لا شيءَ أحبُّ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ من إيصالهِ الهُدى إلى جميع الأُمَّة، فالمُبلِّغُ عنه ساعٍ في حُصولِ محابِّهِ، فهو أقرَبُ النَّاسِ منه وأحبُّهُم إليه ، وهو نائبُهُ وخليفتُهُ في أُمَّتِهِ، وكفى بهذا فضلًا وشرفًا للعلمِ وأهلِهِ .

الوجهُ الرَّابعُ والخمسون : أنَّ النَّبيَّ ﷺ قدَّم بالفضائلِ العلميَّةِ في أعلى الولاياتِ الدِّينيَّة وأشرفها ، وقدَّمَ بالعلمِ الأفضَلَ على غيرِهِ . التقديمُ بالعلم الشرعيّ

---

(١) هو قطعةٌ مِن حديث خُطبة حجّة الوداع ؛ وقد رواه البخاري (٦٧) ، ومسلم (١٦٧٩) .

وانظر - مُجملًا - مسانيدَ رواتِه في « مجمع الزوائد » (١ / ١٣٩ و ٢٢٦) و (٣ / ٢٦٩)، و « الدر المنثور » (٢ / ١٣ ، ٤٥)، و « إتحاف السادة المتَّقين » (١٠ / ٤٦٩)، و « البداية والنهاية » (٥ / ٣٢) ، و « إرواء الغليل » (٢ / ٢٣٣) .

فرَوى مسلمٌ في « صحيحه » (١) حَديثَ أبي مَسعود البَدريِّ عن النَّبيِّ ﷺ قال : « يؤمُّ القَومَ أقرؤهُم لكتابِ اللَّهِ ، فإنْ كانوا في القراءَةِ سواءً فأعلمُهُم بالسُّنَّةِ ، فإنْ كانوا في السُّنَّةِ سواءً فأقدَمُهم إسلامًا أو سنًّا ... » وذكرَ الحديث .

فقدَّمَ في الإمامَة تَفضيلَهُ العلمَ على تقدُّمِ الإسلامِ والهجرَةِ، ولمَّا كانَ العلمُ بالقرآنِ أفضلَ من العلمِ بالسُّنَّةِ لِشَرَفِ معلومهِ على معلومِ السُّنَّة قُدِّمَ العلمُ به ، ثمَّ قُدِّمَ العلمُ بالسُّنَّة على تَقدُّم الهجرَة، وفيه من زيادَةِ العملِ ما هو مُتميِّزٌ به، لكنْ إنَّما راعى التَّقديمَ بالعلمِ ثمَّ بالعمل ، وراعى التَّقديمَ بالعلم بالأفضَل على غيرِهِ وهذا يدُلُّ على شَرَفِ العلمِ وفَضلهِ ، وأنَّ أهلَهُ هم أهلُ التَّقدُّم إلى المراتب الدِّينيَّة .

تعلُّم القرآن وتعليمُه

الوجهُ الخامسُ والخمسون : ما ثَبتَ في « صحيح البخاري » (٢) من حديثِ عثمانَ بن عفَّان رضيَ اللَّهُ عنهُ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال : « خَيرُكُم مَن تعلَّمَ القرآن وعلَّمهُ » ، وتعلُّمُ القرآنِ وتعليمُهُ يتناولُ تعلُّمَ حروفِهِ وتعليمَها ، وتعلُّمَ معانيهِ وتعليمَها ، وهو أشرَفُ قِسْمَيْ تعلُّمهِ وتعليمِهِ؛ **فإنَّ المعنى هو المقصودُ ، واللفظُ وسيلةٌ إليه** ، فتعلُّمُ المعنى وتعليمُهُ تعلُّمُ الغايَةِ وتَعليمها ، وتعلُّمُ اللفظِ المُجرَّدِ وتعليمُهُ تعلُّمُ الوسائلِ وتعليمُها ، وبينهما كما بينَ الغاياتِ والوسائلِ !

الوجهُ السَّادسُ والخمسون : ما رواهُ التِّرمذي وغيرُهُ في نُسخَةِ عمرو

---

(١) (برقم ٦٧٣) .

(٢) (برقم ٥٠٢٧) .

طلب العلم حتى الممات

ابن الحارث ، عن درَّاجٍ ، عن أبي الهيثم ، عَن أبي سَعيدٍ ، عن النَّبيِّ ﷺ قال : « لَن يَشبَعَ المؤمنُ من خَيرٍ يَسمعهُ حتى يكونَ منتهاهُ الجنَّةَ » .

قال التِّرمذي[1] : هذا حديثٌ حَسَنٌ غريبٌ .

وهذه نُسخَةٌ معروفَةٌ[2] رواها النَّاس ، وساقَ أحمَدُ في « المُسنَد » أكثرَها أو كثيرًا منها .

ولهذا الحديثِ شواهدُ .

فجعَلَ النَّبيُّ ﷺ النَّهمَةَ في العلمِ وعَدمَ الشِّبَعِ منه من لوازِمِ الإيمانِ وأوصافِ المؤمنينَ، وأخبَرَ أنَّ هذا لا يَزالُ دَأْبَ المؤمنِ حتى دخولِهِ الجنَّة، ولهذا كانَ أئمَّةُ الإسلامِ إذا قيلَ لأحدهم: إلى متى تطلب العِلم ؟ فيقول : إلى المَمات !

قال نُعَيمُ بن حمَّادٍ : سمعتُ عبدَاللّه بن المُبارك رضيَ اللّهُ عنه يقول - وقَد عابَهُ قومٌ في كثرَةِ طَلَبِهِ للحديث ؛ فقالوا له : إلى متى تسمع ؟ - قال : إلى المَمات !

وقال الحَسَنُ بن منصورٍ الجصَّاص[3] : قلتُ لأحمَد بن حنبل رضيَ اللّهُ عنه : إلى متى يكتُبُ الرَّجُلُ الحديثَ ؟ قال : إلى المَوت !

---

(١) (برقم ٢٦٨٧) .

ورواه ابن حبان (٩٠٣)، وابن عدي في « الكامل » (٣ / ٩٨١)، والبيهقي في « الشعب » (١١٧٦)، و « الآداب » (١٠٩٧)، والحاكم (٤ / ١٢٩)، وأبو نعيم في « أخبار أصبهان » (١ / ٢٣٦) ، وفي إسناده درّاج بن أبي السَّمح ، وهو ضعيفُ الحديث .

(٢) لم يذكر الأخُ الشيخُ بكر أبو زيد هذه « النُّسْخَةَ » في كتابه « معرفة النُّسَخِ الحديثيةِ » (ص ٢١٤) ، فَلْتُستَدْرَكْ عليه .

(٣) « طبقات الحنابلة » (١ / ١٤٠) ، وذَكَرَ هذا الخَبَرَ عنه .

وقال عبدُاللَّهِ بن محمَّد البَغَوي : سمعتُ أحمَدَ بن حنبل رضيَ اللَّهُ عنهُ يقول : إنَّما أطلُبُ العلمَ إلى أن أدخلَ القبرَ .

وقال محمَّد بن إسماعيل الصَّائغُ : كنتُ أَصُوغُ معَ أبي بَبغداد، فمرَّ بنا أحمَدُ بن حنبل وهو يعدُو ، ونعلاه في يديه، فأخَذَ أبي بمجامعِ ثوبِه، فقال : يا أبا عبداللَّهِ ، ألا تَستَحي ! إلى متى تَعدو معَ هؤلاء ؟ قال : إلى المَوت !

وقال عبدُ اللَّهِ بن بِشرٍ الطَّالْقاني : أرجو أن يأتيَني أمرُ ربِّي والمِحبَرةُ في يدي، ولم يُفارِقْني القلمُ والمِحبَرَة !

وقال حُميدُ بن محمَّد بن يزيد البَصْري : جاءَ ابنُ بِسطام الحافظُ يسألُني عن الحديث ؟ فقلتُ له : ما أشدَّ حِرصَكَ على الحديث ! فقال : أَوَ ما أحِبُّ أن أكونَ في قِطارِ آلِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ ؟

وقيلَ لبَعضِ العُلَماء : إلى متى يَحسُنُ بالمرءِ أن يتعلَّم ؟ قال : ما حسُنَت به الحياةُ .

وسُئلَ الحَسَن عَن الرَّجُل له ثمانونَ سنةً : أَيَحسُنُ أن يطلبَ العلم ؟ قال : إن كان يَحسُنُ به أن يعيشَ[1].

الوجهُ السَّابعُ والخمسون : ما رواهُ التِّرمذي [2] أيضًا من حديثِ

---

(١) **فالعلمُ بالكتابِ والسُّـنَّـةِ هو الحياةُ الحقَّةُ ، لا مُجرّد الحَرَكةِ والتنفُّسِ والكلامِ !!**

(٢) (برقم ٢٦٨٧) .

ورواه ابن ماجه (٤١٦٩)، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١ / ٨٨)، والبيهقي في « المدخل » (٤١٢)، والقُضاعي في « مسند الشهاب » (٥٢)، وابن عدي في « الكامل » (١ / ٢٣٢)، والعُقيلي في « الضعفاء » (١ / ٦١) .

وقال البيهقي: « تفرّد به إبراهيم بن الفضل، وليس بالقويّ » . =

إبراهيم بن الفَضلِ ، عن المَقبُري ، عن أبي هُريرَة رضيَ اللَّهُ عنه ، قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « الكلمةُ الحِكمَةُ ضالَّةُ المؤمنِ ، فحيثُ وجَدَها فهو أحقُّ بها » . الحِكمةُ هي العلمُ

قال التِّرمذيُّ : هذا حديثٌ غَريبٌ لا نعرفهُ إلّا من هذا الوجه ، وإبراهيم ابن الفَضْل المدينيُّ المخزوميُّ يُضَعَّفُ في الحديث مِنْ قِبَلِ حفظِهِ .

وهذا أيضًا شاهدٌ لِمَا تقدَّم ، وله شواهدُ [1].

والحكمَةُ هي العلمُ؛ فإذا فَقَدَهُ المؤمنُ فهو بمنزلَةِ مَن فقَدَ ضالَّةً نفيسَةً مِن نفائسهِ، فإذا وجَدَها قرَّ قلبُهُ وفَرِحَت نفسُهُ بِوجدانها، كذلكَ المؤمنُ إذا وجَدَ ضالَّةَ قلبهِ وروحهِ التي هو دائمًا في طلبها ونِشدانها والتَّفتيش عليها .

وهذا من أحسَنِ الأمثلَةِ؛ فإنَّ قلبَ المؤمنِ يطلبُ العلمَ حيثُ وجَدَهُ أعظمَ مِن طَلَبِ صاحبِ الضَّالَّةِ لها .

الوجهُ الثَّامنُ والخمسون : قال التِّرمذي [2]: حدَّثنا أبو كُرَيبٍ : حدَّثنا خَلَفُ بن أيوبَ ، عن عوفٍ ، عن ابنِ سيرينَ ، عن أبي هُرَيرَة رضيَ اللَّهُ عنه

= وقال ابن الجوزي : « هذا حديثٌ لا يصحُّ » .

وإبراهيم : متروكٌ .

(١) أنَّى له ذلك ؟! وأَين هي شواهدُهُ ؟!

نعم ؛ رواه القُضاعي (١٤٦) من طريق الليث بن سعد، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم مرسلًا !

ولكنّه لا يُقوِّيه لشدَّة ضعفِ الأَوّل .

(٢) (برقم ٢٦٨٥) .

وقد خرَّجته مُنفَصِلًا إلى تحسينه في رسالتي « الأربعون حديثًا في الشخصيَّة الإسلامية » (رقم ٢٢) .

العلمُ من علامات الإيمان

عن النَّبي ﷺ : « خَصلتانِ لا يجتمعان في مُنافقٍ : حُسْنُ سَمْتٍ وفِقهٌ في الدِّين ».

قال التِّرمذيُّ : هذا حديثٌ غريبٌ، ولا يُعرَفُ هذا الحديثُ من حديثِ عَوفٍ إلّا من حديث هذا الشيخ خَلَف بن أيُّوب العامِري، ولم أر أحدًا يَروي عنهُ غَيرَ أبي كُريبٍ محمَّد بن العلاء[(١)]، ولا أدري كيفَ هو[(٢)] ؟

وهذه شهادَةٌ بأنَّ مَن اجتمعَ فيه حُسنُ السَّمتِ والفِقهُ في الدِّين فهو مؤمنٌ .

وأحرى بهذا الحديثِ أن يكونَ حقًّا، وإنْ كان إسنادُهُ فيه جهالَةٌ[(٣)]؛ فإنَّ حُسنَ السَّمتِ والفِقهَ في الدِّين من أخصِّ علاماتِ الإيمانِ، ولن يجمعَهما اللَّهُ في مُنافق؛ فإنَّ النّفاق يُنافيهما ويُنافيانهِ .

سلامة الصَّدر ونقاءُ القلب

الوجهُ التَّاسعُ والخمسون : قال الترمذي[(٤)] : حدَّثنا مُسلمُ بن حاتمٍ الأنصاريُّ : حدَّثنا أبو حاتم البَصريّ : حدَّثنا محمَّد بن عبداللَّه الأنصاريّ ، عن أبيه ، عَن علي بن زَيد ، عَن سعيد بن المُسيِّب ، قال : قال : أنسُ بن مالكٍ رضيَ اللَّهُ عنهُ : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « يا بُنيَّ ! إنْ قَدَرْتَ أن تُصبحَ وتُمسي وليسَ في قلبكَ غِشٌّ لأحَدٍ فافعَل » .

---

(١) بل روى عنه جماعةٌ كثيرةٌ ، فانظر « تهذيب الكمال » (٨ / ٢٧٣) .

(٢) يُريدُ (خَلَفًا) ، لا (أَبا كُرَيب) ، وقارِنْ بـ « الجرح والتعديل » (٣ / رقم : ١٧٨٧) .

(٣) قارن بِـ « سلسلة الأحاديث الصحيحة » (١ / ٥٠١) لشيخنا الألباني .

(٤) (برقم ٢٦٧٨) .

وفي إسناده علي بن زَيد بن جُدعان ؛ وهو ضعيفٌ .

وقد رُويت القطعة الثانية منه من طريقٍ آخر عن أنس، وهي قوله : « ... مَن أحيى سُنَّتي فقد ... » ، رواها اللالكائي في « السنة » (٨)، وابن بطة في « الإبانة الكبرى » (٥١) .

وفي إسناده مجهولان ، وتدليس بقيّة .

ثمَّ قال : « يا بُنيَّ ! وذلكَ مِن سنَّتي ، ومَن أحيا سنَّتي فقَد أحبَّني ، ومَن أحبَّني كان معي في الجنَّة » .

وفي الحديثِ قصَّةٌ طويلةٌ .

قال التِّرمذي : هذا حديثٌ حَسَنٌ غَريبٌ من هذا الوجه، ومحمَّد بن عبداللّهِ الأنصاري صَدوقٌ، وأبوهُ ثقَةٌ، وعلي بن زَيدٍ صَدوقٌ [1] إلّا أنَّهُ ربَّما يَرفَعُ الشيءَ الذي يُوقِفهُ غيرهُ ، سمعتُ محمَّد بن بشارَ يقول : قال أبو الوليد : قال شُعبَة: حدَّثنا عليُّ بن زَيدٍ وكانَ رفَّاعًا .

قال التِّرمذي : ولا يُعرَفُ لسَعيد بن المُسَيِّب عن أنس روايَةٌ إلّا هذا الحديثُ بطولهِ، وقَد روى عبَّادُ المِنقَري هذا الحديثَ عن عليٍّ بن زَيدٍ عن أنسٍ ولم يَذكُر فيه عَن سعيد بن المسيِّب، وذاكَرتُ به محمَّد بن إسماعيل فلم يعرفْهُ، ولم يعرف لسعيد بن المسيِّب عن أنسٍ هذا الحديثَ ولا غَيرَه .

وماتَ أنسٌ سنةَ ثلاثٍ وتسعينَ ، وسَعيدُ بن المُسيِّب سنَةَ خَمسٍ وتسعين بعدَهُ بسَنَتين .

قلتُ : ولهذا الحديث شواهدُ :

منها ما رواهُ الدَّارِميُّ [2] عبدُاللَّهِ : حدَّثنا محمَّد بن عُيَينَة ، عَن مَروان بن مُعاويَةَ الفَزَاري ، عن كَثيرِ بن عبداللَّه ، عن أبيهِ ، عَن جدِّهِ ، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال

(١) لا ، بل هو مضعَّف ؛ فانظر مقالات جارحيه في « تهذيب الكمال » (٢ / ٤٣٣ - ٤٤٥) ، وفي مطبوعة « جامع الترمذي » : « ثقة » !!

(٢) وعنه الترمذي في « سننه » (٢٩٧٧) .

ورواه - أيضًا - ابنُ ماجه (٢١٠)، وابن وضّاح في « البدع والنهي عنها » (ص ٣٨)، وابن أبي عاصم في « السنة » (٤٢) .

وسنده ضعيفٌ جدًّا؛ لحال كَثير بن عبداللّهِ المُزَني، فهو متروكٌ .

لبلال بن الحارث : « إعلَمْ »، قال : ما أعلمُ يا رسولَ اللَّه ؟ قال : « إعلَم، يا بلال » ، قال : ما أعلمُ يا رَسولَ اللَّه ؟ قال : « إنَّهُ مَن أحيا سُنَّةً من سُنَّتي قد أُمِيتَتْ بَعدي كانَ له منَ الأجرِ مثلُ مَن عَمِلَ بها من غَيرِ أن يَنقُصَ من أجورهم شيءٌ، ومَن ابتَدَعَ بدعَةَ ضلالَةٍ لا يَرضاها اللَّهُ ورَسولُهُ كانَ عليهِ مِن الإثمِ مثلُ آثامِ من عمِلَ بها لا يَنقُصُ ذلكَ من أوزارِ النَّاس شيئًا » .

رواه التِّرمذي عنه ، وقال : حديثٌ حسَنٌ .

قال: ومحمَّد بن عُيَينَة مِصِّيصيٌّ شاميٌّ .

وكثيرُ بن عبداللَّه هو كثيرُ بن عَمرو بن عَوفٍ المُزَنيّ [1]، وفي حديثِهِ ثلاثةُ أقوالٍ لأهلِ الحديث ؛ منهم مَن يُصحِّحُه، ومنهم مَن يُحسِّنهُ - وهما للتِّرمذي - ، ومنهم من يُضَعِّفهُ ولا يَراهُ حُجَّةً ، كالإمامِ أحمدَ وغيره .

ولكنَّ هذا الأصلَ ثابتٌ من وجوهٍ :

كحديثِ: « من دعا إلى هُدى كان له مِن الأجر مثلُ أجور من اتَّبعهُ » ، وهو صحيحٌ من وجوه [2].

وحديثِ : « مَن دلَّ على خيرٍ فله مِثْلُ أجرِ فاعلِهِ » ، وهو حديثٌ حَسَنٌ رواهُ التِّرمذي [3] وغيرهُ .

---

(١) انظر مقالات جارِحيهِ - وهم الأكثرُ والأعدلُ - في « تهذيب الكمال » (٢٤ / ١٣٦ - ١٤٠) .

(٢) رواه مسلمٌ (٢٦٧٤) عن أَبي هريرة ، وانظُرْهُ من حديث سبعةٍ من الصحابة ، في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » (١٦٦٠) لشيخنا الألباني .

(٣) (برقم ٢٦٧٣) من رواية أبي مسعود البَدري .

والحديث - أَيضًا - في « صحيح مسلم » (١٨٩٣) .

فهذا الأصلُ محفوظٌ عن النَّبي ﷺ ، فالحديثُ الضَّعيفُ فيه بمنزلَةِ الشواهدِ والمتابعاتِ (١)؛ فلا يضُرُّ ذِكْرُهُ .

الوصيةُ بطلّاب العلمِ

الوجهُ الستُّون : أنَّ النَّبيَّ ﷺ أوصى بطلبةِ العلمِ خيرًا وما ذاكَ إلّا لفَضلِ مطلوبهم وشرفهِ :

قال التِّرمذي (٢): حدَّثنا سفيانُ بن وكيعٍ : حدَّثنا أبو داود الحُفْري ، عن سُفيان ، عن أبي هارون ، قال : كنَّا نأتي أبا سعيدٍ فيقول : مرحبًا بوصيَّةِ رسولِ اللَّه ﷺ ، إنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « إنَّ النَّاس لكُم تبَعٌ، وإنَّ رجالًا يأتونَكُم من أقطارِ الأرضِ يتفقَّهون في الدِّين، فإذا أَتَوْكُم فاستَوصوا بهم خيرًا » .

- حدَّثنا قتَيبَةُ : حدَّثنا روحُ بن قَيسٍ ، عَن أبي هارون العَبديِّ ، عن أبي سَعيد الخُدْريِّ، عن النَّبيِّ ﷺ قال : « يأتيكُم رجالٌ من قِبَلِ المشرق يتعلَّمونَ، فإذا جاؤوكُم فاستَوصوا بهم خَيرًا » .

فكانَ أبو سَعيدٍ إذا رآنا قال : مرحبًا بوصيَّةِ رسولِ اللَّه ﷺ .

قال الترمذيُّ : هذا حديثٌ لا نَعرفُهُ إلّا من حديثِ أبي هارون العَبدي ، عن أبي سَعيد .

قال أبو بكرٍ العطَّار (٣): قال عليُّ بن المديني : قال يَحيى بن سعيد :

---

(١) أما هذان الحديثان وأشباههما فنَعَم؛ وأمّا حديثُ بلال بن الحارث فهو أخصُّ منهما، فلا يشهدان له، واللَّه أعلم .

(٢) في « سننه » (برقم ٢٦٥٠)، وابن ماجه (٢٤٧) و (٢٤٩)، وعبدالرزاق (١١ / ٢٥٢) ، والبغوي (١٣٤)، وابن أبي حاتم في « تقدمة الجرح والتعديل » (٢ / ١٢) .

وفي إسنادِهِ أبو هارون العبدي، وهو متروكٌ .

وقد ثَبتَتْ روايةٌ مختصرةٌ لهذا الحديثِ ، فانظرها في « سِلسلة الأَحاديث الصحيحة » (رقم : ٢٨٠) .

(٣) انظر « تاريخ بغداد » (١ / ٤١٧) .

كانَ شُعبَةُ يُضَعِّف أبا هارون العَبدي، قال يَحيى : وما زالَ ابن عَوفٍ يَروي عن أبي هارون حتى مات .

وأبو هارون : اسمهُ عِمارَةُ بن جوَين .

طلب العلم كفَّارة

الوجهُ الحادي والستُّون : ما رواهُ التِّرمذيُّ (١) من حديثِ أبي داودَ ، عن عبدالله بن سخبَرَة ، عن سخبَرَةَ ، عن النَّبي ﷺ قال : « مَنْ طَلَبَ العلمَ كانَ كفَّارَةً لما مضى » .

هذا الأَصلُ لم أَجِدْ فيه إلّا هذا الحديث، وليسَ بشيءٍ؛ فإنَّ أبا داودَ هو نُفيعٌ الأعمى غيرُ ثقَةٍ، ولكنْ قَد تقدَّمَ أنَّ العالمَ يَستغفرُ له مَن في السمواتِ ومَن في الأرضِ .

وقد رُوِيَتْ آثارٌ عديدةٌ عن جماعَةٍ من الصَّحابَةِ في هذا المعنى .

منها ما رواهُ الثَّوري عن عبدالكريم(٢) عَن مُجاهد عن ابن عبَّاسٍ: أنَّ مَلَكًا مُوكّلًا بطالبِ العلمِ حتى يردَّهُ من حيثُ أبداهُ مغفورًا له .

ومنها ما رواهُ فِطْرُ بن خليفَةَ عن أبي الطُّفَيل عن علي: ما انتعلَ عبدٌ قطُّ ولا تخفَّف ولا لبِسَ ثوبًا ليَغدو في طَلَبِ العلمِ إلّا غُفِرَتْ ذنوبُهُ حيثُ يخطو عندَ بابِ بيتِهِ(٣) .

---

(١) (برقم ٢٦٤٨) .

ورواه - أيضًا - الدارمي في « سننه » (١ / ١٣٩)، والطبراني في « الكبير » (٦٦١٥)، وقال الترمذي : « هذا حديثٌ ضعيفُ الإسناد، وأبو داود الراوي يُضعَّف » .

وقال الحافظ في « الإصابة » (٤ / ١٢٤) عن أبي داود هذا: « أحد المتروكين » .

وقال الهيثمي في « المجمع » (١ / ١٢٣) : « كذّاب » !

(٢) هو عبدالكريم بن أبي المُخارق ؛ ضعيفٌ .

(٣) انظر التعليق الآتي .

وقد رواهُ ابن عَدي [١] مرفوعًا ، وقال : ليسَ يرويه عَن فِطْرٍ غيرُ إسماعيلَ ابن يَحيى التَّيْمي .

قلتُ: وقَد رواهُ إسماعيلُ بن يحيى هذا عَن الثَّوري : حدَّثنا محمَّد بن أيوب الجُوزْجاني ، عن مُجالدٍ ، عن الشعبي، عن الأسوَد ، عن عائشَةَ مرفوعًا : « مَن انتعَلَ ليتعلَّم خَيرًا غُفِرَ لهُ قبلَ أن يخطو » [٢].

وقد رواهُ عبدُالرَّحمن بن محمَّد المُحارِبي ، عن فِطْرٍ ، عن أبي الطُّفَيل ، عن علي .

وهذه الأسانيدُ - وإنْ لم تكُن بمفردِها حُجَّةً - فَطَلَبُ العلمِ من أفضَلِ الحسناتِ، والحَسناتُ يُذهِبْنَ السيِّئات، فجديرٌ أن يكونَ طَلَبُ العلمِ ابتغاءَ وجه اللَّهِ يُكفِّر ما مَضى من السَّيِّئات، فَقَد دلَّتِ النُّصوصُ أنَّ إتْباعَ السَّيِّـئـةِ الحسنةَ

---

(١) في « الكامل » (١ / ٣٠٢) .

ورواه - أيضًا - الطبراني في « الأوسط » (١٨٣ - مجمع البحرين) وتمّام في « فوائده » (٦٦) وابن عساكر في « تاريخِه » (٢ / ق ٧٤٣) .

وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١ / ١٣٣) : « وفيه إسماعيل بن يحيى التَّيمي، وهو كذّاب » .

قلت : انظُر له « لسان الميزان » (١ / ٤٤٢) .

(٢) رواه ابنُ شاهينَ في « الترغيب » (رقم : ٢١٩) وأبو الفَضْل السَّهْلكي [أ] في « حديثِه » (ق ٩٤ / ب) والشِّيرازي في « الألقاب » - كما في « جمع الجوامع » (٢٨٨١٦ - ترتيبه) - بالسَّنَدِ نَفْسِهِ ؛ لكنْ دُون ذِكر محمَّد بن أيُّوبَ الجُوْزجاني ، وسندُه كسابقِهِ .

وانظر تمامَ تخريج الحديث والكلام عليه في « السلسلة الضعيفة » (٢٦٧٧ - مخطوط) لشيخنا الألباني نفع اللَّه بِهِ .

(أ) انظر « المُنتخب مِن مَخطوطاتِ الحديثِ في الظاهريَّة » (ص ٣٠٦) لشيخنا العلَّامة محمَّد ناصر الدين الألباني .

تَمْحوها ، فكيفَ بما هو من أفضَلِ الحَسناتِ وأجلِّ الطَّاعاتِ ! فالعُمدَةُ على ذلكَ لا على حديثِ أبي داودَ(١)، واللَّهُ أعلم .

وقد رُوي(٢) عن عُمر بن الخطَّاب رضي اللَّهُ عنه : « إِنَّ الرجلَ لَيخرجُ مِن منزلِهِ وعليه مِن الذنوبِ مثلُ جَبَلِ تِهامةَ ، فإذا سَمِعَ العلمَ خاف ورَجَعَ وتابَ ، فانْصَرَفَ إلى منزلِه وليس عليه ذَنْبٌ ، فلا تُفارقوا مجالسَ العُلَماءِ » .

فضل مجلس العلم

الوجهُ الثَّاني والستون : ما رواهُ ابنُ ماجه في « سُنَنِهِ » (٣) من حديثِ عبداللَّهِ بن عَمرو بن العاص رضيَ اللَّهُ عنهما قال : خرجَ رسولُ اللَّهِ ﷺ فإذا في المسجد مجلسانِ؛ مجلسٌ يتفقَّهونَ ومجلسٌ يَدْعُونَ اللَّهَ تعالى ويسألونَهُ؛ فقال : « كِلا المجلسين إلى خَير؛ أمَّا هؤلاء فيَدْعونَ اللَّهَ، وأمَّا هؤلاء فيتعلَّمونَ ويُفقِّهونَ الجاهلَ، هؤلاء أفضَلُ، بالتَّعليم أُرسلتُ » ثمَّ قَعَدَ معهم .

مُباهاة الملائكة بطلبة العلم

الوجهُ الثَّالث والستون : أنَّ اللَّهَ تبارَكَ وتعالى يُباهي ملائكتَهُ بالقَومِ الذينَ يتذاكرونَ العلمَ ويَذكرونَ اللَّهَ ويَحْمَدُونهُ على ما منَّ عليهم به منه :

قال التِّرمذيُّ (٤): حدَّثنا محمَّد بن بشارٍ : حدَّثنا مرحومُ بن عبدالعزيز

---

(١) أي : الأعمى، راوي حديث : « مَن طلب العلمَ كان كفَّارةً لما مضى »، وقد سبق بيانُ ضعفهِ .

(٢) صدَّره المصنِّف بصيغةِ التمريضِ الدالَّةِ على التضعيف .

(٣) (برقم ٢٢٩) .

وفيه ثلاثةُ ضعفاء كما قال البوصيري في « مصباح الزجاجة » (١ / ٧٥) .

وله طريقٌ أخرى :

فرواه الدارمي (١ / ٩٩)، وابن المبارك في « الزهد » (٤٨٨)، والطيالسي (٢٢٥١) .

وفيه ضعيفان أيضًا .

ومدار كلا الطريقين على عبدالرحمن بن زياد بن أنعُم الإفريقي .

(٤) (برقم ٣٣٧٩) .

العطَّار : حدَّثنا أبو نَعَامَةَ ، عن أبي عثمان ، عن أبي سَعيد ، قال : خَرَجَ مُعاويَةُ إلى المسجد فقال : « ما يُجلِسكُم ؟ قالوا : جَلَسنا نذكُرُ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ، قال : آللَّهِ ما أجلَسَكُم إلّا ذلك ؟! قالوا : آللَّهِ ما أجلَسَنا إلّا ذلك، قال : أمَا إنِّي لم أستحلفكُم تُهمَةً لكُم، وما كانَ أحدٌ بمنزلتي من رسولِ اللَّهِ ﷺ أقلَّ حديثًا عنه منِّي؛ إنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ على حَلْقةٍ من أصحابِهِ، قال: ما يُجلِسكُم ؟ قالوا : جلَسنا نَذكُرُ اللَّهَ ونحمَدُهُ لِمَا هدانا للإسلام ومنَّ علينا بك، قال : آللَّهِ ما أجلسَكُم إلّا ذلك ؟! قالوا : آللَّهِ ما أجلَسَنا إلّا ذلك، قال : أمَا إنِّي لم أستحلفْكُم تُهمَةً لكُم؛ إنَّهُ أتاني جبريلُ فأخبَرَني أنَّ اللّهَ تعالى يُباهي بكُم الملائكَة » .

قال الترمذيُّ : هذا حديثٌ حَسَنٌ غَريبٌ، لا نعرفهُ إلّا من هذا الوجه، وأبو نَعَامَة السَّعدي اسمُه عَمرو بن عيسى [1]، وأبو عُثمان النَّهدي اسمهُ عبدُالرَّحمن ابن مَلّ[2] .

فهؤلاء كانوا قَد جَلَسوا يحمَدونَ اللَّهَ بذكرِ أوصافِهِ وآلائِهِ، ويُثنونَ عليهِ بذلكَ، ويَذكُرونَ حُسنَ الإسلامِ، ويَعترفونَ للَّهِ بالفَضلِ العَظيمِ إذ هداهُم له ومنَّ عليهم برسولِهِ .

وهذا أشرَفُ علمٍ على الإطْلاق ، ولا يُعنى به إلّا الرَّاسخونَ في العلمِ؛ فإنَّهُ يتضمَّنُ معرفَةَ اللَّهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ ودينِهِ ورسولِه، ومحبَّةَ ذلكَ وتعظيمَه

= وروى الحديثَ - أيضًا - الإمامُ مسلم في « صحيحه » (٢٧٠١) .

(١) تعقّبه المزي في « تحفة الأشراف » (٨ / ٤٤٠) ، وفي « تهذيب الكمال » (٢٢ / ١٨٢) بأنَّ هذا وَهَمٌ ، وأنَّ اسمَ أبي نعامَة عبدُ ربِّه .

(٢) انظر « المؤتلف والمختلف » (١ / ٢١٨) للدارَقُطنيّ .

والفرَحَ به، وأحرى بأصحابِ هذا العلمِ أن يُباهيَ اللَّهُ بهم الملائكَةَ .

وقد بشَّرَ النَّبيُّ ﷺ الرَّجلَ الذي كانَ يُحبُّ سورَةَ الإخلاص ، وقال : أُحبُّها لأنَّها صفَةُ الرَّحمن عزَّ وجلَّ؛ فقال: « حُبُّكَ إيَّاها أدخَلَكَ الجنَّة »[1].

وفي لفظٍ آخر : « أخبِروهُ أنَّ اللَّهَ يُحِبُّهُ » [2]؛ فدلَّ على أنَّ من أحبَّ صفاتِ اللَّهِ أحبَّهُ اللَّه وأدخَلَهُ الجنَّة .

والجهميَّةُ[3] أشدُّ النَّاسِ نفرَةً وتنفيرًا عن صفاتِهِ ونعوتِ كمالِهِ ، يُعاقِبونَ ويذُمُّونَ مَن يَذكرُها ويقرؤها ويجمعُها ويعتني بها، ولهذا لهم المَقْتُ والذَّمُّ عندَ الأئمَّة وعلى لسانِ كلِّ عالمٍ من علماءِ الإسلامِ ، واللَّهُ تعالى أشدُّ بُغضًا ومَقْتًا لهم ؛ جزاءً وفاقًا .

البصيرةُ والعلم والاتباع

الوجهُ الرَّابعُ والستون : أنَّ أفضلَ منازِلِ الخلقِ عندَ اللَّهِ منزلَةُ الرِّسالَة والنُّبوَّة؛ فاللَّهُ يَصطفي من الملائكَة رُسلًا ومنَ النَّاسِ، وكيفَ لا يكونُ أفضلَ الخَلقِ عندَ اللَّهِ مَن جعلَهُم وسائطَ بينَهُ وبينَ عبادِهِ في تبليغِ رسالاتِهِ وتَعريفِ أسمائِهِ وأفعالِهِ وصفاتِهِ وأحكامِهِ ومراضيهِ ومساخطِهِ وثوابِهِ وعقابِهِ !؟ وخصَّهُم بوَحيِهِ ، واختصَّهُم بتَفضيلِهِ ، وارتضاهُم لرسالتِهِ إلى عبادِهِ ، وجَعَلَهُم أزكى العالَمين نفوسًا، وأشرفَهم أخلاقًا، وأكملَهم علومًا وأعمالًا، وأحسنَهم خِلقَةً، وأعظَمَهم محبَّةً وقَبولًا في قلوبِ النَّاسِ ، وبرَّأهُم من كلِّ وَصمٍ وعَيبٍ ،

---

(١) علّقه البخاري (٧٧٤) ، ووصله أحمد (٣ / ١٤١ و ١٥٠) ، والترمذي (٢٩٠) ، والدارمي (٢ / ٤٦٠) ، وأبو يعلى (٣٣٣٦) ، وابن حبان (٧٩٢) عن أنس بسند حسن .

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٧٥) ، ومسلم (٨١٣) عن عائشة .

(٣) ومِثلُهم أَفراخُهم مِن مُعَطِّلةِ العصرِ ومُؤوِّلةِ آخِرِ الزَّمان !!

وكلِّ خُلُقٍ دَنيءٍ، وجَعَلَ أشرَفَ مراتبِ النَّاسِ بَعدَهُم مَرتَبَةَ خلافتِهم ونيابتِهم في أُمَمِهِم ؛ فإنَّهُم يخلُفونَهُم على منهاجِهِم وطريقِهِم ؛ من نصيحتهم للأُمَّة ، وإرشادِهم الضَّالَّ ، وتعليمِهم الجاهلَ ، ونَصرِهم المظلومَ ، وأَخْذِهم على يَدِ الظَّالم، وَأَمْرِهِم بالمعروفِ وفعلِهِ ونَهيِهِم عن المُنكَرِ وتَركِهِ، والدَّعوَةِ إلى اللَّهِ بالحِكمَةِ للمُستجِيبين، والموعظَةِ الحسَنَةِ للمُعرِضينَ والغافلينَ، والجدالِ بالتي هي أحسنُ للمُعاندينَ المُعارضينَ .

فهذه حالُ أَتْباعِ المُرسَلين وَوَرَثَةِ النَّبيِّين ؛ قال تعالى : ﴿ قُل هذه سبيلي أدعو إلى اللهِ على بَصيرَةٍ أنا وَمَن اتَّبَعني ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

وسواءٌ كانَ المعنى: أنا ومَن اتَّبعني على بَصيرَةٍ وأنا أدعو إلى اللَّهِ، أو المعنى : أدعو إلى اللَّهِ على بَصيرَةٍ، فالقولان[1] مُتلازمان؛ فإنَّه لا يكون مِن أتباعه حقًّا إلّا مَن دعا على بصيرةٍ، كما كانَ متبوعُهُ يفعلُ .

فهؤلاء خُلَفاءُ الرُّسل حقًّا، وَوَرَثَتُهُم دونَ النَّاس، وهم أولو العلمِ الذينَ قاموا بما جاءَ به عِلْمًا وعَمَلًا وهدايةً وإرشادًا وصبرًا وجهادًا، هؤلاء هم الصدِّيقون، وهم أفضَلُ أتباعِ الأنبياء، ورأسُهم وإمامُهُم الصِّدِّيق الأكبرُ أبو بكرٍ رضيَ اللَّهُ عنه .

قال تعالى : ﴿ ومَن يُطِعِ اللهَ والرَّسولَ فأُولئكَ معَ الَّذينَ أنعَمَ اللهُ عَليهم مِنَ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ وحَسُنَ أُولئكَ رَفيقًا ذلكَ الفَضلُ مِنَ اللهِ وكفى باللهِ عليمًا ﴾ [النساء : ٦٩]، فذكرَ مراتبَ السُّعداء وهي أربعةٌ، وبدأ بأعلاهم مرتبةً، ثمَّ الذينَ يَلونَهُم، إلى آخرِ المراتبِ .

---

(١) في الأُصول والمطبوع : والقولان !

وهؤلاءِ الأربَعةُ هم أهلُ الجنَّةِ الذينَ هم أهلُها، جَعَلَنا اللَّهُ منهم بمنِّهِ وكرمِهِ .

التميُّز بالعلم

الوجهُ الخامسُ والستون : أنَّ الإنسانَ إنَّما يُمَيَّزُ على غيرِهِ من الحيواناتِ بفضيلَةِ العلمِ والبيانِ، وإلّا فَغيرُهُ مِن الدَّوابِّ والسِّباعِ أكثَرُ أكلًا منه، وأقوى بَطْشًا ، وأكثَرُ جِماعًا وأولادًا ، وأطولُ أعمارًا ، وإنَّما مُيِّزَ على الدَّوابِّ والحيواناتِ بعلمهِ وبيانهِ، فإذا عُدِمَ العلمُ بقيَ معهُ القَدْرُ المُشترَكُ بينه وبينَ سائرِ الدَّوابِّ؛ وهي الحيوانيَّة الْمَحْضَة، فلا يَبقى فيه فَضلٌ عليهم، بل قَد يبقى شرًّا منهم؛ كما قال تعالى في هذا الصِّنفِ من النَّاس : ﴿ إنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عندَ اللهِ الصُّمُّ البُكمُ الَّذينَ لا يَعقلونَ ﴾ [الأنفال : ٢٢] ، فهؤلاء هم الجُهَّال ؛ ﴿ ولو علمَ الله فيهم خَيرًا لأسمعهم ﴾ [الأنفال : ٢٣]، أي: ليسَ عندهم محلٌّ قابلٌ للخَيرِ، ولو كان محلُّهم قابلًا للخَيرِ ﴿ لأسمعهم ﴾ أي : لأفهَمَهُم، فالسَّمعُ ههنا سَمْعُ فَهمٍ ، وإلّا فَسَمْعُ الصَّوتِ حاصلٌ لهم ، وبه قامَتْ حُجَّةُ اللَّهِ عليهم؛ قال تعالى : ﴿ ولا تَكونوا كَالَّذينَ قالوا سَمِعْنا وهُم لا يَسْمَعون ﴾ [الأنفال : ٢١]، وقال تعالى : ﴿ ومَثَلُ الَّذينَ كَفَروا كَمَثَلِ الَّذي يَنعِقُ بِما لا يَسمَعُ إلّا دُعاءً ونِداءً صُمٌّ بُكمٌ عُمْيٌ فهُم لا يَعقِلون ﴾ [البقرة : ١٧١] .

وسواءٌ كانَ المعنى : ومَثَلُ داعي الذين كفروا كَمَثَلِ الذي ينعقُ بما لا يَسمعُ من الدواب إلّا أصواتًا مجرَّدَةً، أو كانَ المعنى : وَمَثَلُ الذينَ كفروا حينَ يُنادَونَ كَمَثَلِ دوابٍّ الذي يَنعقُ بها فلا تسمعُ إلّا صوتَ الدُّعاءِ والنِّداء، فالقَولان مُتلازمان ، بل هما واحدٌ، وإنْ كانَ التَّقديرُ الثَّاني أقربَ إلى اللَّفظِ وأبلغَ في المعنى؛ فعلى التَّقديرين لم يحصُل لهم من الدَّعوَة إلّا الصَّوتُ

الحاصلُ للأنعامِ .

فهؤلاء لم يحصُل لهم حقيقةُ الإنسانيَّة التي يُمَيَّزُ بها صاحبُها عن سائرِ الحيوانِ .

والسَّمعُ يرادُ به إدراكُ الصَّوت، ويُرادُ به فَهمُ المعنى، ويرادُ به القَبولُ والإجابَةُ، والثَّلاثةُ في القرآن :

فَمِنَ الأوَّل : قوله : ﴿ قَد سَمِعَ الله قولَ التي تُجادِلُكَ في زَوجِها وتَشتكي إلى اللهِ والله يَسمَعُ تحاوُرَكما إنَّ الله سميعٌ بَصيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] ، وهذا أصرَحُ ما يكونُ في إثباتِ صفَةِ السَّمعِ؛ ذَكَرَ الماضيَ والمُضارِعَ واسمَ الفاعل : ﴿ سَمِعَ ﴾ و ﴿ يسمعُ ﴾، وهو ﴿ سميعٌ ﴾، وله السَّمعُ ؛ كما قالت عائشَةُ رضيَ اللَّهُ عنها : الحمدُ للَّهِ الذي وَسِعَ سَمعُهُ الأصواتَ، لَقَد جاءَت المجادِلَة تشكو إلى رَسول اللَّهِ ﷺ وأنا في جانبِ البَيتِ ، وإنَّهُ ليَخفى عليَّ بعضُ كلامِها ، فأنزَلَ اللَّهُ[1]: ﴿ قَد سَمِعَ الله قولَ التي تُجادلُكَ في زَوجها ﴾ [المجادلة : ١] .

والثَّاني : سمعُ الفَهمِ؛ كقوله : ﴿ ولو عَلِمَ الله فيهم خَيرًا لأسمَعَهُم ﴾ [الأنفال : ٢٣]، أي : لأَفْهَمَهُم : ﴿ ولو أسْمَعَهُم لتَولَّوْا وهُم مُعرِضونَ ﴾ [الأنفال : ٢٣] ؛ لِمَا في قلوبهم من الكِبرِ والإعْراضِ عَن قَبُولِ الحقِّ ، ففيهم آفتانِ :

(١) رواه البخاري (١٣ / ٣٧٢) تعليقًا مجزومًا به .

وَوَصَلَهُ أحمد (٦ / ٤٦)، والنسائي (٦ / ١٣٧)، وابن ماجه (١٨٨) و (٢٠٦٣)، والواحدي (ص ٤٠٨)، وابن جرير (٢٨ / ٥) .

وسنده صحيح .

إحداهما : أنَّهُم لا يَفهمونَ الحقَّ **لجهلهم**، ولو فَهموهُ لتولَّوا عنه وهم مُعرِضونَ عنه **لكِبْرِهم**[١]، وهذا غايةُ النَّقصِ والعَيبِ .

الثَّالث : سمعُ القَبولِ والإجابَةِ؛ كقولِه تعالى : ﴿ لو خَرَجوا فيكُم ما زادوكُم إلّا خَبالًا وَلَأَوْضَعوا خِلالَكُم يَبغونَكُم الفتنَةَ وفيكُم سمَّاعونَ لهُم ﴾ [التوبَة : ٤٧]، أي : قابِلونَ مُستجيبونَ، ومنه قولُه تعالى : ﴿ سمَّاعونَ للكَذِبِ ﴾ [المائدة : ٤١] ، أي : قابلونَ له مُستجيبونَ لأهلِهِ ، ومنه قولُ المُصَلِّي : سمعَ اللَّهُ لمنَ حَمِدَه ؛ أي : أجابَ اللَّهُ حَمْدَ مَن حَمِدَه ، ودُعاءَ من دَعاهُ، وقولُ النَّبيِّ ﷺ : « إذا قالَ الإمامُ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَن حَمِدَه، فقولوا : ربَّنا ولكَ الحمدُ ، يَسمعِ اللَّهُ لكُم »[٢] أي : يجيبكُم .

والمقصودُ أنَّ الإنسانَ إذا لم يكُن له علمٌ بما يُصلِحُهُ في معاشِهِ ومعادِهِ كانَ الحيوانُ البَهيمُ خيرًا منه لسلامَتِهِ في المعاد ممَّا يُهلِكُهُ دونَ الإنسان الجاهل .

العلم حاكمٌ على ما سواه

الوجهُ السَّادسُ والستون : أنَّ العلمَ حاكمٌ على ما سواهُ ، ولا يَحكُم عليه شيءٌ، فكلُّ شيءٍ اختُلِفَ في وجودِهِ وعَدمِهِ وصحَّتِهِ وفسادِهِ ومنفعتِهِ ومضرَّتِهِ ورُجحانِهِ ونُقصانِهِ وكمالِهِ ونَقصِهِ ومَدحِهِ وذمِّهِ ومرتبتِهِ في الخيرِ وَجَوْدَتِهِ ورداءَتِهِ وقُرْبِهِ وبُعْدِهِ وإفضائِهِ إلى مَطْلوبِ كذا، وعَدمِ إفْضائِهِ، وحُصولِ المقصودِ به، وعَدَم حُصولِهِ، إلى سائرِ جهاتِ المعلومات؛ فإنَّ العلمَ حاكمٌ على ذلكَ كُلِّهِ، **فإذا حَكَمَ العلمُ انقطَعَ النِّزاعُ وَوَجَبَ الاتِّباعُ**، وهو الحاكمُ

---

(١) وهي الآفةُ الثانيةُ ، فالأُولى : الجهلُ ، والثانيةُ : الكِبرُ .

(٢) رواه مسلم (٤٠٤) عن أبي موسى الأشعري .

على الممالكِ والسِّياساتِ والأموالِ والأقلامِ ، فَمُلكٌ لا يتأيَّدُ بعلمٍ لا يقومُ، وسيفٌ بلا علمٍ مِخراقُ لاعبٍ، وقَلَمٌ بلا علمٍ حركةُ عابثٍ، والعلمُ مُسلَّطٌ حاكمٌ على ذلكَ كلِّهِ ، ولا يحكُم شيءٌ من ذلكَ على العلم .

وقد اختُلِفَ في تفضيلِ مِدادِ العلماءِ على دمِ الشهداءِ وعكسِهِ (١)، وذُكرَ لكلِّ قولٍ وجوهٌ من التراجيحِ والأدلَّة !!

ونفسُ هذا النِّزاعِ دليلٌ على تفضيلِ العلمِ ومرتبتِهِ؛ فإنَّ الحاكمَ في هذه المسألة هو العلمُ، فبِهِ وإليهِ وعندَهُ يقعُ التَّحاكُم والتَّخاصُم، والمُفضَّلُ منهما مَن حُكِمَ له بالفَضل .

فإنْ قيلَ : فكيفَ يُقبَلُ حُكمُهُ لنفسِهِ ؟

قيلَ : وهذا أيضًا دليلٌ على تفضيلهِ وَعُلُوِّ مرتبتِهِ وشرفِهِ؛ فإنَّ الحاكمَ إنَّما لم يسُغ أن يحكُمَ لنفسِهِ لأجلِ مَظِنَّةِ التُّهمَة، والعلمُ لا تلحقُهُ تُهمةٌ في حُكمهِ لنفسِهِ، فإنَّهُ إذا حكمَ حكمَ بما تَشهَدُ العقولُ والنَّظرُ بصحَّتهِ، وتتلقَّاهُ بالقَبولِ، ويستحيلُ حُكمُهُ لتهمَةٍ ، فإنَّهُ إذا حكمَ بها انعزَلَ عن مرتبتِهِ، وانحطَّ عن درجتِهِ ، فهو الشاهدُ المُزكِّي المُعَدِّل، والحاكمُ الذي لا يجورُ ولا يُعزَلُ .

فإنْ قيلَ : فماذا حُكمُه في هذه المسألةِ التي ذكرتموها ؟

قيل : هذه المسألةُ كثُرَ فيها الجِدالُ واتَّسعَ المجالُ، وأدلى كلٌّ منهما بحُجَّتِهِ واستَعلى بمرتبتِهِ، والذي يَفصلُ النِّزاعَ ويعيدُ المسألَةَ إلى مواقعِ الإجماعِ الكلامُ في أنواعِ مراتبِ الكمالِ ، وذِكْرُ الأفضلِ منها ، والنَّظرُ في أيِّ هذين

---

(١) وفي ذلك أحاديث ؛ لكنّها لا تصحُّ ، فانظر « جامع بيان العلم وفضله » (١ / ٣٦)، و « العلل المتناهية » (١ / ٧٢) ، و « إتحاف السادة المتقين » (١ / ٤١) .

الأمرين أولى به وأقربُ إليه ؟!

فهذه الأُصولُ الثَّلاثَةُ تُبيِّن الصَّواب ، ويقعُ بها فَصلُ الخطاب .

فأمَّا مراتبُ الكمالِ فأربعٌ : النُّبوَّةُ ، والصِّدِّيقيَّةُ ، والشَّهادَةُ ، والوِلايَةُ، وقد ذكرها اللَّهُ سبحانهُ في قولِه تعالى : ﴿ ومَن يُطِعِ الله والرَّسولَ فأولئكَ معَ الَّذينَ أنعَمَ الله علَيهِم من النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالحينَ وحَسُنَ أولئكَ رَفيقًا ذلكَ الفَضلُ منَ اللهِ وكفى باللهِ عليمًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

وَذَكَرَ تعالى هؤلاء الأربعَ في سورَة الحديدِ ؛ فذكَرَ تعالى الإيمانَ به وبرسولِهِ ، ثمَّ نَدَبَ المؤمنينَ إلى أن تخشعَ قلوبُهُم لكتابِهِ ووَحيِهِ ، ثمَّ ذكرَ مراتبَ الخلائقِ شقيِّهم وسعيدِهم ؛ فقال : ﴿ إنَّ المُصَّدِّقينَ والمُصَّدِّقاتِ وأقرَضوا الله قَرْضًا حَسَنًا يُضاعَفُ لهُم ولَهُم أجرٌ كريمٌ والَّذينَ آمَنوا باللهِ ورُسُلهِ أُولئكَ همُ الصِّدِّيقونَ والشُّهَداءُ عندَ ربِّهِم لهُم أجرُهُم ونورُهُم والَّذينَ كفَروا وكذَّبوا بآياتنا أولئكَ أصحابُ الجحيم ﴾ [الحديد : ١٨ - ١٩]، وذكرَ المُنافقينَ قبلَ ذلكَ .

فاستَوعَبَتْ هذه الآيَةُ أقسامَ العبادِ شقيِّهم وسعيدِهم .

والمقصودُ أنَّهُ ذكرَ فيها المراتبَ الأربعَةَ : الرِّسالَةَ والصِّدِّيقيَّةَ والشَّهادَةَ والوِلايَةَ :

فأعلى هذه المراتبِ النُّبوَّةُ والرِّسالَةُ، ويليها الصِّدِّيقيَّةُ، فالصِّدِّيقون هم أئمَّةُ أَتْباعِ الرُّسلِ، ودرجتُهم أعلى الدَّرجاتِ بَعدَ النبوَّة، فإنْ جَرَى قَلَمُ العالِمِ بالصِّدِّيقيَّة، وسالَ مِدادُهُ بها كانَ أفضَلَ من دَمِ الشَّهيد الذي لَم يلحقْهُ في رُتبَةِ الصِّدِّيقيَّة ، وإنْ سال دَمُ الشَّهيد بالصِّدِّيقيَّة وقَطَرَ عليها كان أفضلَ من مِدادِ

العالِمِ الذي قصَّرَ عنها، فأفضلهُما صِدِّيقُهما، فإنِ استَويا في الصِّدِّيقيَّة استويا في المرتَبَةِ، واللَّهُ أعلم .

والصِّدِّيقيَّة : هي كمالُ الإيمان بما جاءَ به الرَّسولُ عِلْمًا وتَصديقًا وقيامًا به، فهي راجعَةٌ إلى نَفسِ العِلْمِ، فكلُّ مَن كانَ أعلمَ بما جاءَ به الرَّسولُ وأكملَ تَصديقًا لهُ كانَ أتمَّ صدِّيقيَّةً ، **فالصِّدِّيقيَّةُ شجرَةٌ أصولُـها العلـمُ ، وفروعُها التَّصديقُ، وثمرتُها العَملُ .**

فهذه كلماتٌ جامعةٌ في مسألةِ العالـِمِ والشَّهيد ، وأيُّهما أفضَل ؟!

الإيمانُ لا يكون إلّا بالعلم

الوجهُ السَّابعُ والستون : أنَّ النُّصوصَ النَّبويَّةَ قد تواتَرَتْ بأنَّ أفضَلَ الأعمالِ إيمانٌ باللَّهِ[1]، فهو رأسُ الأمرِ، والأعمالُ بَعدَهُ على مراتبها ومنازلها .

والإيمان له رُكنانِ :

أحدُهمـا : معرفَةُ ما جاءَ به الرَّسولُ ، والعلمُ به .

والثَّاني : تَصديقُهُ بالقَولِ والعَمَلِ، والتَّصديقُ بدونِ العلمِ والمعرفَةِ مُحالٌ، فإنَّهُ فَرعُ العِلمِ بالشيءِ المُصَدَّقِ به، فإذًا ؛ العلمُ من الإيمانِ بمنزلَةِ الرُّوح من الجَسَدِ ، **ولا تَقومُ شجرَةُ الإيمانِ إلّا على ساقِ العلمِ والمَعرفَةِ**، فالعلمُ - إذًا - أجلُّ المطالبِ وأسنى المواهب .

صِفاتُ الكمال راجعةٌ إلى العلم

الوجهُ الثَّامنُ والستون : أنَّ صفاتِ الكمالِ كلَّها تَرجعُ إلى العلمِ والقُدرَةِ والإرادةِ، والإرادَةُ فَرعُ العلمِ ؛ فإنَّها تستلزمُ الشعورَ بالمرادِ ، فهي **مُفتقِرَةٌ** إلى العلمِ في ذاتِها وحَقيقتِها، والقُدرَةُ لا تؤثِّرُ إلّا بواسطَةِ الإرادَةِ، والعلمُ لا يَفتَقِر في تعلُّقِهِ بالمعلوم إلى واحدَةٍ منهما، وأمَّا القُدرَة والإرادةُ فكلٌّ منهما يفتَقرُ في

---

(١) سيأتي - قريبًا - تخريجُ الحديثِ الواردِ في ذلك .

تعلُّقِهِ بالمُرادِ والمَقدورِ إلى العلم ، وذلك يدُلُّ على فَضيلتِهِ وشرفِ منزلتِهِ .

عموم العلم تعلُّقًا بالصِّفاتِ

الوجهُ التَّاسعُ والستون : أنَّ العلمَ أعمُّ الصِّفاتِ تعلُّقًا بمتعلَّقِهِ وأوسعها، فإنَّهُ يتعلَّقُ بالواجبِ والمُمْكِنِ والمُستحيلِ والجائزِ والموجودِ والمعدومِ، فذاتُ الرَّبِّ سبحانهُ وصفاتهُ وأسماؤهُ معلومةٌ له، ويَعْلَمُ العبادُ من ذلكَ ما علَّمهم العليمُ الخبيرُ .

وأمَّا القُدرَةُ والإرادَةُ فكلٌّ منهما خاصُّ التَّعلُّق؛ أمَّا القُدرَةُ فإنَّما تَتعلَّقُ بالمُمْكِنِ خاصَّةً ، لا بالمُستحيل ولا بالواجب، فهي أخصُّ من العلمِ من هذا الوجه، وأعمُّ من الإرادَةِ؛ فإنَّ الإرادَة لا تَتعلَّقُ إلّا ببعضِ المُمْكِناتِ وهو ما أُريدَ وجودُهُ، فالعلمُ أوسَعُ وأعمُّ وأشملُ في ذاتِهِ ومتعلَّقِهِ .

العُلماءُ هم الأئِمَّة

الوجهُ السَّبعون : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ أخبرَ عن أهلِ العلمِ بأنَّهُ جَعَلَهُم أئمَّةً يَهْدُونَ بأمرِهِ، ويأتمُّ بهم مَن بعدهم، فقال تعالى : ﴿ وجَعَلْنا مِنْهُم أئمَّةً يَهْدُونَ بأمرِنا لـمَّا صَبَروا وكانوا بآياتنا يُوقِنون ﴾ [السجدة : ٢٤] .

وقال في موضعٍ آخَرَ : ﴿ والَّذينَ يقولونَ ربَّنا هَبْ لنا مِن أزواجِنا وذُرِّيَّاتنا قُرَّةَ أعيُنٍ واجعَلْنا للمُتَّقينَ إمامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤]، أي : أئمَّةً يَقتدي بنا مَن بَعدَنا .

فأخبرَ سبحانهُ أنَّ **بالصَّبرِ واليقينِ تُنالُ الإمامَةُ في الدِّين**[١] وهي أرفَعُ مراتبِ الصِّدِّيقين .

واليَقينُ هو كمالُ العلمِ وغايتُهُ، فبتكميلِ مرتبةِ العلمِ تحصُلُ إمامَةُ الدِّين ،

---

(١) وهذه كلمةٌ مِن مُهمّات كلمات شيخ الإسلام ابن تيمية، ينقلها عنه - ويُشهرها - تلميذُه المصنِّف رحمه الله ، وهي - بحدِّ ذاتها - منهجٌ علميٌّ دعويٌّ عظيمٌ .

وهي ولايةٌ آلتُها العلمُ، يختَصُّ اللَّهُ بها من يشاءُ من عبادِهِ .

حاجة العباد إلى العلم

الوجهُ الحادي والسبعون : أنَّ حاجَةَ العبادِ إلى العلمِ ضَروريَّةٌ فَوقَ حاجَةِ الجسمِ إلى الغذاءِ، لأنَّ الجسمَ يحتاجُ إلى الغذاءِ في اليومِ مرَّةً أو مرَّتين، **وحاجَةُ الإنسانِ إلى العلمِ بعَدَدِ الأنفاسِ**، لأنَّ كلَّ نَفَسٍ من أنفاسِهِ فهو مُحتاجٌ فيه إلى أن يكونَ مُصاحِبًا لإيمانٍ أو حِكمَةٍ، فإنْ فارَقَهُ الإيمانُ أو الحكمَةُ في نَفَسٍ من أنفاسِهِ فَقَد عَطِبَ، وقَرُبَ هلاكُهُ، وليسَ إلى حُصولِ ذلكَ سبيلٌ إلّا بالعلمِ، فالحاجَةُ إليه فوقَ الحاجَةِ إلى الطَّعامِ والشرابِ .

وقَد ذكَرَ الإمامُ أحمَد هذا المعنى بعَينِهِ ، فقال : النَّاسُ أحوَجُ إلى العلمِ منهم إلى الطَّعامِ والشرابِ؛ لأنَّ الطَّعامَ والشرابَ يُحتاجُ إليه في اليومِ مرَّةً أو مرَّتين، والعلمُ يُحتاجُ إليه في كُلِّ وقتٍ(١) .

العلم قلة عمل وكثرة أجر

الوجهُ الثَّاني والسبعون : أنَّ صاحبَ العلمِ أقلُّ تَعَبًا وعملًا وأكثرُ أجرًا .

واعتبِرْ هذا بالشاهدِ؛ فإنَّ الصُّنَّاعَ والأُجَراءَ يُعانونَ الأعمالَ الشاقَّةَ بأنفسِهم، والأُستاذُ المُعلِّمُ يجلسُ ، ويأمرُهُم وينهاهُم ويُريهم كيفيَّةَ العملِ ، ويأخذُ أضعافَ ما يأخذونَهُ .

وقد أشارَ النَّبيُّ ﷺ إلى هذا المعنى حيثُ قال : « أفضلُ الأعمالِ إيمانٌ باللَّهِ، ثمَّ الجهادُ »(٢).

فالجهادُ فيه بذلُ النَّفسِ وغايَةُ المشقَّة ، والإيمانُ علمُ القَلبِ وعمَلُهُ

---

(١) انظر « طبقات الحنابلة » (١ / ١٤٦) .

(٢) رواه مسلم (٨٤) عن أبي ذرٍّ .

وهو في « صحيح البخاري » (٢٥١٨) - عنه - بنحوه .

وتَصديقُهُ، وهو أفضلُ الأعمالِ ، مع أنَّ مشقَّةَ الجهادِ فوقَ مشقَّتِهِ بأضعافٍ مُضاعَفَة ، وهذا لأنَّ العلمَ يُعَرِّفُ مقاديرَ الأعمال ومراتبها ، فاضِلَها من مفضولِها ، وراجحَها من مرجوحِها ، فصاحبُهُ لا يختارُ لنفسِهِ إلّا أفضلَ الأعمالِ، **والعاملُ بلا علمٍ يَظُنُّ أنَّ الفَضيلَةَ في كثرَةِ المشقَّة**، فهو يتحمَّلُ المشاقَّ وإنْ كانَ ما يُعانيه مفضولًا، ورُبَّ عملٍ فاضلٍ والمفضولُ أكثرُ مشقَّةً منه .

واعتَبِرْ هذا بحالِ الصِّدِّيق رضي اللَّه عنه فإنَّهُ أفضلُ الأُمَّة[1]، ومعلومٌ أنَّ فيهم مَنْ هو أكثرُ عملًا وحجًّا وصَومًا وصلاةً وقراءَةً منه، قال أبو بكر بن عيَّاش : ما سبقكُم أبو بكرٍ بكَثرَةِ صَومٍ ولا صَلاةٍ ، ولكنْ بشيءٍ وَقَرَ في قَلبِه[2].

وهذا مَوضعُ المثَلِ المشهور :

مَن لي بِمثلِ سَيرِكَ المُدَلَّلِ   تَمشي رُوَيدًا[3] وَتَجي في الأوَّلِ

العلم إمام العمل

الوجهُ الثَّالثُ والسبعون : أنَّ العلمَ إمامُ العَمَلِ، وقائدٌ له، والعَمَلُ تابعٌ لهُ ومُؤتَمٌّ به ، فكلُّ عملٍ لا يكونُ خَلْفَ العلمِ مُقتديًا به فهو غَيرُ نافعٍ لصاحبِهِ، بل مَضَرَّةٌ عليه ، كما قالَ بعضُ السَّلفِ : مَن عَبَدَ اللَّه بغَيرِ علمٍ كانَ ما يُفسِدُ

---

(١) وهذه هي عقيدةُ أَهل السنَّة والجماعة ، وأَمَّا الشيعة الشنيعة ، فيأْبى عليها (رَفْضُها) إلَّا نقضَ ذلك وردَّه !!

(٢) عزاه العراقي في « تخريج الإحياء » (١ / ٢٣) للحكيم الترمذي من قول بكر بن عبداللَّه المُزَني .

ثم قال : « ولم أجده مرفوعًا » .

وأشارَ الزَّبيدي في « إتحاف السادة المتّقين » (١ / ١٨٧) إلى عزو المؤلف الخَبَر لأبي بكر ابن عيَّاش .

وانظر « الأسرار المرفوعة » (ص ٤٥٤) لعلي القاري .

(٣) وفي نُسخة : « الهُوينا » .

أكثرَ ممَّا يُصلحُ .

والأعمالُ إنَّما تتفاوَتُ في القَبولِ والرَّدِّ بحسَبِ مُوافقتها للعلمِ وَمُخالفتها له ، فالعملُ الموافقُ للعلمِ هو المقبولُ ، والمخالفُ له هو المردودُ .

فالعلـمُ هو الـميزانُ وهو الـمِحَكُّ؛ قال تعالى : ﴿ الَّذي خَلَقَ المَوتَ والحياةَ لِيَبلُوَكُم أيُّكُم أحسَنُ عَمَلًا وهو العَزيزُ الغَفورُ ﴾ [المُلك : ٢] ؛ قال الفُضَيلُ بن عِياض : هو أخلَصُ العَمَل وأصوَبُهُ ، قالوا : يا أبا عليٍّ ، ما أخلصُهُ وأصوَبُهُ ؟ قال : إنَّ العمَلَ إذا كانَ خالصًا ولم يكُن صوابًا لم يُقبَلْ، وإذا كانَ صَوابًا ولم يكُن خالصًا لم يُقبَلْ حتى يكونَ خالصًا صَوابًا، **فالـخالصُ أن يكونَ للّهِ، والصَّوابُ أن يكونَ على السُّنَّة** [1]، وقَد قال تعالى : ﴿ فَمَن كانَ يَرجو لقاءَ ربِّهِ فَلْيَعمَلْ عملًا صالحًا ولا يُشرِكْ بعبادَةِ ربِّهِ أحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

فهذا هو العَملُ المقبولُ الذي لا يقبَلُ اللَّهُ من الأعمالِ سواهُ؛ وهو أن يكونَ موافقًا لسنَّةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، مُرادًا به وجهُ اللَّهِ .

ولا يتمكَّن العاملُ من الإتيانِ بعَمَلٍ يَجمَعُ هذين الوَصفَينِ إلّا بالعلمِ، فإنَّهُ إنْ لم يعلم ما جاءَ به الرَّسولُ لم يُمْكِنْهُ قَصدُهُ، وإنْ لم يعرفْ معبودَهُ لم يُمْكِنْهُ إرادتُهُ وحدَهُ ، فلولا العلمُ لَمَا كان عملُهُ مقبولًا ، **فالعلـمُ هو الدَّليلُ على الإخلاص، وهو الدَّليلُ على الـمُتابَعَةِ** [2] .

وقَد قال اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّـما يَتقَبَّلُ الله مِنَ الـمُتَّقين ﴾ [المائدة : ٢٧] ،

---

(١) رواه أبو نُعَيم في « الحلية » (٨ / ٩٥) .

وانظر كتابي « علم أصول البدع » (ص ٦١) .

(٢) في غالب الأمر وعُظْمِه ، وقد يتخلّفُ هذا لِتَخَلُّفِ استواءِ العلمِ على قاعدة الكتاب والسُّنَّة ، فتنبَّهْ .

وأحسنُ ما قيلَ في تَفسيرِ الآيَةِ ، أنَّهُ : إنَّما يتقبَّلُ عَمَلَ مَن اتَّقاهُ في ذلكَ العَمَلِ، وتَقواهُ فيه أن يكونَ لوجهِهِ على مُوافَقَةِ أمرِهِ، وهذا إنَّما يحصُلُ بالعلمِ .

وإذا كانَ هذا مَنزِلَ العلمِ وموقِعَهُ عُلِمَ أنَّهُ أشرَفُ شيءٍ وأجلُّهُ وأفضلُهُ، واللَّهُ أعلم .

العمل بلا علم ، كالسير بلا دليل

الوجهُ الرَّابعُ والسبعون : أنَّ العاملَ بلا علمٍ كالسَّائرِ بلا دَليلٍ، ومعلومٌ أنَّ عَطَبَ مثلِ هذا أقرَبُ من سلامتِهِ، وإنْ قُدِّرَ سلامَتُهُ اتِّفاقًا نادرًا فهو غيرُ محمودٍ ، بل مذمومٌ عندَ العقلاءِ .

وكانَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّة يقول : **مَن فارَقَ الدَّليلَ ضلَّ السَّبيلَ**، ولا دَليلَ إلَّا بما جاءَ به الرَّسولُ .

قال الحَسَنُ : العاملُ على غيرِ علمٍ كالسَّالكِ على غيرِ طريقٍ، والعاملُ على غيرِ علمٍ يُفسِدُ أكثرَ ممَّا يُصلحُ، فاطلبوا العلمَ طلبًا لا تضرُّوا بالعبادَةِ، واطلبوا العبادَةَ طلبًا لا تضرُّوا بالعلمِ؛ فإنَّ قومًا طلبوا العبادَة وتركوا العلمَ حتى خَرجوا بأسيافهم على أُمَّةِ محمَّد ﷺ، ولو طلبوا العلمَ لم يدُلَّهُم على ما فَعَلوا .

والفَرْقُ بينَ هذا الوجه وبينَ ما قبلَهُ : أنَّ العِلمَ مَرتَبتُهُ في الوجه الأول مرتبةُ المُطاعِ المتبوعِ المقتدى به المُتَّبعِ لحكمِهِ المُطاع أمرُهُ، ومرتبتُه في هذا الوجهِ مرتبةُ الدَّليل المُرشدِ إلى المَطلوبِ المُوصلِ إلى الغايَةِ .

الهداية هي العلم بالحق

الوجهُ الخامسُ والسبعون : أنَّ النَّبيَّ ﷺ ثَبَتَ في « الصَّحيح »[1] عنه أنَّهُ كانَ يقولُ : « اللهمَّ ربَّ جبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطرَ السمواتِ والأرض، عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ، أنتَ تحكُمُ بينَ عِبادكَ فيما كانوا فيهِ يَختلفون، اهْدِني لِمَا

---

(١) « صحيح مسلم » (برقم : ٧٧٠) .

اختلِفَ فيهِ مِنَ الحقِّ بإذْنِكَ، إنَّكَ تَهدي مَن تشاءُ إلى صراطٍ مُستقيم » .

وفي بعض « السُّنَن »[١] أنَّهُ كان يكبِّر تكبيرَةَ الإحرام في صلاةِ اللَّيل ، ثمَّ يَدعو بهذا الدُّعاء .

والهدايَةُ هي العِلْمُ بالحقِّ مع قَصدِهِ وإيثارِهِ على غيرِهِ، فالمُهتَدي هو العاملُ[٢] بالحقِّ المريدُ له، وهي أعظمُ نعمَةٍ للَّهِ على العَبدِ، ولهذا أمَرَنا سبحانَهُ أن نسأَلَهُ هدايَةَ الصِّراطِ المُستقيمِ كُلَّ يومٍ وليلَةٍ في صلواتنا الخمس؛ فإنَّ العبدَ مُحتاجٌ إلى معرفَةِ الحقِّ الذي يُرضي اللَّهَ في كُلِّ حَرَكَةٍ ظاهِرَةٍ وباطنَةٍ، فإذا عَرَفها فهو مُحتاجٌ إلى من يُلهِمُهُ قَصدَ الحقِّ ، فيجعَلُ إرادتَهُ في قلبه، ثمَّ إلى مَن يُقدِّرُهُ على فعلهِ .

ومعلومٌ أنَّ ما يجهلُهُ العَبدُ أضعافُ أضعافِ ما يعلمُهُ، وأنَّ كلَّ ما يعلمُه أنَّهُ حقٌّ لا تُطاوِعُهُ نفسُهُ على إرادتِهِ، ولولا إرادتُهُ لَعَجِزَ عن كثيرٍ منه ، فهو مُضْطرٌّ كلَّ وقتٍ إلى هدايَةٍ تتَعلَّقُ بالماضي وبالحالِ والمُستقبل :

أمَّا **الماضي** فهو مُحتاجٌ إلى محاسبَةِ نفسِهِ عليه، وهل وَقَعَ على السَّدادِ؛ فيشكُرَ اللَّهَ عليه ويَستديمَهُ ؟ أم خَرَجَ فيه عن الحقِّ فيَتوبَ إلى اللَّهِ تعالى منه ، ويَستغفرَهُ ، ويَعزمَ على أن لا يَعودَ ؟

وأمَّا الهدايَةُ في **الحالِ** فهيَ مطلوبةٌ منه؛ فإنَّهُ ابنُ وقتِهِ ، فيحتاجُ أن يعلمَ حُكمَ ما هو مُتلبِّسٌ به من الأفعالِ؛ هل هو صَوابٌ أم خطأ ؟

وأمَّا **المُستقبلُ** فحاجتهُ فيه إلى الهدايَةِ أظهَرُ، ليكونَ سَيْرُهُ على الطَّريقِ .

---

(١) « سنن أبي داود » (٧٦٧) ، و « سنن الترمذي » (٣٤٢٠) ، و « سنن النسائي » (٣ / ٢١٢) ، و « سنن ابن ماجه » (١٣٥٧) ، وسندُهُ صحيحٌ .

(٢) وفي نسخة : « العالم » .

وإذا كانَ هذا شأنَ الهدايَةِ عُلِمَ أنَّ العَبدَ أشدُّ شيءٍ اضطرارًا إليها؛ وأنَّ ما يُورِدُهُ بعضُ النَّاسِ من السُّؤالِ الفاسد - وهو أنَّا إذا كُنَّا مُهتَدين فأيُّ حاجَةٍ بنا أن نسألَ اللَّهَ أن يَهدينا ؟ وَهَل هذا إلّا تحصيلُ الحاصلِ - أفسَدُ سؤالٍ وأبعَدُهُ عنِ الصَّوابِ، وهو دليلٌ على أنَّ صاحِبَهُ لم يُحَصِّل معنى الهدايَة ، ولا أحاطَ علمًا بحقيقتها ومسمَّاها !

فلذلكَ تكلَّفَ مَن تكلَّفَ الجوابَ عنه بأنَّ المعنى : ثَبِّتْنا على الهدايَةِ وأَدِمْها لنا !

ومَن أحاطَ علمًا بحقيقَة الهدايَةِ، وحاجَةِ العَبدِ إليها، عَلِمَ أنَّ الذي لم يَحْصُلْ له منها أضعافُ ما حَصَلَ له ، وأنَّهُ كلَّ وقتٍ مُحتاجٌ إلى هدايَةٍ مُجَدَّدةٍ، لا سيَّما واللَّهُ تعالى خالقُ أفعالِ القلوبِ والجوارِحِ ، فهو كُلَّ وقتٍ مُحتاجٌ أن يخلقَ اللَّهُ له هدايَةً خاصَّةً، ثمَّ إنْ لم يَصرِفْ عنه الموانعَ والصَّوارفَ التي تَمنعُ مُوجِبَ الهدايَةِ وتصرِفُها لم ينتفعْ بالهدايَة، ولم يتمَّ مقصودُها له، **فإنَّ الحُكمَ لا يَكفي فيه وجودُ مقتَضيهِ ، بل لا بدَّ مع ذلكَ من عَدم مانعهِ ومُنافيهِ .**

ومعلومٌ أنَّ وساوِسَ العَبدِ وخواطِرَهُ وشهواتِ الغَيِّ في قلبهِ كُلٌّ منها مانعٌ من وصول أَثَرِ الهدايَة إليه، فإنْ لم يَصرفْها اللَّهُ عنه لم يَهْتَدِ هدًى تامًّا، فحاجتُهُ إلى هدايَةِ اللَّهِ له مقرونَةٌ بأنفاسِهِ، وهي أعظمُ حاجَةٍ للعَبدِ .

وذكرَ النَّبيُّ ﷺ في الدُّعاء العظيم القَدْرِ مِن أوصافِ اللَّهِ ورُبوبيَّتهِ ما يُناسِبُ المطلوبَ، فإنَّ فَطْرَ السَّموات والأرضِ تَوَسُّلٌ إلى اللَّهِ بهذا الوَصْفِ في الهدايَة للفطرَة التي ابتدأ الخَلْقَ عليها، فَذكرَ كونَهُ فاطرَ السَّموات والأرضِ، والمطلوبُ تعليمُ الحقِّ، والتَّوفيقُ له، فَذكرَ عِلمَهُ سبحانهُ بالغَيبِ والشهادَة، وأنَّ

مَن هو بكلِّ شيءٍ عليمٌ جديرٌ أن يَطلُبَ منه عبدُهُ أن يُعلِّمَهُ ، ويُرشدَه ويهديَه؛ وهو بمنزلةِ التوسُّلِ إلى الغنيِّ بغناه وسعةِ كَرَمِه أَنْ يُعطيَ عبدَهُ شيئًا مِن مالِه، والتوسُّلِ إلى الغَفُورِ بسَعَةِ مغفرتِهِ أن يَغْفِرَ لعَبدِهِ، وبعفوهِ أن يَعفو عنهُ، وبرَحمتهِ أن يَرحمَهُ، ونظائرُ ذلكَ .

وذَكَرَ ربوبيَّتَهُ تعالى لجبريلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ؛ وهذا - واللَّهُ أعلمُ - لأنَّ المطلوبَ هُدًى يحيا به القلبُ، وهؤلاءِ الثَّلاثَةُ الأملاكُ قَد جَعَلَ اللَّهُ تعالى على أيديهم أسبابَ حياةِ العبادِ :

أمَّا جبريل؛ فهو صاحبُ الوَحي الذي يُوحيهِ اللَّهُ إلى الأنبياء ، وهو سَبَبُ حياةِ الدُّنيا والآخِرَة .

وأمَّا ميكائيلُ فهو المُوكَّل بالقَطْرِ الذي به سَبَبُ حياةِ كلِّ شيءٍ .

وأمَّا إسرافيلُ فهو الذي يَنفُخُ في الصُّور فيُحيي اللَّهُ الموتى بنفختِهِ؛ **فإذا** هم قيامٌ لربِّ العالمين .

والهدايَةُ لها أربعُ مراتبَ ، وهي مذكورَةٌ في القرآن :

المرتبَةُ الأولى : الهدايَة العامَّةُ؛ وهي هدايَةُ كلِّ مخلوقٍ من الحيوان والآدميِّ لمصالحهِ التي بها قامَ أمرُهُ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ **سَبِّحِ اسمَ ربِّكَ الأعلى الَّذي خَلَقَ فَسوَّى والَّذي قَدَّرَ فَهَدى** ﴾ [الأعلى : ١ - ٣]؛ فذكر أمورًا أربعَةً : الخلقَ، والتَّسويَةَ، والتَّقديرَ، والهدايَةَ، فسوَّى ما خَلَقَهُ وأتقنهُ وأحكَمهُ، ثمَّ قدَّرَ له أسبابَ مصالحهِ في معاشهِ وتقلُّباتهِ وتصرُّفاتهِ، وهداهُ إليها .

والهدايَةُ تَعليمٌ، فَذكرَ أنَّهُ الذي خَلَقَ وعلَّمَ، كما ذَكَرَ نَظيرَ ذلكَ في أوَّل سورةٍ أنزلها على رسولهِ ، - وقَد تقدَّمَ ذلكَ -.

وقال تعالى حكايَةً عن عدُوِّه فرعون أنَّهُ قال لموسى : ﴿ فَمَن ربُّكما يا موسى قالَ ربُّنا الَّذي أعطى كُلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثمَّ هَدى ﴾ [طه : ٤٩ - ٥٠]، وهذه المرتبةُ أسبقُ مراتبِ الهدايَةِ وأعمُّها .

المرتبَةُ الثَّانيَةُ : هدايةُ البيانِ والدَّلالةِ[١] التي أقامَ بها حُجَّتَهُ على عبادِهِ، وهذه لا تستلزمُ الاهتداءَ التَّامَّ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وأمَّا ثَمودُ فهَديناهُم فاستَحبُّوا العَمى على الهُدى ﴾ [فصلت : ١٧]، يعني بيَّنَّا لهم ودلَّلْناهُم وعرَّفناهم فآثَروا الضَّلالَةَ والعَمى، وقال اللّه تعالى : ﴿ وعادًا وثَمودَ وقَد تبيَّنَ لكُم مِن مساكِنِهِم وزيَّنَ لهُم الشيطانُ أعمالَهُم فصدَّهُم عن السَّبيلِ وكانوا مُستبصِرين ﴾ [العنكبوت : ٣٨] .

وهذه المرتبةُ أخصُّ من الأولى، وأعمُّ من الثَّالثةِ ؛ وهي هُدى التَّوفيق والإلْهام ؛ قال اللَّهُ تعالى : ﴿ والله يَدعو إلى دارِ السَّلامِ ويَهدي مَن يَشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيم ﴾ [يونُس : ٢٥] ، فعمَّ بالدَّعوةِ خَلْقَهُ ، وخصَّ بالهدايَةِ مَن شاء منهم .

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّكَ لا تَهْدي مَن أحبَبتَ ولكنَّ الله يَهدي مَن يشاءُ ﴾ [القصص : ٥٦]، مع قولِه : ﴿ وإنَّكَ لَتَهْدي إلى صِراطٍ مُستقيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢]، **فأثبتَ هدايَةَ الدَّعوَة والبيان، ونَفى هدايَةَ التَّوفيقِ والإلهام** .

وقال النَّبيُّ ﷺ في تشهُّد الحاجَة : « مَن يَهْدِ اللَّهُ فلا مُضلَّ لهُ ، ومَن يُضلِلْ فلا هاديَ لهُ »[٢]، وقال تعالى : ﴿ إنْ تَحرِص على هُداهُم فإنَّ الله

---

(١) مُثلَّثةُ الدَّالِ ؛ يجوزُ فتحُها ، وضمُّها ، وكسرُها .

(٢) رواه مسلم (٨٦٨) عن ابن عباس .

=

لا يَهدي مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل : ٣٧]، أي : من يُضلُّهُ اللَّهُ لا يَهتَدي أبدًا، **وهذه الهدايَةُ الثَّالثَةُ** هي الهدايَةُ المُوجِبَةُ والمُستلزِمةُ للاهتداء .

وأمَّا الثَّانيَة؛ فشرطٌ لا مُوجِبٌ، فلا يَستحيلُ تخلُّفُ الهدى عنها، بخلافِ الثَّالثَة؛ فإنَّ تخلُّفَ الهدى عنها مُستحيلٌ .

المرتبةُ الرَّابعَةُ : الهدايَةُ في الآخرَة إلى طريقِ الجنَّةِ والنَّار، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ احْشُروا الَّذينَ ظَلموا وأزواجَهُم وما كانوا يَعبُدونَ مِن دونِ الله فاهْدُوهُم إلى صراطِ الجحيمِ ﴾ [الصافات : ٢٣] .

وأمَّا قولُ أهلِ الجنَّةِ : ﴿ الحَمدُ للهِ الَّذي هَدانا لهذا وما كنَّا لنَهتَدي لولا أن هَدانا الله ﴾ فيَحْتَمِلُ أنْ يكونوا أرادوا الهدايَة إلى طريقِ الجنَّة، وأنْ يكونوا أرادوا الهدايَةَ في الدُّنيا التي أوصلَتْهم إلى دارِ النَّعيم .

ولو قيلَ : إنَّ كِلا الأمرينِ مُرادٌ لهم، وأنَّهم حَمدوا اللَّهَ على هدايتِهِ لهم في الدُّنيا، وهدايتِهم إلى طريق الجنَّة، كان أحسَنَ وأبلغَ .

وقَد ضَرَبَ اللَّهُ تعالى لمَن لم يَحْصُل له العلمُ بالحقِّ واتِّباعه مَثَلًا مُطابقًا لحالِهِ ؛ فقال تعالى : ﴿ قُل أنَدعو من دونِ اللهِ ما لا يَنفعُنا ولا يَضُرُّنا ونُرَدُّ على أعقابنا بَعدَ إذ هَدانا الله كالَّذي استَهوَتْهُ الشياطينُ في الأرضِ حَيرانَ له أصحابٌ يَدْعُونَهُ إلى الهُدى ائْتِنا قُل إنَّ هُدى اللهِ هوَ الهُدى وأُمِرنا لنسلمَ لربِّ العالَمين ﴾ [الأنعام : ٧١] .

العلم حياة القلب والروح

الوجهُ السَّادسُ والسبعون : أنَّ فضيلَةَ الشيءِ وشرفَهُ يظهَرُ تارةً من عُمومِ منفعتِهِ، وتارَةً من شدَّةِ الحاجَةِ إليه وعَدَمِ الاستغناءِ عنهُ، وتارَةً من ظهورِ النَّقصِ

= ويُراجع - لزيادة التخريج - جزء « خطبة الحاجة » الذي صنَّفه شيخُنا الألباني .

والشرِّ بفَقدِهِ، وتارةً من حُصولِ اللذَّةِ والسُّرورِ والبَهجَةِ بوجودِهِ، لكونهِ محبوبًا ملائمًا - فإدْراكُهُ يُعقِبُ غايَةَ اللذَّةِ - ، وتارةً من كمالِ الثَّمَرَةِ المترتِّبَةِ عليه وشرفِ علَّتهِ الغائيَّةِ[1] وإفضائهِ إلى أجلِّ المطالبِ .

وهذه الوجوهُ ونحوُها تنشأُ وتظهرُ من مُتعلَّقِهِ؛ فإذا كانَ في نفسهِ كمالًا وشرفًا - بقطعِ النَّظرِ عن متعلَّقاتهِ - جمعَ جهاتِ الشرفِ والفَضلِ في نفسهِ ومُتعلَّقاتهِ .

ومعلومٌ أنَّ هذه الجهاتِ بأسْرِها حاصلَةٌ للعلمِ؛ فإنَّهُ أعمُّ شيءٍ نفعًا، وأكثرُهُ وأدوَمُهُ، والحاجَةُ إليهِ فوقَ الحاجَةِ إلى الغذاءِ، بل فوقَ الحاجَةِ إلى التَّنفُّسِ ؛ إذ غايَةُ ما يُتصوَّرُ من فَقدِهما فَقْدُ حياة الجسم ، **وأمَّا فَقدُ العلمِ فَفيهِ فَقدُ حياةِ القَلبِ والرُّوحِ**؛ فلا غَناءَ للعَبدِ عنه طرفَةَ عَين، ولهذا إذا فُقِدَ من الشخصِ كان شرًّا من الحمير، بل كانَ شرًّا من الدَّوابِّ عندَ اللَّهِ، ولا شيءَ أنقَصُ منه حينئذٍ .

وأمَّا حُصولُ اللذَّةِ والبَهجَةِ بوجودهِ؛ فلأنَّهُ كمالٌ في نفسهِ، وهو ملائمٌ غايَةَ الملاءَمَةِ للنُّفوسِ ؛ فإنَّ الجَهلَ مرضٌ ونقصٌ ،وهو في غايَةِ الإيذاءِ والإيلامِ للنَّفسِ، ومَن لم يَشعُرْ بهذه المُلاءَمَةِ والمُنافَرَةِ فهو لِفَقدِ حِسِّهِ وموتِ نَفسِهِ :

.... وما لِجُرحٍ بِمَيِّتٍ إيلامُ

فحُصولُهُ للنَّفسِ إدراكٌ منها لغايَةِ محبوبها، واتِّصالٌ به، وذلك غايَةُ لذَّتِها وفَرحتِها، وهذا بحَسَبِ المعلومِ في نفسهِ، ومحبَّةِ النَّفسِ له ولذَّتِها بقُربهِ .

والعلومُ والمعلوماتُ مُتفاوتَةٌ في ذلكَ أعظمَ التَّفاوُتِ وأبيَنَهُ ، فليسَ علمُ

---

(١) انظر شرحَها في تعليقي على كتاب « العبوديّة » (ص ١١٠) لشيخ الإسلام ابن تيميّة رحمه الله .

النُّفوسِ بفاطرِها وباريها ومُبدِعها ومحبَّتهُ والتَّقرُّبُ إليه كعلمها بالطَّبيعَةِ وأحوالِها وعوارِضها وصحَّتِها وفسادِها وحركاتِها .

وهذا يتبيَّنُ بالوجه التَّالي :

شرف العلم تابعٌ لشرف المعلوم

الوجهُ السَّابعُ والسَّبعون : وهو أنَّ شرَفَ العلمِ تابعٌ لشرفِ معلومهِ ، ولوثوقِ النَّفسِ بأدلَّةِ وجودهِ وبراهينهِ، ولشدَّةِ الحاجَةِ إلى مَعرفَتهِ، وعِظَمِ النَّفعِ بها .

ولا رَيْبَ أنَّ أجلَّ معلومٍ وأعظَمَهُ وأكبَرَهُ فهو اللَّهُ الذي لا إلهَ إلّا هو ربُّ العالمين ، وقيُّومُ السَّمواتِ والأرضين ، المَلِكُ الحقُّ المُبين ، الموصوفُ بالكمالِ كلِّهِ، **المُنزَّهُ عن كلِّ عَيبٍ ونقصٍ، وعن كلِّ تمثيلٍ وتَشبيهٍ في كمالهِ .**

ولا رَيْبَ أنَّ العلمَ به وبأسمائهِ وصفاتهِ وأفعالهِ أَجَلُّ العلومِ وأفضلُها، ونسبتُهُ إلى سائرِ العلومِ كنسبَةِ معلومهِ إلى سائرِ المعلوماتِ، وكما أنَّ العلمَ به أَجلُّ العلوم وأشرفُها فهو أصلُها كلِّها، كما أنَّ كلَّ موجودٍ فهو مُستَنِدٌ في وجودهِ إلى المَلِكِ الحقِّ المُبين ومُفتقرٌ إليه في تحقُّقِ ذاتهِ وأينيَّتهِ ، وكلُّ علمٍ فهو تابعٌ للعلمِ به مفتقرٌ في تحقيقِ ذاته إليه، فالعلمُ به أصلُ كلِّ علمٍ، كما أنَّهُ سبحانهُ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُهُ ومُوجِدُهُ .

ولا رَيبَ أنَّ كمالَ العلم بالسَّبَبِ التَّامِّ ، وكونَه سببًا يستلزمُ العلمَ بمُسبَّبه ، كما أنَّ العلمَ بالعلَّةِ التَّامَّةِ ومعرفَةَ كونِها علَّةً يستلزمُ العلمَ بمعلولهِ، وكلُّ موجودٍ سوى اللَّه فهو مُستنِدٌ في وجودهِ إليهِ استنادَ المصنوع إلى صانعهِ، والمفعولِ إلى فاعلهِ .

فالعلمُ بذاتهِ سبحانهُ وصفاتهِ وأفعالهِ يستلزمُ العلمَ بما سواه، فهو في ذاتهِ ربُّ كُلِّ شيءٍ ومليكُهُ، والعلمُ به أصلُ كلِّ علم ومنشؤهُ؛ **فَمَن عَرَفَ اللَّهَ عَرَفَ**

ما سواهُ، ومَن جَهِلَ ربَّهُ فهو لِمَا سواهُ أجهَل(١)، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ ولا تَكونوا كَالَّذينَ نَسُوا الله فأنساهُم أنفسَهُم ﴾ [الحشر:١٩]، فتأمَّلْ هذه الآيَةَ تجدْ تحتها معنًى شريفًا عظيمًا وهو أنَّ من نَسيَ ربَّهُ أنساهُ ذاتَهُ ونَفسَهُ ، فلم يَعرِف حَقيقَتَهُ ولا مصالحَه ، بل نَسيَ ما به صلاحُهُ وفلاحُهُ في معاشِهِ ومعادِهِ ، فصارَ مُعطَّلًا مُهمَلًا بمنزلةِ الأنعام السَّائمَة ، بل ربَّما كانَت الأنعامُ أخبَرَ بمصالحها منه لبقائها على هداها التامِّ الَّذي أعطاها إيَّاه خالقُها ، وأمَّا هذا فخرجَ عن فطرتهِ التي خُلِقَ عليها، فنَسيَ ربَّهُ، فأنساهُ نَفسَهُ وصفاتِها، وما تَكْمُلُ به وتَزكو به وتسعَدُ به في معاشها ومعادها؛ قال اللَّهُ تعالى : ﴿ ولا تُطِعْ مَن أغفَلْنا قَلبَهُ عَن ذِكْرِنا واتَّبعَ هواهُ وكانَ أمرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف:٢٨]، فغفِلَ عن ذكرِ ربِّهِ فانفرطَ عليهِ أمرُهُ وقلبُه، فلا التفاتَ له إلى مصالحهِ وكمالِهِ وما تَزكو به نفسُهُ وقلبُهُ، بل هو مُشتَّتُ القلبِ مُضيَّعُهُ ، مُنفَرِطُ الأمرِ حَيرانُ، لا يَهتَدي سبيلًا .

والمقصودُ أنَّ العلمَ باللَّهِ أصلُ كلِّ علمٍ، وهو أصلُ علمِ العَبدِ بسعادتهِ وكمالهِ ومصالحِ دنياهُ وآخرتهِ، والجهلُ به مستلزمٌ للجهلِ بنفسهِ ومصالِحها وكمالِها، وما تَزكو به وتفلحُ به، فالعلمُ به سعادَةُ العَبدِ، والجَهلُ به أصلُ شقاوتهِ .

ويزيدهُ إيضاحًا :

الوجهُ الثَّامنُ والسبعون : أنَّهُ لا شيءَ أطيبُ للعَبدِ، ولا ألذُّ، ولا أهنأُ ، ولا أنعمُ لقلبهِ وعيشهِ، مِن محبَّةِ فاطرهِ وباريهِ، ودوامِ ذكرهِ، والسَّعي في مَرضاتهِ.

---

(١) ويُروى : « مَن عرف نفسَه فقد عرف ربَّه » ! ولكنَّه حديثٌ لا أصلَ له ؛ كما قال السخاوي في « المقاصد الحسنة » (ص ١٩٨) .

وهذا هو الكمالُ الذي لا كمالَ للعَبدِ بدونِه، وله خُلِقَ الخَلقُ، ولأجلِهِ نزَلَ الوَحيُ، وأُرسِلَت الرُّسل، وقامَت السَّمواتُ والأرضُ ،وَوُجِدَت الجنَّةُ والنَّارُ، ولأجلِهِ شُرِعَت الشرائعُ، ووُضِعَ البيتُ الحرامُ، ووَجَبَ حجُّهُ على النَّاس إقامةً لِذِكرِهِ الذي هو من توابعِ محبَّتِهِ والرِّضا به وعنهُ، ولأجلِ هذا أُمِرَ بالجهادِ، وضُرِبَت أعناقُ من أباهُ وآثَرَ غَيرَهُ عليه، وجُعِلَ لهُ في الآخرةِ دارُ الهَوانِ خالدًا مُخلَّدًا .

وعلى هذا الأثرِ العظيمِ أُسِّسَت الملَّةُ، ونُصِبَت القِبلةُ، وهو قُطبُ رحى الخَلْقِ والأمرِ ، الذي مدارُهما عليه، ولا سبيلَ إلى الدُّخولِ إلى ذلكَ إلّا من بابِ العلمِ؛ فإنَّ محبَّةَ الشيءِ فرعٌ عن الشعور به، وأعرفُ الخَلْقِ باللَّهِ أشدُّهم حُبًّا له، فكلُّ من عَرَفَ اللَّهَ أحبَّهُ، ومَن عَرَفَ الدُّنيا زَهِدَ فيهم .

فالعلمُ يفتح البابَ العظيمَ الذي هو سرُّ الخَلْقِ والأمرِ، كما سيأتي بيانهُ إن شاءَ اللَّهُ تعالى .

العلم أقرب الطرق إلى أعظم اللذات

الوجهُ التَّاسعُ والسبعون : أنَّ اللَّذَّةَ بالمحبوبِ تَضْعُفُ وتَقوى بحَسَبِ قوَّةِ الحبِّ وضَعفِهِ، فكلَّما كان الحُبُّ أقوى كانت اللذَّةُ أعظمَ، ولهذا تَعْظُمُ لذَّةُ الظَّمآنِ بشربِ الماءِ الباردِ بحَسَبِ شدَّةِ طلبِهِ للماء ، وكذلكَ الجائعُ، وكذلَك مَن أحبَّ شيئًا كانت لذَّتُهُ على قَدْرِ حُبِّهِ إيَّاهُ، والحُبُّ تابعٌ للعلمِ بالمحبوبِ ومعرفَةِ جمالِهِ الظَّاهرِ والباطنِ، فلذَّةُ النَّظرِ إلى اللَّهِ بعدَ لقائِهِ بحَسَبِ قُوَّةِ حُبِّهِ وإرادتهِ، وذلكَ بحَسَبِ العلمِ به وبصفاتِ كمالِهِ، فإذًا: العلمُ هو أقرَبُ الطُّرقِ إلى أعظمِ اللذَّاتِ .

وسيأتي تقريرُ هذا فيما بعدُ إن شاءَ اللَّهُ تعالى .

افتقار الموجودات إلى العلم

الوجهُ الثَّمانون : أنَّ كلَّ ما سوى اللَّهَ مُفتَقِرٌ إلى العلمِ، لا قِوامَ له بدونهِ فإنَّ الوجودَ وجودان :

- وجودُ الخَلْقِ .
- ووجودُ الأمرِ .

والخَلْقُ والأمرُ مصدرُهما علمُ الرَّبِّ وحكمتُهُ، فكلُّ ما ضمَّهُ الوجودُ مِن خلقِه وأمرِهِ صادرٌ عن علمهِ وحكمتِهِ، فما قامَت السَّمواتُ والأرضُ وما بينَهُما إلّا **بالعلمِ**، ولا بُعِثَت الرُّسُلُ وأُنزِلَت الكُتُبُ إلّا **بالعلمِ**، ولا عُبِدَ اللَّهُ وحدَهُ وحُمِدَ وأُثنيَ عليه ومُجِّدَ إلّا **بالعلمِ** ، ولا عُرِفَ الحلالُ من الحرامِ إلّا **بالعلمِ**، ولا عُرِفَ فَضلُ الإسلامِ على غيرِهِ إلّا **بالعلمِ** .

واختُلِفَ هنا في مسألةٍ؛ وهي أنَّ العلمَ صفةٌ فعليَّةٌ أو انفعاليَّةٌ ؟

فقالت طائفَةٌ : هو صفةٌ فعليَّةٌ ؛ لأنَّهُ شرطٌ أو جزءٌ ، سببٌ في وجودِ المفعولِ؛ فإنَّ الفعلَ الاختياريَّ يَستَدعي حياةَ الفاعلِ وعلمَه وقُدرتَه وإرادتَه، ولا يُتَصوَّرُ وجودُهُ بدونِ هذه الصِّفات .

وقالت طائفَةٌ : هو انفعاليٌّ؛ فإنَّهُ تابعٌ للمعلومِ، مُتَعلِّقٌ به على ما هو ، فإنَّ العالِمَ يُدرِكُ المعلومَ على ما هو به، فإدراكُهُ تابعٌ له، فكيفَ يكونُ مُتقدِّمًا عليه ؟!

والصَّوابُ أنَّ العِلمَ قسمانِ :

علمٌ فعليٌّ : وهو علمُ الفاعلِ المُختارِ بما يُريدُ أن يَفعلَهُ، فإنَّهُ مَوقوفٌ على إرادتهِ الموقوفَةِ على تصوُّرِهِ المرادِ وعلمهِ به .

فهذا علمٌ قَبلَ الفعلِ مُتقدِّمٌ عليه مُؤثِّرٌ فيه .

وعلمٌ انفعاليٌّ : وهو العلمُ التَّابعُ للمعلومِ الذي لا تأثيرَ له فيه؛ كعلمِنا

بوجود الأنبياءِ والأُمَمِ والملوكِ وسائرِ الموجودات؛ فإنَّ هذا العلمَ لا يُؤثِّرُ في المعلومِ، ولا هو شرطٌ فيه .

فكلٌّ من الطَّائفتَين نظَرتْ جُزئيًّا وحَكَمت كليًّا .

وهذا موضعٌ يغلطُ فيه كثيرٌ من النَّاسِ، وكلا القِسمَين من العلمِ صفةُ كمالٍ، وعَدَمُهُ من أعظمِ النَّقصِ .

يُوضِّحُهُ :

الوجهُ الحادي والثمانون : أنَّ فضيلَةَ الشيءِ تُعرفُ بضدِّه[1] :

فالضِّدُّ يُظهِرُ حُسنَهُ الضِّدُّ   وبِضدِّها تَتَبَيَّنُ الأشياءُ

... ولا رَيبَ أنَّ الجهلَ أصلُ كلِّ فَسادٍ، وكلُّ ضَرَرٍ يلحقُ العَبدَ في دنياهُ وأُخراهُ فهو نتيجَةُ الجَهلِ، وإلّا فمعَ العلمِ التَّامِّ بأنَّ هذا الطَّعامَ - مثلًا - مَسمومٌ؛ مَن أكلَهُ قطَّعَ أمعاءهُ في وقتٍ معيَّنٍ؛ لا يُقدِمُ على أكلِهِ، وإنْ قُدِّرَ أنَّهُ أقْدَمَ عليه لغَلَبَةِ جوعٍ أو استعجالِ وفاةٍ فهو لعِلمهِ بموافَقَةِ آكلهِ لمَقصودهِ الذي هو أحبُّ إليه من العَذابِ بالجُوعِ أو بغَيرهِ .

وهنا اختُلِفَ في مسألةٍ عظيمَةٍ؛ وهي أنَّ العلمَ هل يَستلزِمُ الاهتداءَ، ولا يتخلَّف عنهُ الهُدى إلّا لعَدَمِ العلمِ أو نَقصِهِ ! وإلّا فمعَ المعرفَةِ الجازمَةِ لا يُتَصوَّر الضَّلالُ ؟ أو أنَّهُ لا يستلزمُ الهُدى؛ فَقَد يكونُ الرَّجلُ عالمًا وهو ضالٌّ على عَمْدٍ ؟ هذا ممَّا اختلفَ فيه المُتَكلِّمون وأربابُ السُّلوكِ وغَيرهم !

فقالت فرقَةٌ : مَن عَرَفَ الحقَّ معرفةً لا يشكُّ فيها استحالَ أن لا يَهتَدي ، وحيثُ ضلَّ فَلِنُقصانِ علمهِ ؛ واحتَجُّوا من النُّصوصِ بقوله تعالى : ﴿ لكنِ

(١) انظر كتابي « علم أصول البدع » (ص ٣٧-٣٩) .

الرَّاسخونَ في العلمِ منهُم والمؤمنون يُؤمنونَ بما أُنزلَ إليكَ وما أُنزِلَ مِن قَبلِكَ ﴾ [النساء:١٦٢]، فَشهِدَ اللَّهُ تعالى لكلِّ راسخٍ في العلمِ بالإيمان، وبقولِهِ تعالى : ﴿ إِنَّما يَخشى اللهَ من عبادِهِ العُلماءُ ﴾، وبقولِه تعالى : ﴿ ويَرى الَّذينَ أُوتوا العلمَ الَّذي أُنزِلَ إليكَ من رَبِّكَ هو الحقَّ ﴾ [سبأ:٦]، وبقولِه تعالى : ﴿ شَهِدَ الله أنَّهُ لا إلهَ إلّا هوَ والملائكةُ وأُولو العلمِ قائمًا بالقِسطِ ﴾ [آل عمران:١٨]، وبقولِه تعالى : ﴿ أفَمَن يَعلَمُ أنَّما أُنزِلَ إليكَ من ربِّكَ الحقُّ كَمَن هو أعمى ﴾ [الرعد:١٩] .

قَسَمَ النَّاسَ قسمين :

أحدهما : العلماءُ بأنّ ما أُنزِلَ إليهِ من ربِّهِ هو الحقُّ .

الثَّاني : العُمْي؛ فدلَّ على أنَّهُ لا واسطَةَ بينهما .

وبقولِه تعالى في وَصفِ الكفَّار : ﴿ صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فهم لا يَعقِلون ﴾ [البقرة :١٧١]، وبقوله : ﴿ وطَبَعَ الله على قلوبهم فهُم لا يَعلَمون ﴾ [التوبة:٩٣]، وبقوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللهُ على قلوبِهم وعلى سَمعِهِم وعلى أبصارِهِم غِشاوَةٌ ﴾ [البقرة:٧] .

وهذه مداركُ العلمِ الثّلاثُ قد فَسَدَتْ عليهم .

وكذلكَ قولُه تعالى : ﴿ أَفرَأَيتَ مَن اتَّخَذَ إلهَهُ هواهُ وأَضَلَّهُ الله على علمٍ وخَتَمَ على سَمعِهِ وقَلبِهِ وجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَن يَهديهِ مِن بَعدِ اللهِ أفلاَ تَذَكَّرون ﴾ [الجاثية : ٢٣]، وقولُه تعالى : ﴿ وأَضلَّهُ الله على علمٍ ﴾ [الجاثيةِ : ٢٣] .

قال سَعيد بن جُبَير : على علمه تعالى فيه[1]، قال الزجَّاج : أي : على ما

---

(١) قارن بـ « الدر المنثور » (٧ / ٤٢٦) .

سَبَقَ في علمهِ تعالى أنَّهُ ضالٌّ قبلَ أن يخلقَهُ، ﴿ وخَتَمَ على سَمعِهِ ﴾ أي : طَبَعَ عليهِ فلَم يَسمَع الهُدى ، ﴿ وعلى قَلبهِ ﴾ ؛ فلم يَعقل الهُدى ، ﴿ وعلى بَصرِهِ غشاوَةٌ ﴾ فهو لا يُبصِرُ أسبابَ الهُدى .

وهذا في القُرآنِ كثيرٌ ممَّا يُبيِّنُ فيه مُنافاةَ الضَّلالِ للعلمِ؛ ومنه قولُه تعالى : ﴿ ومِنهُم مَن يَستَمِعُ إليكَ حتى إذا خَرَجوا مِن عندكَ قالوا للَّذينَ أوتوا العلمَ ماذا قالَ آنِفًا أُولئكَ الَّذينَ طَبَعَ الله على قلوبِهِم واتَّبعوا أهواءَهم ﴾ [محمَّد : ١٦] .

فلو كانوا علموا ما قالَ الرَّسولُ ﷺ لم يسألوا أهلَ العلمِ ماذا قالَ، وَلَمَا كانَ مطبوعًا على قلوبهم !

وقال تعالى : ﴿ والَّذينَ كذَّبوا بآياتِنا صُمٌّ وَبُكمٌ في الظُّلمات ﴾ [الأنعام : ٣٩] وقال تعالى : ﴿ قُل آمِنوا بهِ أو لا تُؤمنوا إنَّ الذين أُوتوا العلمَ مِن قبلِه إذا يُتلى عليهم يَخِرُّون للأذقانِ سُجَّدًا ويقولون سبحانَ ربِّنا إنْ كان وَعدُ ربِّنا لَمَفعولًا ﴾ [الإسراء : ١٠٧ - ١٠٨] .

فهذه شهادَةٌ مِن اللَّهِ تعالى لأُولي العلمِ بالإيمانِ به وبكلامِهِ .

وقال اللَّهُ تعالى عن أهلِ النَّارِ : ﴿ وقالوا لَو كُنَّا نَسمَعُ أو نَعقِلُ ما كنَّا في أصحابِ السَّعير ﴾ [الملك : ١٠] فدلَّ على أنَّ أهلَ الضَّلالِ لا سمعَ لهم ولا عَقلَ، وقال اللَّهُ تعالى : ﴿ وتِلكَ الأمثالُ نَضرِبُها للنَّاسِ وما يَعقِلُها إلّا العالِمونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣] .

أخبرَ تعالى أنَّهُ لا يَعقِلُ أمثالَهُ إلّا العالِمون ، والكُفَّارُ لا يَدخُلونَ في مُسمَّى العالَمين ، فهم لا يَعقِلونها .

وقال اللَّهُ تعالى : ﴿ بَل اتَّبعَ الَّذينَ ظَلَموا أهواءَهُم بغَيرِ علمٍ فَمَن يَهدي من أضلَّ الله ﴾ [الروم:٢٩]، وقال اللَّهُ تعالى : ﴿ وقالَ الَّذينَ لا يعلمونَ لولا يُكلِّمُنا الله أو تأتينا آيةٌ ﴾ [البقرة:١١٨] ، وقال اللَّهُ تعالى : ﴿ قُل هَل يَستَوي الَّذينَ يَعلَمونَ والَّذينَ لا يَعلَمون ﴾ [الزمر:٩] ، ولو كان الضَّلالُ يُجامِعُ العلمَ لكانَ الَّذين لا يعلمون أحسَنَ حالًا من بعض الذينَ يعلمون ! والنَّصُّ بخلافِهِ، والقرآن مملوءٌ بسلبِ العلمِ والمعرفَةِ عن الكفَّار؛ فتارَةً يَصِفُهُم بأنَّهُم لا يَعلَمون، وتارَةً بأنَّهُم لا يَعقلون، وتارَةً بأنَّهُم لا يَشعرون، وتارَةً بأنَّهُم لا يَفقَهون، وتارَةً بأنَّهُم لا يَسمعون[١]، - والمُرادُ بالسَّمع المنفيّ سمعُ الفَهمِ ؛ وهو سمعُ القَلبِ لا إدراكُ الصَّوتِ - ، وتارَةً بأنَّهُم لا يُبصِرون ؛ فدلَّ ذلكَ كلُّهُ على أنَّ الكفرَ مُستلزمٌ للجهلِ ، مُنافٍ للعلمِ لا يُجامِعُهُ ؛ ولهذا يَصِفُ اللَّهُ سبحانَهُ الكفَّارَ بأنَّهُم جاهلون، كقولِه تعالى : ﴿ وعِبَادُ الرَّحمنِ الَّذينَ يَمشونَ على الأرضِ هَونًا وإذا خاطَبهُم الجاهلونَ قالوا سلاما ﴾ [الفرقان:٦٣]، وقولِه تعالى : ﴿ وإذا سَمِعوا اللَّغوَ أعرَضوا عنهُ وقالوا لنا أعمالُنا ولَكُم أعمالُكُم سلامٌ عَلَيكُم لا نَبتَغي الجاهلينَ ﴾ [القصص:٥٥]، وقولِه تعالى : ﴿ خُذِ العَفوَ وَأْمُرْ بالعُرفِ وأَعرِضْ عنِ الجاهلينَ ﴾ [الأعراف:١٩٩]، وقال النَّبيُّ ﷺ لمَّا بَلَغَ قومُهُ مِن أذاهُ ذلكَ المبلَغَ : « اللَّهمَّ اغفِرْ لقَومي فإنَّهُم لا يَعلمون »[٢] .

---

(١) والآيات في ذلك معلومةٌ .

(٢) رواه ابنُ حبَّان (٩٧٣) ، والطبراني (٥٦٩٤) ، والفَسَوي في « تاريخه » (١ / ٣٣٨) عن سَهْل بن سَعْد مِن قولِه ﷺ .

وقال الهيثمي في « المجمع » (٦ / ١١٧) : « ورجاله رجال الصحيح » .

قلتُ : وفي محمَّد بن فُليح كلامٌ .

=

وفي « الصَّحيحين »(١) عنه : « مَن يُرِد اللَّهُ به خَيرًا يُفقِّهُ في الدِّين »، فدلَّ على أنَّ الفقهَ مستلزمٌ لإرادة اللَّهِ الخَيرَ في العَبدِ، ولا يُقال : الحديث دلَّ على أنَّ من أرادَ اللَّهُ به خَيرًا فقَّههُ في الدِّين، ولا يدُلُّ على أنَّ كلَّ من فقَّههُ في الدِّين فَقَد أرادَ به خَيرًا ، وبينهما فَرقٌ ! ودليلُكم إنَّما يتمُّ بالتَّقديرِ الثَّاني والحديثُ لا يَقتَضيه !! لأنَّا نقولُ : النَّبيُّ ﷺ جَعَلَ الفِقهَ في الدِّين دليلًا وعلامةً على إرادَةِ اللَّهِ بصاحبِهِ خَيرًا، والدَّليلُ يستلزمُ المدلولَ ولا يتخلَّفُ عنه، فإنَّ المَدلولَ لازِمُهُ، ووجودُ المَلزوم بدونِ لازمِهِ مُحالٌ .

وفي التِّرمذي وغيره(٢) عنه ﷺ : « خَصلتان لا يجتمعان في مُنافقٍ : حُسنُ سَمْتٍ وفقهٌ في الدِّين »؛ فجعَلَ الفِقهَ في الدِّين مُنافيًا للنِّفاقِ، **بل لم يكُن السَّلَفُ يُطلقونَ اسمَ الفقهِ إلّا على العلمِ الذي يَصحبُهُ العملُ**؛ كما سُئِلَ سَعدُ ابن إبراهيم عَن أفقَهِ أهلِ المدينَةِ ؟ قال : أتقاهُم .

وسألَ فَرقَدٌ السَّبْخيُّ الحَسَنَ البَصريَّ عن شيءٍ، فأجابهُ فقال : إنَّ الفقهاءَ يُخالِفونكَ، فقال الحَسَن : ثكلَتكَ أُمُّكَ فُرَيقِدُ ! وهَل رأيتَ بعَينيكَ فقيهًا !! إنَّما الفقيهُ : الزَّاهدُ في الدُّنيا، الرَّاغبُ في الآخِرَةِ، البَصيرُ بدينِهِ، المداومُ على عبادَةِ ربِّهِ، الذي لا يهمزُ مَن فوقَه، ولا يسخَرُ ممَّن دونَهُ، ولا يَبتَغي على علمٍ

= وله شاهدٌ في « مُعجم الطبراني الكبير » (٥٨٦٢) يُقوِّيه ويُحسِّنُهُ .

وما في « صحيح البخاري » (٣٤٧٧) ، و « صحيح مسلم » (١٧٩٢) بلفظِه عن ابن مسعود حديثٌ آخرُ ، فتنبّه .

(١) رواه البخاري (٧١) ، ومسلم (١٠٣٧) عن مُعاويةَ رضي اللَّهُ تعالى عنه .

(٢) تقدَّم تخريجه .

علَّمهُ اللَّهُ تعالى أجرًا .(١)

وقالَ بعضُ السَّلَفِ : إنَّ الفقيهَ مَن لم يُقْنِطِ النَّاسَ من رحمَةِ اللَّهِ، ولم يُؤْمِنهُم مِن مَكرِ اللَّه، ولم يَدَعِ القُرآن رَغبةً عنه إلى ما سواهُ .

وقال ابنُ مَسعودٍ رضيَ اللَّهُ عنهُ : كفى بخَشيَةِ اللَّهِ علمًا، وبالاغترارِ باللَّهِ جَهلًا .(٢)

قالوا : فهذا القُرآنُ والسُّنَّة وإطلاقُ السَّلفِ من الصَّحابَةِ والتَّابعينَ يَدُلُّ على أنَّ العلمَ والمعرِفَةَ مُستلزمٌ للهدايَةِ ، وأنَّ عَدَمَ الهدايَةِ دليلٌ على الجَهلِ وعَدمِ العلمِ .

قالوا : وَيَدُلُّ عليه أنَّ الإنسانَ ما دامَ عقلُهُ معهُ لا يُؤْثِرُ هلاكَ نَفسهِ على نجاتها، وعذابَها العظيمَ الدَّائمَ على نعيمِها المُقِيم ، والحِسُّ شاهدٌ بذلكَ، ولهذا وصفَ اللَّهُ سبحانهُ أهلَ معصيتهِ بالجهلِ في قولِه تعالى : ﴿ إنَّما التَّوبَةُ على اللهِ للَّذينَ يَعمَلونَ السُّوءَ بِجهالَةٍ ثمَّ يتوبونَ من قَريب فأُولئكَ يتوبُ الله عليهم وكانَ الله عليمًا حكيمًا ﴾ [النساء : ١٧] .

قال سفيانُ الثَّوري : كلُّ مَن عملَ ذَنبًا مِن خَلقِ اللَّهِ فهو جاهلٌ، سواءٌ كان جاهلًا أو عالمًا ؛ إنْ كانَ عالمًا فَمَنْ أجهلُ منه ؟ وإن كانَ لا يَعلم فمثلُ ذلك .(٣)

وقولُه : ﴿ ثمَّ يَتوبونَ من قَريب فأُولئكَ يَتوبُ الله عليهم وكانَ الله عليمًا

(١) رواه الدارمي (١ / ٨٩) .

(٢) رواه أحمد في « الزهد » (ص ١٥٨) ، وابن المبارك في « الزهد » (ص ١٥) ، والطبراني في « الكبير » (٩ / ٢١١) .

(٣) قارن بـ « الدر المنثور » (٢ / ٤٥٩) .

حكيمًا ﴾ قال : قبلَ الموت .

وقال ابن عبَّاسٍ رضيَ اللَّهُ عنهما : ذَنْبُ المؤمنِ جَهلٌ منه(١) .

قال قتادَة : أجمَع أصحابُ رسول اللَّه ﷺ أنَّ كلَّ شيءٍ عُصِيَ اللَّهُ به فهو جهالَةٌ .

وقال السُّدِّيُّ : كلُّ مَن عَصَى اللَّهَ فهو جاهلٌ .

قالوا : ويدُلُّ على صحَّةِ هذا أنَّ معَ كمالِ العلمِ لا تَصدُرُ المعصيَةُ من العَبدِ ؛ فإنَّهُ لو رأى صَبيًّا يتطلَّعُ عليهِ من كُوَّةٍ لم تَتَحرَّكْ جوارِحُهُ لمواقعةِ الفاحشة ، فكيفَ يقعُ منه حالَ كمالِ العلمِ بنظرِ اللَّهِ إليه ، ورؤيتِهِ له ، وعقابِهِ على الذَّنبِ، وتحريمِهِ له، وسوءِ عاقبتِهِ ؟! فلا بدَّ من غفلةِ القَلبِ عن هذا العلمِ وغَيبتِهِ عنه، فحينئذٍ يكونُ وقوعُهُ في المعصيَة صادرًا عن جهلٍ وغفلةٍ ونسيانٍ، مضادٍّ للعلمِ والذَّنبِ، محفوفٍ بجهلين :

جهلٍ بحقيقةِ الأسبابِ الصَّارفَةِ عنه .

وجهلٍ بحقيقةِ المفسَدَةِ المُترتِّبَةِ عليه .

وكلُّ واحدٍ من الجهلينِ تحتهُ جهالاتٌ كثيرةٌ؛ **فما عُصِيَ اللَّهُ إلّا بالجهلِ؛ وما أُطيعَ إلّا بالعلمِ** .

فهذا ما احتجَّتْ به هذه الطَّائفَةُ .

وقالت الطَّائفَةُ الأخرى : العلمُ لا يستلزمُ الهدايَةَ، وكثيرًا ما يكونُ الضَّلالُ عن عمدٍ وعلمٍ لا يشُكُّ صاحبُهُ فيه، بل يُؤثِرُ الضَّلالَ والكُفرَ وهو عالمٌ بقبحهِ ومَفسدتِهِ .

---

(١) رواه الطبري في « تفسيره » (٤ / ٢٩٩) بنحوه .
وأثَرا قتادةَ والسُّدِّي فيه .

قالوا : وهذا شيخُ الضَّلالِ، وداعي الكُفرِ، وإمامُ الفَجَرَة، إبليسُ عدوُّ اللَّهِ؛ قَد علِمَ أمرَ اللَّهِ له بالسُّجود لآدمَ، ولـم يشُكَّ فيه، فخالَفَهُ وعانَدَ الأمرَ وباءَ بلعنةِ اللَّهِ وعذابِهِ الدَّائم ، معَ علمِهِ بذلك ومعرفتِهِ به، وأقسمَ له بعزَّتِهِ أنَّهُ يُغوي خَلقَهُ أجمَعين إلّا عبادَهُ منهم المُخلَصين(١)، فكانَ غيرَ شاكٍّ في اللَّهِ، وفي وحدانيَّته وفي البَعثِ الآخِرِ ، وفي الجنَّةِ والنَّارِ ، ومعَ ذلكَ اختارَ الخُلودَ في النَّارِ ، واحتمالَ لعنَةِ اللَّه وغَضبِهِ وطَردِهِ من سمائِهِ وجنَّتِهِ ، عن علمٍ بذلكَ ومعرفَةٍ لم تحصُل لكثيرٍ من النَّاسِ ، ولهذا : ﴿ قال ربِّ فَأَنْظِرني إلى يَومِ يُبعَثون ﴾ [الحِجْر : ٣٦] ، وهذا اعترافٌ منه بالبَعثِ وإقرارٌ به ، وقَد عَلِمَ قَسَمَ ربِّهِ ليملأنَّ جهنَّمَ منه ومن أتباعِهِ(٢)؛ فكانَ كفرُهُ كُفرَ عنادٍ محضٍ لا كفرَ جَهل .

وقال اللَّهُ تعالى إخبارًا عن قومِ ثَمودَ : ﴿ وأمَّا ثَمودَ فَهَديناهُم فاستَحَبُّوا العَمى على الهُدى ﴾ [فُصِّلت : ١٧]، يعني : بيَّنَّا لهم وعرَّفناهُم فَعَرفوا الحقَّ وتيقَّنوهُ؛ وآثَروا العَمى عليهِ، فكانَ كفرُ هؤلاء عن جهلٍ .

وقال تعالى حاكيًا عن موسى أنَّهُ قال لفرعون : ﴿ لَقَد عَلِمتَ ما أَنزَلَ هؤلاءِ إلّا ربُّ السَّمواتِ والأرضِ بَصائرَ وإنِّي لأَظُنُّكَ يا فِرعَونُ مَثبورًا ﴾ [الإسراء:١٠٢]، أي : هالكًا على قراءَة من فتَحَ التَّاء وهي قراءَةُ الجمهور(٣)، وضمَّها الكِسائيُّ وحدَهُ، وقراءَةُ الجمهور أحسَنُ وأوضَح وأفخَمُ معنًى، وبها تَقومُ الدَّلالة ويتمُّ الإلزامُ ويتحقَّقُ كُفرُ فرعَونَ وعنادُهُ .

(١) كما في سورة الحِجْر : ٤٠ .

(٢) كما في سورة ص : ٨٥ .

(٣) في ﴿ عَلِمت ﴾ .

وانظر « حُجة القراءات » (ص ٤١١) لابن زنجلة .

ويَشهَدُ له قولُهُ تعالى إخبارًا عنه وعَن قومِهِ : ﴿ فَلَمَّا جاءَتهُم آياتُنا مُبصِرَةً قالوا هذا سِحرٌ مُبينٌ وجَحَدوا بِها واستَيقَنَتْها أنفُسُهُم ظُلمًا وعُلُوًّا فانظُر كيفَ كانَ عاقِبَةُ المُفسدين ﴾ [النحل:١٤]، فأخبَرَ سبحانَهُ أنَّ تكذيبَهم وكُفْرَهم كان عن يقينٍ - وهو أقوى العلم - ظُلمًا وعُلُوًّا لا جهلًا .

وقال تعالى لرسولِهِ : ﴿ قَد نَعلَمُ أنَّهُ لَيَحزُنُكَ الَّذي يقولونَ فإنَّهُم لا يُكذِّبونَكَ ولكنَّ الظَّالمينَ بآياتِ اللهِ يَجحَدون ﴾ [الأنعام : ٣٣]، يعني : أنَّهُم قَد عَرَفوا صِدقَكَ وأنَّكَ غيرُ كاذبٍ فيما تَقولُ، ولكنْ عانَدوا وجَحَدوا بالمعرِفَةِ .

قالهُ ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللَّهُ عنهُما والمفسِّرون .(١)

قال قتادَةُ : يعلمونَ أنَّكَ رسولُ اللَّه ولكنْ يَجحَدون .

قال تعالى : ﴿ وجَحَدوا بها واستَيقَنَتْها أنفُسُهُم ظُلمًا وعُلُوًّا ﴾، وقال تعالى : ﴿ يا أهلَ الكتابِ لِمَ تَكفرونَ بآياتِ اللهِ وأنتُم تَشهَدونَ يا أهلَ الكتابِ لِمَ تَلبِسونَ الحقَّ بالباطلِ وتَكتُمونَ الحقَّ وأنتُم تعلَمونَ ﴾ [آل عمران:٧٠ - ٧١]، يعني : تكفُرونَ بالقُرآنِ وبمَن جاءَ بهِ وأنتُم تَشهَدُونَ بصحَّتِهِ، وأنَّهُ الحقُّ، فكُفرُكُم كُفرُ عنادٍ وجُحودٍ عَن علمٍ وشهودٍ، لا عَن جهلٍ وخَفاءٍ .

وقال تعالى عن السَّحرَة من اليَهود : ﴿ وَلَقَد عَلِموا لَمَنِ اشتَراهُ ما لَهُ في الآخِرَةِ من خَلاقٍ ﴾ [البقرة : ١٠٢] أي : عَلِموا أنَّ مَن أخَذَ السِّحرَ وقَبِلَهُ لا نَصيبَ له في الآخرَةِ ، ومعَ هذا العلمِ والمعرِفَةِ فَهُم يَشتَرونَهُ ويَقبلونَهُ ويتعلَّمونَهُ .

وقال تعالى : ﴿ الَّذينَ آتيناهُم الكتابَ يَعرفونَهُ كما يَعرفونَ أبناءَهُم ﴾

---

(١) انظر « جامع البيان » (٥ / ١٨١) و « الدر المنثور » (٣ / ٢٦٤) .

[البقرة : ١٤٩]، ذكرَ هذه المعرفَةَ عَن أهلِ الكتابِ في القِبلَةِ كما في سورَةِ البَقرة[(١)]، وفي التَّوحيدِ كقولهِ في الأنعام [١٩ - ٢٠] : ﴿ أَئِنَّكُم لَتَشهَدُونَ أنَّ معَ اللهِ آلهَةً أُخرى قل لا أشهَدُ قل إنَّما هو إلهٌ واحدٌ وإنَّني بريءٌ ممَّا تُشرِكونَ الَّذينَ آتيناهُم الكتابَ يَعرِفونَهُ كما يَعرِفونَ أبناءَهُم ﴾ .

وفي الكتابِ أنَّهُ مُنزَّلٌ من عندِ اللَّهِ ، لقَولهِ تعالى : ﴿ والَّذينَ آتيناهُمُ الكتابَ يَعلَمونَ أنَّهُ مُنزَّلٌ من رَبِّكَ بالحَقِّ ﴾ [الأنعام : ١١٤] .

وقال تعالى : ﴿ كيفَ يَهدي اللهُ قوماً كَفَروا بَعدَ إيمانِهِم وشَهِدوا أنَّ الرَّسولَ حقٌّ وجاءَهُم البيِّناتُ واللهُ لا يَهدي القومَ الظَّالمين ﴾ [آل عمران : ٨٦] ، قال ابن عبَّاس رضيَ اللَّهُ عنهُما : هم قُرَيظَةُ والنَّضيرُ ومَن دانَ بدينِهِم ، كَفَروا بالنَّبي ﷺ بَعدَ أن كانوا قبلَ مَبعَثِهِ مؤمنينَ بِهِ وَشَهِدوا لهُ بالنُّبوَّة، وإنَّما كفَروا بَغيًا وحَسَدًا .[(١)]

قالَ الزَّجَّاجُ : أعلَمَ اللَّهُ عَزَّ وجلَّ أنَّهُ لا جهَةَ لهدايَتِهِم، لأنَّهُم قَد استَحقُّوا أن يَضِلُّوا بكُفرهِم؛ لأنَّهُم كَفَروا بعدَ البيِّناتِ، ومعنى (كيفَ يهديهِم) أي : أنَّهُ لا يَهديهِم؛ لأنَّ القومَ عَرَفوا الحقَّ وَشهِدوا به وتيقَّنوهُ، وكفَروا عمدًا، فَمِن أينَ تأتيهِم الهدايَةُ؟! **فإنَّ الذي تُرتَجىٰ هدايَتُهُ مَن كانَ ضالًّا ولا يَدري أنَّهُ ضالٌّ**، بل يظُنُّ أنَّهُ على هُدًى، فإذا عَرَفَ الهُدى اهتَدى، وأمَّا مَن عَرَفَ الحقَّ وتيقَّنَهُ وشهِدَ بِهِ قلبُهُ ، ثمَّ اختارَ الكُفرَ والضَّلالَ عليهِ ، فكيفَ يَهدي اللَّهُ مثلَ هذا ؟!

---

(١) آية : ١٤٣ .

(٢) قارن بـ « الدر المنثور » (٢ / ٢٥٨) .

وقال تعالى عن اليهود : ﴿ فَلَمَّا جاءَهُم ما عَرَفوا كَفَروا بهِ فَلَعنَةُ اللهِ على الكافرين ﴾ ، ثمَّ قالَ : ﴿ بِئسَما اشتَروا بهِ أنفُسَهُم أن يَكفُروا بما أنزلَ اللهُ بَغيًا أن يُنزِّلَ اللهُ مِن فَضلِهِ على من يشاءُ من عبادهِ ﴾ [البقرة : ٨٩-٩٠]، قال ابنُ عبَّاس رضيَ اللَّهُ عنهما : لم يَكُن كُفرُهم شكًّا ولا اشتباهًا ، ولكنْ بَغيًا منهم حيثُ صارَت النُّبوَّةُ في ولدِ إسماعيل .[1]

ثمَّ قال بعدَ ذلكَ : ﴿ وَلَمَّا جاءَهُم رسولٌ من عندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُم نَبَذَ فريقٌ من الَّذينَ أُوتوا الكتابَ كتابَ اللهِ وراءَ ظُهورِهِم كأنَّهُم لا يَعلَمون ﴾ [البقرة :١٠١]، فلمّا شبَّـهَهُم في فعلِهم هذا بمَن لا يَعلَمُ دلَّ على أنَّـهم نَبذوهُ عن علمٍ كفعلِ مَن لا يَعلمُ ، تقولُ إذا خاطَبتَ من عصاكَ عَمدًا : كأنَّكَ لم تَعلم ما فَعَلتَ، أو : كأنَّكَ لم تَعلَم بِنَهْيي إيَّاكَ .

ومنهُ - على أحدِ القَولينِ - قولُه تعالى : ﴿ فإنْ تَوَلَّوا فإنَّـما عَليكَ البلاغُ المُبين يَعرفونَ نعمَتَ اللهِ ثمَّ يُنكرونَها وأكثرهُم الكافرون ﴾ [النحل : ٨٢] ، قال السُّدِّيُّ : يعني مُحمَّدًا ﷺ .

واختارَهُ الزَّجَّاجُ، فقال : يَعرفونَ أنَّ أمرَ محمَّد ﷺ حقٌّ ثمَّ يُنكرونَ ذلكَ، وأوَّلُ الآيَةِ يشهدُ لهذا القول .

وقال تعالى : ﴿ واتلُ عَليهِم نبأَ الَّذي آتيناهُ آياتِنا فانسَلَخَ منها فأتبَعَهُ الشيطانُ فكانَ من الغاوين ولو شئنا لَرفعناهُ بها ولكنَّهُ أخلَدَ إلى الأرضِ واتَّبعَ هواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلبِ ﴾ [الأعراف : ١٧٥ - ١٧٦] .

قالوا : فهَل بعدَ هذه الآيَةِ بيانٌ ؟ فإنَّ هذا آتاهُ اللَّهُ آياتِهِ فانسلَخَ منها وآثَرَ

(١) انْظُر « الدر المنثور » (١ / ٢١٧) .

الضَّلالَ والغيِّ !

وقصَّتُهُ معروفةٌ[١]، حتى قيلَ : إنَّهُ كانَ أُوتيَ الاسمَ الأعظَم ! ومعَ هذا فَلَم يَنفعْهُ عِلمُهُ وكانَ منَ الغاوين، **فلو استلزَمَ العلمُ والمعرفَةُ الهدايَةَ لاستلزمَهُ في حقِّ هذا !!**

وقال اللَّهُ تعالى : ﴿ وعادًا وثمودَ وقَد تَبيَّنَ لكُم مِن مساكِنِهِم وزيَّنَ لهُم الشيطانُ أعمالَهُم فصدَّهُم عن السَّبيلِ وكانوا مُستَبصرين ﴾ [العنكبوت : ٣٨]، وهذا يدُلُّ على أنَّ قولَهم : ﴿ يا هودُ ما جئتَنا بِبَيِّنَةٍ وما نَحنُ بِتارِكي آلهتنا عن قولِكَ وما نحنُ لكَ بمؤمنين ﴾ [هود : ٥٣]، إمَّا بهتٌ منهم وجُحودٌ، وإمَّا نفيٌ لآياتِ الاقتراحِ[٢] والعَنَتِ ، ولا يجبُ الإتيانُ بها .

وقَد وَصَفَ سبحانهُ ثمودَ بأنَّها كفَرَت عن علمٍ وبَصيرَةٍ بالحقِّ ؛ ولهذا قال : ﴿ وآتَينا ثَمودَ النَّاقَةَ مُبصِرَةً فظَلَموا بها ﴾ [الإسراء : ٥٩] ، يعني : بيِّنَةً مضيئةً ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وجَعَلنا آيَةَ النَّهارِ مُبصِرَةً ﴾ [الإسراء : ١٢] أي : مُضيئةً ، وحقيقةُ اللَّفظِ أنَّها تجعلُ مَن رآها مُبصرًا ، فهي توجبُ له البَصَرَ

---

(١) ذَكَرت كتبُ التفسير أنَّه بَلْعام بن باعوراء، كما في « أسباب النزول » (ص ٢٦١) للواحدي ، و « تفسير ابن كثير » (٢ / ٢٦٧) و « البداية والنهاية » (١ / ٣٢٢) !

وَذَكَرَتْ بعضُها - أيضًا - أنَّ المرادَ في الآيات هو أُميّة بن أبي الصلت !!

ولكنْ قال الإمام ابن جرير الطبري في « تفسيره » (١٣ / ٢٥٩) : « والصوابُ من القول في ذلك أن يقال : إنَّ اللَّهَ تعالى ذِكرُه أمر نبيّه أن يتلو على قومه خبرَ رجلٍ كان صالحًا آتاه اللَّه حُجَجه وأدلّته، وهي « الآيات » ... وجائزٌ أن يكون « أميّة » ، ولا خبرَ بأيِّ الرجلين المعنيّ - يوجبُ الحجة، ولا في العقل دلالةٌ على أيِّ ذلك المعنى به من أيٍّ، فالصواب أن يُقال فيه ما قال اللَّهُ ، ونُقِرُّ بظاهر التنزيل، على ما جاء به الوحيُ من اللَّه » .

(٢) لعلَّه يُريدُ ما اقترحوه على رُسُلهم تعنُّتًا واستكبارًا ، لا لِقَبُول رسالتهم ، والاستجابةِ لدعوتهم ، واللَّهُ أَعلمُ .

فتُبَصِّرُهُ، أي : تجعَلُهُ ذا بَصَرٍ فهيَ مُوضحةٌ مبيِّنَةٌ، يُقالُ : بَصُرَ به إذا رآهُ [١] كقولِهِ تعالى : ﴿ فَبَصُرَت به عَن جُنُبٍ ﴾ [القصَص : ١١] ، وقولِه : ﴿ بَصُرْتُ بما لم يَبصُروا بهِ ﴾ [طه : ٩٦] .

وأمَّا أبصَرَهُ فله معنيان :

أحدهما : جعلهُ باصرًا بالشيءِ، أي: ذا بَصَرٍ بهِ، كآيَةِ النَّهار وآيَةِ ثمودَ .

والثَّاني : بمعنى رآهُ؛ كقولكَ : أبصَرْتُ زَيدًا، وفي حديثِ أبي شُرَيح العَدَويِّ [٢] : أُحدِّثُكَ قولًا قال بهِ رسولُ اللَّهِ ﷺ يومَ الفَتحِ ، فَسَمِعَتْهُ أُذُنايَ وَوَعاهُ قَلبي وأبصَرَتهُ عَينايَ حينَ تكلَّمَ بهِ[٣].

ومنه قولُهُ تعالى : ﴿ فتَوَلَّ عنهُم حتى حينٍ وأبصِرْهُم فَسَوفَ يُبصِرونَ ﴾ [الصافّات : ١٧٤ - ١٧٥]، قيلَ : المعنى : أبصِرْهُم وما يُقضىٰ عليهم من الأسرِ والقَتلِ والعَذابِ في الآخرَةِ، فَسَوفَ يُبصرونَكَ وما يُقضىٰ لكَ مِنَ النَّصرِ والتَّأييدِ وحُسنِ العاقِبَةِ، والمُرادُ تَقريبُ المُبصَرِ من المخاطَبِ حتى كأنَّهُ نُصْبُ عينيهِ وَرَأْيُ ناظِرَيهِ .

والمَقصودُ أنَّ الآيَةَ أوجَبَتْ لهم البَصيرَةَ؛ فآثَروا الضَّلالَ والكُفرَ عن علمٍ ويَقينٍ، ولهذا - واللَّهُ أعلَم - ذكرَ قصَّتَهُم من بينِ قَصَصِ سائرِ الأُمَمِ في سورَةِ ﴿ والشمسِ وضُحاها ﴾ لأنَّهُ ذَكَرَ فيها انقسامَ النُّفوسِ إلى الزَّكيَّةِ الرَّاشدَةِ المُهتَدِيَةِ، وإلى الفاجرَةِ الضَّالَّةِ الغاوِيَةِ ، وذكرَ فيها الأصلَين القَدَرَ والشرعَ ، فقالَ : ﴿ فألهَمَها فُجورَها وتَقواها ﴾ [الشمس : ٨]، فهذا قَدَرُهُ وقضاؤه، ثمَّ

---

(١) « القاموس المحيط » (ص ٤٤٨) .

(٢) واسمُه خُويلد بن عَمرو، انظر « الاستغنى في الكُنى » (١ / ٣٣٧) لابن عبد البر و « المنتقى » (٣٠٢٠) و « التجريد » (٢ / ١٧٧) ، كلاهما للذهبيّ .

(٣) رواه البخاري (١٠٤ و ١٨٢٢ و ٤٢٩٥) ومسلم (١٣٥٤) .

قال : ﴿ قَد أفلَحَ مَن زَكَّاها وقَد خابَ مَن دسَّاها ﴾ فهذا أمرُهُ ودينُهُ، وثمودُ هَداهُم فاستَحبُّوا العَمى على الهُدى، فَذَكَرَ قِصَّتَهُم ليُبيِّنَ سوءَ عاقبةِ من آثَرَ الفُجورَ على التَّقوى، والتَّدسيَةَ على التَّزكيَةِ، واللَّهُ أعلَم بما أرادَ .

قالوا : وَيَكفي في هذا إخبارُهُ تعالى عن الكفَّارِ أنَّهُم يقولونَ بعدَ ما عايَنوا العَذابَ، وَوَرَدوا القيامَةَ، ورأوا ما أخبرَت به الرُّسُلُ : ﴿ يا لَيتَنا نُرَدُّ وَلا نُكذِّبَ بآياتِ ربِّنا ونكونَ من المؤمنين بل بَدا لهُم ما كانوا يُخْفونَ من قَبلُ ولَو رُدُّوا لعادوا لِمَا نُهوا عنهُ وإنَّهُم لكاذبونَ ﴾ [الأنعام : ٢٧ - ٢٨]، فأيُّ علمٍ أبيَنُ من علمِ مَن وَرَدَ القيامَةَ، وَرأى ما فيها، وذاقَ عَذابَ الآخرَةِ، ثمَّ لو رُدَّ إلى الدُّنيا لاختارَ الضَّلالَ على الهُدى، ولم يَنفعْهُ ما قَد عايَنَهُ ورآهُ ؟!

وقال اللَّهُ تعالى : ﴿ ولو أنَّنا نزَّلْنا إليهم الملائكَةَ وكلَّمَهُم المَوتى وحَشَرْنا عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلًا ما كانوا ليُؤمنوا إلّا أن يَشاءَ الله ولكنَّ أكثَرَهُم يَجهَلون ﴾ [الأنعام : ١١١]، فهَل بَعدَ نزولِ الملائكَةِ عَيانًا، وتكليمِ الموتى لهم، وشهادتِهم للرسولِ بالصِّدقِ، وحَشْرِ كلِّ شيءٍ في الدُّنيا عليهم - من بيانٍ وإيضاحٍ للحقِّ وهُدًى ؟! ومعَ هذا فلا يؤمنونَ ولا يَنقادونَ للحقِّ ولا يُصَدِّقونَ الرَّسولَ .

وَمَنْ نَظَرَ في سيرَةِ رسول اللَّهِ ﷺ معَ قومهِ، ومعَ اليَهودِ، عَلِمَ أنَّهم كانوا جازِمينَ بصِدقهِ ﷺ، لا يَشُكُّونَ أنَّهُ صادقٌ في قولِهِ : إنَّهُ رسولُ اللَّهِ، ولكنِ اختاروا الضَّلالَ والكُفرَ على الإيمانِ .

قال المِسْوَرُ بن مَخْرَمَة رضيَ اللَّهُ عنهُ لأبي جَهلٍ - وكانَ خالَهُ - : أيْ خالُ ! هَل كُنتُم تَتَّهمونَ محمَّدًا بالكذبِ قبلَ أن يقولَ مقالَتَهُ التي قالها ؟! قال

أبو جَهل - لعنَهُ اللَّهُ تعالى - : يا ابنَ أخي واللَّهِ لقَد كانَ محمَّدٌ فينا - وهو شابٌّ - يُدعى الأمين؛ ما جَرَّبْنا عليه كذبًا قَطُّ، فلمَّا وخَطَهُ الشيبُ لم يكُن ليَكذِبَ على اللَّهِ ! قال : يا خالُ فَلِمَ لا تَتَّبِعُونهُ ؟ قال : يا ابن أخي تنازَعْنا نحنُ وبنو هاشمٍ الشرَفَ، فأطعموا وأطعمنا، وسَقَوا وسقَينا، وأجاروا وأجَرْنا، فلمَّا تَجاثَينا على الرُّكبِ وكنَّا كفرَسي رهانٍ قالوا : منَّا نبيٌّ ، فمتى نُدرِكُ هذه ؟[1]

وهذا أُميَّةُ بن أبي الصَّلت كان ينتظرُهُ يومًا بيومٍ وَعِلمُهُ عندهُ قبلَ مبعثِهِ، وقصَّتُهُ مع أبي سفيانَ لمّا سافَرا معًا معروفةٌ، وإخبارُهُ برسولِ اللَّهِ ﷺ، ثمَّ لما تيقَّنَهُ وعَرَفَ صِدقَهُ قال : لا أُومنُ بنبيٍّ من غير ثَقيفٍ أبدًا[2] !!

وهذا هِرَقْلُ[3] تيقَّنَ أنَّهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ، ولم يَشُكَّ فيه، وآثَرَ الضَّلالَ والكُفرَ استبقاءً لمُلكِهِ .

ولمَّا سألهُ اليَهودُ عن التِّسعِ آياتِ البيِّناتِ ؟ فأخبَرَهُم بها، قبَّلوا يَدَهُ، وقالوا : نَشهَدُ أنَّكَ نبيٌّ، قال : فما يمنعكُم أن تتَّبعوني ؟ قالوا : إنَّ داودَ عليه السَّلام دعا أن لا يزالَ في ذُرِّيَّتِهِ نبيٌّ، وإنَّا نخشى إنِ اتَّبعناكَ أن تقتلَنا يهودُ[4] !

---

(١) انظر « البداية والنهاية » (٣ / ٦٥) .

(٢) انظر « البداية والنهاية » (٢ / ٢٢٢) .

(٣) وقصَّتُه في « صحيح البخاري » (رقم : ٧) و « صحيح مسلم » (١٧٧٣) .

(٤) رواه - مطوّلًا - الترمذي (٢٧٣٣) ، وابن ماجه (٣٧٠٥) ، والنَّسائي (٧ / ١١١) ، وأحمد (٤ / ٢٣٩) ، والطيالسي (٢٢٤٢) ، والحاكم (١ / ٩) - وصحّحه - !

وهو حديثٌ ضعيفٌ ؛ أورده ابن كثير في « تفسيره » (٣ / ٦٧) وقال : « ... هو حديثٌ مُشكِل ؛ وعبدالله بن سَلِمة في حفظِه شيءٌ ، وقد تكلَّموا فيه » .

وانظر « جامع البيان » (١٥ / ١١٤) ، و « الدر المنثور » (٤ / ٢٠٤) .

فهؤلاء قَد تحقَّقوا نُبُوّتَهُ، وشهدوا له بها ، ومعَ هذا فآثَروا الكفرَ والضَّلالَ، ولم يَصيروا مسلمين بهذه الشهادَةِ :

فقيلَ : لا يَصيرُ الكافرُ مسلمًا بمجرَّد شهادةِ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللَّهِ ﷺ حتى يَشهَدَ للَّهِ بالوَحدانيَّة .

وقيلَ : يصيرُ بذلكَ مسلمًا .

وقيلَ : إنْ كانَ كُفرهُ بتكذيبِ الرَّسولِ - كاليَهودِ - صارَ مُسلمًا بذلك، وإنْ كانَ كفرهُ بالشركِ معَ ذلكَ، لم يَصِر مسلمًا إلّا بشهادَةِ بالتَّوحيد كالنَّصارى والمُشركين .

وهذه الأقوالُ الثَّلاثةُ في مَذهَبِ الإمامِ أحمدَ وغيرِهِ.

وعلى هذا فإنَّما لم يُحكَم لهؤلاء اليَهودِ - الذينَ شهدوا له بالرِّسالَةِ - بحُكمِ الإسلامِ؛ لأنَّ مجرَّدَ الإقرارِ والإخبارِ بصحَّةِ رسالتهِ لا يُوجبُ الإسلامَ، إلّا أن يلتزمَ طاعَتَهُ ومُتابعتَهُ، وإلّا فلو قالَ : أنا أعلمُ أنَّهُ نبيٌّ، ولكنْ لا أتَّبعهُ، ولا أَدينُ بدينِهِ ! كانَ من أكفَرِ الكفَّارِ، كحالِ هؤلاء المذكورين وغيرهم، **وهذا متَّفقٌ عليه بين الصَّحابَةِ والتَّابعينَ وأئـمَّةِ السُّنَّة**؛ أنَّ الإيمانَ لا يَكفي فيه قولُ اللسانِ بمجرَّده، ولا معرفَةُ القلبِ معَ ذلكَ، بل لا بدَّ فيه من عَمَلِ القلبِ - وهو حبُّهُ للَّهِ ورسولِهِ وانقيادُهُ لدينِهِ والتزامُهُ طاعَتَهُ ومتابعةَ رسولِهِ -، وهذا خلافُ من زَعَمَ أنَّ الإيمانَ هو مُجرَّدُ معرفةِ القلبِ وإقرارِهِ .

وفيما تَقدَّم كفايَةٌ في إبطالِ هذه المقالَةِ ، ومَن قالَ : إنَّ الإيمان هو مُجرَّدُ اعتقادِ صدقِ الرَّسول فيما جاءَ به ، وإنْ لم يلتزم مُتابعتَهُ ، وعاداهُ وأبغضهُ وقاتَلهُ !! لَزِمَهُ أن يكونَ هؤلاء كلُّهم مؤمنين !

وهذا إلزامٌ لا مَحيدَ عنه، ولهذا اضطربَ هؤلاء في الجوابِ عن ذلكَ لمَّا ورَدَ عليهم، وأجابوهُم بما يَستحي العاقلُ من قولِهِ، كقول بعضهم : إنَّ إبليسَ كانَ مُستهزئًا ولم يكُن يُقِرُّ بوجودِ اللَّهِ، ولا بأنَّ اللَّهَ ربُّهُ وخالقُهُ، ولم يكُن يَعرف ذلك، وكذلك فرعونُ وقومه لم يكونوا يعرفونَ صحَّةَ نبوَّةِ موسى، ولا يَعتقدونَ وجودَ الصَّانعِ !

وهذه فضائحُ نعوذُ باللَّهِ من الوقوعِ في أمثالها، ونُصرة المقالات وتقليدُ أربابها يحملُ على أكثر مِن هذا، ونعوذُ باللَّه من الخذلانِ .

قالوا : وقد بيَّنَ القرآنُ أنَّ الكُفرَ أقسامٌ :

أحدها : كفرٌ صادرٌ عن جَهلٍ وضلالٍ وتَقليدِ الأسلافِ، وهو كفرُ أكثَرِ الأتباعِ والعوامِّ .

الثَّاني : كفرُ جُحودٍ وعنادٍ وقَصدِ مخالفَةِ الحقِّ؛ كَكُفرِ مَن تَقدَّمَ ذكرهُ .

وغالبُ ما يَقعُ هذا النَّوعُ فيمَن له رياسَةٌ علميَّةٌ في قومهِ من الكفَّارِ، أو رياسَةٌ سُلطانيَّةٌ، أو مَن له مأكلٌ وأموالٌ في قومهِ، فيخافُ هذا على رياستهِ، وهذا على مالهِ ومأكلهِ، فَيُؤثِرُ الكفرَ على الإيمانِ عَمدًا .

الثَّالث : كفرُ إعراضٍ مَحْضٍ، لا ينظرُ فيما جاءَ بهِ الرَّسولُ، ولا يُحبُّهُ ولا يُبغضهُ، ولا يُواليهِ ولا يُعاديهِ، بل هوَ مُعرِضٌ عن مُتابَعتهِ ومُعاداتهِ[1] .

وهذان القسمانِ أكثَرُ المُتكلِّمينَ يُنكرونهما، ولا يُثْبِتونَ من الكُفرِ إلّا الأوَّلَ، ويجعلونَ الثَّاني والثَّالث كُفرًا لدلالتهِ على الأوَّلِ لا لأنَّهُ في ذاتهِ كفرٌ، فليسَ عندهم الكفرُ إلّا مُجرَّدُ الجَهلِ .

ومَن تأمَّلَ القرآنَ والسُّنَّة، وسِيَرَ الأنبياءِ في أُمَمِهم ودعوتِهم لهم، وما

---

(١) فهذا ليس عنده إيمانٌ أَصلًا ، فَضْلًا عن أَنْ يكونَ عنده نقيضُهُ تعمُّدًا ، فالكُفْرُ عنده ناتجٌ عن خُلُوِّ الإيمان من قلبه .

جَرى لهم معَهُم جَزَمَ بخطأ أهلِ الكلامِ فيما قالوه، وعَلِمَ أنَّ عامَّةَ كفرِ الأُمَمِ عَن تَيقُّنٍ وعلمٍ ومعرفَةٍ بصدقِ أنبيائِهِم وصحَّةِ دعواهم وما جاءوا به(١) .

وهذا القُرآنُ مملوءٌ من الإخبارِ عن المشركينَ عُبَّادِ الأصنامِ أنَّهُم كانوا يُقِرُّونَ باللَّهِ وأنَّهُ هو وحدَهُ ربُّهُم وخالقهُم، وأنَّ الأرضَ وما فيها لهُ وحدَهُ، وأنَّهُ ربُّ السَّمواتِ السَّبعِ وربُّ العَرشِ العَظيمِ، وأنَّهُ بيدِهِ مَلَكُوتُ كلِّ شيءٍ، وهو يُجيرُ ولا يُجارُ عليهِ، وأنَّهُ هو الَّذي سخَّرَ الشمسَ والقَمَرَ، وأنزَلَ المطرَ، وأخرَجَ النَّباتَ .

والقُرآنَ مُنادٍ عليهم بذلكَ، مُحتجٌّ بما أقرُّوا به من ذلكَ على صحَّةِ ما دَعتهُم إليهِ رسلهُ، فكيفَ يقالُ : إنَّ القومَ لم يكونوا مُقرِّينَ قَطُّ بأنَّ لهُم ربًّا وخالقًا !!؟

هذا بُهتانٌ عظيمٌ، **فالكُفرُ أمرٌ وراءَ الـجَهلِ**، بل الكُفرُ الأغلظُ هو ما أنكرَهُ هؤلاء وزَعموا أنَّهُ ليسَ بكفرٍ .

قالوا : والقلبُ عليهِ واجبانِ لا يصير مؤمنًا إلّا بهما جميعًا : واجبُ الـمَعرفَةِ والعلم، وواجبُ الحبِّ والانقيادِ والاستسلام، فكما لا يكونُ مؤمنًا إذا لم يأتِ بواجبِ العلمِ والاعتقاد، لا يكونُ مؤمنًا إذا لم يأتِ بواجبِ الحُبِّ والانقياد والاستسلام، بل إذا تركَ هذا الواجبَ مع علمهِ ومعرفتهِ به، كانَ أعظمَ كفرًا وأبعَدَ عن الإيمانِ من الكافرِ جهلًا، **فإنَّ الـجاهلَ إذا عَرَفَ وعلـمَ فهو قريبٌ إلى الانقيادِ والاتِّباعِ، وأمَّـا الـمُعانِدُ فلا دواءَ فيه .**

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ كيفَ يَهدي الله قوما كَفَروا بعدَ إيمانِهِم وَشهِدوا أنَّ الرَّسولَ حقٌّ وجاءَهُم البيِّناتُ والله لا يَهدي القومَ الظَّالمين ﴾ [آل

(١) وهو كُفر الجُحود .

عمران : ٨٦] .

قالوا : فحبُّ اللَّهِ ورسولِهِ - بل كونُ اللَّهِ ورسولِهِ أحبَّ إلى العَبدِ من سواهما - لا يكونُ العَبدُ مسلماً إلّا به .

ولا ريبَ **أنَّ الحُبَّ أمرٌ وراءَ العلم** ، فما كلُّ مَن عرف الرسولَ أحبَّه، كما تقدَّم .

قالوا : وهذا الحاسدُ يحملُهُ بغضُ المَحسودِ على معاداتِهِ، والسَّعيِ في أذاهُ بكلِّ ممكنٍ، مع علمِهِ بفضلِهِ وعلمِهِ، وأنَّهُ لا شيءَ فيه يُوجبُ عداوتَهُ إلّا محاسنُهُ وفضائلُهُ .

ولهذا قيلَ : **الحاسدُ عدوٌّ للنِّعَمِ والمكارمِ**، فالحاسدُ لم يحملْهُ على مُعاداةِ المحسودِ جهلُهُ بفضلِهِ وكمالِهِ، وإنَّما حَمَلَهُ على ذلكَ **فسادُ قَصدِهِ** وإرادتِهِ، كما هي حالُ الرُّسلِ وورَثَتِهِم مع الرُّؤساء الذينَ سَلَبَهُم الرُّسُلُ ووارثوهم رئاستَهُم الباطلَةَ، فعادَوهم، وصدُّوا النُّفوسَ عن مُتابَعتهم؛ ظنًّا أنَّ الرِّياسةَ تَبقى لهم وَيَنفَرِدونَ بها ، وسُنَّةُ اللَّهِ في هؤلاءِ أن يسلُبَهُم رياسَةَ الدُّنيا والآخِرَة، ويُصغِّرَهُم في عيونِ الخلقِ **مُقابلَةً لهم بنقيضِ قَصدِهِم**؛ ﴿ وما ربُّكَ بظلّامٍ للعَبيد ﴾ [فصلت : ٤٦] .

فهذا موردُ احتجاجِ الفَريقين، وموقفُ أقدامِ الطَّائفتين، فاجلِسْ أيُّها المُنصِفُ منهما مجلسَ الحكومَةِ، وتَوَخَّ بعلمكِ وعَدلِكَ فَصْلَ هذه الخصومَةِ، فَقَد أدلى كلٌّ منهما بحجَجٍ لا تُعارَضُ ولا تُمانَعُ، وجاءَ ببيِّناتٍ لا تُرَدُّ ولا تُدافَعُ، فَهَل عندَكَ شيءٌ غيرُ هذا يحصُلُ به **فصلُ الخطابِ**، وينكشفُ به لطالبِ الحقِّ وجهُ الصَّوابِ ؟! فيُرضي الطَّائفتَين، ويزولُ به الاختلافُ من البَينِ، وإلّا فَخَلِّ

المطيَّ وحاديَها، وأعطِ القَوسَ باريَها :

دَعِ الهَوى لأُناسٍ يُعرَفونَ بِهِ قَد كابَدوا الحُبَّ حتّى لانَ أصعَبُهُ

ومَن عَرَفَ قَدْرَهُ، وَعَرَف لذي الفَضلِ فَضلَهُ، فَقَد قَرَعَ بابَ التَّوفيقِ، واللّهُ الفتَّاحُ العليمُ، فنقولُ وباللّهِ التَّوفيق :

كلا الطَّائفتين ما خَرَجَت عن مُوجبِ العلمِ، ولا عَدلت عن سَنَنِ الحقِّ، وإنَّما الاختلافُ والتَّبايُنُ بينهما من عَدمِ التَّوارُدِ على محلٍّ واحدٍ، ومن إطلاقِ ألفاظٍ مُجمَلَةٍ، **بتَفصيلِ معانيها يَزولُ الاختلافُ**، ويَظهَرُ أنَّ كلَّ طائفَةٍ موافقَةٌ للأُخرى على نَفسِ قولها .

وبيانُ هذا أنَّ المُقتَضيَ قسمان :

مُقتَضٍ لا يتَخلَّفُ عنهُ مُوجِبهُ ومقتضاهُ لقصورِهِ في نفسِهِ، بل يَستلزمُهُ استلزامَ العلَّةِ التَّامَّةِ لمَعلولها .

ومُقتَضٍ غيرُ تامٍّ؛ بل قد يتخلَّفُ عنه مقتضاهُ لقصورهِ في نفسِهِ عن التَّمامِ، أو لفواتِ شرطِ اقتضائِهِ، أو قيامِ مانعٍ منعَ تأثيرَهُ :

فإنْ أُريدَ بكونِ العلمِ مُقتضيًا للاهتداء والاقتضاء التَّامّ الّذي لا يتخلَّف عنهُ أثَرُهُ، بل يلزمُهُ الاهتداءُ بالفعل ، فالصَّوابُ قولُ الطَّائفَةِ الثَّانيَةِ؛ وأنَّهُ لا يَلزمُ من العلمِ حصولُ الاهتداءِ المطلوبِ .

وإنْ أُريدَ بكونهِ مُوجِبًا أنَّهُ صالحٌ للاهتداءِ مُقتَضٍ له وقَد يتخلَّفُ عنه مُقتضاهُ لقصورهِ ، أو فواتِ شرطٍ ، أو قيامِ مانعٍ .

فالصَّوابُ قولُ الطَّائفَةُ الأولى .

وتَفصيلُ هذه الجملَةِ أنَّ العلمَ بكونِ الشيءِ سببًا لمصلحةِ العَبدِ ولذَّتهِ

وسرورِهِ قَد يتخلَّف عنهُ عملُهُ بمقتضاهُ لأسبابٍ عديدةٍ :

السَّبَبُ الأوَّلُ : ضعفُ معرفته بذلك .

السَّبَبُ الثَّاني : عدمُ الأهليَّةِ، وقَد تكونُ معرفتهُ به تامَّةً، لكنْ يكونُ مشروطًا بزكاةِ المحلِّ وقبولِهِ للتَّزكيةِ، فإذا كانَ المحلُّ غيرَ زكيٍّ ولا قابلٍ للتَّزكيةِ كانَ كالأرضِ الصَّلدةِ التي لا يُخالِطُها الماءُ؛ فإنَّهُ يمتنعُ النَّباتُ منها لعدم أهليَّتِها وقبولِها، **فإذا كانَ القلبُ قاسيًا حَجَريًّا لا يقبلُ تزكيةً ولا تُؤثِّرُ فيه النَّصائحُ لم يَنتفع بكلِّ علمٍ يعلمُهُ**، كما لا تُنبتُ الأرضُ الصَّلبَةُ ولو أصابَها كلُّ مطرٍ، وبُذِرَ فيها كلُّ بذرٍ، كما قال تعالى في هذا الصِّنفِ من النَّاس : ﴿ **إنَّ الَّذينَ حقَّت عليهم كلمةُ ربِّكَ لا يؤمنونَ ولو جاءَتهُم كلُّ آيةٍ حتى يَرَوا العذابَ الأليمَ** ﴾ [يونُس : ٩٦ - ٩٧] ، وقال تعالى : ﴿ **ولو أنَّنا نزَّلْنا إليهم الملائكَةَ وكلَّمهُم الموتى وحَشرنا عليهم كلَّ شيءٍ قُبُلًا ما كانوا ليُؤمنوا إلَّا أن يشاءَ الله** ﴾ [الأنعام : ١١١]، وقال تعالى : ﴿ **قُلِ انظُروا ماذا في السَّمواتِ والأرضِ وما تُغني الآياتُ والنُّذُرُ عن قومٍ لا يؤمنون** ﴾ [يونس : ١٠١] .

وهذا في القرآنِ كثيرٌ .

فإذا كان القلبُ قاسيًا غليظًا جافيًا لا يَعملُ فيه العلمُ شيئًا، وكذلكَ إذا كانَ مريضًا مَهينًا مائيًا لا صلابَةَ فيه ولا قوَّةَ ولا عَزيمَةَ لم يُؤثِّر فيه العلمُ .

السَّبَبُ الثَّالثُ : قيامُ مانعٍ؛ وهو إمَّا حسدٌ أو كِبْرٌ، وذلكَ مانعُ إبليسَ من الانقياد للأمرِ، وهو داءُ الأوَّلين والآخرين **إلَّا مَن عَصمَ اللَّهُ**، وبه تخلَّفَ الإيمانُ عن اليَهودِ الذينَ شاهَدوا رسولَ اللَّهِ ﷺ، وعَرفوا صحَّةَ نبوَّتِهِ، ومَن جَرى مجراهُم، وهو الذي منعَ عبدَاللَّهِ بن أُبيّ منَ الإيمانِ، وبه تخلَّفَ الإيمانُ عن أبي

جَهلٍ وسائرِ المُشركين؛ فإنَّهُم لم يكونوا يرتابونَ في صدقِهِ، وأنَّ الحقَّ معهُ، ولكنْ حملهم الكِبْرُ والحَسَدُ على الكُفرِ، وبهِ تخلَّفَ الإيمانُ عن أُميَّةَ وأضرابِه ممَّن كانَ عندَهُ علمٌ بنبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ .

السَّبَبُ الرَّابعُ : مانعُ الرِّياسَةِ والمُلك، وإنْ لم يَقُم بصاحبِهِ حَسَدٌ ولا تكبُّرٌ عن الانقيادِ للحقِّ، لكنْ لا يُمكنُهُ أن يجتمع له الانقيادُ ومُلكُهُ ورياستُهُ، فَيضَنُّ بمُلكِهِ ورياستهِ كحالِ هِرَقلَ وأضرابِهِ من ملوكِ الكفَّارِ الذينَ عَلِموا نبوَّتَهُ وصدقَهُ، وأقرُّوا بها باطنًا، وأحبُّوا الدُّخولَ في دينهِ لكنَّهُم خافوا على مُلكهم !

وهذا داءُ أربابِ المُلك والولايَةِ والرِّياسَةِ، وقلَّ مَن نجا منه إلّا من عَصَمَ اللَّهُ، وهو داءُ فرعونَ وقومِه، ولهذا قالوا : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤٧]، أَنِفوا أن يُؤمنوا ويتَّبعوا موسى وهارونَ وينقادوا لهما، وبنو إسرائيلَ عَبيدٌ لهم .

ولهذا **قيل** : إنَّ فرعَونَ لمَّا أرادَ مُتابَعةَ موسى وتَصديقَه شاوَرَ هامانَ وزيرَهُ فقال : بينما أنتَ إلهٌ تُعبَد تَصيرُ عَبدًا تعبُدُ غيرَكَ ! فأبى العُبوديَّةَ واختارَ الرِّياسَةَ والإلهيَّة المُحالَ !!

السَّبَبُ الخامسُ : مانعُ الشهوَةِ والمالِ؛ وهو الذي منعَ كثيرًا من أهلِ الكتابِ من الإيمانِ خَوفًا من بطلانِ مأكلِهِم وأموالِهِم التي تَصيرُ إليهم من قومهم، وقد كانَت كفَّارُ قريشٍ يَصُدُّونَ الرَّجلَ عن الإيمانِ بحَسَبِ شهوتِهِ، فَيدخلونَ عليه منها، فكانوا يقولونَ لمَن يُحبُّ الزِّنا والفواحش : إنَّ محمَّدًا يُحرِّمُ الزِّنا، ويُحرِّمُ الخمرَ، وبهِ صدُّوا الأعشى الشاعرَ عن الإسلام [١].

---

(١) انظر « البداية والنهاية » (٣ / ١٠٣) لابن كثير ، ففيه تعقُّبٌ على ابن هشام في سياق القصَّة .

وقَد فاوضتُ غَيرَ واحدٍ من أهلِ الكتابِ في الإسلامِ وصحَّتهِ، فكانَ آخرَ ما كلَّمني بهِ أحدُهم : أنا لا أتركُ الخمرَ وأشربُها أمْنًا، فإذا أسلمتُ حِلْتُم بيني وبينها وجلدتموني على شُربها !

وقال آخرُ منهم - بعدَ أن عَرَفَ ما قلتُ له - : لي أقاربُ أربابُ أموالٍ ، وإنِّي إن أسلَمتُ لم يَصِلْ إليَّ منها شيءٌ، وأنا أُؤمِّلُ أن أرثَهُم ! أو كما قال .

ولا رَيبَ أنَّ هذا القَدْرَ في نُفوسِ خَلْقٍ كثيرٍ من الكفَّار، فتتَّفِقُ قوَّةُ داعي الشهوَةِ والمالِ، وضعفُ داعي الإيمانِ، فيُجيبُ داعي الشهوةِ والمالِ، ويقولُ : لا أرغَبُ بنفسي عن آبائي وسَلَفي !!

السَّبَبُ السَّادسُ : محبَّةُ الأهلِ والأقاربِ والعَشيرَة؛ يَرى أنَّهُ إذا اتَّبعَ الحقَّ وخالَفَهم أبعَدوهُ، وطَردوهُ عنهم، وأخرجوهُ من بينِ أظهرهم .

وهذا سببُ بقاءِ خلقٍ كثيرٍ على الكفرِ بينَ قومهم وأهاليهم وعشائرهم .

السَّبَبُ السَّابعُ : محبَّةُ الدَّارِ والوَطَن؛ وإن لم يكُن له بها عَشيرَةٌ ولا أقاربُ ، لكنْ يَرى أنَّ في متابَعَةِ الرَّسولِ خروجَهُ عَن دارهِ وَوطنهِ إلى دارِ الغُربَةِ والنَّوى فَيضَنَّ بوطنهِ ودارِه .

السَّبَبُ الثَّامنُ : مَنْ تخيَّلَ أنَّ في الإسلامِ ومتابَعَةِ الرَّسولِ إزراءً وطَعنًا منه على آبائهِ وأجدادهِ وذمًّا لهم ، وهذا هو الَّذي منعَ أبا طالبٍ وأمثالَهُ عن الإسلامِ؛ استَعظموا آباءَهُم وأجدادَهُم أن يَشهَدوا عليهم بالكُفر والضَّلالِ، وأن يختاروا خلافَ ما اختارَ أُولئكَ لأنفسِهم، وَرَأَوْا أنَّهُم إنْ أسلَموا سفَّهوا أحلامَ أُولئكَ، وضلَّلوا عقولَهم، ورَمَوهُم بأقبحِ القبائح وهو الكُفر والشركُ .

ولهذا قال أعداءُ اللَّهِ لأبي طالبٍ عندَ المَوتِ : أتَرغَبُ عَن ملَّةِ

عَبدالمُطَّلب ؟ فكانَ آخرَ ما كلَّمهُم به : **هو على ملَّةِ عبدالمُطَّلب** [١] ! فلم يَدَعْهُ أعداءُ اللَّهِ إلّا من هذا الباب؛ لِعلمِهم بتعظيمهِ أباهُ عبدَالمطَّلب، وأنَّهُ إنّما حازَ الفَخرَ والشرَفَ به، فكيفَ يأتي أمرًا يلزمُ منه غايَةُ تَنقيصهِ وذمِّهِ !!

ولهذا قال : لولا أن تكونَ مسبَّةً على بني عبدالمطَّلب لأقرَرتُ بها عَينَكَ [٢]، أو كما قال .

وهذا شِعرُهُ يُصرِّحُ فيه بأنَّهُ قد علمَ وتحقَّقَ نُبوَّةَ محمَّدٍ ﷺ وصِدْقَهُ ؛ كقولِه :

ولَقَد علمتُ بأنَّ دينَ مُحمَّدٍ ... مِن خَيرِ أديانِ البَريَّةِ دينا
لولا الملامَةُ أو حِذارُ مَسَبَّةٍ ... لوَجَدتَني سَمحًا بذاكَ مُبينا

وفي قَصيدتهِ اللَّاميَّة[٣] :

فَواللَّهِ لولا أن تكونَ مسبَّةٌ ... تُجَرُّ على أشياخنا في المحافلِ
لكُنَّا اتَّبعناهُ على كلِّ حالةٍ ... منَ الدَّهرِ جَدًّا غَيرَ قولِ الهازلِ
لَقَد علموا أنَّ ابْنَنا لا مُكَذَّبٌ ... لدينا ولا يُعنىٰ بقولِ الأَباطِلِ

والمسبَّةُ- التي زَعَمَ أنَّها تُجَرُّ على أشياخهِ-شهادتُهُ عليهم بالكُفرِ والضَّلالِ، وتَسفيهِ الأحلامِ، وتَضليلِ العقولِ، فهذا هو الذي مَنَعهُ من الإسلامِ بعدَ تيقُّنهِ .

السَّببُ التَّاسعُ : مُتابَعةُ مَن يعاديهِ مِن النَّاس للرَّسول، وسبقُه إلى الدُّخولِ في دينهِ، وتَخصيصُه، وقربُه منه .

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٠) ، ومسلم (٣٩) (٢٤) .

(٢) رواه مسلمٌ (٢٤) (٤٢) عن أبي هريرة .

(٣) انظرها بتمامه في « سيرة ابن هشام » (١ / ٣٣٨ - ٣٤٧) ، وقال بعد إيرادها : « وبعضُ أهل العلم بالشعر يُنكر أكثرها » .

وهذا القَدْرُ منعَ خَلقًا كثيرًا من اتِّباع الهُدى، يكونُ للرَّجلِ عدوٌّ ويُبغضُ مكانَهُ، ولا يحبُّ أرضًا يمشي عليها، ويقصدُ مخالفتَهُ ومناقضتَهُ، فيراهُ قد اتَّبعَ الحقَّ، **فيحملُهُ قَصدُ مُناقضتِهِ ومُعاداتِهِ على معاداةِ الحقِّ وأهلِهِ**، وإنْ كانَ لا عَداوَةَ بينهُ وبينهم .

هذا كما جَرى لليَهودِ مع الأنصار؛ فإنَّهُم كانوا أعداءَهُم ، وكانوا يتواعَدونهم بخروجِ النَّبي ﷺ، وأنَّهُم يَتَّبعونهُ ويُقاتلونهم معه، فلمَّا بَدَرَهُم إليهِ الأنصارُ وأسلموا حَمَلَهُم معاداتُهم على البقاءِ على كُفرهم ويهوديَّتِهِم .

السَّبَبُ العاشرُ : مانعُ الإلْفِ والعادَة والمنشأ ؛ فإنَّ العادَةَ قَد تَقوى حتى تغلبَ حُكمَ الطَّبيعَةِ، ولهذا قيلَ : هي طبيعَةٌ ثانيةٌ، فيُربَّى الرَّجلُ على المقالَةِ ، ويُنشَّأُ عليها صَغيرًا، فيتربَّى قلبهُ ونفسُهُ عليها، كما يتربَّى لحمُهُ وعظمُهُ على الغَذاءِ المعتادِ، ولا يعقلُ نفسَهُ إلّا عليها، ثمَّ يأتيه العلمُ وهلَةً واحدَةً يريدُ إزالَتها وإخراجَها من قلبِهِ، وأن يَسكُنَ موضعَها، فيعسرُ عليه الانتقالُ، ويصعُبُ عليه الزَّوالُ[1] .

وهذا السَّببُ - وإن كانَ أضعَفَ الأسباب معنًى - فهو أغلبُها على الأُمَم وأربابِ المقالات والنِّحَلِ، ليسَ معَ أكثرهم - بل جميعهم - إلّا ما عَسى أن يَشُذَّ إلّا عادَةً ومَرْبًى تربَّى عليها طفلًا؛ لا يعرفُ غيرها، ولا يُحسِنُ به، فَدِينُ العوايدِ هو الغالبُ على أكثرِ النَّاسِ، فالانتقالُ عنه كالانتقالِ عن الطَّبيعَةِ إلى طبيعَةٍ ثانيةٍ .

---

(١) تأمّلْ - أَخي طالبَ العلم - هذا الكلامَ الذي يختلطُ بالنُّفوس ، ويستخرجُ أَدواءَها وأَمراضَها .

فصلواتُ اللَّهِ وسلامهُ على أنبيائهِ ورسلهِ، خصوصًا على خاتَمهم وأفضلِهم محمَّدٍ ﷺ؛ كيفَ غيَّروا عوائدَ الأُمَمِ الباطلَةِ، ونقلوهم إلى الإيمانِ، حتى استحدثوا به طبيعَةً ثانيةً خَرَجوا بها عن عادتهم وطبيعتهم الفاسدَةِ .

ولا يَعلَمُ مشقَّةَ هذا على النُّفوسِ إلّا من زاوَلَ نَقلَ رجلٍ واحدٍ عن دينهِ ومقالتهِ إلى الحقِّ، فجزى اللَّهُ المُرسَلينَ أفضلَ ما جَزى به أحدًا من العالَمين .

إذا عُرِفَ أنَّ المُقتضيَ نوعان ؛ فالهُدى المقتَضي وحدَهُ لا يُوجِبُ الاهتداءَ، والهُدى التَّامُّ يُوجِبُ الاهتداءَ :

فالأوَّل : هدى البيان والدَّلالة والتَّعليم، ولهذا يقالُ : هُدِيَ فما اهتَدى .

والثَّاني : هدى البيان والدَّلالة مع إعطاء التَّوفيق، وخَلْق الإرادَة؛ فهذا الهدى الذي يستلزمُ الاهتداءَ، ولا يتخلَّفُ عنه مُوجِبهُ ، فمتى وُجدَ السَّبَبُ وانتَفَتِ الموانع لَزِمَ وجودُ حُكمهِ .

وههنا دقيقةٌ بها ينفصلُ النِّزاعُ؛ وهي أنَّهُ : هل ينعطفُ من قيامِ المانعِ وعَدَمِ الشرطِ على المُقتَضي أمرٌ يُضعِفهُ في نفسه ويَسلُبهُ اقتضاءَهُ وقوَّتَهُ أو اقتضاءَه بحالهِ وإنَّما غَلَبَ المانعُ فكانَ التَّأثيرُ له ؟!

ومثالُ ذلكَ في مسألتنا أنَّهُ بوجودِ هذه الموانع المذكورةِ أو بعضِها هل يضعفُ العلمُ أو يُعدَمُ حتى لا يصيرَ مُؤثِّرًا البتَّة، أو العلمُ بحالهِ ، ولكنَّ المانعَ بقوَّتهِ غَلَبَ فكانَ الحكمُ له !؟

هذا سرُّ المسألةِ وفقهُها :

فأمَّا الأوَّلُ فلا شكَّ فيه ، ولكنَّ الشأنَ في القسم الثَّاني ، - وهو بقاءُ العلم بحالهِ - ، والتَّحقيقُ أنَّ الموانعَ تَحجُبهُ وتُعميهِ، وربَّما قَلَبَتْ حقيقتَهُ من

القلبِ .

والقرآنُ قد دلَّ على هذا، قال تعالى : ﴿ وإذ قالَ موسى لقَومِهِ يا قَومِ لِمَ تُؤْذونَني وقَد تَعلَمونَ أنِّي رسولُ اللهِ إليكُم فلمَّا زاغوا أزاغَ الله قلوبَهُم والله لا يَهدي القومَ الفاسقين ﴾ [الصف : ٥]، فعاقبهم سبحانهُ بإزاغَةِ قلوبهم عن الحقِّ لمَّا زاغوا عنه ابتداءً .

ونظيرُهُ قوله تعالى : ﴿ ونُقلِّبُ أفئدَتَهُم وأبصارَهُم كما لم يُؤمنوا به أوَّلَ مرَّةٍ ونَذَرُهُم في طُغيانهم يَعْمَهُون ﴾ [الأنعام : ١١٠]، ولهذا قيلَ : **مَن عُرِضَ عليهِ حقٌّ فردَّهُ ولم يقبلهُ عُوقِبَ بفسادِ قلبهِ وعقلهِ ورأيهِ .**

ومِن هنا قيلَ : لا رأيَ لصاحبِ هوًى؛ فإنَّ هواهُ يحملُهُ على ردِّ الحقِّ فَيُفسِدُ اللَّهُ عليه رأيَهُ وعَقلَهُ .

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فَبِما نَقْضِهِم ميثاقَهُم وكُفرِهِم بآياتِ اللهِ وقَتلِهِم الأنبياءَ بِغَيرِ حقٍّ وقولهم قلوبُنا غُلْفٌ ﴾ [النساء : ١٠٠]، أخبَرَ سبحانهُ أنَّ كُفرَهم بالحقِّ بعدَ أن علموهُ كانَ سببًا لِطَبعِ اللَّهِ على قلوبهم : ﴿ بَل طَبَعَ الله عليها بكُفرهم ﴾ [النساء : ٥٥]، حتى صارَت غُلفًا، والغُلفُ : جمعُ أغلَفَ؛ وهو : القَلبُ الذي قَد غَشيَهُ غِلافٌ، كالسَّيفِ الذي في غلافهِ، وكلُّ شيءٍ في غلافهِ فهو أغلفُ، وجمعهُ غُلْفٌ، يقال : سَيفٌ أغلفُ، وقوسٌ غَلفاء، ورجلٌ أغلفُ وأقلَفُ؛ إذا لم يُختَتن، والمعنى : قلوبُنا عليها غشاوَةٌ وغطاءٌ، فلا تفقهُ ما تقولُ يا مُحمَّد ﷺ .

ولم يَصنَع شيئًا مَن قالَ : إنَّ المعنى أنَّها غُلفٌ للعلمِ والحكمَةِ، أي : أوعيَةٌ لها فلا نحتاجُ إلى قولكَ ولا نقبلهُ استغناءً بما عندهم ! لوجوه :

أحدها : أنَّ (غُلْف) جمعُ أغلَف، كـ (قُلْف) وأقلَف، و (حُمْرٍ) وأحمَرَ، و (جُرْدٍ) وأجرَد، و(غُلْبٍ) وأغلَبَ ونظائرِه .

والأغلفُ من القلوبِ؛ هو الدّاخلُ في الغلافِ، هذا هو المعروف من اللغَة .

الثَّاني : أنَّهُ ليسَ من الاستعمالِ السَّائغِ المشهورِ أن يُقالَ : قَلبُ فلانٍ غلافٌ لكذا ! وهذا لا يكادُ يُوجَدُ في شيءٍ من نَثرِ كلامهِم ولا نَظمِهِ، ولا نَظيرَ له في القرآن فَيُحملُ عليه، ولا هو من التَّشبيهِ البَديعِ المُستَحْسَن؛ فلا يجوزُ حملُ الآيَةِ عليه .

الثَّالث : أنَّ نظيرَ قولِ هؤلاء قولُ الآخرين من الكفَّار : ﴿ قلوبنا في أكنَّةٍ ممَّا تَدعونا إليه ﴾ [فصلت : ٥] والأكنَّةُ هنا : هي الغُلفُ التي قلوبُ هؤلاء فيها، والأكنَّةُ كالأوعيةِ والأغطيَةِ التي تُغَطِّي المتاعَ، ومنهُ : الكِنانَةُ؛ لغلافِ السِّهامِ .

الرَّابع : أنَّ سياقَ الآيَةِ لا يَحسُنُ مع المعنى الذي ذكروهُ، ولا يَحسُنُ مُقابَلتُهُ بقولِه : ﴿ بَل طَبَعَ الله عليها بكفرهم ﴾ [النِّساء : ١٥٥] ، وإنَّما يَحسُنُ مع هذا المعنى أن يُسْلَبَ عنهم العلمُ والحكمَةُ التي ادَّعوها، كما قيلَ لهم لمَّا ادَّعوا ذلكَ : ﴿ وما أُوتيتُم من العلمِ إلّا قَليلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥]، وأمَّا هنا فلمَّا ادَّعوا أنَّ قلوبَهم في أغطيَةٍ وأغشيَةٍ لا تَفقهُ قولَهُ، قوبلوا بأنْ عَرَّفهُم أنَّ كفرَهُم ونقضَهُم ميثاقَهُم وقتلَهُم الأنبياءَ كانَ سببًا لأنْ طُبعَ على قلوبهم .

ولا ريبَ أنَّ القلبَ إذا طُبعَ عليه أظلمَت صورَةُ العلمِ فيه، وانْطمست، وربَّما ذهَبَ أثَرُها حتى يَصيرَ السَّببُ الذي يَهتَدي به المهتَدون سببًا لضلالِ

هذا؛ كما قال تعالى : ﴿ يُضِلُّ بهِ كَثيرًا ويَهدي بهِ كثيرًا وما يُضِلُّ بهِ إلّا الفاسقين الَّذينَ يَنقُضُونَ عَهدَ اللهِ من بَعدِ ميثاقِهِ ويَقطَعونَ ما أمَرَ اللهُ به أن يُوصَلَ ويُفسِدونَ في الأرضِ أُولئكَ هم الخاسرون ﴾ [البقرة ٢٦ - ٢٧]، فأخبرَ تعالى أنَّ القرآنَ سببٌ لضلالِ هذا الصِّنفِ من النَّاسِ، وهو هُداهُ الذي هدى به رسولَهُ وعبادَهُ المؤمنين .

ولهذا أخبرَ سبحانهُ أنَّهُ إنَّما يَهدي به مَن اتَّبعَ رضوانَ اللَّهِ، قال تعالى : ﴿ وإذا ما أُنزِلَتْ سورَةٌ فمنهُم مَن يقولُ أيُّكُم زَادَتْهُ هذه إيمانًا فأمَّا الَّذينَ آمَنوا فزادَتْهُم إيمانًا وهم يَستَبشِرونَ وأمَّا الَّذينَ في قُلوبِهم مَرضٌ فزادَتهُم رِجْسًا إلى رِجْسِهِم وماتوا وهم كافرون ﴾ [البقرة : ١٢٤ - ١٢٥] .

ولا شيءَ أعظمُ فسادًا لمحلِّ العلمِ من صَيرورَتهِ بحيثُ يَضِلُّ بما يَهتَدي به، فنسبتُهُ إلى الهُدى والعلمِ نسبةُ الفَمِ الذي استحكمتْ فيه المرارَةُ إلى الماء العَذْبِ؛ كما قيل :

ومَن يكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مَريضٍ　　　يَجِدْ مُرًّا به الماءَ الزُّلالا

وإذا فَسَدَ القلبُ فَسَدَ إدراكُهُ، وإذا فَسَدَ الفمُ فَسَدَ إدراكُهُ، وكذلكَ إذا فَسَدَت العَينُ .

وأهلُ المعرفَةِ من الصَّيارفَةِ يقولون : إنَّ من خانَ في نقدهِ نَسيَ النَّقدَ وسُلِبَهُ ، فاشتبهَ عليه الخالصُ بالزَّغَل .

ومن كلام بعضِ السَّلف : يهتفُ العلمُ بالعمل فإنْ أجابَهُ حلَّ وإلّا ارتحلَ(١) .

---

(١) يُروى عن عليٍّ رضي اللَّه عنه ، وكذا عن ابن المُنكدر ، فانظر « ذمّ مَن لم يعمل بعلمه » (رقم : ١٥ - بتحقيقي) ، و « اقتضاء العلم العَمَل » (رقم : ٤٠) .

وقال بعضُ السَّلفِ : كُنَّا نَستعينُ على حفظِ العلمِ بالعملِ به [١] .

فترَكُ العملِ بالعلمِ من أقوى الأسبابِ في ذهابِهِ ونسيانِهِ .

وأيضًا؛ فإنَّ العلمَ يُرادُ للعملِ؛ فإنَّهُ بمنزلةِ الدَّليلِ للسَّائرِ، فإذا لم يَسِر خلفَ الدَّليلِ لم ينتفع بدلالتهِ، فنَزَلَ منزلَةَ من لم يعلم شيئًا، لأنَّ مَن علمَ ولم يعمل بمنزلةِ الجاهلِ الذي لا يعلم، كما أنَّ من ملكَ ذهبًا وفضَّةً وجاعَ وعَرِيَ ولم يشترِ منها ما يأكلُ ويلبسُ فهو بمنزلَةِ الفَقيرِ العادمِ؛ كما قيل :

ومَن تَركَ الإنفاقَ عندَ احتياجِهِ مخافَةَ فَقرٍ فالَّذي فَعَلَ الفقرُ

والعربُ تُسَمِّي الفُحشَ والبذاءَ جهلًا؛ لكونهِ ثمرةَ الجهلِ - فَيُسمَّى باسمِ سببِهِ ومُوجِبهِ - ، وإمَّا لأنَّ الجهلَ يقال في جانبِ العلمِ والعملِ؛ قال الشاعر :

أَلَا لا يَجهَلَنْ أحدٌ علينـا فَنَجهَلَ فَوقَ جَهلِ الجاهلينا

ومِن هذا قولُ موسى لقومِهِ وقد قالوا : ﴿ أَتَتَّخِذُنا هُزُوًا قالَ أعوذُ باللهِ أن أكونَ منَ الجاهلين ﴾ [البقرة : ٦٧]، فجعَلَ الاستهزاءَ بالمؤمنين جهلًا .

ومنه قولُه تعالى حكايةً عن يوسفَ أنَّهُ قال : ﴿ وإلّا تَصرِفْ عَنّي كَيدَهُنَّ أَصْبُ إليهِنَّ وأكُن من الجاهلين ﴾ [يوسف : ١٣٣] .

ومن هذا قولُه تعالى : ﴿ خُذِ العَفوَ وَأْمُرْ بالعُرْفِ وأعرِضْ عَن الجاهلين ﴾ [الأعراف : ١٩٩]، ليسَ المُرادُ به إعراضَهُ عمَّن لا علمَ عندهُ فلا يَعلمُهُ ولا يُرشِدُهُ ، وإنَّما المُرادُ إعراضُهُ عن جهلِ مَن جَهلَ عليه منهم فلا يُقابِلُهُ ولا يُعاتِبُهُ .

قال مُقاتلٌ وعروةُ والضَّحَّاكُ وغيرُهم : صُن نَفسَكَ عن مقابلتهم على

(١) رواه الخطيب في « الاقتضاء » (١٤٩) عن إبراهيم بن إسماعيل .

سفههم[١].

وهذا كثيرٌ في كلامهم .

ومنه الحديثُ : « إذا كانَ يومُ صومِ أحدِكُم فلا يَصخَب ولا يَجهَل »[٢].

ومن هذا تسميةُ المعصيةِ جهلًا ؛ قال قتادَة : أجمعَ أصحابُ محمَّد ﷺ أنَّ كلَّ من عَصى اللَّهَ فهو جاهلٌ، وليسَ المرادُ أنَّهُ جاهلٌ بالتَّحريمِ إذْ لو كانَ جاهلًا لم يكن عاصيًا، **ولم يترتَّب الحدُّ في الدُّنيا والعقوبَةُ في الآخرَةِ على جاهلٍ بالتَّحريمِ**، بل نفسُ الذَّنبِ يُسمَّى جهلًا، وإنْ علمَ مُرتكبُهُ بتحريمِهِ؛ إمَّا لأنَّهُ لا يصدرُ إلّا عَن ضَعفِ العلمِ ونقصانِهِ - وذلكَ جهلٌ فسمِّي باسمِ سببَهِ -، وإمَّا تَنزيلًا لفاعلِهِ منزلَةَ الجاهلِ به .

الثَّاني : أنَّهُم لمَّا ردُّوا الحقَّ ورَغبوا عنهُ؛ عوقبوا بالطَّبعِ والرَّين وسلبِ العَقلِ والفَهمِ، كما قال تعالى عن المنافقين : ﴿ **ذلكَ بأنَّهُم آمَنوا ثمَّ كَفَروا فطُبعَ على قلوبِهم فهم لا يَفقَهون** ﴾ [المنافقون : ٣] .

الثَّالث : أنَّ العلمَ الذي يُنتفَعُ به ويستلزمُ النَّجاةَ والفلاحَ لم يكُن حاصلًا لهم ، فَسُلِبَ عنهم حقيقتُهُ، والشيءُ قَد ينتفي لنَفي ثمرتِهِ والمرادِ منه، قال تعالى في ساكنِ النَّارِ : ﴿ **فإنَّ لهُ جهنَّمَ لا يموتُ فيها ولا يَحيا** ﴾ [طه : ٧٤]، نفى الحياةَ لانتفاءِ فائدتها والمرادِ منها، ويقولونَ : لا مالَ إلّا ما أُنفِقَ ، ولا علمَ إلّا ما نفعَ .

ولهذا نفى سبحانهُ عن الكفَّارِ الأسماعَ والأبصارَ والعقولَ لمّا لم يَنتفعوا

---

(١) قارن بِـ « الدر المنثور » (٣ / ٦٢٨) .

(٢) رواه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) عن أبي هريرة .

بها، وقال تعالى : ﴿ وجَعَلْنا لَهُم سمعًا وأبصارًا وأفئدَةً فما أغنى عنهُم سمعُهُم ولا أبصارُهُم ولا أفئدتُهُم من شيءٍ إذ كانوا يجحَدونَ بآياتِ اللهِ ﴾ [الأحقاف : ٢٦]، وقال تعالى : ﴿ ولَقَد ذَرَأْنا لجَهَنَّمَ كثيرًا من الجنِّ والإنسِ لَهُم قلوبٌ لا يَفقَهونَ بها ولَهُم أعينٌ لا يُبصرونَ بها ولهم آذانٌ لا يَسمَعونَ بها ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

فلمَّا لم يحصُلْ لهم الهُدى المطلوبُ بهذه الحواسّ كانوا بمنزلةِ فاقديها ، قال تعالى : ﴿ صمٌّ بُكمٌ عُميٌ فهُم لا يَعقلونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] .

فالقَلبُ يوصَفُ بالبَصَر والعَمى والسَّمعِ والصَّمم والنُّطقِ والبُكمِ، بل هذه لهُ أصلاً، وللعَينِ والأُذنِ واللسانِ تبَعًا، فإذا فَقَدَها القَلبُ فصاحبُهُ أعمى مفتوحُ العَينِ، أصمُّ ولا آفةَ بأُذنِهِ، أبكمُ وإنْ كانَ فَصيحَ اللسان !

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ فإنَّها لا تَعمى الأبصارُ ولكنْ تَعمى القلوبُ التي في الصُّدور ﴾ [الحج : ٤٦]، فلا تَنافِيَ بينَ قيامِ الحُجَّةِ بالعلمِ وبينَ سَلْبِهِ ونَفيِهِ بالطَّبعِ والخَتْمِ والقَفْلِ على قلوب مَن لا يَعملُ بمُوجبِ الحجَّة وينقادُ لها .

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وإذا قَرأْتَ القُرآن جَعَلنا بينَكَ وبينَ الَّذينَ لا يُؤمنونَ بالآخرَةِ حِجَابًا مستورًا وجَعَلْنا على قلوبهم أَكِنَّةً أن يَفقَهوهُ وفي آذانِهم وَقْرًا وإذا ذكرتَ ربَّكَ في القُرآنِ وحدَهُ ولَّوا على أدبارِهِم نُفورًا ﴾ [الإسراء : ٤٥-٤٦] ، فأخبَرَ سبحانهُ بأنَّهُ منعهم فِقْهَ كلامِهِ - وهو الإدراكُ - الذي يَنتفِعُ به مَن فَقِهَهُ، ولم يكُن ذلكَ مانِعًا لهُم منَ الإدراكِ الذي تقومُ به الحُجَّةُ عليهم، فإنَّهُم لو لم يفهموهُ جملةً ما وَلَّوا على أدبارهم نُفورًا عندَ ذكرِ توحيدِ اللَّهِ، فلمّا ولَّوا عندَ ذكرِ التَّوحيدِ دلَّ على أنَّهُم كانوا يَفهمون الخطابَ، وأنَّ الذي غَشِيَ قلوبَهم

كالذي غَشِيَ آذانَهم .

ومعلومٌ أنَّهم لم يَعْدَموا السَّمعَ جملةً ويَصيروا كالأصمِّ، ولذلك يَنفي سبحانهُ عنهم السَّمعَ تارةً، ويُثبتُهُ أخرى، قال اللّٰهُ تعالى : ﴿ ولو علمَ الله فيهم خيرًا لأسمعهُم ﴾ [الأنفال : ٢٣]، ومعلومٌ أنَّهم قد سَمِعوا القُرآن ، وأُمِرَ الرَّسولُ بإسماعِهِم إيَّاه، وقال تعالى : ﴿ وقالوا لو كنَّا نَسمعُ أو نعقلُ ما كنَّا في أَصحابِ السَّعير ﴾ [الملك : ١٠]، فهذا السَّمعُ المنفيُّ عنهم سمعُ الفَهمِ والفقهِ، والمعنى : ولو علمَ اللّٰهُ فيهم خَيرًا لأسمعَهُم سمعًا ينتفعونَ به، وهو فِقْهُ المعنى وعقلُهُ، وإلّا فَقَد سمعوهُ سمعًا تقومُ به عليهم الحُجَّةُ، ولكنْ لمَّا سمعوهُ مع شدَّةِ بُغضهِ وكراهتِهِ ونُفرَتِهم عنه لم يفهموه ولم يعقلوهُ، والرَّجلُ إذا اشتَدَّت كراهتُهُ للكلامِ ونُفرتُهُ عنه لم يفهم ما يُرادُ به فَيُنَزَّلُ منزلةَ من لم يسمعْهُ .

قال اللّٰهُ تعالى : ﴿ ما كانوا يَستَطيعونَ السَّمعَ وما كانوا يُبصِرونَ ﴾ [هود : ٢٠]، نَفى عنهُم استطاعَةَ السَّمعِ معَ صحَّةِ حواسِّهِم وسلامتها، وإنَّما لفَرْطِ بُغضِهِم ونُفرتهم عنهُ وعَن كلامهِ صاروا بمنزلَةِ مَن لا يَستطيعُ أن يَسمَعَهُ ولا يراهُ ، وهذا استعمالٌ معروفٌ للخاصَّةِ والعامَّةِ يقولونَ : لا أُطيقُ أنظُرُ إلى فلانٍ، ولا أستطيعُ أن أسمعَ كلامَهُ ! مِن بُغضِهِ ونُفرتهِ عنهُ .

وبعضُ الجَبْرِيَّةِ يحتجُّ بهذه الآيَةِ وشِبْهِها على مذهبهم ! ولا دلالَة فيها؛ إذ ليسَ المرادُ سَلْبَهم السَّمعَ والبَصَرَ الذي تقومُ به الحُجَّةُ قطعًا، وإنَّما المُرادُ سَلْبُ السَّمعِ الذي يترتَّبُ عليه فائدتُهُ وثمرتُهُ ، والقَدَرُ حقٌّ ، ولكنَّ الواجبَ تنزيلُ القرآنِ منازلَه ، ووضعُ الآياتِ مواضعَها، **واتِّباعُ الحقِّ حيثُ كانَ** .

ومثلُ هذا إذا لم يحصُلْ له فهمُ الخطابِ لا يُعذَرُ بذلكَ ؛ فإنَّ الآفةَ

منه ، وهو بمنزلَةِ مَن سدَّ أذنيهِ عن الخطابِ فلم يَسمعْهُ ، فلا يكونُ ذلكَ عُذرًا له .

ومِن هذا قولُهُم : ﴿ قلوبُنا في أكنَّةٍ ممَّا تَدعونا إليهِ وفي آذاننا وَقْرٌ ومِن بينِنا وبينِك حجابٌ ﴾ [فُصِّلت : ٥]، يعنونَ أنَّهُم في تَركِ القَبولِ منه ومحبَّةِ الاستماعِ لِمَا جاءَ بِهِ، وإيثارِ الإعراضِ عنهُ، وشدَّةِ النِّفارِ عنه بمنزلَةِ مَن لا يعقلُهُ ولا يَسمعُهُ، ولا يُبصِرُ المُخاطِبُ لهُم بهِ، فهذا هو الَّذي يقولونَ لأجله في النَّارِ : ﴿ لو كنَّا نسمعُ أو نَعقِلُ ما كُنَّا في أصحابِ السَّعيرِ ﴾ [الملك : ١٠]، جعَلَ ذلكَ مقدورًا لهُم وذنبًا اكتسبوهُ، فقال تعالى : ﴿ فاعتَرفوا بذَنْبِهِم فسُحقًا لأصحابِ السَّعيرِ ﴾ [الملك : ١١] .

واللَّهُ تعالى يَنفي تارةً عن هؤلاء العَقلَ والسَّمعَ والبَصَرَ - فإنَّها مداركُ العلمِ وأسبابُ حصولِهِ - ، وتارةً ينفي عنهم السَّمعَ والعقلَ، وتارةً ينفي عنهُم السَّمعَ والبَصَرَ، وتارةً ينفي عنهُم العَقلَ والبَصَر، وتارةً ينفي عنهُم السمعَ وَحدَهُ، فنفيُ الثَّلاثَةِ نَفيٌ لمداركِ العلمِ بطريقِ المُطابَقَةِ [١]، ونفي بعضها نفيٌ له بالمُطابَقةِ، والآخرُ باللزومِ [١]؛ **فإنَّ القَلبَ إذا فَسَدَ، فَسَدَ السَّمعُ والبَصَرُ**[٢]، بل أصلُ فسادِهما مِن فساده، وإذا فَسَدَ السَّمعُ والبَصرُ فَسَدَ القلبُ، فإذا أعرَضَ عن سَمعِ الحقِّ وأبغضَ قائلَهُ - بحيثُ لا يحِبُّ رؤيتَهُ - امتنعَ وصولُ الهُدى إلى القَلبِ، ففَسَدَ، وإذا فَسَدَ السَّمعُ والعَقلُ تَبعهما فسادُ البَصرِ، فكلُّ مَدْرَكٍ من هذه يصحُّ بصحَّةِ الآخرِ، ويفسدُ بفسادِهِ؛ فلهذا يجيء في القرآن نفيُ ذلك

---

(١) تقدّم تعريفُهما .

(٢) لأنَّه القاعدةُ والأَساسُ .

صريحًا ولزومًا .

وبهذا التَّفصيل يُعْلَمُ اتفاقُ الأدلَّة من الجانبينِ .

وفي استدلالِ الطَّائفَةِ الثَّانيَةِ بقولِه : ﴿ الَّذينَ آتيناهُم الكتابَ يَعرفونَهُ كما يَعرفونَ أبناءهُم ﴾ [البقرة : ١٤٦]، ونظائرِها نَظَرٌ؛ فإنَّ اللَّهَ تعالى حيثُ قال : ﴿ الَّذينَ آتيناهُم الكتابَ ﴾ [البقرة : ١٤٦]، لم يكونوا إلّا ممدوحين مُؤمنين ، وإذا أرادَ ذمَّهُم والإخبارَ عنهُم بالعنادِ وإيثارِ الضَّلالِ أتى بلفظِ ﴿ الَّذينَ أُوتوا الكتابَ ﴾ مبنيّاً للمجهول :

فالأوَّلُ :

كقولِه تعالى : ﴿ الَّذينَ آتيناهُم الكتابَ مِن قبلِهِ هم به يُؤمنونَ وإذا يُتلى عليهم قالوا آمنَّا به إنَّهُ الحقُّ مِن ربِّنا إنَّا كُنَّا من قبلِهِ مسلمين أولئكَ يُؤْتَوْنَ أجرَهُم مرَّتين بما صَبَروا ﴾ [القَصَص : ٥٢] ، الآيات ، وكقولِه تعالى : ﴿ أفغَيرَ اللهِ أبتَغي حَكَمًا وهو الَّذي أنزلَ إليكُم الكتابَ مُفَصَّلًا والَّذينَ آتيناهُم الكتابَ يعلمونَ أنَّهُ مُنزَّلٌ من ربِّكَ بالحقِّ فلا تَكونَنَّ من المُمْتَرين ﴾ [الأنعام :١٢٤]، فهذا في سياق مدحِهم والاستشهادِ بهم ، ليسَ في سياقِ ذمِّهِم والإخبارِ بعنادِهِم وجُحودِهم ، كما استشهدَهم في قولِه تعالى : ﴿ قُل كَفى باللهِ شهيدًا بيني وبينكم ومَن عندَهُ علمُ الكتاب ﴾ [الرعد : ٤٣]، وفي قولِه : ﴿ فاسْأَلُوا أهلَ الذِّكرِ إنْ كُنتُم لا تعلمون ﴾ [النَّحل : ٤٣] ، وقال تعالى : ﴿ الَّذينَ آتيناهُم الكتابَ يَتلونَهُ حقَّ تلاوتِهِ أُولئكَ يؤمنونَ به ومن يكفُر به فأُولئكَ هم الخاسرون ﴾ [البقرة : ١٢١] .

واختُلفَ في الضَّمير في ﴿ يتلونهُ حقَّ تلاوتِهِ ﴾ ؟ فقيلَ : هو ضميرُ

الكتابِ الَّذي أُوتوهُ ؛ قال ابنُ مسعود : يُحِلُّونَ حلالَهُ، ويُحرِّمونَ حرامَهُ، ويقرؤونَهُ كما أُنزِلَ، ولا يُحرِّفونهُ عن مواضعهِ [(١)].

قالوا : ونزلَت في مؤمني أهلِ الكتابِ، وقيلَ : هذا وصفٌ للمُسلمين، والضَّميرُ في ﴿ يَتْلونَهُ ﴾ للكتابِ الذي هو القرآن !

وهذا بعيدٌ؛ إذ عُرْفُ القرآنِ يأباهُ .

ولا يَرِدُ على ما ذَكَرْنا قولُه تعالى : ﴿ الَّذينَ آتيناهُم الكتابَ يَعرفونَهُ كما يَعرفونَ أبناءَهُم وإنَّ فريقًا منهم لَيَكتُمونَ الحقَّ وهم يَعلَمون ﴾ [البقرة: ١٤٦]، بل هذا حُجَّةٌ لنا أيضًا لِما ذكرنا؛ فإنَّهُ أخبَرَ في الأوَّلِ عن معرفتهم برسولهِ ﷺ ودينهِ وقِبلَتِهِ كما يعرفونَ أبناءَهُم، استشهادًا بهم على مَن كَفَرَ، وثناءً عليهم .

ولهذا ذكرَ المفسِّرونَ أنَّهم عبدُاللّهِ بن سَلَام وأصحابُهُ [(٢)]، وخَصَّ في آخِرِ الآيَةِ بالذَّمِّ طائفَةً منهم ، فدلَّ على أنَّ الأوَّلين غيرُ مذمومين ، وكونُهم دخلوا في جملَةِ الأوَّلين بلفظِ المُضمَر لا يُوجِبُ أن يقالَ : آتيناهُم الكتابَ، عندَ الإطلاقِ؛ فإنَّهُم دخلوا في هذا اللفظِ ضِمنًا وتَبَعًا، فلا يلزمُ تناولُه لهم قَصدًا واختيارًا .

وقال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ قُل أئنَّكُم لَتَشهَدونَ أنَّ معَ اللهِ آلهَةً أُخرى قل لا أشهَدُ قل إنَّما هو إلهٌ واحدٌ وإنَّني بريءٌ ممَّا تُشرِكون الَّذينَ آتيناهُم الكتابَ يَعرفونهُ كما يَعرفونَ أبناءَهُم ﴾ [١٩ - ٢٠]، قيلَ : الرَّسولُ وصدقُهُ، وقيلَ : المذكورُ هو التَّوحيدُ .

والقولانِ مُتلازمانِ ؛ إذ ذلك في مَعرِضِ الاستشهاد والاحتجاج على

---

(١) رواه عبدالرزاق في « تفسيره » (١ / ٥٦) والطبري (١ / ٥١٩ - ٥٢٠) .

(٢) انظر « الدر المنثور » (١ / ٣٥٧) .

المشركين، لا في معرِضِ ذمِّ الَّذينَ آتاهُم الكتابَ ؛ فإنَّ السُّورَةَ مَكِّيَّةٌ والحِجاجُ كانَ فيها مَعَ أهلِ الشركِ، والسِّياقُ يدُلُّ على الاحتجاج، لا ذمُّ المذكورين من أهلِ الكتابِ .

وأمَّا الثَّاني :

فكقولِه : ﴿ وإنَّ الَّذينَ أوتوا الكتابَ ليعلمونَ أنَّهُ الحقُّ من ربِّهِم وما الله بغافلٍ عمَّا يعملونَ ولئن أتيتَ الَّذينَ أُوتوا الكتابَ بكلِّ آيَةٍ ما تَبِعوا قبلَتَكَ ﴾ [البقرة : ١٤٥] فهذا شهادتُهُ سبحانهُ للَّذينَ أتوا الكتابَ، والأوَّلُ شهادتُهُ للَّذينَ آتاهُم الكتابَ بأنَّهُم مؤمنون .

قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ أُوتوا الكتابَ آمِنوا بما نزَّلْنا مُصدِّقًا لما معكُم من قبلِ أن نَطمِسَ وجوهًا فنردَّها على أدبارها ﴾[النِّساء : ٤٧]، وقال تعالى : ﴿ وقُل للَّذينَ أُوتوا الكتابَ والأُمِّيِّينَ أأسلمتُم ﴾ [آل عمران : ٢٠٠]، وهذا خطابٌ لمَن لم يُسلِمْ منهم ، وإلَّا فلم يُؤمَر ﷺ أن يقولَ هذا لمَن أسلَمَ منهم وصدَّقَ به ، ولهذا لا يَذْكُرُ سبحانهُ الَّذينَ أُوتوا نَصيبًا من الكتابِ إلَّا بالذَّمِّ أيضًا كقوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الَّذينَ أُوتوا نَصيبًا من الكتابِ يشتَرونَ الضَّلالة وَيُريدونَ أن تَضِلُّوا السَّبيلَ ﴾ [النِّساء : ٤٤]، وقال تعالى : ﴿ ألم تَرَ إلى الَّذينَ أُوتوا نَصيبًا من الكتابِ يُؤمنونَ بالجِبْتِ والطاغوتِ .. ﴾ [النِّساء : ٥١] الآية، وقال : ﴿ ألم تَرَ إلى الَّذينَ أُوتوا نَصيبًا من الكتابِ يُدْعَوْنَ إلى كتابِ اللهِ ليحكُمَ بينَهم ثمَّ يتولَّى فريقٌ منهم وهم مُعرِضون ﴾ [آل عمران : ٢٣] .

فالأقسام أربعةٌ :

﴿ **الَّذينَ آتيناهُـم الكتابَ** ﴾؛ وهذا لا يذكرُهُ سبحانهُ إلَّا في معرِضِ

المدحِ .

و ﴿ الَّذين أوتوا نَصيبًا من الكتابِ ﴾؛ لا يكونُ قطُّ إلّا في معرِضِ الذَّمِّ .

و ﴿ الَّذينَ أُوتوا الكتابَ ﴾؛ أعمُّ منه؛ فإنَّهُ قَد يتناولُهما، ولكنْ لا يُفْرَدُ به الممدوحون قطُّ .

و﴿ يا أهلَ الكتابِ ﴾ ؛ يعُمُّ الجنسَ كلَّه ، ويتناوَلُ المَمدوحَ منه والمذمومَ، كقولِه : ﴿ مِن أهلِ الكتابِ أُمَّةٌ قائمَةٌ يتلونَ آياتِ اللهِ آناءَ اللَّيلِ وهم يسجدون يؤمنونَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ ﴾ [آل عمران : ١١٣] .

وقال في الذَّمِّ : ﴿ لم يكُنِ الَّذينَ كَفَروا مِن أهلِ الكتابِ والمُشركينَ مُنفَكِّينَ ﴾ [البيِّنَة : ١] .

وهذا الفَصلُ يُنتَفَعُ به جدًّا في أكبَرِ مسائلِ أُصولِ الإسلامِ، وهي **مسألةُ الإيمانِ** واختلافِ أهلِ القبلَةِ فيه، ذَكَرنا فيه نُكَتًا حِسَانًا يتَّضِحُ بها الحقُّ في المسألةِ، واللَّهُ أعلم .

تفاوت الدرجات في العلم

الوجهُ الثَّاني والثمانون : أنَّ اللَّهَ سبحانَهُ وتعالى فاوَتَ بينَ النَّوعِ الإنسانيِّ أعظَمَ تفاوُتٍ يكونُ بين المخلوقين، فلا يُعرَفُ اثنانِ من نوعٍ واحدٍ بينهما من التَّفاوُتِ ما بينَ خَيرِ البَشرِ وشرِّهم، واللَّهُ سبحانَهُ خَلَقَ الملائكَةَ عقولًا بلا شهواتٍ، وخَلَقَ الحيواناتِ ذواتِ شهواتٍ بلا عقولٍ، وخَلَقَ الإنسانَ مُركَّبًا من عَقلٍ وشهوَةٍ، **فمَن غَلَبَ عقلُهُ شهوتَهُ كانَ خيرًا من الملائكَةِ، ومَن غَلَبَت شهوتُهُ عقلَهُ كانَ شرًّا من الحيوانات .**

وفاوَتَ سبحانَهُ بينهم في العلمِ، فجعَلَ عالِمَهم مُعلِّمَ الملائكَةِ، كما قال تعالى : ﴿ يا آدمُ أَنبِئهم بأسمائهم ﴾ [البقرة : ٣٣]، وتلكَ مرتبةٌ لا مَرتبةَ

فوقها، وجَعَلَ جاهلَهم بحيثُ لا يَرضى الشيطانُ به ولا يصلُحُ له، كما قال الشيطانُ لجاهلهم الذي أطاعهُ في الكُفرِ : ﴿ إنِّي بَريءٌ مِنك ﴾[1]، وقال لِجَهَلَتِهِم الذين عَصَوْا رسولَهُ : ﴿ إنِّي بَريءٌ منكُم ﴾[2].

فللّهِ ما أشدَّ هذا التَّفاوتَ بين شخصينِ ؛ أحدِهما : تسجُدُ له الملائكةُ ويُعلِّمُها ممَّا اللَّهُ علَّمَهُ، والآخرِ : لا يَرضى الشيطانُ به وليًّا !

وهذا التَّفاوُتُ العظيمُ إنَّما حَصَلَ بالعلمِ وثمرتهِ ، ولو لم يكُن في العلمِ إلّا القُربُ من ربِّ العالمين والالتحاقُ بعالَمِ الملائكَة ، وصُحبةُ الملأ الأعلى ، لكفى به فَضلًا وشرفًا ، فكيفَ وعِزُّ الدُّنيا والآخرَةِ مَنوطٌ به ومشروطٌ بحصولهِ !؟

شرف العلم وأهلِهِ

الوجهُ الثَّالثُ والثمانون : أنَّ شرَفَ ما في الإنسانِ مَحَلُّ العلمِ منهُ ، وهو قلبُهُ وسمعُهُ وبَصَرُهُ .

ولـمَّا كانَ القلبُ هو محلَّ العلمِ والسَّمعِ ورسولَه الذي يأتيهِ به، والعَينُ طليعتُهُ ، كانَ مَلِكًا على سائرِ الأعضاءِ؛ يأمُرها فتأتَمِرُ لأمرهِ، ويَصرِفُها فتنقادُ لهُ طائعَةً بما خُصَّ به من العلمِ دونَها، فلذلكَ كانَ مَلِكَها والمطاعَ فيها، **وهكذا العالِمُ في النَّاسِ كالقَلبِ في الأعضاء** .

ولـمّا كانَ صلاحُ الأعضاءِ بصلاحِ مَلِكِها ومُطاعِها ، وفَسادُها بفسادِهِ؛ كانَت هذه حالَ النَّاسِ مع عُلمائِهم وملوكِهم، كما قال بعضُ السَّلفِ : صِنفانِ إذا صَلَحا صَلَحَ سائرُ النَّاسِ ، وإذا فَسَدَا فَسَدَ سائرُ النَّاسِ :

---

(١) الحشر : ١٦ .

(٢) الأنفال : ٤٨ .

العلماءُ والأُمراءُ (١).

قال عبداللَّهِ بن المُبارك :

وَهَلْ أفسَدَ الدِّينَ إلّا المُلو كُ وأحبارُ سُوءٍ ورُهبانُها

ولمَّا كانَ للسَّمعِ والبَصرِ من الإدراكِ ما ليسَ لغَيرهما من الأعضاءِ، كانا في أشرَفِ جُزءٍ من الإنسانِ وهو وجهُهُ، وكانا من أفضَلِ ما في الإنسانِ من الأجزاءِ والأعضاءِ والمنافعِ .

واختَلفَ الناسُ في الأفضَلِ منهما : فقالَت طائفَةٌ - منهم أبو المعالي(٢) وغيرُهُ - : السَّمعُ أفضَلُ؛ قالوا : لأنَّ به تُنالُ سعادَةُ الدُّنيا والآخرَةِ، فإنَّها إنَّما تحصُلُ بِمُتابَعةِ الرُّسلِ، وقَبُولِ رسالاتهم، وبالسَّمعِ عُرفَ ذلكَ ، فإنَّ مَن لا سَمْعَ له لا يَعلمُ ما جاءُوا به .

وأيضًا؛ فإنَّ السَّمعَ يُدْرَكُ به أجلُّ شيءٍ وأفضلُهُ، وهو كلامُ اللَّهِ تعالى الذي فَضلُهُ على الكلام كفَضلِ اللَّهِ على خَلقِهِ(٣).

---

(١) ويُروى مرفوعًا، رواه ابن عبدالبر في « جامع بيان العلم » (١ / ١٨٤) ، وأبو نُعيم في « الحلية » (٤ / ٩٦) عن ابن عباس .

وقال العراقي في « تخريج الإحياء » (١ / ٦) : سنده ضعيفٌ .

قلت : بل هو أشدُّ مِن ذلك ؛ فإنَّ محمد بن زياد اليَشكُري؛ وضَّاع .

(٢) هو عبدُالملك بن عبداللَّه بن يوسُف ، توفِّي سنة (٤٧٨ هـ) ، انظر ترجمتَه في « المُنتظم » (٩ / ١٨ - ٢٠) لابن الجوزيِّ .

(٣) وفي هذا المعنى حديثٌ ضعيفٌ؛ رواه الترمذي (٢٩٢٦)، والدارمي (٢ / ٤٤١)، والبيهقي في « الأسماء والصفات » (رقم : ٥٠٧) عن أبي سعيد الخدري .

وقد حكم أبو حاتم في « العلل » (٢ / ٨٢) بأنَّه حديثٌ منكر .

وانظر « السلسلة الضعيفة » (١٣٣٥) .

وأيضًا؛ فإنَّ العلومَ إنَّما تُنالُ بالتَّفاهُم والتَّخاطُبِ، ولا يحصُلُ ذلكَ إلّا بالسَّمعِ .

وأيضًا؛ فإنَّ مَدْرَكَهُ أعمُّ مِن مَدْرَكِ البَصرِ؛ فإنّهُ يُدْرِكُ الكلّيّاتِ والجُزئيّاتِ والشاهدَ والغائبَ والموجودَ والمعدومَ، والبَصرُ لا يُدرِكُ إلّا بَعضَ المشاهَداتِ، والسَّمعُ يسمعُ كلَّ علمٍ، فأينَ أحدُهما من الآخَرِ ؟

ولو فَرَضْنا شخصَينِ أحدَهما يسمعُ كلامَ الرَّسولِ، ولا يَرى شخصَهُ، والآخرَ بَصيرٌ يَراهُ ولا يسمعُ كلامَهُ لصَممِهِ ، هل كانا سواءً ؟!

وأيضًا؛ ففاقدُ البَصرِ إنَّما يفقدُ إدراكَ بعضِ الأُمورِ الجُزئيَّةِ المُشاهَدَةِ، ويُمكِنُهُ معرفتُها بالصِّفَةِ ولو تَقريبًا، وأمَّا فاقدُ السَّمعِ فالذي فاتَهُ من العلمِ لا يُمكِنُ حصولُهُ بحاسَّةِ البَصَرِ ولا قريبًا .

وأيضًا؛ فإنَّ ذمَّ اللَّهِ للكفَّارِ بعَدمِ السَّمعِ في القرآنِ أكثرُ من ذمِّهِ لهم بعَدَمِ البَصرِ، بل إنَّما يذمُّهُم بعَدمِ البَصَرِ تَبعًا لعَدَمِ العَقلِ والسَّمعِ .

وأيضًا؛ فإنَّ الذي يُورِدُهُ السَّمعُ على القَلبِ من العلومِ لا يَلحقُهَ فيه كَلالٌ ولا سآمَةٌ ولا تَعَبٌ من كثرتهِ وعِظَمِهِ، والذي يُورِدُهُ البَصرُ عليه يلحقُهُ فيه الكَلالُ والضَّعفُ والنَّقصُ، وربَّما خَشِيَ صاحبُهُ على ذهابهِ مع قلَّتهِ ونَزارتهِ بالنِّسبَةِ إلى السَّمعِ .

وقالت طائفَةٌ - منهم ابنُ قُتَيبَة - : بل البَصرُ أفضَلُ ؛ فإنَّ أعلى النَّعيم وأفضلَه وأعظمَه لذَّةً هو النَّظرُ إلى اللَّهِ في الدَّارِ الآخرَةِ، وهذا إنَّما يُنالُ بالبَصَرِ، وهذه وحدَها كافيَةٌ في تفضيلهِ .

قالوا : وهو مُقدِّمَةُ القَلبِ وطليعتُه ورائدُه، فمنزلتُهُ أقرَبُ من منزلةِ السَّمعِ،

ولهذا كثيرًا ما يَقرِنُ [اللهُ] بينهما في الذِّكرِ بقولِه : ﴿ فاعتَبِروا يا أُولي الابصار ﴾ فالاعتبارُ بالقَلبِ ، والبَصرُ بالعَينِ، وقال تعالى : ﴿ ونُقلِّبُ أفئدَتَهم وأبصارَهُم كما لم يُؤمنوا بِهِ أوَّلَ مرَّةٍ ﴾ [الأنعام : ١١٠]، ولم يقُل تعالى : وأسماعَهُم، وقال تعالى : ﴿ فإنَّها لا تعمى الأبصارُ ولكنْ تَعمى القلوبُ التي في الصُّدور ﴾ [الحج : ٤٦]، وقال : ﴿ يخافونَ يومًا تتقلَّب فيه القلوبُ والأبصارُ ﴾ [النور : ٣٧]، وقال تعالى : ﴿ قلوبٌ يومئذٍ واجفَةٌ أبصارُها خاشعَةٌ ﴾ [النازعات : ١٩]، وقال تعالى : ﴿ يَعلَمُ خائنَةَ الأعيُنِ وما تُخفي الصُّدورُ ﴾ [غافر : ١٩] ، وقال في حقِّ رسولِهِ : ﴿ ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رأى ﴾ [النجم: ١١] ثمَّ قال: ﴿ ما زاغَ البَصَرُ وما طَغى ﴾ [النجم: ١٧].

وهذا يَدُلُّ على شدَّةِ الوَصلَةِ والارتباطِ بينَ القلبِ والبَصرِ، ولهذا يقرأُ الإنسانُ ما في قلبِ الآخَرِ من عينِهِ، وهذا كثيرٌ في كلامِ النَّاسِ؛ نظمِهِ ونثرِهِ، وهو أكثَرُ مِن أن نَذكُرَهُ هنا .

ولمَّا كانَ القلبُ أشرَفَ الأعضاءِ ؛ كانَ أشدَّها ارتباطًا به وأشرَفَ من غَيرِهِ .

قالوا : ولهذا يأتَمِنُهُ القَلبُ ما لا يأتمِنُ السَّمعَ عليه، بل إذا ارتابَ من جهَةِ السمعِ عَرَضَ ما يأتيهِ به على البَصَرِ ليُزَكِّيَهُ أم يردَّهُ ! فالبَصَرُ حاكمٌ عليهِ مُؤتَمَنٌ عليه .

قالوا : ومن هذا : الحديثُ الذي رواهُ أحمد في « مسنَدِهِ » (١) مرفوعًا :

---

(١) (١ / ٢١٥ ، ٢١٧) .

ورواه ابن حبان (٦٢١٣)، والحاكم (٢ / ٣٢١)، والخطيب (٦ / ٥٦) من طريق هُشيم، عن أبي بِشر، عن سعيد بن جُبير، عن ابن عباس، كلُّهم بلفظ : « ليس الخَبَرُ كالمعاينة » .=

« ليسَ المُخبَرُ كالمُعايِن » .

قالوا : ولهذا أخبَرَ اللَّهُ سبحانهُ موسىأنَّ قومَهُ افتَتَنوا مِن بَعدِهِ، وعَبَدوا العِجلَ، فلم يَلحقْهُ في ذلكَ ما لَحِقَهُ عند رؤيَةِ ذلكَ ومُعايَنَتِهِ من إلقاءِ الألواحِ، وكَسْرِها لفَوتِ المُعايَنَةِ على الخَبَرِ .

قالوا : وهذا إبراهيمُ خليلُ اللَّهِ يسألُ ربَّهُ أن يُرِيَهُ كيفَ يُحيي المَوتى، وقَد علِمَ ذلكَ بخَبَرِ اللَّهِ له، ولكنْ طَلَبَ أفضَلَ المنازِلِ وهي طمأنينَةُ القَلبِ .

قالوا : ولليَقينِ ثلاثُ مراتبَ(١) :

أوَّلها : السَّمع .

والثَّاني : العَين ؛ وهي المُسمَّاةُ بعَين اليَقين، وهي أفضلُ من المرتبَةِ الأُولى وأكملُ .

قالوا : وأيضًا؛ فالبَصَرُ يُؤدِّي إلى **القَلبِ**، ويُؤدِّي عنه، فإنَّ العَينَ مِرآةُ القَلبِ، يَظهرُ فيها ما يُجِنُّهُ من المحبَّةِ والبُغضِ والمُوالاةِ والمُعاداةِ والسُّرورِ والحُزنِ وغيرِها .

وأمَّا الأُذنُ فلا تُؤدِّي عن القلبِ شيئًا البتَّة، وإنَّما مرتبتُها الإيصالُ إليه حَسْبُ، فالعَين أشدُّ تعلُّقًا به .

= وتابع هُشيمًا : أبو عوانة ؛ فيما رواه ابن حبان (٦٢١٤) ، والبزَّار (٢٠٠) ، والطبراني (١٢٤٥١) والحاكم (٢ / ٣٨٠) والقُضاعي في « مسند الشهاب » (١١٨٢) ، بلفظ : « ليس المُعاين كالمخبر » .

وسنده صحيحٌ .

وفي الباب عن أَنس ، وعن أَبي هُريرة .

(١) لم يذكر مُصنِّفُنا - رحمه اللَّه - إلَّا مَرْتَبَتَيْن - صراحةً - فلعلَّ (القلب) هو المرتبةُ الثالثةُ .

والصَّوابُ أنَّ كلًّا منهما به خاصِّيَّةٌ فُضِّلَ بها على الآخرِ؛ فالمُدرَكُ بالسَّمعِ أعمُّ وأشملُ، والمُدرَكُ بالبَصَرِ أتمُّ وأكملُ؛ فالسَّمعُ له العمومُ والشمولُ، والبَصَرُ له الظُّهورُ والتَّمامُ وكمالُ الإدراكِ .

وأمَّا نعيمُ أهلِ الجنَّةِ فشيئان :

أحدُهما : النَّظرُ إلى اللَّهِ .

والثَّاني : سماعُ خِطابهِ وكلامهِ، كما رواهُ عبداللَّهِ بن أحمد في « السنَّة » [١] وغيرِهِ : « كأنَّ النَّاسَ يومَ القيامَةِ لم يَسمَعوا القرآنَ إذا سمعوهُ من الرَّحمنِ عزَّ وجَلَّ » .

ومعلومٌ أنَّ سلامَهُ عليهم وخِطابَهُ لهم ومُحاضَرتَهُ إيَّاهُم - كما في الترمذي[٢] وغيره - لا يُشبهها شيءٌ قطُّ، ولا يكونُ أطيبَ عندهم منها .

ولهذا يذكرُ سبحانهُ في وعيدِ أعدائهِ أنَّهُ لا يُكلِّمُهُم، كما يَذكرُ احتجابَهُ عنهُم، ولا يَرَونهُ، فكلامُهُ ورؤيتُهُ نعيمُ أهلِ الجنَّةِ ، واللَّهُ أعلم .

الوجهُ الرَّابعُ والثمانون : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ في القرآنِ يُعدِّدُ على عبادهِ من نعمِهِ عليهم أنْ أعطاهُم آلاتِ العلمِ، فيذكرُ الفؤادَ والسَّمعَ والأبصارَ، ومرَّةً يذكرُ أدوات نيل العلم

(١) وفي نسخةٍ : « المسند » ! ولم أرَه في أيٍّ منهما !!
ورواه الرافعي في « تاريخ قزوين » (٢ / ٤٠٣) عن أبي هريرة مرفوعًا .
وفيه إسماعيل بن رافع : ضعيف .

(٢) (برقم : ٢٥٤٩) .
ورواه ابنُ ماجه (٤٣٣٦) وابن أَبي عاصم في « السنة » (٧٨٥) وتمّام في « فوائده » (١٧٨٧) عن أَبي هريرة بسند ضعيف .
وانظر كلامَ المصنِّف عليه في « حادي الأَرواح » (ص ٢٥٨) .
وانظر « السلسلة الضعيفة » (١٧٢٢) .

اللسانَ الذي يُترجَمُ به عن القَلبِ، فقال تعالى في سورَةِ النِّعَم - وهي سورَة النَّحل - التي ذكرَ فيها أُصولَ النِّعَم، وفروعَها، ومُتمَّاتِها، ومُكمِّلاتِها، فعدَّدَ نِعمَهُ فيها على عبادِهِ، وتعرَّفَ بها إليهم، واقتضاهم شُكرَها، وأخبرَ أنَّهُ يُتِمُّها عليهم ليعرفوها ويذكروها ويشكروها، فأوَّلُها في أُصولِ النِّعَم، وآخِرُها في مكمِّلاتها، وقال تعالى : ﴿ واللهُ أخرَجَكُم من بُطونِ أُمَّهاتِكُم لا تَعلَمونَ شيئًا وجَعَلَ لكمُ السَّمعَ والأبصارَ والأفئدَةَ لعلَّكُم تشكرون ﴾ [النحل : ٧٨]، فَذَكَرَ سبحانهُ نِعمَتهُ عليهم بأنْ أخرجَهم لا علمَ لهم، ثمَّ أعطاهُم الأسماعَ والأبصارَ والأفئدَةَ التي نالوا بها من العلمِ ما نالوهُ ، وأنَّهُ فَعَلَ بهم ذلكَ ليَشكروهُ، وقال تعالى : ﴿ وجَعَلْنا لهُم سمعًا وأبصارًا وأفئدةً فما أغنى عنهم سمعُهُم ولا أبصارُهُم ولا أفئدتُهُم من شيءٍ ﴾ [الأحقاف : ٢٦]، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ نجعَلْ له عَينَين ولسانًا وشفتَين وهَديناهُ النَّجدَين ﴾ [البلد : ٨ - ١٠]، فَذَكَرَ هنا العَينين اللَّتينِ[1] يُبصرُ بهما فيعلم المشاهَداتِ، وذكرَ هدايةَ النَّجدَين؛ وهما طريقا الخَيرِ والشرِّ - وفي ذلكَ حديثٌ مرفوعٌ مرسلٌ -[2] وهو قولُ

---

(١) في « الأَصل » : الّتي !

(٢) أخرجه عبدالرزاق في « تفسيره » (٣ / ٣٧٤)، وابن جرير (٣٠ / ٢٠٠)، وعبد ابن حُميد، وابن مردويه - كما في « الدر المنثور » (٨ / ٥٢٢) عن الحسن مُرسلًا .

وقال الحافظ في « الفتح » (٨ / ٧٠٤) : وأخرجه الطبراني بإسناد حسن عن ابن مسعود موقوفًا .

ثم قال : وله شاهد عن ابن مردويه من حديث أبي هريرة .

وله شواهد أخرى منها حديث أبي أمامة عند الطبراني في « المعجم الكبير » (٨٠٢٠) =

أَكثرِ المُفسِّرين، وتدلُّ عليه الآيَةُ الأُخرى : ﴿ إنَّا هَدَيناهُ السَّبيلَ إمَّا شاكرًا وإمَّا كَفورًا ﴾ [الإنسان : ٣] .

والهدايَةُ تكونُ بالقَلبِ والسَّمعِ ، فَقَد دَخَلَ السمعُ في ذلكَ لُزومًا ، وذَكَرَ اللسانَ والشفتَينِ اللتينِ هما آلةُ التَّعليم ، فَذَكَرَ آلاتِ العلمِ والتَّعليمِ وجَعلَها من آياتِهِ الدَّالَّةِ عليهِ وعلى قُدرتِهِ ووحدانيَّتِهِ ونِعَمِهِ التي تعرَّف بها إلى عبادِهِ .

ولمَّا كانت هذه الأعضاءُ الثَّلاثَةُ هي أشرفَ الأعضاءِ ومُلوكَها والمتَصرِّفَةَ فيها والحاكِمَةَ عليها خصَّها سبحانهُ وتعالى بالذِّكرِ في السُّؤالِ عنها، فقال : ﴿ إنَّ السَّمعَ والبَصَرَ والفؤادَ كُلُّ أُولئكَ كانَ عنهُ مسؤولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦]، فسعادَةُ الإنسانِ بصحَّةِ هذه الأعضاء الثَّلاثة، وشقاوتُهُ بفسادها .

قال ابنُ عبَّاسٍ : يسألُ اللَّهُ العبادَ فيما استعملوا هذه الثَّلاثَةَ ؛ السمعَ والبَصرَ والفؤادَ ؟ (١) واللَّهُ تعالى أعطى العَبدَ **السَّمعَ** ليَسمعَ بِهِ أوامرَ ربِّهِ ونواهيَه وعهودَه، **والقَلبَ** ليَعقلَها ويفقَهَها ، **والبَصَرَ** ليرى آياتِهِ فيستدلَّ بها على وحدانيَّتِهِ وربوبيَّتِهِ، فالمقصودُ بإعطائِهِ هذه الآلاتِ العلمُ وثمرتُهُ ومُقتضاهُ .

الوجهُ الخامسُ والثمانون : إنَّ أنواعَ السَّعاداتِ التي تُؤثِرُها النُّفوسُ ثلاثةٌ : السعادات كلُّها في العلم

سعادَةٌ خارجيَّةٌ عن ذاتِ الإنسانِ، بل هي مُستعارَةٌ له من غيرِهِ، تزولُ

= والقُضاعي في « مسند الشهاب » (١٢٦٣) بسند ضعيف عن أبي أُمامة .
وانظر « الدر المنثور » (٨ / ٥٢٢) .

(١) قارن بـ « الدر المنثور » (٥ / ٢٨٦) .

باستردادِ العاريَّةِ، وهي سعادَةُ المالِ والجاه، وتوابِعهما، فبينا المرءُ بها سعيدًا، ملحوظًا بالعنايَةِ، مرموقًا بالأبصارِ، إذ أصبحَ في اليومِ الواحدِ أذلَّ من وتدٍ بِقاعٍ يُشَجُّ رأسُهُ بالفِهرواجي[١]، فالسَّعادَةُ والفَرحُ بهذه كفَرحِ الأقرعِ بجُمَّةِ ابن عمِّهِ ! والجمالُ بها كجمالِ المرءِ بثيابِهِ وبزينتهِ، فإذا جاوَزَ بَصرُكَ كسوتَهُ فليسَ وراءَ عبّادانَ قريةٌ[٢] .

ويُحكى عن بعضِ العلماءِ أنَّهُ رَكِبَ مع تُجّارٍ في مركبٍ، فانكسَرَتْ بهم السَّفينَةُ ، فأصبحوا بَعدَ عزِّ الغنى في ذُلِّ الفَقرِ ، وَوَصَلَ العالِمُ إلى البَلدِ، فأُكرِمَ وقُصِدَ بأنواعِ التُّحَفِ والكراماتِ، فلمَّا أرادوا الرُّجوعَ إلى بلادهم قالوا : هل لكَ إلى قومِكَ كتابٌ أو حاجةٌ ؟ فقالَ : نعم، تقولونَ لهُم : إذا اتَّخذتُم مالًا فاتَّخذوا مالًا لا يَغرَقُ إذا انكسَرَت السَّفينَة ،فاتَّخِذوا العلمَ تجارةً .

واجتمعَ رجلٌ ذو هَيئةٍ حَسَنةٍ ولباسٍ جميلٍ وَرُوَاءٍ برجلٍ عالمٍ ، فجسَّ المَخاضَةَ[٣] فلم يَرَ شيئًا، فقالوا : كيفَ رأيتَهُ ؟ فقال : رأيتُ دارًا حسنةً مزخرفةً ولكن ليسَ بها ساكنٌ !

السَّعادَةُ الثَّانيةُ : سعادَةٌ في جسمِهِ وبَدنِهِ؛ كصحَّتِهِ، واعتدالِ مزاجِهِ، وتناسُبِ أعضائِهِ، وحُسنِ تركيبِهِ، وصفاءِ لونِهِ، وقُوَّةِ أعضائِهِ، فهذه ألصقُ به من الأُولى ، ولكنْ هي في الحقيقةِ خارجةٌ عن ذاتهِ وحقيقتهِ، فإنَّ الإنسانَ إنسانٌ

---

(١) لعلَّه أداةٌ حَجَريّةٌ تُدَقُّ بها بعضُ الأشياء؛ وفي « القاموس » (ص ٥٨٩) : « الفِهر : الحجر » ، واللّه أعلم .

(٢) عبّادان جزيرةٌ بين نهرين ، تحت البصرة ، كما في « معجم البلدان » (٤ / ٧٤) ، وكلامُ المصنِّف هنا كَمَثلٍ يُضْرَبُ .

(٣) أي : اختبره وامتحنه .

بروحِهِ وقلبِهِ لا بجسمِهِ وبدنِهِ ، كما قيل :

يا خادمَ الجسمِ كَم تَشقى بِخِدمَتِهِ
فأنتَ بالرُّوحِ لا بالجِسمِ إنسانُ

فنسبةُ هذه إلى روحِهِ وقلبِهِ كنسبةِ ثيابِهِ ولباسِهِ إلى بَدنِهِ؛ فإنَّ البَدَنَ أيضًا عارِيَّةٌ للرُّوحِ، وآلةٌ لها، ومركبٌ من مراكبها، فسعادتُها بصحّتِهِ ، وجمالِهِ وحُسنِه سعادَةٌ خارجةٌ عن ذاتها وحقيقتها .

السَّعادَةُ الثَّالثَةُ : هي السَّعادَةُ الحقيقيَّةُ؛ وهي سعادَةٌ نَفسانيَّةٌ روحيَّةٌ قلبيَّةٌ، وهي سعادَةُ العلمِ النَّافعِ ثمرتُهُ، فإنَّها هي الباقيَةُ على تَقَلُّبِ الأحوالِ ، والمُصاحِبَةُ للعَبدِ في جميعِ أسفارِهِ وفي دُورِهِ الثَّلاثَةِ - أعني : دارَ الدُّنيا ودارَ البرزَخ ودارَ القَرار - وبها يترقَّى في معارجَ الفَضلِ ودرجاتِ الكمالِ .

أمَّا الأولى : فإنَّها تصحبُهُ في البُقعَةِ التي فيها مالُهُ وجاهُهُ .

والثَّانيَة : فَعُرضةٌ للزَّوالِ والتَّبدُّل بنَكْسِ الخَلْقِ والرَّدِّ إلى الضَّعفِ، فلا سعادَةَ في الحقيقة إلّا في هذه الثَّالثَة، التي كلَّما طالَ عليها الأَمَدُ ازدادَت قوَّةً وعُلُوًّا، وإذا عُدِمَ المالُ والجاهُ فهي مالُ العَبدِ وجاهُهُ، وتَظهَرُ قوَّتُها وأثرُها بعدَ مُفارَقةِ الرُّوحِ البدنَ إذا انقطَعَتِ السَّعادَتانِ الأُولَتانِ .

وهذه السَّعادَةُ لا يَعرِفُ قَدْرَها، ويَبعَثُ على طَلبها إلّا العلمُ بها، **فعادَت السَّعادَةُ كلُّها إلى العلمِ وما يَقتَضيهِ**، واللَّهُ يوفِّقُ من يشاءُ، لا مانِعَ لما أعطى ولا مُعطيَ لما منَعَ .

وإنَّما رَغِبَ أكثرُ الخَلْقِ عن اكتسابِ هذه السَّعادَةِ وتحصيلها لِوُعورَةِ طريقها ومرارَةِ مباديها وتَعَبِ تحصيلها، وأنَّها لا تُنالُ إلّا على جسرٍ من التَّعبِ؛ فإنَّها لا تُحصَّلُ إلّا بالجدِّ المحضِ، بخلافِ الأُولَتين؛ فإنَّهما حظٌّ قد يحوزُهُ

غيرُ طالبهِ، وبختٌ قَد يحوزهُ غيرُ جالبهِ من ميراثٍ أو هِبَةٍ أو غَيرِ ذلكَ .

وأمَّا سعادَةُ العلمِ فلا يُورثُكَ إيَّاها إلّا بذلُ الوُسعِ، وصِدقُ الطَّلبِ، وصحَّةُ النيَّة .

وقَد أحسَنَ القائلُ في ذلك :

فقُل لِمُرجِّي مَعالي الأُمورِ بغَيرِ اجتهادٍ رَجَوتَ المُحالا

وقال الآخَرُ :

لولا المَشقَّةُ سادَ النَّاسُ كلُّهُمُ الجودُ يُفقِرُ والإقدامُ قتَّالُ

ومَن طَمَحَتْ همَّتُهُ إلى الأُمورِ العاليَةِ فَأَوْجَبُ عليه أن يَسُدَّ على محبَّتِه الطُّرقَ الدَّنيَّةَ .

وهي السَّعادَةُ ؛ وإنْ كانَت في ابتدائها لا تنفَكُّ عَن ضربٍ من المشقَّة والكُرهِ والتَّأذِّي فإنَّها متى أُكرِهتَ النَّفسُ عليها، وسيقَت طائعَةً وكارهةً إليها، وصَبَرَتْ على لأوائها وشدَّتها، أفضَتْ منها إلى رياضٍ مُؤنَّقةٍ، ومقاعدِ صدقٍ، ومقامٍ كريمٍ يجدُ كُلَّ لذَّةٍ دونها كلذّة لَعِبِ الصَّبيّ بالعُصْفورِ بالنِّسبَةِ إلى لذَّةِ الملوكِ، فحينئذٍ حالُ صاحبها كما قيلَ :

وكنتُ أرى أنْ قَد تناهى بيَ الهَوى

إلى غايَةٍ ما بَعدَها لي مَذهَبُ

فلمَّا تَلاقَيْنا وعايَنتُ حُسنَها

تيقَّنتُ أنِّيَ إنَّما كنتُ ألعبُ

فالمكارمُ مَنُوطَةٌ بالمكارهِ، والسَّعادَةُ لا يُعبَرُ إليها إلّا على جسرِ المشقَّةِ ، ولا تُقطعُ مسافَتُها إلّا في سفينَةِ الجدِّ والاجتهاد، قالَ مسلمٌ في

« صحيحه »(١): قال يحيى بنُ أبي كثيرٍ : لا يُنالُ العلمُ براحَةِ الجسم .

وقَد قيلَ : مَن طَلَبَ الرَّاحَةَ تركَ الرَّاحَةَ .

فيا وصلَ الحبيبِ أمَا إليهِ بغَيرِ مشقَّةٍ أبدًا طريقُ

ولولا جهلُ الأكثرينَ بحلاوَةِ هذه اللَّذَّةِ وعِظمِ قَدرِها لَتجالَدوا عليها بالسُّيوف، ولكنْ حُفَّت بحجابٍ من المكارهِ، وحُجبوا عنها بحجابٍ من الجهلِ، ليختصَّ اللَّهُ بها من يشاءُ مَن عبادِه، واللَّهُ ذو الفَضلِ العظيم .

كمالُ يُنالُ بالعِلم

الوجهُ السَّادسُ والثمانون : إنَّ اللَّهَ سبحانه خَلَقَ الموجوداتِ، وجَعَلَ لكلِّ شيءٍ منها كمالًا يَختَصُّ به هو غايَةُ شرفِهِ، فإذا عُدِمَ كمالُهُ انتقَلَ إلى الرُّتبَةِ التي دونَهُ، واستُعمِلَ فيها، فكانَ استعمالُهُ فيها كمالَ أمثالِهِ، فإذا عَدِمَ تلكَ أيضًا نُقلَ إلى ما دونَها ولا تُعطِّلُ، وهكذا أبدًا حتى إذا عَدِمَ كلَّ فَضيلَةٍ صارَ كالشوكِ، وكالحَطَب الذي لا يَصلُحُ إلّا للوقودِ، فالفَرَسُ إذا كانَت فيهِ فروسيَّتُهُ التَّامَّةُ أُعِدَّ لمراكبِ الملوكِ، وأُكرِمَ إكرامَ مثلِهِ، فإذا نَزَلَ عنها قليلًا أُعدَّ لمَن دونَ الملكِ، فإن ازدادَ تَقصيرُهُ فيها أُعِدَّ لآحادِ الأجنادِ، فإنْ تقاصَرَ عنها جملَةً استُعمِلَ استعمالَ الحمارِ؛ إمَّا حَولَ المدارِ، وإمَّا لنقلِ الزِّبْلِ ونحوِهِ، فإنْ عَدِمَ ذلكَ استُعملَ استعمالَ الأغنامِ للذبحِ والإعدام .

كما يُقال في المَثَل : إنّ فَرَسَين التَقيا، أحدُهما تحتَ ملكٍ والآخرُ يحملُ الرّوايا (٢)، فقالَ فرسُ الملكِ : أمَا أنتَ صاحبي وكنتُ أنا وأنتَ في مكانٍ واحدٍ ، فما الَّذي نَزَلَ بكَ إلى هذه المرتبَة ؟ فقال : ما ذاكَ إلّا أنّكَ

---

(١) (٦١٢) (١٧٥) .

وفي « شرح النووي » (١١٣/٥) فائدةٌ لطيفةٌ حول سبب إيراد مسلمٍ له في هذا الموضعِ .

(٢) مفردها (راوِية) ؛ وهي المزادة فيها الماء .

هَمْلَجْتَ قليلًا وتَسَكَّعْتُ أنا !!

وهكذا السَّيفُ إذا نَبا عمَّا هُيِّىءَ له ولم يصلُحْ له ، ضُرِبَ منه فأسٌ أو مِنشارٌ أو نحوهُ، وهكذا الدُّورُ العِظامُ الحِسانُ إذا خَبَتْ وتهدَّمَت اتُّخِذَتْ حظائرَ للغَنمِ أو الإبلِ وغيرهما .

وهكذا الآدميُّ إذا كانَ صالحًا لاصطفاء اللَّه له برسالتِهِ ونُبوَّتِهِ اتَّخذهُ رسولًا ونبيًّا، كما قالَ تعالى : ﴿ الله أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤]، فإذا كانَ جوهرُهُ قاصرًا عن هذه الدَّرجَة، صالحًا لخلافَة النُّبوَّة وميراثها، رشَّحهُ لذلكَ، وبلَّغهُ إيَّاهُ، فإذا كانَ قاصرًا عن ذلكَ، قابلًا لدرجَةِ الولايَةِ رُشِّحَ لها، وإنْ كانَ ممَّن يَصلُحُ للعَمَلِ والعبادَةِ، دونَ المعرفَةِ والعلمِ، جُعِلَ من أهلِهِ، حتى ينتهي إلى درجَةِ عُمومِ المؤمنين، فإنْ نَقَصَ عن هذه الدَّرجَة ولم تكُن نفسُهُ قابلَةً لشيءٍ من الخَيرِ أصلًا استُعملَ حَطَبًا ووقودًا للنَّارِ .

وفي أثَرٍ إسرائيليٍّ : أنَّ موسى سألَ ربَّهُ عن شأنِ مَن يعذِّبهُم مِن خلقهِ ؟ فقال : يا موسى ازرَع زرعًا، فَزَرَعَهُ، فأوحى اللَّه إليه أنِ احصدهُ،ثمَّ أوحى إليهِ أن انسِفْهُ واذْرُهُ[1] فَفعلَ، وخَلَصَ الحَبُّ وحدَهُ، والعيدانُ والعَصفُ وحدَهُ، فأوحى اللَّه إليهِ : إنِّي لا أجعَلَ في النَّارِ من العبادِ إلّا مَن لا خَيرَ فيهِ؛ بمنزلَةِ العيدانِ والشوكِ التي لا تصلُحُ إلّا للنَّارُ .

وهكذا الإنسانُ يترقَّى في درجاتِ الكمالِ درجَةً بعدَ درجَةٍ حتى يبلغَ نهايَةَ ما ينالُهُ أمثالُهُ منها،فكَم بين حالهِ في أوَّلِ كونهِ نُطفَةً وبينَ حالهِ والرَّبُّ يُسلِّمُ عليه في دارِهِ، وينظرُ إلى وجهِه بُكرَةً وعَشيًّا !

(١) مِن التَّذْرية، وهي عمليَّةُ فَصْل الحَبِّ عن قِشرهِ؛ والنَّسْف مِن التَّنْسيف؛ وهو كالتَّذْريةِ .

والنَّبيُّ ﷺ في أوَّلِ أمرِهِ لمَّا جاءَهُ المَلَكُ فقال له : اقرأ ، فقال : « ما أنا بقارىءٍ » [١]، وفي آخِرِهِ أمَرَهُ بقولِ اللَّهِ لهُ : ﴿ اليومَ أكمَلتُ لكُم دينَكُم وأتمَمتُ عليكُم نعمتي ﴾ [المائدة : ٣]، ويقولُ له خاصَّةً : ﴿ وأنزَلَ اللهُ عليكَ الكتابَ والحِكمَةَ وعلَّمَكَ ما لم تَكُن تعلَمُ وكانَ فَضلُ اللهِ عليكَ عظيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] .

ويُحكى أنَّ جماعةً من النَّصارى تحدَّثوا بينهم، فقال قائلٌ منهم : ما أقلَّ عقولَ المسلمين ! يَزعُمُونَ أنَّ نبيَّهُم كانَ راعيَ الغَنَم، فكيفَ يصلُحُ راعي الغَنَمِ للنُّبوَّةِ ؟ فقال له آخَرُ مِن بينهم : أمَّا هم فواللَّهِ أعقَلُ منَّا، فإنَّ اللَّهَ بحكمَتهِ يَسترعي النَّبيَّ الحيوانَ البَهيمَ، فإذا أحسَنَ رعايَتَهُ والقيامَ عليه نَقَلَهُ منهُ إلى رعايَةِ الحيوان النَّاطقِ؛ حِكمةً من اللَّهِ وتَدريجًا لعبدِهِ، ولكنْ نحنُ جئنا إلى مولودٍ خَرَجَ من امرأةٍ يأكُلُ ويَشرَبُ ويبولُ وَيبكي، فقلنا : هذا إلهنا الذي خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ ! فأمسَكَ القومُ عنه .

فكيفَ يَحسُنُ بذي همَّةٍ قَد أزاحَ اللَّهُ عنهُ عِلَلَهُ،وعرَّفَهُ السَّعادَةَ والشقاوَةَ، أن يَرضى بأن يكونَ حيوانًا، وقَد أمكنهُ أن يَصيرَ إنسانًا، وبأنْ يكونَ إنسانًا وقَد أمكنهُ أن يصيرَ مَلَكًا في مَقعَدِ صِدقٍ عندَ مليكٍ مُقتَدِر، فتقومُ الملائكَةُ في خدمتهِ، وتَدخُلُ عليهم من كلِّ بابٍ : ﴿ سلامٌ عليكُم بما صَبَرْتُم فنِعمَ عُقبى الدَّار ﴾ [الرَّعد : ٢٤] ؟!

وهذا الكمالُ إنَّما يُنالُ بالعلمِ ورعايتِهِ، والقيامِ بمُوجِبِهِ، فعادَ الأمرُ إلى العلمِ وثمرتِهِ، واللَّهُ الموفِّق .

---

(١) رواه البخاري (رقم : ٣) ، ومسلم (رقم : ١٦٠) .

وأعظمُ النَّقص وأشدُّ الحسرَةِ نقصُ القادرِ على التَّمام، وحسرتُهُ على تفويتِهِ، كما قالَ بعضُ السَّلفِ : إذا كثُرَت طرقُ الخَيرِ كانَ الخارجُ منها أشدَّ حسرَةً .

وصَدَقَ القائلُ :

ولَم أرَ في عُيوبِ النَّاسِ عَيبًا كَنَقصِ القادرينَ على التَّمامِ

فَثَبَتَ أنَّهُ لا شيءَ أقبحُ بالإنسان من أن يكونَ غافلًا عن الفضائلِ الدِّينيَّةِ، والعلومِ النَّافعَةِ، والأعمالِ الصَّالحَةِ، فمَن كانَ كذلكَ فهو من الهَمَجِ الرَّعاع الذينَ يُكدِّرونَ الماءَ، ويُغْلُونَ الأسعارَ، إنْ عاشَ عاشَ غَيرَ حميدٍ، وإنْ ماتَ ماتَ غَيرَ فَقيدٍ، فَفَقْدُهُم راحَةٌ للبلادِ والعبادِ، ولا تبكي عليهم السَّماءُ، ولا تستَوحشُ لهم الغَبراءُ .

العلم دواء الأمراض القلبيّة

الوجهُ السَّابعُ والثمانون : أنَّ القَلبَ يعترضُهُ مَرضانِ يتواردانِ عليه، إذا استحكما فيه كانَ هلاكُهُ وموتُهُ، وهما **مرضُ الشهواتِ ومرضُ الشبهات**؛ هذان أصلُ داءِ الخَلقِ إلّا من عافاهُ اللَّهُ .

وَقَد ذكَرَ اللَّهُ تعالى هذين المرضين في كتابِهِ :

أمَّا مرضُ الشبهات - وهو أصعبُهُما وأقتلُهُما للقَلبِ - ففي قولِهِ تعالى في حقِّ المنافقين : ﴿ في قلوبهم مَرَضٌ فزادَهُم الله مَرَضًا ﴾ [البقرة : ١٠]، وقولِه : ﴿ وليقولَ الَّذينَ في قلوبهم مَرَضٌ والكافرونَ ماذا أرادَ الله بهذا مَثَلًا ﴾ [المُدَّثر : ٣١]، وقال تعالى : ﴿ لِيجعَلَ ما يُلْقي الشيطانُ فتنَةً للّذينَ في قُلوبهم مَرضٌ والقاسيَةِ قلوبُهم ﴾ [الحج : ٥٣] .

فهذه ثلاثةُ مواضعَ ؛ المرادُ بمرضِ القَلبِ فيها مرضُ الجَهلِ والشُّبهَةِ .

وأمَّا **مَرضُ الشهوَة** : ففي قولِه : ﴿ يا نِساءَ النَّبيِّ لَستُنَّ كأحدٍ من النِّساءِ إنِ اتَّقيتُنَّ فلا تخضَعنَ بالقولِ فيَطمَعَ الَّذي في قَلبهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب : ٣٢]، أي : لا تَلِنَّ في الكلامِ فيطمعَ الذي في قلبِهِ فُجورٌ وزناةٌ .

قالوا : والمرأةُ ينبغي لها إذا خاطَبَت الأجانبَ أن تُغلِظ كلامَها وتُقوِّيَهُ ، ولا تُليِّنَهُ وتكسِّرَهُ، فإنَّ ذلكَ أبعَدُ من الرِّيبَةِ والطَّمعِ فيها .

وللقَلبِ أمراضٌ أُخَرُ من الرِّياء والكِبْرِ والعُجْبِ والحَسَدِ والفَخرِ والخُيَلاءِ وحُبِّ الرِّياسَةِ والعُلُوِّ في الأرضِ .

وهذا المرضُ مُركَّبٌ من مرضِ الشُّبهَةِ والشَّهوَةِ؛ فإنَّهُ لا بدَّ فيهِ مِن تخيُّلٍ فاسدٍ، وإرادةٍ باطلةٍ، كالعُجْبِ والفَخرِ والخُيَلاءِ والكِبْرِ المُركَّبِ من تخيُّلِ عظمتهِ وفَضلهِ وإرادةِ تَعظيم الخَلْقِ له ومِدْحَتِهم .

فلا يخرجُ مرضهُ عن شهوةٍ ، أو شُبهَةٍ ، أو مُركَّبٍ منها .

وهذه الأمراضُ كلُّها مُتولِّدَةٌ عن الجَهلِ، **ودواؤها العلمُ**، كما قال النَّبيُّ ﷺ في حديثِ صاحبِ الشَّجَّةِ الذي أفتوهُ بالغُسلِ ؛ فماتَ : « قتلوهُ قتلَهم اللَّهُ ، أَلَا سألوا إذ لم يعلَموا ؟ إنَّما شفاءُ العِيِّ السُّؤالُ » (١) فجعَلَ العِيَّ – وهو

(١) أخرجه ابن ماجه (٥٧٢)، وأحمد (١ / ٣٨٠)، وابن خُزيمة (١ / ١٣٨)، وابن حبان (٢٠١) ، والدارقطني (١ / ١٩٠) ، وابن الجارود (١٢٨) ، وأبو يعلى (٤ / ٣٠٩)، والطبراني في « الكبير » (١١٤٧٢)، وأبو نُعيم (٣ / ٣١٧)، والبيهقيّ (١ / ٢٢٦) من طريق الأوزاعي عن عطاء، عن ابن عباس .

وهذا إسناد رجاله ثقاتٌ، لكنّه أُعِلّ :

فقد قال ابنُ أبي حاتم في « علل الحديث » (رقم ٧٧) :

« سألت أبي وأبا زُرعة عن حديثٍ رواه هِقل والوليد بن مُسلم وغيرهما عن الأوزاعي عن عطاء عن ابن عباس أنَّ رجلًا أصابته جراحةٌ فأجنب، فأُمر بالاغتسال، فاغتسَل، فَكُزَّ فمات ؟! =

عِيُّ القَلبِ عن العلمِ واللسانِ عن النُّطقِ به - مرضًا ،وشفاؤهُ سؤالُ العلماءِ .

= وذكرتُ لهما الحديث، فقالا :

روى هذا الحديثَ ابنُ أبي العشرين عن الأوزاعي، عن إسماعيل بن مسلم، عن عطاء ، عن ابن عباس، وأفسد الحديث » .

ونقل هذا الكلامَ وأَقرّه ابن عبدالهادي في « تنقيح التحقيق » (١ / ٥٨٣) .

قلت : يريدان أَنَّ إسماعيلَ هذا - وهو المكّي - ضعيفٌ .

وما أخرجه أحمد (١ / ٣٣٠)، وأبو داود (٣٣٧)، والدارمي (١ / ١٩٢)، وعبدالرزاق (٨٦٧)، والبيهقي (١ / ١٢٧)، والدارقطني (١ / ١٩١) يُشير إلى هذا؛ فقد أخرجوه من طريق الأوزاعي أنّه بلغه عن عطاء أنَّه سمع ابن عباس ... فذكره ...

ولكنْ هذا الكلام يوجد ما يُوضِحُهُ :

فقد رواه الحاكم (١ / ١٧٨) من طريق بِشر بن بَكر، حدَّثني الأوزاعي، حدّثنا عطاء بن أبي رباح، أنّه سمع ابن عباس .

وهذا إسنادٌ صحيحٌ، صحّحه الحاكم ووافقه الذهبي .

فإنْ قيل : تفرّد بالتصريح بالتحديث بِشرٌ هذا - وهو ابن بكر -، وقد قال فيه مسلمَة بن القاسم : « يروي عن الأوزاعي أشياء انفرد بها » !!

فالجوابُ : أنّه هنا قد حفظ بحمد اللّه، فقد تابَعه على إثبات سماع الأوزاعي من عطاء عبدُالحميد - وهو ابنُ أبي العشرين نفسُه - عند ابن عبدالبر في « جامع بيان العلم وفضله » (١ / ١٠٥) .

وإنْ كان في عبدالحميد هذا كلامٌ؛ لكنّه هنا مقبولُ الرواية لِمَا ذَكَرْتُ .

ولعلّه من أجل ذا - أو غيره - جزم ابنُ معين بسماعه منه؛ كما في « تاريخه » (٢/٥٤-٢ رواية الدوري) - وهذا مما فات العلائيَّ في « جامع التحصيل » (ص ٣٠٩) ! - .

فالذي يظهرُ لي - واللّه أعلم - أنَّ الأوزاعيَّ سمعه منهما معًا - فهو مُتّسع الرواية - ؛ فكان يُثبت هذا مرّةً، وذاك أخرى .

وليس هذا بمستنكر من مثلِه .

وقد تُوبع الأوزاعيّ : =

فأمراضُ القلوبِ أصعَبُ من أمراضِ الأبدانِ؛ لأنَّ غايَةَ مرَضِ البَدنِ أن يُفضي بصاحبِهِ إلى الموت، وأمَّا مَرضُ القَلبِ فَيُفضي بصاحبِهِ إلى الشقاءِ الأبديِّ، **ولا شفاءَ لهذا المرضِ إلّا بالعلمِ**، ولهذا سمَّى اللَّهُ تعالى كتابَهُ شفاءً لأمراضِ الصُّدور، وقال تعالى: ﴿ يا أيُّها النَّاسُ قَد جاءَتكُم مَوعظَةٌ من رَبِّكُم وشفاءٌ لما في الصُّدور وهُدىً ورحمَةٌ للمؤمنين ﴾ [يونس : ٥٧] .

ولهذا السَّبَبِ نسبةُ العلماء إلى القلوبِ كنسبَةِ الأطبَّاءِ إلى الأبدانِ، وما

= فرواه الوليد بن عُبيد اللَّه عن عطاء - وهو عمُّه - سماعًا؛ عن ابن عباس :

رواه ابن خزيمة (٢٧٣)، والحاكم (١/١٦٥)، وابن الجارود (١٢٨)، وابن حبان (١٣١٤) عنه .

والوليد هذا ترجم له ابنُ أبي حاتم في « الجرح والتعديل » (٩/٩) ونقل توثيقه عن يحيى ابن مَعين .

ولكنْ نقل الذهبيُّ في « الميزان » (٤ / ٣٤١) تضعيفَ الدارقطني له .

قلتُ : وهو نصُّ كلامه - رحمه اللَّه - في « السنن » (٣ / ٧٢) .

فروايتُه - أعني الوليد - صالحةٌ في الشواهد كما لا يخفى .

فمن لم يقنع بحديث ابن عباس وحدَه، فليضمَّ إليه رواية الوليد هذه، فتزيدُه - إن شاء اللَّه - ثباتًا وثُبوتًا .

وقد خالفَ الأوزاعيَّ في روايته الزُّبيرُ بن خُريق - بالخاء المعجمة آخره قاف مُصغَّرًا - :

فرواه أبو داود (٣٣٦)، والدارقطني (١ / ١٨٩)، والبيهقي (١ / ٢٢٧)، والبغوي (٢ / ١٢٠)، من طريق الزبير، عن عطاء، عن جابر :

فجعله من مُسند جابر .

وقد قال الدارقطني في الزبير هذا : « ليس بالقويّ » !

فروايته مرجوحةٌ .

فالعُمدةُ - إذن - حديثُ ابن عباس بطريقَيْهِ عن عطاء .

وهناك شاهدان - أيضًا - للحديث ، لكنهما واهيان ، فلا نذكرُهُما .

يقالُ للعلماءِ : أطبَّاءُ القلوبِ؛ فهو لِقَدرِ ما جامعٍ بينهما ، وإلّا فالأمرُ أعظمُ من ذلك؛ فإنَّ كثيرًا من الأُمَمِ يَستغنونَ عن الأطبَّاءِ، ولا يوجَدُ الأطبَّاءُ إلّا في اليَسيرِ من البلادِ ، وَقَد يَعيشُ الرَّجلُ عُمُرَهُ أو بُرهَةً منه لا يحتاجُ إلى طبيبٍ .

وأمَّا العُلماءُ باللَّهِ وأمرِهِ فهم حياةُ الوجودِ وروحُه، ولا يُستَغنى عنهُم طرفَةَ عَينٍ، فحاجةُ القلبِ إلى العلمِ ليسَت كالحاجَةِ إلى التنفُّسِ في الهواءِ، بل أعظَمُ .

وبالجُملَةِ؛ فالعلمُ للقَلبِ مثلُ الماءِ للسَّمكِ؛ إذا فَقَدَهُ ماتَ، فنسبَةُ العلمِ إلى القَلبِ كنسبَةِ ضوءِ العَينِ إليها، وكنسبَةِ سمعِ الأُذنِ كلامَ اللِّسان إليهِ، فإذا عَدِمَهُ كانَ كالعَينِ العَمياءِ، والأُذنِ الصمَّاءِ، واللسانِ الأخرَسِ .

ولهذا يصِفُ سبحانهُ أهلَ الجَهلِ بالعَمى والصَّمَم والبَكَمِ، وذلكَ صفَةُ قلوبهم حيثُ فَقَدَت العلمَ النَّافعَ، فَبقيَت على عَماها وصمَمِها وبَكَمِها، قال تعالى : ﴿ ومَن كانَ في هذهِ أعمى فهو في الآخِرَةِ أعمى وأضلُّ سبيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٢]، والمرادُ : عمى القَلبِ في الدُّنيا، وقال تعالى : ﴿ ونَحشُرُهُم يومَ القيامَةِ على وجوهِهِم عُميًا وبُكمًا وصُمًّا مأواهُم جهنَّمُ ﴾ [الإسراء : ٩٧]، لأنَّهُم هكذا كانوا في الدُّنيا، والعَبدُ يُبعَثُ على ما ماتَ عليهِ .

واختُلفَ في هذا العَمى في الآخرَةِ :

فقيلَ : هو عمى البَصيرَةِ، بدليلِ إخبارهِ تعالى عن رؤيَةِ الكفَّار ما في القيامَةِ ورؤيَةِ الملائكَةِ ورؤيةِ النَّارِ .

وقيلَ : هو عمى البَصَر، ورُجِّحَ هذا بأنَّ الإطلاقَ ينصرفُ إليهِ، وبقوله : ﴿ قالَ ربِّ لِمَ حَشَرْتَني أعمى وَقَد كُنتُ بَصيرًا ﴾ [طه : ١٢٥]، وهذا عمى العَينِ ، فإنَّ الكافرَ لم يكُن بَصيرًا بحجَّتِهِ .

وأجابَ هؤلاءِ عن رؤيَةِ الكفَّارِ في القيامَةِ بأنَّ اللَّهَ يُخرجهم من قبورهم إلى موقفِ القيامَةِ بُصراءَ، ويُحشَرونَ من الموقفِ إلى النَّارِ عُميًا، قالهُ الفرَّاء [١] وغيرهُ .

العلم ... يل النّجاة

الوجهُ الثَّامنُ والثمانون : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ بحكمَتهِ سلَّطَ على العَبدِ عَدُوًّا عالمًا بطرقِ هلاكهِ وأسبابِ الشرِّ الذي يُلقيهِ فيه مُتفنِّنًا فيها، خَبيرًا بها، حَريصًا عليها، لا يفتُرُ عنه يقظَةً ولا منامًا، ولا بدَّ لهُ من واحدةٍ من ستٍّ ينالُها منه :

إِحداها - وهي غايةُ مرادهِ منه - : أن يَحُولَ بينه وبينَ العلمِ والإيمانِ، فيُلقيَهُ في الكُفرِ؛ فإذا ظَفِرَ بذلكَ فرغَ منه واستراحَ .

فإنْ فاتَتْهُ هذه وهُديَ للإسلامِ حَرِصَ على تلوِ الكفرِ، وهي البِدعَةُ - وهي أحبُّ إليهِ من المعصيَةِ ؛ فإنَّ المَعصيَةَ يُتابُ [٢] منها والبدعَةُ لا يُتابُ منها - ؛ لأنَّ صاحبَها يرى أنَّهُ على هُدىً .

وفي بَعضِ الآثارِ: يقولُ إبليسُ : أهلكتُ بني آدمَ بالذُّنوبِ، وأهلكوني بالاستغفار وبلا إلهَ إلّا اللَّه، فلمَّا رأيتُ ذلكَ بثَثْتُ فيهم الأهواءَ فهم يُذنبونَ ولا يتوبونَ، لأنَّهم يَحسَبُونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنعًا .

فإذا ظَفِرَ منه بهذهِ صيَّرهُ من رُعاتهِ وأُمرائهِ .

فإنْ أعجَزَتْهُ ألقاهُ في الثالثة؛ وهي الكبائرُ .

فإنْ أعجَزَته ألقاه في اللَّمَمِ؛ وهي الرابعة، وهي الصغائر .

---

(١) انظر « معاني القرآن » (٢ / ١٩٤) له .

(٢) يُروى مثلُ هذا الكلام عن بعض السَّلف، انظر كتابي « الكشف الصريح » (رقم : ٦١)

فإنْ أعجزَتْهُ شغَلَهُ بالعَملِ المفضولِ عمَّا هو أفضلُ منه لِيُرْتِجَ[١] عليه الذي بينهما؛ وهي الخامسةُ .

فإنْ أعجزَهُ ذلكَ صارَ إلى السَّادسَة؛ وهي تَسليطُ حزبهِ عليه يُؤذونهُ ويشتِمونهُ ويبهتونهُ ويرمونهُ بالعظائمِ؛ ليحزنَهُ ويشغَلَ قلبهُ عن العلمِ والإرادَةِ وسائرِ أعمالهِ .

فكيفَ يُمكنُ أن يحترزَ منه مَن لا علمَ له بهذه الأُمور ولا بعدوِّهِ ولا بما يُحصِّنُهُ منهُ ؟ فإنَّهُ لا يَنجو من عَدوِّهِ إلّا مَن عَرَفَ طريقَه التي يأتيهِ منها وجيشَه الذي يستعينُ به عليهِ ، وعَرَفَ مداخلَهُ ومخارجَهُ، وكيفيَّةَ محاربتهِ، وبأيِّ شيءٍ يحاربهُ، وبماذا يُداوي جراحَتهُ، وبأيِّ شيءٍ يستمدُّ القوَّةَ لقتالهِ ودفعهِ ؟!

وهذا كلُّهُ لا يَحصُلُ إلّا بالعلمِ ، فالجاهلُ في غفلةٍ وعمىً عن هذا الأمرِ العَظيمِ والخَطْبِ الجسيمِ .

ولهذا جاءَ ذِكْرُ هذا العدُوِّ وشأنِهِ وجُنودِهِ ومكايدِهِ في القرآنِ كثيرًا جدًّا؛ لحاجَةِ النُّفوسِ إلى معرفَةِ عدوِّها، وطرقِ محاربتِهِ ومجاهدتِهِ، فلولا أنَّ العلمَ يكشفُ عن هذا لَما نجا مَن نجا منه، **فالعلمُ وثَمَرتُه هو الذي تحصُلُ به النَّجاةُ .**

العِلْم ضدّ الغفلة

الوجهُ التَّاسعُ والثمانون : أنَّ أعظمَ الأسبابِ التي يُحرَمُ بها العبدُ خَيرَ الدُّنيا والآخرَةِ ولذَّةَ النَّعيمِ في الدَّارين ويدخُلُ عليهِ عدوُّهُ منها هي الغفلَةُ المُضادَّةُ للعملِ، والكسلُ المُضادُّ للإرادَةِ والعزيمَةِ، هذانِ أصلُ بلاءِ العَبدِ وحرمانهِ منازلَ السُّعَداء، وهما من عَدمِ العلمِ .

أمَّا الغفلةُ فَمُضادَّةٌ للعلمِ مُنافيةٌ له ؛ وقد ذمَّ سبحانهُ أهلَها، ونهى عن الكَونِ منهم ، وعَن طاعتهم ، والقَبُولِ منهم ، قال تعالى :﴿ ولا تَكُن من

---

(١) لِيُغلِق .

الغافلين ﴾ [الأعراف : ٢٠٥]، وقال تعالى : ﴿ ولا تُطِعْ مَنْ أغفَلْنا قلبَهُ عن ذِكْرِنا ﴾ [الكهف : ٢٨]، وقال تعالى : ﴿ ولقَد ذَرأْنا لِجَهنَّمَ كثيرًا من الجنِّ والإنْسِ لهُم قلوبٌ لا يفقَهونَ بها ولهم أعيُنٌ لا يُبصِرونَ بها ولهم آذانٌ لا يَسمعونَ بها أُولئكَ كالأنعامِ بل هُم أضلُّ أُولئكَ هم الغافلون ﴾ [الأعراف : ١٧٩] .

وقال النَّبيُّ ﷺ في وصيَّتِهِ لنساءِ المؤمنين : « لا تَغْفَلْنَ فتَنسَيْنَ الرَّحمَة »[(١)] .

وسُئلَ بعضُ العلماء عَن عِشقِ الصُّوَر ؟ فقال : قلوبٌ غفلَت عن ذكرِ اللَّهِ، فابتلاها بِعُبوديَّةِ غيرِهِ .

فالقَلبُ الغافلُ مأوى الشيطانِ؛ فإنَّه وسواسٌ خنَّاسٌ، وقد التَقَمَ قلبَ الغافلِ يقرأُ عليهِ أنواعَ الوساوسِ والخيالاتِ الباطلةِ، فإذا تذكَّرَ وذكرَ اللَّهَ انجمعَ، وانضمَّ، وخَنَسَ، وتضاءَلَ لذكرِ اللَّهِ، فهو دائمًا بينَ الوَسوَسةِ والخَنْسِ .

وقال عُروَةُ بن رُويمٍ : إنَّ المسيحَ عليه السَّلام سألَ ربَّهُ أن يُريَهُ موضِعَ الشيطانِ من ابنِ آدمَ [ذلك]؛ فجلَّى له فإذا رأسُهُ رأسُ الحيَّةِ، واضعٌ رأسَهُ على ثمرَةِ القلبِ، فإذا ذكرَ العبدُ ربَّهُ خَنَسَ ، وإذا لم يذكر وضعَ رأسَهُ على ثمرَةِ قلبِهِ؛ فمنّاه وحدّثه [(٢)].

---

(١) رواه أبو داود (١٥٠١) وأحمد (٦ / ٣٧٠) عن يُسَيْرة، وهو حديثٌ حَسنٌ .
وانظر تمامَ الكلام عليه في كتابي « إحكام المباني » (ص ٨٧) .

(٢) رواه أبو نُعَيم في « الحلية » (٦ / ١٢٣) ، وهو أثَرٌ إسرائيليٌّ !
وعزاه السيوطي في « الدر المنثور » (٨ / ٦٩٤) لسعيد بن منصور وابن أبي الدنيا وابن المنذر .

وقد رُوي في هذا المعنى حديثٌ مرفوعٌ [١]؛ فهو دائمًا يترقَّبُ غفلةَ العبيد، فَيَبذُر في قلبه بَذرَ الأماني والشهواتِ والخيالاتِ الباطلَةِ، فيُثمرُ كلَّ حنظَلٍ وكلَّ شوكٍ وكلَّ بلاءٍ، ولا يزالُ يُمِدُّهُ بسَقيِهِ حتى يُغطِّيَ القَلبَ ويُعميَه .

وأمَّا الكَسَلُ، فيتولَّدُ عنه الإضاعةُ، والتَّفريطُ، والحِرمانُ، وأشدُّ النَّدامَةِ، وهو مُنافٍ للإرادَةِ والعَزيمَةِ التي هي ثمرَةُ العلمِ؛ فإنَّ مَن علمَ أنَّ كمالَهُ ونعيمَهُ في شيءٍ، طَلَبَهُ بجهدهِ، وعَزَمَ عليهِ بقلبهِ كلِّهِ، فإنَّ كلَّ أحدٍ يسعى في تكميلِ نفسهِ ولذَّتهِ، ولكنَّ أكثرَهُم أخطأَ الطَّريقَ لعَدمِ علمهِ بما يَنبَغي أن يطلبَهُ، فالإرادَةُ مسبوقَةٌ بالعلمِ والتَّصوُّرِ، فتخلُّفُها في الغالبِ إنَّما يكونُ لتخلُّفِ العلمِ والإدراكِ، وإلّا فمعَ العلمِ التَّامِّ بأنَّ سعادَةَ العَبدِ في هذا المطلبِ ونجاتَه وفوزَه كيفَ يلحقُهُ كَسلٌ في النُّهوضِ إليهِ ؟!

ولهذا استعاذَ النَّبيّ ﷺ من الكسَل، ففي « الصَّحيح » [٢] عنه أنَّه كانَ يقولُ : « اللهمَّ إنِّي أعوذُ بكَ من الهَمِّ والحَزَن، والعَجزِ والكَسَل، والجُبْنِ والبُخلِ، وضِلَعِ الدَّينِ، وغَلَبةِ الرِّجال »؛ فاستعاذَ من ثمانيةِ أشياء، كلُّ شيئينِ

---

(١) رواه أبو يعلى (٤٣٠١) وأبو نُعيم (٦ / ٢٦٨) والبيهقي في « شُعب الإيمان » (١ / ٢٣٦) عن أنس .

وسنده ضعيفٌ « فيه عديّ بن أبي عمَّار، وهو ضعيفٌ »، كما قال الهيثمي في « المجمع » (٧ / ١٤٩) .

وفيه - أيضًا - زياد النُّميري؛ وهو ضعيفٌ .

وقال ابنُ كثير في « تفسيره » (٧ / ٤٢٢) : « غريب » .

وضعَّفه الحافظ في « الفتح » (٨ / ٧٤٢) .

وانظر « المطالب العالية » (٢٤٢/٣) والتعليق عليه .

(٢) رواه البخاري (٦٣٦٣) ومسلم (٢٧٠٦) - بنحوِه - عن أنس .

منها قرينان؛ فالهمُّ والحَزَنُ قرينان؛ والفرقُ بينهما أنَّ المكروهَ الواردَ على القلبِ إمَّا أن يكونَ على ما مَضى أو لِمَا يُستقبل: فالأوَّل هو الحَزَنُ، والثَّاني الهمُّ.

وإنْ شئتَ قلتَ: الحَزَنُ على المكروه الذي فاتَ ولا يُتوقَّعُ دفعُهُ، والهمُّ على المكروهِ المُنْتَظَرِ الذي يُتوقَّعُ دفعُهُ وتأمُّلُهُ، والعجزُ والكسلُ قرينان؛ فإنَّ تخلُّفَ مصلحَةِ العَبدِ وكمالِهِ ولذَّتهِ وسرورِهِ عنهُ إمَّا أن يكونَ مصدرُهُ عدمَ القدرَةِ - فهو العجزُ - ، أو يكونَ قادرًا عليهِ لكنْ تخلَّفَ لعَدمِ إرادتِهِ - فهو الكسَلُ - ، وصاحبُهُ يُلامُ عليه ما لا يُلامُ على العجزِ.

وقَد يكونُ العجزُ ثمرَةَ الكسَلِ،فيُلامُ عليهِ أيضًا؛ فكثيرًا ما يكسلُ المرءُ عن الشيءِ الذي هو قادرٌ عليهِ، وتضعُفُ عنه إرادتُهُ، فَيُفضي به إلى العجزِ عنه.

وهذا هو العجزُ الذي يلومُ اللّهُ عليه في قولِ النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ اللّهَ يلومُ على العجزِ»[1]، وإلّا فالعجزُ الذي لم تُخلَقْ له قُدرَةٌ على دفعِهِ ولا يدخُلُ مَعجوزُهُ تحتَ القدرَةِ لا يُلامُ عليه.

قال بعضُ الحُكماء في وصيَّتهِ: إيَّاكَ والكسَلَ والضَّجَرَ؛ فإنَّ الكسَلَ لا ينهضُ لمكرَمَةٍ، والضَّجَرُ إذا نَهَضَ إليها لا يَصبرُ عليها.

والضَّجَرُ مُتولِّدٌ عن الكسَلِ والعجزِ؛ فلم يُفرِدهُ في الحديثِ بلفظٍ.

ثمَّ ذكرَ الجُبنَ والبخلَ؛ فإنَّ الإحسانَ المُتوقَّعَ من العَبدِ؛ إمَّا بمالِهِ وإمَّا

---

(١) رواه أبو داود (٣٦١٠) وأحمد (٦ / ٢٤) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٢٦) وابن السني (٣٤٩) والطبراني في «الكبير» (١٧ / ٤٥ و ٦٣) وفي «مسند الشاميين» (١١٨٢) عن عوف بن مالك.

وفي إسناده سيفٌ الشامي، مجهولٌ، لم يرو عنه إلّا واحد.

ومع ذلك وثّقه ابن حبان والعجلي !!

بيدنِهِ، فالبَخيلُ مانعٌ لنفعِ مالِهِ، والجبانُ مانعٌ لنفعِ بَدنِهِ .

والمشهورُ عندَ النَّاسِ أنَّ البخلَ مستلزمٌ الجُبنَ من غيرِ عَكسٍ، لأنَّ مَن بخلَ بمالِهِ فهو بنفسِهِ أبخلُ، والشجاعَةُ تستلزمُ الكَرَم من غيرِ عكسٍ، لأنَّ مَنْ جادَ بنفسِهِ فهو بمالِهِ أسمحُ وأجوَدُ ، وهذا الذي قالوهُ ليسَ بلازمٍ أكثَرُهُ؛ فإنَّ الشجاعَةَ والكرَمَ وأضدادَها أخلاقٌ وغرائزُ قد تُجمعُ في الرَّجُلِ، وقد يعطى بعضَها دونَ بَعضٍ، وقَد شاهَدَ النَّاسُ من أهلِ الإقدامِ والشجاعَةِ والبأسِ مَنْ هو أبخَلُ النَّاس، وهذا كثيرًا ما يُوجَدُ في أُمَّةِ التركِ ؛ يكونُ أشجعَ من ليثٍ وأبخَلَ من كلبٍ !

فالرَجلُ قَد يسمحُ بنفسهِ ويَضَنُّ بمالِهِ، ولهذا يُقاتلُ عليهِ حتى يُقتلَ، فيبدأُ بنفسِهِ دونَهُ، فَمِنَ النَّاس مَنْ يسمحُ بنفسِهِ ومالِهِ، ومنهم من يبخلُ بنفسِهِ، ومنهم من يسمح بمالِهِ ويبخلُ بنفسِهِ، وعكسُهُ .

والأقسامُ الأربعَةُ موجودَةٌ في النَّاسِ .

ثمَّ ذكرَ ضِلَعَ الدَّين وغَلَبَةَ الرِّجالِ؛ فإنَّ القَهرَ الذي ينالُ العَبدَ نوعان :

أحدهما : قَهرٌ بحقٍّ؛وهو ضِلَعُ الدَّين .

والثَّاني : قهرٌ بباطلٍ؛ وهو غلبةُ الرِّجالِ .

فصلواتُ اللّهِ وسلامُهُ على من أُوتيَ جوامعَ الكلمِ، واقتُبِسَت كنوزُ العلمِ والحكمَةِ من ألفاظهِ .

والمقصودُ أنَّ الغفلَةَ والكسَلَ - اللذينِ هما أصلُ الحِرمانِ - سببُهُما عدَمُ العلمِ ؛ فعادَ النَّقصُ كلُّهُ إلى عَدمِ العلمِ والعَزيمَةِ، والكمالُ كلُّهُ إلى العلمِ والعَزيمَةِ .

والنَّاسُ في هذا على أربعَةُ أضرُبٍ :

الضَّربُ الأوَّل : من رُزِقَ علمًا وأُعِينَ على ذلكَ بقوَّةِ العَزيمَة على العَمل به؛ وهذا الضَّربُ هم خُلاصَةُ الخَلقِ، وهم الموصوفونَ في القرآنِ بقولِه : ﴿ الَّذينَ آمَنوا وعَملوا الصَّالحات ﴾ [العصر : ٣]، وقولِه : ﴿ أُولي الأيدي والأبصار ﴾ [ص : ٤٥]، وبقولِه : ﴿ أفَمَن كانَ مَيْتًا فأحيَيناهُ وَجَعَلنا له نورًا يمشي به في النَّاسِ كمَن مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ ليسَ بخارجٍ منها ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

فبالحياةِ تُنالُ العَزيمةُ، وبالنُّورِ يُنالُ العلمُ .

وأئمَّةُ هذا الضَّربِ هم أولو العَزمِ من الرُّسُل .

والضَربُ الثَّاني : مَنْ حُرِمَ هذا وهذا، وهم الموصوفونَ بقولِهِ: ﴿ إنَّ شرَّ الدَّوابِّ عندَ اللهِ الصمُّ البُكمُ الَّذينَ لا يعقلون ﴾ [الأنفال : ٢٢]، وبقوله : ﴿ أم تحسبُ أنَّ أكثرهم يَسمعونَ أو يَعقلونَ إنْ هم إلّا كالأنعامِ بل هم أضلُّ سبيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٤]، وبقوله : ﴿ فإنَّكَ لا تُسمِعُ المَوتى ولا تُسمِعُ الصُّمَّ الدُّعاء ﴾ [الروم : ٥٢]، وقولِه : ﴿ وما أنتَ بمسمعٍ مَن في القبور ﴾ [الفرقان : ٤٤] .

وهذا الضَّربُ شرُّ البريَّة ، يُضيِّقونَ الدِّيارَ، ويُغلونَ الأسعارَ، وعندَ أنفسهم أنَّهُم يعلمونَ ، ولكنْ ظاهرًا من الحياةِ الدُّنيا وهم عن الآخرَةِ هم غافلون، ويعلمونَ ، ولكنْ ما يضرُّهُم ولا يَنفعُهُم، وينطقونَ ، ولكنْ عن الهَوى ، ينطقونَ ويتكلَّمونَ ، ولكنْ بالجهلِ ، ويتكلَّمونَ ويؤمنون ، ولكنْ بالجبتِ والطَّاغوتِ، وَيَعبُدونَ ، ولكنْ يَعبدونَ من دون اللَّه ما لا يضرُّهم ولا ينفعهم، ويُجادلون،

ولكنْ بالباطل ليُدحضوا به الحقَّ، ويُبيّتونَ ، ولكنْ ما لا يَرضى من القولِ، يُبيّنونَ ويَدعونَ ، ولكنْ مع اللّهِ إلهًا آخَر، يَدعونَ ويذكُرونَ ، ولكنْ إذا ذُكِّروا لا يَذكُرون، ويصلُّونَ ، ولكنَّهُم من المصلِّين الذينَ هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤونَ ويمنعونَ الماعون، ويحكمونَ ، ولكنْ حُكمَ الجاهليَّةِ يبغونَ، ويكتبونَ ، ولكنْ يكتبونَ الكتابَ بأيديهم ثمَّ يقولونَ : هذا من عند اللَّهِ، ليَشتروا به ثمنًا قليلًا فويلٌ لهم ممَّا كتَبَت أيديهم وويلٌ لهم ممَّا يكسبونَ، ويقولونَ : إنَّما نحنُ مصلحون ! أَلَا إنَّهُم هم المفسدونَ ، وإذا قيلَ لهم : آمنوا كما آمنَ النَّاسُ ، قالوا : أنؤمن كما آمن السُّفهاء ؟! أَلَا إنَّهم هم السُّفهاء ولكنْ لا يشعرون(١).

فهذا الضَّربُ ناسٌ بالصُّورَةِ وشياطينُ بالحَقيقةِ، وجلُّهُم - إذا فكَّرتَ - فهم حميرٌ أو كلابٌ أو ذئابٌ !

وصَدَقَ البُحتُريُّ في قولِه :

لَم يَبقَ مِن جُلِّ هذا النَّاسِ باقيَةٌ ... ينالُها الوَهمُ إلّا هذهِ الصُّوَرُ

وقال آخَر :

لا تَخدَعنَّكَ اللحى والصُّوَر ... تسعةُ أعشارِ مَن تَرى بَقَر

في شجَرِ السَّروِ منهم مثلٌ ... لها رَواءٌ وما لها ثمر

وأحسنُ من هذا كلِّهِ قولُه تعالى : ﴿ **وإذا رأيتَهُم تُعجِبْكَ أجسامهُم وإنْ يقولوا تسمعْ لقولهم** كأنَّهُم خُشُبٌ مسنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون : ٤] .

عالِمُهم كما قيلَ فيه :

زواملُ للأسفارِ لا علمَ عندهم ... بجيِّدها إلّا كعلمِ الأباعرِ

لَعَمرُكَ ما يَدري البَعيرُ إذا غَدا ... بأوساقِهِ أو راحَ ما في الغرائرِ

(١) وكلامُ المصنِّف هذا مُضَمَّنٌ عدَّةَ آياتٍ معروفةٍ .

وأحسَنُ من هذا وأبلغُ وأوجَزُ قولُه تعالى : ﴿ ... كَمَثَلِ الحمارِ يَحمِلُ أسفارًا بئسَ مثلُ القَومِ الَّذينَ كذَّبوا بآياتِ اللهِ واللهُ لا يَهدي القومَ الظَّالمين ﴾ [الجمعة : ٥] .

الضَّربُ الثَّالث : مَن فُتحَ له بابُ العلمِ وأُغلِقَ عنه بابُ العَزمِ والعملِ، فهذا في رتبةِ الجاهلِ أو شرٌّ منه، وفي الحديث المرفوع : « أشدُّ النَّاسِ عذابًا يومَ القيامَةِ عالمٌ لم ينفعهُ اللَّهُ بعلمه » ثبَّتَهُ أبو نُعيم[1] وغيرُهُ .

فهذا جهلُهُ كانَ خيرًا له وأخفَّ لعذابِهِ من علمِهِ ، فما زادَهُ العلمُ إلّا وَبالًا وعذابًا .

وهذا لا مطمعَ في صلاحِهِ، فإنَّ التَّائهَ عن الطَّريقِ يُرجى له العَودُ إليها إذا أبصَرَها ، فإذا عَرَفها وحادَ عنها عمدًا فمتى تُرجى هدايتهُ ؟ قال تعالى : ﴿ كيفَ يَهدي اللهُ قومًا كَفَروا بعدَ إيمانِهم وشهِدوا أنَّ الرَّسولَ حقٌّ وجاءَهُم البيِّناتُ واللهُ لا يَهدي القومَ الظَّالمين ﴾ [آل عمران : ٨٦] .

الضَّربُ الرَّابع : مَن رُزِقَ حظًّا من العَزيمَةِ والإرادَةِ ولكنْ قلَّ نَصيبُهُ من العلمِ والمعرفَةِ ، فهذا إذا وُفِّق له الاقتداءُ بداعٍ من **دُعاةِ اللَّهِ ورسولِهِ** كان من الذينَ قال اللَّهُ فيهم : ﴿ ومَن يُطعِ اللهَ والرَّسولَ فأولئكَ مع الَّذينَ أنعَمَ اللهُ

---

(١) لم أرَ هذا التثبيت في مُصنّفات أبي نُعيم المطبوعة ، وسيُكَرِّرُه المصنِّفُ - بَعْدُ - !

وأخرجَ الحديث ابن عدي في « الكامل » (٥ / ١٨٠٧) والطبراني في « الصغير » (١ / ١٨٣) وابن عبد البر في « الجامع » (١ / ١٦٢) والآجري في « أخلاق العلماء » (ص ١٠١) والبيهقي في « شُعب الإيمان » (١٦٤٢) وابن عساكر في « ذمّ من لا يعملُ بعلمِه » (٥ - ٧) عن أبي هريرة .

وضعَّفه الهيثمي في « المجمع » (١ / ١٨٥) والعراقي في « تخريج الإحياء » (١ / ٣) .

قلتُ : وهو ضعيفٌ جدًّا ؛ لحالِ عُثمان بن مِقْسَم البُرّيّ .

عليهم من النَّبيِّـينَ والصِّدِّيقينَ والشهداءِ والصَّالحين وحَسُنَ أُولئكَ رفيقًا ذلكَ الفَضلُ من اللَّهِ وكفى باللَّهِ عليمًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

رَزَقَنا اللَّهُ من فَضلِهِ، ولا حرَمَنا بسوءِ أعمالنا ، إنَّهُ غفورٌ رحيمٌ .

صفات المد
من ثمرات ا

الوجهُ التِّسعون : أنَّ كلَّ صفَةٍ مَدَحَ اللَّهُ بها العبدَ في القرآنِ فهيَ ثمرَةُ العلمِ ونتيجَتُهُ، وكلَّ ذمٍّ ذمَّهُ فهو ثمرَةُ الجَهلِ ونتيجَتُهُ، فمدَحَهُ بالإيمانِ وهو رأسُ العلمِ وَلُبُّهُ، ومدَحَهُ بالعَمَلِ الصَّالحِ الذي هو ثمرَةُ العلمِ النَّافعِ، ومدحَهُ بالشكرِ، والصَّبرِ، والمُسارَعةِ في الخَيراتِ، والحُبِّ له، والخوفِ منه، والرَّجاءِ والإنابَةِ، والحلمِ والوقارِ، واللُّبِّ والعَقلِ، والعِفَّةِ والكرَمِ، والإيثارِ على النَّفسِ، والنَّصيحَةِ لعبادهِ، والرَّحمَةِ بهم، والرَّأفَةِ، وخَفضِ الجناحِ والعَفوِ عن مُسيئهم، والصَّفحِ عن جانِيهم، وبذلِ الإحسانِ لكافَّتهم، ودفعِ السَّيِّئةِ بالحَسَنَةِ، والأمرِ بالمَعروفِ والنَّهيِ عن المُنكرِ، والصَّبرِ في مواطنِ الصَّبرِ، والرِّضا بالقضاءِ، **واللِّينِ للأولياءِ، والشدَّةِ على الأعداءِ**، والصِّدقِ في الوَعدِ، والوَفاءِ بالعَهدِ، والإعراضِ عن الجاهلينَ، والقَبولِ من النَّاصحينَ، واليَقينِ والتَّوكُّلِ، والطُّمأنينةِ والسَّكينَةِ، والتَّواصُلِ والتَّعاطُفِ، والعَدلِ في الأقوالِ والأفعالِ والأخلاقِ، والقُوَّةِ في أمرهِ، والبَصيرةِ في دينهِ، والقيامِ بأداءِ حقِّهِ، واستخراجهِ من المانعينَ لهُ، والدَّعوَةِ إليهِ وإلى مرضاتهِ وجنَّتهِ، **والتَّحذيرِ عن سُبُلِ أهلِ الضَّلالِ**، وتَبيينِ طُرقِ الغَيِّ وحالِ سالكيها، والتَّواصي بالحقِّ والتَّواصي بالصَّبرِ، والحضِّ على طعامِ المسكينِ، وبرِّ الوالدين، وصِلَةِ الأرحامِ، وبذلِ السَّلامِ لكافَّةِ المؤمنين ...

... إلى سائرِ الأخلاقِ المحمودةِ والأفعالِ المرضيَةِ التي أقسمَ اللَّهُ سبحانهُ على عِظَمها، فقال تعالى : ﴿ ن . والقَلمِ وما يَسطُرونَ ما أنتَ

بِنِعمَةِ ربِّكَ بِمَجنونٍ وإنَّ لكَ لأجرًا غَيرَ ممنونٍ وإنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظيمٍ ﴾ [القلم : ١ - ٤] .

وقالت عائشَةُ رضيَ اللَّهُ عنها وقد سُئِلَت عن خُلُقِ الرَّسول ﷺ ؟ فقالت : كانَ خُلُقُهُ القرآنَ[١]، فاكتفى السَّائلُ بذلكَ ، وقال : فهممتُ أن أقومَ ولا أسألَ عن شيءٍ بعدها .

فهذه الأخلاقُ ونحوُها هي ثمرَةُ شجرَةِ العلمِ .

أمَّا شجرَةُ الجهلِ فتُثمِرُ كلَّ ثمرَةٍ قبيحَةٍ من الكفرِ والفسادِ والشركِ والظُّلمِ والبَغيِ والعُدوانِ والجزَعِ والهَلَعِ والكُنودِ والعَجَلَةِ والطَّيشِ والحدَّةِ والفُحشِ والبَذاءِ والشحِّ والبُخلِ .

ولهذا قيلَ في حدِّ البخلِ : جهلٌ مقرونٌ بسوءِ الظَّنِّ، ومن ثمرتهِ الغِشُّ للخَلْقِ، والكِبْرُ عليهم، والفخرُ والخُيَلاءُ، والعُجبُ والرِّياءُ، والسُّمعَةُ والنِّفاقُ، والكذبُ وإخلافُ الوعدِ، والغِلظةُ على النَّاسِ والانتقامُ ، ومقابلَةُ الحَسَنةِ بالسَّيِّئَةِ ، والأمرُ بالمُنكرِ والنَّهيُ عنِ المعروفِ ، وتركُ القَبُولِ من النَّاصحينَ ، وحبُّ غيرِ اللَّهِ ورجاؤهُ، والتَّوكُّلُ عليه وإيثارُ رضاهُ على رضا اللَّهِ، وتَقديمُ أمرهِ على أمرِ اللَّهِ، والتَّماوُتُ عند حقِّ اللَّهِ والوثوقُ بما عندَ حقِّ نفسهِ ، والغَضَبُ لها والانتصارُ لها؛ فإذا انتُهِكَت حقوقُ نفسهِ لم يقُم لغضبهِ شيءٌ حتى ينتقمَ بأكثَرَ من حقِّهِ، وإذا انتُهِكَت محارمُ اللَّهِ لم يَنْبِضْ لهُ عِرقٌ غَضَبًا للَّهِ، فلا قوَّةَ في أمرهِ، ولا بَصيرَةَ في دينِهِ .

وَمِنْ ثمرتها الدَّعوَةُ إلى سبيلِ الشيطانِ ، وإلى سلوكِ طريقِ الغَيِّ واتِّباعِ الهَوى ، وإيثارُ الشهواتِ على الطَّاعاتِ وقيلَ وقالَ ، وكثرَةُ السُّؤال ، وإضاعَةُ

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦) .

المالِ ، ووأدُ البناتِ ، وعقوقُ الأمَّهاتِ ، وقَطيعَةُ الأرحامِ ، وإساءَةُ الجوارِ ، وركوبُ مراكبِ الخِزيِ والعارِ .

وبالجملَةِ؛ فالخَيرُ بمجموعهِ ثمرٌ يُجتَنى من شجرَةِ العلمِ، والشرُّ بمجموعهِ شوكٌ يُجتَنى من شجرَةِ الجَهلِ، فلو ظَهَرَت صورَةُ العلمِ للأبصارِ لزادَ حُسنُها على صورَةِ الشمسِ والقَمَرِ، ولو ظَهَرَت صورَةُ الجهلِ للأبصار لكانَ منظرُها أقبحَ منظرٍ، بل كلُّ خَيرٍ في العالَمِ فهو من آثارِ العلمِ الذي جاءَت به الرُّسُلُ ومُسبَّبٌ عنه .

وكذلكَ كلُّ خَيرٍ يكونُ إلى قيامِ السَّاعَةِ وبعدَها في القيامَةِ ، وكلُّ شرٍّ وفسادٍ حَصَلَ في العالَمِ ويحصُلُ إلى قيامِ السَّاعَةِ وبَعدها في القيامَةِ فسبَبُهُ مُخالفَةُ ما جاءَت بِهِ الرُّسُلُ في العلمِ والعَمَلِ .

ولو لم يكُن للعملِ أبٌ ومُربٌّ وسائسٌ ووَزيرٌ إلّا العقلَ الذي به عِمارَةُ الدَّارَينِ - وهو الذي أرشَدَ إلى طاعَةِ الرُّسلِ وسلَّمَ القَلبَ والجوارحَ ونفسَهُ إليهم وانقادَ لحكمِهِ وعَزَلَ نَفسَهُ[1] وسلَّمَ الأمرَ إلى أهلِهِ - لكفى به شرفًا وفضلًا .

وقَد مدَحَ اللَّهُ سبحانَهُ العقلَ وأهلَهُ في كتابِهِ في مواضعَ كثيرةٍ منه ، وذمَّ من لا عَقلَ لهُ ، وأخبَرَ أنَّهُم أهلُ النَّارِ الذينَ لا سمعَ لهم ولا عقلَ ، فهو آلةُ كلِّ علمٍ ، وميزانُهُ الذي يُعرَفُ به صحيحُهُ من سقيمِهِ وراجحُهُ من مرجوحِهِ، والمِرآةُ التي يُعرَفُ بها الحَسَنُ من القبيحِ .

وقَد قيلَ : العقلُ مَلِكٌ والبَدَنُ روحُهُ، وحواسُّهُ وحركاتُهُ كلُّها رعيَّةٌ له؛ فإذا ضَعُفَ عن القيامِ عليها وتعهُّدِها وصلَ الخَلَلُ إليها كلِّها .

---

(١) تأمَّلْ هذا المعنى جيِّدًا .

ولهذا قيلَ : مَن لم يكُن عقلُهُ أغلَبَ خصالِ الخَيرِ عليهِ كانَ حتفُهُ في أغلبِ خصالِ الشرِّ عليه .

ورُويَ[١] أنَّهُ لمَّا هَبَطَ آدمُ من الجنَّةِ أتاهُ جبريلُ، فقال : إنَّ اللَّهَ أحضَرَكَ العَقلَ والدِّينَ والحياءَ لتختارَ واحدًا منها؛ فقال : أخذتُ العَقلَ ، فقال الدِّينُ والحياءُ : أُمِرْنا أنْ لا نُفارقَ العَقلَ حيثُ كانَ ، فانحازَا إليهِ .

والعقلُ عقلانِ :

عَقلُ غَريزَةٍ : وهو أبُ العلمِ ومُربِّيهِ ومُثمِرُهُ .

وعقلٌ مُكتَسَبٌ مُستفادٌ: وهو وَلَدُ العلمِ وثمرتُهُ ونتيجَتُهُ .

فإذا اجتمعا في العَبدِ فذلكَ فَضلُ اللَّهِ يُؤتيهِ من يشاءُ، واستقامَ له أمرُهُ، وأَقبلتْ عليهِ جيوشُ السَّعادَةِ من كلِّ جانبٍ، وإذا فَقَدَهما فالحيوانُ البَهيمُ أحسَنُ حالًا منه، وإذا انْفَرَدَا نَقَصَ الرَّجلُ بنقصانِ أحدهما .

ومِن النَّاسِ مَن يُرجِّحُ صاحبَ العَقلِ الغَريزيِّ، ومنهم مَن يُرجِّحُ صاحبَ العقلِ المُكتَسَب .

والتَّحقيقُ أنَّ صاحبَ العَقلِ الغَريزيِّ الذي لا علمَ ولا تجرِبَةَ عندهُ آفتُهُ التي يُؤتى منها الإحجامُ وتركُ انتهازِ الفرصَةِ؛ لأنَّ عَقلَهُ يعقِلُهُ عن انتهازِ الفُرصَةِ لعَدمِ علمِهِ بها، وصاحبُ العَقلِ المُكتَسَبِ المستفادِ يُؤتى من الإقدامِ؛ فإنَّ علمَهُ بالفُرَصِ وطرقِها يُلقيهِ على المُبادَرةِ إليها، وعقلُهُ الغَريزيُّ لا يُطيقُ ردَّهُ عنه، فهو غالبًا يُؤتى من إقدامِهِ، والأوَّلُ من إحجامِهِ .

---

(١) لم أقف على هذا الخبر !! ويبدو لي - مِن سياقِه - أنَّه من الإسرائيليات ، فاللَّه أَعلمُ .

ولقد صدّره المصنّف رحمه اللَّه بصيغة التمريض .

فإذا رُزِقَ العقلُ الغريزيُّ عقلًا إيمانيًا مُستفادًا من مِشكاةِ النُّبوَّةِ لا عقلًا معيشيًّا نفاقيًّا يظنُّ أربابُهُ أنَّهُم على شيءٍ - ألَا إنَّهُم هم الكاذبونَ - فإنَّهُم يرونَ العقلَ أنْ يُرضُوا النَّاسَ على طبقاتهم ويُسالِموهم ويستجلبوا مودَّتَهُم ومحبَّتَهُم !

وهذا معَ أنَّهُ لا سَبيلَ إليهِ فهو إيثارٌ للرَّاحَةِ والدَّعَةِ ومؤنَةِ[1] الأذى في اللَّهِ والموالاةِ فيهِ والمعاداةِ فيه ، وهو وإنْ كانَ أسلَمَ في العاجلة فهو الهُلْكُ في الآجلَةِ ، فإنَّهُ ما ذاقَ طعمَ الإيمانِ مَن لم يُوالِ في اللَّهِ ويُعادِ فيهِ، فالعَقلُ كلُّ العَقلِ ما أوصَلَ إلى رضا اللَّهِ ورسولهِ .

واللَّهُ الموفِّقُ المُعين .

وفي حديثٍ مرفوعٍ ذكرَهُ ابنُ عبدالبَرِّ[2] وغيرُهُ : « أوحى اللَّهُ إلى نبيٍّ من أنبياءِ بني إسرائيلَ: قُل لفلانٍ العابِدِ: أمَّا زهدُكَ في الدُّنيا فقَد تعجَّلتَ به الرَّاحَةَ، وأمَّا انقطاعُكَ إليَّ فَقَد اكتَسَبتَ به العزَّ ، فما عملتَ فيما لي عَليكَ ؟ قال : وما لكَ عليَ ؟ قال : هَل والَيتَ فيَّ وليًّا أو عادَيتَ فيَّ عدوًّا ؟ » .

وذُكرَ أيضًا أنَّهُ أوحى اللَّهُ إلى جبريلَ:أنِ اخسِف بقَريَةِ كذا وكذا، قال : يا ربِّ إنَّ فيهم فلانًا العابدَ ! قال : به فابدَأ، إنَّهُ لم يتمعَّرْ وجهُهُ فيَّ يومًا قطُّ[3].

---

(١) كذا « الأَصل » .

(٢) في « التمهيد » (١٧ / ٤٣٢) .

ورواه أبو نُعيم في « الحلية »(١٠ / ٣١٦) والخطيب في « تاريخ بغداد » (٣ / ٢٠٢) .

وقد أعلَّ إسنادَهُ ابنُ عبد البرّ نفسُه بحُمَيدٍ الأعرجِ، فقال : « منكر الحديث عند جميع أهل النقل »، وكذا أعلَّه بالوقف .

قلتُ : وفيه أيضًا خَلَفُ بن خليفة ، وقد كذَّبه ابن معين .

(٣) رواه الطبراني في « الأوسط » (٤٣٩٠ - مجمع البحرين) والبيهقي في « شعب الإيمان » (٧٥٩٥) وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٧ / ٢٧٠) : « عُبيد بن إسحاق العطّار ، وعمّار بن سيف كلاهما ضعيفٌ » . =

مجالس العلم رياض الجنة

الوجهُ الحادي والتسعون: حديثُ ابنِ عُمر عن النَّبيِّ ﷺ: « إذا مَرَرتُم برياضِ الجنَّةِ فارتَعوا »، قالوا: يا رسولَ اللَّهِ وما رياضُ الجنَّةِ ؟ قال: «حِلَقُ الذِّكرِ؛ فإنَّ للَّهِ سيَّاراتٍ من الملائكةِ يطلبونَ حِلَقَ الذّكرَ، فإذا أَتَوا عليهم حفُّوا بهم » .

قال عطاء : مجالسُ الذِّكرِ مجالسُ الحلالِ والحَرامِ ؛ كيفَ يَشتري ويَبيعُ ويَصومُ ويُصلِّي ويتصدَّقُ وينكحُ ويطلِّقُ ويحجُّ .

ذكرهُ الخطيبُ في كتابِ « الفَقيه والمُتفقِّه »[1]، وقد تَقدَّمَ بيانهُ .

العالم وفضله

الوجهُ الثَّاني والتسعون : ما رواهُ الخطيبُ أيضًا[2] عن ابن عُمر يرفعهُ : « مجلسُ فقهٍ خيرٌ من عبادَةِ ستِّينَ سنَةً » .

وفي رفعهِ نَظرٌ .

فضلُ يسير الفقه

الوجهُ الثَّالثُ والتسعون : ما رواهُ أيضًا[3] من حديثِ عبدالرَّحمن بن عَوفٍ يرفعهُ : « يَسيرُ الفِقهِ خيرٌ من كثيرِ العبادَةِ » ، ولا يثبت رَفْعُهُ .

= وقال البيهقي : « المحفوظ من قول مالك بن دينار » .

وضعَّفه العراقي في « تخريج الإحياء » (٧ / ١١) .

(١) (١ / ١٢) ، والحديثُ حَسَنٌ ، انظر « الضعيفة » (١١٥٠) و « الصحيحة » (٢٥٦٢) .

(٢) في « الفقيه والمتفقه » (١ / ١٤) ، وهو قطعةٌ من حديثٍ .

ورواه ابن عبد البر في « الجامع » (٢ / ٤٤) .

وفي سنده عبداللَّه بن أُذَيْنَة؛ روى أحاديث موضوعة، وعبدالوهاب بن مجاهد متروكٌ .

وأعلَّه بذلك ابن عراق في « تنزيه الشريعة » (٢ / ٢٧٨) .

(٣) (١ / ١٤ و ١٥) .

ورواه الطبراني في « الكبير » (١ / ٩٧) والشجري في « أماليه » (١ / ٤٦) .

وقال الهيثمي في « المجمع » (١ / ١٢٠ - ١٢١) : « وفيه خارجة بن مُصعَب؛ وهو ضعيفٌ جدًّا » .

الفقيهُ والعابدُ

الوجهُ الرَّابعُ والتسعون : ما رواهُ أيضًا (١) من حديثِ أَنَسٍ يرفعُهُ :

« فقيهٌ أفضلُ عندَ اللَّهِ من ألفِ عابدٍ » .

وهو في الترمذي (٢) من حديثِ رَوْحِ بن جناح ، عن مُجاهِدٍ ، عن ابنِ عبَّاسٍ مرفوعًا .

وفي ثُبوتهما مرفوعين نظرٌ .

والظَّاهرُ أنَّ هذا من كلامِ الصَّحابَةِ فمَن دونهم .

أَفضلُ العبادةِ الفقهُ

الوجهُ الخامسُ والتسعون : ما رواهُ أيضًا (٣) عن ابنِ عُمر يرفعُهُ :

« أفضلُ العبادَةِ الفقهُ » .

---

(١) (١ / ١٨) .

وفي إسنادِهِ وضَّاعٌ مشهورٌ هو سمعان بن مهديّ، قال الذهبي في « الميزان »(٢ / ٢٣٤) : « حيوانٌ لا يُعرف » .

(٢) (برقم : ٢٦٨١) .

ورواه ابن ماجه (٢٢٢) والخطيب في « الفقيه والمتفقّه » (١ / ٢٤) ، وابن عبدالبر في « الجامع » (١ / ٢٦) ، وابن حبَّان في « المجروحين » (١ / ٢٩٨) .

ورواه ابن الجوزي في « العلل الواهية » (١٩٢) ، وقال :

« هذا حديثٌ لا يصحُّ عن رسول اللَّه ﷺ ، والمتَّهم برفعهِ روح بن جَناح ؛ قال أَبو حاتم ابن حِبَّان : « رُوح يروي عن الثقات ما إِذا سمعه من ليس بمتبحِّر في صناعةِ الحديثِ شهد له بالوضع ، ومنه هذا الحديث » .

وانظر « تهذيب التَّهذيب » (٣ / ٢٩٣) .

(٣) (١ / ٢١) .

ورواه الطَّبري في « الصَّغير » (٢ / ١٢٣) و « الأَوسط » (١٩٥ - مجمع البحرين) .

وقال الهيثمي في « المجمع » (١ / ١٢٠) - بعد أَنْ زاد نسبتَه لِ « الكبير » - : « وفيه محمد بن أَبي ليلى : ضَعَّفوه لسوء حفظه » .

وفي الباب عن ابن عبَّاس عند القُضاعي في « مسند الشهاب » (٢ / ٢٤٩) .

بين العبادة والفقه

الوجهُ السَّادسُ والتسعون : ما رواهُ[١] أيضًا من حديثِ نافعٍ عن ابنِ عمر يرفعهُ : « ما عُبِدَ اللَّهُ بشيءٍ أفضلَ من فقهٍ في دينٍ » .

بين العالم والغازي

الوجهُ السَّابعُ والتسعون : ما رواهُ عن عليٍّ أنَّهُ قال : العالـمُ أعظَمُ أجرًا من الصَّائمِ القائمِ الغازي في سبيلِ اللَّهِ .

بين العلم وصلاة التطوّع

الوجهُ الثَّامنُ والتسعون : ما رواهُ المـخَلِّصُ[٢]، عن صاعدٍ : حدَّثنا القاسمُ بن الفَضلِ بن بَزِيعٍ : حدَّثنا حجَّاجُ بن نُصَيرٍ : حدَّثنا هلالُ بن عبدالرَّحمن الحَنَفيّ ، عن عطاء بن أبي مَيمونَةَ ، عن أبي هُرَيرَةَ وأبي ذرٍّ أنَّهما قالا : « بابٌ منَ العلمِ نتعلَّمُهُ أحبُّ إلينا من ألفِ ركعَةٍ تطوُّعًا، وبابٌ من العلمِ نُعَلِّمُهُ - عُملَ بهِ أو لم يُعمَلْ به - أحبُّ إلينا من مئةِ ركعَةٍ تطوُّعًا » .

وقالا : سمعنا رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول : « إذا جاءَ الموتُ طالبَ العلمِ وهو على هذه الحال ماتَ شهيدًا » .

ورواهُ ابنُ أبي داودَ عن شاذانَ عن حجَّاجٍ به .

---

(١) (١ / ٢١) .
ورواه البيهقي في « شُعب الإيمان » (١٥٨٣) وأَبو نُعيم في « أَخبار أَصبهان »(١ / ٧٩) .
وفي سنده محمد بن صالح الأَشجّ ، لم يُوَثِّقْهُ إِلَّا ابن حِبَّان ، وقال : يُخطئ !
وقال البيهقي : « والمحفوظ هذا اللفظُ مِن قول الزُّهري » .
قلتُ : وسيأتي تخريجه قريبًا .

(٢) ورواه - من غير طريق المُخَلِّص - الخطيب في « الفقيه والمتفقّه » (١ / ١٦) ، وفي « تاريخ بغداد » (٩ / ٢٤٧) والبزَّار (١٣٨) وابن عبدالبرّ (١ / ٢٥) والفسوي في « المعرفة والتاريخ » (٣ / ٣٩٧) مِن طريقِ حَجّاجِ بِنْ نُصَيْرٍ بِهِ .
وأَورده العُقيلي في « الضُّعفاء » (٤ / ٣٥٠) من مناكير هلال الحَنَفي ، ثمَّ قال : « كل هذا مناكير لا أُصول لها ولا يُتابَع عليها » .
وبه أَعلّه الهيثمي في « المجمع » (١ / ١٢٤) .

قلتُ : شاهدهُ ما مرَّ[١] من حديثِ التِّرمذي عن أَنَسٍ يَرفعهُ : « مَن خَرَجَ في طلبِ العلمِ فهو في سبيلِ اللَّهِ حتى يَرجعَ » .

بين العلم والجهاد

الوجهُ التَّاسعُ والتسعون : ما رواهُ الخطيبُ[٢] أيضًا عن أبي هُرَيرَةَ قال : « لأن أعلمَ بابًا من العلمِ في أمرٍ أو نَهيٍ أحبُّ إليَّ من سبعينَ غَزوَةً في سبيلِ اللَّهِ » .

وهذا - **إن صحَّ** - فمعناهُ : أحبُّ إليَّ من سبعينَ غَزوَةً بلا علمٍ ، لأنَّ العملَ بلا علمٍ فسادُهُ أَكثَرُ من صلاحِهِ ، أو يريدُ علمًا يتعلَّمُهُ ويُعلِّمُهُ فيكونُ له أجرُ من عَمِلَ به إلى يوم القيامَةِ ، وهذا لا يحصُلُ في الغَزوِ المُجرَّدِ .

بين العلم والعبادة

الوجهُ المِئة : ما رواهُ الخطيبُ[٣] أيضًا عن أبي الدَّرداء أنَّهُ قال : مُذاكَرةُ العلمِ ساعَةً خيرٌ من قيامِ ليلَةٍ .

بين العلم والصدقة

الوجهُ الحادي والمِئة : ما رواهُ[٤] عن الحَسَن، قال : لأن أتعلَّمَ بابًا من العلمِ فَأُعلِّمَهُ مُسلِمًا أحَبُّ إليَّ من أن يكونَ لي الدُّنيا كُلُّها فأُنفِقَها في سبيلِ اللَّه .

العبادة من أفضل الفقه

الوجهُ الثَّاني والمِئة : قال مكحولٌ : ما عُبِدَ اللَّهُ بأفضَلَ من الفِقهِ[٥] .

العبادةُ بالفقه

الوجهُ الثَّالث والمِئة : قال سَعيدُ بن المُسيِّب : ليسَت عبادَةُ اللَّهِ بالصَّومِ والصَّلاةِ ، ولكنْ بالفِقهِ في دينِهِ[٦] .

---

(١) انظر (ص :) فيما سبق ، والحديثُ ضعيفٌ .

(٢) (١ / ١٦) ، ولم يصحَّ !

(٣) (١ / ١٦) ، وفيه انقطاعٌ !

(٤) « الفقيه والمتفقِّه » (١ / ١٦) .

(٥) المصدر السابق (١ / ٢٣) ، وفيه متروكٌ !

(٦) المصدر السابق وفيه صالح بن محمَّد اللَّيثي ؛ ضعيفٌ .

وهذا الكلامُ يُرادُ به أمران :

أحدهما : أنَّها ليسَت بالصَّومِ والصَّلاةِ الخاليَيْنِ عن العلمِ ، ولكنْ بالفِقهِ الذي يُعلَمُ به كيفَ الصَّومُ والصَّلاةُ .

والثَّاني : أنَّها ليسَت الصَّومَ والصَّلاةَ فَقَط ، بل الفِقهُ في دينهِ من أعظمِ عباداتِهِ .

العلماء والأنبياء

الوجهُ الرَّابعُ والمِئة : قال إسحاقُ بن عبدِاللَّهِ بن أبي فَروَةَ : أقربُ النَّاسِ من درَجَةِ النُّبوَّةِ العلماءُ وأهلُ الجهادِ ، والعلماءُ دلُّوا النَّاسَ على ما جاءَت به الرُّسُلُ ، وأَهلُ الجهاد جاهدوا على ما جاءَ به الرُّسُلُ .

وقَد تَقدَّمَ الكلامُ في تفضيلِ العالِمِ على الشَّهيدِ وعكسِهِ .

رفعة العلماءِ

الوجهُ الخامسُ والمِئة : قالَ سفيانُ بن عُيَينَة : أرفَعُ النَّاسِ عندَ اللَّهِ منزلَةً من كانَ بينَ اللَّهِ وبينَ عبادِهِ ؛ وهم الرُّسُلُ والعلماءُ .

الفقه عبادةٌ

الوجهُ السَّادسُ والمِئة : قال محمَّدُ بن شهابِ الزُّهْريّ : ما عُبِدَ اللَّهُ بمثلِ الفِقهِ[1].

وهذا الكلامُ ونحوهُ يُرادُ به أنَّهُ ما يُعبَدُ اللَّهُ بمثلِ أَنْ يُتعبَّدَ بالفِقهِ في الدِّينِ ، فيكونَ نفسُ التَّفقُّهِ عبادَةً ؛ كما قال مُعاذُ بن جَبَلٍ : عليكُم بالعلمِ ؛ فإنَّ طلبَهُ للَّهِ عبادَةٌ .

وسيأتي إنْ شاءَ اللَّهُ ذكرُ كلامهِ بتمامهِ .

---

(١) رواه أَبو نُعيم في « الحلية » (٣ / ٣٦٥) وعبدالرزَّاق (١١ / ٢٠٤٧٩) والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١ / ٢٣) وابن عبدالبرّ في « الجامع » (رقم : ١١٠ و ٢٤٦) . وسندُهُ صحيحٌ .

وقَد يُرادُ به أنَّهُ ما عُبِدَ اللَّهُ بعبادةٍ أفضَلَ من عبادَةٍ يَصحبُها الفقهُ في الدِّينِ ؛ لعلمِ الفقيهِ في دينهِ بمراتبِ العباداتِ ومُفْسِداتها وواجباتها وسُنَنها وما يُكمِّلها وما ينقصها .

وكلا المعنيَينِ صحيحٌ .

مجالس العلماء

الوجهُ السَّابعُ والمِئة : قال سَهلُ بن عبدِاللَّهِ التُّستَريّ : من أرادَ النَّظَرَ إلى مجالسِ الأنبياءِ فلْيَنظُر إلى مجالسِ العلماءِ ؛ وهذا لأنَّ العلماءَ خُلفاءُ الرُّسلِ في أُمَمِهِم ، ووارثوهم في علمهم ، فمجالسُهم مجالسُ خلافَةِ النُّبوَّةِ .

طلب العلم من أفضل الأعمال

الوجهُ الثَّامنُ والمِئة : أنَّ كثيرًا من الأئمَّةِ صرَّحوا بأنَّ أفضَلَ الأعمالِ بعدَ الفرائضِ طلبُ العلمِ :

فقال الشافعيُّ : ليسَ شيءٌ بَعدَ الفرائضِ أفضَلَ من طلبِ العلمِ .

وهذا الذي ذَكَرَهُ أصحابُهُ عنه أنَّهُ مذهبُهُ .

وكذلكَ قال سُفيانُ الثَّوريُّ .

وحكاهُ الحنفيَّةُ عن أبي حَنيفَةَ .

وأمَّا الإمامُ أحمدُ فحُكِيَ عنه ثلاثُ رواياتٍ :

إحداهُنَّ : أنَّهُ العلمُ ؛ فإنَّهُ قيلَ له : أيُّ شيءٍ أحبُّ إليكَ ؛ أجلسُ باللَّيلِ أنسخُ أو أُصلِّي تطوُّعًا ؟ قال : نَسْخُكَ تعلمُ به أمورَ دينكَ فهو أحبُّ إليَّ .

وذكرَ الخلّالُ عنه في كتابِ « العلمِ » نُصوصًا كثيرةً في تفضيلِ العلمِ.

ومن كلامهِ فيه : النَّاسُ إلى العلمِ أحوَجُ منهم إلى الطَّعامِ والشرابِ .

وقد تَقدَّمَ .

والرِّوايَةُ الثَّانيَةُ : أنَّ أفضَلَ الأعمالِ بعدَ الفرائضِ صلاةُ التَّطوُّعِ ؛ واحتجَّ

لهذهِ الرِّوايَةِ بقولِهِ ﷺ : « واعلَموا أنَّ خيرَ أعمالِكُم الصَّلاةُ »[١]، وبقوله في حديثِ أبي ذرٍّ وقَد سألهُ عن الصَّلاةِ ؟ فقال : « خَيرٌ موضوعٌ »[٢]، وبأنَّهُ أوصى مَنْ سألَهُ مُرافَقَتَهُ في الجنَّةِ بكثرَةِ السُّجودِ ، وهو الصَّلاةُ[٣] .

وكذلكَ قولُهُ في الحديثِ الآخرِ : « عليكَ بكثرَةِ السُّجودِ ؛ فإنَّكَ لا تسجُدُ للَّهِ سجدَةً إلّا رَفَعَكَ اللَّهُ بها درجَةً ، وحطَّ عنكَ بها خطيئةً »[٤]، وبالأحاديثِ الدَّالَّةِ على تفضيلِ الصَّلاةِ .

والرِّوايةُ الثَّالثةُ : أنَّهُ الجهادُ ، فإنَّهُ [ﷺ] قال : « لا أعدِلُ بالجهادِ شيئًا ، ومَن ذا يُطيقهُ ! »[٥].

ولا ريبَ أنَّ أكثَرَ الأحاديثِ في الصَّلاةِ والجهادِ .

وأمَّا مالكٌ ؛ فقال ابنُ القاسمِ : سمعتُ مالكًا يقولُ : إنَّ أقوامًا ابتَغوا العبادَةَ وأضاعوا العلمَ ، فخرجوا على أُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ بأسيافهم[٦] ، ولو ابتَغوا العلمَ لحَجَزَهُم عن ذلكَ .

قال مالكٌ : وكتبَ أبو موسى الأشعَريّ إلى عُمَر بن الخطَّابِ أنَّهُ قد قرأَ

---

(١) رواه أحمد (٥ / ٢٧٦ - ٢٧٧و٢٨٢و٢٨٠) ، وابن ماجة (٢٧٧) والدارمي (١ / ١٦٨) وابن حبّان (١٠٣٧) ، والبيهقي (١ / ٤٥٧) ، والطيالسي (٩٩٦) من طرق عن ثوبان ، وسنده حسن .

(٢) أو : « خَيْرُ موضوعٍ » ، والحديثُ حسنٌ ، رُوي من ثلاثة طُرُق ، انظر لها : « التلخيص الحبير » (٢ / ٢١) و « صحيح الترغيب » (٣٨٦) ، « إتحاف السادة المتقين » (٣ / ٣٦١) و « عُمدة التفسير » (٢ / ١٥٧) للشيخ أحمد شاكر .

(٣) رواه مسلم (٤٨٩) عن ربيعةَ بن كعبٍ .

(٤) رواه مسلم (٤٨٨) عن ثوبان .

(٥) رواه البخاري (٢٧٨٥) ، ومسلم (١٨٧٨) عن أبي هُريرة ؛ بنحوه .

(٦) وكثيرٌ مِن فِتَن العصر الحاضِرِ ناشئةٌ عن العلّةِ ذاتِها !!

القرآن عندنا عَددُ كذا وكذا ، فكتَبَ إليهِ عُمَر : أنِ افرِض عليهم من بيتِ المال ، فلمَّا كانَ في العامِ الثَّاني كتَبَ إليهِ أنَّهُ قَد قرأَ القرآنَ عندنا عددٌ كثيرٌ لأكثَرَ من ذلكَ ، فكتَبَ إليهِ عمرُ : أنِ امْحُهم من الدِّيوانِ ، فإنِّي أخافُ أن يُسرعَ النَّاسُ في القرآنِ أن يتفقَّهوا في الدِّينِ فيتأوَّلوهُ على غيرِ تأويلِهِ .

وقال ابنُ وهبٍ : كنتُ بينَ يَدي مالكِ بن أنسٍ فوَضَعتُ ألواحي وقمتُ إلى الصَّلاةِ ، فقال : **ما الذي قُمتَ إليهِ بأفضَلَ من الذي تركتَهُ**[١].

قال شيخُنا[٢]: وهذه الأمورُ الثَّلاثةُ التي فضَّلَ كلٌّ واحدٍ من الأئمَّةِ بعضَها - وهي الصَّلاةُ والعلمُ والجهادُ - هي التي قال فيها عُمَرُ بن الخطَّابِ رضيَ اللَّهُ عنهُ : لولا ثلاثٌ في الدُّنيا لَمَا أحببتُ البقاءَ فيها ؛ لولا أن أُحمَلَ ، أو أُجهِّزَ جيشًا في سبيلِ اللَّهِ ، ولولا مُكابَدَةُ هذا الليلِ ، ولولا مُجالسَةُ أقوامٍ ينتقونَ أطايبَ الكلامِ كما يُنتَقى أطايبُ الثَّمرِ لَمَا أحببتُ البَقاءَ .

فالأوَّلُ : الجهادُ، **والثَّاني** : قيامُ الليلِ، **والثَّالثُ** : مذاكرَةُ العلمِ .

فاجتَمَعَت في الصَّحابَةِ بكمالِهم ، وتفرَّقَت فيمَن بعدهم .

الوجهُ التَّاسعُ والمئة : ما ذكرهُ أبو نُعيم[٣] وغيرهُ عن بَعضِ أصحابِ

---

(١) رواه ابن عبدالبرّ في « جامع بيان العلم » (١ / ٣٠) .

(٢) هو شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه اللَّه .

(٣) في « الحلية » (٢ / ٢١٢) عن حُذيفة .

ورواه عنه - أيضًا - البزَّار (١ / ٨٥ - زوائده) ، والطبراني في « الأَوسط » (١٩٦ - مجمع البحرين) ، والحاكم (١ / ٩٢) ، والبيهقي في « المدخل » (٤٥٦) ، وابن عدي (٤ /١٥١٤) ، وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (١ / ٧٦) .

وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١ / ٢١٠) : « وفيه عبداللَّه بن عبدالقدُّوس ، وثقه البخاري وابن حبَّان ، وضعَّفه ابن معين » . =

العلمُ خير من النوافل

رسولِ اللَّهِ ﷺ أنَّهُ قال : « فَضلُ العلمِ خَيرٌ من نَفلِ العَمَلِ وخيرُ دينكُم الورعُ » . وقد رُوِيَ هذا مرفوعًا من حديثِ عائشَة رضيَ اللَّهُ عنها ؛ وفي رَفعهِ نَظَرٌ .

وهذا الكلامُ هو **فَصلُ الخطابِ** في هذه المسألةِ ؛ فإنَّهُ إذا كانَ كلٌّ من العلمِ والعَمَلِ فَرضًا فلا بدَّ منهما كالصَّومِ والصَّلاةِ ، فإذا كانا فَضلَينِ - وهما النَّفلانِ المُتطوَّعُ بهما - ففضلُ العلمِ ونفلُهُ خَيرٌ من فَضلِ العبادَةِ ونَفلها ؛ لأنَّ العلمَ يَعُمُّ نفعُهُ صاحبَهُ والنَّاسَ معهُ ، والعبادَةُ يختَصُّ نفعها بصاحبها، ولأنَّ العلمَ تبقى فائدتهُ وثمرتُهُ بَعدَ موتهِ، والعبادَةُ تنقطعُ عنه ، وَلِمَا مرَّ من الوجوهِ السَّابقةِ .

العلمُ الخشيةُ

الوجهُ العاشرُ بعد المئة : ما رواهُ الخَطيبُ وأبو نُعيم وغيرهما[1] عن مُعاذِ بن جبلٍ رضيَ اللَّهُ عنه قال : تعلَّموا العلمَ ؛ فإنَّ تعلُّمَهُ للَّهِ خشيَةٌ ، وطلبَهُ

= وحسَّنه المنذري في « الترغيب » (٩٣/١) .

وقد رواه الحاكم (١ / ٩٢) ، والبيهقي في « الزهد » (٢٠٣) عن سعد بن أَبي وقَّاص ، بسند حسن إنْ شاء اللَّه .

ورواه الطبراني في « الأَوسط »(١٩٥ - مجمع البحرين)، وفي « الصغير » (٢ / ١٢٣)، وفي « الكبير » - كما في « مجمع الزوائد » (١ / ١٢٠) - .

وقال الهيثمي : « وفيه محمد بن أَبي ليلى : ضعَّفوه لسوء حفظه » .

وأَمَّا حديثُ عائشةَ ؛ فرواه ابنُ عديّ في « الكامل » (٦ / ٢١٧٠) ، وفي سندِه محمَّد ابن عبدالملك : مُتَّهَمٌ !

وللحديث طرق أُخرى مرفوعة وموقوفة : فانظر « مسند الشهاب » (٤٠) « العلل المتناهية » (٧٦) « الأَربعون الصغرى » (٦٥) « شعب الإيمان » (٤ / ٣٣٥ - هند) و « زهد وكيع » (٢٢٢) .

(١) رواه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١ / ١٥) - عن أَبي هُريرة مرفوعًا ، ولم أَره عنده موقوفًا على مُعاذ ! - وأَبو نُعيم في « الحلية » (١ / ٢٣٩) موقوفًا عليه .

ورواه ابنُ عبدالبرّ في « الجامع » (١ / ٦٥) موقوفًا - أَيضًا - .

عبادةٌ ، ومُدارسَتَهُ تسبيحٌ ، والبَحثَ عنهُ جهادٌ ، وتعليمَهُ لمن لا يُحسِنُهُ صدَقةٌ ، وبذلَهُ لأهلِهِ قُربةٌ ، به يُعرَفُ اللَّهُ ويُعبَدُ ، وبه يُوحَّدُ ، وبه يُعرَفُ الحلالُ من الحرامِ ، وتُوصَلُ الأرحامُ ، وهو الأنيسُ في الوحدَةِ ، والصَّاحبُ في الخَلْوَةِ ، والدَّليلُ على السرَّاءِ ، والمُعينُ على الضرَّاءِ ، والوزيرُ عند الأخلّاءِ ، والقَريبُ عندَ الغُرباءِ ، ومنارُ سبيلِ الجنَّةِ ، يرفعُ اللَّهُ به أقوامًا فيجعلُهُم في الخَيرِ قادَةً وسادَةً يُقتَدى بهم ، أدلَّةً في الخَيرِ تُقتَصُّ آثارهُم ، وتُرمَقُ أفعالُهم ، وتَرْغبُ الملائكَةُ في خَلَّتِهِم وبأجنحتها تمسحُهم ، يَستغفرُ لهم كُلُّ رطبٍ ويابسٍ حتى حيتانُ البَحرِ وهوامُّهُ ، وسِباعُ البَرِّ وأنعامُهُ ، والسَّماءُ ونجومُها ، والعلمُ حياةُ القلوبِ من العَمى ، ونورٌ للأبصارِ من الظُّلَمِ ، وقوَّةٌ للأبدانِ من الضَّعفِ ، يبلغُ به العَبدُ منازلَ الأبرارِ والدَّرجاتِ العُلى ، التَّفكُّرُ فيه يُعدَلُ بالصِّيامِ ، ومدارستُهُ بالقيامِ ، وهو إمامٌ للعَمَلِ ، والعَمَلُ تابعُهُ ، يُلْهَمُهُ السَّعداءُ ، ويُحرمُهُ الأَشقياءُ .

هذا الأَثَرُ معروفٌ عن معاذٍ .

ورواهُ أبو نُعيمٍ في « المُعجم »[(١)] من حديثِ مُعاذٍ **مرفوعًا** إلى النَّبيِّ ﷺ **ولا يثبتُ** ، وَحَسْبُهُ أن يَصِلَ إلى معاذ .

---

(١) وكذا ابنُ عبدالبرّ في « الجامع » (١ / ٦٥) وقال عَقِبَهُ :

« وهو حديثٌ حَسَنٌ جدّاً ، ولكنْ ليس له إِسنادٌ قويٌّ » .

وتعقَّب كلمَته هذه المنذريُّ في « الترغيب » (١ / ٩٥) بقوله : « كذا قال رحمه اللَّه ، ورفعُهُ غريبٌ جدًّا » .

وقال العراقي في « تخريج الإِحياء » (١ / ١٢) مُوضِحًا : « قوله : حسن ؛ أَراد به الحسن المعنوي ، لا الحسن المصطلح عليه بين أَهل الحديث ؛ فإِنَّ موسى بن محمد البلقاوي كذّبه أَبو زُرعة وأَبو حاتم ! » .

وانظر « شرح الإِحياء » (١ / ١١٩) ؛ و « تنزيه الشريعة » (١ / ٢٨١) ، و « جمع الجوامع » (١٠ / ١٦٧ - ترتيبه) .

ت طالبِ العلمِ

الوجه الحادي عشر بعد المِئة : ما رواهُ يونُسُ بن عبدالأعلى ، عن ابن أبي فُدَيْكٍ : حدَّثني عمرو بن كثيرٍ ، عن أبي العلاءِ ، عن الحَسنِ ، عن رسولِ اللّهِ ﷺ قال : « مَن جاءَهُ الموتُ وهو يطلبُ العلمَ ليُحيِيَ به الإسلامَ فبَينهُ وبينَ الأنبياءِ في الجنَّةِ درجَةُ النُّبوَّة »(١) .

وقَد رُويَ من حديثِ عليِّ بن زيد بن جُدعانَ ، عن سعيدِ بن المُسيِّب ، عن ابنِ عبَّاسٍ ، عن النَّبيِّ ﷺ(٢) .

وهذا - وإنْ كانَ **لا يَثْبُتُ إسنادهُ** - فلا يَبْعُدُ معناهُ مِن الصحَّةِ ؛ فإنَّ أفضَلَ الدَّرجاتِ النُّبوَّةُ ، وبَعدَها الصِّدِّيقيَّةُ ، وبَعدها الشَّهادَةُ ، وبَعدها الصَّلاحُ .

وهذه الدَّرجاتُ الأربعُ ذكرها اللّهُ تعالى في كتابهِ في قوله : ﴿ ومَن يُطِعِ الله والرَّسولَ فأُولئكَ معَ الَّذينَ أنعَمَ الله عليهم من النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالحينَ وحَسُنَ أُولئكَ رفيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

فمَن طلَبَ العلمَ ليُحيي به الإسلامَ فهو من الصِّدِّيقينَ ، ودرجتُهُ بعدَ درجةِ النُّبوَّة .

---

(١) رواه ابن عبدالبر في « الجامع » (١ / ٥٥) من طريق ابن أَبي خَيْرة عن عَمْرو بن كثير بِه .

ورواه الدارمي في « سُننه » (١ / ١٠٠) والشجري في « أَماليه » (١ / ٥١) من طريق محمد بن إِسماعيل ، عن عَمرو بِهِ ، لكنه أَسقط أَبا العلاء !

وهو مرسلٌ ضعيفٌ .

(٢) رواه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ٨٥) ، وقد أَعلَّه - والمرسَلَ - الحافظُ ابن عبدالبرّ في « الجامع » (١ / ٥٥) ، وكذا العراقي في « تخريج الإِحياء » (١ / ١٠) بالاضطراب .

وانظر « شرح الإِحياء » (١ / ١٠٠ - ١٠١) .

العلم : الحسنة في الدنيا

الوجهُ الثَّاني عَشَر بعد المِئة : قال الحسنُ في قولِه تعالى : ﴿ ربَّنا آتِنا في الدُّنيا حَسَنَةً ﴾ [البقرة: ٢٠١] هي العلمُ والعبادَةُ، ﴿ وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [البقرة : ٢٠١] هي الجنَّةُ(١) .

وهذا مِنْ أحسَنِ التَّفسيرِ ؛ **فإنَّ أجلَّ حسناتِ الدُّنيا العلمُ النَّافعُ والعملُ الصَّالحُ** .

العلم بالتّعلّم

الوجهُ الثَّالثَ عَشَر بعد المِئة : قال ابنُ مَسعودٍ : عليكُم بالعلمِ قبلَ أن يُرفَعَ ، ورفعُهُ هلاكُ العلماءِ ، فوالذي نفسي بيدِهِ لَيَوَدَّنَّ رجالٌ قُتلوا في سبيلِ اللَّهِ شهداءَ أنْ يَبعثَهُم اللَّهُ عُلماءَ لِمَا يَرَونَ من كرامتِهِم ، وإنَّ أحَدًا لم يُولَد عالمًا ، وإنَّما العلمُ بالتَّعلُّم(٢) .

بين العالِم وقيام الليل

الوجهُ الرَّابعَ عَشَر بعد المِئة : قال ابنُ عبَّاسٍ وأبو هُرَيرَةَ - وبعدهما أحمَدُ بن حَنبل - : تذاكُرُ العلمِ بَعضَ ليلةٍ أحبُّ إلينا من إحيائها(٣).

الوجهُ الخامسَ عَشَر بعد المِئة : قال عُمَرُ رضيَ اللَّهُ عنهُ : أيُّها النَّاسُ

---

(١) أَخرجه ابنُ أَبي شيبة وعَبْد بن حُميد ، وابن جرير ، والمَرْهَبي في « فضل العلم » ، والبيهقي في « شعب الإيمان » .

كذا في « الدر المنثور » (١ / ٥٦٠) .

(٢) رواه الدارمي (١ / ٥٤) وعبدالرَّزاق (١ / ٢٥٢) وابن عبدالبر في « الجامع (١ / ١٥٢) والبيهقي في « المدخل » (٣٨٧) .

وأَعلَّه البيهقي بالانقطاع ، وكذا الهيثمي في « المجمع » (١ / ١٢٦) .

ثم رواه البيهقي (٣٨٨) موصولًا بنحوه ، مُختصرًا .

(٣) رواه عبدالرَّزَّاق (١١ / ٢٥٣) ، والدارمي (١ / ٨٢) وابن عبدالبرّ في « جامع بيان العلم » (رقم : ١٠٧) عن ابن عبَّاس .

وأَمَّا أَثَرُ أَبي هريرة فقد تقدَّم إيرادُهُ وتخريجُهُ .

وكلامُ أَحمدَ رواه - بسنده - ابن عبدالبرّ (رقم : ١٠٨) ، والخطيب في « الفقيه والمتفقِّه » (١ / ١٧) .

عطاء الله لعباده أهل العلم

عليكم بالعلمِ ؛ فإنَّ للَّهِ سبحانهُ رداءً يحِبُّهُ ، فمَن طَلَبَ بابًا من العلمِ رَدَّأَهُ اللَّهُ بردائِهِ ، فإنْ أذنَبَ ذنبًا استعتَبَهُ لئلّا يَسْلُبَهُ رداءَهُ ذلكَ حتى يموتَ به .

قلتُ : ومعنى استعتابِ اللَّهِ عَبدَهُ أن يطلبَ منه أن يُعْتِبَهُ ؛ أي : يُزيلَ عَتْبَهُ عليه بالتَّوبَةِ والاستغفار والإنابَةِ ، فإذا أنابَ إليهِ رفَعَ عنه عَتْبَهُ ، فيكونُ قَد أعتبَ ربَّهُ ، أي : أزالَ عَتْبَهُ عليهِ، والرَّبُّ تعالى قد استعتَبهُ ؛ أي : طَلَبَ منه أن يُعتِبَهُ .

ومن هذا قولُ ابنِ مسعودٍ - وقَد وَقَعَت زلزَلَةٌ بالكوفَةِ - : إنَّ ربَّكُم يستعتبُكُم فأَعْتِبُوهُ .

وهذا هو الاستعتابُ الذي نفاهُ سبحانهُ في الآخِرَةِ في قولِهِ : ﴿ فاليومَ لا يُخرَجونَ منها ولا هُم يُستَعتَبونَ ﴾ [الجاثية : ٣٥]، أي : لا نطلبُ منهم إزالَةَ عَتْبِنا عليهم ؛ فإنَّ إزالَتَهُ إنَّما تكونُ بالتَّوبَةِ ، وهي لا تنفعُ في الآخِرَةِ .

وهذا غيرُ استعتابِ العَبدِ ربَّهُ كما في قوله تعالى :﴿ فإن يَصبِروا فالنَّارُ مثوىً لهُم وإن يَستَعتَبوا فما هُم من المُعتَبينَ ﴾ [فصلت : ٢٤] ؛ فهذا معناهُ أن يطلبوا إزالَةَ عتبنا عليهم والعفوَ ، ﴿ فَمَا هُم من المُعتَبِينَ ﴾ أي : ما هم ممَّن يُزالُ العتبُ عليه ، وهذا الاستعتابُ ينفعُ في الدُّنيا دونَ الآخرَةِ .

موت العالم وموت العابد

الوجهُ السَّادسَ عَشَر بعد المِئة : قال عُمر رضيَ اللَّهُ عنهُ : موتُ ألفِ عابدٍ أهونُ من موتِ عالِمٍ بَصيرٍ بحلالِ اللَّهِ وحرامِهِ .

ووجهُ قولِ عمر ، أنَّ هذا العالِمَ يَهدمُ على إبليسَ كُلَّ ما يَبنيهِ بعلمِهِ وإرشادِهِ ، وأمَّا العابدُ فنفعُهُ مقصورٌ على نفسهِ .

كُلّ يوم بزيادة علم

الوجهُ السَّابعَ عَشَر بعد المِئة : قولُ بعضِ السَّلفِ : إذا أتى عليَّ يومٌ لا أزدادُ فيهِ علمًا يُقرِّبني إلى اللَّهِ تعالى فلا بُورِكَ لي في طلوعِ شمسِ ذلكَ اليومِ .

وقَد رُفعَ هذا إلى رسولِ اللَّهِ(١)، ورَفْعُهُ إليهِ باطلٌ ، وحَسْبهُ أن يَصِلَ إلى واحدٍ من الصَّحابَةِ أو التَّابعين .

وفي مثلهِ قال القائلُ :

إذا مرَّ بي يومٌ ولـم أستَفِدْ هُدىً
ولم أكتَسِبْ علمًا فما ذاكَ من عُمري

الإيمان ثمرته العلم

الوجهُ الثَّامنَ عَشَر بعد المِئة : قال بعضُ السَّلف : الإيمانُ عُريانٌ ، ولباسهُ التَّقوى ، وزينتُهُ الحياءُ ، وثمرتُهُ العلمُ .

وقَد رُفِعَ هذا أيضًا(٢)، ورفْعُهُ باطلٌ .

الفرق بين العالم والعابد

الوجهُ التَّاسعَ عَشَر بعد المِئة : أَنَّهُ في بَعضِ الآثارِ : « بينَ العالِمِ والعابِدِ مِئةُ درجَةٍ ، بين كُلِّ درجَتين حُضْرُ الجوادِ المُضْمَر سبعينَ سنةً » .

وقَد رُفعَ هذا أيضًا(٣)، وفي رفعِهِ نظرٌ .

---

(١) رواه - مرفوعًا - إسحاقُ بن راهويه في « مسنده » (١١٢٨) وأَبو نُعيم في « الحلية » (٦ / ١٠٠) وابن عبدالبر في « الجامع » (١ / ٦١) ، عن عائشة .

وحكم ابنُ الجوزيّ في « الموضوعات » (١ / ٢٣٣) بوضعِهِ .

وتابعه السيوطي في « اللآلئ » (١ / ٢٠٩) .

وانظر « سلسلة الأحاديث الضعيفة » (٣٧٩) و « شرح الإحياء » (١ / ٧٨) .

(٢) رواه الشَّجْريُّ في « أماليه » (١ / ١٥ و ٣٦) عن ابن مسعود .

وفي إسناده محمد بن عُبيد اللَّه العَرْزَميّ ، وهو متروكٌ .

« وقد أَخرجه الحاكم في « تاريخ نيسابور » عن أَبي الدرداء بسند ضعيف » كما قال العراقي في « تخريج الإحياء » (١ / ٦) .

وقد رواه مسدّد في « مسنده » - كما في « شرح الإحياء » (١ / ٧٣) - والخرائطي في « مكارم الأخلاق » (٢٧٣) عن وَهْب بن منبّه مقطوعًا بسند صحيح .

وقال السيوطي في « جَمْع الجوامع » (١ / ٤٠) : « معروف » !

(٣) رواه الأصبهانيُّ في « الترغيب » (٢١١٦) عن ابن عمر، بلفظ: « ..سبعين درجة» .=

مغفرة الله للعلماء

الوجهُ العُشرون بعد المِئة : ما رواهُ حربٌ في « مسائلهِ »[(١)] مرفوعًا إلى النَّبيِّ ﷺ : « يجمعُ اللَّهُ تعالى العُلماءَ يومَ القيامَةِ ، ثمَّ يقولُ : يا مَعشرَ العلماءِ ، إنِّي لم أضعْ عِلْمي فيكُم إلّا لعِلْمي بكُم ، ولم أضع عِلْمي فيكم لأُعذِّبكُم، اِذهَبوا فقَد غَفرتُ لكُم » .

وهذا وإنْ كانَ غَريبًا فلهُ شواهدُ حِسَانٌ[(٢)] .

العُلَماء هم النّاس

الوجهُ الحادي والعشرون بعد المِئة :قولُ ابن المبارك - وقد سُئل : مَن النّاس ؟ - قال : العلماءُ ، قيل : فمَن الملوكُ ؟ قال : الزهّادُ ، قيل : فمن السِّفْلةُ ؟ قال : الذي يأكُلُ بدينه !

العلمُ هو أفضل الحظوظ

الوجهُ الثّاني والعشرون بعد المِئة : أنَّ مَنْ أدركَ العلمَ لم يضرَّهُ ما فاتَهُ بعد إدراكِهِ ، إذ هو أفضلُ الحظوظِ والعطايا ، ومَن فاتَهُ العلمُ لم ينفعْهُ ما

= وفي سنده خارجه بن مُصعب ، وهو متروك ، وبه أَعلَّه العراقي في « تخريج الإِحياء » (١ / ٨٤) ، وصدَّره المُنذريُّ في « الترغيب » (١ / ١٠٢) بصيغةِ التمريض .

ورُوي - أَيضًا - من طرق كُلّها واهية ، كما تراها - بنقدها - في « تخريج الإِحياء » (١ / ٨٤ - ٨٥) .

و (الحُضْر) : نوع من أَنواع سير الفرس .

و (المُضْمَر) : هو الجواد المهيّأ للركض .

(١) ورواه ابن عدي في « الكامل » (٤ / ١٤٣٠) وابن عبدالبر في « الجامع » (رقم ٢٣٣) ، والطبراني في « الصغير » (٥٩١) و « الكبير » - كما في « المجمع » (١ / ١٢٦) - عن أَبي موسى الأَشعري .

وأَعلّه الهيثمي بموسى بن عُبيدة الرَّبَذيّ ؛ وهو ضعيفٌ جدًّا .

وفاتَه إِعلالُه بطلحة بن زيد ، وهو متهم ، كما قال ابن الجوزي في « الموضوعات » (١ / ٢٦٣) .

(٢) لا ، فانْظُرْ ما سيأْتي في التعليق على الوجهِ الخمسين بعد المئة .

حَصَلَ له من الحظوظ ، بل يكونُ وَبَالًا عليه وسببًا لهلاكِه .

وفي هذا قال بعضُ السَّلف : أيَّ شيءٍ أدركَ مَنْ فاته العلم ؟ وأيُّ شيءٍ فاته من أدركَ العلم ؟!

العلم حياةُ القلوب

الوجهُ الثَّالثُ والعشرون بعد المِئة : قال بعضُ العارفين : أليس المريضُ إذا مُنِعَ الطَّعامَ والشرابَ والدَّواءَ يموتُ ؟ قالوا : بلى، قال : فكذلك القلبُ إذا مُنِعَ عنه العلمُ والحكمةُ ثلاثةَ أيَّامٍ يموتُ .

وصَدَقَ ؛ فإنَّ العلمَ طعامُ القلبِ وشرابُهُ ودواؤهُ ، وحياتُهُ موقوفَةٌ على ذلك ، فإذا فَقَدَ القلبُ العلمَ فهو مَيْتٌ ، ولكنْ لا يشعُرُ بموتِه ، كما أنَّ السَّكرانَ الذي قد زال عقلُه ، والخائفَ الذي قد انتهى خوفه إلى غايته - والمحبّ والمفكِّر - قد بَطَلَ إحساسُهم بألمِ الجراحاتِ في تلك الحال ، فإذا صحوا وعادوا إلى حالِ الاعتدالِ أدركوا آلامَها .

هكذا العبدُ إذا حَطَّ عنه الموتُ أحمالَ الدُّنيا وشواغلَها أَحَسَّ بهلاكِهِ وخُسرانهِ .

فحتّامَ لا تصحُو وقد قَرُبَ المَدَىٰ
وحتّامَ لا ينجابُ عن قلبكِ السُّكرُ
بل سوفَ تَصحُو حين ينكشِفُ الغَطَا
وتذكُرُ قَولي حينَ لا ينفعُ الذِّكرُ

فإذا كُشفَ الغطاءُ ، وبَرِحَ الخفاءُ ، وبَلِيَتِ السَّرائرُ ، وبَدَتِ الضَّمائرُ ، وبُعثِرَ ما في القبور ، وحُصِّلَ ما في الصُّدورِ ؛ فحينئذٍ يكونُ **الجهلُ** ظُلمةً على

الجاهلين ، والعلمُ حسرةً على البطّالين .

العلم جهاد

الوجهُ الرَّابعُ والعشرون بعد المِئة : قال أبو الدَّرداء : مَن رأى أنَّ الغُدُوَّ إلى العلمِ ليسَ بجهادٍ فَقَد نَقَصَ في رأيِهِ وعقلِهِ .

وشاهدُ هذا قولُ معاذٍ ، وقد تقدَّم .

العلم وقيام الليل

الوجهُ الخامسُ والعشرون بعد المِئة : قولُ أبي الدَّرداء - أيضًا - : لَأَنْ أتعلّم مسألةً أحبُّ إليَّ من قيامِ ليلةٍ.

بين العالم والمتعلّم

الوجهُ السَّادسُ والعشرون بعد المِئة : قولُه أيضًا : العالِمُ والمُتعلِّمُ شريكانِ في الأجرِ ، وسائرُ النَّاسِ هَمَجٌ لا خَيرَ فيهم(١) .

طالب العلم كالمجاهد

الوجهُ السابعُ والعشرون بعد المئة : ما رواهُ أبو حاتمِ بن حِبَّان في « صحيحِهِ »(٢) من حديثِ أبي هريرَة : أنَّهُ سمعَ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول : « مَن دخَلَ مسجدنا هذا ليتعلَّمَ خيرًا أو ليعلِّمَهُ كانَ كالمُجاهِدِ في سبيلِ اللَّهِ ، ومَن دخلَهُ لغَيرِ ذلكَ كان كالنَّاظرِ إلى ما ليسَ له » .

---

(١) رواه عبدالله بن أَحمد في « زوائد الزهد » (٢ / ٥٧) و أبو نُعَيم في « الحلية » (١ / ٢١٢) وابن عبدالبرّ في « الجامع » (١ / ٣٣ ، ٣٤) ، والدارمي (١ / ٧٩ و ٩٥) ، وابن المُبارك في « الزهد » (٥٤٣) ، والآجُرِّي في « أَخلاق العُلماء » (٣٢) بسند منقطع .

(٢) (رقم : ٨٧) .

ورواه ابن ماجه (٢٢٧) ، وابن أَبي شيبة (١٢ / ٢٠٩) ، وأَحمد (٢ / ٣٥٠ و٤١٥ و ٥٢٦) والحاكم (١ / ٩١) بسند حسن .

وصحّحه البوصيري في « الزوائد » (ق ١٦ / ب) .

ويشهد له حديثُ سَهْل بن سَعْد عند الطبراني في « الكبير » (٥٩١١) ، وسنده حسنٌ في الشواهد .

إيواء الله سبحانه لطالب العلم

الوجه الثَّامن والعشرون بعد المِئة : ما رواهُ(١) أيضًا في « صحيحهِ » من حديثِ الثَّلاثةِ الذينَ انتهَوا إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ وهو جالسٌ في حَلْقةٍ ، فأعرَضَ أحدُهم ، واستحى الآخرُ ، فجلَسَ خلفَهُم ، وجَلَسَ الثَّالثُ في فُرجَةٍ في الحَلْقَةِ ، فقال النَّبيُّ ﷺ : « أمَّا أحدُهم فآوى إلى اللَّهِ ؛ فآواهُ اللَّهُ ، وأمَّا الآخَرُ فاسْتَحيىٰ ؛ فاسْتَحيىٰ اللَّهُ منهُ ، وأمَّا الآخَرُ فأعرَضَ ؛ فأعَرَضَ اللَّهُ عنهُ » .

فلو لم يكُن لطالبِ العلمِ إلّا أنَّ اللَّهَ يُؤويهِ إليهِ ولا يُعرِضُ عنه لكفى به فضلًا .

مِن فضائل العلم وأهلهِ

الوجهُ التَّاسعُ والعشرون بعد المِئة : ما رواهُ كُمَيْلُ بن زياد النَّخعي ، قال : أخَذَ عليٌّ بن أبي طالبٍ رضيَ اللَّهُ عنهُ بيدي ، فأخرَجَني ناحيَةَ الجَبَّانَةِ ، فلمَّا أصحَرَ جَعَلَ يتنفَّسُ ، ثمَّ قال : يا كُميل بن زيادٍ ! القلوبُ أوعيَةٌ فخَيرُها أوعاها للخير ، اِحفَظْ عنِّي ما أقولُ : النَّاسُ ثلاثةٌ ؛ فعالمٌ ربَّانيٌّ ، ومُتعلِّمٌ على سبيلِ نجاةٍ ، وَهَمَجٌ رَعَاعٌ أتباعُ كلِّ ناعقٍ ، يميلونَ معَ كلِّ ريحٍ ، لم يَستَضيئوا بنورِ العلمِ ، ولم يلجأوا إلى رُكنٍ وثيقٍ، العلمُ خَيرٌ من المالِ، العلمُ يحرسُكَ وأنتَ تحرسُ المالَ، العلمُ يزكو على الإنفاقِ - وفي روايةٍ : على العملِ - والمالُ تَنْقُصُهُ النَّفقةُ، العلمُ حاكمٌ ، والمالُ محكومٌ عليهِ، ومحبَّةُ العلمِ دينٌ يُدانُ بها، العلمُ يُكسِبُ العالِمَ الطَّاعَةَ في حياتهِ ، وجميلَ الأُحدوثَةِ بعدَ وفاتهِ، وصنيعَةُ المالِ تزولُ بزوالهِ، ماتَ خُزَّانُ الأموالِ وهم أحياءٌ، والعلماءُ باقونَ ما بقيَ الدَّهرُ، أعيانُهُم مفقودَةٌ، وأمثالُهم في القلوبِ موجودَةٌ ، هاه هاه ... إنَّ هٰهنا

---

(١) أي : ابنُ حبَّان ، وهو فيه (برقم : ٨٦) .
ورواه البخاري (٦٦) و (٤٧٤) ، ومسلم (٢١٧٦) .

علمًا - وأشارَ بيدِهِ إلى صدرِهِ - لو أصَبْتَ له حملَةً ، بل أصبتهُ لَقِنًا غيرَ مأمونٍ عليه ، يستعملُ آلَةَ الدِّينِ للدُّنيا ، يستظهِرُ بحُجَجِ اللَّهِ على كتابِهِ ، وبنعمِهِ على عبادِهِ ، أو مُنقادًا لأهلِ الحقِّ ، لا بَصيرَةَ له في أَحْنائِهِ[(1)] ، ينقدحُ الشكُّ في قلبِهِ بأوَّلِ عارضٍ من شُبهَةٍ، لا ذا ولا ذاكَ، أو منهومًا للذَّاتِ، سَلِسَ القيادِ للشهواتِ، أو مُغرىً بجمعِ الأموالِ والادِّخارِ ، ليسَ من دُعاةِ الدِّينِ، أقربُ شيءٍ شَبَهًا بهم الأنعامُ السَّائمَةُ ؛ لذلكَ يموتُ العلمُ بموتِ حامليهِ، اللَّهمَّ بلَى : لن تَخْلُوَ الأرضُ من قائمٍ للَّهِ بحُجَّتِهِ ، لكيلا تبطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وبيِّناتُهُ ، أولئكَ الأقلُّونَ عددًا ، الأعظمونَ عند اللَّهِ قيلًا ، بهم يدفعُ اللَّهُ عن حُجَجِهِ حتى يؤدُّوها إلى نُظرائهم ، ويزرعوها في قُلوبِ أشباههم ، هجَمَ بهم العلمُ على حقيقةِ الأمرِ ؛ فاستلَانوا ما استوعَرَ منه المُتْرَفونَ ، وأَنِسوا بما استوحَشَ منه الجاهلونَ ، صَحِبوا الدُّنيا بأبدانٍ أرواحُها مُعلَّقةٌ بالملأِ الأعلى ، أولئكَ خُلَفاءُ اللَّهِ[(2)] في أرضِهِ ودُعاتُهُ إلى دينِهِ ، هاه هاه ... شوقًا إلى رؤيتهم ، وأستغفرُ اللَّهَ لي ولكَ ، إذا شئتَ فقُم » .

ذكرهُ أبو نُعَيم في « الحِلْيَة »[(3)] وغيرهُ .

---

(١) أي : أَطرافه . كذا في حاشيةِ النسخة البغداديّة .

(٢) هذا تعبيرٌ لم يرد عليه دليلٌ في الكتاب والسنَّة .

وقد ناقَشَهُ المؤلِّفُ طويلًا ، فيما يأتي عند شرحِه لهذه الجملةِ .

وانظر « معجم المناهي اللفظيّة » (ص ١٥٦-١٦٠) لفضيلة الأخ الشيخ بكر أَبو زَيْد .

(٣) (١ / ٧٩ - ٨٠) .

ورواه الخطيب في « الفقيه والمتفقه » (١ / ٤٩) والشجري في « أَماليه » (ص : ٦٦) والمِزّي في « تهذيب الكمال » (٢٤ / ٢٢٠) والنَّهْرَوانيُّ في « الجليس الصالح » (٣ / ٣٣١).

وقارِنْ بـ « شرح نهج البلاغة » (٤ / ٣١١) و « العِقْد الفريد » (٢ / ٢١٢) .

قال أبو بكرٍ الخطيب[1]: هذا حديثٌ حسنٌ من أحسَنِ الأحاديثِ معنىً ، وأشرفِها لفظًا ، وتقسيمُ أميرِ المؤمنينَ للنَّاسِ في أوَّلِه تقسيمٌ في غايَةِ الصِّحَّةِ ونهايَة السَّدادِ ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يخلو من أحَدِ الأقسامِ التي ذكرها معَ كمالِ العقلِ وإزاحَةِ العِلَلِ ؛ إمَّا أن يكونَ عالمًا ، أو مُتعلِّمًا ، أو مُغْفِلًا للعلمِ وطلبِهِ ليسَ بعالِمٍ ولا طالبٍ له :

فالعالِمُ الرَّبانيُّ هو الذي لا زيادَةَ على فضلهِ لفاضلٍ ، ولا منزلَةَ فوقَ منزلتِهِ لمجتَهِدٍ .

وقَد دخَلَ في الوَصفِ له بأنَّهُ ربَّانيٌّ وَصْفُهُ بالصِّفاتِ التي يقتضيها العلمُ لأهلِهِ ، ويمنعُ وَصْفَهُ بما خالفها .

ومعنى الرَّبَّاني في اللغَةِ : الرَّفيعُ الدَّرجَةِ في العلمِ ، العالي المنزلةِ فيه، وعلى ذلكَ حمَلوا قولَه تعالى : ﴿ لولا يَنهاهُم الرَّبَّانِيُّون والأَحبارُ ﴾ [المائدة : ٤٣]، وقوله : ﴿ كونوا ربَّانيِّينَ ﴾ [آل عمران : ٧٩]، قال ابنُ عبَّاسٍ : حكَماءَ فقهاءَ، وقال أبو رَزينٍ : فقهاءَ علماءَ .

وقال أبو عُمر الزَّاهد : سألتُ ثعلبًا عن هذا الحرف - وهو الرَّبَّاني - ؟ فقال : سألتُ ابنَ الأعرابي ؟ فقال : إذا كانَ الرَّجلُ عالمًا عاملًا معلِّمًا قيلَ له : هذا ربَّاني ؛ فإنْ حُرِمَ عَن خصلَةٍ منها لم نَقُل له : ربَّاني .

---

(١) في « الفقيه والمتفقّه » (١ / ٥٠) بأطول ممّا هنا .

وقال ابن عبدالبرّ في « جامع بيان العلم » (٢ / ١١٢) :

« وهو حديثٌ مشهورٌ عند أَهل العلم ، يَستغني عن الإسنادِ ، لشهرتهِ عندهم » .

وقال ابنُ كثير في « تاريخه » (٩ / ٤٧) :

« قد رواه جماعةٌ من الحُفَّاظ الثقات » .

قال ابنُ الأنباريِّ عن النَّحويِّينَ : إِنَّ الرَّبَّانيِّينَ منسوبونَ إلى الرَّبِّ ، وإِنَّ الأَلِفَ والنُّون زِيدَتا للمبالَغةِ في النَّسَب ، كما تقول : لِحْيانيّ وجُمَّانيّ[1] إذا كانَ عظيمَ اللحيَةِ والجُمَّةِ .

وأمَّا المتعلِّمُ على سبيلِ النَّجاةِ فهو الطَّالبُ بتعلُّمِهِ - والقاصدُ به - نجاتَهُ من التَّفريطِ في تَضييعِ الفروضِ الواجبَةِ عليهِ ، والرَّغبَةَ بنفسهِ عن إهمالها واطِّراحِها ، والأَنَفَةَ من مجالَسَةِ البهائِمِ .

ثمَّ قال[2]: وقَد نَفى بعضُ المتقدِّمينَ عن النَّاسِ مَنْ لم يكُن من أهلِ العلمِ.

وأمَّا القسمُ الثَّالث : فهم المُهمِلونَ لأنفسهم ، الرَّاضُونَ بالمنزلَةِ الدَّنيَّةِ والحالِ الخسيسَةِ ، التي هي في الحضيضِ الأَوْهَدِ والهُبوطِ الأسفَلِ التي لا منزلَةَ بعدَها في الجهلِ ولا دونها في السُّقوطِ .

وما أحسَنَ ما شبَّهَهُم بالهَمَجِ الرَّعاعِ ! وبه يُشبَّهُ دُناةُ النَّاسِ وأراذلُهم .

والرَّعاعُ : المتبدِّد المتفرِّق ، والنَّاعقُ : الصَّائحُ ، وهو في هذا الموضع الرَّاعي ، يُقالُ : نعَقَ الرَّاعي بالغَنَم ينعقُ : إذا صاحَ بها، ومنه قولُه تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذينَ كفروا كمَثَلِ الَّذي يَنعِقُ بما لا يسمعُ إلّا دُعاءً ونداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فهم لا يعقلونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] .

ونحنُ نشيرِ إلى بعضِ ما في هذا الحديثِ من الفوائدِ :

فقولِه رضيَ اللَّهُ عنهُ : « **القلوبُ أوعيَةٌ** » ؛ يُشبِّهُ القَلبَ بالوعاءِ والإناءِ والوادي ؛ لأنَّهُ وعاءٌ للخَيرِ والشرِّ .

---

(١) انظر « الأنساب » (٣ / ٢٩٩) .

(٢) أي : الخطيب .

وفي بعضِ الآثارِ[١]: إنَّ للَّهِ في أرضِهِ آنيَةً - وهي القلوبُ - ، فخَيرُها أرقُّها وأصلبُها وأصفاها ؛ فهي أواني مملوءةٌ من الخَيرِ ، وأواني مملوءَةٌ من الشرِّ ؛ كما قالَ بعضُ السَّلفِ : قلوبُ الأبرارِ تَغلي بالبِرِّ، وقلوبُ الفُجّارِ تَغلي بالفجورِ .

وفي مثلِ هذا قيلَ في المَثَل : وكلُّ إناءٍ بما فيه ينضحُ[٢]، وقال تعالى : ﴿ أنزَلَ من السَّماءِ ماءً فسالَتْ أوديَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد : ١٧] .

شبَّهَ العِلمَ بالماءِ النَّازلِ من السَّماءِ ، والقلوبَ في سَعَتِها وضيقِها بالأوديَةِ ؛ فقلبٌ كبيرٍ واسعٌ يَسَعُ عِلمًا كثيرًا كوادٍ كبيرٍ واسعٍ يسعُ ماءًا كثيرًا ، وقلبٌ صغيرٌ ضيِّقٌ يسعُ علمًا قليلًا كوادٍ صَغيرٍ ضيّقٍ يسعُ ماءً قليلًا ، ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ : « لا تُسَمُّوا العنبَ الكَرْمَ ؛ فإنَّ الكرمَ قلبُ المؤمنِ »[٣]، فإنَّهم كانوا يُسمُّونَ شجرَ العنبِ الكَرْمَ لكثرَةِ منافعهِ وخيرهِ ، والكَرْمُ كثرةُ الخيرِ والمنافعِ ، فأخبَرَهُم أنَّ قَلبَ المؤمنِ أولى بهذه التَّسميَةِ لكثرَةِ ما فيهِ من الخَيرِ والبرّ المنافعِ .

وقولُهُ : « فخَيْرُها أوعاها » ؛ يُرادُ به أسرعُها وعيًا ، وأَكثرُها وأثبتُها وعيًا ، ويُرادُ به أيضًا أحسنُها وعيًا ، فيكونُ حُسْنُ الوعيِ الذي هو أيضًا لِمَا يُقال له في قلبِهِ ، وهو سرعتُهُ وكثرتُهُ وثَباتُهُ .

والوعاءُ من مادَّةِ الوَعي ؛ فإنَّهُ آلةُ ما يُوعى فيه كالغِطاءِ والفِراشِ والبِساطِ ونحوها ، ويُوصَفُ بذلكَ القلبُ والأُذُنُ ، كقولِه تعالى : ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغى الماءُ

---

(١) رواه أحمد في « الزهد » (٣٨٤) من قول خالد بن مَعْدان .
وصحَّ نحوُه مرفوعًا ؛ فانظره في « سلسلة الأحاديث الصحيحة » (٦٩١) .
(٢) « المستصفى في أمثال العرب » (٢ / ٢٢٤) للزمخشري .
(٣) رواه البخاري (٦١٨٣) ، ومسلم (٢٢٤٦) عن أبي هريرة .

حَمَلْناكم في الجارية لنَجعلَها لكم تذكرةً وتعِيَها أُذُنٌ واعيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١ - ١٢]، قال قتادَةُ : أُذنٌ سمعَت وعقلَت عن اللَّهِ ما سمعَت .

وقال الفرّاءُ : لتحفظَها كلُّ أُذنٍ فتكونَ عظَةً لمَن يأتي بَعْدُ .

فالوَعيُ تُوصَفُ به الأُذُنُ كما يُوصَفُ به القلبُ، يقال : قلبٌ واعٍ ، وأُذنٌ واعيةٌ ، لِمَا بينَ الأُذُنِ والقَلبِ من الارتباطِ، فالعلمُ يدخُلُ من الأُذنِ إلى القَلبِ ، فهي بابُهُ ورسولُهُ المُوْصِلُ إليهِ ، كما أنَّ اللسانَ رسولُهُ المؤدِّي عنه .

ومَن عَرَفَ ارتباطَ الجوارحِ بالقَلبِ علمَ أنَّ الأُذُنَ أحقُّها أن تُوصَفَ بالوَعيِ ، وأنَّها إذا وَعَتْ وَعى القلبُ .

وفي حديثِ جابرٍ[1] في المثَلِ الذي ضَرَبَتْهُ الملائكَةُ للنَّبيِّ ﷺ ولأُمَّتِهِ ، وقولِ المَلَكِ له : « اِسمع ! سَمِعَتْ أُذنُكَ ، و [اعْقِل] ! عَقَلَ قلبُكَ » .

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٦٠) من طريق سعيد بن أَبي هلال عن جابر .

وأَعلَّه الترمذي بالانقطاع .

ولكنْ قال الحافظُ ابن حجر في « فتح الباري » (١٣ / ٢٥٦) : « وقد اعتضد هذا المنقطعُ بحديث ربيعة الجُرَشي عند الطبراني ، فإنه بنحو سياقه ، وسنده جيد » .

وقال في « تغليق التعليق » (٥ / ٣٢١) : « وقد رُوي هذا الحديث مِن غير وجهٍ بإسنادٍ أَصحَّ من هذا » .

قلتُ : هو في « المعجم الكبير » (٤٥٩٧) مِن طريق ريحان بن سعيد ، عن عباد بن منصور ، عن أَيوب ، عن أَبي قلابَة ، عن عطيَّة أَنّه سمع ربيعة الجُرَشي ، فذكره .

ورواه الدارمي في « سننه » (١١) بالإِسناد نفسِه .

وقال الهيثمي في « المجمع » (٨ / ٢٦٠) : « بإسناد حسن » .

قلتُ : لكنْ فيه عبَّاد بن منصور ، وقد رُمي بالتدليس !

نعم ؛ الحديث رواه البخاري (٧٢٨١) عن جابرٍ بنحوهِ ، دون موضع الشاهد الذي أَورده المصنِّفُ مِن أَجله .

فلمَّا كانَ القلبُ وعاءً، والأُذُنُ مدخَلَ ذلكَ الوعاءِ وبابَهُ كانَ حصولُ العلمِ موقوفًا على حُسنِ الاستماعِ

وعقلُ القَلبِ هو ضَبطُ ما وَصَلَ إلى القَلبِ وإمساكُه حتى لا يتفلَّتَ منه .

ومنه : عَقَلَ البَعيرَ والدَّابَّةَ ، والعِقالُ لِمَا يُعقَلُ به ، وعقلُ الإنسانِ يسمَّى عقلًا لأنَّهُ يَعْقِلُهُ عن اتِّباعِ الغَيِّ والهلاكِ ، ولهذا يُسمَّى حِجْرًا ؛ لأنَّهُ يمنعُ صاحبَهُ كما يمنعُ الحِجْرُ ما حواهُ ، فعقلُ الشيءِ أخَصُّ من علمِهِ ومعرفتِهِ ، لأنَّ صاحبَهُ يعقلُ ما عَلِمَهُ فلا يدعُهُ يذهَبُ كما تُعقَلُ الدَّابَّةُ التي يُخافُ شرودُها .

وللإدراكِ مراتبُ بعضُها أقوى من بعضٍ ؛ فأوَّلُها الشعورُ ، ثمَّ الفَهم ، ثمَّ المعرفَةُ ، ثمَّ العلمُ ، ثمَّ العقلُ .

ومُرادُنا هنا بالعَقلِ المَصدرُ، لا القُوَّةُ الغَريزيَّةُ التي ركَّبها اللَّهُ في الإنسانِ ، فخَيرُ القلوبِ ما كانَ واعيًا للخَيرِ ضابطًا له، وليسَ كالقَلبِ القاسي الذي لا يَقبلُهُ؛ فهذا قلبٌ حَجَريٌّ ، ولا كالمائعِ الأخْرَقِ الذي يقبلُ ولكنْ لا يحفظُ ولا يضبطُ ، فتفهيمُ الأوَّلِ كالرَّسمِ في الحَجَر[1] ، وتفهيمُ الثَّاني كالرَّسمِ على الماءِ .

بل خيرُ القلوبِ ما كانَ ليِّنًا صَلبًا يقبلُ بلينِهِ ما ينطبعُ فيه ، ويحفظُ صورَتَهُ بصلابتِهِ ، فهذا تفهيمُه كالرَّسمِ في الشمعِ وشبهِهِ .

وقولُه : « النَّاسُ ثلاثةٌ : **فعالمٌ ربَّانِيٌّ ومتعلِّمٌ على سبيلِ النَّجاةِ ، وهَمَجٌ رَعاعٌ** » ؛ هذا تقسيمٌ خاصٌّ للنَّاسِ ، وهو الواقعُ ؛ فإنَّ العبدَ إمَّا أن يكونَ قد حَصَّلَ كمالَهُ من العلمِ والعَمَلِ أو لا ؛ فالأوَّلُ : العالمُ الرَّبَّاني ، والثَّاني : إمَّا أن

---

(١) رُوي نحوُ هذا المعنى مقطوعًا من قولِ الحَسَن البصري ، كما في « الإلماع » (١ / ٦٧) للقاضي عياض ، و « الفقيه والمتفقّه » (٢ / ٩١) للخطيب ، و « المدخل » (٦٤٠) للبيهقي .

تكونَ نفسُهُ مُتحرِّكَةً في طلبِ ذلك الكمالِ ساعيةً في إدراكِهِ أو لا ، والثَّاني هو المتعلِّمُ على سبيلِ النَّجاةِ ، والثَّالثُ هو الهَمَجُ الرَّعاعُ ؛ فالأوَّلُ : هو الواصلُ ، والثَّاني : هو الطَّالبُ ، والثَّالثُ : هو المحروم .

والعالِمُ الرَّبَّانيُّ، قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ اللَّهُ عنهما : هو المُعلِّمُ .

أخَذَهُ من التَّربيَةِ؛ أي : يُربِّي النَّاسَ بالعلمِ، ويُربِّيهم به كما يربِّي الطِّفلَ أبوهُ .

وقالَ سَعيدُ بن جُبَير : هو الفَقيهُ العليمُ الحكيمُ .

قال سيبويهِ : زادوا أَلِفًا ونُونًا في الرَّبَّاني إذا أرادوا تخصيصًا بعلمِ الرَّبِّ تبارَكَ وتعالى ، كما قالوا : شَعْرانيّ ولِحيانيّ .

معنى قولِ سيبويهِ - رحمهُ اللَّهُ - أَنَّ هذا العالِمَ لمَّا نُسبَ إلى علمِ الرَّبِّ تعالى الذي بَعثَ به رسولَهُ وتخصَّصَ به نُسِبَ إليهِ دونَ سائرِ مَن عَلِمَ علمًا .

قال الواحديُّ[1] : فالرَّبَّانيُّ - على قولِه - منسوبٌ إلى الرَّبِّ ، على معنى التَّخصيصِ بعلمِ الرَّبِّ ، أي : يُعلِّمُ الشريعَةَ وصفاتِ الرَّبِّ تباركَ وتعالى .

قال المُبَرِّد : الرَّبَّاني الذي يَرُبُّ العلمَ ويَرُبُّ النَّاسَ به، أي: يُعلِّمهم ويُصلحهم .

وعلى قولِه ؛ فالرَّبَّانيُّ مِنْ (رَبَّ يرُبُّ ربًّا) أي : يُربِّيهِ ، فهو منسوبٌ إلى التَّربيَةِ[2]، يربِّي علمَهُ ليكمُلَ ويتمَّ بقيامهِ عليهِ وتعاهُدهِ إيَّاهُ ، كما يُربِّي صاحبُ المالِ مالَهُ ، ويُربِّي النَّاسَ به كما يربِّي الأطفالَ أولياؤهم .

وليسَ هذا من قولِهِ : ﴿ وكَأَيِّن مِن نَبيٍّ قاتَلَ معَهُ رِبِّيُّونَ كثيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] ، فالرِّبِّيُّونَ هنا : الجماعاتُ ، بإجماعِ المفسِّرينَ[3] ،

(١) في « التفسير الوسيط » (١ / ٤٥٦) له .

(٢) انظر كتابي «التصفية والتربية وأَثرُهما في استئناف الحياة الإِسلامية»(ص - ٩٥ - ١٠١) .

(٣) انظر « تفسير الطبريّ » (٣ / ١١٧) و « زاد المسير » (٢ / ٤٧٢) و « تفسير ابن كثير » (١ / ٦١٥) .

قيلَ : إنَّهُ من الرِّبَّة - بكسرِ الرَّاء - وهي الجماعَةُ .

قال الجوهريُّ(١) : الرِّبِّيُّ واحدُ الرِّبِّيِّينَ ؛ وهم الألوفُ من النَّاسِ .

قال تعالى : ﴿ وكَأَيِّن مِن نَبيٍّ قاتَلَ معَهُ رِبِّيُّونَ كثيرٌ فَما وَهَنوا لما أصابَهُم ﴾ [آل عمران : ١٤٦] .

ولا يُوصَفُ العالِمُ بكونِهِ ربَّانيًّا حتى يكونَ عاملًا بعلمِهِ مُعلِّمًا له .

فهذا قسمٌ .

والقسمُ الثَّاني : مُتعلِّمٌ على سبيلِ نجاةٍ ؛ أي : قاصدًا بعلمِهِ النَّجاةَ ، وهو المُخلِصُ في تعلُّمِهِ ، المُتعلِّمُ ما ينفعُهُ، العاملُ بما عَلِمَهُ، فلا يكونُ المُتعلِّمُ على سبيلِ نجاةٍ إلّا بهذه الأُمورِ الثَّلاثَةِ ؛ فإنَّهُ إنْ تعلَّمَ ما يضرُّهُ ولا ينفعُهُ لم يكُن على سبيلِ نجاةٍ، وإنْ تعلَّمَ ما ينتفعُ به لا للنَّجاةِ؛ فكذلكَ، وإنْ تعلَّمهُ ولم يعملْ به لم يحصُلْ له النَّجاةُ، ولهذا وصَفَهُ بكونِهِ على السَّبيلِ، أي : على الطَّريقِ التي تُنجيهِ .

وليسَ حرفُ (على) وما عَمِلَ فيه مُتعلِّقًا بِ « مُتَعَلِّم » إلّا على وجهِ التَّضمين ؛ أي : مُفتِّشٍ مُتطلِّعٍ على سبيلِ نجاتهِ، فهذا في الدَّرجَة الثَّانيَةِ وليسَ ممَّن تعلَّمَهُ ليماري به السُّفهاءَ أو يُجاري به العلماءَ أو يَصرفَ وجوهَ النَّاسِ إليهِ ؛ فإنَّ هذا من أهلِ النَّارِ كما جاءَ في الحديثِ(٢)، وثبَّتهُ أبو نُعيم وأبو عَمْرو ابن الصلّاح وغيرُهما .

---

(١) في « الصِّحاح » (ص ٢٨٨ - المُختار) .

(٢) رواه الترمذي (٢٦٥٤) ، والحاكم (١ / ٨٦) ، والطبراني (١٩ / ١٠٠) والخطيب في « الجامع » (١ / ٢) والآجُرّي في « أَخلاق العُلماء » (٥٩) عن كعب بن مالك .

وفي سنده إسحاق بن يحيى بن طلحة ؛ هو إلى الضعف أَقرب ، وبه أَعلَّه ابنُ عديّ (١ / ٣٢٦) ، والعُقَيليّ (١ / ١٠٤) ، وابن الجوزيّ في « الواهيات » (٨٦) . =

قال ابنُ الصلاح : وَثبَّتَ أَبو نُعيم - أَيضًا - قولَه ﷺ : « مَن تعلَّمَ علمًا ممَّا يُبتَغى به وجهُ اللّهِ لا يتعلَّمُهُ إلّا ليصيبَ عَرَضًا من الدُّنيا لم يجد رائحَةَ الجنَّة »[١] .

قال : وثَبَّتَ[٢] - أيضًا - قولَهُ ﷺ : « أشدُّ النَّاسِ عذابًا يومَ القيامَةِ عالمٌ لم ينفعْهُ اللّهُ بعلمِهِ » .

فهؤلاءِ ليسَ فيهم مَن هو على سبيلِ النَّجاةِ ، بل على سبيلِ الهَلَكَةِ ، نعوذُ باللّهِ من الخِذلانِ .

القسمُ الثَّالثُ : المحرومُ المُعرِضُ؛ فلا عالمٌ ولا متعلِّمٌ، بل هَمَجٌ رعاعٌ .

والهَمَجُ من النَّاسِ حُمَقاؤهم وجَهَلَتُهم، وأصلهُ من (الهَمْجِ) جمعُ (هَمَجَةُ)[٣]؛ وهو ذبابٌ صغيرٌ كالبَعوضِ يسقطُ على وجوهِ الغَنمِ والدَّوابِّ

= ولكن ؛ له شواهد ، منها :

ما رواه ابن ماجه (٢٥٤) وابن حبَّان (٩٠) والحاكم (١ / ٨٦) والبيهقي في « الشعب » (١٦٣٥) وفي « المدخل » (٣١٢) وابن عبدالبرّ في « الجامع » (١ / ٢٢٩) والخطيب في « الفقيه والمتفقه » (٢ / ٨٨) عن جابر بن عبداللّه .

وصحَّحه البوصيري في « مصباح الزجاجة » (ق ٢٠ / أ) .

ولكنْ ؛ فيه عنعنتا ابن جُريج وأبي الزُّبير !

وفي الباب أَحاديث أُخرى أَيضًا .

(١) رواه أَحمد (٢ / ٣٣٨) وأَبو داود (٣٦٦٤) وابن ماجه (٢٥٢) والخطيب في « تاريخه » (٥ / ٣٤٦) و (٨ / ٧٨) و « الاقتضاء » (١٠٢) والآجرّي في « أَخلاق العلماء » (٦٨) عن أَبي هُريرة .

وفي سنده فُليح بن سليمان ، وهو سَيِّئُ الحفظ .

ويشهد له ما قبله .

(٢) تقدَّمَ تخريجُهُ ، وبيانُ أَنَّه ضعيفٌ جدًّا .

(٣) انظر « القاموس المحيط » (٢٦٩) .

وأعيُنِها ، فشبَّه هَمَجَ النَّاس به ، والهَمَجُ أيضًا مصدرٌ .

قال الرَّاجزُ :

قَد هَلَكَتْ جارَتُنا من الهَمَجْ وإنْ تَجُعْ تأكلْ عَتُودًا أو بَذَجْ(١)

والهَمَجُ هنا مَصدَرٌ ، ومعناهُ : سوءُ التَّدبير في أمرِ المعيشَةِ .

وقولُهم : هَمَجٌ هامِجٌ ، مثل : ليلٌ لايلٌ .

والرَّعاعُ من النَّاسِ : الحَمقى الذين لا يُعتَدُّ بهم .

وقولُه : « **أتباع كلِّ ناعقٍ** » ؛ أي : مَن صاحَ بهم ودعاهُم تَبِعوهُ ، سواءٌ دعاهُم إلى الهُدى أو إلى ضَّلالٍ .

فإنَّهُم لا علمَ لهم بالذي يُدْعَونَ إليهِ أحقٌّ هو أم باطلٌ ؟ فهم مُستجيبونَ لدعوتهِ ، وهؤلاءِ مِن أضرِّ الخلقِ على الأديانِ ، فإنَّهُم الأكثرونَ عَدَدًا ، الأقلُّونَ عندَ اللَّهِ قَدْرًا ، وهم حَطَبُ كُلِّ فتنَةٍ ، بهم تُوقَدُ ويَشُبُّ ضِرَامُها ، فإنَّها يعتزلُها أولو الدِّينِ ، ويتولَّاها الهَمَجُ الرَّعاعُ .

وسُمِّيَ داعيهم ناعقًا تشبيهًا لهم بالأنعامِ التي يَنعقُ بها الرّاعي فتَذهَبُ معه أينَ ذَهَب !

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ **وَمَثَلُ الَّذينَ كَفَروا كمثَلِ الَّذي يَنعِقُ بما لا يسمعُ إلّا دُعاءً ونداءً صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ فهم لا يعقلون** ﴾ [البقرة : ١٧١] .

وهذا الذي وصَفَهُم به أميرُ المؤمنينَ هو من عدمِ علمهِم وظُلمَةِ قلوبهم ، فليسَ لهم نورٌ ولا بَصيرَةٌ يُفرِّقونَ بها بينَ الحقِّ الباطلِ ، بل الكلُّ عندهم سواءٌ .

وقولُهُ رضيَ اللَّهُ عنهُ : « **يميلونَ مَعَ كلِّ ريحٍ** » ، وفي روايَةٍ : « **مع كلِّ صائحٍ** » ؛ شبَّهَ عقولَهم الضَّعيفَةَ بالغُصْنِ الضَّعيفِ ، وشبَّهَ الأهويَةَ والآراءَ

---

(١) قال في « القاموس المحيط » (ص : ٢٣٠) : « البَذَج، وَلَد الضأْن، كالعَتود من المَعَز » .

بالرِّياحِ، والغُصنُ يميلُ مع الرِّيحِ حيثُ مالتْ ، وعقولُ هؤلاء تَميلُ مع كلِّ هوىً وكلِّ داعٍ ، ولو كانَت عقولًا كاملَةً كانَت كالشجرَةِ الكبيرَةِ التي لا تتلاعَبُ بها الرِّياحُ .

وهذا بخلافِ المثلِ الذي ضرَبَهُ النَّبيُّ ﷺ للمؤمنينَ بالخامةِ من الزَّرعِ ، تُفيئهُ الرِّيحُ مرَّةً وتُقيمُهُ أُخرى، والمنافقُ كشجرَةِ الأَرُزِّ التي لا تُقطَعُ حتى تُستحصَدَ[1] .

فإنَّ هذا المَثَلَ ضُرِبَ للمؤمنِ وما يلقاهُ من عواصفِ البلاءِ والأوجاعِ والأوجالِ وغيرها ، فلا يَزالُ بين عافيَةٍ وبلاءٍ، ومحنَةٍ ومنحَةٍ، وصحَّةٍ وسقَمٍ، وأمنٍ وخَوفٍ، وغير ذلكَ ، فيقعُ مرَّةً ويقومُ أخرى ، ويميلُ تارَةً ويعتدلُ أخرى ، فيُكَفَّرُ عنه بالبلاءِ ويُمحَّصُ به ويُخلَّصُ من كدرِهِ ، والكافرُ كلُّهُ خبثٌ ولا يَصْلُحُ إلّا للوَقودِ ، فليسَ في إصابتهِ في الدُّنيا بأنواعِ البلاءِ من الحكمَةِ والرَّحمَةِ ما في إصابَةِ المؤمنِ .

فهذه حالُ المؤمنِ في الابتلاء .

وأمَّا معَ الأهواءِ ودُعاةِ الفتَنِ والضَّلالِ والبدعِ ، فكما قيلَ :

تزولُ الجبالُ الرَّاسياتُ وقلبُهُ على العَهدِ لا يَلوي ولا يتَغَيَّرُ

وقولُهُ رضيَ اللَّهُ عنهُ : « **لم يَستَضيئوا بنورِ العلمِ ، ولم يَلْجَؤُوا إلى ركنٍ وثيقٍ** » ؛ بيَّنَ السَّبَبَ الذي جعلَهم بتلكَ المثابَةِ ؛ وهو أنَّهُ لم يحصُلْ لهم من العلمِ نورٌ يُفرِّقونَ به بينَ الحقِّ والباطلِ؛ كما قال تعالى: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اتَّقوا اللهَ وآمِنوا برسولِهِ يُؤْتِكم كِفلَينِ من رحمتهِ ويجعَلْ لكُم نُورًا تمشونَ به﴾

---

(١) كما رواه البخاري (٥٦٤٤) ومسلم (٢٨٠٩) عن أَبي هُريرة .

وللحافظِ ابنِ رَجَب رسالةٌ مُفْرَدَةٌ في شرحِ هذا الحديثِ ، اسمُها « غايةُ النَّفع .. » وهي مطبوعةٌ .

الآية .. [الحديد : ٢٨] .

وقال تعالى : ﴿ أوَمَن كانَ مَيْتًا فأحيَيْناهُ وجَعَلْنا لهُ نورًا يَمشي بهِ في النَّاسِ كَمَن مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ ليسَ بخارجٍ منها ﴾ [الأنعام : ١٢٢] .

وقولُه تعالى : ﴿ يَهدي بهِ الله مَن اتَّبعَ رِضوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ويُخرِجُهُم من الظُّلُماتِ إلى النُّورِ ﴾ [المائدة : ١٦] .

وقولُه : ﴿ ولكنْ جَعَلناهُ نورًا نَهدي بهِ مَن نَشاءُ من عبادِنا ﴾[الشورى : ٥٢] .

فإذا عَدِمَ القلبُ هذا النُّورَ صارَ بمنزلةِ الحَيرانِ الذي لا يَدري أينَ يَذهَب ! **فهو لحيرتهِ وجهلهِ بطريقِ مقصودهِ يَؤُمُّ كلَّ صوتٍ يسمعُهُ**[1]، ولم يسكن قلوبَهم من العلمِ ما تمتنعُ به من دعاةِ الباطلِ .

فإنَّ الحقَّ متى استقرَّ في القلبِ قويَ بِه وامتنعَ ممَّا يضرُّهُ ويُهلِكُهُ، ولهذا سمَّى اللَّهُ الحُجَّةَ العلميَّةَ سلطانًا ، وقَد تَقدَّمَ ذلكَ .

فالعَبدُ يُؤتى من ظُلمةِ بصيرتهِ ومن ضَعفِ قلبهِ ، فإذا استقرَّ فيه العلمُ النَّافعُ استنارَت بصيرتُهُ وقويَ قلبُهُ .

وهذانِ الأصلانِ هما قُطبا السَّعادَةِ - أعني العلمَ والقوَّةَ - ، وقَد وصَفَ بهما سبحانهُ المُعلِّمَ الأوَّلَ جبريلَ صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليه ، فقال : ﴿ إنْ هوَ إلّا وَحيٌ يُوحى علَّمَهُ شديدُ القوى ﴾ [النجم : ٤ - ٥]، وقال تعالى : ﴿ إنَّهُ لَقَولُ رَسولٍ كريمٍ ذي قُوَّةٍ عندَ ذي العَرشِ مَكينٍ ﴾ [التكوير : ١٩ - ٢٠]، فوَصَفَهُ بالعلمِ والقوَّةِ .

---

(١) وهكذا الجَهلَةُ المتردّدون ! أَتباع كُلِّ هَيْعَة ، تغرُّهم كُلُّ شبهةٍ ، ويظنُّون كلَّ لامعٍ ذهباً !!

وفيهِ معنىً أحسَنُ من هذا ؛ وهو الأشبهُ بمرادِ عليٍّ رضيَ اللَّهُ عنه ؛ وهو أنَّ هؤلاء ليسوا من أهلِ البَصائرِ الذينَ استضاؤوا بنورِ العلمِ ، ولا لَجَؤُوا إلى عالِمٍ مُستَبصِرٍ فقلَّدوهُ ، فلا مُستبصرين ولا مُتَّبعينَ لمستبصِرٍ ؛ فإنَّ الرَّجُلَ إمَّا أن يكونَ بَصيرًا أو أعمى مُتمسِّكًا ببَصيرٍ يقودُهُ ، أو أعمى يَسيرُ بلا قائدٍ !

وقولُه رضيَ اللَّهُ عنهُ : « **العلمُ خيرٌ من المالِ، العلمُ يحرسُكَ وأنتَ تحرُسُ المالَ** » ؛ يعني : أنَّ العلمَ يحفظُ صاحبَهُ ويحميهِ من مواردِ الهَلَكَةِ ومواقعِ العَطَبِ ؛ فإنَّ الإنسانَ لا يُلقي نَفسَهُ في هَلكَةٍ إذا كانَ عقلُهُ معَهُ ، ولا يُعرِّضُها لِتَلَفٍ إلّا إذا كانَ جاهلًا بذلكَ ، لا عِلمَ له به ، فهو كَمَن يأكُلُ طعامًا مسمومًا ، فالعالِمُ بالسُّمِّ وضَرَرِهِ يحرسُهُ عِلمُهُ ، ويمتنعُ به من أكلِهِ، والجاهلُ به يقتلُهُ جهلُهُ .

فهذا مَثَلُ حراسَةِ العلمِ للعالِمِ .

وكذا الطَّبيبُ الحاذقُ يمتنعُ بعلمِهِ عن كثيرٍ ممَّا يجلبُ له الأمراضَ والأسقامَ ، وكذا العالِمُ بمخاوفِ طَريقِ سلوكِهِ ومعاطِبها يأخُذُ حِذْرَهُ منها فيحرسُهُ عِلمُهُ من الهلاكِ، وهكذا العالِمُ باللَّهِ وبأمرِهِ، وبعدُوِّهِ ومكائدِهِ ومداخلِهِ على العَبدِ، يحرسُهُ عِلمُهُ من وساوسِ الشيطانِ وخطراتهِ وإلقاءِ الشكِّ والرِّيبِ والكُفرِ في قلبِهِ ، فهو بعلمِهِ يمتنعُ من قَبولِ ذلكَ ، فعلمُهُ يحرسُهُ من الشيطانِ، فكلَّما جاءَه ليأخذَهُ صاحَ به حَرَسُ العلمِ والإيمانِ ، فيرجعُ خاسئًا خائبًا.

وأعظمُ ما يحرسُهُ من هذا العدوِّ المُبينِ العلمُ والإيمانُ ، فهذا السَّببُ الذي من العَبدِ ، واللَّهُ من وراءِ حفظِهِ وحراستِهِ وكلاءتِهِ ، فمتى وَكَلَهُ إلى نفسِهِ طَرفَةَ عَينٍ تخطَّفَهُ عَدوُّهُ .

قال بَعضُ العارفينَ : أجمَعَ العارفونَ على أنَّ التَّوفيقَ أَنْ لا يَكِلَكَ اللَّهُ إلى نَفسِكَ ، وأجمَعوا على أنَّ الخِذْلانَ أن يُخلِّيَ بينَكَ وبينَ نفسِكَ .

وقولُه : « **العلمُ يزكو على الإنفاقِ ، والمالُ تَنْقُصُهُ النَّفقَةُ** » ؛ العالمُ كلَّما بَذَلَ علمَهُ للنَّاسِ وأنفقَ منه تفجَّرَتْ ينابيعُهُ فازدادَ كثرَةً وقُوَّةً وظهورًا ، فيكتَسِبُ بتعليمِهِ حِفْظَ ما عَلِمَهُ ، ويحصُلُ له به علمُ ما لم يكُن عندَهُ ، **وربَّما تكونُ المسألةُ في نفسِهِ غيرَ مكشوفَةٍ ولا خارجَةٍ من حَيِّزِ الإشكالِ ، فإذا تكلَّمَ بها وعلَّمها اتَّضَحَتْ له وأضاءَتْ وانفتَحَ له منها عُلومٌ أُخَرُ** .

وأيضًا ؛ **فإنَّ الجزاءَ من جنسِ العَمَلِ** ، فكما علَّمَ الخَلقَ من جهالتِهم ، جزاهُ اللَّهُ بأَنْ علَّمه من جهالتِهِ؛ كما في « صحيح مسلم »[1] من حديثِ عِيَاضِ ابن حِمَارٍ عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قال في حَديثٍ طويلٍ : « وأنَّ اللَّهَ قال لي : أَنفِقْ ؛ أُنفِقْ عَلَيكَ » وهذا يتناوَلُ نفقَةَ العلمِ ؛ إمَّا بلفظِهِ ، وإمَّا بتَنبيهِهِ وإشارتِهِ وفحواهُ .

ولزكاءِ العلمِ ونحوِهِ طريقان :

أحدهما : تعليمُهُ .

والثَّاني : العَمَلُ به ؛ فإنَّ العَمَلَ به أيضًا يُنمِّيهِ ويُكثِّرُهُ ، ويفتحُ لصاحبِهِ أبوابَهُ وخباياهُ ، وهذا لأَنَّ تعليمَه والعَمَلَ به هو التجارةُ فيه ، فكما ينمو المالُ بالتجارةِ فيه ، كذلك العلم .

وقولُهُ : « والمالُ تَنقُصُهُ النَّفَقَةُ » ، لا يُنافي قولَ النَّبيِّ ﷺ : « ما نَقَصَت صَدَقَةٌ من مالٍ »[2]؛ فإنَّ المالَ إذا تَصدَّقْتَ منه وأنفقْتَ ، ذَهَبَ ذلكَ القَدْرُ

---

(١) (برقم : ٢٨٦٥) .

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨) عن أَبي هُريرة .

وخَلَفَهُ غيرُهُ، وأمَّا العلمُ فكالقَبَسِ من النَّارِ لو اقتَبَسَ منها أَهلُ الأَرضِ لم يَذهَب منها شيءٌ ، بل يَزيدُ العلمُ بالاقتباسِ منه ، فهو كالعَينِ التي كلَّما أُخِذَ منها قويَ ينبوعُها وجاشَ معينُها .

وفضلُ العلمِ على المالِ يُعلَمُ من وجوهٍ :

أحدُها : أنَّ العلمَ ميراثُ الأنبياءِ، والمالُ ميراثُ الملوكِ والأغنياءِ .

الثَّاني : أنَّ العلمَ يحرسُ صاحبَهُ ، وصاحبُ المالِ يحرسُ مالَهُ .

والثَّالثُ : أنَّ المالَ تُذهِبُهُ النَّفقاتُ ، والعلمُ يزكو على النَّفقةِ .

الرَّابعُ : أنَّ صاحبَ المالِ إذا ماتَ فارقَهُ مالُهُ ، والعلمُ يدخُلُ معه قبرَهُ .

الخامسُ : أنَّ العلمَ حاكمٌ على المالِ ، والمالُ لا يحكُمُ على العلمِ .

السَّادسُ : أنَّ المالَ يحصُلُ للمؤمنِ والكافرِ والبَرِّ والفاجرِ ، والعلمُ النَّافعُ لا يحصُلُ إلّا للمؤمن .

السَّابعُ : **أنَّ العالِمَ يحتاجُ إليه الملوكُ فمَن دونَهم**(١)، وصاحبُ المالِ إنَّما يحتاجُ إليهِ أهلُ العَدمِ والفاقةِ .

الثَّامنُ : أنَّ النَّفسَ تَشْرُفُ وتزكو بجمعِ العلمِ وتحصيلهِ - وذلكَ من كمالها وشرفها - ، والمالُ لا يُزكِّيها ولا يُكمِّلُها ولا يَزيدُها صفَةَ كمالٍ ، بل النَّفسُ تَنْقُصُ وتشِحُّ وتبخَلُ بجمعهِ والحرصِ عليه ، فَحِرْصُها على العلمِ عينُ كمالها ، وحرصُها على المالِ عينُ نَقصِها .

التَّاسعُ : أنَّ المالَ يَدعوها إلى الطُّغيانِ والفخرِ والخُيلاءِ، والعلمُ يَدعوها إلى التَّواضُعِ والقيامِ بالعُبوديَّةِ ، فالمالُ يَدعوها إلى صفاتِ الملوكِ ، والعلمُ

---

(١) لكنْ ليس اليومَ ، فَوَا أَسفي الشديد ! إلَّا أَنْ يُتَّخَذَ بعضُ (أَشباه) العلماءِ مَطيّة ، لأَغراضٍ دَنِيَّة !!

يَدعوها إلى صفاتِ العَبيد .

العاشرُ : أنَّ العلمَ جاذبٌ مُوصِلٌ لها إلى سعادتها التي خُلِقَت لها ، والمالُ حِجابٌ بينها وبينها .

الحادي عَشرَ : أنَّ غِنى العلمِ أجلُّ من غنى المالِ ؛ فإنَّ غنى المالِ غنىً بأمرٍ خارجيٍّ عن حقيقةِ الإنسانِ ، لو ذَهَبَ في لَيلَةٍ أصبَحَ مُعْدَمًا ، وغنى العلمِ لا يُخشى عليه الفقرُ ، بل هو في زيادَةٍ أبدًا، فهو الغِنى العالي حَقيقَةً؛ كما قيل :

غَنِيتُ بلا مالٍ عن النَّاسِ كُلِّهِم وإنَّ الغِنى العالي عن الشيءِ لا بِهِ

الثَّاني عَشرَ : أنَّ المالَ يَستعبدُ مُحِبَّهُ وصاحِبَهُ فيجعلُهُ عبدًا له ، كما قالَ النَّبيُّ رسول اللَّه ﷺ : « تَعِسَ عَبدُ الدِّينارِ والدِّرهَم .. »(١) الحديث ، والعلمُ يَستعبدُهُ لربِّهِ وخالقهِ ، فهو لا يَدعوهُ إلّا إلى عبوديَّة اللَّهِ وحدَهُ .

الثَّالثَ عَشرَ : أنَّ حُبَّ العلمِ وطلبَهُ أصلُ كلِّ طاعَةٍ ، **وحُبَّ الدُّنيا والمالِ وطلبهِ أصلُ كلِّ سيِّئةٍ** .

الرَّابعَ عَشرَ : أنَّ قيمَةَ الغَنيِّ مالُهُ ، وقيمَةَ العالِم علمُهُ ، فهذا مُتقوِّمٌ بمالِهِ ، فإذا عُدِمَ مالُهُ عُدِمَت قيمتُهُ فَبَقِيَ بلا قيمَةٍ ، والعالِمُ لا تَزولُ قيمتُهُ ، بل هي في تضاعُفٍ وزيادَةٍ دائمًا .

الخامسَ عَشرَ : أنَّ جَوهَرَ المالِ من جنسِ جَوهَرِ البَدنِ ، وجَوهَرُ العلمِ من جنسِ الرُّوحِ ،كما قال يونُس بن حَبيبٍ : علمُكَ من رُوحِكَ ، ومالُكَ من بَدنكَ ، والفرقُ بين الأمرين كالفَرقِ بينَ الرُّوحِ والبَدَن .

السَّادسَ عَشرَ : أنَّ العالِمَ لو عُرِضَ عليه بحظِّهِ من العلمِ الدُّنيا بما فيها لم

---

(١) رواه البخاري (٦٤٣٥) عن أَبي هُريرة .

يَرضَها عِوَضًا من علمِهِ ، والغَنيُّ العاقلُ إذا رأى شرَفَ العلمِ وفَضلَهُ وابتهاجَهُ بالعلمِ وكمالَه بِهِ يودُّ لو أنَّ له علمَهُ بغناهُ أجمعَ .

السَّابعَ عَشرَ : أنَّ ما أطاعَ اللَّهَ أحدٌ قطُّ إلّا بالعلمِ ، وعامَّةُ مَن يَعصيهِ إنَّما يَعصيهِ بالمالِ .

الثَّامنَ عَشرَ : أنَّ العالِمَ يَدعو النَّاسَ إلى اللَّهِ بعلمِهِ وحالِهِ، وجامعُ المالِ يَدعوهم إلى الدُّنيا بحالِهِ ومالِهِ .

التَّاسعَ عَشرَ : أنَّ غِنى المالِ قَد يكونُ سَبَبَ هلاكِ صاحبِهِ كثيرًا ؛ فإنَّهُ معشوقُ النُّفوسِ ؛ فإذا رَأَتْ مَن يستأثِرُ بمعشوقِها عليها سَعَتْ في هلاكِهِ كما هو الواقعُ ، وأمَّا غِنى العلمِ فَسَببُ حياةِ الرَّجلِ وحياةِ غيرِهِ به، والنَّاسُ إذا رَأَوْا مَن يستأثِرُ عليهم به ويطلبُهُ أَحَبُّوهُ وخَدموهُ وأكرموهُ .

العشرون : أَنَّ اللذَّةَ الحاصلَةَ من غِنى المالِ إمَّا لذَّةٌ وهميَّةٌ وإمَّا لذَّةٌ بَهيميَّةٌ :

فإنْ صاحِبُهُ التذَّ بنفسِ جمعِهِ وتحصيلِهِ فتلكَ لذَّةٌ وهميَّةٌ خياليَّةٌ .

وإنِ التَذَّ بإنْفاقِهِ في شهواتِهِ فهي لذَّةٌ بَهيميَّةٌ .

وأمَّا لذَّةُ العلمِ فلذَّةٌ عقليَّةٌ رُوحانيَّةٌ ، تُشبِهُ لذَّةَ الملائكَةِ وبَهجتَها .

وفَرقٌ ما بينَ اللذَّتَين .

الحادي والعشرون : أَنَّ عُقلاءَ الأُمَمِ مُطبِقونَ على ذمِّ الشَّرِهِ في جمعِ المالِ الحريصِ عليهِ ، وتَنَقُّصِهِ والإزْراءِ به، ومُطْبِقونَ على تَعظيمِ الشَّرِهِ في جمعِ العلمِ وتحصيلِهِ ومدحِهِ ومحبَّتِهِ ورؤيَتِهِ بعَينِ الكمالِ[1] .

الثَّاني والعشرون : أنَّهُم مُطبِقونَ على تَعظيمِ الزَّاهدِ في المالِ ، المُعرِضِ

---

(١) في ترجمةِ زياد بن يونُس مِن « تهذيب التهذيب » (٣ / ٣٨٩) بعد توثيقِه وبيان رِفعةِ درجتِه : « وكان طَلَّابًا للعلمِ ، وكان يُسَمَّى **سوسةَ العلمِ** ! » . =

عن جمعِهِ ، الذي لا يلتفتُ إليهِ ولا يَجعلُ قلبَهُ عبدًا له، ومُطْبِقونَ على ذمِّ الزَّاهدِ في العلمِ الذي لا يلتفتُ إليهِ ولا يحرصُ عليهِ .

الثَّالثُ والعشرون : أنَّ المالَ يُمدَحُ صاحبُهُ بتخلِّيهِ منه وإخراجِهِ، والعلمُ إنَّما يُمدَحُ بتحلِّيهِ به واتِّصافِهِ بهِ .

الرَّابعُ والعشرون : أنَّ غِنى المالِ مقرونٌ بالخَوفِ والحُزنِ ، فهو حزينٌ قبلَ حصولِهِ ، خائفٌ بعدَ حصولِهِ ، وكلَّما كانَ أكثَرَ كانَ الخوفُ أقوى ، وغِنى العلمِ مقرونٌ بالأمنِ والفرحِ والسُّرور .

الخامسُ والعشرون : أنَّ الغنيَّ بمالِهِ لا بدَّ أَنْ يُفَارِقَهُ غِناهُ ، فيتعذَّبَ ويتألَّمَ بمفارقتِهِ ، والغَنيُّ بالعلمِ لا يَزولُ ولا يَتعذَّبُ صاحبُهُ ولا يتألَّمُ ، فلذَّةُ الغِنى بالمالِ لذَّةٌ زائلَةٌ مُنقطعَةٌ يَعْقُبُها الألَمُ ، ولذَّةُ الغِنى بالعلمِ لذَّةٌ باقيَةٌ مستمرَّةٌ لا يلحقها أَلَمٌ .

السَّادسُ والعشرون : أَنَّ استِلْذاذَ النَّفسِ وكمالَها بالغنى استكمالٌ بعاريَّةٍ مُؤدَّاةٍ ، فَتَجمُّلُها بالمالِ تجمُّلٌ بثَوبٍ مُستعارٍ لا بدَّ أن يَرجعَ إلى مالكِهِ يومًا ما، وأمَّا تَجمُّلُها بالعلمِ وكمالُها به فتجمُّلٌ بصِفَةٍ ثابتَةٍ لها راسخَةٍ فيها لا تُفارقُها .

السَّابعُ والعشرون : أنَّ الغِنى بالمالِ هو عَينُ فَقرِ النَّفسِ ، والغِنى بالعلمِ هو عَينُ غِنى النَّفس، فهو غِناها الحقيقيُّ ؛ فغِناها بعلمِها هو الغِنى ، وغِناها بمالها هو الفَقر .

الثَّامنُ والعشرون : أنَّ مَن قُدِّمَ وأُكرِمَ لمالِهِ ؛ إذا زالَ مالُهُ زالَ تَقديمُهُ وإكرامُهُ ، ومَن قُدِّمَ وأُكرِمَ لعلمِهِ فإنَّهُ لا يَزدادُ إلَّا تَقديمًا وإكرامًا .

التَّاسعُ والعشرون : أنَّ تَقديمَ الرَّجُلِ لمالِهِ هو عَينُ ذَمِّهِ ؛ فإنَّهُ نداءٌ عليهِ

= وانظر « نُزهة الأَلباب في الأَلقاب » (١ / ٣٨١) للحافظ ابن حَجَر .

بنقصهِ ، وأنَّهُ لولا مالُهُ لكانَ مُستحِقًّا للتَّأخُّرِ والإهانَةِ ، وأمَّا تَقديمُهُ وإكرامُهُ لعلمِهِ فإنَّهُ عَينُ كمالِهِ ، إذ هو تَقديمٌ له بنفسِهِ وبصفتِهِ القائمَةِ به ، لا بأمرٍ خارجٍ عن ذاتِهِ .

الوجهُ الثَّلاثون : أنَّ طالبَ الكمالِ بغنى المالِ كالجامعِ بينَ الضِّدَّينِ ، فهو طالبٌ ما لا سبيلَ إليهِ .

وبيانُ ذلكَ :

أنَّ القُدرَةَ صِفَةُ كمالٍ ، وصفَةُ الكمالِ محبوبَةٌ بالذَّاتِ ، والاستغناءُ عن الغَيرِ - أيضًا - صفَةُ كمالٍ محبوبَةٌ بالذَّاتِ ، فإذا مالَ الرَّجلُ بطبعهِ إلى السَّخاوَةِ والجُودِ وفِعلِ المَكرُماتِ ، فهذا كمالٌ مطلوبٌ للعُقلاءِ ، محبوبٌ للنُّفوسِ ، وإذا الْتَفَتَ إلى أنَّ ذلكَ يَقتَضي خُروجَ المالِ من يَدِهِ - وذلكَ يُوجِبُ نَقصَهُ واحتياجَهُ إلى غَيرِه وزوالَ قُدرتِهِ - نَفَرَتْ نفسُهُ عن السَّخاءِ والكرمِ والجُودِ واصطناعِ المعروفِ ، وظنَّ أنَّ كمالَهُ في إمساكِ المالِ .

وهذه البليَّةُ أمرٌ ثابتٌ لعامَّةِ الخَلْقِ ، لا يَنْفَكُّونَ عنها .

فلأجلِ مَيْلِ الطَّبْعِ إلى حُصولِ المدحِ والثَّناءِ والتَّعظيمِ بحُبِّ الجُودِ والسَّخاءِ والمكارمِ ، ولأجلِ فَوْتِ القُدرَةِ الحاصلَةِ بسَببِ إخراجِهِ والحاجَةِ المُنافيَةِ لكمالِ الغنى يحِبُّ إبقاءَ مالِهِ ، ويكرَهُ السَّخاءَ والكرَمَ والجُودَ ، فيبقى قلبُهُ واقِفًا بينَ هذين الدَّاعِيَيْنِ يتجاذبانِهِ ، ويَعْتَوِرَانِ عليهِ ، فيبقى القلبُ في مقامِ المُعارَضَةِ بينهما ، فمِنَ النَّاسِ مَن يترجَّحُ عندَهُ جانبُ البَذْلِ والجُودِ والكرَمِ فَيُؤْثِرُهُ على الجانبِ الآخَرَ ، ومنهم مَن يترجَّحُ عنده جانبُ الإِمساكِ ، وبقاءِ القُدرةِ والغِنى ، فَيُؤْثِرُهُ .

فهذان نَظَرانِ للعُقلاءِ .

ومنهم مَن يبلُغُ به الجَهلُ والحماقَةُ إلى حيثُ يُريدُ الجَمعَ بينَ الوجهَين ، فَيَعِدُ النَّاسَ بالجُودِ والسَّخاءِ والمكارمِ ؛ طَمَعًا منه في فوزِهِ بالمدحِ والثَّناءِ على ذلك ، وعندَ حُضورِ الوَقتِ لا يَفي بما قالَ ! فيستحقُّ الذمَّ ، ويبذلُ بلسانهِ ، ويُمسِكُ بقلبهِ ويَدِهِ ! فيقَعُ في أنواعِ القبائح والفضائح !!

وإذا تأمَّلْتَ أحوالَ أهلِ الدُّنيا من الأغنياءِ رأيتَهم تحتَ أسرِ هذه البليَّةِ ، وهم غالبًا يكونَ ويَشْكُونَ[1] .

وأمَّا غَنيُّ العلمِ فلا يَعرِضُ له شيءٌ من ذلكَ ، بل كُلَّما بَذَلَهُ ازدادَ ببذلهِ فَرَحًا وسُرورًا وابتهاجًا ، والعالِمُ وإنْ فاتَتْهُ لذَّةُ أهلِ الغنى وتمتُّعهم بأموالهم فهُم أيضًا قد فاتَتْهُم لذَّةُ أَهلِ العلمِ ، وتمتُّعُهم بعلومهم ، وابتهاجُهم بها .

فمعَ صاحبِ العلمِ من أسبابِ اللذَّةِ ما هو أعظمُ وأقوى وأدوَمُ من لذَّةِ الغنيّ ، وتَعَبُهُ في تحصيلهِ وجمعهِ وضبطهِ أقلُّ مِن تَعَبِ جامعِ المالِ ؛ فَجَمْعُهُ وألمُهُ دونَ ألمهِ ؛ كما قال تعالى للمؤمنينَ - تسليَةً لهم بما ينالُهم من الألمِ والتَّعبِ في طاعتهِ ومرضاتهِ - : ﴿ ولا تَهِنُوا في ابتِغاءِ القَومِ إنْ تَكونوا تَألَمُونَ فإنَّهُم يَألَمُونَ كما تَألَمُونَ وتَرْجُونَ منَ اللهِ ما لا يَرْجُونَ وكانَ اللهُ عَليمًا حكيمًا ﴾ [النساء : ١٠٤] .

الحادي والثَّلاثون : أنَّ اللذَّةَ الحاصِلَةَ مِن المالِ والغِنى إنَّما هي حالَ تجدُّدهِ فَقَط .

وأمَّا حالَ دوامهِ ؛ فإمَّا أن تَذهَبَ تلكَ اللذَّةُ ، وإمَّا أن تَنقُصَ ، ويدلُّ عليهِ أنَّ الطَّبعَ يبقى طالبًا لغنىً آخرَ حريصًا عليهِ ، فهو يُحاوِلُ تحصيلَ الزِّيادَةِ دائمًا

---

(١) إيْ واللّهِ !

في فَقرٍ مستمرٍّ غيرِ مُنتقَضٍ ، ولو مَلَكَ خزائنَ الأرضِ ، ففقرُهُ وطلبُهُ وحِرْصُهُ باقٍ عليه ؛ فإنَّهُ أحدُ المَنهومَيْنِ اللذينِ لا يَشبعانِ(١)، فهو لا يُفارِقُهُ أَلَمُ الحرصِ والطَّلبِ .

وهذا بخلافِ غنيِّ العلمِ والإيمانِ ؛ فإنَّ لَذَّتَهُ في حالِ بقائِهِ مثلُها في حالِ تجدُّدِهِ ، بل أَزْيَدُ ، وصاحبُها - وإنْ كانَ لا يزالُ طالبًا للمزيدِ حريصًا عليهِ - فطلبُهُ وحِرْصُهُ مُستصحَبٌ لِلَذَّةِ الحاصلِ ، ولذَّةِ المرجوِّ المطلوبِ ، ولذَّةِ الطَّلبِ وابتهاجِهِ وفرحِهِ بهِ .

---

(١) كما في قولِهِ ﷺ : « مَنْهومان لا يشبعان : طالبُ علمٍ وطالبُ مالٍ » ، وهو حديثٌ حسنٌ ؛ له طرق :

فقد أخرجه البيهقي في « المدخل » (٤٥١) والحاكم في « المستدرك » (٩٢/١) - وصحَّحه - عن قتادة عن أنس .

وقتادةُ مدلِّس وقد عنعنه .

وله طريقٌ آخر :

رواه ابن عدي في « الكامل » (٢٢٩٨/٦) وابن الجوزي في « العلل المتناهية » (٨٧/١) والبيهقي في « المدخل » (٤٥٠) من طريقين عن عبدالأعلى بن حماد النَّرْسي ، عن حمَّاد ، عن حُميد عن أنس .

وعبدُالأعلى ثقةٌ .

فالسندُ صحيحٌ .

وله شاهدٌ عن ابن عباس : أخرجه ابنُ أبي عاصم في « الزهد » (رقم ٢٨٥) وأبو خيثمة في « العلم » (ص ١٤٣) والطبراني في « الأوسط » (١٩٠- مجمع البحرين) و« الكبير » (١١٠٩٥) والبزَّار (٩٥/١) من طريق ليث عن مُجاهد ، عن ابن عبَّاس .

وضعَّف الهيثميُّ في « مجمع الزوائد » (١٣٥/١) سندَه بليث بن أبي سليم ، وكذا العراقي في « تخريج الإحياء » (٢٧٤/٣) .

وله طريقٌ آخر عن ابن مسعود ، ولكنْ لا يُفرَح به ! ففيه متَّهم ، فانظر « الكامل » (١٤٥٧/٤) .

الثاني والثَّلاثون : أنَّ غِنىٰ المالِ يَستَدعي الإنعامَ على النَّاسِ والإحسانَ إليهم ؛ فصاحبُهُ إمَّا أن يسُدَّ على نفسهِ هذا البابَ ، وإمَّا أن يَفتحَهُ عليهِ ، فإنْ سدَّهُ على نفسهِ اشتَهرَ عندَ النَّاسِ بالبُعدِ من الخَيرِ والنَّفعِ ، فأبغَضوهُ وذمُّوهُ واحتَقروهُ ، وكلُّ من كانَ بغيضًا عندَ النَّاسِ حقيرًا لديهم كانَ وصولُ الآفاتِ والمضرَّاتِ إليهِ أسرَعَ من النَّارِ في الحَطَبِ اليابسِ ، ومنَ السَّيلِ في مُنحدَرِهِ ، وإذا عَرَفَ من الخَلْقِ أنَّهُم يَمْقُتونهُ ويُبغِضونهُ ولا يُقيمونَ له وزنًا تألَّمَ قلبُهُ غايَةَ التَّألُّمِ وأُحضِرَ الهمومَ والغُمومَ والأحزانَ .

وإنْ فتَحَ بابَ الإحسانِ والعطاءِ فإنَّهُ لا يُمكنُهُ إيصالُ الخَيرِ والإحسانِ إلى كلِّ أحدٍ ، فلا بدَّ من إيصالهِ إلى البَعض ، وإمساكهِ عن البَعضِ ، وهذا يفتحُ عليهِ بابَ العداوَةِ والمذمَّةِ منَ المَحرومِ والمرحومِ :

أمَّا المحرومُ فيقول : كيفَ جادَ على غَيري وبخِلَ عليَّ !؟ .

وأمَّا المرحومُ فإنَّهُ يلتَذُّ ويفرحُ بما حَصَلَ له مِن الخَيرِ والنَّفعِ ، فيبقى طامعًا مُستشرفًا لنظيرهِ على الدَّوامِ ، وهذا قَد يتعذَّرُ غالبًا فيُفضي ذلكَ إلى العَداوَةِ الشديدَةِ والمذمَّةِ، ولهذا قيل : « اتَّقِ شرَّ من أحسَنتَ إليهِ »[1] .

وهذه الآفاتُ لا تَعرِضُ في غنى العلمِ ؛ فإنَّ صاحبَهُ يُمكِنُهُ بَذْلُهُ للعالَم كلِّهِم ، وإشْراكُهُم[2] فيه، والقدرُ المبذولُ منه باقٍ لآخذِهِ لا يَزولُ بل يتَّجِرُ بهِ، فهو كالغَنيِّ إذا أعطى الفَقيرَ رأسَ مالِه يتَّجِرُ به حتى يَصيرَ غَنيًّا مثلَه !

---

(١) وبعضُهم ينسبه إلى الرسول ﷺ ، وليس لذلك أَصلٌ ، قال السخاوي في « المقاصد الحسنة » (٢٥) : « لا أعرفه » .

وانظر « الأَسرار المرفوعة » (٨٠) ، و«تمييز الطيّب من الخبيث » (٧) .

(٢) في النسخة السعودية والمطبوعة : « واشتراكم » ! وفي النُّسخة البغدادّية والمصرية : « وأَشباههم » ! ولعلّ الصوابَ ما أَثبتُّ واللّهُ أَعلمُ .

الوجهُ الثَّالثُ والثَّلاثون : أَنَّ جمعَ المالِ مقرونٌ بثلاثةِ أنواعٍ من الآفاتِ والمِحَن : نوعٌ قبلَهُ، ونوعٌ عند حصولِهِ، ونوعٌ بعدَ مفارَقتِهِ :

فأمَّا النَّوعُ الأوَّلُ : فهو المَشَاقُّ والأنكادُ والآلامُ التي لا يحصُلُ إلَّا بها .

وأمَّا النَّوعُ الثَّاني : فمشقَّةُ حفظِهِ وحراستِهِ وتعلُّقِ القلبِ به ، فلا يُصبحُ إلَّا مهموماً ، ولا يُمسي إلَّا مَغموماً ، فهو بمنزلَةِ عاشقٍ مُفرطِ المحبَّةِ قد ظَفِرَ بمعشوقِهِ ، والعيونُ من كلِّ جانبٍ تَرمُقُهُ والألسُنُ والقلوبُ ترشُقُهُ ، فأيُّ عَيشٍ وأَيُّ لذَّةٍ لمَن هذه حالُهُ !! وَقَد عَلِمَ أنَّ أَعداءَهُ وحُسَّادَهُ لا يَفْتُرونَ عن سَعيِهِم في التَّفريقِ بينَهُ وبينَ معشوقِهِ وإنْ لم يَظفَروا هم بِهِ ، ولكنَّ مقصودَهم أن يُزيلوا اختصاصَهُ به دونهم ؛ فإنْ فازوا به وإلَّا استَوَوْا في الحرمانِ ، فزالَ الاختصاصُ المُؤلِمُ للنُّفوسِ !

ولو قَدَروا على مثلِ ذلكَ معَ العالِمِ لفعلوهُ ، ولكنَّهُم لمَّا علموا أنَّهُ لا سبيلَ إلى علمِهِ عمَدوا إلى جَحْدِهِ وإنكارِهِ لِيزُيلوا عن القلوبِ محبَّتَهُ وتقديمَه والثَّناءَ عليهِ، فإنْ بهَرَ علمُهُ وامتَنَعَ عن مكابَرَةِ الجُحودِ والإنكارِ **رَمَوْهُ بالعظائمِ ، ونَسبوهُ إلى كلِّ قبيحٍ** ، ليزيلوا من القلوبِ محبَّتَهُ ويُسكِنوا موضعَها النُّفرَةَ عنهُ وبُغضَهُ .

وهذا شُغْلُ السَّحَرَةِ بعينهِ ، فهؤلاءِ سَحَرَةٌ بألسنتهم .

فإنْ عَجَزوا له عن شيءٍ من القبائحِ الظَّاهرَةِ بعينهِ ، رَمَوْهُ بالتَّلبيسِ والتَّدليسِ والزَّوكَرَةِ[١] والرِّياءِ وحُبِّ التَّرفُّعِ وطَلَبِ الجاهِ[٢]!

وهذا القَدْرُ من مُعاداةِ أهلِ الجَهلِ والظُّلمِ للعلماءِ مثلُ الحرِّ والبَردِ لا بدَّ

---

(١) هي مصدرُ « زَكَرَ » « يَزكُرُ » ، وهو عَمَلٌ يقومُ به المشعوذون لِزَجْرِ الحيَّات حتّى تستسلمَ ، ثمَّ كأنَّ اللفظَ أَصلًا صارَ عنوانًا للغشّاشين والخدّاعين .

(٢) وهم (!) هكذا في كُلِّ زمانٍ وفي كُلِّ مكان .

منه ، فلا يَنبَغي لمَن له مُسكَةُ عَقلٍ أن يتأذَّى به ، إذ لا سبيلَ له إلى دفعهِ بحالٍ ، فَلْيُوطِّن نَفسَهُ عليهِ كما يُوطِّنُها على بَردِ الشتاءِ وحرِّ الصَّيفِ .

والنَّوعُ الثَّالثُ مِن آفاتِ الغِنى : ما يحصُلُ للعَبدِ بعَد مفارقتهِ مَن تعلَّقَ قلبُهُ به ، وكونُهُ قَد جَعَلَ بينَهُ وبينَ المطالبَةِ بحقوقهِ والمحاسبَةِ على مقبوضهِ ومصروفهِ : من أينَ اكتسبَهُ وفي ماذا أنفقَهُ[1] ؟

وغَنيُّ العلمِ والإيمانِ معَ سلامَتهِ من هذه الآفاتِ فهو كفيلٌ بكلِّ لذَّةٍ وفَرْحَةٍ وسرورٍ ، ولكنْ لا يُنالُ إلّا على جسرٍ من التَّعَبِ والصَّبرِ والمشقَّةِ .

الرَّابعُ والثَّلاثون : أنَّ لذَّةَ الغنيّ بالمالِ مقرونَةٌ بخُلطَةِ النَّاسِ ، ولو لم يكُن إلّا خَدَمُهُ وأزواجُهُ وسراريهِ وأتباعُهُ ، إذ لو انفَرَدَ الغنيُّ بمالهِ وحدَهُ من غَيرِ أن يتعلَّقَ بخادمٍ أو زَوجَةٍ أو أحدٍ من النَّاسِ لم يكمُل انتفاعُهُ بمالهِ ، ولا الْتذاذُهُ به ، وإذا كانَ كمالُ لذَّتهِ بغناهُ موقوفًا على اتِّصالهِ بالغَيرِ فذلكَ الاتِّصالُ منشأُ الآفاتِ والآلامِ وأنواعِ النَّكَدِ ، ولو لم يكُن إلَّا اختلافُ أَخْلاقِ النَّاسِ وطبائعهم وإراداتِهم ! فقبيحُ هذا حَسَنُ ذاك ، ومصلحةُ ذاكَ مفسَدةُ هذا ، ومنفَعَةُ هذا مضرَّةُ الآخَرِ وبالعَكسِ ، فهو مُبتلىً بهم ، فلا بدَّ من وُقوعِ النَّفرَةِ والتَّباغُضِ والتَّعادي بينهم وبينَهُ ، فإنَّ إرضاءَهُم كلِّهم مُحالٌ ، وهو جمعٌ بينَ الضدَّينِ ، وإرضاءُ بعضِهم وإسخاطُ غيره سببُ الشرِّ والمعاداةِ ، **وكلَّما طالَت المخالطَةُ ازدادَت أسبابُ الشرِّ والعداوَةِ وقَوِيَت**[2].

---

(١) وفي ذلك حديثٌ صحيحٌ ؛ فانظر « ذمّ مَن لا يعملُ بعلمِهِ » (رقم : ١ و ٢) لابن عساكر - بتحقيقي .

(٢) لذلك جاءَ ترغيبُ السَّلَف بالعُزلةِ والبُعد عن المُخالطة ، طَلَبًا لراحةِ النّفوس ، وهَرَبًا مِن شُغل القلوب .

وللخطّابي وابن الوزير اليماني - وغيرِهما - مُصنَّفاتٌ مستقلَّةٌ في هذا الباب .

وبهذا السَّببِ كانَ الشرُّ الحاصلُ من الأقاربِ والعُشَراءِ أضعافَ الشرِّ الحاصلِ من الأجانبِ والبُعَداء[1] .

وهذه المُخالَطَةُ إنَّما حَصَلَت من جانبِ الغِنى بالمالِ ، أمَّا إذا لم يكُن فيه فَضْيلَةٌ لهم ، فإنَّهُم يتجنَّبونَ مُخالَطَتَهُ ومعاشرتَهُ ، فيستريحُ مِن أذى الخُلطَةِ والعشرَةِ .

وهذه الآفاتُ معدومَةٌ في الغِنى بالعلمِ .

الخامسُ والثّلاثون : أنَّ المالَ لا يُرادُ لذاتِهِ وعينِهِ ، فإنَّهُ لا يحصُلُ بذاتِهِ شيءٌ من المنافعِ أصلًا ، فإنَّهُ لا يُشبِعُ ولا يَروي ولا يُدفِيءُ ولا يمنعُ ، وإنَّما يُرادُ لهذه الأشياءِ ؛ فإنَّهُ لمّا كانَ طريقًا إليها أُرِيدَ إرادَةَ الوسائل .

ومعلومٌ **أنَّ الغاياتِ أشرَفُ من الوسائلِ** ؛ فهذه الغاياتُ - إذًا - أشرَفُ منه ، وهي مع شرفِها بالنِّسبَةِ إليهِ ناقصَةٌ دنيئةٌ .

وقَد ذَهَبَ كثيرٌ من العُقلاءِ إلى أنَّها لا حَقيقَةَ لها ، وإنَّما هي دَفعُ آلامٍ فَقط ، فإنَّ لُبسَ الثِّياب مثلًا إنَّما فائدتُهُ دفعُ التَّألُّمِ بالحَرِّ والبَردِ والرِّيحِ ، وليسَ فيها لذَّةٌ زائدةٌ على ذلكَ ، وكذلكَ الأكلُ إنَّما فائدتُهُ دفعُ أَلَمِ الجوعِ ، ولهذا لو لم يجد أَلَمَ الجوعِ لم يَستَطِبِ الأكلَ ، وكذلكَ الشربُ مع العَطَشِ، والرَّاحَةُ معَ التَّعبِ .

ومعلومٌ أنَّ في مُزاوَلَةِ ذلكَ وتحصيلِهِ ألمًا وضررًا ، ولكنّ ضررَهُ وألمَهُ أقلُّ من ضَرَرِ ما يَدفَعُ به ألمَهُ ، **فيحتملُ الإنسانُ أخفَّ الضَّرَرينِ دفعًا لأعظمِهما** .

وحُكِيَ عن بعضِ العُقَلاءِ أنَّهُ قيلَ لهُ - وقد تناوَلَ قَدَحًا كريهًا جدًّا من الدَّواءِ - : كيفَ حالُك معهُ ؟ قال :

أصبَحتُ في دارِ بليَّاتِ أَدفعُ آفــاتٍ بآفـاتِ

---

(١) فتأمَّلْ .

وفي الحقيقةِ ؛ فلذَّاتُ الدُّنيا من المآكلِ والمشاربِ والملْبَسِ والمسكَنِ والمنكحِ من هذا الجنسِ ، واللذَّةُ التي يُباشِرُها الحِسُّ ويتحرَّكُ لها الحَيُّ - وهي الغايَةُ المطلوبَةُ له من لذَّةِ المنكَحِ والمأكلِ - شهوَةُ البَطنِ والفَرجِ ، ليسَ لهما ثالثٌ البتَّة إلّا ما كانَ وسيلَةً إليهما وطريقًا إلى تحصيلهما .

وهذه اللذَّةُ مُنغَّصَةٌ من وجوهٍ عَديدَةٍ :

منها أنَّ تصوُّرَ زوالها وانقِضائها وفنائها يُوجِبُ تنغُّصَها .

ومنها أنَّها ممزوجَةٌ بالآفاتِ ، ومعجونَةٌ بالآلامِ ، مُختلِطَةٌ بالمخاوِفِ ، وفي الغالبِ لا تَفي آلامُها بطِيبِها ، كما قيلَ :

قَايَسْتُ بينَ جمالِها وَفِعالِها   فإذا المَلاحَةُ بالقَباحَةِ لا تَفي

ومنها أنَّ الأراذلَ من النَّاسِ وسَقَطَهُم يُشاركونَ فيها كبراءَهُم وعقلاءَهُم ، بل يَزيدونَ عليهم فيها أعظَمَ زيادَةٍ وأفحشَها ، فنسبتُهم فيها إلى الأفاضلِ كنسبَةِ الحيواناتِ البَهيميَّةِ إليهم ، فَمُشارَكةُ الأراذلِ وأهلِ الخِسَّةِ والدَّناءَةِ فيها وزيادتُهُم على العقلاءِ فيها ممَّا يُوجِبُ النَّفرَةَ والإعراضَ عنها .

وكثيرٌ من النَّاسِ حَصَلَ له الزُّهدُ في المحبوبِ والمعشوقِ منها بهذه الطَّريق .

وهذا كثيرٌ في أشعارِ النَّاسِ ونثرهم ، كما قيلَ :

سأترُكُ حُبَّها من غَيرِ بُغضٍ   ولكنْ كَثـرَةُ الشركاءِ فيـه

إذا وقعَ الذُّبابُ على طعامٍ   رَفَعتُ يَدي ونفسي تشتَهيه

وتَجتَنِبُ الأُسودُ وُرودَ ماءٍ   إذا كانَ الكلابُ يَلَغنَ فيه

وقيل لزاهدٍ : ما الذي زهَّدَكَ في الدُّنيا ؟ فقال : خِسَّةُ شركائها ، وقلَّةُ وفائها ، وكثرةُ جفائها !

وقيلَ لآخر في ذلكَ ؟ فقال : ما مَدَدتُ يَدي إلى شيءٍ منها إلّا وَجدتُ غَيري قَد سَبَقني إليه ، فأتركُهُ له !

ومنها أنَّ الالْتذاذَ بموقعها إنَّما هو بقَدْرِ شدّة الحاجَةِ إليها ، والتَّألُّمِ بمطالبَةِ النَّفسِ لتناوُلها ، وكلَّما كانَت شهوَةُ الظَّفرِ بالشيءِ أقوى كانَت اللذَّةُ الحاصلَةُ بوجودِهِ أكملَ ، فما لم تحصُل تلكَ الشَّهوَةُ لم تحصُل تلكَ اللذَّةُ ، فمقدارُ اللذَّةِ الحاصلَةِ في الحالِ مُساوٍ لمقدارِ الحاجَةِ والألَمِ والمَضَرَّةِ في الماضي .

وحينئذٍ ؛ تتقابلُ اللذَّةُ الحاصلَةُ والألَمُ المتقدِّمُ فيتساقَطانِ ، فتَصيرُ اللذَّةُ كأنَّها لم تُوجَد ، ويَصيرُ بمنزلَةِ مَنْ شقَّ بطنَ رَجُلٍ ثمَّ خاطَهُ وداواهُ بالمراهمِ ! أو بمنزلَةِ من ضَرَبهُ عَشرَةَ أسواطٍ وأعطاهُ عَشرَةَ دراهم !

ولا تخرجُ لذَّاتُ الدُّنيا غالبًا عن ذلكَ .

ومِثْلُ هذا لا يُعَدُّ لذَّةً ولا سعادَةً ولا كمالًا ، بل هو بمنزلَةِ قضاءِ الحاجَةِ من البَولِ والغائطِ ؛ فإنَّ الإنسانَ يتضرَّرُ بثقلِهِ ، فإذا قَضى حاجتَهُ استراحَ منه، فأمَّا أن يُعَدَّ ذلكَ سعادَةً وبهجَةً ولذَّةً مطلوبةً فلا !

ومنها أنَّ هاتَين اللذَّتينِ اللتينِ هما آثَرُ اللذَّاتِ عندَ النَّاسِ ، ولا سبيلَ إلى نَيلِهما إلّا بما يَقترنُ بهما قبلَهما وبعدَهما من مُباشَرَةِ القاذوراتِ والتَّألُّمِ الحاصلِ عَقِيبَهما، مثالُ لذَّةِ الأكلِ ؛ فإنَّ العاقلَ لو نَظَرَ إلى طعامِهِ حالَ مُخالطتِهِ ريقَهُ وعَجْنهِ به لنفرَت نفسُهُ منه ، ولو سَقَطَتْ تلكَ اللقمَةُ من فيهِ لنفَرَ طبعُهُ من إعادَتها إليه، ثمَّ إنَّ لَذَّتَهُ به إنَّما تحصُلُ في مجرى نحو الأربعِ الأصابع ، فإذا فُصِلَ عن ذلكَ المجرى زالَ تلذُّذُهُ به ، فإذا استقرَّ في معدتِهِ وخالَطَهُ الشرابُ وما في المعدَةِ من الأجزاءِ الفضليَّةِ ، فإنَّهُ حينئذٍ يصيرُ في غايَةِ الخِسَّةِ ، فإذًا :

فإنْ زادَ على مقدارِ الحاجَةِ أورَثَ الأدواءَ المختلفَة على تنوُّعها ، ولولا أنَّ بقاءَهُ موقوفٌ على تناول الغداءِ لكانَ تركُهُ - والحالةُ هذه - أليَقَ به ،كما قال بعضُهم :

لولا قَضاءٌ جَرى نزَّهْتُ أُنمُلَتي عن أن تُلِمَّ بمأكولٍ ومَشروبِ

وأمَّا لذَّةُ الوقاعِ ؛ فقدرُها أَبْيَنُ من أن نَذكُرَ آفاتهِ ، ويدُلُّ عليهِ أنَّ أعضاءَ هذه اللذَّةِ هي عَورَةُ الإنسانِ التي يُستحيا من رؤيَتِها وذِكْرِها، وسَترُها أمرٌ فَطَرَ اللَّهُ عليهِ عبادَهُ ، ولا تَتمُّ لذَّةُ المواقَعةُ إلّا بالاطِّلاعِ عليها وإبرازِها ، والتَّلطُّخِ بالرُّطوباتِ المُستقذَرَةِ المتولِّدَةِ منها ، ثمَّ إنَّ تمامَها إنَّما يحصُلُ بانفصالِ النُّطفَة وهي اللذَّةُ المقصودَةُ من الوقاعِ ، وزَمنها يشبهُ الآنَ الذي لا ينقسم، فصعوبَةُ تلكَ المُزاولَةِ والمُحاولَةِ والمُطاوَلةِ والمُراوَضَةِ والتَّعبِ لأجلِ لذَّةِ لحظَةٍ كَمَرِّ الطَّرف ، فأيُّ مقايَسةٍ بينَ هذه اللذَّةِ وبينَ التَّعبِ في طريقِ تحصيلها ؟!

وهذا يدلُّ على أنَّ هذه اللذَّةَ ليسَت من جنسِ الخيراتِ والسَّعاداتِ والكمالِ الذي خُلقَ له العَبدُ ، ولا كمالَ له بدونهِ ، بل ثَمَّ أمرٌ وراءَ ذلكَ كُلِّهِ قد هُيِّىءَ لهُ العَبدُ ، وهو لا يفطنُ له لغفلتهِ عنه وإعراضهِ عن التَّفتيشِ عليه حتّى يَظْفَرَ بمعرفته ، وعن التَفتيش على طريقهِ حتى يَصِلَ إليهِ ، يسومُ نَفسَهُ مع الأنعامِ السَّائمَةِ :

قَد هيَّؤوكَ لأمرٍ لو فَطِنتَ لهُ فارْبأْ بنفسِكَ أن تَرعى معَ الهَمَلِ

وموقعُ هذه اللذَّةِ من النَّفسِ كموقعِ لذَّةِ البَرَازِ من رجلٍ احتبَسَ في موضعٍ لا يُمكِنهُ القيامُ إلى الخلاءِ ، وصارَ مُضطرًّا إليهِ ؛ فإنَّهُ يجدُ مشقَّةً شديدَةً وبلاءً عظيمًا ، فإذا تَمكَّنَ من الذَّهابِ إلى الخلاءِ وقَدَرَ على دفعِ ذلكَ الخبيثِ

المُؤذي ، وجَدَ لذَّةً عَظيمَةً عندَ دفعِهِ وإرسالِهِ ، ولا لذَّةَ هناكَ إلّا راحتُهُ من حملِ ما يُؤذيهِ حملُهُ .

فَعُلِمَ أنَّ هذه اللذَّاتِ إمَّا أن تكونَ دفعَ آلامٍ ، وإمَّا أن تكونَ لذَّاتٍ ضعيفَةً خسيسَةً مُقترِنَةً بآفاتٍ تُرى مضرَّتُها عليه ، وهذا كما يعقُبُ لذَّةَ الوقاعِ من ضَعْفِ القَلبِ ، وخَفَقانِ الفؤادِ ، وضَعفِ القوى البَدنيَّة والقلبيَّة ، ويعقُبُ ضعفَ الأرواحِ واستيلاءِ العفونَةِ على كلِّ البَدن ، وإسرَاعَ الضَّعفِ والخَوَرِ إليهِ ، واستيلاءَ الأَخلاطِ عليهِ لضَعفِ القوَّة عن دفعها وقَهرِها .

وممَّا يَدُلُّ على أنَّ هذه اللذَّاتِ ليسَت خيراتٍ وسعاداتٍ وكمالًا : أنَّ العقلاءَ من جميعِ الأمَمِ مُطبِقُونَ على ذمِّ مَن كانَت هيَ نهمَتَهُ وشغلَهُ ومصرفَ همَّتِهِ وإرادتِهِ ، والإزْراءِ بهِ ، وتَحقيرِ شأنِهِ ، وإلحاقِهِ بالبهائم ، ولا يُقيمونَ له وزنًا ، ولو كانَت خَيراتٍ وكمالًا لكانَ مَن صرفَ إليها همَّتَهُ أكمَلَ النَّاس .

وممَّا يدُلُّ على ذلكَ أن القَلبَ الذي قَد وجَّهَ قَصدَهُ وإرادَتَهُ إلى هذه اللذَّاتِ لا يزالُ مُستغرقًا في الهُموم والغمومِ والأحزان ، وما ينالُهُ من اللذَّاتِ في جَنْبِ هذه الآلامِ كقَطرَةٍ في بحرٍ ، كما قيلَ :

سرورُهُ وزنُ حبَّةٍ وحزنُه قنطارُ ....

فإنَّ القَلبَ يجري مجرى مِرآةٍ منصوبَةٍ على جدارٍ ، وذلكَ الجدارُ ممرٌّ لأَنواعِ المُشْتَهَياتِ ، والمَلْذوذاتِ ، والمكْروهاتِ ، فكلَّما مرَّ به شيءٌ من ذلك ظَهَرَ فيه أثرُهُ ؛ فإنْ كانَ محبوبًا مُشتهيًا مالَ طبعُهُ إليهِ ، فإنْ لم يَقدِرْ على تحصيلهِ تألَّمَ وتعذَّبَ بفَقدهِ ، وإنْ قَدَرَ على تحصيلهِ تألَّمَ في طريقِ الحُصولِ بالتَّعَب والمشقَّةِ ومُنازَعَةِ الغَيرِ له ، ويتألَّمُ حالَ حُصولهِ خَوفًا من فراقِهِ ، وبَعدَ فراقِهِ حُزنًا على ذهابهِ ، وإنْ كانَ مكروهًا له ولم يَقدِرْ على دفعهِ تألَّمَ بوجودهِ ، وإنْ

قَدَرَ على دفعهِ ففاتَتْهُ مصلحَةٌ راجحَةُ الحصولِ ، فيتألَّمُ لفواتها .

فَعُلِمَ أنَّ هذا القلبَ أبدًا مُستغرِقٌ في بحارِ الهمومِ والغمومِ والأحزانِ ، وأَنَّ نفسَهُ تضحَكُ عليهِ وتُرَضِّيهِ بوزنِ ذرَّةٍ مِن لذَّةٍ مِن لذَّتهِ ، فيغيبُ بها عن شهودِهِ القناطيرَ من ألمهِ وعذابِهِ ، فإذا حِيلَ بينَهُ وبينَ تلكَ اللذَّةِ ولم يبقَ له إليها سبيلٌ ، تجرَّدَ ذلكَ الألمُ وأحاطَ به واستَولى عليهِ من كلِّ جهاتِهِ .

فقُل ما شئتَ في حالِ عَبدٍ قَد غُيِّبَ عنه سَعدُهُ وحظوظُهُ وأفراحُهُ ، وأُحضِرَ شقوتَهُ وهمومَهُ وغمومَهُ وأحزانَه .

وبينَ العَبدِ وبينَ هذه الحالِ أن ينكشفَ الغطاءُ ويُرفعَ السِّترُ ، وينجليَ الغبارُ ، ويُحصَّلَ ما في الصُّدورِ .

فإذا كانَت هذه غايَةَ اللذَّاتِ الحيوانيَّة - التي هي غايَةُ جمعِ الأموالِ وطلبها - فما الظنُّ بقَدْرِ الوَسيلَةِ ؟

وأمَّا غِنى العلمِ والإيمانِ فدائمُ اللذَّةِ ، مُتَّصلُ الفَرحَةِ ، مُقتَضٍ لأنواعِ المسرَّةِ والبَهجَةِ ، لا يزولُ فيُحْزِن ، ولا يُفارقُ فيُؤلِم ، بل أصحابُهُ كما قالَ اللَّهُ تعالى فيهم : ﴿ لا خَوفٌ عليهم ولا هُم يَحزَنون ﴾ [يونس : ٦٢] .

السَّادسُ والثَّلاثون : أَنَّ غَنيَّ المالِ يُبغِضُ الموتَ ولقاءَ اللَّهِ ، فإنَّهُ لحبِّهِ مالَهُ يكرَهُ مُفارَقَتَهُ ويُحِبُّ بقاءَهُ ليتمتَّعَ به كما شهدَ به الواقع .

أمَّا العلمُ فإنَّهُ يُحبِّبُ للعَبدِ لقاءَ ربِّهِ ويُزهِّدُهُ في هذه الحياةِ النَّكِدَة الفانيَة .

السَّابعُ والثَّلاثون : أنَّ الأغنياء يموتُ ذِكرُهُم بموتهم ، والعلماءُ يموتونَ ويبقى ذِكْرُهم ؛ كما قال أميرُ المؤمنين في هذا الحديث :

« ماتَ خُزَّانُ الأموالِ وهم أحياءٌ والعلماءُ باقون ما بقيَ الدَّهرُ »؛ فَخُزَّانُ

الأموالِ أحياءٌ كأمواتٍ ، والعلماءُ بَعدَ موتهم أمواتٌ كأحياءٍ .

الثَّامنُ والثَّلاثون : أَنَّ نسبَةَ العلمِ إلى الرُّوحِ كنسبَةِ الرُّوحِ إلى البَدن ؛ فالرُّوحُ ميِّتَةٌ ؛ حياتُها بالعلمِ ،كما أنَّ الجَسَدَ ميِّتٌ ؛ حياتُهُ بالرُّوحِ، فالغَنيُّ بالمالِ غايتُهُ أن يَزيدَ في حياةِ البَدَن ، وأمَّا العلمُ فهو حياةُ القلوبِ والأرواحِ ؛ كما تَقدَّمَ تَقريرهُ .

التَّاسعُ والثَّلاثون : أَنَّ القَلبَ مَلِكُ البَدنِ ، والعلمَ زينتُهُ وعُدَّتُهُ ومالُهُ ، وبه قِوامُ مُلكهِ ، والمَلِكُ لا بدَّ لهُ من عَددٍ وعُدَّةٍ ومالٍ وزينَةٍ ، فالعلمُ هو مركبُهُ وعدَّتُهُ وجَمالُهُ .

وأمَّا المالُ فغايتُهُ أن يكونَ زينةً وجمالًا للبَدَنِ إذا أنفقَهُ في ذلكَ ، فإذا خَزَنَهُ ولم يُنفِقْهُ لم يكُن زينةً ولا جَمالًا ، بل نقصًا وَوَبالًا .

ومن المعلومِ أنَّ زينةَ المَلِكِ وما بهِ قِوامُ مُلكهِ أَجَلُّ وأفضلُ من زينةِ رعيَّتهِ وجَمالهم ، فقوامُ القلبِ بالعلمِ ، كما أنَّ قوامَ الجسمِ بالغِذاء .

الوجهُ الأربعون : أنَّ القَدْرَ المقصودَ من المالِ هو ما يَكفي العَبدَ ويُقيمُهُ ويَدفعُ ضرورتَهُ حتى يتمكَّنَ من قضاءِ جهازهِ ، ومن التَّزوُّدِ لسفرهِ إلى ربِّهِ عزَّ وجَلَّ ، فإذا زادَ على ذلكَ شغَلَهُ وقَطَعَهُ عن السَّفَرِ إلى ربِّه وعَن قضاءِ جهازهِ وتعبيَةِ زادهِ ، فكانَ ضَرَرُهُ عليهِ أكثَرَ من مصلحتهِ ، وكلَّما ازدادَ غِناهُ به ازدادَ تثبُّطًا وتخلُّفًا عن التَّجهُّزِ لِمَا أمامَهُ .

وأمَّا العلمُ النَّافعُ فكلَّما ازدادَ منه ازدادَ في تَعبيَةِ الزَّادِ وقضاءِ الجهازِ وإعدادِ عدَّةِ المسيرِ ، واللَّهُ الموفِّق وبه الاستعانَةُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بهِ .

فعُدَّةُ هذا السَّفرِ هو العلمُ والعَمَلُ ، وعُدَّةُ الإقامَةِ جمعُ الأموالِ والادِّخارُ ،

ومَن أرادَ شيئًا هيَّأَ له عُدَّتَهُ، قال تعالى : ﴿ وَلو أرادوا الخُروجَ لأعَدُّوا لهُ عُدَّةً ولكنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعاثَهُم فَثَبَّطهُم وقيلَ اقعُدوا معَ القاعدينَ ﴾ [التوبة : ٤٦] .

قولُه : « **محبَّةُ العلمِ - أو العالِمِ - دِينٌ يُدانُ بها** » ؛ لأنَّ العلمَ ميراثُ الأنبياءِ والعلماءُ وُرَّاثُهم ، فمحبَّةُ العلمِ وأهلِهِ محبَّةٌ لميراثِ الأنبياءِ وورثتِهم، وبُغضُ العلمِ وأهلِهِ بُغضٌ لميراثِ الأنبياءِ وورثتِهم .

فمحبَّةُ العلمِ مِن علاماتِ السَّعادَةِ وبُغْضُ العلمِ من علاماتِ الشَّقاوَةِ ، وهذا كلُّه إنَّما هو في علمِ الرُّسلِ الذي جاؤا به ، وورّثوهُ للأُمَّةِ ، لا في كلِّ ما يُسمَّى عِلمًا .

وأيضًا ؛ فإنَّ محبَّةَ العلمِ تحمِلُ على تعلُّمِهِ واتِّباعِهِ - وذلكَ هو الدِّينُ - وبُغضُهُ يَنهى عن تعلُّمِهِ واتِّباعِهِ ، وذلكَ هو الشَّقاءُ والضَّلالُ .

وأيضًا ؛ فإنَّ اللَّهَ سبحانهُ عليمٌ يُحِبُّ كلَّ عليمٍ، وإنَّما يَضَعُ علمَهُ عندَ من يحِبُّهُ ، فمَن أحبَّ العلمَ وأهلَهُ فقد أحبَّ ما أحبَّ اللَّهُ ، وذلكَ ممَّا يُدانُ به .

قولُه : « **العلمُ يُكسِبُ العالِمَ الطَّاعَةَ في حياتِهِ وجَميلَ الذِّكرِ بَعدَ مماتِهِ** » ؛ يُكسِبهُ ذلكَ ، أي : يجعلُهُ كَسبًا له ، ويُورِّثُهُ إيَّاهُ ، ويُقال : كَسَبَهُ ذلكَ عزًّا وطاعَةً وأَكسَبَهُ ؛ لُغتانِ[1]، ومنه حديثُ خَديجَةَ رضيَ اللَّهُ عنها : « إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وتصدُقُ الحديثَ ، وتحملُ الكَلَّ ، وتكسِبُ المعدومَ[2] » ، رُوي بفتح التَّاء وضمِّها ، ومعناهُ : تُكسِبُ المالَ والغنى ، هذا هو الصَّوابُ ، وقالت طائفَةٌ : مَن رواهُ بضمِّها فذلكَ مِن : أكسَبهُ مالًا وعِزًّا ، ومَن رواهُ بفتحها ، فمعناهُ : تَكْسِبُ أنتَ المالَ المَعدومَ بمعرفتكَ وحِذْقِكَ بالتِّجارَةِ .

---

(١) انظر « القاموس المحيط » (ص ١٦٧) ، و « فتح الباري » (١ / ٢٤) .
(٢) رواه البخاري (رقم : ٣) ، ومسلم (١٦٠) عن عائشة .

وَمَعَاذَ اللَّهِ من هذا الفَهمِ ، وخديجَةُ أَجَلُّ قَدْرًا مِن تَكَلُّمِها بهذا في هذا المقام العظيم أن تقولَ لرسولِ اللَّهِ ﷺ : أبشِر فواللَّهِ لا يخزيكَ اللَّهُ إنَّكَ تَكسِبُ الدِّرهمَ والدِّينارَ وتُحسنُ التِّجارَةَ !

ومثلُ هذه التَّحريفات إنَّما تُذْكَرُ لئلَّا يُغترَّ بها في تَفسيرِ كلامِ اللَّهِ ورسولِهِ .

والمقصودُ أنَّ قولَهُ : « العلمَ يُكسِبُ العالِمَ الطَّاعَةَ في حياتِهِ » ؛ أي : يجعلُهُ مُطاعًا ؛ لأنَّ الحاجَةَ إلى العلمِ عامَّةٌ لكلِّ أحدٍ من المُلوكِ فمَن دونهم ، فكُلُّ أحدٍ مُحتاجٌ إلى طاعَةِ العالِمِ ، فإنَّهُ يأمُرُ بطاعَةِ اللَّهِ ورسولِهِ ، فيجبُ على الخَلْقِ طاعتُهُ، قال تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا أَطِيعوا اللهَ وأَطِيعوا الرَّسولَ وأُولي الأمرِ منكُم ﴾ [النساء : ٥٩] .

وفُسِّرَ ﴿ أُولي الأمرِ ﴾ بالعُلماء[1]:

قال ابنُ عبَّاسٍ : هم الفقهاءُ والعلماءُ أهلُ الدِّينِ ؛ الذين يُعلِّمونَ النَّاسَ دينَهم ، أوجَبَ اللَّهُ تعالى طاعتَهم .

وهذا قولُ مُجاهدٍ والحَسَنِ والضَّحَّاكِ ، وإحدى الرِّوايتَين عن الإمامِ أحمَد .

وفُسِّروا بالأُمراءِ ؛ وهو قولُ ابنِ زَيدٍ ، وإحدى الرِّوايتَين عن ابن عبَّاسٍ وأحمَدَ .

والآيَةُ تتناوَلُهما جميعًا ؛ فطاعَةُ وُلاةِ الأمرِ واجبَةٌ إذا أَمروا بطاعَةِ اللَّهِ ورسولِهِ ، وطاعَةُ العلماءِ كذلك ؛ **فالعالِمُ بما جاءَ به الرَّسولُ العاملُ به أَطوَعُ في أهلِ الأرضِ مِن كلِّ أحَدٍ** ؛ فإذا ماتَ أحيا اللَّهُ ذِكرَهُ ، ونَشرَ له في العالَمين أحسَنَ الثَّناءِ ، فالعالِمُ بَعدَ وفاتِهِ ميْتٌ وهو حيٌّ بينَ النَّاسِ ، والجاهلُ في حياتِهِ

---

(١) انظر « زاد المسير » (٢ / ١١٦ - ١١٧) لابن الجوزي .

حيٌّ وهو ميْتٌ بين النَّاس ، كما قيل :

وفي الجَهلِ قبلَ الموتِ موتٌ لأهلِهِ وأجسامُهُم قبلَ القبورِ قبورُ
وأرواحُهم في وحشةٍ من جُسومهم وليسَ لهم حتى النُّشورِ نشورُ

وقال آخرُ :

قَد ماتَ قومٌ وما ماتَت مكارمُهم وعاشَ قومٌ وهم في النَّاسِ أمواتُ

وقال آخر :

وما دامَ ذكرُ العَبدِ بالفَضلِ باقيا فذلكَ حيٌّ وهو في التُّرْبِ هالكُ

ومَن تأمَّلَ أحوالَ أئمَّةِ الإسلامِ - كأئمَّةِ الحديثِ والفقهِ -كيفَ هُمْ تحتَ التُّرابِ وهم في العالَمينَ كأنَّهُم أحياءٌ بينهم لم يفقدوا منهم إلّا صُوَرَهم ، وإلّا فَذِكْرُهُم وحَديثُهم والثَّناءُ عليهم غيرُ منقطعٍ ، **وهذه هي الحياةُ حقًّا** ، حتى عُدَّ ذلكَ حياةً ثانيَةً ،كما قال المُتنبِّي :

ذِكْرُ الفَتى عيشُهُ الثَّاني وحاجتُهُ ما فاتَهُ وفُضولُ العَيشِ أشغالُ

قوله : « **وصَنيعَةُ المالِ تَزولُ بزوالِهِ** » ؛ يعني : أنَّ كلَّ صُنيعَةٍ صُنِعَت للرَّجلِ من أجلِ مالِهِ ؛ من إكرامٍ ومحبَّةٍ وخدمَةٍ وقضاءِ حوائجَ وتَقديمٍ واحترامٍ وتوليَةٍ وغير ذلكَ ؛ فإنَّها إنَّما هي مراعاةٌ لمالِهِ ، فإذا زالَ مالُهُ وفارَقَهُ زالت تلكَ الصَّنائعُ كلُّها ، حتى إنَّهُ ربَّما لا يُسَلِّمُ عليه مَن كانَ يدأبُ في خدمتِهِ ويسعى في مصالحِهِ .

وَقد أكثرَ النَّاسُ من هذا المعنى في أشعارِهم وكلامِهم ، وفي مثلِ قولِهم : **مَن ودَّكَ لأمرٍ ملَّكَ عندَ انقضائِهِ** ، قال بَعضُ العَرب :

وكانوا بنو عَمِّي يقولون مَرْحبا فلمَّا رَأَوْني مُعْسِرًا مات مَرْحَبُ

ومِن هذا ما قيلَ : إذا أكرمَكَ النَّاسُ لمالٍ أو سلطانٍ فلا يُعجبنَّكَ ذلكَ ؛ فإنَّ زوالَ الكرامَةِ بزوالهما ، ولكنْ لِيُعْجِبْكَ إنْ أكرموكَ لعلمٍ أو دينٍ .

وهذا أمرٌ لا يُنْكَرُ في النَّاسِ ؛ حتى إنَّهُم لَيُكرِمونَ الرَّجلَ لثيابِهِ ، فإذا نَزَعها لم يَرَ منهم تلكَ الكرامَةَ وَهُوَ هو !

قال مالكٌ : بَلَغَني أنَّ أبا هرَيرَةَ دُعيَ إلى وليمَةٍ فأتى ، فحُجِبَ ، فرجعَ فلبسَ غيرَ تلكَ الثِّيابِ فأُدخلَ ، فلمَّا وُضعَ الطَّعامُ أدخَلَ كُمَّهُ في الطَّعامِ ! فعُوتبَ في ذلكَ ، فقال : إنَّ هذه الثِّيابَ هي التي أُدخِلَت فهي تأكلُ . حكاهُ ابنُ مُزَينٍ الطُّلَيْطُلي[1] في « كتابه » .

وهذا بخلافِ صَنيعَةِ العلمِ ؛ فإنَّها لا تزولُ أبدًا ، بل كُلُّ مآلها في زيادَةٍ ما لم يُسلَبْ ذلكَ العالِمُ علمُهُ .

وصنيعَةُ العلمِ والدِّينِ أعظمُ من صنيعَةِ المالِ ؛ لأنَّها تكونُ بالقَلبِ واللسانِ والجوارحِ ، فهي صادرَةٌ عن حُبٍّ وإكرامٍ لأجَلِ ما أودعَهُ اللَّهُ تعالى إيَّاهُ من علمِهِ ، وفَضَّلَه به على غيرِهِ .

وأيضًا ؛ فصنيعَةُ العلمِ تابعَةٌ لنفسِ العالِمِ وذاتِهِ، وصنيعَةُ المالِ تابعَةٌ لمالهِ المنفَصِلِ عنه .

وأيضًا ؛ فصنيعَةُ المالِ صَنيعَةُ مُعاوَضَةٍ ، وصَنيعَةُ العلمِ والدِّينِ صَنيعَةُ حُبٍّ وتقرُّبٍ وديانَةٍ .

وأيضًا ؛ فصنيعَةُ المالِ تكونُ مع البَرِّ والفاجرِ ، والمؤمنِ والكافرِ ، وأمَّا صَنيعَةُ العلمِ والدِّينِ فلا تكونُ إلَّا معَ أهلِ ذلكَ .

وقَد يُرادُ مِن هذا أيضًا معنىً آخَرُ ؛ وهو أنَّ مَن اصْطَنَعْتَ عندهُ صَنيعَةً

---

[1] (١) انظر ما تقدّم (ص ١٧٠) .

بمالكَ إذا زالَ ذلك المالُ وفارَقَهُ عُدِمَتْ صَنيعَتُكَ عندهُ ، وأمَّا مَن اصطنَعْتَ إليهِ صَنيعَةَ علمٍ وهُدىً فإنَّ تلكَ الصَّنيعَةَ لا تُفارِقُهُ أبدًا ، بل تُرى في كلِّ وقتٍ كأنَّكَ أَسدَيْتَها إليه حينئذٍ .

قولُه : « **ماتَ خزَّانُ الأموالِ وهم أحياءٌ** » ؛ قَد تقدَّمَ بيانُهُ .

وكذلك قولُه : « **والعلماءُ باقونَ ما بقيَ الدَّهرُ** » .

وقولُه : « **أعيانُهم مفقودَةٌ ، وأمثالهم في القلوب موجودةٌ** » ؛ المُرادُ بـ « أَمثالهم » صُوَرُهم العِلميَّةُ ، ووجودُهم المثاليُّ ، أَي : وإِنْ فُقِدتْ ذواتُهم فَصُوَرُهم وأَمثالُهُم في القلوبِ لا تُفارقها ، وهذا هو الوجودُ الذِّهنيُّ العلميُّ ؛ لأنَّ محبَّةَ النَّاسِ لهم ، واقتداءَهُم بهم ، وانتفاعَهم بعلومهم ، يُوجِبُ أنْ لا يَزالوا نُصْبَ عيونهم ، وقِبْلَةَ قلوبهم ، فهم موجودونَ معهم وحاضرونَ عندهم ، وإنْ غابَت عنهم أعيانُهم ، كما قيل :

وَمِن عَجَبٍ أَنّي أَحِنُّ إليهمُ ... وأسألُ عَنْهُمْ مَن لقيتُ وهُمْ معي
وتطلُبُهم عَيني وهُم في سوادِها ... ويشتاقُهم قلبي وهُم بين أضلُعي

وقال آخَرُ :

ومِن عَجَبٍ أن يشكُوَ البُعدَ عاشقٌ ... وهل غابَ عن قلبِ المُحبِّ حَبيبُ
خيالُكَ في عَيني وذِكْرُكَ في فمي ... ومثْواكَ في قلبي فأينَ تَغيبُ

قولُه : « **آهٍ ؛ إنَّ هاهنا عِلمًا – وأشارَ إلى صدرِهِ –** » ؛ يدلُّ على جوازِ إخبارِ الرَّجلِ بما عندَهُ من العلمِ والخَيرِ لِيُقْتَبَسَ منه ، ولِيُنتَفعَ به ، ومنه قولُ يوسُفَ الصِّدِّيق عليه السَّلام : ﴿ اجعَلْني عَلى خزائنِ الأرضِ إنِّي حَفيظٌ عليمٌ ﴾.

فمَن أخبرَ عن نفسهِ بمثل ذلكَ لِيُكثِّرَ به ما يُحِبُّهُ اللَّهُ ورسولُهُ من الخَيرِ فهو

محمودٌ ، وهذا غَيرُ من أخبَرَ بذلكَ ليتكثَّرَ به عندَ النَّاسِ ويتعظَّمَ ، وهذا يُجازيهِ اللَّهُ بمقتِ النَّاسِ له ، وصِغَرِهِ في عيونهم ، والأوَّلُ يُكبِّرُهُ في قلوبهم وعيونهم ، **وإنَّما الأعمالُ بالنِّيَّات** .

وكذلكَ إذا أثنى الرَّجلُ على نفسهِ لِيَخْلَصَ بذلكَ من مظلمَةٍ وشرٍّ ، أو لِيَستَوفي بذلك حقًّا له يحتاجُ فيه إلى التَّعريفِ بحالهِ ، أو ليقطَعَ عنه أطماعَ السِّفْلَةِ فيه ، أو عندَ خِطبتهِ إلى من لا يَعرفُ حالَهُ .

والأحسَنُ في هذا أن يُوكِّلَ من يُعرِّفُ به وبحالهِ ؛ **فإنَّ لسانَ ثناءِ المرءِ على نفسه قَصيرٌ** ، وهو في الغالبِ مذمومٌ لِمَا يقترنُ به من الفخرِ والتَّعاظمِ .

ثمَّ ذكرَ أصنافَ حمَلَةِ العلمِ الذينَ لا يصلُحونَ لحملهِ ، وهم أربعَةٌ :

أحدُهم : مَن ليسَ بمأمونٍ عليهِ ، وهو الذي أُوتيَ ذكاءً وحفظًا ، ولكنْ مع ذلكَ لم يُؤتَ زكاءً ، فهو يتَّخِذُ العلمَ - الذي هو آلَةُ الدِّينِ - آلَةَ الدُّنيا ، يستجلبُها به ، ويتوسَّلُ بالعلمِ إليها ، ويجعَلُ البضاعَةَ التي هي مُتَّجَرُ الآخرَةِ مُتَّجَرَ الدُّنيا ، وهذا غَيرُ أمينٍ على ما حَمَلَهُ من العلمِ ، ولا يجعلُهُ اللَّهُ إمامًا فيه قطُّ ؛ فإنَّ الأمينَ هو الذي لا غَرَضَ له ، ولا إرادَةَ لنفسهِ إلّا اتِّباعُ الحقِّ ومُوافقتُهُ ، فلا يَدعو إلى قيَامِ رياستهِ ولا دنياهُ ، **وهذا الذي قد اتَّخذَ بضاعةَ الآخرَةِ ومُتَّجَرَها مُتَّجَرًا للدُّنيا قَد خانَ اللَّهَ ، وخانَ عبادَهُ وخانَ دينَهُ** ، فلهذا قال : « **غيرَ مأمونٍ عليهِ** » .

وقولُه : « **يَستَظهرُ بحُجَجِ اللَّهِ على كتابِه ، وبنعمهِ على عباده** » ؛ هذه صفحةُ هذا الخائنِ ؛ إذا أَنْعَمَ اللَّهُ عليه استظهرَ بتلك النعمةِ على النَّاسِ ، وإذا تعلَّمَ علمًا استَظهَرَ به على كتابِ اللَّهِ .

ومعنى استظهاره بالعلمِ على كتابِ اللَّهِ: تحكيمُه عليه وتقديمُه وإقامتُه دونَهُ.

وهذه حالُ كثيرٍ ممَّن يحصُلُ له علمٌ ؛ فإنَّهُ يَستغني به ويَستَظهِرُ به ويُحَكِّمُهُ ، ويجعَلُ كتابَ اللَّهِ تَبَعًا له ، يقال : استظهَرَ فلانٌ على كذا بكذا ، أي : ظَهَرَ عليهِ به وتقدَّمَ ، فَجَعَلَهُ وراءَ ظهرِهِ .

وليسَتْ هذه حالَ العلماءِ ؛ **فإنَّ العالِمَ حقًّا يستظهرُ بكتابِ اللَّهِ على كُلِّ ما سِواهُ** ، فيُقَدِّمُهُ ويُحكِّمُهُ ، ويجعلُه إمامَه ، ويجعلُهُ عِيارًا على غيرِهِ ، مُهيمِنًا عليهِ ، كما جَعَلَهُ اللَّهُ تعالى كذلكَ .

فالمُستظِهرُ به مُوفَّقٌ سعيدٌ ، والمُستظِهرُ عليه مخذولٌ شقيٌّ ، فمَن استَظهَرَ على الشيءِ فَقَد جعَلَهُ خَلْفَ ظَهرِهِ مُقدِّمًا عليهِ ما استظهَرَ به .

وهذا حالُ من اشتَغَلَ بغَيرِ كتابِ اللَّهِ عنهُ ، واكتفى بغَيرِهِ منه ، وقدَّمَ غَيرَهُ وأخَّرَهُ .

الصِّنفُ الثَّاني مِن حملَةِ العلمِ : المُنقادُ له الَّذي لم يُثْلِجْ له صَدْرَهُ ، ولم يطمئنَّ به قلبُهُ ، بل هو ضعيفُ البَصيرَةِ فيه لكنَّهُ مُنقادٌ لأهلِهِ .

وهذه حالُ أَتْباعِ الحقِّ مِن مُقلِّديهم ، وهؤلاءِ - وإنْ كانوا على سبيلِ نجاةٍ - فليسوا مَن دعاةِ الدِّينِ ، وإنَّما هم مِن مُكثِّري سوادِ الجَيشِ ، لا من أُمرائهِ وفرسانهِ .

والمُنقاد : منفعلٌ مِن قاده يقودُهُ ، وهو مُطاوعُ الثَّاني ، وأصلُهُ مُنْقَيِدٌ ؛ كمكتَسَبٍ ، ثمَّ أُعِلَّت الياءُ ألفًا لحركتها بعَد الفتحَةِ ، فصارَ : منقادٌ ؛ تقولُ : قُدتهُ فانقادَ ، أي : لم يمتنعْ .

والأَحناءُ : جمعُ حِنْوٍ ، بوزنِ عِلْمٍ ، وهي الجوانبُ والنَّواحي ، والعَرَبُ

تقولُ : ازْجُرْ أَحناءَ طيركَ ، أي : أمسِك نواحي خِفّتِكَ وطيشِكَ يمينًا وشمالًا وأمامًا وخلفًا .

قال لَبِيدٌ :

فقلتُ ازدَجِرْ أَحناءَ طَيرِكَ واعْلَمَنْ   بأنَّكَ إنْ قدَّمتَ رِجلَكَ عاثرُ

والطَّيرُ هنا : الخِفَّةُ والطَّيشُ .

وقولُه : « **ينقدحُ الشكُّ في قلبهِ بأوَّلِ عارضٍ من شبهَةٍ** » ؛ هذا لضَعفِ علمهِ وقلَّةِ بَصيرَتهِ إذا ورَدَتْ على قلبهِ أَدنى شُبهةٍ قَدحَتْ فيه الشكَّ والرِّيَبَ ، بخلافِ الرَّاسخِ في العلمِ ؛ لو وَرَدَتْ عليهِ من الشُّبَهِ بعَددِ أمواجِ البَحرِ ما أزالتْ يَقينَهُ ، ولا قَدَحَتْ فيه شكًّا ؛ لأنَّهُ قَد رَسَخَ في العلمِ فلا تَستفزُّهُ الشبهاتُ ، بل إذا وَرَدَتْ عليه ردَّها حَرَسُ العلمِ وجيشُهُ مغلولَةً ومغلوبةً .

والشبهَةُ : واردٌ يَرِدُ على القلبِ يحُولُ بينهُ وبينَ انكشافِ الحقِّ له ، فمتى باشرَ القلبُ حقيقَةَ العلمِ لم تُؤَثِّر تلكَ الشبهَةُ فيه ، بل يَقوى علمُهُ ويقينُهُ بردِّها ومعرفَةِ بطلانها ، ومتى لم يُباشِرْ حقيقَةَ العلمِ بالحَقِّ قلبُهُ قَدَحت فيه الشكَّ بأوَّلِ وهلَةٍ ، فإنْ تَدارَكَها وإلَّا تَتابَعَتْ على قلبهِ أمثالُها ، حتى يَصيرَ شاكًّا مرتابًا .

والقلبُ يتوارَدُهُ جيشانِ من الباطلِ : جيشُ شهواتِ الغَيِّ ، وجَيشُ شُبُهاتِ الباطلِ ؛ فأيُّما قلبٍ صَغا إليها ورَكَنَ إليها تشرَّبَها وامتلأَ بها فيَنضَحُ لسانُهُ وجوارحُهُ بموجِبها ، فإنْ أُشْرِبَ شبهاتِ الباطلِ تفجَّرَتْ على لسانهِ الشكوكُ والشبهاتُ والإيراداتُ ، فيظنُّ الجاهلُ أنَّ ذلكَ لِسَعَةِ علمهِ ! وإنَّما ذلكَ مِن عَدَمِ علمهِ ويقينهِ[1] .

---

(١) وهذا ما يحصلُ مع أَهل البدع والانحراف ، كذاك الكوثريّ الهالك ، وذَيَّاك =

وقال لي شيخُ الإسلام رضيَ اللَّهُ عنهُ - وقَد جعَلَتُ أُورِدُ عليهِ إيرادًا بعدَ إيراد - : « **لا تجعَلْ قلبَكَ للإيراداتِ والشبهاتِ مثلَ السِّفِنْجَة ، فيتشرَّبَها ، فلا ينضحَ إلّا بها ، ولكنِ اجعَلْهُ كالزُّجاجَةِ المُصْمَتَةِ تَمُرُّ الشبهاتُ بظاهرِها ، ولا تَستقرُّ فيها ، فيراها بصفائهِ ، ويدفعُها بصلابتهِ ، وإلّا فإذا أَشْرَبْتَ قلبَكَ كلَّ شبهَةٍ تمرُّ عليها صارَ مَقرًّا للشبهاتِ** »(١) ، أو كما قالَ .

فما أعلمُ أنّي انتفَعتُ بوصيّةٍ في دفعِ الشبهاتِ كانتفاعي بذلك .

وإنّما سُمِّيَتِ الشبهَةُ شُبهَةً لاشتباهِ الحقِّ بالباطلِ فيها ؛ فإنّها تَلبِسُ ثوبَ الحقِّ على جسمِ الباطلِ ، وأكثَرُ النّاسِ أصحابُ حُسْنِ ظاهرٍ ، فينظرُ النّاظرُ فيما أُلْبِسَتْهُ منَ اللباسِ فيعتقدُ صحَّتَها .

وأمّا صاحبُ العلمِ واليَقينِ ؛ فإنَّهُ لا يغترُّ بذلكَ ، بل يُجاوِزُ نَظرَهُ إلى باطِنها وما تَحتَ لباسها ، فينكشفُ له حقيقتُها ، ومثالُ هذا : الدرهم الزّائفِ ؛ فإنَّهُ يغترُّ به الجاهلُ بالنَّقد نَظرًا إلى ما عليهِ مِن لباسِ الفضَّةِ ، والنّاقدُ البَصيرُ يُجاوزُ نَظَرَهُ إلى ما وراءَ ذلكَ فيطَّلعُ على زيفهِ .

فاللفظُ الحَسَنُ الفَصيحُ هو للشبهَةِ بمنزلَةِ اللباسِ من الفضَّةِ على الدِّرهم الزّائفِ ، والمعنى كالنُّحاسِ الذي تحته .

وكم قَد قَتلَ هذا الاغترارُ مِن خَلْقٍ لا يُحصيهم إلّا اللَّهُ !

وإذا تأمَّلَ العاقلُ الفَطِنُ هذا القَدْرَ وتدبَّرَهُ رأى أكثَرَ النّاسِ يَقْبلُ المذهَبَ والمقالَةَ بلفظٍ ، ويردُّها بعينها بلفظٍ آخرٍ(٢).

= **الخسّاف - كذّابِ البَلْقاءِ - المخذول ! وشتّان - على ما فيهما - بينهما !**

(١) كلماتٌ تُكتب - لعظمتِها - بماء العيون ، فاحْفَظْها .

(٢) وليس هذا من منهج الحقّ أَو سبيل أَهل الحقّ .

وقَد رأيتُ أنا من هذا في كُتُبِ النَّاسِ ما شاءَ اللَّهُ !!

وكم رُدَّ منَ الحقِّ بتشنيعهِ بلباسٍ من اللفظِ قبيحِ !

وفي مثل هذا قال أئمَّةُ السُّنَّةِ – منهم الإمامُ أحمَدُ وغيرُهُ – : لا نُزِيلُ عن اللَّهِ صفَةً من صفاتهِ لأجلِ شناعَةٍ شُنِّعت ، فهؤلاءِ الجهميَّةُ يُسمُّونَ إثباتَ صفاتِ الكمالِ للَّهِ – من حياتهِ وعلمهِ وكلامهِ وسمعهِ وبصرهِ ، وسائرِ ما وَصَفَ به نفسَهُ – تشبيهًا وتجسيمًا ، ومَن أثبتَ ذلكَ مُشبِّهًا(١) !

فلا يَنْفِرُ من هذا المعنى الحقِّ لأجلِ هذه التَّسميَةِ الباطلَةِ إلّا العقولُ الصَّغيرَةُ القاصرَةُ خفافيشُ البصائرِ !!

وكلُّ أَهلِ نِحْلَةٍ ومقالةٍ يكسونَ نِحْلَتَهم ومقالتَهم أحسَنَ ما يَقدِرونَ عليه من الألفاظِ ، ومقالَةَ مُخالفيهم أقبحَ ما يقدرونَ عليه من الألفاظِ .

ومَن رَزَقَهُ اللَّهُ بَصيرَةً فهو يكشفُ بها حقيقَةَ ما تحتَ تلكَ الألفاظِ من الحقِّ والباطلِ ، ولا يغترُّ باللفظِ ، كما قيلَ في هذا المعنى :

تقولُ هـــذا جَنى النَّحلِ تمـدحُهُ ... وإنْ تشأ قلتَ ذا قَيْءُ الزَّنابيرِ
مَدحًا وذمًّا وما جاوَزْتَ وَصْفَهُما ... والحقُّ قَد يَعتـريه سوءُ تَعبيرِ

فإذا أردتَ الاطِّلاعَ على كُنهِ المعنى : هل هو حقٌّ أو باطلٌ ؟ فجرِّدْهُ من لباسِ العبارَةِ ، وجرِّد قَلبَكَ مِن النَّفرَةِ والمَيلِ ، ثمَّ أعطِ النَّظَرَ حقَّهُ ، ناظرًا بعَينِ الإنصافِ ، ولا تكُن ممَّن ينظرُ في مقالَةِ أصحابهِ ومَن يُحسِّنُ ظنَّهُ به نظرًا تامًّا بكلِّ قلبهِ ، ثمَّ ينظرُ في مقالَةِ خصـومهِ ومن يسيءُ ظنَّـهُ به كنَظَرِ الشَّزْرِ والْمُلاحَظَةِ ، فالنَّاظرُ بعَينِ العَداوَةِ يَرى المحاسنَ مساوىءَ ، والنَّاظرُ بعَينِ المحبَّةِ

---

(١) وهذا مِن ضلالات أَهل البدعِ والأَهواءِ قديمًا وحديثًا .

عكسُهُ .

وما سَلِمَ من هذا إلّا مَن أرادَ اللَّهُ كرامَتَهُ وارتضاهُ لِقَبُولِ الحقِّ ، وقد قيلَ :

وعَينُ الرِّضا عَن كُلِّ عَيبٍ كليلَةٌ كما أنَّ عَينَ السُّخطِ تُبدي المساويا

وقال آخرُ :

نَظَروا بعينِ عداوَةٍ لو أنَّها عينُ الرِّضا لاسْتَحْسَنُوا ما استقبحوا

فإذا كانَ هذا في نَظَرِ العَينِ الذي يُدرِكُ المحسوساتِ ، ولا يتمكَّن من المُكابرَةِ فيها ، فما الظَّنُّ بنظَرِ القَلبِ الذي يُدرِكُ المعانيَ التي هي عُرْضَةُ المكابَرةِ ؟!

واللَّهُ المُستعانُ على معرفَةِ الحقِّ وقَبولِهِ ، وَرَدِّ الباطلِ وعدمِ الاغترارِ بهِ .

وقولُه : « **بأوَّلِ عارضٍ من شُبهةٍ** »؛ هذا دليلٌ على ضَعفِ عقلِهِ ومعرفتِهِ ، إذ تُؤثِّرُ فيه البداآتُ وتستَفِزُّه أَوائلُ الأمورِ ، بخلافِ الثَّابتِ التَّامِّ العاقِلِ ، فإنَّهُ لا تستفزُّهُ البداآت ولا تُزعِجهُ وتُقْلِقُهُ ؛ فإنَّ الباطلَ له دهشةٌ وروعَةٌ في أوَّلِهِ ، فإذا ثَبَتَ له القَلبُ رُدَّ على عَقِبيهِ .

واللَّهُ يُحِبُّ مِن عبدِهِ العلمَ والأناةَ ، فلا يعجَلْ ، بل يثبُتُ حتى يعلَمَ ويستَيقنَ ما ورَدَ عليهِ ، ولا يعجلْ بأمرٍ من قبلِ استحكامِهِ ، فالعجلَةُ والطَّيشُ من الشيطان(١).

فمَن ثَبَتَ عندَ صدمَةِ البداآت استقبلَ أمرَهُ بعلمٍ وحَزْم ، ومَن لم يثبتْ لها استقبله بعجلةٍ وطَيْشٍ ، وعاقِبتُهُ النَّدامةُ ، وعاقبةُ الأَوَّل حَمْدُ أمرِهِ .

ولكنَّ للأوّلِ آفَةً متى قُرِنَت بالحزم والعزمِ نجا منها ؛ وهي الفَوتُ ، فإنَّهُ لا

---

(١) وقد وَرَدَ في هذا المعنى حديثٌ صحيحٌ ، انظر - له - تعليقي على « تمييز المحظوظين من المحرومين » (ص ٢٦٩) للمعصوميِّ ، ورسالتي « التحذيرات » (ص ١٠) .

يُخافُ منَ التَّثبيتِ إلّا الفَوتُ ، فإذا اقتَرَنَ به العَزمُ والحزمُ تمَّ أمرُهُ .

ولهذا في الدُّعاءِ الذي رواهُ الإمامُ أحمدُ والنَّسائيُّ(١) عن النَّبيِّ ﷺ : « اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ الثَّباتَ في الأمرِ ، والعَزيمَةَ على الرُّشد » .

وهاتانِ الكلمتانِ هما جِمَاعُ الفلاحِ ، وما أُتيَ العَبدُ إلّا مِن تَضْييعِهِما أو تَضْييعِ أحدِهما ، فما أُتِيَ أحدٌ إلّا من بابِ العَجَلَةِ والطَّيشِ واستفزازِ البداآتِ له ، أو من بابِ التَّهاوُنِ والتماوُتِ وتضييعِ الفُرصَةِ بعدَ مُواتاتِها ، فإذا حَصَلَ الثَّباتُ أوَّلًا والعَزمُ ثانيًا أفلَحَ كلَّ الفلاحِ ، واللَّهُ وليُّ التَّوفيق .

الصِّنفُ الثَّالث : رجلٌ نَهْمَتُهُ في نيلِ لذَّتهِ ، فهو مُنقادٌ لداعي الشهوَةِ أينَ كانَ ، ولا يَنَالُ درجَةَ وراثَةِ النُّبوَّةِ مع ذلكَ ، ولا ينالُ العلمَ إلّا بهجرِ اللذَّاتِ وتَطليقِ الرَّاحَةِ .

قال مُسلم في « صحيحهِ »(٢) : قال يَحيى بن أبي كثيرٍ : لا يُنالُ العلمُ براحَةِ الجسمِ .

وقال إبراهيم الحَرْبيّ : أجمعَ عُقلاءُ كلِّ أمَّةٍ أنَّ النَّعيمَ لا يُدرَكُ بالنِّعَمِ ، ومَن آثرَ الرَّاحَةَ فاتَتْه الراحةُ ، فما لصاحبِ اللذَّاتِ وما لدرجَةِ وراثَةِ الأنبياءِ !

فدَعْ عَنكَ الكتابَةَ لستَ منها ولو سَوَّدتَ وَجهَكَ بالمِدادِ

---

(١) رواه أحمد (٤ / ١٢٥) والنَّسائي (٣ / ٥٤) والترمذي (٣٤٠٧) والطَّبراني في « الكبير » (٧١٧٥) والحاكم (١٩٧٤) عن شدَّاد بن أَوس .

وسندُه فيه جهالةٌ ، كما قال شيخُنا الأَلباني في « تمام المنَّة » (ص ٢٢٥) .

ولكنْ للحديث طرقٌ كثيرةٌ عن شدّاد استوعبها الحافظُ الجليلُ أبو نُعيم الأَصبهاني في « حلية الأَولياء » (١ / ٢٦٥ - ٢٦٧) يجزمُ النَّاقدُ معها بثبوت الحديث .

(٢) (٦١٢) (١٧٥) .

فإنَّ العلمَ صناعَةُ القَلبِ وشُغلُهُ ، فما لم يَتفرَّغ لصناعَتهِ وشُغلِهِ لم ينلْها ، وله وجهَةٌ واحدَةٌ ؛ فإذا وُجِّهَتْ وجهَتُهُ إلى اللذَّاتِ والشهواتِ انصَرفَت عن العلمِ ، ومَا لم تغلب لذَّةُ إدراكهِ للعلمِ وشهوتهِ على لذَّةِ جسمهِ وشهوَةِ نفسهِ لم يَنلْ درجَةَ العلمِ أبدًا ، فإذا صارَت شهوتُهُ في العلمِ ولذَّتُهُ في إدراكهِ رُجيَ له أن يكونَ من جُملَةِ أهلهِ .

ولذَّةُ العلمِ لذَّةٌ عقليَّةٌ روحانيَّةٌ من جنسِ لذَّةِ الملائكَةِ ، ولذَّةُ شهواتِ الأكلِ والشرابِ والنِّكاحِ لذَّةٌ حيوانيَّةٌ يُشاركُ الإنسانَ فيها الحيوانُ ، ولذَّةُ الشرِّ والظُّلمِ والفَسادِ والعلوِّ في الأرضِ شيطانيَّةٌ يشاركُ صاحبَها فيها إبليسُ وجنودُهُ .

وسائرُ اللذَّاتِ تَبطُلُ بمفارَقَةِ الرُّوحِ البَدَنَ إلّا لذَّةُ العلمِ والإيمانِ ، فإنَّها تكمُلُ بعدَ المُفارَقَةِ ؛ لأنَّ البَدَنَ وشواغلَهُ كانَ يَنْقُصُها ويُقلِّلُها ويحجِبُها ، فإذا انطَوَت الرُّوحُ عن البَدَن التذَّت لذَّةً كاملَةً بما حصَّلتْهُ من العلمِ النَّافعِ والعَمَلِ الصَّالحِ .

فَمَن طَلَبَ اللذَّةَ العُظمى وآثَرَ النَّعيمَ المُقيمَ فهو في العلمِ والإيمانِ اللذينِ بهما كمالُ سعادَةِ الإنسانِ .

وأيضًا ؛ فإنَّ تلكَ اللذَّاتِ سريعَةُ الزَّوالِ ، وإذا انقَضَت أعقَبَت همًّا وغمًّا ، وألَمًا يَحتاجُ صاحبُها أن يُداويَهُ بمثلها دَفعًا لألمهِ ، وربَّما كانَ معاودتُهُ لها مُؤلمًا لهُ كريهًا إليهِ ، لكنْ يحملُهُ عليهِ مداواةُ ذلكَ الغَمِّ والهمِّ .

فأينَ هذا من لذَّةِ العلمِ ولذَّةِ الإيمانِ باللَّهِ ومحبَّتهِ والإقبالِ عليهِ والتَّنعُّمِ بذكرهِ ؟!

فهذه هي اللذَّةُ الحقيقيَّةُ .

الصِّنفُ الرَّابعُ : مَن حِرصُهُ وهِمَّتُهُ في جمعِ الأموالِ وتثميرِها وادِّخارِها ، فقَد صارَت لذَّتُهُ في ذلكَ ، وفَنِيَ بها عمَّا سواهُ ، فلا يَرى شيئًا أطيَبَ لهُ ممَّا هو فيه ، فَأينَ هذا ودرجَةُ العلمِ !؟

فهؤلاءِ الأصنافُ الأربعَةُ ليسوا من دعاةِ الدِّينِ ولا من أئمَّةِ العلمِ ولا مِن طَلَبتهِ الصَّادقينَ في طلبهِ[(١)]، **ومَن تعلَّقَ منهم بشيءٍ منهُ فهو من المُتسلِّقينَ عليه ، المتشبِّهينَ بحملتهِ وأهلِهِ** ، المدَّعينَ لوصالِهِ ، المبتوتينَ من حبالِهِ .

وفتنَةُ هؤلاءِ فتنَةٌ لكلِّ مفتونٍ ؛ فإنَّ النَّاسَ يتشبَّهونَ بهم لِمَا يظنُّونَ عندهم من العلمِ ، ويقولونَ : لسنا خَيرًا منهم ولا نَرغَبُ بأنفسنا عنهم ! فهم حجَّةٌ لكلِّ مفتونٍ .

ولهذا قال فيهم بعضُ الصَّحابَةِ الكرامِ : احذَروا فتنَةَ العالِمِ الفاجِرِ والعابِدِ الجاهِلِ ؛ فإنَّ فتنتَهما فتنَةٌ لكلِّ مفتونٍ[(٢)] .

وقولُه : « **أقرَبُ شَبَهًا بهم الأنعامُ السَّائمَةُ** » ؛ وهذا التَّشبيهُ مأخوذٌ من قولِه تعالى : ﴿ إنْ هُم إلَّا كالأنعامِ بَلِ هُم أضلُّ سبيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٤] ، فما اقْتَصَرَ سبحانَهُ على تشبيهِهِم بالأنعامِ حتى جعلَهم أضلَّ سبيلًا منهم .

والسَّائمَةُ : الرَّاعيَةُ .

وشبَّهَ أميرُ المؤمنينَ هؤلاءِ بها لأنَّ همَّتَهم في رَعْيِ الدُّنيا وحُطامها ، واللَّهُ تعالى يُشبِّهُ أهلَ الجَهلِ والغيِّ تارَةً بالأنعامِ وتارَةً بالحُمُرِ ؛ وهذا تَشبيهٌ لمَن تعلَّمَ علمًا ولم يَعقِلْهُ ولم يعمَل به ، فهو كالحمارِ الذي يحملُ أسفارًا ، وتارَةً

---

(١) وإنْ حاوَلوا الظهورَ بذلك ، أَو التلبُّسَ بصورة أَهلِهِ !

(٢) انظر ما سيأتي (ص ٤٩٠) .

بالكَلبِ ؛ وهذا لمَن انسلَخ عن العلمِ وأخلَدَ إلى الشهواتِ والهَوى .

وقولُه كذلكَ : « **يموتُ العلمُ بموتِ حاملهِ** » ؛ هذا مِن قول النَّبيِّ ﷺ في حديثِ عبداللَّهِ بن عَمْرٍو وعائشَةَ رضيَ اللَّهُ عنهم وغيرهما : « إنَّ اللَّهَ لا يَقبضُ العلمَ انتزاعًا يَنتزعُهُ من صدورِ الرِّجالِ ، ولكنْ يقبضُ العلمَ بقبضِ العلماءِ ؛ فإذا لم يَبْقَ عالمٌ اتَّخذَ النَّاسُ رؤساءَ جُهَّالًا ، فسُئلوا فَأَفْتَوْا بغَيرِ علمٍ فَضَلُّوا وأَضَلُّوا » ، رواهُ البخاري في « صحيحهِ[(١)] » .

فذهابُ العلمِ إنَّما هو بذهابِ العلماءِ .

قال ابنُ مسعودٍ يومَ ماتَ عمر رضيَ اللَّهُ عنهُ : إنِّي لأحسبُ تسعَةَ أعشارِ العلمِ اليومَ قَد ذَهَبَ .

وقَد تقدَّمَ قولُ عمر رضيَ اللَّهُ عنهُ : موتُ ألفِ عابدٍ أهونُ من موتِ عالِمٍ بَصيرٍ بحلالِ اللَّهِ وحرامِهِ .

وقولُه : « **اللهمَّ ؛ بلى لن تَخلوَ الأرضُ من مُجتَهدٍ قائمٍ بحجَجِ اللَّهِ** » ؛ ويدلُّ عليهِ الحديثُ الصَّحيحُ عن النَّبيِّ ﷺ : « لا تَزالُ طائفَةٌ من أُمَّتي على الحقِّ لا يَضرُّهُم من خَذَلَهُم ولا مَنْ خالَفَهم حتى يأتيَ أمرُ اللَّهِ وهم على ذلكَ[(٢)] » .

---

(١) (برقم : ١٠٠ و ٧٣٠٧) .
ورواه - أيضًا - مسلمٌ (٢٦٧٣) .
وفصَّلَ الحافظُ في « الفتح » (١٣ / ٢٨٥) الكلامَ على رواية عائشة .
وكذا هو مرويٌّ عن أبي هُريرةَ وغيرِهِ .

(٢) رواه البخاري (٣٦٤١) ، ومسلم (١٩٢٠) عن مُعاويةَ رضي اللَّه عنه .
وفي البابِ عن عِدَّةٍ من الصَّحابةِ .

ويَدُلُّ عليهِ أيضًا ما رواهُ التِّرمذي[١] عن قُتَيبَة : حدَّثنا حمَّادُ بن يَحيى الأَبَحُّ ، عن ثابتٍ ، عن أنسٍ ، قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « مَثَلُ أُمَّتي مثل المطَرِ لا يُدرى أوَّلهُ خَيرٌ أم آخِرهُ » ، قال : هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ ، وَيُروى عن عبدالرَّحمن بن مَهدي أنَّهُ كانَ يُثبِّت حمَّاد بن يَحيى الأبحَّ ، وكانَ يقولُ : هو من شيوخِنا[٢] .

وفي البابِ عن عمَّارٍ وعبداللَّهِ بن عَمرو[٣] .

فلو لم يكُن في أواخرِ الأُمَّةِ قائمٌ بحُجَجِ اللَّهِ مُجتَهدٌ لم يكونوا مَوصوفينَ بهذه الخَيريَّة .

---

(١) (برقم : ٢٨٦٩) وحسَّنه ، كما قال المؤلِّف رحمه الله .

ورواه - من الطريق نفسِه - أَحمدُ (٣ / ١٣٠ و ١٤٣) ، والطَّيالسي (٢٠٢٣) ، وأَبو الشيخ في « الأَمثال » (٣٣٠) ، والقُضاعي في « مسند الشهاب » (١٣٥١) .

وحمَّادٌ الأَبحُّ فيه ضعفٌ يسيرٌ .

ورواه البزَّار في « مسنده » (٣ / ٣٢٠ - زوائده) من حديث عمران بن حُصَين ، وقال : لا نعلمُه يُروى عن النَّبي ﷺ بإِسنادٍ أَحسنَ من هذا .

وصرَّح الهيثمي في « المجمع » (١٠ / ٦٨) بحُسن سنده .

وقال الحافظُ في « الفتح » (٧ / ٤ - ٥) : « وهو حديثٌ حسن ، له طرق قد يرتقي بها إِلى الصحَّة » .

نقله شيخُنا الأَلباني في « الصحيحة » (٥ / ٣٥٩) ، ثمَّ قال : « بل هو صحيحٌ يقينًا » .

وانظر تتمَّة التخريج فيه .

وراجع « كشف المتواري » (ص ٢٢ - ٢٧) بقلمي .

(٢) وهذا من تمام كلام الترمذي في « سننه » (٤ / ٢٢٩) .

وأَصل الكلام عن البخاري في « تاريخه الكبير » (٣ / رقم : ٩٧) .

(٣) انظر مصادر التخريج سابقة الذكر .

وأيضًا ؛ فإنَّ هذه الأُمَّةَ أكمَلُ الأُمَمِ ، وخَيرُ أمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاسِ ، ونبيُّها خاتَمُ النَّبيِّينَ لا نَبيَّ بَعدَهُ ، فجعَلَ اللَّهُ العلماءَ فيها كلَّما هَلَكَ عالمٌ خَلَفَهُ عالمٌ لئلّا تُطمَسَ معالمُ الدِّين وتَخفى أعلامُهُ .

وكانَ بنو إسرائيلَ كلَّما هَلَكَ فيهم نبيٌّ خَلَفَهُ نبيٌّ ، فكانَت تَسوسُهُم الأنبياءُ[١]، والعلماءُ لهذه الأُمَّةِ كالأنبياءِ في بني إسرائيلَ[٢].

وأيضًا ؛ ففي الحديثِ الآخَرِ : « يحملُ هذا العلمَ من كلِّ خَلَفٍ عدولُهُ يَنفونَ عنهُ تَحريفَ الغالينَ ، وانتحالَ المُبطلينَ ، وتأويلَ الجاهلين[٣] » .

وهذا يدُلُّ على أنَّهُ لا يَزالُ محمولًا في القرونِ قَرْنًا بعَدَ قرنٍ .

وفي « صحيحِ أبي حاتمٍ »[٤] من حَديثِ الخَوْلاني : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « لا يَزالُ اللَّهُ يَغرسُ في هذا الدِّينِ غَرسًا يستعملُهم في طاعتهِ » ، وغرسُ اللَّهِ هم أهلُ العلمِ والعملِ ، فلو خَلَت الأرضُ من عالِمٍ خَلَت من غَرسِ اللَّهِ .

---

(١) كما في الحديث الذي رواه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢) عن أَبي هُريرة .

(٢) وفي ذلك حديثٌ اشتهرَ على الأَلسنةِ ، ولا أَصلَ له ، فانظر « التذكرة » (ص ١٦٧) للزركشي ، « المقاصد » (٧٠٢) للسَّخاوي ؛ « الدرر المنتثرة » (٢٩٣) للسيوطي .

وانظر « السلسلة الضعيفة » (٤٦٦) لشيخنا الألباني .

(٣) سبق تخريج الحديث .

(٤) يعني « صحيح ابن حِبّان » ، وهو فيه (برقم : ٣٢٦) ، وأَخرجه كذلك في « الثقات » (٤ / ٧٧) .

ورواه أَحمد (٤ / ٢٠٠)، وابن ماجه (٨)، وابن عدي في « الكامل » (٢ / ٥٨٣)، والبخاري في « التاريخ الكبير » (٩ / ٦١) من طريق الجرَّاح بن سليم البَهْراني عن بكر بن زُرعة عن أَبي عِنَبَةَ الخولانيّ .

وصحّح إِسناده البوصيري في « الزوائد » (١ / ٤٤) !

وحسْبُه أَنْ يكون حسَنًا لحالِ بكر بن زُرْعة فقد وثّقه ابنُ حبَّان، وروى عنه ثلاثةٌ من الثقات .

ولهذا القَولِ حُجَجٌ كثيرَةٌ لها موضعٌ آخرُ .

وزادَ الكذَّابونَ[١] في حديثِ عليٍّ : « .. إمَّا ظاهرًا مشهورًا وإمَّا خفيًّا مستورًا » ، وظنُّوا أنَّ ذلكَ دليلٌ لهم على القولِ بالمُنتَظرِ[٢]! ولكنَّ هذه الزِّيادَةَ من وَضعِ بعضِ كذَّابيهِم .

والحديثُ المشهورُ عن عليٍّ لم يَنْقُلْ أحَدٌ عنهُ هذه الزيادةَ[٣] إلّا كذَّابٌ .

وحُجَجُ اللّهِ لا تقومُ بخفيٍّ مستورٍ[٤] لا يَقَعُ العالَمُ لهُ على خَبَرٍ، ولا يَنتَفعونَ به في شيءٍ أصلًا، فلا جاهلٌ يتعلَّمُ منهُ، ولا ضالٌّ يَهتَدي به، ولا خائفٌ يأمَنُ به، ولا ذَليلٌ يَتَعزَّزُ به ، فأيُّ حُجَّةٍ للَّهِ قامَت بمَن لا يُرى له شَخصٌ ، ولا يُسمَعُ منهُ كلمةٌ ، ولا يُعلَمُ له مكانٌ ، ولا سيَّما على أُصولِ القائلينَ به ! فإنَّ الذي دعاهُم إلى ذلكَ أنَّهُم قالوا : لا بدَّ منه في اللطفِ بالمُكلَّفينَ وانقطاعِ حُجَّتهم عن اللَّهِ !

فيا لَلَّه العَجَبُ ! أيُّ لُطفٍ حَصَلَ بهذا المَعدومِ المَعصومِ !؟ وأيُّ حجَّةٍ أثبتُّم للخَلقِ على ربهم بأصلِكُم الباطلِ ؟! فإنَّ هذا المعدومَ إذا لم يَكُن لهم سبيلٌ قطُّ إلى لقائهِ والاهتداءِ به ، فهَل في تكليفِ ما لا يُطاقُ أبلغُ من هذا ؟! وهَل في العُذرِ والحُجَّةِ أبلغُ من هذا ؟!

فالذي فَرَرتُم منه وقَعتُم في شرٍّ منه ! وكنتُم في ذلكَ كما قيلَ :

المُستَجيرُ بعَمرٍو عندَ كُربَتِهِ كالمُستَجيرِ مِنَ الرَّمضاءِ بالنَّارِ

ولكنْ أبى اللّهُ إلّا أن يَفضَحَ مَن تنقَّصَ بالصَّحابَةِ الأخيارِ وبسادَةِ هذه

---

(١) يُشير إلى الشيعة الشنيعة الرافضةِ وعظيم كذبهم ، وشديد افترائهم .

(٢) هو مهديُّهم المزعومُ المُغيَّبُ في السِّرداب !!

(٣) في « المطبوع » : « المقالة » .

(٤) يُشير إلى مهديِّ الرافضةِ المزعوم !

الأُمَّةِ ، وأنْ يُرِيَ النَّاسَ عورتَهُ ويُغرِيهُ بكشفها .

ونعوذُ باللَّهِ من الخِذْلانِ .

ولَقَد أحسَنَ القائلُ :

ما آنَ للسِّردابِ أن يلدَ الذي حَمَّلْتُموهُ بزَعمكُم ما آنا
فَعلى عقـولِكُم العَفـاءُ فإنَّكُم ثَلَّثْتُم العَنـقاءَ والغِيـلانا

ولقَد بطلت حُجَجٌ استُودِعَها مثلُ هذا الغائبِ ، وضاعَت أعظَمَ ضياعٍ ، فأنتُم أَبطلتُم حُجَجَ اللَّهِ من حيثُ زعمتم حفظَها .

وهذا تَصريحٌ من أميرِ المؤمنينَ رضيَ اللَّهُ عنهُ بأَنَّ حاملَ حُجَجِ اللَّهِ لا بُدَّ أَنْ يكون في الأرضِ ، بحيثُ يُؤدِّيها عن اللَّهِ ، ويُبلِّغُها إلى عبادهِ ، مثلُهُ رضيَ اللَّهُ عنهُ ومثلُ إخوانهِ منَ الخُلفاءِ الرَّاشدينَ ومَن اتَّبعهُم إلى يومِ القيامَةِ .

وقولُه : « **لكَيلا تبطُلَ حُججُ اللَّهِ وبيِّـناتُهُ** » ؛ أي : لكَيلا تَذهَبَ من بينِ أَيدي النَّاسِ ، وتبطُلَ مِن صُدورِهم ، وإلّا فالبُطلانُ مُحالٌ عليها ؛ لأَنَّها ملزومُ ما يَستحيلُ عليهِ البُطلانُ .

فإنْ قيلَ : فما الفَرقُ بينَ الحُججِ والبيِّناتِ[1] ؟

قيلَ : الفرقُ بينهما أنَّ الحُجَجَ هي الأدلَّةُ العِلْميَّةُ التي يعقلُها القلبُ وتُسْمَعُ بالأُذُنِ ؛ قال تعالى في مُناظَرَةِ إبراهيمَ لقومهِ وتبيينِ بطلانِ ما هم عليهِ بالدَّليلِ العلميِّ : ﴿ وتلكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إبراهيمَ على قومهِ نَرفَعُ درجاتٍ مَن نشاءُ ﴾ [الأنعام : ٨٣]، قال ابنُ زَيدٍ : بعلمِ الحجَّةِ ، وقال تعالى : ﴿ فإنْ حاجُّوكَ فَقُل أسلَمتُ وجهيَ للهِ ومَن اتَّبَعَنِ ﴾ [آل عمـران : ٢٠] ، وقالَ

(١) تنبيهٌ حسَنٌ جميلٌ .

تعالى : ﴿ والَّذينَ يحاجُّونَ في اللهِ من بَعدِ ما استُجيبَ لهُ حجَّتُهُم داحضَةٌ عندَ ربِّهِم ﴾ [الشورى : ١٦] .

والحُجَّةُ هي اسمٌ لِمَا يُحتجُّ به من حقٍّ وباطلٍ ؛ قال تعالى : ﴿ لئلّا يكونَ للنَّاسِ عليكُم حُجَّةٌ إلّا الَّذينَ ظَلَموا منهم ﴾ [البقرة : ١٥٠]، فإنَّهُم يحتجُّونَ عليكُم بحجَّةٍ باطلَةٍ : ﴿ فلا تَخشَوْهُم واخشَوْني ﴾ [البقرة : ١٥٠]، وقال تعالى : ﴿ وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُم إلّا أن قالوا ائتوا بآبائنا إنْ كُنتُم صادقين ﴾ [الجاثية : ٢٥] .

والحُجَّةُ المضافَةُ إلى اللَّهِ هي الحقُّ ، وقَد تكونُ الحجَّةُ بمعنى المُخاصَمَةِ ، ومنه قولُهُ تعالى : ﴿ فلذلكَ فادْعُ واسْتَقِم كما أُمِرتَ ولا تَتَّبِعْ أهواءَهُم وقُل آمَنتُ بما أنزَلَ اللَّهُ من كتابٍ وأُمِرْتُ لِأَعدِلَ بينكُم اللَّهُ ربُّنا وربُّكُم لنا أعمالُنا ولكُم أعمالُكُم لا حُجَّةَ بيْنَنا وبينَكُم ﴾ [الشورى : ١٥] ، أي : قَد وَضَحَ الحقُّ واستبانَ وظَهرَ ، فلا خُصومَةَ بيننا بَعدَ ظهورِهِ ولا مُجادَلَةَ ؛ **فإنَّ الجدالَ شريعَةٌ موضوعَةٌ للتَّعاونِ على إظهارِ الحقِّ**[1] ، فإذا ظَهَرَ الحقُّ ولم يبقَ به خفاءٌ فلا فائدَةَ في الخُصومَةِ .

والجدالُ على بَصيرَةٍ مُخاصَمةُ المُنكرِ ، ومُجادلتُهُ عَناءٌ لا غَناءَ فيهِ .

هذا معنى هذه الآيَة .

وقَد يقعُ في وَهَمِ كثيرٍ من الجهّالِ أنَّ الشريعَةَ لا احتجاجَ فيها ، وأنَّ المُرْسَلَ بها ﷺ لم يكُن يحتجُّ على خصومِهِ ولا يُجادلهم !

ويظنُّ جُهَّالُ المنطقيِّين وفُروخُ اليونانِ أنَّ الشريعَةَ خطابٌ للجمهورِ لا

---

(١) لا للغَلَبةِ ، ولا لإظهار العَضَلات (!) ولا لاتِّخاذ مواقفَ !!

احتجاجَ فيها ، وأنَّ الأنبياءَ دَعَوا الجمهورَ بطريقِ الخطابَةِ ، والحُجَجُ للخواصِّ وهم أهلُ البرهانِ ! يعنونَ نفوسَهم ومَن سلَكَ طريقتَهم !!

وكلُّ هذا من جهلهم بالشريعَة والقرآنِ ؛ فإنَّ القرآنَ مملوءٌ من الحُجَجِ والأدلَّةِ والبراهينِ في مسائلِ التَّوحيدِ وإثباتِ الصَّانعِ والمعادِ وإرسالِ الرُّسلِ وحدوثِ العالم ، فلا يَذكُرُ المتكلِّمونَ وغيرُهم دليلًا صحيحًا على ذلكَ إلّا وهو في القرآنِ بأَحسنِ عبارَةٍ ، وأوضحِ بيانٍ ، وأتمِّ معنىً ، وأبعَدِهِ عن الإيرادات والأَسْوِلَةِ .

وقَد اعترَفَ بهذا حُذَّاقُ المتكلِّمينَ من المتقدِّمينَ والمتأخِّرينَ :

قال أبو حامدٍ في أوَّلِ « الإحياء »[1] : فإنْ قلتَ : فَلِمَ لم تُورد في أقسامِ العلمِ الكلامَ والفَلسفَةَ وتُبيِّن أنَّهما مذمومانِ أو ممدوحانِ ؟

فاعلم أنَّ حاصلَ ما يشتملُ عليهِ الكلامُ من الأدلَّةِ التي ينتفعُ بها فالقرآنُ والأخبارُ مُشتملةٌ عليهِ ، وما خَرَجَ عنهما فهو إمَّا مجادَلةٌ مذمومَةٌ - وهي من البدَع كما سيأتي بيانُهُ - ، وإمَّا مُشاغَبَةٌ بالتَّعلُّقِ بمُناقضاتِ الفِرَق ، وتَطويلٌ بنَقلِ المقالاتِ التي أكثرُها تُرَّهاتٌ وهِذْياناتٌ تَزدريها الطِّباعُ وتمجُّها الأسماعُ ، وبعضها خوضٌ فيما لا يتعلَّقُ بالدِّينِ ، ولم يكن شيءٌ منه مألوفًا في العَصرِ الأوَّلِ ، ولكنْ تَغيَّرَ الآنَ حُكْمُهُ إذ حدَثت البدَعُ الصَّارفَةُ عن مُقتَضى القرآنِ والسَّنَّةِ ؛ فَلَفَّقَتْ لها شُبهًا ، ورتَّبَتْ لها كلامًا مؤلَّفًا ، فصارَ ذلكَ المحظورُ بحُكمِ الضَّرورَةِ مأذونًا فيه !!

---

(١) (١ / ٢٢) ، وما بين المعكوفتين منه .

وقال الرَّازي في كتابِهِ « أقسام اللذَّات »[١]: لَقَد تأمَّلتُ الكتبَ الكلاميَّةَ والمناهجَ الفلسفيَّةَ؛ فما رأيتُها تَروي غليلًا ولا تَشفي عليلًا، ورأيتُ أقربَ الطُّرقِ طريقَةَ القرآنِ ، اِقْرأْ في الإثباتِ : ﴿ إليهِ يَصعَدُ الكلمُ الطَّيِّبُ ﴾ [فاطر : ١٠]، ﴿ الرَّحمنُ على العَرشِ استَوى ﴾ [طه : ٥]، واقْرأْ في النَّفي : ﴿ ليسَ كمثلِهِ شيءٌ ﴾ [الشورى : ١١]، **ومَن جرَّبَ مثلَ تجربتي عرفَ مثلَ معرفتي** .

وهذا الذي أشارَ إليهِ بحسبِ ما فُتِحَ له من دلالَةِ القرآنِ بطَريقِ الخَبَرِ ، وإلّا فدلالتُهُ البرهانيَّةُ العقليَّةُ التي يشيرُ إليها ويُرشدُ إليها - فتكونُ دليلًا سمعيًّا عقليًّا - أمرٌ تَميَّزَ به القرآنُ ، وصارَ العالِمُ به من الرَّاسخينَ في العلمِ ، **وهو العلمُ الذي يطمئنُّ إليهِ القلبُ ، وتسكُنُ عندَهُ النَّفسُ ، ويزكو به العقلُ ، وتَستنيرُ به البَصيرةُ ، وتَقوى به الحُجَّةُ** .

ولا سَبيلَ لأحَدٍ من العالَمينَ إلى قَطعِ ما حاجَّ به ، بل مَن خاصَمَ به فَلَجَتْ[٢] حُجَّتُهُ ، وكَسَرَ شُبهَةَ خَصمِهِ ، وبه فُتِحَت القلوبُ ، واستُجيبَ للَّهِ ورسولِهِ .

ولكنَّ أهلَ هذا العلمِ لا تكادُ الأعصارُ تسمحُ منهم إلّا بالواحدِ بعدَ الواحدِ[٣] .

فدلالةُ القرآنِ سمعيَّةٌ عقليَّةٌ قَطعيَّةٌ يقينيَّةٌ[٤]، لا تَعترِضُها الشبهاتُ ، ولا

---

(١) انظر « درء تعارض العقل والنقل » (١ / ١٦٠) وتعليق محقِّقه الدكتور محمَّد رشاد سالم - رحمه الله - عليه .

(٢) يُقال : فَلَجَ بحُجَّتِهِ : أَحسنَ الإِدْلاءَ بها ، فغلبَ خصمَه .

(٣) **والتاريخ شاهِد !**

(٤) وليست وهميَّةً أَو ظَنِّيَّةً ؛ كما يحلو لبعض عَقْلانِيِّي العصر الحاضر وصفُها !!

تَتداوُلُها الاحتمالاتُ ، ولا يَنصرفُ القلبُ عنها بَعد فهمها أبدًا .

وقالَ بَعضُ المتكلِّمينَ : أفنيتُ عمري في الكلامِ أطلبُ الدَّليلَ ، وإذا أنا لا أزدادُ إلّا بُعدًا عن الدَّليلِ ، فَرجَعتُ إلى القرآنِ أتدبَّرُهُ وأتفكَّرُ فيه ، وإذا أنا بالدَّليلِ حقًّا معي وأنا لا أشعُرُ به[1]، فقلتُ : واللَّهِ ما مَثَلي إلّا كما قال القائلُ :

ومَنَ العجائبِ والعجــائبُ جَمَّةٌ قربُ الحَبيبِ وما إليهِ وصولُ
كالعِيسِ في البَيداءِ يقتُلُها الظَّما والماءُ فوقَ ظُهورِها مَحمـولُ

قال : فلمَّا رَجعتُ إلى القرآنِ إذا هو الحُكمُ والدَّليلُ ، ورأيتُ فيه من أدلَّةِ اللَّهِ وحُجَجِهِ وبراهينِهِ وبيِّناتِهِ ما لو جُمعَ كلُّ حقٍّ قاله المتكلِّمونَ في كتبهم لكانَت سورَةٌ من سوَرِ القرآنِ وافيَةً بمضمونهِ ؛ مع حسنِ البيانِ ، وفصاحَةِ اللفظِ ، وتَطبيقِ المُفصَّلِ ، وحُسنِ الاحترازِ ، والتَّنبيهِ على مواقعِ الشُّبَهِ ، والإرشادِ إلى جوابها ، وإذا هو كما قيلَ - بل فوقَ ما قيلَ - :

كَفى وشفَى ما في الفُؤادِ فلَم يَدَع لِذي أرَبٍ في القَولِ جدًّا ولا هزلا

وجَعَلَتْ جيوشُ الكلامِ بَعدَ ذلكَ تَفِدُ إليَّ كما كانَت، وتَتزاحمُ في صَدري، ولا يَأْذَنُ لها القَلبُ بالدُّخولِ فيه، ولا تَلقى منه إقبالًا ولا قَبولًا فترجعُ على أدبارِها .

والمقصودُ أنَّ القرآنَ مملوءٌ بالاحتجاجِ ، وفيه جميعُ أَنواعِ الأدلَّةِ والأقيسَةِ الصَّحيحَةِ .

وأمَرَ اللَّهُ تَعالى رسولَهُ ﷺ فيه بإقامَةِ الحُجَّةِ والمُجادَلَةِ ؛ فقال تعالى : ﴿ وجادِلْهُم بالَّتي هيَ أحسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال : ﴿ ولا تُجادِلوا أهلَ الكتابِ إلّا بالَّتي هيَ أحسَنُ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

---

(١) فليأْخذ درسًا مِن أَسْلافهم (التائبين) خَلَفُهُم التائهون !! ولكنْ .. لا حياةَ لمن تُنادي ...

وهذه مُناظراتُ القرآنِ معَ الكفَّارِ موجودَةٌ فيه ، وهذه مُناظراتُ رسولِ اللّهِ ﷺ وأصحابِهِ لخصومهم ، وإقامَةُ الحُجَجِ عليهم ، لا يُنكِرُ ذلكَ إلّا جاهلٌ مُفْرِطٌ في الجَهلِ .

والمقصودُ : الفرقُ بينَ الحُجَجِ والبيِّناتِ ، فنقولُ : الحُجَجُ : الأدلَّةُ العلميَّةُ ، والبيِّناتُ : جمعُ بيِّنَةٍ ؛ وهي صفَةٌ في الأصلِ ، يقالُ : آيَةٌ بيِّنَةٌ ، وحُجَّةٌ بيِّنَةٌ .

والبيِّنَةُ : اسمٌ لكلِّ ما يُبِينُ الحقَّ من علامَةٍ منصوبَةٍ أو أمارَةٍ أو دليلٍ علميٍّ، قال تعالى : ﴿ لَقَد أرسَلْنا رُسُلَنا بالبيِّناتِ وأنزَلنا معهم الكتابَ والميزانَ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

فالبيِّناتُ : الآياتُ التي أقامها اللّهُ دِلالَةً على صِدقهم من المُعجزاتِ ، والكتابُ هو الدَّعوَةُ .

وقال تعالى : ﴿ إنَّ أوَّلَ بَيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ لَلَّذي بِبكَّةَ مُبارَكًا وهدىً للعالَمينَ فيهِ آياتٌ بيِّناتٌ مقامُ إبراهيمَ ﴾ [آل عمران : ٩٧]، ومقامُ إبراهيمَ آيَةٌ جُزئيَّةٌ مَرْئيَّةٌ بالأبصارِ ، وهو من آياتِ اللّهِ الموجودَةِ في العالَم .

ومنهُ قولُ موسى لِفرعَونَ وقومِهِ : ﴿ قَد جِئتُكُم ببيِّنَةٍ مِن ربِّكُم فأَرسِلْ معي بني إسرائيل قالَ إنْ كنتَ جئتَ بآيَةٍ فَأْتِ بها إنْ كنتَ مِنَ الصَّادقِينَ فألقى عصاه ﴾ [الأعراف : ١٠٥]، وكانَ إلقاءُ العصا وانقلابُها حيَّةً هو البيِّنَةَ .

وقال قومُ هودٍ : ﴿ يا هودُ ما جِئتَنا ببيِّنَةٍ ﴾ [هود : ٥٣] يريدونَ آيَةَ الاقتراحِ[1]، وإلّا فهو قَد جاءَهُم بما يَعرفونَ به أنَّهُ رسولُ اللّهِ إليهم ، فطَلَبُ الآيَةِ

---

(١) لعلّة يُريدُ التي اقترحوها هُم تَبَعًا لأَهوائهم .

بعدَ ذلكَ تعنُّتٌ ، واقتراحٌ لا يكونُ لهم عُذرٌ في عَدَمِ الإجابَةِ إليهِ !

وهذه هي الآياتُ التي قال اللَّهُ تعالى فيها : ﴿ **وما مَنَعَنا أنْ نُرسِلَ بالآياتِ إلّا أنْ كذَّبَ بها الأوَّلونَ** ﴾ [الإسراء : ٥٩]، فَعَدَمُ إجابتهِ سبحانهُ إليها - إذ طَلَبها الكفَّارُ - رحمَةٌ منهُ وإحسانٌ ؛ فإنَّهُ جَرَتْ سُنَّتُهُ التي لا تَبديلَ لها أنَّهُم إذا طَلَبوا الآيَةَ واقتَرحوها وأُجيبوا ولم يؤمنوا عُوجِلوا بعذابِ الاستئصالِ ، فلمَّا عَلِمَ سبحانهُ أنَّ هؤلاءِ لا يؤمنونَ ولو جاءَتهُم كلُّ آيةٍ لم يجبْهم إلى ما طَلَبوا فلم يَعُمَّهم بعذابٍ لمَّا أخرَجَ مِن بنيهم وأصلابهم من عبادهِ المؤمنين ، وإنَّ أكثرَهُم آمَنَ بعدَ ذلكَ بغَيرِ الآيةِ التي اقتَرحوها ، فكانَ عدَمُ إنزالِ الآياتِ المطلوبَةِ من تمامِ حكمَةِ الرَّبِّ ورحمتهِ وأحسانهِ ، بخلافِ الحُجَجِ فإنَّها لم تَزَل مُتتابعَةً يتلو بعضُها بعضًا وهي كلَّ يومٍ في مزيدٍ ، وتوفِّي رسولُ اللَّهِ ﷺ وهي أكثرُ ما كانَت وهي باقيَةٌ إلى يومِ القيامَةِ .

وقولُه : « **أُولئكَ الأقلُّونَ عَدَدًا ، الأعظَمونَ عندَ اللَّهِ قَدْرًا** » ؛ يعني : هذا الصِّنفُ من النَّاسِ أقلُّ الخَلقِ عَددًا ، وهذا سببُ غُربتهم ؛ فإنَّهُم قليلونَ في النَّاسِ ، والنَّاسُ على خلافِ طريقتِهم ، فلهم نَبأٌ وللنَّاسِ نَبأٌ، قال النَّبيُّ ﷺ : « بدأَ الإسلامُ غَريبًا وسيعودُ غَريبًا كما بدأَ فطوبى للغرباءِ »[1]: فالمؤمنونَ قليلٌ في النَّاسِ ، والعلماءُ قليلٌ في المؤمنينَ ، وهؤلاءِ قليلٌ في العلماءِ .

وإيَّاكَ أن تَغتَرَّ بما يَغتَرُّ به الجاهلونَ فإنَّهُم يقولونَ : لو كانَ هؤلاءِ على حقٍّ

---

(١) رواه مسلم (١٤٥) عن أَبي هُريرة .

لم يكونوا أقلَّ النَّاسِ عَددًا[١] ، والنَّاسُ على خلافِهم !!

فاعلَم أنَّ هؤلاءِ هم النَّاسُ ، ومَن خالفهم فمُتَشَبِّهون بالنَّاسِ ، وليسوا بناسٍ ، فما النَّاسُ إلّا أهلُ الحقِّ وإنْ كانوا أقلَّهُم عَددًا .

قالَ ابنُ مَسعودٍ : لا يَكُن أحدُكُم إمَّعَةً - يعني ؛ يقول : أنا مع النَّاسِ - ليوطِّنْ أحدُكُم نفسَهُ على أن يؤمنَ ولو كفرَ النَّاسُ[٢] .

وقَد ذمَّ سبحانهُ الأكثرينَ في غيرِ موضعٍ ، كقولِه : ﴿ وإنْ تُطِعْ أكثَرَ مَن في الأرضِ يُضِلُّوكَ عَن سبيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦]، وقال : ﴿ وما أكثَرُ النَّاسِ ولو حَرَصْتَ بمؤمنين ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال اللَّهُ تعالى : ﴿ وقليلٌ من عباديَ الشكور ﴾ [سبأ : ١٣] ، وقال : ﴿ وإنَّ كثيرًا من الخُلَطاء ليَبغي بعضُهم على بَعضٍ إلّا الَّذينَ آمَنوا وعملوا الصَّالحاتِ وقليلٌ ما هم ﴾ [ص : ٢٤] .

وقال بعضُ العارفينَ : انفرادُكَ في طريقِ طلبِكَ دليلٌ على صِدقِ الطَّلب .

مُتْ بداءِ الهَوى وإلّا فخاطِرْ   واطرُق الحيَّ والعيونُ نواظِرْ

لا تَخفْ وحشَةَ الطَّريقِ إذا سِر   تَ وكُن في خِفارَةِ الحقِّ سائرْ

وقولُهُ : « **بهم يَدفَعُ اللَّهُ عن حُجَجِهِ حتى يؤدُّوها إلى نُظَرائهم ويزرعوها في قلوبِ أشباههم** » ؛ وهذا لأنَّ اللَّهَ سبحانهُ ضَمِنَ حِفظَ حُجَجِهِ وبيِّناتِهِ ، وأخبرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ أنَّهُ : « لا تَزالُ طائفَةٌ من أُمَّتِهِ على الحقِّ لا يضرُّهُم من

---

(١) وهي شُبهةُ العاجزين في كلِّ العصور .

(٢) رواه - مختصرًا - ابنُ عبدالبر في « جامع بيان العلم وفضله » (١٤٥) ، والفَسَوي في « المعرفة والتاريخ » (٣ / ٣٩٩) بسنَدٍ حَسَن .

خَذَلهم ولا مَن خالفهم إلى قيامِ السَّاعَة »[١].

فلا يزالُ غَرسُ اللَّهِ الذينَ غَرسهم في دينهِ يغرِسونَ العلمَ في قلوبِ مَن أهَّلَهُم اللَّهُ لذلكَ وارتَضاهُم ، فيكونوا ورثَةً لهم كما كانوا هم ورَثَةً لمَن قبلَهُم ، فلا تَنقطعُ حُجَجُ اللَّهِ والقائمُ بها منَ الأرضِ .

وفي الأثَرِ المشهورِ : « لا يَزالُ اللَّهُ يَغرسُ في هذا الدِّينِ غَرسًا يستعملُهم بطاعتهِ »[٢].

وكانَ من دعاءِ بَعضِ مَن تَقدَّمَ : اللهمَّ اجعَلني من غَرسِكَ الذينَ تستعملُهم بطاعتكَ .

ولهذا ما أقامَ اللَّهُ لهذا الدِّينِ مَن يحفظُهُ ثمَّ قبضَهُ إليهِ إلّا وقَد زَرَعَ ما علَّمَهُ منَ العلمِ والحكمَة ؛ إمَّا في قلوبِ أمثالِهِ ، **وإمَّا في كُتُبٍ ينتفعُ بها النَّاسُ بعدَهُ** .

وبهذا وغيرِهِ فَضَلَ العُلماءُ العُبَّادَ ؛ فإنَّ العالِمَ إذا زَرَعَ علمَه عندَ غيرِهِ ثمَّ ماتَ جَرى عليهِ أجرُهُ وبقي لهُ ذِكْرُهُ ، وهو عمرٌ ثانٍ وحياةٌ أُخرى ، وذلكَ أحقُّ ما تنافَسَ فيه المُتنافِسونَ ورَغبَ فيه الرَّاغبون .

وقولُه : « **هَجَمَ بهم العلمُ على حقيقَةِ الأمرِ ، فاسْتَلانُوا ما استوعَرَهُ المُتْرَفونَ وأَنِسُوا ممّا استوحَش منه الجاهلون** » :

الهجومُ على الرَّجلِ : الدُّخولُ عليهِ بلا استئذانٍ .

ولمّا كانَت طريقُ الآخِرَة وَعِرَةً على أكثَرِ الخَلقِ لمخالفتها لشهواتهم ومُباينتها لإراداتِهم ومألوفاتهم قلَّ سالكوها ، وزهّدهم فيها قلَّةُ علمهم – أو

---

(١) تقدّم تخريجه قبل صَفَحاتٍ .

(٢) حديثٌ مرفوعٌ حسنٌ ، وقد تقدّم تخريجه قريبًا .

عَدَمُهُ - بحقيـقَةِ الأمرِ وعاقبةِ العبادِ ومصيرِهم وما هُيِّئوا له وهُيِّئَ لهم، فقلَّ علمُهم بذلكَ، واسْتلانوا مركبَ الشهوَةِ والهوى على مركبِ الإخلاص والتَّقوى، وتوعَّرَتْ عليهم الطَّريقُ، وبَعُدَت عليهم الشُّقَّةُ ، وصَعُبَ عليهم مُرتقى عقابها وهبوطُ أوديتها وسلوكُ شعابها ؛ فأخلدوا إلى الدَّعَةِ والرَّاحَةِ ، وآثَروا العاجلَ على الآجلِ ، وقالوا : عيشُنا اليومَ نَقدٌ وموعودُنا نَسيئةٌ !! فنظروا إلى عاجلِ الدُّنيا ، وأغمضوا العيونَ عن آجِلها ، ووقفوا مع ظاهرها ، ولم يتأمَّلوا باطنَها ، وذاقوا حلاوَةَ مباديها ، وغابَ عنهم مرارَةُ عواقبها ، ودرَّ لهم ثَديُها فطابَ لهم الارتضاعُ، واشتَغلوا به عن التَّفكُّرِ في الفطامِ ومرارَةِ الانقطاعِ ، وقال مُغترُّهُم باللّهِ وجاحدُهم لعظمتهِ وربوبيَّتهِ مُتمثِّلًا في ذلك :

خُذ ما تَراهُ ودَع شيئًا سمعتَ به ....

وأمَّا القائمونَ للّهِ بحُجَّتهِ خُلفاءُ نبيِّهِ في أُمَّتهِ فإنَّهُم لكمالِ علمِهم وقوَّتهِ نَفذَ بهم إلى حقيقَةِ الأمرِ ، وهجمَ بهم عليهِ ، فعايَنوا ببصائرهم ما عَشِيَتْ عنهُ بصائرُ الجاهلينَ ، فاطمأنَّت قلوبُهم به ، وعملوا على الوصولِ إليهِ لِمَا باشَرَها من روحِ اليَقينِ ، ورُفِعَ لهم عَلَمُ السَّعادَةِ فشمَّروا إليهِ ، وأسمعهم مُنادي الإيمانِ النِّداءَ فاستَبَقوا إليهِ ، واستيقَنَتْ أنفسُهم ما وَعَدَهم به ربُّهُم ؛ فَزَهِدوا فيما سواهُ ، ورغبوا فيما لديهِ .

علموا أنَّ الدُّنيا دارُ ممَرٍّ ومنزلُ عُبورٍ لا مَقعَدَ حُبورٍ ، وأنَّها خيالُ طيفٍ أو سحابَةُ صَيفٍ ، وأنَّ مَن فيها كراكبٍ قالَ[1] تحتَ ظلِّ شجرةٍ ثمَّ راحَ عنها وتَركها[2]، وتيقَّنوا أنَّها أحلامُ نومٍ أو كظلٍّ زائلٍ :

(١) مِن القيلولة ؛ وهي استراحةُ نصفِ النَّهار .

(٢) وفي هذا المعنى حديثٌ صحيحٌ ، يُنظر تخريجُه في « السلسلة الصحيحة » (٤٣٨) و (٤٣٩) .

.... إنَّ اللبيبَ بمثلِها لا يُخدَعُ

وأنَّ واصِفَها صَدَقَ في وصفها إذ يقولُ :

أرى أشقياءَ النَّاسِ لا يَسْأَمونَها على أنَّهُم فيـها عُراةٌ وجُـوَّعُ
أراها وإنْ كانَت تُحَـبُّ فإنَّها سحابَةُ صَيفٍ عَن قليلٍ تَقَشَّعُ

فترحَّلَتْ عن قلوبهم مُدبرَةً كما ترحَّلت عن أَهلِها مُوَلِّيَةً ، وأقبلَت الآخرَةُ إلى قلوبهم مُسرعَةً كما أسرَعَت إلى الخَلقِ مُقبلَةً ، فامتَطَوْا ظهورَ العزائمِ ، وهجروا لذَّةَ المنام - وما ليلُ المحبِّ بنائمِ - ، علموا طولَ الطَّريقِ وقلَّةَ المُقامِ في منزلِ التَّزوُّدِ فسارعوا في الجَهَازِ ، وجدَّ بهم السَّيرُ إلى منازل الأَحباب ، فَقَطَعُوا المراحلَ ، وطَوَوُا المَفاوِزَ .

وهذا كلُّهُ من **ثمراتِ اليقين** ؛ فإنَّ القلبَ إذا استيقَنَ ما أصابَهُ من كرامَةِ اللَّهِ وما أعدَّ لأوليائِهِ - بحيثُ كأنَّهُ ينظرُ إليهِ من وراءِ حجابِ الدُّنيا ويعلمُ أنَّهُ إذا زالَ الحجابُ رأى ذلكَ عيانًا - زالت عنهُ الوَحْشَةُ التي يجدُها المتخلِّفونَ ، وَلَانَ له ما استوعَرَهُ المُتْرَفونَ .

وهذه المرتبةُ هي **أوَّلُ مراتبِ اليقين** - وهي علمُهُ وتيقُّنُه - وهي انكشافُ المعلومِ للقَلبِ ، بحيثُ يُشاهدهُ ولا يَشُكُّ فيه كانكشافِ المرئيِّ للبَصرِ .

ثمَّ يَليها **المرتبَةُ الثَّانيَةُ** ؛ وهي مرتبَةُ عينِ اليَقينِ ، ونسبتُها إلى العَينِ كنسبَةِ الأوَّلِ إلى القَلبِ .

ثمَّ يليها **المرتبَةُ الثَّالثَةُ** ؛ وهي حقُّ اليَقينِ ، وهي مباشَرَةُ المعلومِ وإدراكُهُ الإدراكَ التَّامَّ :

فالأُولى كعلمكَ بأنَّ في هذا الوادي ماءً ، والثَّانيَةُ كرؤيتِهِ ، والثَّالثَةُ

كالشربِ منه .

ومِن هذا ما يُروى[١] في حديث حارثَة، وقول النَّبيِّ ﷺ : « كيفَ أصبَحتَ يا حارثةُ ؟ » قال : أصبَحتُ مؤمنًا حقًّا ، قال : « إنَّ لكلِّ قولٍ حقيقةً ، فما حقيقَةُ إيمانكَ ؟ » قال : عَزَفَتْ نَفسي عن الدُّنيا وشهواتِها ، فأسهَرْتُ لَيلي وأظمأْتُ نَهاري ، وكأنِّي أنظرُ إلى عَرشِ ربِّي بارزًا ، وكأنِّي أنظُرُ إلى أهلِ الجنَّةِ يتزاوَرونَ فيها ، وإلى أهلِ النَّارِ يتعاوَوْنَ فيها » ، فقال : « عبدٌ نوَّرَ اللَّهُ قلبَهُ » .

فهذا هو هجومُ العلمِ بصاحبِهِ على حقيقَةِ الأمرِ ، ومَن وصلَ إلى هذا استلانَ ما يستوعِرُهُ المُتْرفُونَ ، وأَنِسَ مما يستوحشُ منه الجاهلونَ .

ومَن لم يَثْبُتْ قَدَمُ إيمانهِ على هذه الدَّرجَة فهو إيمانٌ ضَعيفٌ، وعلامَةُ هذا انشراحُ الصَّدرِ لمنازلِ الإيمانِ وانفساحُهُ، وطمأنينَةُ القلبِ لأمرِ اللَّهِ، والإنابَةُ إلى ذكرِ اللَّهِ ومحبَّتِهِ والفَرحِ بلقائهِ والتَّجافي عَن دارِ الغرورِ؛ كما في الأثرِ المشهورِ[٢]: « إذا دَخَلَ النُّورُ القَلْبَ انفسَحَ وانْشَرَح » ، قيلَ : وما علامَةُ ذلكَ ؟ قال : « التَّجافي عن دارِ الغرورِ، والإنابَةُ إلى دارِ الخلودِ، والاستعدادُ للموتِ قبلَ نزولِهِ » .

وهذه هي الحالُ التي كانَت تحصلُ للصَّحابَةِ رضي اللَّه عنهم عندَ النَّبي

---

(١) أَخرجه البزّار (٣٢)، والعُقيلي في « الضعفاء » (٤ / ٤٥٥) من حديث أَنسٍ، وصدَّره المصنِّفُ - كما ترى - بصيغة التمريض، وحكم الذهبي في « الميزان » (٣ / ٢٨) ببطلانِه .
وانْظُر « الإصابة » (٢ / ١٧٤ - ١٧٧) للحافظ ابن حجر ، و « تخريج الأربعين السُّلَمِيَّة » (رقم : ١٠) للسَّخاوي - بتحقيقي .
ومَالَ شيخُنا في تعليقِه على « الإيمان » (١١٥) - لابن أَبي شيبة - إلى تضعيفِهِ .
وللحديثِ طُرُقٌ وشواهدُ عدَّةٌ، لم أَفرغْ لجَمْعِها ودراستِها، فعسىٰ أَنْ يُيَسِّرَ اللَّهُ ذلك قريبًا .
(٢) لكنَّه ضعيفٌ ، فانظر الكلامَ عليه في « السلسلة الضعيفة » (٩٦٥) لشيخنا الأَلباني .

ﷺ إذا ذكَّرهم الجنَّةَ والنَّارَ ؛كما في التِّرمذي(١) وغيرِهِ من حديثِ الجُريري ، عن أبي عُثمان النَّهْديِّ ، عن حَنظَلَةَ الأسديِّ ، - وكانَ من كُتَّابِ النَّبيِّ ﷺ - أنَّهُ مرَّ بأبي بكرٍ رضيَ اللَّهُ عنهُ وهو يبكي ، فقال : ما لكَ يا حنظَلَةُ ؟ فقال : نافَقَ حنظَلَةُ يا أبا بكرٍ ، نكونُ عندَ رسولِ اللَّهِ ﷺ يُذكِّرُنا بالجنَّةِ والنَّارِ كأنَّها رأيُ عَينٍ ، فإذا رَجَعْنا إلى الأزواجِ والضَّيعَةِ نَسينا كثيرًا ، قال : فواللَّهِ إنَّا لكذلكَ ، انطَلِقْ بنا إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ ، فانطلَقنا ، فلمَّا رآهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ قال : ما لكَ يا حنظَلَةُ ؟! قال : نافَقَ حنظَلَةُ يا رَسولَ اللَّهِ ! نكونُ عندَكَ تُذكِّرنا بالنَّارِ والجنَّةِ كأنَّها رأيُ عينٍ ، فإذا رَجَعنا عافَسْنا الأزواجَ والضَّيعَةَ ونسينا كثيرًا ، قال : فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « لو تَدُومون على الحالِ التي تقومون بها من عندي لصافَحَتْكُم الملائكَةُ في مجالسِكُم وفي طُرُقكم وعلى فُرُشكُم ، ولكنْ يا حَنظَلَةُ ساعَةً وساعَةً » ، قال التِّرمذيُّ : هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

وفي التِّرمذي أيضًا نحوُهُ من حديثِ أبي هُريرَة(٢) .

والمقصودُ أنَّ الذي يهجمُ بالقَلْبِ على حقيقَةِ الإيمانِ ويُلَيِّنُ له ما يستَوعِرُهُ غيرُه ، ويُؤْنِسُهُ بما يَستَوحِشُ منه سواهُ العلمُ التَّامُّ والحُبُّ الخالصُ .

والحُبُّ تَبَعٌ للعلمِ يَقوى بقوَّتِهِ ، ويضعُفُ بضعفِهِ ، والمُحِبُّ لا يَستوعِرُ طريقًا تُوصِلُهُ إلى محبوبِهِ ولا يَستَوحشُ فيها .

وقولُه : « **صَحبوا الدُّنيا بأبدانٍ أرواحُها مُعلَّقَةٌ بالملأِ الأعلى** »، وفي روايَةٍ :

---

(١) (برقم : ٢٥١٤) .

وهو في « صحيح مسلم » (٢٧٥٠) .

(٢) رواه الترمذي (٢٥٢٦) وضعَّفه .

وهو حسنٌ بما قبلَه .

« **بالمَحَلِّ الأعلى** » ؛ الرُّوحُ في هذا الجَسَد بدارِ غُربَةٍ ، ولها وطنٌ غيرُهُ ، فلا تَستَقرُّ إلّا في وطنها ؛ وهي جوهَرٌ عُلْوِيٌّ مخلوقٌ من مادَّةٍ عُلْوِيَّةٍ ، وقد اضطرَّت إلى مُساكنَةِ هذا البَدَنِ الكثيفِ ، فهي دائمًا تطلبُ وَطَنَها في المحلِّ الأعلى ، وتَحِنُّ إليهِ حنينَ الطَّيرِ إلى أوكارِها ، وكلُّ روحٍ ففيها ذلكَ ، ولكنْ لِفَرْطِ اشتغالها بالبَدَنِ وبالمحسوساتِ المألوفَةِ أخلَدَتْ إلى الأرضِ ، ونَسِيَت مُعَلِّمَها ووطنَها الذي لا راحَةَ لها في غيرِهِ ، فإنَّهُ لا راحَةَ للمؤمنِ دونَ لقاءِ ربِّهِ[(١)]، والدُّنيا سجنُهُ[(٢)] حقًّا ، فلهذا تجدُ المؤمنَ بدنُهُ في الدُّنيا وروحُهُ في المحلِّ الأعلى .

وفي الحديثِ المرفوعِ : « إذا نامَ العَبدُ وهو ساجدٌ باهى اللَّهُ به الملائكَةَ ، فيقولُ : انظُروا إلى عَبدي بَدَنُهُ في الأرضِ وروحُهُ عندي » رواهُ تمَّامٌ[(٣)] وغيرهُ .

وهذا معنى قولِ بَعضِ السَّلفِ : « القلوبُ جوَّالَةٌ ؛ فقلبٌ حولَ الحشرِ ، وقلبٌ يطوفُ مع الملائكَةِ حولَ العَرشِ » ، فأعظمُ عَذابِ الرُّوحِ انغماسُها وتَدسيسُها في أعماقِ البَدنِ ، واشتغالُها بملاذِّهِ ، وانقطاعُها عن مُلاحظَةِ ما

---

(١) صحَّ هذا المعنى عن ابن مسعودٍ من قولِه ، رواه أَحمدُ في « الزهد » (ص ١٥٦) .
وأَورد له شيخُنا في « الضعيفة » (٦٦٣) طريقًا أُخرى من بعض المصادر المخطوطة ، وصحّحه .

(٢) كما في « صحيح مسلم » (٢٩٥٦) عن أَبي هريرة .

(٣) في « فوائدِه » (برقم : ٣٤٣ - ترتيبه) .
وفي سنده داودُ بن الزبْرِقان ، وهو متروكٌ !
وله طريقٌ أُخرى - في « النَّاسخ والمنْسوخ » (رقم ٢٠٠) لابن شاهين - عن أَبي هُريرة ، بسند فيه ضعيفٌ ومدلِّسٌ !
وفي « التلخيص الحبير » (١ / ١٢٠ - ١٢١) للحافظ ابن حَجَر كلامٌ طويلٌ على الحديثِ ، فَلْيُنْظَر .
وراجِعْ له - أَيضًا - « السلسلة الضعيفة » (٩٥٣) لشيخنا الأَلباني .

خُلِقَتْ لهُ وهُيِّئَت له ، وعَن(١) وطنِها ومحلِّ أُنسِها ومنزلِ كرامتها .

ولكنَّ سُكرَ الشهواتِ يحجبُها عن مُطالَعَةِ هذا الألمِ والعَذابِ ، فإذا صحَتْ من سُكرها وأفاقَت مِن غمرتها أقبَلَتْ عليها جيوشُ الحَسَراتِ من كلِّ جانبٍ ، فحينئذٍ تتقطَّعُ حسراتٍ على ما فاتها من كرامَةِ اللَّهِ وقُربهِ والأُنسِ به والوُصولِ إلى وطنها الذي لا راحَةَ لها إلّا فيهِ ، كما قيلَ :

صَحِبْتُكَ إذ عَيني عليها غِشاوَةٌ فلمَّا انْجَلَتْ قطَّعتُ نَفسي أَلومُها

ولو تنقَّلَت الرُّوحُ في المواطنِ كلِّها والمنازلِ لم تَستَقرَّ ولم تَطمئنَّ إلّا في وطنها ومحلِّها الذي خُلقَت له ، كما قيل :

نَقِّلْ فؤادَكَ حَيثُ شِئْتَ منَ الهَوى ما الحُبُّ إلّا للحَبيبِ الأوَّلِ

كَم مَنزلٍ في الأرضِ يألفُهُ الفَتى وحنينُهُ أبدًا لأوَّلِ مَنزلِ

وإذا كانَت الرُّوحُ تَحِنُّ أبدًا إلى وطنها من الأرضِ مع قيامِ غيرِهِ مقامَهُ في السُّكنى ، وكثيرًا ما يكونُ غيرُ وطنها أحسَنَ وأطيَبَ منه ، وهي دائمًا تَحِنُّ إليهِ مع أنَّهُ لا ضَرَرَ عليها ، ولا عَذابَ في مُفارقتِهِ إلى مثلِهِ ، فكيفَ بحنينها إلى الوَطنِ الذي في فراقِها لهُ عذابُها وآلامُها وحسرتُها التي لا تَنقَضي !!

فالعَبدُ المؤمنُ في هذه الدَّار سُبِيَ من الجنَّةِ إلى دارِ التَّعَبِ والعناءِ ، ثمَّ ضُرِبَ عليهِ الرِّقُّ فيها ، فكيفَ يُلامُ على حنينهِ إلى دارِهِ التي سُبيَ منها وفُرِّقَ بينَهُ وبينَ مَن يُحِبُّ وجُمِعَ بينَهُ وبينَ عدوِّهُ ؟! فروحُهُ دائمًا مُعلَّقةٌ بذلكَ الوَطنِ ، وبدنُهُ في الدُّنيا .

ولي من أبياتٍ في ذلك :

---

(١) أي انشغالُها - أيضًا - عن وطنها و ... و ...

فَحَيَّ على جنَّاتِ عَدْنٍ فإنَّها   منازِلُكَ الأُولى وفيها المخيَّمُ
ولكنَّنا سَبيُ العَدوِّ فهَل تَرى   نَعـودُ إلى أوطـانِنا وَنُسَـلَّمُ

وكُلَّما أرادَ منه العدُوُّ نسيانَ وطنِهِ ، وضَرْبَ الذِّكْرَ عنه صَفْحًا ، وإيلافَهُ وطنًا غيرَهُ أبَتْ ذلكَ روحُهُ وقلبُهُ ، كما قيلَ :

يُرادُ من القَلبِ نسيانُكُم   وتأبى الطِّبـاعُ على النَّاقلِ

ولهذا كانَ المؤمنُ غريبًا في هذه الدَّارِ ، أينَ حلَّ منها فهو في دارِ غُربَةٍ ، كما قال النَّبيُّ ﷺ : « كُنْ في الدُّنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ »[1] ولكنَّها غُربةٌ تنقَضي ويصيرُ إلى وطنِهِ ومنزلِهِ ، وأمَّا الغُربَةُ التي لا يُرجى انقطاعُها فهي غُربَةٌ في دارِ الهوانِ ، ومُفارَقَةُ وطنِهِ الذي كانَ قد هُيِّئَ لهُ ، وأُعِدَّ لهُ وأُمِرَ بالتَّجَهُّزِ إليهِ والقُدومِ عليهِ ، فأبى إلَّا اغترابَهُ عنه ومُفارقتَهُ لهُ ، فتلكَ غُربةٌ لا يُرجى إيابُها ولا يُجبَرُ مصابُها .

ولا تُبادِرْ إلى إنكارِ كونِ البَدنِ في الدُّنيا والرُّوحِ في الملإِ الأعلى ! فللرُّوحِ شأنٌ وللبَدنِ شأنٌ ، والنَّبيُّ ﷺ كانَ بينَ أظهُرِ أصحابِهِ وهو عندَ ربِّهِ يُطعِمُهُ ويسقيهِ[2]، فبدنُهُ بينهم وروحُهُ وقلبُهُ عندَ ربِّهِ .

وقال أبو الدَّرداء : إذا نامَ العَبدُ عُرِجَ بروحِهِ إلى تحتِ العَرش ، فإنْ كانَ طاهرًا أُذِنَ لها بالسُّجودِ ، وإنْ لم يكُن طاهرًا لم يُؤذَنْ لها بالسُّجود[3] .

فهذه - واللَّهُ أعلم - هي العلَّةُ التي أُمِرَ الجُنُبُ لأجلها أن يتوضَّأَ إذا أرادَ

---

(١) رواه البخاري (٦٤١٦) عن ابن عُمر .

(٢) إشارةٌ إلى حديث أَبي هُريرةَ مرفوعًا : « .. إنِّي أَظلُّ عند ربِّي يُطعمني ويَسْقيني » ، وقد أَخرجه البخاري (١٩٦٥) ، ومسلم (١١٠٣) .

وفي الباب عن عِدّةٍ من الصحابةِ .

(٣) هذا لا دليلَ عليه ، واللَّهُ أَعلمُ بصحَّة سَنَدِهِ !

النَّومَ[1] .

وهذا الصُّعودُ إنَّما كانَ لتجرُّدِ الرُّوحِ عن البَدَنِ بالنَّومِ ، فإذا تجرَّدَت بسببٍ آخَرَ حَصَلَ لها منَ التَّرقِّي والصُّعودِ بحَسَبِ ذلكَ التَّجرُّدِ .

وقَد يَقوى الحُبُّ بالمُحِبِّ حتى لا يُشاهَدَ منه بينَ النَّاس إلَّا جسمُهُ ، وروحُهُ في موضعٍ آخَرَ عند محبوبِهِ .

وفي هذا من أشعارِ النَّاسِ وحكاياتهم ما هو معروفٌ .

وقولُهُ : « **أُولئكَ خُلَفاءُ اللَّهِ في الأرضِ ودعاتُهُ إلى دينِهِ** » ؛ هذا حُجَّةُ أحدِ القَولينِ في أنَّهُ يجوزُ أن يُقالَ : فلانٌ خليفَةُ اللَّهِ في أرضِهِ[2] .

واحتجَّ أصحابُهُ[3] أيضًا بقولِه تعالى للملائكَة : ﴿ **إنِّي جاعِلٌ في الأرضِ خَليفَةً** ﴾ [البقرة: ٣٠]، واحتَجُّوا بقولِه تعالى : ﴿ **وهوَ الَّذي جعَلَكُم خلائفَ الأرضِ** ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

وهذا خِطابٌ لنوعِ الإنسانِ ، وبقولِه تعالى : ﴿ **أمَّن يُجِيبُ المُضطرَّ إذا دعاهُ ويكشفُ السُّوءَ ويجعلُكُم خلفاءَ الأرضِ** ﴾ [النحل : ٦٢] .

وبقولِ موسى لقومه : ﴿ **عَسى ربُّكُم أَنْ يُهلِكَ عدوَّكُم ويستخلفَكُم في الأرضِ فيَنظرَ كيفَ تعمَلونَ** ﴾ [الأعرافِ : ١٢٩] .

وبقَولِ النَّبيِّ ﷺ : « إنَّ اللَّهُ مُمكِّنٌ لكُم في الأرضِ ، ومُستخلِفُكُم

---

(١) كما رواه البخاري (٢٩٠) ، ومسلم (٣٠٦) عن ابن عُمر .

(٢) انظر ما تقدّم (ص ٤٠٤) .

(٣) أي : أَصحاب القول بالجواز .

فيها ، فناظِرٌ كيفَ تعملون ، فاتَّقوا الدُّنيا واتَّقوا النِّساء »[١].

واحتجُّوا بقولِ الرَّاعي يُخاطبُ أبا بكرِ الصِّدِّيقَ رضيَ اللَّهُ عنهُ :

خَليفَةَ الرَّحمن إنَّا مَعشرٌ   حُنفاءُ نسجُدُ بُكرَةً وأصيلا
عَرَبٌ نَرى للَّهِ في أموالنا   حقَّ الزَّكاةِ مُنزَّلًا تنزيلا

وَمَنعَتْ طائفَةٌ هذا الإِطلاقَ ، وقالت : لا يُقالُ لأحدٍ : إنَّهُ خليفَةُ اللَّهِ ؛ فإنَّ الخَليفَةَ إنَّما يكونُ عمَّن يَغيبُ ويخْلُفُهُ غيرُهُ ، واللَّهُ تعالى شاهِدٌ غيرُ غائبٍ ، قريبٌ غيرُ بَعيدٍ ، راءٍ وسامعٌ ، فَمُحالٌ أن يَخْلُفَهُ غيرُهُ ، بل هو سبحانهُ الذي يَخْلُفُ عبدَهُ المؤمنَ فيكونَ خليفَتَهُ ؛ كما قالَ النَّبيُّ ﷺ في حديث الدجَّال : « إنْ يخرجْ وأنا فيكُم فأَنا حجيجُهُ دونَكُم ، وإنْ يخرُجْ ولستُ فيكُم فامرؤٌ حجيجُ نَفسهِ ، واللَّهُ خليفَتي على كلِّ مؤمنٍ »، والحديثُ في « الصَّحيح »[٢] .

وفي « صحيح مُسلم »[٣] أيضًا من حديثِ عبداللَّهِ بن عُمَرَ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ كانَ يقولُ إذا سافَرَ : « اللهمَّ أنتَ الصَّاحبُ في السَّفَر والخليفَةُ في الأهلِ ... » الحديث .

وفي « الصَّحيح »[٤] أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « اللهمَّ اغفرْ لأبي سلمَة وارفَعْ درجَتَهُ في المَهْدِيِّين واخلُفْهُ في أهلهِ » .

فاللَّهُ تعالى هو خليفَةُ العَبدِ لأنَّ العَبدَ يموتُ فيحتاجُ إلى مَن يخْلُفُهُ في أهلهِ .

---

(١) هذه روايةٌ بالمعنى ، والحديثُ - بلفظه الصحيح - مرويٌّ في « صحيح مُسلم » (٢٧٤٢) عن أبي سعيد الخُدْريِّ .

(٢) « صحيح مُسلم » (٢١٧٣) عن النَّواس بن سمعان .

(٣) (١٣٤٢) .

(٤) رواه مُسلم (٩٢٠) عن أُمِّ سَلَمة .

قالوا : ولهذا أنكرَ الصدِّيقُ رضيَ اللَّهُ عنهُ على مَن قال لهُ : يا خَليفَةَ اللَّهِ ! قال : لستُ بخليفَةِ اللَّهِ ، ولكنْ خليفَةُ رسولِ اللَّهِ ، وحَسْبي ذلك(١).

قالوا : وأمَّا قولُهُ تعالى : ﴿ إنِّي جاعلٌ في الأرضِ خَليفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠]، فلا خلافَ أنَّ المرادَ به آدمُ وذريَّتُهُ .

وجمهورُ أهلِ التَّفسيرِ من السَّلَفِ والخَلَفِ على أنَّهُ جَعَلَهُ خليفَةً عمَّن كانَ قبلَهُ في الأرضِ .

قيلَ : عَنِ الجنِّ الذينَ كانوا سُكَّانَها .

وقيلَ : عن الملائكَةِ الذينَ سكنوها بعدَ الجنِّ ، وقصَّتُهُم مذكورَةٌ في التَّفاسير(٢) .

وأمَّا قولُهُ تعالى : ﴿ وهوَ الَّذي جعَلَكُم خلائفَ الأرضِ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] ، فليسَ المرادُ به خلائفَ عن اللَّهُ ، وإنَّما المُرادُ بِهِ أنَّهُ جعَلَكُم يَخْلُفُ بعضُكُم بَعضًا ، فكلَّما هَلَكَ قرنٌ خَلَفَهُ قَرنٌ إلى آخَرِ الدَّهرِ .

ثمَّ قيلَ : إنَّ هذا خِطابٌ لأمَّةِ محمَّدٍ ﷺ خاصَّةً ؛ أي : جعلَكُم خلائفَ منَ الأُمَمِ الماضيَةِ ، فهلكوا وورثتم أَنْتُم الأرضَ من بَعدهم .

ولا رَيبَ أنَّ هذا الخِطابَ للأُمَّةِ ، والمُرادُ نوعُ الإنسانِ الذي جَعَلَ اللَّهُ

---

(١) أَخرجه أَحمد (٥٩) و (٦٤) ، وابن سعد (٣ / ١٨٣) ، بسندٍ فيه انقطاعٌ . وقد ثبت من طرق عند الحاكم في « المستدرك » (٣ / ٧٩ - ٨٠) أَنَّ الصحابة كانوا يُنادونه بِـ : « يا خليفةَ رسول اللّه » .

وانْظُر « السلسلة الضعيفة » (١ / ١٩٧ - الطبعة الجديدة) وتعليق شيخنا عليه .

(٢) انظرْ « تفسير الطبري » (١ / ١٩٩) ، و « تفسير البغوي » (١ / ٦١) ، و « تفسير ابن كثير » (١ / ١٠٦) .

أباهم خليفَةً عمَّن قبلَهُ ، وجعَلَ ذُرِّيَّتَهُ يخلُفُ بعضهم بعضًا إلى قيامِ السَّاعَةِ .

ولهذا جَعَلَ هذا آيَةً مَن آياتِهِ ، كقولِهِ تعالى : ﴿ أمَّن يُجيبُ المُضطرَّ إذا دعاهُ ويكشِفُ السُّوءَ ويجعلُكُم خُلفاءَ الأرضِ ﴾ [النحل : ٦٢] .

وأمَّا قولُ موسى لقومه : ﴿ ويَستَخلفَكُم في الأرضِ ﴾ [الأعراف : ١٢٩]، فليسَ ذلكَ استخلافًا عنهُ ، وإنَّما هو استخلافٌ عن فرعونَ وقومِهِ ؛ أهلكَهُم وجعَلَ قومَ موسى خُلفاءَ مِن بَعدِهم .

وكذا قولُ النَّبيِّ ﷺ : « إنَّ اللَّهَ مُستخِلفُكُم في الأرضِ »(١)، أي : من الأُمَم التي تهلكُ وتكونونَ أنتُم خُلفاءَ من بعدهم .

قالوا : وأمَّا قولُ الرَّاعي ! فقولُ شاعرٍ قالَ قَصيدَةً في غَيْبَةِ الصدِّيقِ لا يُدرى أبلَغَت أبا بكرٍ أم لا(٢) ؟!

ولو بَلَغَتْهُ فلا يُعْلَمُ أنَّه أقرَّهُ على هذه اللفظَةِ أم لا(٣) ؟!

قلتُ : إنْ أُرِيدَ بالإضافَةِ إلى اللَّهِ أنَّهُ خليفَةٌ عنهُ فالصَّوابُ قولُ الطَّائفَةِ المانعَةِ منها .

وإنْ أُرِيدَ بالإضافَةِ أنَّ اللَّهَ استخلفَهُ عن غَيرِهِ ممَّن كانَ قبلَهُ فهذا لا يمتنعُ فيه الإضافَةُ ؛ وحقيقتُها خليفَةُ اللَّهِ الذي جعلَهُ اللَّهُ خَلَفًا عن غيرِهِ .

وبهذا يخرجُ الجوابُ عن قولِ أميرِ المؤمنين : « أُولئكَ خلفاءُ اللَّهِ في أَرْضِهِ » .

فإنْ قيلَ : هذا لا مَدْحَ فيهِ ؛ لأنَّ هذا الاستخلافَ عامٌّ في الأُمَّةِ ، وخِلافَةُ

---

(١) تقدَّم تخريجُه .

(٢) هذا إنْ ثَبتَ إسنادُها !!

(٣) نعم ؛ رُوي إنكارُه على لفظٍ مُشابهٍ ، كما تقدَّم بتخريجه .

اللَّهِ التي ذَكَرَها أميرُ المؤمنين خاصَّةً بخواصِّ الخَلقِ !

فالجوابُ : أنَّ الاختصاصَ المذكورَ أفادَ اختصاصَ الإضافَةِ ، فالإضافَةُ هنا للتَّشريفِ والتَّخصيصِ ، كما يُضافُ إليهِ عبادُهُ ، كقوله تعالى : ﴿ إنَّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سُلطانٌ ﴾ [الحجر : ٤٢]، ﴿ وعبادُ الرَّحمنِ الَّذينَ يَمشونَ على الأرضِ هَونًا ﴾ [الفرقان : ٦٣]، ونظائرِها .

ومعلومٌ أنَّ كلَّ الخَلْقِ عبادٌ لهُ ، فخُلفاءُ الأرضِ كالعِبادِ في قولِهِ : ﴿ واللهُ بَصيرٌ بالعبادِ ﴾ [آل عمران : ٢٠]، ﴿ وما اللهُ يريدُ ظُلمًا للعبادِ ﴾ [غافر : ٣١]، وخلفاءُ اللَّهِ كعبادِ اللهِ في قولِهِ : ﴿ إنَّ عبادي ليسَ لكَ عليهم سُلطانٌ ﴾ [الحجر : ٤٢]، ونظائرِهِ .

وحقيقَةُ اللفظَةِ أنَّ الخليفَةَ هو الذي يَخْلُفُ الذَّاهبَ ، أي : يجيءُ بعدَهُ ؛ يقال : خلفَ فلانٌ فلانًا ، وأَصْلُهُ خليف بغَيرِ هاءٍ ؛ لأنَّها فعيلٌ بمعنى فاعل ؛ كالعليمِ والقَديرِ ، فدخَلَت التَّاءُ للمبالَغَةِ في الوَصفِ كراويةٍ وعلَّامَةٍ .

ولهذا جُمِعَ جَمْعَ فَعيل، فقيلَ : خُلفاءُ، كشريف وشرفاء، وكريم وكرماء .

ومَن راعى لفظَهُ بعدَ دخولِ التَّاءِ عليه جَمَعَهُ على فعائلَ ، فقال : خلائفَ ؛ كعقيلَة وعقائلَ ، وظريفَة وظرائفَ ، وكلاهما ورَدَ به القرآنُ .

هذا قولُ جماعَةٍ منَ النُّحاةِ .

والصَّوابُ أنَّ التَّاءَ إنَّما دخَلَت فيها للعَدلِ عن الوَصفِ إلى الاسمِ ؛ فإنَّ الكلمَةَ صفَةٌ في الأصلِ ، ثمَّ أُجرِيَت مجرى الأسماء ، فأُلحِقَت التَّاءُ لذلك ، كما قالوا : نَطيحَةٌ بالتَّاءِ ، فإذا أجروها صفَةً قالوا : شاةٌ نَطيحٌ ، كما يقولونَ : كفٌّ خَضِيبٌ ؛ وإلَّا فلا معنى للمبالغة في (خليفة) حتى تلحقَها تاءُ المبالغة ،

والله أعلمُ .

وقولُه : « **ودعاته إلى دينهِ** » ؛ الدّعاةُ : جمعُ داعٍ ، كقاضٍ وقُضاةٍ ، ورامٍ ورُماةٍ ، وإضافتُهم إلى اللهِ للاختصاصِ ، أي : الدُّعاةُ المخصوصونَ به ، الذينَ يَدْعُونَ إلى دينهِ وعبادتهِ ومعرفتهِ ومحبَّتهِ ، وهؤلاءِ هم خواصُّ خَلْقِ اللهِ وأفضلُهم عندَ اللهِ منزلةً وأعلاهُم قَدرًا .

يدُلُّ على ذلكَ الوجهِ التَّالي :

الوجهُ الثلاثونَ بعدَ المِئة : وهو قولُهُ تعالى : ﴿ **ومَن أحسَنُ قَولًا ممَّن دعا إلى اللهِ وعَمِلَ صالحًا وقالَ إنَّني منَ المُسلمينَ** ﴾ [فصلت : ٣٣] .

قال الحَسنُ : هو المؤمنُ أجابَ اللهَ في دَعوتهِ ، ودعا النَّاسَ إلى ما أجابَ اللهَ فيهِ من دعوتهِ، وعملَ صالحًا في إجابتهِ[1]، فهذا حَبيبُ اللهِ، هذا وليُّ اللهِ .

فمقامُ الدَّعوةِ إلى اللهِ أفضلُ مقاماتِ العَبدِ، قال تعالى: ﴿ وأنَّهُ لمَّا قامَ عَبدُ اللهِ يَدْعوه كادوا يكونونَ عليهِ لِبَدًا ﴾ [الجنّ : ١٩]، وقال تعالى : ﴿ **ادْعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمَةِ والمَوعظَةِ الحَسَنَةِ وجادِلْهم بالتي هيَ أحسنُ** ﴾ [النحل : ١٢٥]، جعَلَ سبحانَهُ مراتبَ الدَّعوَةِ بحَسبِ مراتبِ الخَلقِ :

فالمُستجيبُ القابلُ الذكيُّ الذي لا يعاندُ الحقَّ ولا يأباهُ يُدعى بطريقِ الحكمَةِ .

---

(١) فات هذا الموضعُ من كلام ابن القيّم على هذه الآيةِ - ومعه مواضعُ أُخَرُ - الأخَ يُسري السيّد محمّد في جَمْعِهِ اللَّطيفِ الطيِّب لِـ « بدائعَ التَّفسيرَ » عن ابن القيّم ، فانظر (٤ / ١٠٣) منه .

والقابلُ الذي عندَهُ نوعُ غفلَةٍ وتأخُّرٍ يُدعى بالمَوعظَةِ الحسَنَةِ ، وهي الأمرُ والنَّهيُ المقرونُ بالرَّغبَةِ والرَّهبَةِ .

والمُعانِدُ الجاحِدُ يُجادَلُ بالتي هيَ أحسنُ .

هذا هو الصَّحيحُ في معنى هذه الآيَةِ ، لا ما يَزعُمُ أَسِيرُ منطقِ اليونانِ أنَّ الحكمَةَ قياسُ البُرهانِ ، وهو دَعوَةُ الخواصِّ !!

والموعظَةُ الحسَنَةُ قياسُ الخطابَةِ ، وهو دَعوَةُ العوامِّ !!

والمُجادلَةُ بالتي هي أحسَنُ القياسُ الجَدَليُّ ؛ وهو ردُّ شَغَبِ المُشاغِبِ بقياسٍ جَدَليٍّ مُسلَّمِ المقدِّماتِ !!

وهذا باطلٌ ، وهو مبنيٌّ على أُصولِ الفَلسَفَةِ ، وهو مُنافٍ لأصولِ المسلمينَ وقواعدِ الدِّينِ من وجوهٍ كثيرةٍ ليسَ هذا موضعَ ذكرها .

وقال اللَّهُ تعالى : ﴿ قُل هذهِ سَبيلي أدعو إلى اللهِ على بَصيرَةٍ أنا ومَنِ اتَّبَعني ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

قال الفَرَّاءُ[١] وجماعةٌ : ﴿ ومَنِ اتَّبعني ﴾ معطوفٌ على الضَّمير في ﴿ أدعو ﴾ ، يَعني : ومَن اتَّبعني يَدعو إلى اللَّهِ كما أدعو ، وهذا قولُ الكَلْبي ؛ قال : حقٌّ على كلِّ من اتَّبعَهُ أن يدعُوَ إلى ما دعا إليهِ ويُذكِّرَ بالقرآنِ والموعظَةِ ، ويقوىٰ هذا القَولُ من وجوهٍ كثيرَةٍ .

قال ابنُ الأنباريِّ : ويجوزُ أن يتمَّ الكلامُ عندَ قولهِ : ﴿ أدعو إلى اللهِ ﴾، ثمَّ يبتدىءُ بقولهِ : ﴿ على بَصيرَةٍ أنا ومَن اتَّبعني ﴾؛ فيكونُ الكلامُ على قولهِ جملتين، أخبرَ في أُولاهما أنَّهُ يَدعو إلى اللَّهِ، وفي الثَّانيَة بأنَّهُ وأَتباعَهُ على بَصيرَةٍ .

---

(١) راجع « معاني القرآن » للفرّاء .

والقولانِ مُتلازمانِ ؛ فلا يكونُ الرَّجلُ مِن أتباعِهِ حقًّا حتى يَدعو إلى ما دعا إليهِ .

وقولُ الفرَّاء أحسنُ وأقربُ إلى الفصاحَةِ والبلاغَةِ .

وإذا كانَت الدَّعوةُ إلى اللّهِ أشرَفَ مقاماتِ العَبدِ وأجلَّها وأفضَلَها ، فهي لا تحصُلُ إلّا بالعلمِ الذي يَدعو به وإليهِ ، بل لا بدَّ في كمالِ الدَّعوَةِ من البلوغِ في العلمِ إلى حدٍّ يَصلُ إليهِ السَّعيُ .

ويكفي هذا في شرَفِ العلمِ أنَّ صاحبَهُ يحوزُ به هذا المقامَ ، واللّهُ يؤتي فَضلَهُ من يشاء .

الوجهُ الحادي والثَّلاثونَ بعد المِئة : أنَّهُ لو لم يكُن من فوائدِ العلمِ إلّا أنَّهُ يُثمِرُ اليَقينَ الذي هو أعظمُ حياةِ القَلبِ ، وبه طمأنينتُهُ وقوَّتُهُ ونشاطُهُ وسائرُ لوازمِ الحياةِ ، ولهذا مدَحَ اللّهُ سبحانَهُ أهلَهُ في كتابهِ ، وأثنى عليهم بقولِه : ﴿ وبالآخِرَةِ هم يُوقِنون ﴾ [البقرة : ٤]، وقولِه تعالى : ﴿ كذلكَ نُفصِّلُ الآياتِ لقَومٍ يُوقنون ﴾ [الأَعراف : ٣٢] ، وقولِه في حقِّ خليلِهِ إبراهيم : ﴿ وكذلكَ نُري إبراهيمَ ملكوتَ السَّمواتِ والأرضِ وَليكونَ من المُوقِنينَ ﴾ [الأنعام : ٧٥]، وذمَّ مَن لا يَقينَ عندهُ فقال : ﴿ إنَّ النَّاسَ كانوا بآياتنا لا يُوقِنون ﴾ [النمل : ٨٢] .

وفي الحديث المرفوعِ من حديثِ سفيان الثَّوري ، عن سُليمانَ التَّيْميّ ، عن خَيْثمَةَ ، عن عبداللّهِ بن مسعودٍ يرفعُهُ : « لا تُرْضِيَنَّ أحدًا بسَخَطِ اللّهِ ، ولا تَحمَدنَّ أحدًا على فضلِهِ ، ولا تَذُمَّنَّ أحدًا على ما لم يُؤتِكَ اللّهُ ، فإنَّ رزقَ اللّهِ لا يسوقُهُ حِرصُ حريصٍ ، ولا يردُّهُ عنكَ كراهيَّةُ كارِهٍ ، وإنَّ اللّهَ بعدلِهِ وقسطِهِ جَعَلَ الرَّوحَ والرَّاحَةَ والفَرَحَ في الرِّضا واليَقينِ ، وجَعَلَ الهَمَّ والحزَنَ في الشكِّ

والسَّخطِ »(١) .

فإذا باشرَ القلبَ اليَقينُ امتلأَ نورًا ، وانتفى عنه كلُّ ريبٍ وشكٍّ ، وعُوفي من أمراضِهِ القاتلَةِ ، وامتلأَ شكرًا للَّهِ وذكرًا له ومحبَّةً وخوفًا ، فحيَّ عن بيِّنَةٍ .

واليَقينُ والمحبَّةُ هما رُكنا الإيمانِ وعليهما يَنبني وبهما قِوامُهُ ، وهما يَمُدَّانِ سائرَ الأعمالِ القلبيَّةِ والبَدنيَّةِ ، وعنهما تَصدُرُ ، وبضعفِهما يكونُ ضَعفُ الأعمالِ ، وبقوَّتهما قوَّتُها .

وجميعُ منازلِ السَّائرينَ ومقامات العارفينَ إنَّما تُفْتَحُ بهما ، وهما يُثمرانِ كلَّ عملٍ صالحٍ وعلمٍ نافعٍ وهُدًى مستقيمٍ .

قال شيخُ العارفينَ الجُنيدُ : اليَقينُ هو استقرارُ العلمِ الذي لا ينقلبُ ولا يتحوَّلُ ولا يتغيَّرُ في القلبِ .

وقال سَهْلٌ : حَرَامٌ على قلبٍ أن يشمَّ رائحةَ اليَقينِ وفيهِ سكونٌ إلى غيرِ اللَّهِ .

وقيلَ : مِن علاماتِهِ الالتفاتُ إلى اللَّهِ في كلِّ نازلَةٍ ، والرُّجوعُ إليهِ في كلِّ أمرٍ ، والاستعانَةُ به في كلِّ حالٍ ، وإرادَةُ وجهِهِ بكلِّ حَركَةٍ وسكونٍ .

وقالَ السَّرِيُّ : اليَقينُ السُّكونُ عندَ جوَلانِ المواردِ في صَدرِكِ لتيقُّنِكَ أنَّ حركتَكَ فيها لا تنفعُكَ ولا تَرُدُّ عنكَ مَقْضِيًّا .

---

(١) رواه الطبراني في « الكبير » (١٠٥١٤) وأَبو نُعيم في « الحلية » (٤ / ١٢١) و (٧ / ١٣٠) ، والقُضاعي في « مسند الشهاب » (٩٤٧) من طريق خالد بن يزيد العُمَري ، عن سفيان ، عن سُليمان – هو ابن مِهْران – عن خَيْثَمة ، عن ابن مسعود .

وخالد بن يزيد : كذَّابٌ !

تنبيهان :

الأوَّل : نَسَبَ المصنِّف (سُليمان) تَيْميًّا ! وإنَّما هو الأَعمشُ المشهورُ .

الثاني : تصحَّف (سليمان عن خيثمة) في « مسند الشهاب » إلى : (سليمان بن خيثمة) !

قلتُ : هذا إذا لم تكُن الحرَكةُ مأمورًا بها ، فأَمَّا إذا كانَت مأمورًا بها فاليَقينُ في بَذلِ الجهدِ فيها واستفراغِ الوُسعِ .

وقيل : إذا استكملَ العَبدُ حقيقَةَ اليَقينِ صارَ البلاءُ عندَهُ نعمَةً، والمحنَةُ منحَةً .

فالعلمُ أوَّلُ درجاتِ اليَقين .

ولهذا قيلَ :العلمُ يَستعملُكَ واليَقينُ يحملُكَ ، فاليَقينُ أفضَلُ مواهبِ الرَّبِّ لعبدِهِ ، ولا تثبُتُ قَدَمُ الرِّضا إلّا على درجَةِ اليَقينِ .

قال اللَّهُ تعالى :﴿ ما أصابَ من مُصيبَةٍ إلّا بإذنِ اللهِ ومَن يُؤمنْ باللهِ يَهدِ قَلبَهُ ﴾ [التغابن : ١١] ، قال ابنُ مسعود : هو العبدُ تُصيبُهُ المُصيبَةُ فيعلمُ أنَّها من عند اللَّهِ فيَرضى ويُسَلِّم[١] .

فلهذا لم يحصُل له هدايَةُ القَلبِ والرِّضا والتَّسليمُ إلّا بيقينهِ ؛ قال في « الصِّحاح »[٢]: اليَقين العلمُ وزوالُ الشكِّ، يقال منه : يَقِنْتُ الأمرَ - بالكسر - يقينًا ، واستيقَنتُ وأيقَنتُ وتيقَّنتُ ، كلُّه بمعنىً واحدٍ ، وأنا على يقينٍ منه .

وإنَّما صارَت الياءُ واوًا في مُوقِنٍ للضمَّةِ قبلها ، وإذا صغَّرْتَها رددْتَهُ إلى الأصلِ ، فقلتَ : مُييقنٍ ، وربَّما عبَّروا عن الظَّنِّ باليقينِ ، وعنِ اليقين بالظَّنِّ .

قال :

تحسَّبَ هوَّاسٌ وأيقَنَ أنَّني   بها مُفتَدٍ من واحدٍ لا أُغامِرُه

يقولُ : تشمَّرَ[٣]الأسدُ ناقتي يظنُّ أنَّني أفتَدي بها منه وأَسْتَحْيي نَفسي فأتركها له ولا أقتحمُ المهالكَ بمقاتلتهِ .

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور ، كما في « الدر المنثور » (٨ / ١٨٤) .

(٢) للجوهري ، وانظر (ص ٧٤٣) مِن المختار .

(٣) في المطبوع والنُّسخة السعودية : تشمّم ، وما أثبتُّه من النسخة البغداديّة ، والمعنى : مرّ جادًّا أو مُختالًا .

قلتُ : هذا موضعٌ اختلَفَ فيه أهلُ اللغةِ والتَّفسيرِ ؛ هل يُستعمَلُ اليَقينُ في موضع الظَّنِّ ، والظَّنُّ في موضع اليَقين ؟

فرأى ذلكَ طائفَةٌ - منهم الجوهريُّ وغيرُهُ -، واحتجُّوا بسوى ما ذُكِرَ بقوله تعالى : ﴿ الَّذينَ يظنُّونَ أنَّهُم مُلاقو ربِّهِم وأنَّهُم إليهِ راجعونَ ﴾ [البقرة : ٤٦]، ولو شكُّوا في ذلكَ لم يكونوا مُؤْمنينَ فضلًا عن أن يُمدَحوا بهذا المدح ، وبقوله تعالى : ﴿ قال الَّذينَ يظنُّونَ أنَّهُم ملاقو اللهِ كم من فئةٍ قليلةٍ غَلَبَت فئةً كثيرَةً بإذنِ اللهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٩]، وبقوله تعالى : ﴿ ورأى المُجرمونَ النَّارَ فظنُّوا أنَّهُم مواقعوها ﴾ [الكهف : ٥٣]، وبقول الشاعر :

فقلتُ لهُم ظُنُّوا بألفي مقاتلٍ سَراتُهُمُ في الفارسيِّ المُسرَّدِ[1]

أي : استيقِنوا بهذا العَدَد .

وأبى ذلكَ طائفَةٌ ، وقالوا : لا يكونُ اليَقينُ إلّا للعلمِ .

وأمَّا الظنُّ فمنهم مَنْ وافَقَ على أنَّهُ يكونُ الظَّنُّ في موضعِ اليَقينِ ، وأجابوا عمَّا احتَجَّ به مَن جوَّزَ ذلكَ بأن قالوا : هذه المواضعُ التي زعمتم أنَّ الظَّنَّ وقَعَ فيها موقعَ اليَقينِ كلُّها على بابها ، فإنَّا لم نَجِدْ ذلكَ إلّا في علمٍ بمغيَّبٍ ، ولم نَجِدْهم يقولونَ لمَن رأى الشيءَ : أظنُّهُ ، ولمن ذاقَهُ : أظنُّهُ ، وإنَّما يقالُ لغائبٍ قَد عُرِفَ بالسَّمعِ والعلمِ ، فإذا صارَ إلى المُشاهَدَةِ امتنَعَ إطلاقُ الظَّنِّ عليهِ .

قالوا : وبَينَ العيانِ والخَبَرِ مرتبَةٌ متوسِّطَةٌ باعتبارها أوقَعَ على العلمِ بالغائبِ الظَّنَّ لفَقدِ الحالِ التي تحصُلُ لِمُدْرِكِهِ بالمشاهَدَةِ .

وعلى هذا أُخرِجَت سائرُ الأدلَّة التي ذكرتموها ، ولا يَرِدُ على هذا قولُه : ﴿ ورأى المُجرمونَ النَّارَ فظنُّوا أنَّهُم مواقعوها ﴾ [الكهف : ٥٣]، لأنَّ الظَّنَّ

---

(١) التسريد اسمٌ جامع للدروع . « القاموس » (ص ٣٦٧) .

إنَّما وقَعَ على مواقعتها ، وهي غيبُ حالَ الرُّؤيَةِ ، فإذا واقعوها لم يكُن ذلكَ ظنًّا ، بل حقٌّ يقينٍ .

قالوا : وأمَّا قولُ الشاعر : وأيقَنَ أنَّني بها مفتَدٍ ... فعلى بابهِ ؛ لأنَّهُ ظنَّ أنَّ الأسَدَ لتيقُّنهِ شجاعَتَهُ وجراءَتَهُ مُوقِنٌ بأنَّ الرَّجلَ يَدَعُ له ناقتَهُ يفتَدي بها من نَفسهِ .

قالوا : وعلى هذا يخرُجُ معنى الحديث : « نحنُ أحقُّ بالشكِّ من إبراهيم[1] » ، وفيه أجوبةٌ .

لكنَّ بينَ العيانِ والخَبَرِ رتبةَ طلَبِ إبراهيم زوالَها بقولِه : ﴿ ... ولكنْ ليطمئنَّ قلبي ﴾ [البقرة : ٢٦٠] فعبَّرَ عن تلكَ الرُّتبَةِ بالشكِّ ، واللَّهُ أعلَم .

الوجهُ الثَّاني والثَّلاثون بعد المئة : ما رواهُ أبو يعلى الموصلي[2] في « مُسندهِ » من حديثِ أنسِ بن مالكٍ يرفعهُ إلى النَّبيِّ ﷺ قال : « طلبُ العلمِ فَريضَةٌ على كلِّ مُسلمٍ » .

وهذا وإنْ كانَ في سندهِ حفصُ بن سليمان - وقَد ضُعِّفَ - فمعناهُ صحيحٌ ؛ فإنَّ الإيمانَ فَرضٌ على كلِّ واحدٍ ، وهو ماهِيَّةٌ مركَّبةٌ من علمٍ وعملٍ ، فلا يُتصوَّرُ وجودُ الإيمان إلَّا بالعلمِ والعَمَلِ .

ثمَّ شرائعُ الإسلامِ واجبةٌ على كلِّ مسلمٍ ، ولا يمكنُ أداؤها إلَّا بعدَ معرفتِها والعلمِ بها ، واللَّهُ تعالى أخرَجَ عبادَهُ من بطونِ أُمَّهاتِهم لا يعلمونَ شيئًا ، فطلبُ العلمِ فَريضَةٌ على كلِّ مسلمٍ .

وهل تُمْكِنُ عبادَةُ اللَّهِ التي هي حقُّهُ على العبادِ كلِّهم إلَّا بالعلمِ ؟

---

(١) رواه البخاري (٦٩٩٢) ، و مسلم (١٥١) عن أبي هريرة .

(٢) (برقم : ٢٨٣٧) .

وللحديثِ طرقٌ مُتكاثرة جمعها - وخَلَصَ إلى حُسنِه - السيوطيُّ في جزء مفرد ، طُبع بتحقيقي ، وحسَّنه - أيضًا - جماعةٌ من أهل العلمِ .

وهَل يُنالُ العلمُ إلّا بطلبهِ ؟!

ثمَّ إنَّ العلمَ المفروضَ تعلُّمُهُ ضربانِ ؛ ضَربٌ منه فرضُ عَينٍ لا يسعُ مسلمٌ جهلَهُ ؛ وهو أنواعٌ :

النَّوعُ الأوَّلُ : علمُ أصولِ الإيمانِ الخمسَة : الإيمانِ باللَّهِ، وملائكتِهِ، وكتبِهِ، ورسلِهِ، واليومِ الآخرِ، فإنَّ مَن لم يُؤمن بهذه الخمسِ لم يدخُل في بابِ الإيمانِ ، ولا يستحقُّ اسمَ المؤمن، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ ولكنَّ البِرَّ مَن آمَنَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ والملائكَةِ والكتابِ والنَّبيِّينَ ﴾ [البقرة : ١٧٧]، وقال : ﴿ ومَن يَكفُر باللَّهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ واليومِ الآخرِ فقَد ضلَّ ضلالًا بَعيدًا ﴾ [النساء : ١٣٦] .

ولـمَّا سألَ جبريلُ رسولَ اللَّهِ ﷺ عن الإيمانِ ؟ قال : « أن تُؤمنَ باللَّهِ وملائكتهِ وكتبهِ ورسلهِ واليومِ الآخر، قال : صَدَقتَ »(١) .

فالإيمانُ بهذه الأصولِ فرعُ معرفتِها والعلمِ بها .

النَّوعُ الثَّاني : علمُ شرائعِ الإسلامِ ، واللازمُ منها علمُ ما يَخُصُّ العَبدَ من فعلها ؛ كعلمِ الوضوء والصَّلاة والصِّيامِ والحجِّ والزَّكاةِ وتوابعها وشروطها ومبطلاتها .

النَّوعُ الثَّالثُ : علمُ المُحرَّماتِ الخمسِ ؛ اتَّفقتْ عليها الرُّسُلُ والشرائعُ والكتبُ الإلهيَّة ؛ وهي المذكورةُ في قولِه تعالى : ﴿ قُل إنَّما حرَّمَ ربِّي الفواحشَ ما ظَهرَ منها وما بَطَنَ والإثمَ والبَغيَ بغَيرِ الحقِّ وأن تُشركوا باللهِ ما

---

(١) رواه البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩٠) عن أبي هُريرة .
ورواه مسلم (٨) عن عُمر .

لم يُنزِّل به سُلطانًا وأن تَقولوا على اللَّهِ ما لا تَعلمونَ ﴾ [الأَعراف : ٣٣] .

فهذه مُحرَّماتٌ على كُلِّ أَحدٍ في كلِّ حالٍ على لسانِ كلِّ رسولٍ ، لا تُباحُ قَطُّ ؛ ولهذا أتى فيها بـ ﴿ إنَّما ﴾ المُفيدَةِ للحصر مُطْلَقًا ، وغيرُها مُحرَّمٌ في وقتٍ مُباحٌ في غَيرِهِ ، كالميتةِ والدَّمِ ولحمِ الخنزير ونحوِهِ ، فهذه ليسَت مُحرَّمَةً على الإطلاقِ والدَّوامِ فلم تَدخُل تحتَ التَّحريمِ المحصورِ المطلَق .

النَّوعُ الرَّابعُ : علمُ أحكامِ المُعاشَرَةِ والمُعامَلَةِ التي تحصُلُ بينَهُ وبينَ النَّاسِ خُصوصًا وعُمومًا ، والواجبُ في هذا النَّوع يختلفُ باختلافِ أحوالِ النَّاسِ ومنازلهم ، فليسَ الواجبُ على الإمامِ مع رعيَّتهِ كالواجبِ على الرَّجلِ مع أهلهِ وجيرتهِ ، وليسَ الواجبُ على مَنْ نَصَّبَ نفسَهُ لأنواعِ التِّجاراتِ مِن تعلُّمِ أحكامِ البياعاتِ كالواجبِ على مَنْ لا يبيعُ ولا يَشتري إلّا ما تَدعو الحاجَةُ إليهِ .

وتَفصيلُ هذه الجملَةِ لا ينضبطُ؛ لاختلافِ النَّاسِ في أسبابِ العلمِ الواجبِ .

وذلكَ يرجعُ إلى ثلاثَةِ أصولٍ : اعتقادٍ، وفعلٍ ، وتركٍ :

فالواجبُ في الاعتقاد مطابقتُهُ للحقِّ في نفسهِ .

والواجبُ في العَمَل معرفةُ مُوافَقَةِ حركاتِ العَبدِ الظَّاهرَةِ والباطنَةِ الاختياريَّةِ للشرعِ أمرًا وإباحَةً .

والواجبُ في التَّركِ معرفَةُ موافقةِ الكفِّ والسُّكونِ لمرضاةِ اللَّهِ ، وأنَّ المطلوبَ منه إبقاءُ هذا الفعلِ على عدمهِ المُسْتَصْحَبِ ؛ فلا يتحرَّكُ في طلبهِ أو كفِّ النَّفسِ عن فعلهِ على الطَّريقتين .

وقَد دَخَلَ في هذه الجملةِ علمُ حركاتِ القلوبِ والأبدانِ .

وأمَّا فرضُ الكفايَةُ فلا أعلمُ فيهِ ضابطًا صحيحًا ؛ فإنَّ كلَّ أحدٍ يُدْخِلُ في

ذلكَ ما يظنُّهُ فرضًا ، فيُدخِلُ بعضُ النَّاسِ في ذلكَ علمَ الطبِّ وعلمَ الحسابِ وعلمَ الهندَسَةِ والمساحَةِ ، وبعضهم يَزيدُ على ذلكَ علمَ أُصولِ الصِّناعَةِ كالفِلاحَةِ والحياكَةِ والحِدادَةِ والخِياطَةِ ونحوها ، وبعضُهم يَزيدُ على ذلكَ علمَ المنطقِ ، وربَّما جعلَهُ فَرضَ عَينٍ ، وبناهُ على عَدَمِ صحَّةِ إيمانِ المقلِّد !

وكلُّ هذا هَوَسٌ وَخَبْطٌ ، فلا فَرضٌ إلّا ما فَرَضَ اللَّهُ ورسولُهُ .

فيا سبحان اللَّهِ ! هل فَرضَ اللَّهُ على كلِّ مسلمٍ أن يكونَ طبيبًا حجَّامًا حاسبًا مهندسًا ، أو حائكًا أو فلَّاحًا أو نجّارًا أو خيَّاطًا ؟ فإنَّ فَرضَ الكفايَةِ كفَرضِ العَينِ في تعلُّقهِ بعمومِ المكَلَّفِينِ، وإنَّما يخالِفُهُ في سقوطهِ بفعلِ البَعضِ[1] .

ثمَّ على قولِ هذا القائلِ يكونُ اللَّهُ قد فَرَضَ على كلِّ أحَدٍ جُملَةَ هذه الصَّنائع والعلومِ ، فإنَّهُ ليسَ واحدٌ منها فَرضًا على مُعيَّنٍ والآخرُ على مُعَيَّنٍ آخرَ ، بل عمومُ فَرْضيَّتِها مُشْتَرَكةٌ بينَ العمومِ ، فيجبُ على كلِّ أحَدٍ أن يكونَ حاسبًا أَو حائكًا خيَّاطًا نجَّارًا فلَّاحًا طبيبًا مُهندسًا !

فإنْ قالَ : المجموعُ فرضٌ على المجموعِ ؛ لم يكُن قولُكَ : « إنَّ كلَّ واحدٍ منها فَرضُ كفايَةٍ » صَحيحًا ؛ لأنَّ فرضَ الكفايَة يجبُ على العمومِ .

وأمَّا المنطقُ فلو كانَ علمًا صحيحًا كانَ غايتُهُ أن يكونَ كالمساحَةِ والهَندَسَةِ ونحوها ، فكيفَ وباطلُهُ أضعافُ حقِّهِ ؟! وفسادُهُ وتناقُضُ أصولهِ واختلافُ مبانيهِ يوجِبُ مراعاتِها الذِّهنَ أن يزيغَ في فكرهِ .

ولا يؤمنُ بهذا إلّا مَنْ قد عَرفَهُ وعرَفَ فسادَهُ وتناقُضَه ومُناقضَةَ كثيرٍ منه للعَقلِ الصَّريحِ .

وأخبرَ بعضُ مَن كانَ قد قرأهُ وعُنِيَ به أنَّهُ لم يَزَل مُتعجِّبًا من فسادِ أصولهِ

---

(١) قاعدةٌ أصوليّةٌ مُهمَّةٌ .

وقواعدِهِ ومُباينتها لصريحِ المعقولِ وتَضمُّنها لدعاوٍ محضَةٍ غَيرِ مدلولٍ عليها ، وتَفريقِهِ بينَ مُتساويين وجَمْعِه بين مُختلفين ! فيحكمُ على الشيءِ بحكمٍ وعلى نظيرِهِ بضدِّ ذلكَ الحكمِ !

أو يحكُمُ على الشيءِ بحكمٍ ثمَّ يحكُم على مُضادِّهِ أو مُناقضِهِ به .

قالَ : إلى أن سألتُ بعضَ رؤسائِهِ وشيوخِ أهلِهِ عن شيءٍ من ذلك ؟ فَفَكَّرَ فيه ، ثمَّ قالَ : هذا علمٌ قَد صَقَلَتْهُ الأذهانُ ، ومرَّت عليهِ من عَهدِ القرونِ الأوائلِ - أو كما قالَ - ، فَينبغي أن نتسلَّمَهُ من أهلِهِ ،وكانَ هذا من أفضَلِ من رأيتُ في المنطق .

قال : إلى أن وقفتُ على ردِّ مُتكلِّمي الإسلامِ عليهِ وتبيين فَسادِهِ وتناقضِهِ فوقفتُ على مصنَّفٍ لأبي سعيدٍ السِّيرافي النَّحْوي(١) في ذلكَ ، وعلى ردِّ كثيرٍ من أهلِ الكلامِ والعربيَّةِ عليهم كالقاضي أبي بكرٍ بن الطَّيِّب والقاضي عبدالجبَّار والجُبَّائي وابنِهِ وأبي المعالي وأبي القاسم الأنصاري ، وخلقٍ لا يُحْصَونَ كثرَةً .

ورأيتُ اسْتِشْكالاتِ فُضلائهم ورؤسائهم لمواضعِ الإشكالِ ومُخالفتها ما كانَ ينقدحُ لي كثيرٌ منه .

ورأيتُ آخِرَ مَنْ تجرَّدَ للرَّدِّ عليهم شيخَ الإسلامِ - قدَّسَ اللَّهُ روحَه - فإنَّهُ أتى في كتابيهِ الكبيرِ والصَّغيرِ(٢) بالعَجَبِ العُجابِ ، وكَشَفَ أسرارَهم وَهتَكَ أستارَهم ، فقلتُ في ذلكَ :

(١) توفي سنة (٣٦٨ هـ) ترجمته في « وفَيَات الأَعيان » (٧ / ٧٢) .

(٢) وهُما « الرَّد على المَنطِقيِّين » ، « نقْض المنطق » ، وكلاهما مطبوعان .

واعَجَباً لمَنطِقِ اليونانِ كَم فيهِ من إفكٍ ومِن بُهتانِ
مُخبِّطٌ لجيِّدِ الأذهانِ ومُفسِدٌ لفِطرَةِ الإنسانِ
مضطربُ الأصولِ والمباني على شفا هارٍ بناهُ الْباني
أحوَجُ ما كانَ إليهِ العاني يخونُهُ في السرِّ والإعلانِ
يمشي به اللسانُ في المَيدانِ مَشيَ مُقيَّدٍ على صَفوانِ
مُتَّصلُ العِثارِ والتَّواني كأنَّهُ السَّرابُ بالقيعانِ
بدا لعَينِ الظَّامىء الحَرَّانِ فَأَمَّهُ بالظَّنِّ والحُسبانِ
يَرجو شفاءَ غُلَّةِ الظَّمآنِ فلم يَجِد ثَمَّ سوى الحرمانِ
فعادَ بالخَيبَةِ والخُسرانِ يقرعُ سنَّ نادمٍ حَيرانِ
قَد ضاعَ منهُ العمرُ في الأماني وعايَنَ الخفَّةَ في الميزانِ

وما كانَ من هَوَسِ النُّفوس بهذهِ المنزلَةِ فهو بأن يكونَ جهلًا أَوْلى منهُ بأن يكونَ علمًا تعلُّمُهُ فَرضُ كفايَةٍ أو فَرضُ عَينٍ !

وهذا الشافعيُّ وأحمدُ وسائرُ أئمَّة الإسلامِ وتصانيفُهم ، وأئمَّةُ العَربيَّة وتصانيفهم ، وأئمّة التَّفسيرِ وتصانيفهم لمَن نَظَرَ فيها ؛ هَل راعَوْا فيها حدودَ المنطقِ وأوضاعَهُ ؟ وهل صحَّ لهم علمُهم بدونهِ ؟ أم لا ؟ بل هم كانوا أجلَّ قَدْرًا ، وأعظَمَ عقولًا من أن يَشْغَلُوا أفكارَهم بِهذْيانِ المنطقيِّين .

وما دَخلَ المنطقُ على علمٍ إلّا أفسَدَهُ وغيَّرَ أوضاعهُ وشوَّشَ قواعدَهُ .

ومِنَ النَّاسِ مَن يقولُ : إنَّ علومَ العَربيَّةِ من التَّصريفِ والنَّحوِ واللغَةِ والمعاني والبيانِ ونحوها تعلُّمها فرضُ كفايَةٍ لتوقُّفِ فَهمِ كلامِ اللَّهِ ورسولهِ عليها .

ومِنَ النَّاسِ مَن يَقولُ : تعلُّمُ أصولِ الفقهِ فرضُ كفايَةٍ لأنَّهُ العلمُ الذي يُعرَفُ به الدَّليلُ ومرتبتُهُ ، وكيفيَّةُ الاستدلال ...

وهذه الأقوالُ وإنْ كانَت أقربَ إلى الصَّواب من القَولِ الأوَّلِ ، فليسَ وجوبُها عامًّا على كلِّ أحَدٍ ، ولا في كلِّ وقتٍ ، وإنَّما تجبُ وجوبَ الوسائلِ في بَعضِ الأزمانِ وعلى بَعضِ الأشخاصِ ، بخلافِ الفَرضِ الذي يعُمُّ وجوبُهُ كلَّ أحدٍ ؛ وهو علمُ الإيمانِ وشرائع الإسلامِ ، فهذا هو الواجبُ ، وأمَّا ما عَداهُ ؛ فإنْ توقَّفَت معرفتُهُ عليهِ فهو من بابِ **ما لا يتمُّ الواجبُ إلّا بِهِ** ، ويكونُ الواجبُ منهُ القَدْرَ المُوصِلَ إليهِ دونَ المسائلِ التي هي فَضْلَةٌ لا يفتقرُ معرفَةُ الخطابِ وفهمُهُ إليها .

فلا يُطْلَقُ القولُ بأنَّ علمَ العربيَّة واجبٌ على الإطلاقِ ؛ إذ الكثيرُ منهُ ومن مسائلِهِ وبحوثِهِ لا يتوقَّفُ فهمُ كلامِ اللَّهِ ورسولِهِ عليها ، وكذلكَ أُصولُ الفقهِ ؛ القَدْرُ الذي يتوقَّفُ فهمُ الخطابِ عليهِ منه تجبُ معرفتُهُ دونَ المسائلِ المقرَّرَةِ والأبحاثِ التي هي فَضلَةٌ ، فكيفَ يُقالُ : إنَّ تعلُّمَها واجبٌ ؟!

وبالجملَةِ ؛ فالمطلوبُ الواجبُ من العَبدِ من العلومِ والأعمالِ [ما] إذا توقَّفَ على شيءٍ منها كانَ ذلكَ الشيءُ واجبًا وجوبَ الوسائلِ .

ومعلومٌ أنَّ ذلكَ التَّوقُّفَ يختلفُ باختلافِ الأشخاصِ والأزمانِ والألسنَةِ والأذهانِ ، فليسَ لذلكَ حدٌّ مُقدَّرٌ[1] ، واللَّهُ أعلم .

---

(١) وهذا كلامٌ علميٌّ مُحرَّرٌ يَحُلُّ إشكالًا ينقدحُ في أذهان كثير من الطلبة : ما هو حدُّ العلمِ الواجب ؟! وما هو المقدار المفروضُ تعلُّمُهُ على طُلَّاب العلم ؟!

ولعلَّ في كلام مُصنِّفنا - رحمه اللَّه - الجوابَ الشافي على هذا الإشكال الخافي .

لا يُشبَع من العلم

الوجهُ الثَّالثُ والثَّلاثون بعدَ المئة : ما رواهُ ابنُ حبَّان في « صحيحِهِ »[١] من حديثِ أبي هُريرَة يرفعُهُ إلى النَّبيِّ ﷺ قال : « سألَ موسى ربَّهُ عن ستِّ خصالٍ كانَ يظنُّ أنَّها له خالصَةٌ ، والسَّابعَةُ لم يكُن موسى يحبُّها ، قال : يا ربِّ ! أيُّ عبادِكَ أتقى ؟ قال : الذي يذكرُ ولا يَنسى، قال : فأيُّ عبادك أهدى ؟ قال : الذي يتَّبعُ الهُدى، قال : فأيُّ عبادكَ أحكَمُ ؟ قال : الذي يحكُمُ للنَّاسِ ما يحكُمُ لنفسهِ، قال : أيُّ عبادكَ أعلم ؟ قال : عالمٌ لا يَشبعُ من العلمِ ، يجمعُ علمَ النَّاسِ إلى علمهِ، قال : فأيُّ عبادكَ أعزُّ ؟ قال : الذي إذا قَدِرَ غفَرَ ، قال : فأيُّ عبادكَ أغنى ؟ قال : الذي يَرضى بما أُوتيَ، قال : فأيُّ عبادكَ أفقَرُ ؟ قال : صاحبٌ منقوصٌ[٢] ... » .

فأخبرَ في هذا الحديثِ أنَّ أعلمَ عبادهِ الذي لا يشبعُ من العلمِ ، فهو يجمعُ علمَ النَّاسِ إلى علمهِ لنهمتهِ في العلمِ ، وحرصهِ عليهِ .

ولا رَيبَ أنَّ كونَ العَبدِ أعظَمَ عبادِ اللَّهِ من أعظَمِ أوصافِ كمالهِ ، وهذا هو الذي حمَلَ موسى على الرِّحلَةِ إلى عالِمِ الأرضِ ليعلِّمَهُ ممَّا علَّمَهُ اللَّهُ[٣].

هذا وهو كليمُ الرَّحمن ، وأَكرمُ الخَلْقِ على اللَّهِ في زمانهِ ، وأعلمُ الخَلْقِ ، فَحَمَلَهُ حِرْصُهُ ونهمتُهُ في العلمِ على الرِّحلَةِ إلى العالِمِ الذي وُصِفَ

---

(١) (برقم : ٦٢١٧) .
وفي سنده عنده درّاج أبو السَّمح ، وهو صاحبُ مناكير ، وبقيّة رجالِه ثقات .
ونسبه السيوطيُّ في « الجامع الكبير » (٢ / ٥٣٩) للرُّويانيّ ، وابن المُقرئ ، وابن لال ، وابن عساكر .
وهو في « تاريخ الطبري » (١ / ٣٧١) - بسند ضعيف جدًّا - عن ابن عبَّاس موقوفًا .
(٢) أَي : « منقوصٌ حالتُه ، يستقلُّ ما أُوتي ، ويطلب الفضلَ » .
كذا شرحه ابنُ حِبَّان (١٤ / ١٠٢) .
(٣) كما في قصَّة النَّبيَّيْنِ الكَريمَيْنِ موسى والخضر المذكورة في سورة الكهف .

له ، فلولا أنَّ العلمَ أشرَفُ ما بُذِلَت فيهِ المُهَجُ وأُنفِقَت فيهِ الأنفاسُ لاشتغَلَ موسى عن الرِّحلَةِ إلى الخَضِرِ بما هو بصدَدِهِ من أمرِ الأُمَّةِ[1] وعن مُقاساةِ النَّصَبِ والتَّعَبِ في رحلتِهِ وتلطُّفِهِ للخَضِرِ في قوله : ﴿ هَل أَتَّبِعُكَ عَلَى أن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمتَ رُشدًا ﴾ [الكهف : ٦٦]، فلم يَرَ اتِّباعَهُ حتى استأذَنَهُ في ذلكَ وأخبَرَهُ أنَّهُ جاءَ مُتعلِّمًا مُستَفيدًا .

فهذا النَّبيُّ الكريمُ كانَ عالمًا بقَدْرِ العلمِ وأهلِهِ ، صلواتُ اللَّهِ وسلامُهُ عليهِ .

الوجهُ الرَّابعُ والثَّلاثون بعد المِئة : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ وتعالى خَلَقَ الخَلْقَ لعبادتِهِ الجامعَةِ لمحبَّتِهِ وإيثارِ مرضاتِهِ ، المُستلزمَةِ لمعرفتِهِ ، ونَصَبَ للعبادِ عِلْمًا لا كمالَ لهم إلّا بِهِ ؛ وهو أن تكونَ حركاتُهم كلُّها واقعةً على وَفْقِ مرضاتِهِ ومحبَّتِهِ ، ولذلكَ أرسَلَ رُسُلَهُ ، وأنزَلَ كتبَهُ ، وشرَعَ شرائعَهُ .

فكمالُ العَبدِ الذي لا كمالَ له إلّا بِهِ أن تكونَ حركاتُهُ مُوافقةً لِمَا يُحبُّهُ اللَّهُ منهُ ويَرضاهُ له ، ولهذا جَعَلَ اتِّباعَ رسولِهِ دليلًا على محبَّتِهِ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إنْ كُنتُم تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُم اللهُ ويَغفِرْ لكُم ذُنوبَكُم واللهُ غَفورٌ رَحيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فالمُحِبُّ الصَّادقُ يرى خيانَةً منه لمحبوبِهِ أَنْ يتحرَّكَ بحركَةٍ اختياريَّةٍ في غَيرِ مرضاتِهِ ، وإذا فَعَلَ فعلًا ممَّا أُبيحَ له بموجَبِ طبيعتِهِ وشهوتِهِ تابَ منه كما يتوبُ من الذَّنبِ .

ولا يزالُ هذا الأمرُ يَقوى عندهُ حتى تنقلبَ مُباحاتُهُ - عنده - كلُّها طاعاتٍ ، فيحتسبُ نومَهُ وفِطْرَهُ وراحتَهُ كما يحتَسِبُ قومَتَهُ وصومَهُ واجتهادَهُ ، وهو دائمًا بينَ سرَّاءَ يشكُرُ اللَّهَ عليها وضرَّاءَ يَصبرُ عليها ، فهو سائرٌ إلى اللَّهِ دائمًا

(١) فالعلمُ - حَسْبُ - هو الذي يَصْلُحُ به أَمْرُ الأُمّةِ ، فتأمَّلْ .

في نومِهِ ويقظتهِ .

قال بَعضُ العلماءِ : الأكياسُ عاداتهُم عباداتٌ ، والحَمقى عباداتهُم عاداتٌ .

وقال بعضُ السَّلفِ : حبّذا نومُ الأكياسِ وفِطْرُهم ، يَغْبِنونَ به سَهرَ الحمقى وصومَهم .

فالمُحِبُّ الصَّادقُ إنْ نَطَقَ نَطَقَ للَّهِ وباللَّهِ ، وإنْ سكَتَ سَكَتَ للَّهِ ، وإنْ تحرَّكَ فبأمرِ اللَّهِ ، وإنْ سكنَ فسكونُهُ استعانَةٌ على مَرْضاةِ اللَّهِ فهو للَّهِ وباللَّهِ ومعَ اللَّهِ .

ومعلومٌ أنَّ صاحبَ هذا المقامِ أحوَجُ خَلْقِ اللَّهِ إلى العلمِ ؛ فإنَّهُ لا تَتميَّزُ له الحَرَكَةُ المحبوبَةُ للَّهِ من غيرها ، ولا السُّكونُ المحبوبُ له من غيرهِ إلّا بالعلمِ ، فليسَتْ حاجتُهُ إلى العلمِ كحاجَةِ مَن طَلَبَ العلمَ لذاتِهِ ، ولأنَّهُ في نفسهِ صفَةُ كمالٍ ، بل حاجتُهُ إليهِ كحاجتِهِ إلى ما به قِوَامُ نَفسهِ وذاتِهِ ، ولهذا اشتدَّتْ وَصاةُ شيوخِ العارفينَ لِمُريديهم بالعلمِ وطلبهِ ، وأنَّهُ مَنْ لم يَطلبِ العلمَ لم يُفلح ، حتى كانوا يعدُّونَ مَنْ لا علمَ له مِنَ السِّفْلَةِ .

قال ذو النَّون وقد سُئلَ : مَنِ السِّفْلَةُ ؟ فقال : مَن لا يَعرف الطَّريقَ إلى اللَّهِ تعالى ولا يتعرَّفُهُ .

وقال أبو يَزيدَ(١): لو نَظَرتُم إلى الرَّجلِ وقد أُعطيَ من الكراماتِ حتى يتربَّعَ في الهواءِ فلا تَغترُّوا به حتى تَنظروا كيفَ تجدونهُ عندَ الأمرِ والنَّهيِ وحفظِ الحدُودِ ومعرفَةِ الشريعَة .

وقال أبو حَمزَة البزَّاز : مَن عَلِمَ طَريقَ الحقِّ سَهُلَ عليهِ سلوكُهُ ، ولا دَليلَ

---

(١) هو البِسْطاميُّ ؛ وفيه كلامٌ عقائديٌّ طويلٌ !!

على الطَّريقِ إلّا متابَعةُ الرَّسولِ في أقوالِهِ وأفعالِهِ وأحوالِهِ .

وقالَ محمَّد بن الفَضل الصُّوفي الزَّاهد : ذهابُ الإسلامِ على يَدي أربعَةِ أصنافٍ من النَّاسِ :صنفٌ لا يعملونَ بما يعلمون، وصنفٌ يعملونَ بما لا يعلمون، وصنفٌ لا يعملونَ ولا يعلمون، **وصنفٌ يمنعونَ النَّاسَ من التَّعلُّم**.

قلتُ : **الصِّنفُ الأوَّلُ** مَن له علمٌ بلا عملٍ ؛ فهو أضرُّ شيءٍ على العامَّةِ ؛ فإنَّهُ حُجَّةٌ لهم في كلِّ نَقيصَةٍ ومبْخَسَةٍ .

والصِّنفُ الثَّاني : العابدُ الجاهلُ ؛ فإنَّ النَّاسَ يُحَسِّنونَ الظَّنَّ به لعبادتِهِ وصلاحِهِ فيقتَدونَ بِهِ على جهلِهِ .

وهذانِ الصِّنفانِ هما اللذانِ ذكرهما بعضُ السَّلفِ في قوله : « احذَروا فتنةَ العالِمِ الفاجِرِ والعابدِ الجاهلِ، فإنَّ فتنتَهما فتنةٌ لكلِّ مفتونٍ[1]» ؛ فإنَّ النَّاسَ إنَّما يَقتَدونَ بعلمائهم وعُبَّادهم، فإذا كانَ العُلماءُ فجَرَةً والعُبَّادُ جَهَلَةً عمَّت المُصيبَةُ بهما وعظُمَت الفتنَةُ على الخاصَّةِ والعامَّةِ .

والصِّنفُ الثَّالثُ : الذينَ لا علمَ لهم ولا عَمَل ؛ وإنَّما هم كالأنعامِ السَّائمَة.

والصِّنفُ الرَّابعُ : نُوَّابُ إبليسَ في الأرضِ ؛ وهم الذينَ يُثبِّطونَ النَّاسَ عن طلبِ العلمِ والتَّفقُّهِ في الدِّينِ ؛ فهؤلاءِ أضرُّ عليهم من شياطينِ الجنِّ ؛ فإنَّهم يَحُولونَ بينَ القلوبِ وبينَ هُدى اللَّهِ وطريقِهِ .

فهؤلاءِ الأربعَةُ أصنافٍ هم الذينَ ذَكَرَهُم هذا العارفُ رحمةُ اللَّهِ عليهِ .

---

(١) رواه الآجُرّي في « أَخلاق العلماء » (٦٣) ونُعَيم بن حمَّاد في « زوائد الزُّهد » (٧٥) عن سفيان الثوري من قولِه .

وهؤلاءِ كلُّهم على شفا جُرُفٍ هارٍ ، وعلى سبيلِ الـهَلَكةِ، وما يَلْقى العالِمُ الدَّاعي إلى اللّهِ ورسولِهِ ما يلقاهُ من الأذى والمحارَبَةِ إلّا على أيديهم[١]، واللَّهُ يَستعملُ مَن يشاءُ في سخطِهِ كما يستَعملُ مَن يحبُّ في مرضاتِهِ ، إنَّهُ بعبادِهِ خبيرٌ بَصيرٌ .

ولا ينكشفُ سرُّ هذه الطَّوائفِ وطريقَتُهم إلّا بالعلمِ ، فعادَ الخَيرُ بحذافيرِهِ إلى العلمِ ومُوجبِهِ ، والشرُّ بحذافيرِهِ إلى الجهلِ ومُوجِبِهِ .

العُلَماء أُمناء الشرع

الوجهُ الـخامسُ والثَّلاثون بعد المِئة : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ جَعَلَ العلماءَ وُكلاءَ وأُمناءَ على دينهِ ووَحيِهِ ، وارتضاهم لحفظِهِ والقيامِ به والذَّبِّ عنه ، وناهيكَ بها منزَلَةً شريفَةً ومنقبَةً عظيمَةً، قال اللهُ تعالى: ﴿ **ذلكَ هُدى اللهِ يَهدي به مَن يشاءُ مِن عبادِهِ ولو أشرَكوا لَحَبِطَ عنهم ما كانوا يعملون أُولئكَ الذينَ آتيناهم الكتابَ والحُكْم والنُّبوَّةَ فإنْ يكفُرْ بها هؤلاءِ فقَد وكَّلْنا بها قوماً ليسوا بها بكافرينَ** ﴾ [الأنعام : ٨٨ - ٨٩] .

وقَد قيلَ : إنَّ هؤلاءِ القومَ هم الأنبياءُ ، وقيلَ : أصحابُ رسولُ اللّهِ ﷺ ، وقيل : كلُّ مؤمنٍ .

هذه أُمَّهاتُ الأقوالِ بعدَ أقوالٍ مُتفرّعةٍ عن هذه، كقولِ مَن قال : هُم الأنصار أو : المهاجرونَ والأنصارُ، أو : قومٌ من أبناءِ فارس، وقالَ آخرونَ : هم الملائكةُ[٢].

قالَ ابنُ جرير[٣]: وأولى هذه الأقوالِ بالصَّوابِ : أنَّهم الأنبياءُ الثَّمانيَةَ عشرَ

---

(١) وهكذا الشأْنُ في كُلِّ زمانٍ ومكان ، مِن أَهل البدعِ والبهْتان ، وأَذناب الحكمِ والسُّلطان !!

(٢) انظر « الدر المنثور » (٣ / ٣١٢) .

(٣) في « جامع البيان » (٧ / ٢٦٣) .

الذينَ سمَّاهُم في الآياتِ قبلَ هذه الآيَةِ .

قالَ : وذلكَ أنَّ الخبَرَ في الآياتِ قبلها عنهم مَضى، وفي التي بعدَها عنهم ذُكِرَ ، فما يليها بأنْ يكونَ خبرًا عنهم أَوْلى وأحقُّ بأن يكونَ خبَرًا عن غيرهم ، فالتَّأويلُ : فإنْ يَكفُرْ قومُكَ من قريشٍ يا محمَّدُ بآياتنا وكذَّبوا بها وجَحَدوا حَقيقتَها فقد استحفظْناها واسترعَيْنا القيامَ بها ، رُسُلَنا وأنبياءَنا من قبلكَ ؛ الذينَ لا يجحَدونَ حقيقتَها ولا يُكذِّبونَ بها، ولكنَّهم يُصدِّقونَ بها ويؤمنونَ بصحَّتها .

قلتُ : السُّورَة مكِّيَّةٌ ، والإشارَةُ بقولِه : ﴿ هؤلاءِ ﴾ إلى مَن كفرَ به من قومِهِ أصلًا ، ومَن عَداهم تَبَعًا ، فيدخُلُ فيها كلُّ مَن كفَرَ بما جاءَ به من هذه الأُمَّةِ ، والقومُ المُوكَّلونَ بها هم الأنبياءُ أصلًا ، والمؤمنونَ بهم تَبَعًا ، فيدخُلُ من قامَ بحفظها والذَّبِّ عنها والدَّعوَةِ إليها .

ولا ريبَ أنَّ هذا للأنبياءِ أصلًا وللمؤمنينَ بهم تَبَعًا ، وأحقُّ مَن دخَلَ فيهم مِن أَتْباعِ الرَّسولِ خُلَفاؤهُ في أُمَّتِهِ وورثَتُهُ ، فهم المُوكَّلونَ بها ، وهذا ينتظمُ الأقوالَ التي قيلت في الآيَة .

وأمَّا قولُ مَن قالَ : إنَّهُم الملائكَةُ ! فَضعيفٌ جدًّا لا يدُلُّ عليهِ السِّياقُ ، وتأباهُ لفظَةُ : ﴿ قوماً ﴾ ؛ إذ الغالبُ في القرآنِ - بل المُطَّرِدُ - تخصيصُ القومِ ببني آدمَ دونَ الملائكَةِ .

وأمَّا قولُ إبراهيمَ لهم : ﴿ قومٌ مُنكَرونَ ﴾ [الذاريات : ٢٥] ؛ فإنَّما قالهُ لمَّا ظنَّهُم منَ الإنسِ .

وأيضًا ؛ فلا يقتَضيهِ فخامَةُ المعنى ومقصودُهُ ، ولهذا لو ظهَرَ ذلكَ وقيلَ : (فإنْ يكفُر بها كُفَّارُ قومكَ فقَد وكَّلنا بها الملائكَة فإنَّهُم لا يكفرونَ بها) ؛ لم نَجِدْ منهُ من التَّسليَةِ وتحقيرِ شأنِ الكفَرَة بها وبيانِ عَدَمِ تأَهُّلهم لها والإنعامِ

عليهم وإيثارِ غيرهم من أهلِ الإيمانِ الذينَ سبقَت لهم الحُسنى عليهم ؛ لكونهم أحقَّ بها وأهلَها ، واللَّهُ أعلمُ حيثُ يَضَعُ هُداهُ ويختَصُّ به مَن يشاءُ .

وأيضًا ؛ فإنَّ تحتَ هذه الآيَةِ إشارَةً وبشارَةً بحفظها ، وأنَّهُ لا ضَيعَةَ عليها ، وأنَّ هؤلاءِ وإنْ ضيَّعوها ولم يقبلوها فإنَّ لها قومًا غيرهم يقبلونها ويحفظونها ويَرعَوْنَها ويذُبُّونَ عنها ، فَكُفْرُ هؤلاءِ بها لا يُضَيِّعُها ولا يُذهِبُها ولا يضُرُّها شيئًا ، فإنَّ لها أهلًا ومُستَحَقًّا سواهم .

فتأمَّلْ شَرَفَ هذا المعنى وجلالتَه وما تضمَّنَهُ من تحريضِ عبادِهِ المؤمنينَ على المبادَرَة إليها والمُسارَعةِ إلى قَبُولها ، وما تحتَهُ من تَنبيههم على محبَّتِهِ لهم وإيثارِهِ إيَّاهُم بهذه النِّعمَةِ على أعدائهِ الكافرينَ ، وما تحتَهُ من احتقارهم وازدرائهم وعدم المُبالاةِ والاحتفالِ بهم ، وإنَّكُم وإنْ لم تؤمنوا بها فعبادي المؤمنونَ بها المُوكَّلونَ بها سواكُم كثيرٌ ، كما قال تعالى : ﴿ قُل آمِنوا بهِ أوْ لا تُؤمنوا إنَّ الَّذينَ أُوتوا العلمَ مِن قبلهِ إذا يُتلى عليهم يَخِرُّونَ للأذقانِ سُجَّدًا ويقولونَ سبحانَ ربِّنا إنْ كانَ وعدُ ربِّنا لَمفعولًا ويَخِرُّونَ للأذقانِ يَبْكُونَ ويزيدُهم خُشوعًا ﴾ [الإسراء : ١٠٧ - ١٠٨]، وإذا كانَ للمَلِكِ عبيدٌ قَد عَصَوهُ وخالفوا أمرَهُ ولم يلتفتوا إلى عهدِهِ ولهُ عَبيدٌ آخرونَ سامعونَ لهُ مُطيعونَ قابلونَ مُستجيبونَ لأمرِهِ فنَظَرَ إليهم وقال : إنْ يَكفُرِ هؤلاءِ نِعْمَتي ويَعصُوا أمري ويُضيِّعوا عَهدي ، فإنَّ لي عَبيدًا سواهم وهم أنتُم تُطيعونَ أمري ، وتحفَظونَ عَهدي ، وتؤدُّونَ حقِّي ؛ فإنَّ عَبيدَهُ المُطيعينَ يجدونَ في أنفسِهم منَ الفَرَحِ والسُّرورِ والنَّشاطِ وقُوَّةِ العَزيمَةِ ما يكونُ مُوجِبًا لهم المزيدَ من القيامِ بحقِّ العُبوديَّةِ ، والمزيدَ من كرامَةِ سيِّدهم ومالكهم ، وهَذا أمرٌ يَشهَدُ بِهِ الحِسُّ والعِيَان .

وأمَّا توكيلُهم بها فهو يتضمَّنُ توفيقَهم للإيمانِ بها والقيامِ بحقوقها ومُراعاتها والذَّبِّ عنها والنَّصيحَةَ لها ، كما يُوكِّلُ الرَّجلُ غيرَهُ بالشيءِ ليقومَ بِهِ ويتعهَّدَهُ ويُحافظَ عليهِ ، و ﴿ بها ﴾ الأُولى مُتعلِّقَةٌ بـ ﴿ وكَّلْنا ﴾ ، و ﴿ بها ﴾ الثَّانيَة مُتَعَلِّقَةٌ بـ ﴿ بكافرينَ ﴾ ، والباءُ في ﴿ بكافرينَ ﴾ لتأكيدِ النَّفي .

فإن قلتَ : فَهل يَصِحُّ أن يُقالَ لأحدِ هؤلاءِ الموكَّلين أنَّهُ : وكيلُ اللَّهِ بهذا المعنى ، كما يقالُ : وليُّ اللَّهِ ؟

قلتُ : لا يَلزمُ من إطلاقِ فعلِ التوكُّلِ المُقيَّدِ بأمرٍ ما أنْ يُصاغَ منهُ اسمُ فاعلٍ مُطلَقٍ ، كما أنَّهُ لا يلزمُ من إطلاقِ فعلِ الاستخلافِ المُقيَّدِ أن يُقالَ : خليفَةُ اللَّهِ ؛ لقولِه : ﴿ ويَستَخْلِفَكُم في الأرضِ ﴾ [الأعراف : ١٢٩] ، وقولِه : ﴿ وعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنوا مِنكُم وعَملوا الصَّالحاتِ ليَستَخلِفَنَّهُم في الأرضِ كما استَخلَفَ الَّذينَ من قَبلهم ﴾ [النور : ٥٥] ، فلا يُوجِبُ هذا الاستخلافُ أَنْ يُقالَ لكلٍّ منهم : إنَّهُ خليفَةُ اللَّهِ ؛ لأنَّهُ استخلافٌ مقيَّدٌ .

ولمَّا قيلَ للصدِّيقِ : يا خَليفَةَ اللَّهِ ! قال : لستُ بخليفَةِ اللَّهِ ، ولكنِّي خَليفَةُ رسولِ اللَّهِ وحَسْبي ذلكَ[١]، ولكنْ يسوغُ أَنْ يُقال : هو وكيلٌ بذلكَ ؛ كما قال تعالى : ﴿ وكَّلْنا بها قومًا ﴾ [الأنعام : ٨٩] .

والمقصودُ أنَّ هذا التَّوكيلَ خاصٌّ بمَن قامَ بها علمًا وعملًا ، وجهادًا لأعدائها ، وذبًّا عنها ، ونفيًا لتحريفِ الغالينَ وانتحالِ المبطلينَ وتأويلِ الجاهلينَ .

وأيضًا ؛ فهو توكيلُ رَحمَةٍ وإحسانٍ وتوفيقٍ واختصاصٍ ، لا توكيلَ حاجَةٍ كما يُوكِّلُ الرَّجلُ مَنْ يتصرَّفُ عنه في غَيبتهِ لحاجَةٍ إليهِ .

---

(١) تقدّم تخريجُهُ .

ولهذا قال بعض السَّلَفِ : ﴿ فَقَد وَكَّلْنا بها قومًا ﴾ [الأنعام : ٨٩] : يقولُ : رَزَقْناها قومًا ، فلهذا لا يُقالُ لِمَن رُزِقَها ورُحِمَ بها : إِنَّهُ وكيلٌ للَّهِ ، وهذا بخلافِ اشتقاقِ وليِّ اللَّهِ من المُوالاةِ ؛ فإنَّها المحبَّةُ والقُرْبُ ، فكما يقالُ : عبدُاللَّه وحبيبُهُ ، يُقال : وليُّهُ ، واللَّهُ تعالى يُوالي عبدَهُ إحسانًا إليهِ وجبرًا له ورحمَةً ، بخلافِ المخلوقِ فإنَّهُ يوالي المخلوقَ لتعزُّزِهِ به وتكثُّرِهِ بموالاتِهِ ؛ لِذُلِّ العَبدِ وحاجتِهِ ، وأمَّا العَزيزُ الغنيُّ - سبحانه - فلا يُوالي أحَدًا من ذُلٍّ ولا حاجَةٍ، قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وقُلِ الحَمدُ للهِ الَّذي لَم يَتَّخِذْ ولَدًا ولَم يَكُن لهُ شريكٌ في المُلكِ ولَم يكُن لهُ وليٌّ منَ الذُّلِّ وكبِّرهُ تكبيرًا ﴾ [الإسراء : ١١١]، فلم يَنفِ الوليَّ نفيًا عامًّا مُطْلَقًا ، بل نَفى أن يكونَ لهُ وليٌّ من الذُّلِّ ، وأثبتَ في موضعٍ آخَرَ أنَّ لهُ أولياءَ بقولِه : ﴿ أَلَا إنَّ أولياءَ اللهِ لا خَوفٌ عليهم ولا هُم يَحزَنون ﴾ [يونس : ٦٢]، وقولِه : ﴿ الله وليُّ الَّذينَ آمَنوا ﴾ [البقرة : ٢٥٧]، فهذه مُوالاةُ رحمَةٍ وإحسانٍ وجبرٍ ، والموالاةُ المنفيَّةُ مُوالاةُ حاجَةٍ وذُلٍّ .

يُوضِّحُ هذا الوجهُ التَّالي :

العُلماء عُدول الأمَّة

الوجهُ السَّادسُ والثَّلاثون بعد المِئة : وهو ما رُوِيَ عن النَّبيِّ ﷺ من وُجوهٍ متعدِّدَةٍ أنَّهُ قالَ : « يحملُ هذا العلمَ مِن كلِّ خَلفٍ عُدولُهُ ؛ ينفونَ عنه تحريفَ الغالينَ ، وانتحالَ المبطلينَ ، وتأويلَ الجاهلينَ » : فهذا الحملُ المُشارُ إليهِ في هذا الحديثِ هو التَّوكُّلُ المذكورُ في الآيَةِ ، فأخبرَ ﷺ أنَّ العلمَ الذي جاءَ به يحملُهُ عُدولُ أُمَّتهِ من كلِّ خَلَفٍ ، حتى لا يَضيعَ ويَذهَبَ .

وهذا يتضمَّنُ تَعديلَهُ ﷺ لحمَلَةِ العلمِ الَّذي بُعِثَ به[1]، وهو المُشارُ إليهِ

---

(١) قارن بتعليقي على « الباعث الحثيث » (١ / ٢٨٣) للحافظ ابن كثير - بشرح العلّامة أحمد شاكر ، وتعليق شيخنا الألباني - .

في قولهِ : « هذا العلم » .

فكلُّ من حَمَلَ العلمَ المشارَ إليهِ لا بدَّ وأن يكونَ عَدلًا ، ولهذا اشتَهَرَ عند الأُمَّةِ عدالَةُ نَقَلَتهِ وحَمَلَتهِ اشتهارًا لا يقبلُ شكًّا ولا امتراءً .

ولا ريبَ أنَّ مَن عدَّلَهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ لا يُسْمَعُ فيهِ جَرحٌ ، فالأئمَّةُ الذينَ اشتَهروا عند الأُمَّةِ بنقلِ العلمِ النَّبويِّ وميراثهِ كلُّهُم عدولٌ بتَعديلِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، ولهذا لا يُقبلُ قَدحُ بَعضهم في بَعضٍ ، وهذا بخلافِ مَن اشتَهَرَ عندَ الأُمَّةِ جَرحُهُ والقَدحُ فيهِ كأئمَّةِ البدع ومَن جَرى مجراهم من المُتَّهَمين في الدِّينِ ؛ فإنَّهُم ليسوا عندَ الأُمَّةِ مِن حَمَلَةِ العلمِ .

فما حَمَلَ علمَ رسولِ اللَّهِ ﷺ إلّا عدلٌ ، ولكنْ قَد يُغْلَطُ في مُسمَّى العدالَةِ ، فَيُظَنُّ أنَّ المُرادَ بالعَدلِ مَن لا ذَنْبَ له ! وليسَ كذلك ، بل هو عدلٌ مُؤتَمَنٌ على الدِّينِ ، وإنْ كانَ منهُ ما يتوبُ إلى اللَّهِ منهُ ؛ فإنَّ هذا لا يُنافي العَدالَةَ كما لا ينافي الإيمانَ والولايَةَ .

□□□□□

١١ - فَصْلٌ

[تخريج حديث : « يحمل هذا العلْم .. »]

وهذا الحديثُ[١] لهُ طرقٌ عديدَةٌ :

- منها ما رواهُ ابنُ عديٍّ[٢] عن موسى بن إسماعيلَ بن موسى بنِ جَعفَرَ ، عَن أبيهِ ، عَن جدِّهِ جَعفَرَ بنِ محمَّدٍ ، عَن أبيهِ ، عن عليٍّ ، عن النَّبيِّ ﷺ .

- ومنها ما رواهُ العوَّامُ بن حَوشب ، عن شهرِ بنِ حَوشبٍ ، عَن مُعاذٍ ، عن النَّبيِّ ﷺ . ذكرهُ الخطيبُ[٣] وغيرهُ .

- ومنها ما رواهُ ابنُ عَديٍّ[٤] من حديثِ اللَّيْثِ بن سَعدٍ ، عَن يَزيدَ بنِ أبي حَبيبٍ ، عن سالمٍ ، عن ابنِ عُمرَ ، عن النَّبيِّ ﷺ .

- ومنها ما رواهُ محمَّدُ بن جَرِيرِ الطَّبري[٥] من حديثِ ابنِ أبي كريمَةَ، عن

---

(١) أيْ : « يحملُ هذا العلمَ .. » .

(٢) في « الكامل » (١ / ١٥٢) .
وفي سَنَدِه محمَّد بنِ الأشعث اتَّهمه ابنُ عدي (٦ / ٢٣٠٣) .

(٣) في « شرف أصحاب الحديث » (ص : ١١) .
وشهر بن حوشب مُضعَّفٌ، وروايتُهُ عن مُعاذٍ مُنقطعةٌ، كما في « جامع التحصيل » (ص ١٩٧).

(٤) في « الكامل » (١ / ١٥٢) و (٣ / ٩٠٢) .
وفي سَنَدِهِ خالد بن عَمْرو القُرَشيّ : كذَّابٌ .
واختُلِف عليه فيه ؛ فرواه البزّار (١٤٣) فجعله من مسند أَبي هُريرة !!

(٥) لم أَره في « تفسيرِه » ولا في « تاريخِه » ، فلعلَّه في « تهذيب الآثار » !
ولم أَره - أَيضًا - في القسم المطبوع منه ..
وأَخرجه الخطيبُ في « شرف أَصحاب الحديث » (٥٣) ، والعلائي في « بُغية الملتمس » =

مُعان بنِ رِفاعَةَ السَّلامي ، عن أبي عثمانَ النَّهْديّ ، عن أُسامَةَ بن زَيدٍ ، عَن النَّبي ﷺ .

- ومنها ما رواهُ حمَّادُ بن زَيْد ، عن بقيَّةَ بنِ الوَليدِ ، عن مُعان بن رِفاعَة ، عن إبراهيم بن عبدِالرَّحمن العُذْريّ ، قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ[1] .

قال الدَّارَقُطني[2]: حدَّثنا أحمَدُ بن الحسنِ : حدَّثنا هاشمُ بن القاسمِ : حدَّثنا مُثنّى بنُ بكرٍ ومُبَشِّرٌ وغيرُهما من أهلِ العلمِ ، كلُّهم يقولونَ : حدَّثنا مُعان ابن رِفاعَةَ ، عن إبراهيمَ بن عبدالرَّحمن ، عن النَّبيِّ ﷺ .

يَعني أنَّ المحفوظَ من هذا الطَّريقِ مرسلٌ ؛ لأنَّ إبراهيمَ هذا لا صُحبَةَ لهُ .

وقالَ الخلّالُ في كتاب « العِلَل » : قرأتُ على زُهَيرِ بن صالحِ بن أحمدَ : حدَّثنا مُهنَّا ، قال : سألتُ أحمدَ عن حديثِ مُعان بن رِفاعَةَ ، عن إبراهيمَ بن

= (ص ٣٤) .

وحسَّنهُ العلائيُّ بقولِه : « وهذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ صحيحٌ » .

وابنُ أَبي كريمة اسمه محمَّد بن سَلْمان ضعَّفه أَبو حاتم ، كما في « الجرح والتعديل » (٧ / ٢٦٨) .

ومُعان بن رِفاعة : ليِّن الحديث .

(١) رواه ابنُ أَبي حاتم في « تقدمة الجرْح والتعديل » (٢ / ١٧) ، وابنُ عديّ في « الكامل » (١ / ١٥٣) ، والبيهقي (١٠ / ٢٠٩) ، والعُقيلي في « الضُّعفاء » (١ / ٩) و (٤ / ٢٥٩) .

وفي سنده بقيَّة وهو مدلِّس ، ومُعان ليِّن - كما تقدَّم - .

وقد تابعه الوليد بن مسلم ، فقال : حدَّثنا إبراهيم العُذْري : حدَّثنا الثقةُ من أَشياخنا .

رواه ابنُ عدي (١ / ٦٥٣) ، والبيهقي (١٠ / ٢٠٩) .

(٢) انظر « محاسن الاصطلاح » (ص ٢١٩) للبُلقيني .

عبدالرَّحمن العُذْري قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « يحملُ هذا العلمَ مِن كلِّ خَلفٍ عُدولُهُ ؛ ينفونَ عنه تَحريفَ الغالينَ ، وانتحالَ المُبطلينَ ، وتأويلَ الجاهلين » ؟ فقلتُ لأحمَدَ : كأنَّهُ موضوعٌ ! قال : لا ، هو صحيحٌ ، فقلتُ : ممَّن سمعتَهُ أنتَ ؟ فقال : من غيرِ واحدٍ، قلتُ : مَن هم ؟ قال : حدَّثني بِهِ مسكينٌ ، إلّا أنَّهُ يقولُ : عن مُعان ، عن القاسمِ بن عبدالرَّحمن، قال أحمد : ومُعان بن رفاعَةَ لا بأسَ به[١].

- ومنها ما رواهُ أبو صالحٍ : حدَّثنا الليثُ بن سَعدٍ، عن يَحيى بن سَعيدٍ ، عن سعيدِ بن المُسيِّب ، عن عبدِاللَّهِ بن مَسعودٍ ، قال : سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول : « يرثُ هذا العلمَ من كلِّ خَلفٍ عُدولُهُ »[٢].

- ومنها ما رواهُ أبو أحمَدَ بن عَديّ[٣] من حديثِ رُزَيْقِ بن عبداللَّهِ الأَلْهاني، عن القاسمِ بن عبدالرَّحمن، عن أبي أُمامَةَ الباهلي، قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ .

رواهُ عنه بقيَّة .

- ومنها ما رواهُ ابنُ عديّ[٤] أيضًا من طريقِ مروانَ الْفَزاري، عن يزيدَ بن

---

(١) رواه - من طريق الخلّال - الخطيب في « شرف أَصحاب الحديث » (٥٦) ، والعلائيّ في « بغية الملتمس » (ص ٣٥) .

(٢) رواه الخطيب في « الشَّرف » (٥٤) .

وفيه أَحمد بن يحيى بن زُكَير ، قال الدارقطني : ليس بشيء ؛ كما في « اللسان » (١ / ٣٢٣) ، وأَبو صالحٍ كاتبُ الليثِ فيه كلامٌ !

(٣) في « الكامل » (١ / ١٥٣) .

ورواه العُقيلي (١ / ٩) .

وفيه محمَّد بن عبدالعزيز الرَّمْلي ، وهو ضعيفٌ .

وبقيةُ مدلِّسٌ .

(٤) (١ / ١٥٢) .

=

كيسانَ ، عَن أبي حازمٍ ، عن أبي هُرَيرَة ، قال : قال رسولُ اللّهِ ﷺ .

ومنها ما رواهُ تمَّامٌ في « فوائده »[١] من حَديثِ الليثِ ، عَن يَزيدَ بن أبي حَبيبٍ ، عن أبي الخَيرِ ، عن أبي قَبيلٍ ، عَن عبداللّهِ بن عَمرو وأبي هُرَيرَةَ .

رواهُ عنهُ خالدُ بن عَمرو .

ومنها ما رواهُ القاضي إسماعيلُ[٢] من حديثِ عليِّ بن مسلم البَلَويّ ، عن أبي صالحِ الأشعَريّ ، عن أبي هرَيرَةَ ، عن النَّبيِّ ﷺ[٣] .

بقاءُ العلم بقاء الدين والدنيا

الوجهُ السَّابعُ والثَّلاثون بعد المِئة : إنَّ بقاءَ الدِّينِ والدُّنيا في بقاءِ العلمِ ، وبذهابِ العلمِ تَذهبُ الدُّنيا والدِّين ، فقوامُ الدِّينِ والدُّنيا إنَّما هو بالعلمِ ، قال الأوزاعيُّ : قال ابنُ شهابٍ الزُّهريّ : الاعتصامُ بالسُّنَّةِ نجاةٌ ، والعلمُ يُقبَضُ قبضًا سريعًا ، فنَعْشُ العلمِ ثباتُ الدِّينِ والدُّنيا ، وذهابُ العلمِ ذهابُ ذلكَ كلِّهِ[٤] .

= وأَبو حازم عن أَبي هُريرة منقطعٌ ، كما في « جامع التحصيل » (ص ١٨٧) للعلائي .

(١) لم أَرَه - بهذا الإِسناد - في « ترتيبه » المسمَّى « الروض البسَّام » .

نعم ؛ هو فيه (برقم ٨٠) بإِسناده إِلى ابن عُمَرَ - كما سبقَ - .

ورواه - هكذا - البزَّار في « مسنده » (١٤٣ - زوائده) والعُقيلي في « الضُّعفاء » (١ / ٩ - ١٠) ، و ابن عبدالبرّ في « التمهيد » (١ / ٥٩) .

وخالد بن عَمْرو متروكٌ كذَّابٌ .

(٢) ورواه - أَيضًا - ابنُ عديّ (١ / ١٥٣) ، والخطيبُ (٥٢) .

وفي سنده مَسْلَمة بن عليّ : متروكٌ ، وكذا عبدالرحمٰن بن يزيدَ السُّلَمي .

(٣) وخلاصةُ القول في هذا الحديث - إِنْ شاء اللّه - أَنَّه حَسَنٌ لغيره ؛ لأَنَّ عددًا من طرقهِ خالٍ من الضعف الشديد ، فمثلُها بالتعدُّدِ تجبُرُ الضَّعْفَ .

ولي في تخريجه جزءٌ مُفْرَدٌ فيه زيادة كثيرةٌ عمَّا أَوردتُه هنا ، كما سبقت الإِشارةُ إِليه في أَوائل الكتابِ .

(٤) رواه ابن المبارك في « الزهد » (٨١٧) ، وابنُ عبدالبرّ في « الجامع » (١٠١٨) .

وقال ابنُ وَهبٍ : أخبَرَني يَزيدُ ، عن ابنِ شهابٍ قال : بَلَغَنا عن رجالٍ من أهلِ العلمِ أنَّهم كانوا يقولونَ : الاعتصامُ بالسُّنَّةِ نجاةٌ ، والعلمُ يُقْبَضُ قبضًا سريعًا ، فَنَعْشُ العلمِ ثباتُ الدِّينِ والدُّنيا ، وذهابُ العلمِ ذهابُ ذلكَ كلِّهِ .

العلم رِفعةٌ لصاحبِهِ

الوجهُ الثَّامنُ والثَّلاثون بعد المِئة : أنَّ العلمَ يَرفَعُ صاحبَهُ في الدُّنيا والآخرَةِ ما لا يَرفعُهُ المُلْكُ ولا المالُ ولا غيرُهما ، فالعلمُ يَزيدُ الشريفَ شرفًا ويَرفعُ العبدَ المملوكَ حتى يُجْلِسَهُ مجالسَ الملوكِ، كما ثَبَتَ في « الصَّحيح »(١) من حديث الزُّهري ، عن أبي الطُّفَيل ، أنَّ نافعَ بن عبدالحارث أتى عُمرَ بن الخطَّاب بِعُسْفانَ - وكان عُمَرُ استعملَهُ على أهلِ مكَّةَ - فقال له عُمَرُ : مَن استخلفتَ على أهلِ الوادي ؟ قال : استخلفتُ عليهم ابنَ أبزى، فقال : مَن ابنُ أبزى ؟ فقال : رجلٌ مِن موالينا، فقال عمر : استخلفتَ عليهم مولىً ؟ فقال : إنَّهُ قارِئٌ لكتابِ اللّهِ عالمٌ بالفرائضِ، فقال عمر : أمَا إنَّ نبيَّكم ﷺ قد قال : « إنَّ اللَّهَ يَرفعُ بهذا الكتابِ أقوامًا ويَضعُ به آخَرينَ » .

قال أبو العاليَةِ : كنتُ آتي ابنَ عبَّاسٍ وهو على سريرِهِ وحولَهُ قريشٌ فيأخذُ بيدي ، فَيُجلِسُني مَعَهُ على السَّرير فتغامزَ بي قريشٌ ، ففطنَ لهم ابن عبَّاس فقال : كذا هذا العلمُ ، يَزيدُ الشَّريفَ شرفًا ويُجلِسُ المملوكَ على الأَسِرَّةِ .

وقال إبراهيمُ الحربيّ : كانَ عطاءُ بن أَبي رباحٍ عَبدًا أسوَدَ لامرأَةٍ من أَهل مكَّةَ ، وكانَ أنفُهُ كأنَّهُ باقِلَّاءُ، قال : وجاءَ سليمانُ بن عبدالملكِ أميرُ المؤمنينَ إلى عطاءٍ هو وابناهُ ، فجلسوا إليهِ وهو يُصلِّي ، فلمَّا صلَّى انفتَلَ إليهم ، فما زالوا يسألونهُ عن مناسكِ الحجِّ وقد حوَّلَ قفاهُ إليهم ، ثمَّ قال سُليمانُ لابنَيهِ :

---

(١) « صحيح مسلم » (٨١٧) .

قُومَا ، فقاما ، فقال : يا بَنِيَّ ! لا تَنِيا في طَلَبِ العلمِ فإنِّي لا أنسى ذُلّنا بينَ يَدي هذا العَبدِ الأسودِ .

قال الحربيُّ : وكانَ محمَّدُ بن عبدالرَّحمنِ الأَوْقَصُ[1] عُنُقُهُ داخلٌ في بدنهِ ، وكان منكباهُ خارجَيْنِ كأنَّهُما زُجّان[2] .

فقالت له أُمُّهُ : يا بُنيَّ لا تكونُ في مجلسِ قومٍ إلّا كنتَ المضحوكَ منهُ المسخورَ بهِ ، فعليكَ بطلبِ العلمِ ؛ فإنَّهُ يَرفعُكَ ، فوَلِيَ قضاءَ مكَّةَ عشرينَ سنةً .

قال : وكانَ الخصمُ إذا جلسَ إليهِ بين يَديهِ يرعُدُ حتى يقومَ .

قال : ومرَّت بهِ امرأةٌ يومًا وهو يقول : اللهمَّ أَعتِقْ رَقَبتي من النَّارِ، فقالت له : يا ابنَ أخي وأيُّ رقبةٍ لكَ ؟!

وقال يَحيى بنُ أكثَمَ : قال الرشيدُ : ما أنبلُ المراتبِ ؟ قلتُ : ما أنتَ فيه يا أميرَ المؤمنين، قال : فتعرفُ أجلَّ منِّي ؟ قلتُ : لا، قال : لكنِّي أعرفُهُ ؛ رجلٌ في حَلْقَةٍ يقول : حدَّثنا فلانٌ عن فلانٍ عَن رسولِ اللَّهِ ﷺ ، قال : قلتُ : يا أميرَ المؤمنينَ أهذا خَيرٌ منكَ وأنتَ ابنُ عمِّ رسولِ اللَّهِ ﷺ ووليُّ عَهد المؤمنينَ ؟ قال : نعم ، ويلَكَ ، هذا خَيرٌ منِّي ، لأنَّ اسمَهُ مقترَنٌ باسمِ رسولِ اللَّهِ ، لا يموتُ أبدًا ، ونحنُ نموتُ ونفنى والعلماءُ باقونَ الدَّهرَ[3] .

وقال خيثَمَةُ بن سُليمانُ : سمعتُ ابنَ أبي الخناجر[1] يقول : كنَّا في مجلسِ يزيدَ بن هارون والنَّاسُ قَد اجتَمعوا إليهِ ، فمرَّ أميرُ المؤمنينَ فوقَفَ علينا

---

(١) انظر ما سبق في المقدّمة (ص ٨٩) .

(٢) قال في « القاموس المحيط » (ص ٢٤٤) : « الزُّجّ - بالضمّ - : طَرَف المِرفَق ، والحديدةُ في أَسفل الرمح » .

وهذا إشارةٌ إلى ضَعْفِهِ ، وقِصَر عُنُقِه .

(٣) « شرف أَصحاب الحديث » (ص ٩٩) .

في المجلس ، وفي المجلس أُلوفٌ فالتَفَتَ إلى أصحابِهِ ، وقال : **هذا المُلْكُ** .

وفي « تاريخ بغداد »(١) للخَطيب : حدَّثني أبو النَّجيب عبدُالغفَّار بنُ عبدالواحدِ قال : سمعتُ الحَسَن بن علي المُقرِي يقول : سمعتُ أبا الحُسَين ابن فارسٍ يقول : سمعتُ الأستاذَ ابنَ العَميد يقول : ما كنتُ أظنُّ أنَّ في الدُّنيا حلاوَةً ألذَّ من الرِّياسَةِ والوزارَةِ التي أنا فيها ، حتى شهدتُ مُذاكرَة سُليمان بن أيُّوب بن أحمد الطَّبراني وأبي بكرٍ الجِعَابِيِّ بحضرتي ، فكانَ الطَّبرانيُّ يغلبُ بكثرَةِ حفظِهِ ، وكانَ الجِعَابِيُّ يغلبُ الطَّبرانيَّ بفطنتِهِ وذكاءِ أهلِ بَغدادَ ، حتى ارتفعَتْ أصواتُهما ولا يكادُ أحدُهما يغلبُ صاحبَهُ ، فقال الجِعَابِيُّ : عندي حديثٌ ليسَ في الدُّنيا إلَّا عندي ، فقال : هاتِهِ ؟ فقال : حدَّثنا أبو خَليفةَ : حَدَّثنا سليمانُ بن أيُّوبَ ، وحدَّثَ بالحديثِ ، فقال الطَّبراني : أَنا سليمانُ بن أيُّوب ومنِّي سمعَ أبو خليفَةَ ، فاسْمَعْ منِّي حتى يَعلو إسنادُكَ ، فإنَّكَ تَروي عن أبي خَليفَةَ عنِّي ، فَخَجِلَ الجِعَابيُّ وغَلَبَهُ الطَّبراني .

قال ابنُ العَميد : فوَدِدْتُ في مكاني أنَّ الوزارَةَ والرِّياسَةَ ليتَها لم تكُن لي وكنتُ الطَّبرانيَّ ، وفَرِحتُ مثلَ الفَرَحِ الذي فَرِحَ به الطَّبراني لأجلِ الحديثِ .

أو كما قال .

وقال المُزَني : سمعتُ الشافعيَّ يقول : مَن تعلَّمَ القرآنَ عظُمَت قيمتُهُ ، ومَن نَظَرَ في الفقهِ نَبُلَ مِقدارُهُ ، ومن تعلَّمَ اللغَةَ رقَّ طبعُهُ ، ومَن تعلَّمَ الحسابَ جزلَ رأيُهُ ، **ومَن كتبَ الحديثَ قويت حُجَّتُهُ** ، ومَن لم يَصُن نفسَهُ لم ينفعْهُ علمُهُ .

وقَد رُوِيَ هذا الكلامُ عن الشافعي من وجوهٍ متعدِّدَةٍ .

---

(١) وعنه الذهبيُّ في « سير أعلام النبلاء » (١٦ / ١٢٤) .

وقال سفيانُ الثَّوريُّ : من أرادَ الدُّنيا والآخرَةَ فعليهِ بطلبِ العلمِ .

وقال عبدُاللَّهِ بنُ داودَ : سمعتُ سفيانَ الثَّوري يقول : إنَّ هذا الحديثَ عِزٌّ ، فمَن أَرادَ بهِ الدُّنيا وجَدَها ، ومَن أرادَ به الآخرَةَ وجَدها .

وقالَ النَّضرُ بنُ شُمَيلٍ : مَن أرادَ أن يشرُفَ في الدُّنيا والآخرَة فلْيتعلَّم العلمَ، وكفى بالمرءِ سعادَةً أن يُوثَقَ به في دينِ اللَّهِ، ويكونَ بينَ اللَّهِ وبينَ عبادهِ .

وقال حمزَةُ بن سعيدٍ المصريُّ : لمَّا حَدَّثَ أبو مُسلمٍ اللَّخْميُّ أوَّلَ يومٍ حدَّثَ قال لابنهِ : كم فَضَلَ عندنا من أثمانِ غَلَّاتنا ؟ قال : ثلاثمائَة دينارٍ، قال : فرِّقْها على أصحابِ الحديث والفقراءِ شكرًا أنَّ أباكَ اليومَ شهدَ على رسولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقُبِلَتْ شهادتُهُ .

وفي كتابِ « الجليس والأنيس »[1] لأبي الفَرجِ المعافى بن زكريَّا الجَريري : حدَّثنا محمَّد بن الحُسين بن دُريدٍ : حدَّثنا أبو حاتم ، عن العُتْبي ، عن أبيهِ ، قال : ابْتَنى مُعاويَةُ بالأبطح مجلسًا ، فجلَسَ عليهِ ومعهُ ابنُهُ قَرَظَةُ ، فإذا هو بجماعَةٍ على رِحَالٍ لهم ، وإذا شابٌّ منهم قَد رَفَعَ عقيرتَهُ يتغنَّى :

مَن يُساجِلْني يُساجِلْ ماجدًا يملإِ الدَّلْوَ إلى عَقدِ الكُرَب

قال : من هذا ؟ قال : عبدُاللَّهِ بن جعفَر ، قال : خلُّوا له الطَّريقَ .

ثمَّ إذا هو بجماعَةٍ فيهم غلامٌ يتغنَّى :

بينما يذكُرنَني أبصَرْنَني عندَ قِيدِ المِيلِ يَسعى بي الأغَرّ
قُلنَ تَعرِفنَ الفتى قُلنَ نَعَم قَد عَرَفناهُ وهَل يَخفى القَمَر

قالَ : مَن هذا ؟ قالوا : عمرُ بن أبي ربيعةَ، قال : خلُّوا له الطَّريقَ فلْيَذهَب .

قال : ثمَّ إذا هو بجماعَةٍ، وإذا فيهم رجلٌ يُسأَلُ ، فيُقالُ لهُ : رَميتُ قبلَ أن

---

(١) « الجليس الصالح الكافي » و « الأَنيس الناصح الشافي » (٣ / ١٨١) وانظر « الأَمالي » (٢ / ٦٥) للقالي ، و « ديوان عمر بن أَبي ربيعة » (١٧٤) .

أحلِقَ ؟ وحلقتُ قبلَ أن أرمي ؟ في أشياءَ أَشْكَلَتْ عليهم من مناسكِ الحجِّ ، فقال : مَن هذا ؟ قالوا : عبدُاللَّهِ بن عمر ، فالتفَتَ إلى ابنهِ قَرَظَةَ ، وقال : هذا وأبيكَ[1] الشرَفُ ، هذا واللَّهِ شرفُ الدُّنيا والآخرة .

وقال سُفيان بن عُيَينَة : أرفعُ النَّاسِ منزلَةً عندَاللَّهِ مَن كانَ بينَ اللَّهِ وبينَ عبادهِ ، وهم الأنبياءُ والعلماءُ .

وقالَ سَهلٌ التُّسْتَري : مَن أرادَ أن ينظرَ إلى مجالسِ الأنبياءِ فلْينظر إلى مجالس العلماءِ ، يجيءُ الرَّجلُ فيقول : يا فلان أَيْشٍ تقولُ في رجلٍ حَلَفَ على امرأتهِ بكذا وكذا ؟ فيقولُ : طُلِقَتِ امرأتُهُ ، ويجيءُ آخرُ فيقول : حَلَفتُ بكذا وكذا ! فيقولُ : ليسَ يحنَثُ بهذا القولِ ، وليسَ هذا إلّا لنبيٍّ أو عالمٍ ، فاعرِفوا لهم ذلك .

العلمُ يُعِزُّ صاحبَه

الوجهُ التَّاسعُ والثَّلاثون بعد المِئة : إنَّ النُّفوسَ الجاهلَةَ التي لا علمَ عندَها قَد أُلْبِسَتْ ثوبَ الذلِّ والإزراءُ عليها والتنقُّصُ بها أسرعُ منه إلى غيرها .

وهذا أمرٌ معلومٌ عندَ الخاصِّ والعامِّ ؛ قال الأعمَش : إنِّي لأرى الشيخَ لا يَروي شيئًا من الحديثِ فأَشتَهي أن أَلطُمَهُ .

وقال أَبو مُعاويَةُ : سمعتُ الأعمشَ يقولُ : مَن لم يطلبِ الحديثَ أَشتَهي أن أصفعَهُ بنعلي .

وقال عَثَّامُ بن عليٍّ : سمعتُ الأعمشَ يقول : إذا رأيتَ الشيخَ لم يقرأ القرآنَ ولم يكتبِ الحديثَ فاصفَع له فإنَّهُ من شيوخِ القَمْراءِ .

---

(١) وهذا مِن الحَلِفِ بغير اللَّهِ !

وفي سند الخبَر العُتْبيُّ الأخباريُّ المشهورُ ، وفي ترجمتِه ما يُفيد عدمَ ثقتِه ، فانظر « السِّير » (١١ / ٩٦) و « الوافي بالوَفَيات » (٤ / ٣) .

قال أبو صالح : قلتُ لأبي جَعفَرَ : ما شيوخُ القَمْراء ؟ قال : شيوخٌ دهريُّونَ يجتمعونَ في ليالي القَمر يتذاكرون أيَّام النَّاسِ ، ولا يُحْسِنُ أحدُهم أن يتوضَّأ للصَّلاة[١] .

وكان سفيانُ الثَّوريُّ إِذا رأى الشيخَ لم يكتب الحديثَ قال : لا جزاكَ اللَّهُ خيرًا عن الإِسلام !

وقال المُزَني : كان الشافعي إذا رأى شيخًا سألَهُ عن الحديث والفقهِ ؟ فإنْ كانَ عندَهُ شيءٌ ، وإلّا قالَ له : لا جزاكَ اللَّهُ خَيرًا عن نفسِكَ ولا عَن الإسلامِ ، قَد ضيَّعتَ نفسَكَ وضيَّعتَ الإسلامَ .

وكانَ بعضُ خُلَفاء بني العبَّاسِ يلعبُ بالشِّطْرنج[٢]، فاستأذَنَ عليه عمُّهُ، فأذِنَ لهُ وغطَّى الرُّقعَةَ، فلمَّا جَلَسَ قال له : يا عمّ هل قرأتَ القرآن ؟ قال : لا، قال : فهل كَتَبتَ شيئًا من السُّنَّة ؟ قال : لا، قال : فَهَل نظرتَ في الفقهِ واختلافِ النَّاسِ ؟ قال : لا، قال : فَهَل نَظَرتَ في العربيَّةِ وأيام النَّاس ؟ قال : لا، فقال الخليفَةُ : اكشِف الرُّقعَة، ثمَّ أتمَّ اللعبَ، وزالَ احتشامُهُ وحياؤهُ منه، فقال له مُلاعِبُهُ : يا أميرَ المؤمنينَ تكشفُها ومعنا مَن تحتشمُ منه ؟ قال : اسكُت فما معنا أحدٌ !!

وهذا لأنَّ الإنسانَ إنَّما يتميَّزُ عن سائرِ الحيوانِ بما خُصَّ بهِ من العلمِ والعَقلِ والفَهمِ ، فإذا عَدِمَ ذلكَ لم يَبْقَ فيهِ إلّا القَدْرُ المشتركُ بينهُ وبينَ سائرِ الحيوانات ، وهو الحيوانيَّةُ البَهيميَّةُ ، ومثلُ هذا لا يَستَحي منهُ النَّاسُ ولا يمنعونَ بحضرتهِ وشهودهِ ممَّا يُسْتَحْيىٰ منهُ من أُولي الفَضلِ والعلمِ .

الوجهُ الأربعون بعد المئة : أنَّ كلَّ صاحبِ بضاعَةٍ سوى العلم إذا عَلِمَ أنَّ

---

(١) وقد رأينا منهم الكثيرين !!

(٢) لشيخ الإسلام ابن تيميّة « قاعدةٌ في تحريم الشِّطْرنج » ، وهي مطبوعةٌ .

غَيرَ بضاعتِهِ خيرٌ منها زَهَدَ في بضاعتِهِ ورَغِبَ في الأُخرى ووَدَّ أنَّها له عِوَضَ بضاعتِهِ إلّا صاحبَ بضاعَةِ العلمِ ؛ فإنَّهُ ليسَ يحبُّ أنَّ له بحظِّهِ منها حظٌّ[1] أصلًا .

قال أبو جَعفَر الطحاويُّ : كنتُ عندَ أحمَدَ بن أبي عِمْرانَ فمرَّ بنا رجلٌ من بني الدُّنيا ، فَنَظرتُ إليهِ وشُغِلتُ به عمَّا كنتُ فيه من المذاكرَةِ ، فقال لي : كأنِّي بك قَد فكَّرتَ فيما أُعطِي هذا الرَّجلُ من الدُّنيا ؟! قلتُ لهُ : نَعم، قال : هَل أدلُّكَ على خَلَّةٍ ؟ هل لكَ أن يحَوِّلَ اللَّهُ إليكَ ما عندَهُ من المالِ ويُحَوِّلَ إليهِ ما عندكَ من العلمِ فتَعيشَ أنتَ غنيًّا جاهلًا ويَعيشَ هو عالمًا فقيرًا ؟! فقلتُ : ما أختارُ أن يُحوِّلَ اللَّهُ ما عندي من العلمِ إلى ما عندَهُ ، فالعلمُ غنىً بلا مالٍ ، وعزٌّ بلا عَشيرَةٍ ، وسلطانٌ بلا رجالٍ .

وفي ذلكَ قيل :

العـلمُ كَنزٌ وذُخْـرٌ لا نَفـادَ لهُ ... نِعْمَ القَرينُ إذا ما صاحِبٌ صُحِبا
قَد يَجمَعُ المرءُ مالًا ثمَّ يُحْرَمُهُ ... عمَّـا قليـلٍ فَيلْقىٰ الذُّلَّ والحَرَبا
وجـامعُ العِـلمِ مَغْبوطٌ بهِ أبـدًا ... ولا يُحـاذِرُ منهُ الفَـوْتَ والسَّلَبا
يا جامِعَ العِلمِ نِعْمَ الذُّخرِ تجمعُهُ ... لا تَعـدِلَنَّ بـهِ دُرًّا ولا ذَهـبا

الوجهُ الحادي والأربعون بعد المِئة : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ أخبرَ أنَّهُ يجزي المُحسنين أجرَهُم بأحسَنِ ما كانوا يعملونَ . العِلمُ مِن أَحسنِ الجزاءِ

وأخبرَ سبحانهُ أنَّهُ يجزي على الإحسانِ بالعلمِ ، وهذا يدُلُّ على أنَّهُ مِن أحسَنِ الجزاءِ :

---

(١) كذا ، والجادَّة : حظًّا .

ووقع النصُّ في النُّسخة البغدادية : « أنَّ كُلَّ صاحب بضاعة يخافُ عليها أنْ يلحقها خَطَرٌ سوى العلمِ ؛ فإنَّ صاحِبَه لا يُتَوَقَّعُ منه خَطَرٌ أَصلًا » .

أمَّا المقامُ الأوَّل : ففي قولِه تعالى : ﴿ والَّذي جاءَ بالصِّدقِ وصدَّقَ به أولئكَ هم المُتَّقون لهم ما يشاؤونَ عندَ ربِّهم ذلكَ جزاءُ المُحسنين لِيُكفِّرَ اللَّهُ عنهُم أسوأَ الَّذي عملوا ويَجزيَهُم أجرَهُم بأحسَنِ الَّذي كانوا يعملون ﴾ [الزمر : ٣٣ - ٣٥]، وهذا يتناول الجزاءَين الدُّنيَوِيَّ والأُخرَوِيَّ .

وأمَّا المقامُ الثَّاني : ففي قولِهِ تعالى : ﴿ ولمَّا بَلَغَ أشدَّهُ آتيناهُ حُكماً وعِلماً وكذلكَ نَجزي المُحسنين ﴾ [يوسف : ٢٢] .

قال الحسَنُ : مَن أحسَنَ عبادَةَ اللَّهِ في شبيبتِهِ لَقَّاهُ اللَّهُ الحكمَةَ عندَ كِبَرِ سنِّهِ ، وذلك قولُه : ﴿ ولَمّا بَلَغَ أشُدَّهُ آتيناهُ حُكماً وعلماً وكذلكَ نَجزي المُحسنين ﴾ [يوسف : ٢٢] .

ومن هذا قولُ بَعض العلماءِ : تقولُ الحكمَةُ : مَن التمَسني فلم يَجدْني فلْيَعمَلْ بأحسَنِ ما يعلمُ ، ولْيتركْ أقبحَ ما يعلمُ ، فإذا فَعَلَ ذلكَ فأنا معهُ وإنْ لم يَعرفْني .

الوجهُ الثَّاني والأربعون بعد المِئة : أَنَّ اللَّهَ سبحانهُ جَعَلَ العلمَ للقلوبِ كالمَطَرِ للأرضِ ، فكما أنَّهُ لا حياةَ للأرضِ إلّا بالمَطَرِ ، فكذلكَ لا حياةَ للقَلبِ إلّا بالعلمِ . بين العلم والدعوة ب

وفي « الموطَّأ »(١): قال لُقمانُ لابنِهِ : يا بُنَيَّ جالسِ العلماءَ وزاحِمْهم بركبتيكَ ؛ فإنَّ اللَّهَ تعالى يُحيي القلوبَ المَيْتَةَ بنورِ الحكمَةِ كما يُحيي الأرضَ بوابلِ المَطَر .

ولهذا ؛ فإنَّ الأرضَ إنَّما تحتاجُ إلى المَطَرِ في بَعضِ الأوقاتِ ، فإذا تتابعَ

---

(١) (٢ / ٩٩٠) .

عليها احتاجَتْ إلى انقطاعهِ ، وأمَّا العلمُ فيَحتاجُ إليهِ القلبُ بعَدَدِ الأنفاسِ ، ولا يزيدُهُ كثرتُهُ إلّا صلاحًا ونفعًا .

العلم والسؤال

الوجهُ الثَّالثُ والأربعون بعد المِئة : أنَّ كثيرًا من الأخلاقِ التي لا تُحمَدُ في الشخصِ - بل يُذَمُّ عليها - تُحمَدُ في طَلَبِ العلمِ كالمَلَقِ وتَركِ الاستحياءِ والذُّلِّ والتَّردُّد إلى أبوابِ العلماءِ ونحوها .

قال ابنُ قُتَيبَةَ : جاءَ في الحديثِ : « ليسَ المَلَق من أخلاقِ المؤمنينَ إلّا في طَلَبِ العلمِ »[1].

وهذا أُثِرَ عن بَعضِ السَّلَفِ .

وقال ابنُ عبَّاس : ذَلَلتُ طالبًا فَعزِزتُ مطلوبًا .

وقال : وَجدتُ عامَّةَ علمِ رَسولِ اللّهِ ﷺ عندَ هذا الحيِّ من الأنصارِ ، إنْ كنتُ لَأَقِيلُ عندَ بابِ أحدِهم ، ولو شئتُ أُذِنَ لي ، ولكنْ أَبتَغي بذلكَ طِيبَ نَفسهِ .

وقال أبو إسحاقَ : قال عليٌّ : كلماتٌ لو رَحَلْتُم المَطِيَّ فيهنَّ لأفنيتموهنَّ قبلَ أن تُدرِكوا مثلَهنَّ : لا يَرجُونَّ عَبدٌ إلّا ربَّهُ ، ولا يَخافَنَّ إلّا ذَنْبَهُ ، ولا يَستحي مَن لا يَعلَمُ أن يتعلَّمَ ، **ولا يَستحي إذا سُئلَ عمَّا لا يعلمُ أن يقولَ : لا أعلمُ**، واعلموا أنَّ منزلَةَ الصَّبرِ من الإيمانِ كمنزلَةِ الرَّأسِ من الجَسَدِ ، فإذا ذَهَبَ الرَّأسُ ذَهَبَ الجَسَدُ ، وإذا ذَهَبَ الصَّبرُ ذَهَبَ الإيمانُ .

---

(١) حديثٌ موضوعٌ ؛ كما بيَّنه - بدلائله - شيخُنا الألباني في « السلسلة الضعيفة » (٣٨١) و (٣٨٢) .

وقارن بـ « شعب الإيمان » (٤ / ٢٢٤) .

ومن كلامِ بَعضِ العُلماءِ[١]: لا يَنالُ العلمَ مُستحيٍ ولا مُتكبِّرٌ ؛ هذا يمنعُهُ حياؤهُ من التَّعلُّم ، وهذا يمنعُهُ كِبْرُهُ .

وإنَّما حُمِدَتْ هذه الأخلاقُ في طَلَبِ العلمِ لأنَّها طريقٌ إلى تحصيلِهِ ، فكانَت من كمالِ الرَّجلِ ومُفْضِيَةً إلى كمالِهِ .

ومِن كلامِ الحَسَن : مَن استَتَرَ عَن طَلَبِ العلمِ بالحياءِ لَبِسَ للجَهلِ سربالَهُ ، فاقطَعوا سرابيلَ الحياءِ فإنَّهُ مَن رَقَّ وجهُهُ رَقَّ علمُهُ .

وقال الخليلُ : منزلَةُ الجَهلِ بينَ الحياءِ والأَنَفَةِ .

ومن كلامِ عليٍّ رَضيَ اللَّهُ تعالى عنهُ : قُرِنَت الهَيبَةُ بالخَيبَةِ ، والحياءُ بالحِرمان .

وقال إبراهيمُ لمنصورٍ : سَلْ مسأَلَةَ الحَمقى ، واحفَظ حِفظَ الأكياسِ ، وكذلكَ سؤالُ النَّاسِ هو عيبٌ ونَقصٌ في الرَّجلِ ، وذِلَّةٌ تُنافي المروءَةَ إلّا في العلمِ ؛ فإنَّهُ عَينُ كمالِهِ ومُروءَتِهِ وعِزِّهِ ، كما قال بَعضُ أهلِ العلمِ : خَيرُ خصالِ الرَّجلِ السُّؤالُ عن العلمِ .

وقيلَ : **إذا جَلَسْتَ إلى عالـمٍ فَسَلْ تفقُّهًا لا تعنُّتًا** .

وقال رُؤبَةُ بنُ العجّاج : أتيتُ النَّسَّابَةَ البَكريَّ ، فقال : مَن أنتَ ؟ قلت : أنا ابنُ العَجّاج، قال : قَصَّرتَ وعرَّفْتَ ! لعلَّكَ كقومٍ إنْ سَكَتُّ لم يسألوني ، وإن تكلَّمتُ لم يَعُوا عَنِّي !؟ قلتُ : أرجو أنْ لا أكونَ كذلكَ ، قال : ما أعداءُ المروءَةِ ؟ قلت : تخبرني، قال : بنو عمِّ السُّوءِ ، إنْ رأوا حَسَنًا سَتَروهُ ، وإنْ رَأَوْا سيِّئًا أذاعوهُ، ثمَّ قال : إنَّ للعلمِ آفَةً ونَكَدًا وهُجنَةً ؛ فآفَتُهُ نسيانُهُ ، ونكدُهُ الكذِبُ

---

(١) علَّقه البخاري في « صحيحه » (١ / ٣٧) من قول مُجاهدٍ .

فيه ، وهُجْنَتُهُ نَشرُهُ عندَ غيرِ أهلِهِ .

وأنشَدَ ابنُ الأعرابيّ :

ما أقرَبَ الأشياءَ حينَ يَسوقُها قَدَرٌ وأبعـدَها إذا لَم تُقْـدَرِ
فَسَـلِ الفَـقيهَ تَكُن فَقيهًا مثلَهُ مَن يَسْعَ في علمٍ بِذُلٍّ يمهَرِ
فتَـدبَّرِ العـلمَ الـذي تُفـتي بهِ لا خَيْـرَ في عـلمٍ بِغَيرِ تَدبُّرِ
ولَقَد يجدُّ المَـرءُ وهو مُقـصِّرٌ ويخيبُ جَدُّ المَرءِ غَيرَ مقصِّرِ
ذَهَبَ الرِّجالُ المُقتَدى بفعالهم والمُـنكِرونَ لكـلِّ أمرٍ مُنكَرِ
وبقيتُ في خَلَفٍ يُزيِّنُ بَعضُهم بعضـًا ليَدفَعَ مُعْـوِرٌ عن مُعْوِرِ

وللعلم ستُّ مراتبَ :

أوَّلُها : حسنُ السُّؤال .

الثَّانيةُ : حُسنُ الإنصاتِ والاستماعِ .

الثَّالثةُ : حُسنُ الفَهمِ .

الرَّابعَةُ : الحِفظُ .

الخامسَةُ : التَّعليمُ .

السَّادسَةُ : - وهي ثمرتُهُ - وهي العَمَلُ به ومُراعاةُ حدودهِ .

فمِنَ النَّاسِ مَن يُحرَمُهُ لعَدَمِ حُسنِ سؤالِهِ ؛ إمَّا أنَّه لا يَسألُ بحالٍ ، أو يسألُ عن شيءٍ وغيرُهُ أهمُّ منهُ ؛ كمَن يسألُ عن فُضولِهِ التي لا يضرُّ جَهلُهُ بها ، وَيدَعُ ما لا غنى لهُ عن معرفتهِ ، وهذه حالُ كثيرٍ من **الجُهَّالِ المتعلِّمين** .

ومنَ النَّاسِ من يُحْرَمُهُ لسوءِ إنصاتِهِ ، فيكونُ الكلامُ والمُماراةُ آثَرَ عندهُ وأحبَّ إليهِ من الإنصاتِ ؛ وهذه آفَةٌ كامنةٌ في أكثَرِ النُّفوسِ الطَّالبَةِ للعلمِ ، وهي

تمنعُهُم علمًا كثيرًا[١] ولو كانَ حَسَنَ الفهم .

ذكرَ ابنُ عبدالبرِّ[٢] عن بَعضِ السَّلفِ أنَّهُ قال : مَن كانَ حَسَنَ الفَهمِ رديءَ الاستماعِ لم يقُم خَيرُهُ بشرِّهِ .

وذكرَ عبدُاللَّهِ بن أحمدَ في كتابِ « العِلَل »[٣] لهُ قال : كانَ عُروَةُ بن الزُّبير يُحِبُّ مُماراةَ ابن عبَّاسٍ فكانَ يَخزِنُ علمَهُ عنهُ ، وكانَ عُبَيْدُاللَّهِ بن عَبْداللَّه بن عُتبَةَ يُلَطِّفُ لهُ في السُّؤال فَيُعِزُّهُ بالعلمِ عِزًّا .

وقال ابنُ جُريجٍ : لم أستخرج العلمَ الذي استخرجتُ من عطاءٍ إلّا برِفْقي بهِ .

وقال بَعضُ السَّلفِ : إذا جالَسْتَ العالِمَ فكُن على أن تَسمَعَ أحرَصَ منكَ على أن تقولَ .

وقَد قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ في ذلكَ لذِكرى لِمَن كانَ لهُ قلبٌ أو ألقى السَّمعَ وهو شهيد ﴾ [ق : ٣٧] .

فتأمَّلْ ما تحتَ هذه الألفاظِ من كُنوزِ العلمِ وكيفَ تفتحُ مراعاتُها للعَبدِ أبوابَ العلمِ والهُدى ! وكيفَ ينغلِقُ بابُ العلمِ عنهُ من إهمالها وعَدَمِ مراعاتها ! فإنَّهُ سبحانهُ ذكَرَ عن آياتهِ المتلُوَّةِ المسموعَةِ والمرئيَّةِ المشهودَةِ إنَّما تكونُ تَذكرَةً لمَن كانَ لهُ قلبٌ ؛ فإنَّ مَن عَدِمَ القَلبَ الواعي عن اللَّهِ لم ينتفعْ بكلِّ آيَةٍ تَمُرُّ عليهِ ولو مرَّتْ بهِ كلُّ آيَةٍ !

---

(١) صَدَقَ يرحمه الله ، وهذا أمرٌ مشاهدٌ ملموسٌ !

(٢) في « الجامع » (٦٩٩) .

(٣) لم أرَه في المطبوعِ منه فيما بَحَثْتُ .

ومرورُ الآياتِ عليهِ كَطُلوعِ الشمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ ومرورِها على مَن لا بَصَرَ لهُ ، فإذا كانَ له قلبٌ كانَ بمنزلَةِ البَصيرِ إذا مَرَّتْ به المرئيَّاتُ فإنَّهُ يراها ، ولكنَّ صاحبَ القَلبِ لا يَنتفعُ بقلبهِ إلّا بأمرَين :

أحدهما : أن يُحضِرَهُ ويُشهِدَهُ لِمَا يُلقى إليهِ ، فإذا كانَ غائبًا عنهُ مسافرًا في الأمانيِّ والشهواتِ والخيالاتِ لا يَنتفعُ به ، فإذا أحضَرَهُ وأشهَدَهُ لم يَنتفعْ إلّا بأن يُلقي سمعَهُ ويُصغي بكُلِّيَّتهِ إلى ما يُوعَظُ به ويُرشَدُ إليهِ .

وها هنا ثلاثَةُ أمور :

أحدها : سلامَةُ القَلبِ وصحَّتُه وقَبولُه .

الثَّاني : إحضارُهُ وجَمْعُهُ ومنعُهُ منَ الشرودِ والتَّفرُّقِ .

الثَّالث : إلْقاءُ السَّمعِ وإِصغاؤهُ ، والإِقبالُ على الذِّكر .

فَذَكَرَ اللهُ تعالى الأُمورَ الثلاثةَ في هذه الآيةِ .

قال ابنُ عطيَّةَ(١): القلبُ هُنا عبارَةٌ عن العَقلِ ؛ إذ هو محلُّهُ ، والمعنى : لمَن كانَ لهُ قلبٌ واعٍ ينتفعُ به

قال : وقال الشِّبْلي : قلبٌ حاضرٌ مع اللَّهِ لا يغفلُ عنهُ طرفَةَ عَينٍ .

وقولُه : ﴿ أو ألقى السَّمعَ وهوَ شهيدٌ ﴾ [ق : ٣٧]، معناهُ : صَرَفَ سمعَهُ إلى هذه الأنباءِ الواعظَةِ ، وأثبتَهُ في سمعهِ ، فذلكَ إلقاءٌ له عليها ، ومنهُ قولُه : ﴿ وألقَيتُ علَيكَ مَحبَّةً مِنِّي ﴾ [طه : ٣٩]، أي : أثبتُّها عليكَ .

وقولُه : ﴿ وهو شهيدٌ ﴾ قال بَعضُ المتأوِّلينَ : معناهُ : وهو شاهدٌ مُقبِلٌ على الأَمرِ غَيرُ مُعرِضٍ عنهُ ولا مُفكِّرٍ في غَيرِ ما يَسمعُ .

---

(١) في « تفسيره » (١٥ / ١٨٨) .

قال : وقال قتادَةُ : هي إشارَةٌ إلى أهلِ الكتابِ ، فكأنَّهُ قال : إنَّ هذه العبَرَ لَتذكرَةٌ لمَن له فَهمٌ فتدبَّرَ الأمرَ ، أو لمَن سَمعها من أهلِ الكتابِ فَشهِدَ بصحَّتها لعلمهِ بها من كتابِ التَّوراةِ وسائرِ كتبِ بني إسرائيل .

قال : فَـ ﴿ شهيدٌ ﴾ على التَّأويل الأوَّلِ من المشاهَدَةِ ، وعلى التَّأويلِ الثَّاني من الشهادَةِ .

وقالَ الزجَّاجُ : معنى ﴿ مَنْ كانَ له قلبٌ ﴾ : مَن صَرَفَ قلبَهُ إلى التَّفهُّمِ ، أَلَا ترى أنَّ قولَهُ : ﴿ صُمٌّ بكمٌ عُميٌ ﴾ أنَّهُم لم يَستمعوا استماعَ مستفهمٍ مُسترشدٍ فجُعِلوا بمنزلَةِ من لم يَسمع ، كما قال الشاعر :

.... أصمُّ عمَّا شاءَهُ سَميعُ

ومعنى ﴿ أو ألقى السَّمعَ ﴾ استمعَ ولم يَشْغَل قلبَهُ بغَيرِ ما يستمعُ ، والعَرَبُ تقولُ : ألقِ إليَّ سمْعَكَ ، أي : استمع منِّي ، ﴿ وهو شهيدٌ ﴾ أي : قلبُهُ فيما يسمعُ .

قال : وجاءَ في التَّفسير أنَّهُ يَعني بِهِ أهلَ الكتابِ الذينَ عندهم صفَةُ النَّبيِّ ﷺ.

فالمعنى : أو ألقى السَّمعَ وهو شهيدٌ أنَّ صفَةَ النَّبيِّ ﷺ في كتابهِ .

وهذا هو الذي حكاهُ ابنُ عطيَّة عن قتادَةَ وذكرَ أنَّ شهيدًا فيه بمعنى شاهدٍ ، أي : مُخبِرٍ .

وقال صاحبُ « الكشاف »[1]: لمَن كانَ لهُ قلبٌ واعٍ ؛ لأنَّ مَن لا يَعي قلبُهُ فكأنَّهُ لا قلبَ لهُ ، وإلقاءُ السَّمعِ : الإصغاءُ ، وهو شهيدٌ ؛ أي : حاضرٌ بفطنتهِ ؛ لأنَّ مَن لا يحضُرُ ذهنُهُ فكأنَّهُ غائبٌ ، أو هو مؤمنٌ شاهدٌ على صحَّتهِ

---

(١) هو الزمخشريُّ ، وانظر (٤ / ٢٥) من كتابِه .

وأنَّهُ وَحيٌ منَ اللَّهِ ، وهو بعضُ الشهداءِ في قولهِ : ﴿ لتكونوا شهداءَ على النَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٤٣] ، وعَن قتادَةَ : وهو شاهدٌ على صدقهِ من أهلِ الكتابِ لوجودِ نَعتهِ عندَهُ .

فلم يُختلَف في أنَّ المرادَ بالقَلبِ القلبُ الواعي ، وأنَّ المرادَ بإلقاءِ السَّمعِ إصغاؤهُ وإقبالُهُ على الذِّكر ، وتَفريغُ سمعه له .

واختُلِفَ في الشهيد على أربعَةِ أقوالٍ :

أحدُها : أنَّهُ منَ المُشاهَدَةِ ؛ وهي الحضورُ ، وهذا أصحُّ الأقوالِ ، ولا يَليقُ بالآيَةِ غَيرُهُ .

الثَّاني : أنَّهُ شهيدٌ من المشاهَدَةِ .

وفيهِ على هذا ثلاثَةُ أقوالٍ :

أَحدُها : أنَّه شاهدٌ على صحَّته بما معه مِن الإِيمان .

الثاني : أنَّه شاهدٌ من الشهداءِ على النَّاس يوم القيامةِ .

الثالث : أنَّهُ شهادَةٌ من اللَّهِ عندَهُ على صحّةِ نبوَّةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ بما عَلِمَهُ من الكتبِ المنزَّلَةِ .

والصَّوابُ القولُ الأوَّلُ ؛ فإنَّ قولَه : ﴿ وهو شهيدٌ ﴾ جملَةٌ حاليَّةٌ ، والواو فيها واوُ الحالِ ، أي : ألقى السَّمعَ في هذه الحالِ ، وهذا يقتَضي أن يكونَ حالَ إلقائهِ السَّمعَ شهيدًا ، وهذا منَ المشاهَدَةِ والحضورِ .

ولو كانَ المرادُ به الشهادَةَ في الآخرَةِ أو الدُّنيا لَمَا كانَ لتقييدها بإلقاءِ السَّمع معنى ، إذ يصيرُ الكلامُ : إنَّ في ذلكَ لآيَةً لمَن كانَ لهُ قلبٌ أو ألقى السَّمعَ حالَ كونهِ شاهدًا بما معهُ في التَّوراة ، أو حالَ كونهِ شاهدًا يومَ القيامَةِ !

ولا ريبَ أنَّ هذا ليسَ هو المرادَ بالآيَةِ .

وأيضًا ؛ فالآيَةُ عامَّةٌ في كلِّ مَن لهُ قلبٌ وألقى السَّمعَ ، فكيفَ يُدَّعى تخصيصُها بمؤمني أهلِ الكتابِ الذينَ عندهم شهادةٌ من كتبهم على صفَةِ النَّبيِّ ﷺ ؟!

وأيضًا ؛ فالسُّورَةُ مكِّيَّةٌ والخطابُ فيها لا يجوزُ أن يختصَّ بأهلِ الكتابِ ، ولا سيَّما مثلَ هذا الخطابِ الذي علَّقَ فيه حُصولَ مضمونِ الآيَةِ ومقصودِها بالقَلبِ الواعي وإلقاءِ السَّمعِ ، فكيفَ يُقال : هي في أهلِ الكتابِ ؟!

فإن قيلَ : المُختصُّ بهم قولُهُ : ﴿ وهو شهيدٌ ﴾ ! فهذا أفسَدُ وأفسَدُ ؛ لأنَّ قولَهُ : ﴿ وهو شهيدٌ ﴾ يرجعُ الضَّميرُ فيه إلى جملَةِ مَن تقدَّمَ وهو : من له قلبٌ أو ألقى السَّمعَ ، فكيفَ يُدَّعى عودُه إلى شيءٍ غايتُهُ أن يكونَ بعضَ المذكورِ أوَّلًا ، ولا دلالَةَ في اللفظِ عليهِ !؟

وأيضًا ؛ فإنَّ المشهودَ به محذوفٌ ، ولا دلالَةَ في اللفظِ عليهِ ، فلو كانَ المرادُ به : وهو شاهدٌ بكذا ، لَذَكرهُ المشهودُ به ؛ إذ ليسَ في اللفظِ ما يدُلُّ عليهِ ، وهذا بخلافِ ما إذا جُعِلَ من الشهودِ - وهو الحضورُ - فإنَّهُ لا يَقتَضي مفعولًا مشهودًا به فيتمُّ الكلامُ بذِكره وحدَه .

وأَيضًا ؛ فإنَّ الآيَةَ تضمنَّتْ تقسيمًا وتَرْديدًا بين قسمينِ ؛ أَحدُهما : مَن كان له قلبٌ ، والثَّاني : مَن ألقى السَّمعَ وحَضَرَ بقلبِهِ ولم يَغب ، فهو حاضِرُ القَلبِ شاهِدُهُ لا غائبُهُ .

وهذا - واللَّهُ أعلم - سرُّ الإتيانِ بـ ﴿ أو ﴾ دونَ الواو ؛ لأنَّ المنتفعَ بالآياتِ من النَّاسِ نوعان :

أحدهما : ذو القَلبِ الواعي الزَّكي الذي يكتفي بهدايتهِ بأدنى تنبيهٍ ولا يحتاجُ أَنْ يَستجلبَ قلبَهُ ويُحضِرَهُ ويجمَعَهُ مِن مواضعِ شتاتهِ، بل قلبُهُ واعٍ زكيٌّ قابلٌ للهُدى غَيرُ معرضٍ عنهُ، فهذا لا يحتاجُ إلّا إلى وصولِ الهُدى إليهِ فَقَط؛ لكمالِ استعدادهِ وصحَّةِ فطرتهِ ، فإذا جاءَهُ الهُدى سارَعَ قلبُهُ إلى قَبولهِ كأنَّهُ كانَ مكتوبًا فيهِ ، فهو قَد أدركهُ مُجملًا ثمَّ جاءَ الهدى بتفصيلِ ما شهدَ قلبُهُ بصحَّتهِ مجملًا .

وهذه حالُ أكملِ الخَلْقِ استجابَةً لدعوَةِ الرُّسلِ ، كما هي حالُ الصدِّيقِ الأكبَرِ رضيَ اللَّهُ عنهُ .

النَّوعُ الثَّاني : مَنْ ليسَ له هذا الاستعدادُ والقبولُ ؛ فإذا ورَدَ عليهِ الهُدى أصغى إليهِ بسمعهِ وأحضَرَ قلبَهُ وجمعَ فكرتَهُ عليهِ وعلم صحَّتَهُ وحُسنَهُ بنظرهِ واستدلالهِ ، وهذه طريقَةُ أكثَرِ المستجيبينَ ، ولهم نُوِّعَ ضَربُ الأمثالِ وإقامَةُ الحُجَج ، وذِكرُ المعارضاتِ والأجوبَةِ عنها ، والأوَّلونَ هم الذينَ يُدْعَوْنَ بالحكمَةِ ، وهؤلاءِ يُدْعَوْنَ بالموعظَةِ الحَسَنَةِ ، فهؤلاءِ نوعا المُستجيبين .

وأمَّا المُعارِضونَ المُدَّعونَ للحقِّ فنوعان :

نوعٌ يُدْعَوْنَ بالمُجادَلَةِ بالتي هي أحسَنُ ، فإنِ استجابوا وإلّا فالمُجالدَةُ ؛ فهؤلاءِ لا بُدَّ لهم من جدالٍ أو جِلادٍ .

ومَن تأمَّلَ دعوَةَ القرآنِ وجَدَها شاملَةً لهؤلاءِ الأقسامِ ، مُتناولةً لها كلِّها ؛ كما قال تعالى : ﴿ أُدعُ إلى سَبيلِ ربِّكَ بالحكمَةِ والمَوعظَةِ الحَسنَةِ وجادِلْهُم بالتي هيَ أحسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

فهؤلاءِ المَدْعوُّون بالكلامِ .

وأمَّا أهلُ الجِلاد فهم الذين أمَرَ اللَّهُ بقتالهم حتى لا تكونَ فتنَةٌ ويكونَ

الدِّينُ كلُّهُ للَّهِ[1].

وأمَّا مَن فسَّرَ الآيَةَ بأنَّ المرادَ بـ ﴿ مَن كانَ لهُ قلبٌ ﴾ هو المُستَغني بفطرتِهِ عن علمِ المَنطقِ وهو المؤيَّدُ بقوَّةٍ قُدْسيَّةٍ ينالُ بها الحدَّ الأوسَطَ بسرعَةٍ فهو لكمالِ فطرتِهِ مُستغنٍ عن مُراعاةِ أوضاعِ المنطقِ ! والمرادُ بـ ﴿ مَن ألقى السَّمعَ وهو شهيدٌ ﴾ من ليسَت لهُ هذه القوَّةُ ؛ فهو محتاجٌ إلى تعلُّم المنطق ليوجبَ له مراعاتَه، وإصغاءَهُ إليهِ أن لا يَزيغَ في فكرهِ ! وفسَّرَ قولَهُ : ﴿ ادعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمَةِ ﴾ أنَّها القياسُ البرهانيُّ ! و ﴿ الموعظَة الحسنَة ﴾ القياسُ الخطابيُّ ! ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسَنُ ﴾ القياسُ الجدليّ !

فهذا ليسَ من تفاسير الصَّحابَةِ ولا التَّابعينَ ولا أحدٍ مِن أئمَّةِ التَّفسير ، بل ولا من تفاسير المُسلمين ، وهو **تحريفٌ لكلامِ اللَّهِ تعالى** ، وحَمْلٌ لهُ على اصطلاحِ المنطقيَّةِ المبخوسَةِ الحظِّ منَ العَقلِ والإيمانِ .

وهذه من جنسِ تفاسيرِ القرامطَةِ والباطنيَّةِ وغُلاةِ الإسماعيليَّة لِمَا يُفسِّرونَه من القرآن ويُنزلونَهُ على مذاهبهم الباطلَةِ .

والقرآنُ بريءٌ من ذلكَ كلِّهِ ، مُنزَّهٌ عن هذه الأباطيل والهِذْياناتِ .

وقَد ذكرنا بُطلانَ ما فسَّرَ به المنطقيُّونَ هذه الآيَةَ التي نحنُ فيها والآيَةَ الأُخرى في موضعٍ آخَرَ[2] من وجوهٍ متعدِّدةٍ ، وبيَّنَّا بُطلانَهُ عقلًا وشرعًا ولغَةً وعُرفًا ، وأنَّهُ يتعالى كلامُ اللَّهِ عن حَملهِ على ذلكَ .

وباللَّهِ التَّوفيق .

---

(١) كما في آية ١٩٣ من سورة البقرة .

(٢) لم أرَ - فيما اطَّلَعْتُ - كلامًا للمصنِّف على هذه الآيةِ سوى ما في « المدارج » (٣ / ٢٣١) ، وليس هو الذي يُشير إليه هنا ، واللَّه أَعلمُ .

والمقصودُ بيانُ حرمانِ العلمِ من هذه الوجوهِ السِّتَّة :

أحدُها : تركُ السُّؤال .

الثَّاني : سوءُ الإنصاتِ وعَدَمُ إلقاءِ السَّمع .

الثَّالثُ : سوءُ الفهم .

الرَّابعُ : عَدَمُ الحفظ .

الخامس : عَدَمُ نشرِهِ وتعليمِهِ؛ فإنَّ من خَزَنَ علمَهُ ولم ينشرْهُ ولم يُعلِّمْهُ ابتلاهُ اللَّهُ بنسيانِهِ وذهابِهِ منهُ **جزاءً من جنسِ عملِهِ** ، وهذا أمرٌ يَشهدُ به الحِسُّ والوجودُ .

السَّادس : عَدَمُ العملِ به ؛ فإنَّ العملَ بِهِ يُوجِبُ تذكُّرَهُ وتدبُّرَهُ ومُراعاتَه والنَّظرَ فيهِ ، فإذا أهمَلَ العمَلَ به نَسِيَهُ .

قال بَعضُ السَّلَفِ : كنَّا نَستعينُ على حفظِ العلمِ بالعملِ به(١).

وقال بَعضُ السَّلفِ أيضًا : العلم يَهتفُ بالعملِ، فإنْ أجابهُ حلَّ وإلّا ارتَحلَ(٢).

فالعملُ به من أعظم أسبابِ حفظِهِ وثباتِهِ، وتركُ العَمَل به إضاعةٌ لهُ .

فما اسْتُدِرَّ العلمُ ولا استُجلِبَ بمثلِ العملِ ؛ قال اللَّهُ تعالى : ﴿ يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اتَّقوا اللهَ وآمِنوا برسولهِ يُؤتِكُم كِفْلَينِ من رحمتهِ ويجعَلْ لكُم نورًا تمشونَ به ﴾ [الحديد : ٢٨] .

وأمَّا قولُهُ تعالى : ﴿ واتَّقوا اللهَ وَيعُلِّمُكُم اللهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٢]، فليسَ من هذا البابَ ، بل هما جُملتان مُستقلّتان : طلبيَّةٌ ؛ وهي الأمرُ بالتَّقوى ، وخبريَّةٌ ؛ وهي قولُه تعالى : ﴿ ويُعلِّمُكم اللهُ ﴾ أي : ما تَتَّقونَ ، وليستَ جوابًا

---

(١) رواه الخطيب في « اقتضاء العلم العَمَل » (١٤٩) .

(٢) رواه الخطيب في « الاقتضاء » (٤١) عن ابن المُنْكَدِر .

للأمرِ بالتَّقوى ، ولو أُريدَ بها الجزاءُ لأتى بها مجزومَةً مُجرَّدَةً عن الواو ، فكانَ يقولُ : (فاتَّقوا اللَّهُ يعلِّمْكُم) أو : (إنْ تَتَّقوهُ يُعلِّمْكُم) كما قال : ﴿ إِنْ تَتَّقوا اللهَ يجعَلْ لكُم فرقانًا ﴾ [الأنفال : ٢٩]، فتدبَّرْهُ[1] .

العالم وغيره يستويان

الوجهُ الرَّابعُ والأربعون بعد المِئة : أَنَّ اللَّهَ سبحانَهُ نَفى التَّسويَةَ بينَ العالِم وغيرِهِ ، كما نَفى التَّسويَةَ بين الخبيثِ والطَّيِّبِ ، وبينَ الأعمى والبَصير ، وبينَ النُّورِ والظُّلمَةِ ، وبينَ الظِّلِّ والحَرُورِ ، وبينَ أصحابِ الجنَّةِ وأصحاب النَّارِ ، وبينَ الأبكمِ العاجزِ الذي لا يقدِرُ على شيءٍ ومَن يأمُرُ بالعَدلِ وهو على صراطٍ مُستقيمٍ ، وبينَ المؤمنين والكُفَّارِ ، وبينَ الذينَ آمَنوا وعملوا الصَّالحاتِ والمُفسدينَ في الأرضِ ، وبينَ المتَّقين والفجّار ...

فهذه عَشرَةُ مواضعَ في القرآنِ [2] نَفى فيها التَّسويَةَ بين هؤلاءِ الأصنافِ ، وهذا يدُلُّ على أنَّ منزلَةَ العالِمِ من الجاهلِ كمنزلَةِ النُّورِ من الظُّلمَةِ ، والظِّلِّ من الحَرُور ، والطَّيِّبِ من الخَبيثِ .

ومنزلةُ كلِّ واحدٍ من هذه الأصنافِ مع مُقابِلِهِ .

وهذا كافٍ في شَرفِ العلمِ وأهلِهِ، بل إذا تأمَّلْتَ هذه الأصنافَ كلَّها، ووَجَدْتَ نَفيَ التَّسويَةِ بينها راجعًا إلى العلمِ وموجبِهِ فيه ، وَقَعَ التَّفضيلُ وانتفَت المساواةُ .

العلم سبيل النجاة

الوجهُ الخامسُ والأربعون بعد المِئة : أنَّ سُليمانَ لمَّا توعَّدَ الهُدْهُدَ بأنْ يُعَذِّبَهُ عذابًا شديدًا أو يذبَحَهُ ؛ إنَّما نجا منه بالعلمِ ، وَأَقْدَمَ عليهِ في خطابِهِ لهُ بقولِهِ : ﴿ أحطتُ بما لم تُحِط بهِ ﴾ [النَّمل : ٢٢] ، وهذا الخطابُ إنَّما جرَّأَهُ عليهِ العلمُ ، وإلّا فالهُدهُدُ مع ضعفهِ لا يتمكَّنُ في خِطابِهِ لِسُلَيمانَ مع

(١) قارن بِـ « تمييز المحظوطين عن المحرومين » (ص ١١٦) للمعصومي - بتحقيقي .
(٢) والآياتُ في ذلك معروفةٌ .

قوَّتهِ بمثل هذا الخِطَابِ لولا سلطانُ العلم .

ومن هذا الحكايَةُ المشهورَةُ أنَّ بعضَ أهلِ العلمِ سُئلَ عن مسألَةٍ ؟ فقالَ : لا أعلمُها ، فقال أحدُ تلامذتِهِ : أنا أعلمُ هذه المسألَةَ ، فَغَضِبَ الأستاذُ وهمَّ به، فقال له : أيُّها الأستاذُ ! لستَ أعلمَ من سليمانَ بنِ داودَ ولو بَلَغْتَ في العلمِ ما بلغتَ ، ولستُ أنا أجهلَ من الهدهدِ وقد قال لسليمان : ﴿ أحطتُ بما لم تُحِط به ﴾ فلم يَعتَبْ عليهِ ولم يُعنِّفْهُ .

العلمُ شَرَفٌ لصاحبِه

الوجهُ السَّادسُ والأربعون بعد المِئة : أَنَّ مَن نالَ شيئًا مِن شرفِ الدُّنيا والآخرَةِ فإنَّما نالَهُ بالعلم .

وتأمَّلْ ما حَصَلَ لآدمَ من تَمْييزِهِ على الملائكَةِ واعترافِهم له بتعليمِ اللَّهِ لهُ الأسماءَ كلَّها ، ثمَّ ما حَصَلَ لهُ مِن تدارُكِ المُصيبَةِ والتَّعويضِ عن سُكنى الجنَّةِ بما هو خَيرٌ له منها بعلمِ الكلمات التي تلقَّاها من ربِّهِ .

وما حَصَلَ ليوسُفَ من التَّمكين في الأرضِ والعزَّةِ والعظمَةِ بعلمهِ بعبارةِ[1] تلكَ الرُّؤيا ، ثمَّ علمِهِ بوجوهِ استخراج أخيهِ من إخوتهِ بما يُقِرُّونَ به ويُحكِّمونَ هم بِهِ ، حتى آلَ الأمرُ إلى ما آل إليهِ من العِزِّ والعاقبَةِ الحميدَةِ وكمالِ الحالِ التي توصَّلَ إليها بالعلمِ ، كما أشارَ إليه سبحانهُ في قولِه : ﴿ كذلكَ كِدْنا ليوسفَ ما كانَ ليأخُذَ أخاهُ في دينِ المَلِك إلّا أنْ يشاءَ اللهُ نرفعُ درجاتٍ مَن نشاءُ وفَوقَ كلِّ ذي علمٍ عليمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦]، جاءَ في تفسيرها : نَرفعُ درجاتِ مَن نشاءُ بالعلمِ كما رفعنا درجَةَ يوسفَ على إخوتهِ بالعلمِ .

وقال في إبراهيم ﷺ : ﴿ وتلكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إبراهيمَ على قومهِ نَرفَعُ

---

(١) أَيْ : بتعبير .

درجاتٍ مَن نشاءُ ﴾ [الأنعام : ٨٣] .

فهذه رِفعَةٌ بعلمِ الحُجَّةِ ، والأوَّلِ رِفعَةٌ بعلمِ السِّياسَةِ .

وكذلكَ ما حَصَلَ للخَضِر بسببِ علمِهِ من تَلْمَذَةِ كليمِ الرَّحمن له وتلطُّفِهِ معه في السُّؤال ، حتى قال : ﴿ هَل أتَّبِعُكَ على أن تُعلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشدًا ﴾ [الكهف : ٦٦] .

وكذلكَ ما حَصَلَ لسُليمانَ من علمِ منطقِ الطَّيرِ حتى وَصَلَ إلى مُلْكِ سبأ وقهَرَ مَلِكَتَهم واحْتَوىٰ على سريرِ مُلكِها ، ودخولها تحتَ طاعتِهِ ، ولذلكَ قال : ﴿ يا أيُّها النَّاسُ عُلِّمْنا مَنطِقَ الطَّيرِ وأُوتينا من كلِّ شيءٍ إنَّ هذا لهو الفَضلُ المُبين ﴾ [النمل : ١٦] .

وكذلكَ ما حَصَلَ لداودَ من علمِ نَسْجِ الدُّروعِ من الوقايَةِ من سلاحِ الأعداءِ .

وعدَّدَ سبحانه هذه النِّعمَةَ بهذا العلم على عبادِهِ فقال : ﴿ وَعَلَّمْناهُ صَنعَةَ لَبُوسٍ لكُم لِتُحصِنَكُم مِنْ بأسِكُم فَهَل أنتُم شاكرون ﴾ [الأنبياء : ٨٠] .

وكذلكَ ما حَصَلَ للمسيحِ من علمِ الكتابِ والحِكمَةِ والتَّوراةِ والإنجيلِ ما رَفعَهُ اللَّهُ بهِ إليهِ وفضَّلَهُ وكرَّمَهُ .

وكذلكَ ما حَصَلَ لسيِّدِ ولدِ آدم ﷺ من العلمِ الذي ذَكَرَهُ اللَّهُ به نعمةً عليهِ ، فقال : ﴿ وأنزَلَ اللهُ عليكَ الكتابَ والحكمَةَ وعلَّمَكَ ما لم تكُن تَعلم وكانَ فَضلُ اللهِ عليكَ عظيمًا ﴾ [النِّساء : ١١٣] .

العلم سبيل الكمال

الوجهُ السَّابعُ والأربعون بعد المِئة : أنَّ اللَّهَ سبحانهُ أثنى على إبراهيمَ خليلهِ بقولهِ تعالى : ﴿ إنَّ إبراهيم كانَ أُمَّةً قانِتًا للهِ حنيفًا ولم يكُن من

المشركين شاكرًا لأنعُمهِ اجْتباهُ ﴾ [النحل : ١٢٠ - ١٢١] .

فهذه أربعةُ أنواعٍ من الثَّناءِ ؛ افتتحها بأنَّهُ أُمَّةٌ ، والأُمَّةُ هو القُدوَةُ الذي يُؤتمُّ به، قال ابن مسعودٍ : والأُمَّةُ المعلِّمُ للخَيرِ[١]، وهي فُعلةٌ من الائتمام ، كقُدوَةٍ وهو الذي يُقتَدى به .

والفَرقُ بينَ الأُمَّةِ والإمام من وجهَين :

أحدهما : أنَّ الإمامَ كُلُّ ما يُؤتَمُّ به سواءٌ كانَ بقصدهِ وشعورهِ أَوْ لا ؛ ومنه سُمِّي الطَّريقُ إمامًا ، كقولهِ تعالى : ﴿ وإنْ كانَ أصحابُ الأيكَةِ لظالمين فانتَقمنا منهم وإنَّهما لَبِإمامٍ مُبينٍ ﴾ [الحجر : ٧٨ - ٧٩]، أي : بطريقٍ واضحٍ لا يَخفى على السَّالكِ .

ولا يُسمَّى الطَّريقُ أمَّةً .

الثَّاني : أنَّ الأُمَّةَ فيهِ زيادَةُ معنىً ؛ وهو الذي جَمَعَ صفاتِ الكمالِ من العلمِ والعملِ بحيثُ بقي فيها فَردًا وحدَهُ ، فهو الجامعُ لخصالٍ تفرَّقَت في غيرهِ ، فكأنَّهُ بايَنَ غَيرَهُ باجتماعِها فيهِ وتفرُّقِها أو عدمِها في غيرهِ .

ولفظُ الأُمَّةِ يُشعِرُ بهذا المعنى، لِمَا فيه من الميمِ المُضعَّفَة الدَّالَّةِ على الضَّمِّ بمَخرجها وتكريرها ، وكذلكَ ضمُّ أَوَّلِهِ ؛ فإنَّ الضَّمَّةَ من الواوِ ومَخرجُها ينضمُّ عندَ النُّطقِ بها ، وأتى بالتَّاءِ الدَّالَّةِ على الوحدَةِ كالغُرفَةِ واللُّقمَةِ ، ومنه الحديثُ : « إنَّ زَيدَ بن عمرو بن نُفيلٍ يُبعَثُ يومَ القيامَةِ أُمَّةً وحدَهُ »[٢].

---

(١) رواه الطَّبراني في « الكبير » (٩٠٠٧)، وعبدالرزَّاق في « تفسيره » (٢ / ٣٦١) . وانظر « الدر المنثور » (٥ / ١٣٦) .

(٢) رواه أَبو يَعْلَىٰ (٩٧٣) عن سعيد بن زَيْد بسندٍ حسَّنه الهيثميُّ في « المجمع » (٩ / ٤١٧) . =

فالضمُّ والاجتماعُ لازمٌ لمعنى الأُمَّةِ ، ومنهُ سُمِّيَت الأُمَّةُ التي هي آحادُ الأُمَمِ ؛ لأنَّهم النَّاسُ المجتمعون على دينٍ واحدٍ أو في عَصرٍ واحدٍ .

الثَّاني :قولُهُ : ﴿ قانتًا للهِ ﴾ ، قال ابنُ مسعود : القانتُ المطيعُ ، والقُنوتُ يُفسَّر بأشياءَ كلِّها ترجعُ إلى دوامِ الطَّاعةِ .

الثَّالث : قولُهُ : ﴿ حنيفًا ﴾ ، والحنيفُ المُقبِلُ على اللَّهِ ، ويلزمُ هذا المعنى ميلُهُ عمَّا سواهُ ، فالمَيلُ لازمُ معنى الحنيفِ ، لا أنَّهُ موضوعُهُ لغَةً .

الرَّابع : قولُه : ﴿ شاكرًا لأنعُمهِ ﴾، والشُّكْرُ للنِّعَم مبنيٌّ على ثلاثةِ أركانٍ : الإقرارُ بالنِّعمَةِ وإضافتُها إلى المنعِمِ بها ، وصرفُها في مرضاتِهِ ، والعملُ فيها بما يُحِبُّ ، فلا يكونُ العَبدُ شاكرًا إلّا بهذه الأشياءِ الثَّلاثَة .

والمقصودُ أنَّهُ مدحَ خليلَهُ بأربَعِ صفاتٍ كلُّها تَرجعُ إلى العلمِ ، والعملِ بموجبِهِ ، وتعليمِهِ ونشرِهِ .

فعادَ الكمالُ كلُّهُ إلى العلمِ والعملِ بموجبِهِ ودعوةِ الخلقِ إليهِ .

العلم ريق البَرَكةِ

الوجهُ الثَّامنُ والأربعون بعد المِئة : قولُه سبحانهُ عن المسيحِ أنَّهُ قال : ﴿ إنِّي عَبدُ اللهِ آتانيَ الكتابَ وجَعَلني نبيًّا وجَعَلَني مُباركًا أينما كنتُ ﴾ [مريم : ٣٠ - ٣١] ، قال سُفيانُ بن عُيَينَة : جَعَلَني مباركًا أينما كنتُ ، قال : مُعلِّمًا للخيرِ ؛ وهذا يدُلُّ على أنَّ تَعليمَ الرَّجلِ الخيرَ هو البَرَكَةُ التي جَعَلها اللَّهُ فيهِ ، فإنَّ البَرَكَةَ حُصولُ الخَيرِ ونَماؤهُ ودوامُهُ .

وهذا في الحقيقَةِ ليسَ إلّا في العلمِ الموروثِ عن الأنبياءِ وتعليمِهِ ، ولهذا

= وقد رُويتْ زيادةٌ في هذا الحديثِ مُنكرة ، كما تراها ونَقْدَها في حاشية « معجم الطبراني الكبير » (١ / ١٥١ - ١٥٢ - ط٢) للأخ الشيخ حمدي السلفي ، والتعليق على « فقه السيرة » (٨٥ - ٨٦) لشيخنا العلّامة الألباني .

وللقَدْرِ المرفوعِ من الحديث - وهو الذي أورده المصنِّفُ - شواهدُ عدّة .

سمَّى سبحانهُ كتابَهُ مُباركًا ، كما قال تعالى : ﴿ وهذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أنزلناهُ ﴾ [الأنبياء : ٥٠]، وقال : ﴿ كتابٌ أنزلناهُ إليكَ مباركٌ ﴾ [ص : ٢٩]، وَوَصَفَ رسولَهُ بأنَّهُ مُباركٌ كما في قولِ المسيحِ : ﴿ وجَعَلني مُباركًا أينما كُنتُ ﴾ [مريم : ٣١] ، فبركةُ كتابهِ ورسولهِ هي سببُ ما يحصُلُ بهما من العلمِ والهدى والدَّعوةِ إلى اللَّهِ .

الوجهُ التَّاسعُ والأربعون بعد المِئة : ما في « الصَّحيح » عن أبي هُرَيرَة رضيَ اللَّهُ عنهُ عن ﷺ أنَّهُ قال : « إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقَطَعَ عملُهُ إلّا من ثلاث : صَدَقَةٍ جاريةٍ ، أو علمٍ ينتفعُ بهِ ، أو ولدٍ صالحٍ يَدعو لهُ » ، رواهُ مسلمٌ في « الصَّحيح »[1]. العلم مورروث

وهذا من أعظمِ الأدلَّةِ على شرفِ العلمِ وفضلهِ وعِظَمِ ثَمَرتهِ ؛ فإنَّ ثوابَهُ يَصِلُ إلى الرَّجلِ بعدَ موتهِ ما دامَ يُنتفَعُ بهِ ، فكأنَّهُ حيٌّ لم ينقطع عملُهُ معَ ما لَهُ من حياةِ الذِّكرِ والثَّناءِ ، فَجَرَيانُ أجرهِ عليهِ إذا انقَطَعَ عن النَّاسِ ثوابُ أعمالهم حياةٌ ثانيَةٌ .

وخَصَّ النَّبيُّ ﷺ هذه الأشياءَ الثَّلاثَة بوصولِ الثَّوابِ مِنها إلى الميِّتِ لأنَّهُ سببٌ لحصولها ، والعَبدُ إذا باشرَ السَّبَبَ الذي يتعلَّقُ به الأمرُ والنَّهيُ يترتَّبُ عليهِ مُسَبِّبُهُ وإنْ كانَ خارجًا عن سعيهِ وكسبهِ ، فلمّا كانَ هو السَّبَبَ في حصولِ هذا الوَلدِ الصَّالحِ والصَّدَقةِ الجاريَةِ والعلمِ النَّافعِ جرى عليهِ ثوابُهُ وأجرُهُ لتسبُّبهِ فيهِ ، فالعَبدُ إنَّما يُثابُ على ما باشَرَهُ أو على ما تولَّدَ منهُ .

وقَد ذكرَ تعالى هذينِ الأصلينِ في كتابهِ في سورَةِ براءَة [١٢٠] ، فقال :

---

(١) (برقم : ١٦٣١) .

﴿ ذلكَ بأنَّهُم لا يُصيبهُم ظَمأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ في سبيلِ اللهِ ولا يَطَئُونَ مَوطئًا يَغيظُ الكُفَّارَ ولا ينالونَ من عَدُوٍّ نَيلًا إلّا كُتِبَ لهم بهِ عَمَلٌ صالحٌ إنَّ اللهَ لا يُضيعُ أجرَ المُحسنين ﴾ .

فهذه الأمورُ كلُّها مُتَوَلِّداتٌ عن أفعالهم ، غَيرُ مقدورَةٍ لهم ، وإنَّما المقدورُ لهم أسبابُها التي باشروها .

ثمَّ قال : ﴿ ولا يُنفِقون نَفَقَةً صَغيرَةً ولا كَبيرَةً ولا يَقطَعونَ واديًا إلّا كُتِبَ لهم لِيَجْزِيَهُم اللهُ أحسَنَ ما كانوا يَعمَلونَ ﴾ [التوبة : ١٢١]، فالنَّفَقَةُ وقطعُ الوادي أفعالٌ مقدورَةٌ لهم ...

وقالَ في القسمِ الأوَّلِ : ﴿ كُتبَ لهم بهِ عملٌ صالحٌ ﴾؛ لأَنَّ المتولِّدَ حاصلٌ عن شيئين : أفعالِهم وغيرِها ، فليسَت أفعالُهم سببًا مُستقلًّا في حصولِ المتولِّدِ ، بل هي جزءٌ من أجزاءِ السَّبَبِ ، فَيُكتبُ لهم من ذلكَ ما كانَ مقابلًا لأفعالهم .

وأيضًا ؛ فإنَّ الظَّمأَ والنَّصَبَ وغَيْظَ العَدُوِّ ليسَ من أفعالهم ، فلا يُكتَبُ لهم نفسُهُ ، ولكنْ لمَّا تولَّدَ عن أفعالهم كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ .

وأمَّا القسمُ الآخرُ : وهو الأفعالُ المقدورَةُ نفسُها - كالإنْفاقِ وقَطعِ الوادي- فهو عملٌ صالحٌ فَيُكتَبُ لهم نفسُهُ؛ إذ هو مقدورٌ لهم حاصلٌ بإرادتهم وقدرتِهم ، فعادَ الثَّوابُ إلى الأَسبابِ المقدورَةِ والمتولِّدِ عنها ، وباللَّهِ التَّوفيق .

الوجهُ الخمسون بعد المِئة : ما ذكرهُ ابنُ عَبدِالبرِّ[1] عن عبداللَّهِ بن داودَ ، قال : إذا كانَ يومُ القيامَةِ عَزَلَ اللَّهُ تباركَ وتعالى العلماءَ عَن الحسابِ فيقول : ادخلوا الجنَّةَ على ما كانَ فيكُم إنِّي لم أجعَل علمي فيكم إلّا لخيرٍ أردتُهُ بكُم .

---

(١) في «جامع بيان العلم» (٢٣١)، وعبداللّه بن داود هو الخُرَيْبي؛ من ثقات عُبّاد المسلمين.

قال ابنُ عبدالبرِّ : وزادَ غيرُهُ في هذا الخَبَر : « إنَّ اللَّهَ يحبسُ العلماءَ يومَ القيامَةِ في زُمرَةٍ واحدَةٍ حتى يَقضي بينَ النَّاسِ ويدخُلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهلُ النَّارِ النَّارَ ، ثمَّ يدعو العلماءَ فيقولُ : يا مَعشرَ العلماءِ إنِّي لم أضع حكمَتي فيكُم وأنا أريدُ أن أُعذِّبَكُم ، قَد علمتُ أنَّكُم تَخْلِطونَ من المعاصي ما يخلطُ غيرُكُم ، فستَرتُها عليكم وغَفَرتُها لكُم ، وإنَّما كنتُ أُعبَدُ بفُتياكُم وتَعليمِكُم عبادي ، ادخُلوا الجنَّةَ بغَيرِ حسابٍ » .

ثمَّ قالَ : « لا مُعطي لِمَا منَعَ اللَّهُ ولا مانعَ لِمَا أعطى » .

قال : ورُويَ نحوُ هذا المعنى بإسنادٍ مُتَّصلٍ مرفوعٍ(١).

---

(١) ثمَّ ساقَ بسنده (٢٣٢) - بنحوه - عن أبي موسى الأَشعري مرفوعًا .
وسائر طُرقِه ضعيفةٌ جدًّا ومكذوبةٌ ، كما حقَّقه مطوَّلًا شيخُنا الأَلباني في « الضَّعيفة » (٨٦٨) فَلْيُنْظَر .
ثمَّ إنِّي أُنبِّه - هنا - على روايةٍ أُخرى للحديثِ صحّحها بعضُ أَهل العلمِ ، وهي واهيةٌ :
وهي عند الطَّبراني في « المعجم الكبير » (١٣٨١) بسنده إلى ثعلبة بن الحكم بنحو الحديث المذكور ..
وقال ابنُ كثير في « تفسيره » (٥ / ٢٦٧ - طبعة دار الشعب) : « إسناده جيِّد » !
أَقول : وهذا منه - رحمه اللَّه - خطأٌ ناتجٌ عن تصحيف وقع له في سند الطبراني ، فهو عنده : « عن العلاء بن سالم ... » ، والصَّواب : « عن العلاء بن مسلمة » !!
والعلاء بن مسلمة متروكٌ ، بل اتَّهمه بعضهُم بالوضع !!
وفي « السلسلة الضعيفة » (٨٦٦) لشيخنا الأَلباني بيانٌ مِن وجهٍ آخر للحكم على هذا الحديث ، فلْيراجع .
وانظر ما تقدَّم في الوجه العشرين بعد المئة .
وقد روى البخاري (٨٤٤) ، ومسلم (٥٩٣) (١٣٨) عن المُغيرة بن شُعبةَ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا قضى صلاتَه فسلَّم ، قال : « ... اللَّهم لا مانع لما أَعطيتَ ، ولا مُعطي لِمَا منعتَ .. » .

وقَد روى حَربٌ الكِرْمانيُّ في « مسائلهِ » نحوَه مرفوعًا .

وقال إبراهيم : بَلَغني أنَّهُ إذا كانَ يومُ القيامَةِ تُوضَعُ حسناتُ الرَّجلِ في كِفَّةٍ وسيِّئاتُهُ في الكِفَّةِ الأُخرى فتَشيلُ حسناتُهُ، فإذا يئِسَ فظَنَّ أنَّها النَّارُ جاءَ شيءٌ مثلُ السَّحابِ حتى يقعَ مع حسناتِهِ فتشيلُ سيِّئاتُهُ، قال : فيُقال له : أتعرفُ هذا مِن عملكَ ؟ فيقول : لا، فيُقال : هذا ما عَلَّمتَ النَّاسَ مِن الخَيرِ فعُملَ به مِن بَعدِكَ(١) .

فإنْ قيلَ : فقواعدُ الشرعِ تَقتَضي أن يُسامحَ الجاهلُ بما لا يُسامَحُ به العالِمُ ، وأنَّهُ يُغفرُ له ما لا يُغفرُ للعالِم ؛ فإنَّ حُجَّةَ اللَّهِ عليهِ أقومُ منها على الجاهلِ ، وعِلْمُهُ بقبحِ المعصيَةِ وبُغضِ اللَّهِ لها وعقوبته عليها أعظمُ من علمِ الجاهلِ ، ونعمَةُ اللَّهِ عليهِ بما أودَعَهُ من العلمِ أعظمُ من نعمتهِ على الجاهلِ .

وقَد دلَّت الشريعَةُ وحكمُ اللَّهِ على أنَّ مَن حُبِيَ بالإنعامِ وخُصَّ بالفَضلِ والإكرامِ ثمَّ أسامَ نَفسَهُ مَعَ ميلِ الشهواتِ ، فأرتَعها في مراتعِ الهَلَكاتِ ، وتجرَّأَ على انتهاكِ الحُرُماتِ ، واستخفَّ بالتَّبِعاتِ والسيِّئاتِ ، أنَّهُ يُقابَلُ من الانتقامِ والعَتْبِ بما لا يُقَابَلُ به مَن ليسَ في مرتبتهِ .

وعلى هذا جاءَ قولُهُ تعالى : ﴿ يا نساءَ النَّبيِّ مَن يأْتِ مِنكُنَّ بفاحشَةٍ مُبيِّنَةٍ يُضاعَفْ لها العَذابُ ضِعفَينِ وكانَ ذلكَ على اللهِ يَسيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٠] ، ولهذا كانَ حدُّ الحُرِّ ضِعْفَيْ حدِّ العَبدِ في الزِّنا والقَذفِ وشُربِ الخَمرِ لكمالِ النِّعمَةِ على الحُرِّ .

وممَّا يُدلُّ على هذا الحديثُ المشهورُ الذي ثبَّتَهُ أبو نُعيمٍ(٢) وغيرُهُ عن

---

(١) هذا بلاغٌ مِن غيرِ سَنَدٍ !

(٢) حديثٌ ضعيفٌ ، وقد سَبَقَ تخريجُهُ .

النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قال : « أشدُّ النَّاسِ عذابًا يومَ القيامَةِ عالِمٌ لم يَنفعْهُ اللَّهُ بعلمِهِ » .

وقال بعضُ السَّلفِ : يُغفَرُ للجاهلِ سَبعونَ ذنبًا قبلَ أن يُغفرَ للعالِمِ ذَنبٌ .

وقال بعضُهم أيضًا : إنَّ اللَّهَ يُعافي الجهَّالَ ما لا يُعافي العُلَماءَ[1].

فالجوابُ : إنَّ هذا الذي ذكرتُموهُ حقٌّ لا ريبَ فيهِ ، ولكنَّ مِن قواعدِ الشرعِ والحِكمَةِ أيضًا أنَّ مَنْ كثُرَت حسناتُهُ وعظُمَت ، وكانَ لهُ في الإسلامِ تأثيرٌ ظاهرٌ فإنَّهُ يُحْتَمَلُ لهُ ما لا يُحتملُ لِغيرِهِ ويُعفى عنه ما لا يُعفى عن غيرِهِ ؛ فإنَّ المعصيةَ خَبَثٌ ، والماءُ « إذا بَلَغَ قلَّتينِ لم يحمل الخَبَثَ »[2]، بخلافِ الماءِ القَليلِ فإنَّهُ يَحْمِلُ أدنى خَبَثٍ يقعُ فيه ، ومِن هذا قولُ النَّبيِّ ﷺ لعُمَر : « وما يُدريكَ لعلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ على أهلِ بَدرٍ فقال : اعمَلوا ما شئتُم فَقَد غَفرتُ لكُم »[3].

وهذا هو المانعُ لهُ ﷺ من قَتلِ مَن جَسَّ عليهِ وعلى المُسلمينَ وارتكبَ مثلَ ذلكَ الذَّنبِ العَظيمِ ، فأخبرَ ﷺ أنَّهُ شَهدَ بدرًا ، فدلَّ على أنَّ مقتضى عقوبتِهِ قائمٌ لكنْ منعَ مِن تَرتُّبِ أثرِهِ عليهِ ما لَهُ مِنَ المشهدِ العَظيمِ ، فوَقَعَت تلكَ السَّقْطَةُ العَظيمَةُ مُغتَفَرَةً في جنبِ ما لَهُ من الحسناتِ .

ولـمَّا حضَّ النَّبيُّ ﷺ على الصَّدَقَةِ فأخرَجَ عثمانُ رضيَ اللَّهُ عنهُ تلكَ

---

(١) انظر « ذمّ من لا يعمل بعلمه » (١١ - بتحقيقي) .

(٢) إشارة إلى الحديث المشهور « إذا بلغ الماء قُلَّتين لم يحمل الخبث » ، وهو حديثٌ صحيحٌ ؛ صحّحه جماعةٌ كبيرةٌ مِن أهل العلمِ ، منهم الشافعي ، وأَحمد ، وابن خزيمة ، وابن حبّان ، والدارقطني ، والبيهقي ، وغيرهم كثير .

وللحافظ العلائي « جزءٌ » في تخريجهِ وتصحيحِه ، طُبع بتحقيق أَخينا في اللّهِ الشيخ أَبي إِسحاق الحُويني ، وفَّقه اللّهُ .

ومُراد المؤلِّفِ مِنَ الاستدلالِ بهِ أَنَّ مَن بَلَغَ القَدْرَ الكافيَ من الثقةِ والعدالةِ ، لا يضرُّهُ نقدُ الناقدين ، ولا قدحُ القادحين .

(٣) رواه البُخاري (٣٠٠٧) ، ومسلم (٢٤٩٤) عن عليّ رضي اللّه عنه .

الصَّدَقَةَ العَظِيمَةَ ، قال : « ما ضرَّ عثمانُ ما عملَ بَعدها »(١).

وقال لطلحَةَ لمَّا تطأطأ للنَّبيِّ ﷺ حتى صَعِدَ على ظهرهِ إلى الصَّخرَةِ : « أوجَبَ طَلحَةُ »(٢).

وهذا موسى كليمُ الرَّحمنِ عزَّ وجَلَّ ألقى الألواحَ(٣) التي فيها كلامُ اللَّهِ الذي كتبَهُ لهُ ، ألقاها على الأرضِ حتى تكسَّرَت ، ولَطَمَ عَينَ مَلَكِ المَوتِ فَفَقَأَها(٤) وعاتَبَ ربَّهُ ليلَةَ الإسرى في النَّبيِّ ، وقال : شابٌّ بُعِثَ بَعدي يدخل الجَنَّةَ من أُمَّتِهِ أكثَرُ ممَّا يَدخلُها من أمَّتي(٥)، وأخذَ بلحيَةِ هارونَ وجرَّهُ إليهِ(٦) وهو نبيُّ اللَّهِ ، وكلُّ هذا لم يَنقُص من قَدرِهِ شيئًا عندَ ربِّهِ ، وربُّهُ تعالى يُكرِمُهُ ويُحِبُّهُ ؛ فإنَّ الأمرَ الذي قامَ به موسى ، والعدوَّ الذي برزَ له ، والصَّبرَ الذي صَبَرَهُ ، والأذى الذي أُوذِيَهُ في اللَّهِ أمرٌ لا تُؤثِّرُ فيه أمثالُ هذه الأمورِ ولا تُغيِّرُ في وجهِهِ ، ولا تَخْفِضُ منزلَتَهُ .

---

(١) حديثٌ حسنٌ ؛ رواه الترمذي (٣٧٠١) ، والحاكم (٣ / ١٠٢) ، وأحمد (٥ / ٦٣) ، وعبدالله بن أحمد في « زوائد المسند » (٤ / ٧٥) ، والبغوي في « تفسيره » (١ / ٢٨٣) ، والبيهقي في « دلائل النُّبوَّة » (٥ / ٣١٥) ، وابن أبي عاصم في « السنَّة » (٢ / ٥٨٧ و ٥٩٢) من طرقٍ عدّة بألفاظٍ متعدِّدة .

وانظر « البداية والنِّهاية » (٥ / ٦)، والتعليق على « فقه السيرة » (٦١) لشيخنا الألباني .

(٢) رواه أحمد (١ / ١٦٥) ، والترمذي (١٦٩٢) و (٣٧٣٨) ، وابن أبي شيبة (١٢ / ٩١) ، وأبو يعلى (٦٧٠) ، والحاكم (٣ / ٣٧٣) ، وصححه الحاكم والترمذي .

(٣) كما في آية : ١٥٤ من سورة الأعراف .

(٤) كما رواه البخاري (١٣٣٩) ، ومسلم (٢٣٧٢) .

(٥) رواه البخاري (٣٢٠٧) ، ومسلم (١٦٤) عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة .

(٦) كما في آية : ٩٤ من سورة طه .

وهذا أمرٌ معلومٌ عندَ النّاسِ مُستقرٌّ في فطَرِهم أنَّ مَن لهُ أُلوفٌ من الحسناتِ فإنَّهُ يُسامَحُ بالسَّيِّئةِ والسَّيِّئتَينِ ونحوِها [١]، حتى إنَّهُ ليختلجُ داعي عقوبتِهِ على إساءتِهِ ، وداعي شُكرِهِ على إحسانِهِ فيغلبُ داعي الشكرِ لداعي العقوبَةِ ، كما قيلَ :

وإذا الحبيبُ أتى بِذَنْبٍ واحدٍ جاءَت محاسنُهُ بألفِ شفيعِ

وقال آخرُ :

فإنْ يكُنِ الفعلُ الذي ساءَ واحدًا فأفعالُهُ اللّاتي سَرَرْنَ كثيرُ

واللّهُ سبحانهُ يُوازِنُ يومَ القيامَةِ بينَ حسناتِ العَبدِ وسيِّئاتِهِ فأيُّهما غَلَبَ كانَ التَّأثيرُ لهُ ، فيَفعلُ بأهلِ الحسناتِ الكثيرَةِ الذين آثَروا محابَّهُ ومراضِيَهُ وغَلَبَتْهم دواعي طَبعِهِم أحيانًا من العَفوِ والمُسامَحَةِ ما لا يَفعلُهُ معَ غَيرِهم .

وأيضًا ؛ فإنَّ العالِمَ إذا زَلَّ فإنَّهُ يُحسِنُ إسراعَ الفَيئَةِ(*) وتدارُكَ الفارطِ ومُداواةَ الجرحِ ، فهو كالطَّبيبِ الحاذقِ البَصيرِ بالمَرَضِ وأسبابِهِ وعلاجِهِ ، فإنَّ زوالَهُ على يَدِهِ أسرَعُ من زوالِهِ على يَدِ الجاهلِ .

وأيضًا ؛ فإنَّ معَهُ من معرفتِهِ بأمرِ اللّهِ وتصديقِهِ بوعدِه ووعيدِه ، وخشيتِهِ منه ، وإزْرائِه على نفسِهِ بارتكابِه ، وإيمانِه بأَنَّ اللّهَ حَرَّمَهُ ، وأنَّ لهُ ربًّا يغفرُ الذَّنبَ ويأخُذُ بِهِ ، إلى غيرِ ذلكَ من الأمورِ المحبوبَةِ للرَّبِّ ما يغمُرُ الذَّنْبَ ، ويُضْعِفُ اقتضاءَهُ ، ويُزيلُ أثرَهُ ، بخلافِ الجاهلِ بذلكَ أو أكثرِهِ ؛ فإنَّهُ ليسَ معهُ إلَّا ظُلمَةُ الخطيئَةِ وقُبحُها وآثارُها المُرْدِيَةُ ، فلا يَستوي هذا وهذا .

(*) أي : الرجوع .

(١) ولا بُدَّ - ها هنا- مِن قَيدٍ مهمٍّ عُرِفَ من خلال الوقوف على منهج المؤلِّف - رحمه اللّه- وتتبُّعِهِ ، وهو أَنَّ قَيدَ غَلَبَةِ الحسنات للسيّئات، إنَّما هي بعد استقرار قاعدة المنهج الصحيح =

وهذا **فَصلُ الخطابِ** في هذا الموضعِ ، وبهِ يتبيَّنُ أنَّ الأمرينِ حقٌّ ، وأنَّهُ لا مُنافاةَ بينهما ، وأنَّ كلَّ واحدٍ من العالِمِ والجاهلِ إنَّما زادَ قُبحُ الذَّنبِ منهُ على الآخَرِ بسبَبِ جَهلهِ وتجرُّدِ خطيئتهِ عمَّا يُقاومُها ، ويُضعِفُ تأثيرَها ، ويُزيلُ أثَرَها ، فعادَ القُبحُ في الموضعَين إلى الجَهلِ وما يستلزمُهُ ، وقلَّتُهُ وضعفُهُ إلى العلمِ وما يستلزمُهُ .

وهذا دليلٌ ظاهرٌ على شرفِ العلمِ وفَضلهِ ، وباللَّهِ التَّوفيقُ .

الوجهُ الحادي والخمسون بعد المِئة : أَنَّ العالِمَ المُشتغِلَ بالعلمِ والتَّعليمِ لا يزالُ في عبادَةٍ ، فَنفسُ تعلُّمهِ وتَعليمهِ عبادَةٌ ، قال ابنُ مَسعودٍ :لا يَزالُ الفَقيهُ يُصلِّي، قالوا : وكيفَ يصلِّي ؟ قال : ذِكْرُ اللَّهِ على قلبهِ ولسانهِ .

ذكرهُ ابنُ عبدالبرِّ[1] .

وفي حديثِ مُعاذٍ مرفوعًا وموقوفًا : « تعلَّموا العلمَ ؛ فإنَّ تعلُّمَهُ للَّهِ خَشْيَةٌ ، وطلبهُ عبادَةٌ ، ومُذاكرتَهُ تسبيحٌ .. » وقَد تقدَّمَ[2]، والصَّوابُ أنَّهُ موقوفٌ .

وذكرَ ابنُ عبدالبرِّ[3] عن مُعاذٍ مرفوعًا : « لأنْ تَغدُوَ فتتعلَّمَ بابًا من أبوابِ العلمِ خَيرٌ لكَ من أن تُصَلِّي مِئةَ ركعَةٍ » ، وهذا لا يثبتُ رَفْعُهُ .

= **في التَّلقِّي عن الشرع ؛ كتابًا وسُنَّة ، وبفهم سَلَفِ الأُمَّة ، وأَمَّا سوى ذلك فهو - في الأَصل - مبنيٌّ على شفا جُرُفٍ هار !!**

(١) (٢٥٩) بدون إسناد .

(٢) انظر (ص ٣٩٤) .

(٣) (برقم : ١١٤) لكنْ عن أَبي ذَرّ .

ورواه ابنُ ماجه (٢١٩) ، وضعَّفه البوصيريُّ في « مصباح الزُّجاجة » (ق ١٥ / ب) بعليِّ بن زَيْد بن جُدعان ، وحسّنه المنذري في « الترغيب » (١ / ٥٦) ! فلم يُصِبْ .

وقال ابنُ وهبٍ : كنتُ عندَ مالكِ بنِ أنسٍ ، فحانَت صلاةُ الظُّهرِ أو العَصرِ وأنا أقرأُ عليهِ وأَنظُر في العلمِ بينَ يَديهِ ، فجمعتُ كُتُبي وقُمتُ لأركعَ ، فقال لي مالِكٌ : ما هذا ؟ فقلت : أقومُ إلى الصَّلاةِ، فقال : إنَّ هذا لعَجَبٌ ! ما الذي قُمتَ إليهِ أفضَلَ منَ الذي كنتَ فيه إذا صحَّتْ فيهِ النِّيَّةُ(١).

وقال الرَّبيعُ : سمعتُ الشافعيَّ يقولُ : طَلَبُ العملِ أفضلُ منَ الصَّلاةِ النَّافلَةِ(٢).

وقال سفيانُ الثَّوريُّ : ما من عَمَلٍ أفضَلُ من طَلَبِ العلمِ إذا صحَّت فيهِ النِّيَّةُ(٣).

وقال رجلٌ للمُعافى بن عِمْرانَ : أيُّما أحبُّ إليك ؛ أقومُ أُصَلِّي الليلَ كلَّهُ أو أكتبُ الحديثَ ؟ فقال : حَديثٌ تَكتُبهُ أحبُّ إليَّ من قيامكَ مِن أوَّلِ اللَّيلِ إلى آخرهِ(٤).

وقال أيضًا : كتابةُ حَديثٍ واحدٍ أحبُّ إليَّ مِن قيامِ ليلَةٍ(٥).

وقال ابن عبَّاسٍ : تذاكُرُ العلمِ بعضَ ليلَةٍ أحبُّ إليَّ من إحيائها(٦).

وفي « مسائلِ إسحاقَ بن منصورٍ » : قلتُ لأحمَدَ بن حنبلٍ : قولُه : تَذاكُرُ العلمِ بعضَ ليلَةٍ أحبُّ إليَّ من إحيائها، أيُّ علمٍ أرادَ ؟ قال : هو العلمُ

---

(١) رواه ابن عبدالبّر (١١٦) .

(٢) رواه أبو نُعيم في « الحلية » (٩ / ١١٩) .

(٣) رواه ابن عبدالبّر (١١٩) .

(٤) رواه الخطيب في « شرَف أَصحاب الحديث » (٨٤) .

(٥) رواه ابن عبدالبّر (١١٢) .

(٦) ذكره ابن عبدالبّر (١٠٧) معلَّقًا ، ووصله الدارمي (١ / ١٤٩) بنحوه .

الذي ينتفعُ به النَّاسُ في أمرِ دينهم، قلتُ : في الوضوءِ والصَّلاةِ والصَّومِ والحجِّ والطَّلاقِ ونحوِ هذا ؟ قال : نعم .

قال إسحاقُ : وقال لي إسحاقُ بن راهويهِ : هو كما قالَ أحمدُ[١].

وقال أبو هرَيرَةَ رضي اللَّه عنه : لأن أجلسَ ساعَةً فأفْقَهَ في ديني أحبُّ إليَّ من إحياءِ ليلَةٍ إلى الصَّباح[٢].

وذكرَ ابنُ عبدالبرِّ[٣] من حديثِ أَبي هُرَيرَةَ يَرفعُهُ : « لكلِّ شيءٍ عِمادٌ وعِمادُ هذا الدِّين الفقهُ ، وما عُبِدَ اللَّهُ بشيءٍ أفضَلَ من فِقهٍ في الدِّين » الحديث ، وَقَد تَقدَّم[٤].

وقال محمَّد بن عليّ الباقر : عالِمٌ يُنتفَعُ بعلمهِ أفضلُ من ألفِ عابدٍ[٥].

وقال أيضًا[٦]: روايَةُ الحديثِ وبثُّهُ في النَّاس أفضلُ من عبادَةِ ألفِ عابدٍ .

ولمَّا كانَ طَلَبُ العلمِ والبحثُ عنهُ وكتابتُهُ والتَّفتيشُ عليهِ من عَمَلِ القَلبِ والجوارح كانَ مِن أفضَلِ الأعمالِ ، ومنزلتُهُ من عَملِ الجوارحِ كمنزلَةِ أعمالِ القَلبِ من الإخلاصِ والتَّوكُّلِ والمحبّةِ والإنابَةِ والخشيَةِ والرِّضا ونحوها من الأعمالِ الظَّاهرَةِ .

فإنْ قيلَ : فالعلمُ إنَّما هو وسيلَةٌ إلى العَمَلِ ومُرادٌ له ، والعَمَلُ هو الغايَةُ ،

---

(١) رواه مِن طريق إسحاقَ ابنُ عبدالبَرّ (١٠٨) .

(٢) رواه الخطيب في « الفقيه والمتفقّه » (١ / ٢٥) .

(٣) (١٢٧) .

(٤) انظر (ص ٢٦٧) .

(٥) علَّقه ابن عبدالبَرّ (١٣٠) .

(٦) ذكره ابن عبدالبَرّ (١٣١) لكنْ عن جعفر بن محمَّد !

ومعلومٌ أنَّ الغايَةَ أشرَفُ من الوسيلَةِ ، فكيفَ تُفضَّلُ الوسائلُ على غاياتها ؟

قيلَ : كلٌّ منَ العلمِ والعملِ ينقسمُ قسمين :

منهُ ما يكونُ وسيلَةً .

ومنهُ ما يكونُ غايَةً .

فليسَ العلمُ كلُّهُ وسيلَةً مُرادَةً لغيرها ؛ فإنَّ العلِمَ باللَّهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ هو أشرَفُ العلومِ على الإطلاقِ ، وهو مطلوبٌ لنفسهِ مُرادٌ لذاتِهِ ؛ قال اللَّهُ تعالى : ﴿ اللهُ الَّذي خَلَقَ سَبعَ سمواتٍ ومِنَ الأرضِ مِثْلَهُنَّ يتنزَّلُ الأمرُ بينهنَّ لتَعلموا أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ وأنَّ اللهَ قَد أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً ﴾ [الطلاق : ١٢]، فَقَد أخبرَ سبحانهُ أنَّهُ خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ ونزَّلَ الأمرَ بينهنَّ لِيُعْلِمَ عبادَهُ أنَّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ ، وعلى كلِّ شيءٍ قَديرٌ ، فهذا العلمُ هو غايَةُ الخَلْقِ المطلوبَةُ ؛ وقال تعالى : ﴿ فاعْلَمْ أنَّهُ لا إلهَ إلّا اللهُ ﴾ [محمَّد : ١٩] .

فالعلمُ بوحدانيَّتِهِ تعالى وأنَّهُ لا إلهَ إلّا هو مطلوبٌ لذاتِهِ وإنْ كانَ لا يُكتفى به وحدَهُ ، بل لا بدَّ معهُ من عبادتِهِ وحدَهُ لا شريكَ له ، فهما أمرانِ مطلوبانِ لأنفسِهما : أَن يُعرَفَ الرَّبُّ تعالى بأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وأحكامِهِ ، وأن يُعبَدَ بموجبِها ومُقتَضاها ، فكما أنَّ عبادتَهُ مطلوبَةٌ مُرادَةٌ لذاتها ، فكذلكَ العلمُ بِهِ ومعرفتُهُ .

وأَيضًا ؛ فإنَّ العلمَ مِن أفضَلِ أنواعِ العباداتِ - كما تَقَدَّم تَقريرُهُ - فهو مُتضمِّنٌ للغايَةِ والوَسيلَةِ .

وقولُكم : إنَّ العمَلَ غايَةٌ ! إمَّا أَنْ تُريدوا بِهِ العملَ الذي يدخُلُ فيه عملُ القلبِ والجوارح ، أَو العملَ المختَصَّ بالجوارحِ فَقَط ؟!

فإنْ أُرِيدَ الأوَّلُ فهو حقٌّ ، وهو يدُلُّ على أنَّ العلمَ غايَةٌ مطلوبَةٌ لأنَّهُ من أعمالِ القَلبِ ، - كما تَقَدَّمَ - .

وإنْ أُريدَ به الثَّاني - وهو عملُ الجوارحِ فَقَط - فليسَ بصحيحٍ ؛ فإنَّ أعمالَ القلوبِ مقصودَةٌ ومرادَةٌ لذاتها ، بَل في الحقيقَةِ أعمالُ الجوارحِ وسيلَةٌ مُرادةٌ لغَيرها؛ فإنَّ الثَّوابَ والعقابَ والمَدْحَ والذَّمَّ وتوابِعَها هو للقَلب أصلًا وللجوارحِ تبعًا، وكذلكَ الأعمالُ المقصودُ بها أوَّلًا صلاحُ القَلبِ واستقامَتُهُ وعبوديَّتُهُ لربِّهِ ومليكِهِ، وجُعِلَت أعمالُ الجوارحِ تابعَةً لهذا المقصودِ مُرادَةً، وإنْ كانَ كثيرٌ منها مُرادًا لأجلِ المصلَحَةِ المترتِّبَةِ عليهِ؛ فَمِن أجَلِّها صلاحُ القَلبِ وزكاؤُهُ وطهارتُهُ واستقامَتُهُ، فعُلِمَ أنَّ الأعمالَ منها غايَةٌ ومنها وسيلَةٌ، وأَنَّ العلمَ كذلكَ .

وأيضًا ؛ فالعلمُ الذي هو وسيلَةٌ إلى العمَلِ فَقَط إذا تجرَّدَ عن العملِ لم ينتفع به صاحبُهُ فالعمَلُ أشرَفُ منهُ .

وأمَّا العلمُ المقصودُ الذي تنشأُ ثمرتُهُ المطلوبَةُ منه من نَفسهِ فهذا لا يُقالُ : إنَّ العمَلَ المجرَّدَ أشرَفُ منهُ ! فكيفَ يكونُ مُجرَّدُ العبادَة البَدنيَّةِ أفضلَ من العلمِ باللَّهِ وأسمائهِ وصفاتهِ وأحكامهِ في خلقهِ وأمرهِ ، ومنَ العلمِ بأعمالِ القلوبِ وآفاتِ النُّفوسِ والطُّرقِ التي تُفسِدُ الأعمالَ وتمنعُ وصولَها من القَلبِ إلى اللَّهِ ، والمسافاتِ التي بينَ الأعمالِ والقَلبِ ، وبينَ القَلبِ والرَّبِّ تعالى ، وبما تُقطعُ تلكَ المسافاتُ ، إلى غيرِ ذلكَ من علمِ الإيمانِ وما يُقوِّيهِ وما يُضْعِفُهُ ؟!..

فكيفَ يُقال : إنَّ مجرَّدَ التَّعبُّد الظَّاهرِ بالجوارحِ أفضَلُ من هذا العلمِ ؟! بل

مَن قامَ بالأمرينِ فهو أكملُ ، فإذا كانَ في أحدهما فضلٌ فَفَضلُ هذا العلمِ خَيرٌ من فَضلِ العبادَةِ ، فإذا كانَ في العَبدِ فَضْلَةٌ[1] عن الواجبِ كانَ صَرْفُها إلى العلمِ الموروثِ عن الأنبياءِ أفضَلَ من صَرفها إلى مجرَّدِ العبادَةِ .

فهذا **فَصلُ الخطابِ** في هذه المسألَةِ ، واللَّهُ أعلم .

العلم سبيل السعادة

الوجهُ الثَّاني والخمسون بعد المِئة : ما رواهُ الإمامُ أحمد والتِّرمذي[2] من حديثِ أبي كبشَةَ الأنماريّ قال : قال رسولُ اللَّهِ ﷺ : « إنَّما الدُّنيا لأربعَةِ نَفرٍ : **عبدٍ** رَزَقَهُ اللَّهُ مالاً وعلماً فهو يتَّقي في مالهِ ربَّهُ ويَصِلُ فيهِ رَحِمَه ويعلمُ للَّهِ فيهِ حقًّا ، فهذا بأحسَنِ المنازلِ عندَ اللَّهِ، **ورجلٍ** آتاهُ اللَّهُ علماً ولم يؤتهِ مالاً ، فهو يقولُ : لو أنَّ لي مالاً لعَملتُ بعَملِ فلانٍ، فهو بنيَّتهِ وهما في الأجرِ سواء، **ورجلٍ** آتاهُ اللَّهُ مالاً ولم يُؤتهِ علمًا، فهو يُخبِّطُ في مالهِ ولا يتَّقي فيهِ ربَّهُ ولا يَصِلُ فيهِ رحِمَهُ ولا يعلَمُ للَّهِ فيهِ حقًّا ، فهذا بِأَسْوَإِ المنازلِ عنداللَّهِ، **ورجلٍ** لم يُؤتهِ اللَّهُ مالاً ولا علماً فهو يقولُ : لو أنَّ لي مالاً لعملتُ بعملِ فلانٍ، فهو بنيَّتهِ وهما في الوِزْرِ سواءٌ » حديثٌ صحيحٌ ؛ صحَّحهُ التِّرمذي والحاكمُ وغيرهما .

فقسَّم النَّبيُّ ﷺ أهلَ الدُّنيا أربعَةَ أقسامٍ :

خيرُهم مَن أوتيَ علمًا ومالاً؛ فهو مُحسِنٌ إلى النَّاسِ وإلى نفسهِ بعلمهِ ومالهِ .

ويليهِ في المرتبَةِ مَن أوتيَ علماً ولم يُؤتَ مالاً وإنْ كانَ أجرُهما سواءً ،

---

(١) أي : زيادة .

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨)، وأحمد (٤ / ٢٣٠ و ٢٣١) ، والبيهقي (٤ / ١٨٩) ، والبغوي في « شرح السنّة » (١٤ / ٢٨٩) ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٢٢ / رقم ٨٧٠) من طُرق عن أبي كبشةَ ، وحسّنه الترمذي ، ووافقه العراقي في « تخريج الإحياء » (٣ / ١٩١) وصحّحه شيخُنا الألبانيُّ في « صحيح سُنن ابن ماجه » (٣٤٠٦) .

(تنبيهٌ) : لم أرَ الحديثَ في النُّسخة المطبوعة من « المستدرك » ، واللَّهُ أعلم .

فذلكَ إنَّما كانَ بالنيَّةِ ، وإلَّا فالمُنفِقُ المُتصدِّق فوقَهُ بدرَجَةِ الإنفاقِ والصَّدَقَةِ ، والعالمُ الذي لا مالَ لهُ إنَّما ساواهُ في الأجرِ بالنيَّةِ الجازمَةِ المقترنِ بها مقدورُها وهو القولُ المجرَّد .

الثَّالث : مَن أُوتيَ مالًا ولم يُؤتَ علمًا ، فهذا أسوأُ النَّاسِ منزلَةً عندَ اللَّهِ ؛ لأنَّ مالَهُ طريقٌ إلى هلاكِهِ ، فلو عَدِمَهُ لكانَ خيرًا له ، فإنَّهُ أُعطيَ ما يتزوَّدُ بِهِ إلى الجنَّةِ فجعلَهُ زادًا إلى النَّار .

الرَّابع : مَن لم يُؤتَ مالًا ولا علمًا ، ومَن نيَّتهُ أنَّهُ لو كانَ له مالٌ لعملَ فيه بمعصيَةِ اللَّهِ ، فهذا يَلي الغنيَّ الجاهلَ في المرتبةِ ويُساويهِ في الوِزْرِ بنيَّتهِ الجازمَةِ المقترَنِ بها مقدورُها ، وهو القولُ الذي لم يَقدرْ على غيرِهِ .

فقسَّمَ السُّعداءَ قسمين ، وجَعَلَ العلمَ والعمَلَ بموجبِهِ سببَ سعادتِهما ، وقسَّمَ الأشقياءَ قسمين ، وجَعَلَ الجَهلَ وما يترتَّبُ عليهِ سبَبَ شقاوتهما .

فعادَت السَّعادَةُ بجُملتها إلى العلمِ ومُوجبِهِ ، والشقاوَةُ بجُملتها إلى الجَهلِ وثمرتهِ .

الوجهُ الثَّالثُ والخمسون بعد المِئة : ما ثَبَتَ عن بَعضِ السَّلَفِ أنَّهُ قال : تفكُّرُ ساعَةٍ خيرٌ من عبادَةِ ستِّينَ سنةً .

وسألَ رجلٌ أمَّ الدَّرداءِ عن أَبي الدرداءِ - بَعدَ موتهِ - عن عبادتهِ ؟ فقالت : كانَ نهارُهُ أجمعُهُ في تأْديَةِ التَّفكُّرِ .

وقال الحَسنُ : تفكُّر ساعَةٍ خيرٌ من قيامِ ليلةٍ .

وقال الفُضَيلُ : التَّفكُّر مِرآةٌ تُريكَ حسناتِكَ وسيِّئاتِكَ .

وقيلَ لإبراهيم : أنَّكَ تُطيلُ الفكرَة ؟ فقال : الفكرَةُ مُخُّ العَقلِ .

وكان سفيانُ الثوريُّ كثيرًا ما يتمثَّلُ :

إذا المرءُ كانَت لهُ فِكرَةٌ ففي كُلِّ شيءٍ لهُ عبرَةٌ

وقال الحَسَنُ في قولِه تعالى : ﴿ سأصرِفُ عَن آياتي الَّذينَ يتكَبَّرونَ في الأرضِ بغَيرِ الحقِّ ﴾ [الأعراف : ١٤٦]، قال : أمنعُهم التفكُّرَ فيها(١).

وقال بعضُ العارفين : لو طالَعَتْ قلوبُ المُتَّقينَ بفكرِها إلى ما قُدِّرَ في حُجُبِ الغَيبِ من خَيرِ الآخرَةِ لم يَصْفُ لهم في الدُّنيا عَيشٌ ولم تَقَرَّ لهم فيها عَينٌ .

وقال الحَسَنُ : طولُ الوحدَةِ أتَمُّ للفكرَةِ ، وطولُ الفكرةِ دليلٌ على طريقِ الجنَّةِ .

وقال وَهبٌ : ما طالَت فكرَةُ أحَدٍ قطُّ إلّا علمَ ، وما علمَ امرؤٌ قطُّ إلّا عَملَ .

وقال عُمر بن عبدالعَزيز : الفكرَةُ في نِعَمِ اللَّهِ من أفضَلِ العبادَةِ .

وقال عبدُاللَّهِ بن المُبارك لبَعضِ أصحابِه وقد رآهُ مُفكِّرًا : أينَ بَلَغتَ ؟ قال : الصِّراطَ .

وقال بِشْرٌ : لو فكَّرَ النَّاسُ في عظمَةِ اللَّهِ ما عَصَوْهُ .

وقال ابنُ عبَّاس : ركعتانِ مُقتصِدتانِ في تفكُّرٍ خَيرٌ من قيامِ ليلَةٍ بلا قَلبٍ .

وقال أبو سُليمان : الفكرُ في الدُّنيا حجابٌ عن الآخِرَةِ وعقوبَةٌ لأهلِ الولايَةِ ، والفكرَةُ في الآخِرَةِ تُورِثُ الحكمَةَ وتُحْيي القلوبَ .

وقال ابنُ عبَّاسٍ : التَّفكُّرُ في الخَير يَدعو إلى العَمَلِ به .

---

(١) ذَكَرَ السُّيوطي في « الدر المنثور » (٣ / ٥٦٢) عن السُّدِّي وابن جُرَيج نحوَ ذلك .

وقال الحَسَنُ : إنَّ أَهلَ العلمِ لم يزالوا يعودونَ بالذِّكرِ على الفكرِ ، والفكرِ على الذِّكرِ ، ويُناطِقونَ القلوبَ حتى نَطَقَت بالحكمَةِ .

ومِن كلامِ الشافعيِّ : استَعينوا على الكلامِ بالصَّمتِ وعلى الاستنباطِ بالفكرَةِ .

وهذا لأنَّ الفكرَةَ عملُ القلبِ ، والعبادَةُ عملُ الجوارح ، والقلبُ أشرَفُ من الجوارح ، فكانَ عملُهُ أشرَفَ من عملِ الجوارح .

وأيضًا ؛ فالتَّفُكُّرُ يُوقِعُ صاحِبَهُ من الإيمانِ على ما لا يُوقِعُهُ العملُ المجرَّدُ ؛ فإنَّ التَّفكُّرَ يُوجِبُ له من انكشافِ حقائقِ الأمورِ وظهورِها لهُ ، وتميُّزِ مراتبِها في الخَيرِ والشرِّ ، ومعرفَةِ مفضولِها من فاضلِها ، وأقبحِها من قبيحِها ، ومعرفَةِ أسبابِها الموصلَةِ إليها ، وما يُقاوِمُ تلكَ الأسبابَ ويدفعُ مُوجِبَها ، والتمييزِ بين ما يَنبَغي السَّعيُ في تحصيلِهِ وبينَ ما يَنبغي السَّعيُ في دَفعِ أسبابِهِ ، والفَرقِ بينَ الْوَهَمِ والخيالِ المانعِ لأكثرِ النُّفوسِ من انتهازِ الفُرَصِ بعدَ إمْكانِها وبين السَّبَبِ المانعِ حَقيقَةً فيشتغلُ به دونَ الأوَّلِ .

فما قَطَعَ العَبدَ عن كمالِهِ وفلاحِه وسعادتِهِ العاجِلَةِ والآجِلَةِ قاطِعٌ أعظمُ من الوَهَمِ الغالبِ على النَّفسِ والخيالِ الذي هو مركبُها - بل بحرُها - الذي لا تنفَكُّ سابحَةً فيه ، وإنَّما يُقطَعُ هذا العارِضُ بفكرَةٍ صحيحَةٍ وعزمٍ صادقٍ يُميِّزُ به بينَ الوَهمِ والحقيقَةِ .

وكذلكَ إذا فكَّرَ في عواقِبِ الأمورِ ، وتجاوَزَ فكرُهُ مباديَها ، وضَعَها مواضِعَها ، وعَلِمَ مراتبَها ، فإذا وَرَدَ عليه واردُ الذَّنْبِ والشهوةِ فتجاوزَ فكرةَ لذَّتِهِ وشهوةِ وفَرحِ النَّفسِ به إلى سوءِ عاقبتِهِ وما يترتَّبُ عليهِ من الألمِ والحزنِ الذي

لا يُقاوِمُ تلكَ اللذَّةَ والفَرحَةَ .

ومَن فكَّرَ في ذلكَ فإنَّهُ لا يكادُ يُقْدِمُ عليه ، وكذلكَ إذا وَرَدَ على قلبهِ واردُ الرَّاحَةِ والدَّعَةِ والكَسَلِ والتَّقاعُدِ عن مشقَّةِ الطَّاعاتِ وتَعَبِها حتى عَبَرَ بفكرِهِ إلى ما يترتَّبُ عليها من اللذَّاتِ والخَيراتِ والأفراحِ التي تغمُرُ تلكَ الآلامَ التي في مباديها بالنِّسبَةِ إلى كمالِ عواقبها .

وكلَّما غاصَ فِكْرُهُ في ذلكَ اشتدَّ طلبُهُ لها ، وسَهُلَ عليهِ معاناتُها ، واستقبلها بنشاطٍ وقُوَّةٍ وعَزيمَةٍ ، وكذلكَ إذا فكَّرَ في مُنتهى ما يَسْتَعْبِدُهُ من المالِ والجاهِ والصُّوَرِ ، ونَظَرَ إلى غايَةِ ذلكَ بعَينِ فكرِهِ استَحى من عَقلِهِ ونَفسِهِ أن يكونَ عبدًا لذلكَ ، كما قيلَ :

لَو فكَّرَ العاشِقُ في مُنتَهى ... حُسنِ الذي يَسبيهِ لم يَسْبِهِ

وكذلكَ إذا فكَّرَ في آخرِ الأطعمَةِ المُفتَخَرَةِ التي تفانَتْ عليها نفوسُ أشباهِ الأنعامِ وما يَصيرُ أمرُها إليهِ عندَ خروجها ارتَفَعَت هِمَّتُهُ عن صرفها إلى الاعتناءِ بها وجَعْلِها معبودَ قلبهِ الذي إليه يتوجَّهُ ، وله يَرضى ويغضبُ ، ويَسعى ويكدحُ ، ويُوالي ويُعادي ؛ كما جاءَ في « المُسنَدِ »[1] عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قال : « إنَّ اللَّهَ جَعَلَ طعامَ ابنِ آدمَ مثلَ الدُّنيا وإنْ قَزَّحَهُ ومَلَّحَهُ فإنَّهُ يعلمُ إلى ما يَصيرُ » أو كما قال ﷺ .

فإذا وَقَعَ فِكرُهُ على عاقبَةِ ذلكَ وآخرِ أمرِهِ وكانَت نفسُهُ حُرَّةً أبيَّةً ربأَ بها أن يجعَلَها عبدًا لِمَا آخِرُهُ أنتَنُ شيءٍ وأخبثُهُ وأفحشُهُ !

---

(١) رواه عبداللَّه بن أحمد في « زوائد المسند » (٥ / ١٣٦) ، وابن أبي عاصم في « الزُّهد » (٢٠٥) ، وأبو الشَّيخ في « الأمثال » (٢٦٩) ، وابن حِبَّان (٧٠٢) من طرق عن أُبيّ بن كعب .

=

١٢ - فَصْلٌ

[بين العلم والفِكر]

إذا عُرِفَ هذا فالفكرُ هو إحضارُ معرفتَين في القلبِ لِيُستثمَرَ منهما معرفَةٌ ثالثَةٌ ، ومثالُ ذلكَ إذا أَحْضَرَ في قلبِهِ العاجلَةَ وعيشَها ونَعيمَها وما يقترنُ به من الآفاتِ وانقطاعِهِ وزوالِهِ، ثمَّ أحضَرَ في قلبِهِ الآخرَةَ ونعيمَها ولذَّتَها ودوامَهُ وفضلَهُ على نعيمِ الدُّنيا وجَزَمَ بهذين العِلْمَين أثمرَ لهُ ذلكَ علمًا ثالثًا ؛ وهو أنَّ الآخرَةَ ونعيمَها الفاضلَ الدَّائمَ أَوْلى عندَ كلِّ عاقلٍ بإيثارِهِ من العاجلَةِ المُنقطعَةِ المُنغَّصَةِ .

ثمَّ لهُ في معرفَةِ الآخرَةِ حالتانِ :

إحداهما : أن يكونَ قَد سمعَ ذلكَ من غيرِهِ من غَيرِ أن يُباشرَ قلبَهُ بَردُ اليَقين به ، ولم يُفْضِ قلبُهُ إلى مُكافَحَةِ حقيقَةِ الآخرَةِ .

وهذا حالُ أكثَرِ النَّاسِ، فيتجاذبُهُ داعيان : أحدُهما داعي العاجلَةِ وإيثارِها ، وهو أقوى الدَّاعِيَينِ عندَهُ لأنَّهُ مُشاهَدٌ لهُ محسوسٌ ، وداعي الآخرَةِ ، وهو أضعَفُ الدَّاعِيَينِ عندهُ لأنَّهُ داعٍ عن سماعٍ ، لم يُباشِر قلبَهُ اليقينُ بِهِ ولا كافَحَهُ حقيقتُهُ العلميَّةُ ، فإذا تَرَكَ العاجلَةَ للآخرَةِ تُريهِ نَفسَهُ بأنَّهُ قَد تَرَكَ **معلومًا لمظنونٍ أو متحقَّقًا لموهومٍ**، فلسانُ الحالِ ينادي عليهِ : لا أدع ذَرَّةً منقودَةً لدُرَّةٍ موعودَةٍ !

وهذه الآفَةُ هي التي منعَت النُّفوسَ من الاستعدادِ للآخرَةِ وأن يُسعى لها

= وجوَّد إسنادَه المنذريُّ في « الترغيب والترهيب » (٣ / ١٤٣) .
لكنْ فيه عنعنةُ الحَسَن - وهو البصريُّ - .
نعم ؛ له شواهد تقوِّيه ، فانظر « الصحيحة » (٣٨٢) .

سَعيَها ، وهي من ضَعفِ العلم بها وتيقُّنها ، وإلّا فمعَ الجزمِ التَّامِّ الذي لا يُخالجُ القَلْبَ فيهِ شكٌّ لا يَقعُ التَّهاوُنُ بها وعَدمُ الرَّغبَةِ فيها ، ولهذا لو قُدِّمَ لرجلٍ طعامٌ في غايةِ الطِّيبِ واللذَّةِ وهو شديدُ الحاجةِ إليهِ ، ثمّ قيلَ لهُ : إنَّهُ مَسمومٌ ؛ فإنَّهُ لا يُقْدِمُ عليهِ لعلمهِ بأنَّ سوءَ ما تَجْني عاقبةُ تناولهِ تَربو في المضرَّةِ على لذَّةِ أكلهِ ، فما بالُ الإيمانِ بالآخِرَةِ لا يكونُ في قلبهِ بهذه المنزلَةِ ؟

ما ذاكَ إلّا لضَعفِ شجرَةِ العلمِ والإيمانِ بها في القلبِ ، وعَدَمِ استقرارها فيه ، وكذلك إذا كان سائرًا في طريقٍ فقيلَ له : إنَّ بها قُطَّاعًا ولصوصًا يقتلونَ مَن وجدوهُ ويأخذونَ متاعَهُ ! فإنَّهُ لا يسلُكُها ، إلّا عَلى أحدِ وَجهَينِ ؛ إمَّا أن لا يُصدِّق المُخبِرَ ، وإمَّا أن يَثِقَ من نَفسهِ بغَلَبَتِهِم وقَهرِهم والانتصارِ عليهم ، وإلّا فَمَعَ تَصديقهِ للمُخْبِرِ تَصديقًا لا يتمارى فيهِ وعلمهِ من نَفسهِ بَضعفهِ وعجزهِ عن مقاومتهم فإنَّهُ لا يَسلُكُها ، ولو حَصَلَ لهُ هذانِ العِلْمانِ فيما يرتكبُهُ من إيثارِ الدُّنيا وشهواتها لم يُقْدِمْ على ذلكَ ، فعُلِمَ أنَّ إيثارَهُ للعاجلَةِ وتَركَ استعدادِهِ للآخرَةِ لا يكونُ قَطُّ مع كمالِ تَصديقهِ وإيمانهِ أبدًا .

الحالَة الثَّانية : أن يتيقَّنَ ويجزمَ جزمًا لا شكَّ فيهِ بأنَّ لهُ دارًا غيرَ هذه الدَّار ، وَمَعادًا لهُ خُلِقَ ، وأَنَّ هذه الدَّارَ طَريقٌ إلى ذلك المعادِ ومنزلٌ من منازلِ السَّائرينَ إليهِ ، ويعلمُ معَ ذلكَ أنَّها باقيَةٌ ، ونَعيمَها وعذابَها لا يزولُ ، ولا نسبَةَ لهذا النَّعيم والعَذابِ العاجلِ إليهِ إلّا كما يُدخِلُ الرَّجلُ أصبعَهُ في اليَمِّ ثمَّ ينزعُها ، فالذي تَعَلَّقَ بها منهُ هو كالدُّنيا بالنِّسبةِ إلى الآخرَةِ[1]، فيُثمرُ لهُ هذا العلمُ إيثارَ الآخرَةِ وطلَبَها ، والاستعدادَ التَّامَّ لها ، وأن يَسعى لها سَعْيَها .

---

(١) وقد صحَّ نحوُ هذا التشبيهِ عن النَّبيِّ ﷺ فيما رواه مسلمٌ (٢٨٥٨) عن المُستورِد الفِهْريِّ .

وهذا يُسَمَّى تفكُّرًا، وتذكُّرًا، ونَظَرًا، وتأمُّلًا، واعتبارًا، وتدبُّرًا، واستبصارًا .

وهذه معانٍ مُتقاربَةٌ تجتمعُ في شيءٍ وتفترقُ في آخَر : .

فَيُسمَّى **تفكُّرًا** ؛ لأنَّهُ استعمالُ الفكرَةِ في ذلكَ وإحضارُهُ عندَهُ .

ويُسمَّى **تذكُّرًا** ؛ لأنَّهُ إحضارٌ للعلمِ الذي يجبُ مُراعاتُهُ بَعدَ ذهولِهِ وغَيبتِهِ عنهُ ، ومنهُ قولُه تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُم طائفٌ من الشيطانِ تَذَكَّروا فإذا هُم مُبصِرونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠١] .

ويُسمَّى **نَظرًا** ؛ لأنَّهُ التفاتٌ بالقَلبِ إلى المنظورِ فيهِ .

ويُسمَّى **تأمُّلًا** ؛ لأنَّهُ مُراجَعَةٌ للنَّظَرِ كرَّةً بعدَ كرَّةٍ حتى يتجلَّى لهُ وينكشفَ لقلبِهِ .

ويُسمَّى **اعتبارًا** ؛ - وهو افتعالٌ منَ العُبورِ - لأنَّهُ يعبُرُ منهُ إلى غَيرِهِ فيعبُرُ من ذلكَ الذي قَد فكَّرَ فيهِ إلى معرفَةٍ ثالثةٍ، وهي المقصودُ من الاعتبارِ ، ولهذا :

يُسمَّى **عِبرَةً** ؛ وهي على بناءِ الحالاتِ كالجِلسَةِ والرِّكبَةِ والقِبلَةِ ؛ إيذانًا بأنَّ هذا العلمَ والمعرفَةَ قَد صارَ حالًا لصاحبِهِ يعبُرُ منهُ إلى المقصودِ به ؛ قال اللَّهُ تعالى : ﴿ لقد كان في قَصَصِهم عِبْرَةٌ لأُولي الألباب ﴾ [النازعات : ٢٦] .

وقال اللَّهُ تعالى : ﴿ إنَّ في ذلكَ لعِبرَةً لمَن يَخْشى ﴾ [النازعات : ٢٦]، وقال : ﴿ إنَّ في ذلكَ لعبرَةً لأُولي الأبصار ﴾ [النور : ٤٤] .

ويُسمَّى **تدبُّرًا** ؛ لأنَّهُ نَظرٌ في أدبارِ الأُمورِ وهي أواخرُها وعواقبُها ، ومنهُ تدبُّرُ القولِ ، وقال تعالى : ﴿ أفَلَم يَدَّبَّروا القَولَ ﴾ [المؤمنون : ٦٨] ، وقال : ﴿ أفلا يتدبَّرونَ القرآنَ ولو كانَ مِن عندِ غَيرِ اللهِ لَوَجَدوا فيهِ اختلافًا كثيرًا ﴾ [النِّساء : ٨٢] .

وتدبُّرُ الكلامِ أنْ يَنظُرَ في أوَّلِهِ وآخرِهِ ، ثمَّ يُعيدَ نَظرَهُ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ ، ولهذا جاءَ على بناءِ التفعُّل ؛ كالتَّجرُّع والتَّفهُّم والتَّبيُّن .

وسُمِّيَ **استبصارًا** ؛ وهو استفعالٌ من التَّبصُّرِ وهو تَبيينُهُ وانكشافُهُ وتجلِّيهِ للبَصيرَةِ .

وكُلٌّ مِن التَّذكُّرِ والتَّفكُّرِ لهُ فائدَةٌ غيرُ فائدَةِ الآخَرِ ؛ فالتَّذكُّر يُفيدُ تَكرارَ القَلبِ على ما عَلِمَهُ وعَرَفَهُ ليرسخَ فيهِ ويثبتَ ، ولا ينمحي فيذهَبَ أثرُهُ من القَلبِ جُملَةً ، والتَّفكُّرُ يُفيدُ تَكثيرَ العلمِ واستجلابَ ما ليسَ حاصلًا عندَ القلبِ ، فالتَّفكُّرُ يُحَصِّلُهُ والتَّذكُّرُ يحفظُهُ ؛ ولهذا قال الحَسَن : **ما زالَ أهلُ العلمِ يعودونَ بالتَّذكُّرِ على التَّفكُّرِ وبالتَّفكُّرِ على التَّذكُّرِ ويُناطِقونَ القلوبَ حتى نَطَقَتْ بالحكمَةِ** .

فالتَّفكُّرُ والتَّذكُّرُ بِذَارُ العلمِ ، وسَقْيُهُ مُطارحتُهُ ، ومُذاكرتُهُ تلقيحُهُ ، كما قالَ بعضُ السَّلفِ : مُلاقاةُ الرِّجالِ تلقيحٌ لألبابها .

فالمُذاكرَةُ به لِقاحُ العَقلِ .

فالخَيرُ والسَّعادَةُ في خِزانَةٍ مِفتاحُها التَّفكُّرُ ، فإنَّهُ لا بدَّ من تفكُّرٍ وعلمٍ يكونُ نتيجةً للتَّفكُّرِ ، وحالٍ يُحدِثُ للقَلبِ من ذلكَ العلمَ ؛ فإنَّ كلَّ مَن علمَ شيئًا من المحبوبِ أو المكروهِ لا بدَّ أن يُبقي لقلبِهِ حالةً وينصبغَ بصبغَةٍ من علمِهِ ، وتلكَ الحالُ تُوجِبُ له إرادَةً ، وتلكَ الإرادَةُ تُوجِبُ وقوعَ العَمَلِ .

فها هنا خمسَةُ أُمورٍ :

الفِكْرُ وثمرتُهُ العلمُ ، وثمرتُهما الحالَةُ التي تَحدُثُ للقَلبِ ، وثمرةُ ذلكَ الإرادَةُ وثمرتُها العملُ .

فالفِكْرُ - إذًا - هو المبدأُ والمِفتاحُ للخَيراتِ كلِّها .

وهذا يكشفُ لكَ عن فَضلِ التَّفكُّرِ وشرفِهِ، وأنَّهُ من أفضَلِ أعمالِ القَلبِ وأنفعها له، حتى قيلَ: تفكُّرُ ساعَةٍ خَيرٌ من عبادَة سنَةٍ[(١)].

فالفكرُ هو الذي ينقُلُ من موتِ الغفلَةِ إلى حياةِ اليَقظَةِ، ومن المكارهِ إلى المحابِّ، ومن الرَّغبَةِ والحرصِ إلى الزُّهدِ والقناعَةِ، ومن سجنِ الدُّنيا إلى فضاءِ الآخرَةِ، ومن ضيقِ الجَهلِ إلى سَعَةِ العلمِ ورحبِهِ، ومن مَرَضِ الشهوَةِ والإخلادِ إلى هذه الدَّارِ إلى شِفاءِ الإنابَةِ إلى اللَّهِ والتَّجافي عن دارِ الغرورِ، ومن مصيبَةِ العَمى والصَّمَم والبُكمِ إلى نِعمَةِ البَصَرِ والسَّمعِ والفَهمِ عن اللَّهِ والعقلِ عنهُ، ومن أمراضِ الشُّبُهات إلى بَردِ اليَقين وثلجِ الصُّدور.

وبالجُملَةِ؛ فأصلُ كُلِّ طاعَةٍ إنَّما هي الفكرُ، وكذلكَ أصلُ كلِّ معصيَةٍ إنَّما يحدثُ من جانبِ الفكرَةِ؛ فإنَّ الشيطانَ يُصادفُ أرضَ القَلبِ خاليَةً فارغَةً فَيبْذُرُ فيها حَبَّ الأفكارِ الرَّدِيَّةِ، فيتولَّدُ منهُ الإراداتُ والعُزومُ، فيتولَّدُ منها العملُ، فإذا صادَفَ أرضَ القَلبِ مشغولَةً بِبَذْرِ الأفكارِ النَّافعَةِ فيما خُلِقَ لهُ وفيما أُمِرَ بِهِ وفيمَا هُيِّئَ لهُ وأُعِدَّ لهُ من النَّعيمِ المقيمِ أو العذابِ الأليمِ لم يجدْ لبذرِهِ موضعًا، وهذا كما قيل:

أتاني هواها قبلَ أن أعرفَ الهوى فَصادَفَ قلبًا فارغًا فتمكَّنا

فإنْ قيلَ: فقَد ذكرتُم الفكرَ ومنفعَتَهُ وعِظَمَ تأثيرِهِ في الخيرِ والشرِّ، فما مُتعلَّقُهُ الذي ينبغي أن يُوقعَ عليهِ ويجري فيهِ؟ فإنَّهُ لا يتمُّ المقصودُ منهُ إلّا بذكرِ مُتعلَّقِهِ الذي يقعُ الفكرُ فيهِ، وإلّا ففكرٌ في غَيرِ مُتفكَّرٍ فيه مُحالٌ!

قيلَ: مَجرى الفِكر ومُتعلَّقُهُ أربَعَةُ أمورٍ:

أحدها: غايَةٌ محبوبةٌ مُرادةُ الحصول.

---

(١) ورُوي نحوُ ذلك مرفوعًا، ولا يصحُّ، فانظر «سلسلة الأَحاديث الضعيفة» (١٧٣) و «الأسْرار المرفوعة» (١٤١) و «الفوائد المجموعة» (٢٥١).

الثَّاني : طريقٌ مُوصِلَةٌ إلى تلكَ الغايَةِ .

الثَّالث : مَضرَّةٌ مطلوبَةُ الإعدامِ مكروهَةُ الحصولِ .

الرَّابع : الطَّريقُ المُفْضي إليها المُوقِعُ عليها .

فلا تَتجاوَزُ أفكارُ العقلاءِ هذه الأمورَ الأربعَةَ ، وأيُّ فكرٍ تخطَّاها فهو من الأفكارِ الرديَّةِ والخيالاتِ والأمانيِّ الباطلَةِ ؛ كما يُمَثِّلُ الفقيرُ المُعدَمُ نَفسَهُ من أغنى البَشرِ وهو يأخُذُ ويُعطي ويُنعِمُ ويَحْرِمُ ؛ وكما يُمَثِّلُ العاجزُ نفسَهُ من أقوى الملوكِ وهو يتصرَّفُ في البلادِ والرَّعيَّةِ .

ونظائِرُ ذلكَ من أَفكارِ القلوبِ النَّاطوليَّة[1] التي من جنسِ أفكارِ السَّكران والمحشوشِ والضَّعيفِ العَقلِ .

فالأفكارُ الرديَّةُ هي قوتُ الأنفُسِ الخَسيسَةِ التي هي في غايَةِ الدَّناءَةِ ؛ فإنَّها قَد قنعَتْ بالخيالِ ورضيَت بالمُحالِ .

ثمَّ لا تزالُ هذه الأفكارُ تَقوى بها وتتزايَدُ حتى تُوجِبَ لها آثارًا رَديَّةً ووساوسَ وأمراضًا بطيئَةَ الزَّوالِ .

وإذا كانَ الفكرُ النَّافعُ لا يخرجُ عن الأقسامِ الأربعَةِ التي ذكرناها فلهُ أيضًا محلّانِ ومنزلانِ :

أحدهما : هذه الدَّارُ .

والآخرُ : دارُ القرارِ .

فأبناءُ الدُّنيا الذينَ ليسَ لهم في الآخرَةِ من خَلاقٍ عمَّروا بيوتَ أفكارِهم بتلكَ الأقسامِ الأربعَةِ في هذه الدَّارِ ، فأثمرَتْ لهم أفكارُهم فيها ما أَثمرَتْ ،

---

(١) قال في « القاموس » (ص ١٣٧٣) : « والناطِلُ : الخمرُ » ، والمراد : التَّخيُّل النَّاتج عن ذلك ، والله أَعلم .

ولكنْ إذا حقَّت الحقائق وبطلت الدُّنيا وقامت الآخرةُ تبيَّنَ الرَّابحُ من المغبون ، وخسرَ هنالكَ المبطلونَ ، وأبناءُ الآخرَةِ الذينَ خُلقوا لها عمَّروا بيوتَ أفكارهم على تلكَ الأقسام الأربعَة فيها .

ونحنُ نُفصِّلُ ذلك بعونِ اللَّهِ وفضلِهِ فنقولُ :

كلُّ طالبٍ لشيءٍ فهو محبٌّ لهُ ، مُؤْثِرٌ لِقُربِهِ ، ساعٍ في طريقِ تحصيلِهِ ، مُتوصِّلٌ إليهِ بجهدِهِ ، وهذا يُوجِبُ له تعلُّقَ أفكارِهِ بجمالِ محبوبِهِ وكمالِهِ وصفاتِهِ التي يحبُّ لأجلها وتعلُّقها بما ينالُهُ به من الخَيرِ والفَرحِ والسُّرورِ .

ففِكرُهُ في حالِ محبوبهِ دائرٌ بينَ الجمالِ والإجمالِ ، والحُسْنِ والإحسانِ ، فكلَّما قويَت محبَّتُهُ ازدادَ هذا الفكرُ وقويَ وتضاعَفَ حتى يَستغرقَ أجزاءَ القَلبِ فلا يبقى فيه فَضلٌ لغيرِهِ ، بل يَصيرُ بينَ النَّاسِ بقالبِهِ ، وقلبُه كلُّه في حَضرَةِ محبوبِهِ ، فإنْ كانَ هذا المحبوبُ هو المحبوبَ الحقَّ الذي لا تنبَغي المحبَّةُ إلّا لهُ ولا يُحِبُّ غيرَهُ إلّا تبَعًا لمحبَّتهِ فهو أسعَدُ المُحبِّينَ به ، وقَد وَضَعَ الحبَّ موضعَهُ وتهيَّأت نفسُهُ لكمالها الذي خُلِقَت لهُ الذي لا كمالَ لها بدونِهِ بوجهٍ ، وإنْ كانَت تلكَ المحبَّةُ لغيرِهِ من المحبوباتِ الباطلَةِ المُتلاشيَةِ التي تفنى وتَبقى حزازاتُ القلوبِ بها على حالها فَقَد وضَعَ المحبَّةَ في غيرِ موضعها ، وظَلَمَ نفسَهُ أعظَمَ ظُلمٍ وأقبَحَهُ وتهيَّأت بذلكَ نفسُهُ لغايَةِ شقائها وألمها .

وإذا عَرفَ هذا عَرَفَ أنَّ تعلُّقَ المحبَّةِ بغَيرِ الإلهِ الحقِّ هو عَينُ شقاءِ العَبدِ وخُسرانِهِ ، فأفكارُهُ المتعلِّقَةُ بها كلُّها باطلَةٌ ، وهي مُضِرَّةٌ عليهِ في حياتهِ وبَعدَ موتِهِ ، والمحبُّ الذي قَد مَلَكَ المحبوبُ أفكارَ قلبِهِ لا يخرجُ فِكرُهُ عن تعلُّقِهِ بمحبوبِهِ أو بنفسِهِ .

ثمَّ فِكرُهُ في محبوبِهِ لا يَخرُجُ عن حالتين :

إحداهما : فكرتُهُ في جمالهِ وأوصافهِ .

الثَّانيَة : فكرتُهُ في أفعالهِ وإحسانهِ وبِرِّهِ ولُطفهِ الدَّالَّةِ على كمالِ صفاتهِ .

وإنْ تعلَّقَ فكرُهُ بنفسهِ لم يخرج - أيضًا - عن حالتين :

إمَّا أن يفكِّرَ في أوصافهِ المسخوطَةِ التي يُبغِضُها محبوبُهُ ويمقتُهُ عليها ويُسقطُهُ من عينهِ ، فهو دائمًا يتوقَّعُ بفكرهِ عليها لِيَجْتنبَها ويبعدَ منها .

والثانية : أن يُفكِّرَ في الصِّفاتِ والأخلاقِ والأَفعالِ التي تُقرِّبُهُ منه وتُحبِّبُهُ إليهِ حتى يتَّصفَ بها .

فالفكرتانِ الأُولتانِ تُوجبُ لهُ زيادَةَ محبَّتهِ وقوَّتَها وتُضاعُفَها ، والفكرتان الآخِرتان تُوجبُ محبَّةَ محبوبهِ لهُ وإقبالَه عليهِ وقُربَهُ منه وعطفَهُ عليهِ وإيثاره على غيرهِ .

فالمحبَّةُ التَّامَّةُ مُستلزمَةٌ لهذه الأفكارِ الأربعَةِ :

فالفكرَةُ الأولى والثَّانيَةُ تتعلَّقُ بعلمِ التَّوحيدِ وصفاتِ الإلهِ المعبودِ سبحانهُ وأفعالِه .

والثَّالثَةُ والرَّابعَةُ تتعلَّقُ بالطَّريقِ المُوصلَةِ إليه وقواطعِها وآفاتِها وما يمنعُ منَ السَّيرِ فيها إليهِ ، فتفكُّرُهُ في صفاتِ نفسهِ يميِّزُ له المحبوبَ لربِّهِ منها منَ المكروهِ لهُ .

وهذه الفكرَةُ تُوجِبُ ثلاثَةَ أمورٍ :

أحَدَها : أَنَّ هذا الوَصفَ هل هو مكروهٌ مبغوضٌ للَّهِ أم لا ؟

والثَّاني : إذا كان مكروها ، فهل العَبدُ متَّصفٌ به أم لا ؟

والثَّالث : إذا كانَ مُتَّصفًا به فما طريقُ رَفْعِهِ والعافيَةِ منه ؟ وإنْ لم يكُن

مُتَّصفًا به فما طريقُ حفظِ الصحَّةِ وبقائِهِ على العافيَةِ والاحترازِ منهُ .

وكذلكَ الفكرَةُ في الصِّفَةِ المحبوبَةِ تستدعي ثلاثَةَ أمور :

هل هي محبوبةٌ للَّهِ مَرْضِيَّةٌ لهُ أم لا ؟

الثَّاني : هَل العَبدُ مُتَّصِفٌ بها أم لا ؟

الثَّالث : أنَّهُ إذا كانَ مُتَّصِفًا بها فما طريقُ حفظِها ودوامها ؟ وإنْ لم يكُن مُتَّصفًا بها فما طريقُ اجتلابِها والتخلُّقِ بها ؟

ثمَّ فكرتُهُ في الأفعال على هذين الوجهَين أيضًا سواءٌ .

ومجاري هذه الأفكارِ ومواقعُها كثيرةٌ جدًّا لا تكادُ تنضبطُ ، وإنَّما نحصرُها بستَّةِ أجناسٍ :

الطَّاعاتُ الظَّاهرَةُ والباطنَةُ .

والمعاصي الظَّاهرَةُ والباطنَةُ .

والصِّفاتُ والأخلاقُ الحميدَة .

والأخلاقُ والصِّفاتُ الذَّميمَة .

فهذه مجاري الفكرَة في صفاتِ نفسهِ وأفعالها .

وأمَّا الفكرَةُ في صفاتِ المعبودِ وأفعالهِ فَتُوجِبُ له التَّمييزَ بينَ الإيمانِ والكُفرِ ، والتَّوحيدِ والشركِ ، والإقرارِ والتَّعطيلِ ، وتَنزيهِ الرَّبِّ عمَّا لا يَليقُ بِهِ ووصفهِ بما هو أهلُهُ من الجلالِ والإكرامِ .

ومجاري هذه الفكرَةِ تدبُّرُ كلامهِ وما تعرَّفَ به سبحانهُ إلى عبادهِ على أَلْسِنَةِ رُسُلهِ من أسمائهِ وصفاتهِ وأفعالهِ ، وما نَزَّهَ نَفسَهُ عنهُ ممَّا لا يَنبغي لهُ ولا يَليقُ به سبحانهُ ، وتدَبُّرُ أيَّامهِ وأفعالهِ في أوليائهِ وأعدائهِ التي قصَّها على عبادهِ

وأَشهَدَهُم إيَّاها ليَستدلُّوا بها على أنَّهُ إلٰهُهُم الحقُّ المبينُ الذي لا تَنبَغي العبادَةُ إلّا لهُ ، ويَستدلُّوا بها على أنّهُ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ ، وأنَّهُ بكلِّ شيءٍ عليمٍ ، وأنَّهُ شديدُ العقابِ ، وأنَّهُ غفورٌ رحيمٌ ، وأنَّهُ العزيزُ الحكيمُ ، وأنَّهُ الفعَّالُ لما يريدُ ، وأنَّهُ الذي وسِعَ كلَّ شيءٍ رحمَةً وعلمًا ، وأنَّ أفعالَهُ كلَّها دائرَةٌ بينَ الحكمَةِ والرَّحمَةِ ، والعَدلِ والمصلَحَةِ ، لا يخرجُ شيءٌ منها عن ذلكَ .

وهذه الثَّمرَةُ لا سبيلَ إلى تَحصيلها إلّا بتدبُّرِ كلامهِ والنَّظَرِ في آثارِ أفعالهِ .

وإلى هذين الأصلين نَدَبَ عبادَهُ في القرآنِ ؛ فقال في الأصلِ الأوَّلِ : ﴿ أفلا يَتَدَبَّرُونَ القرآنَ ﴾ [النساء : ٨٢] ، ﴿ أفَلَم يَدَّبَّروا القولَ ﴾ [المؤمنون : ٦٨] ، ﴿ كتابٌ أنزلْناهُ إليكَ مُبارَكٌ لِيدَّبَّروا آياتهِ ﴾ [ص : ٢٩]، ﴿ إنَّا أنزلناهُ قرآنًا عربيًّا لعلَّكُم تَعقلون ﴾ [يوسف : ٢]، ﴿ كتابٌ فُصِّلَت آياتُهُ قرآنًا عربيًّا لقَومٍ يعلمون ﴾ [فصلت : ٣] .

وقال في الأصلِ الثَّاني : ﴿ قُلِ انظُروا ماذا في السَّمواتِ والأرضِ ﴾ [يونس : ١٠١]، ﴿ إنَّ في خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ واختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ لآياتٍ لأُولي الألباب الذينَ يَذْكُرونَ اللهَ قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكَّرونَ في خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠]، وقال : ﴿ إنَّ في السَّمٰواتِ والأرضِ لآياتٍ للمؤمنين وفي خَلقِكُم وما يبثُّ من دابَّةٍ آياتٌ لقَومٍ يُوقِنون واختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ وما أنزَلَ اللهُ من السَّماءِ من رِزْقٍ فأحيا بهِ الأرضَ بعدَ موتها وتَصريفِ الرِّياحِ آياتٌ لقومٍ يعقلون ﴾ [الجاثية : ٣-٥]، ﴿ أوَلَم يَسيروا في الأرضِ فيَنظُروا كيفَ كانَ عاقبَةُ الَّذينَ كانوا من قَبلِهِم ﴾ [الروم : ٩]، ﴿ قُل سِيروا في الأرضِ فانظُروا كيفَ كانَ عاقبَةُ الَّذينَ من قَبل ﴾ [الروم : ٤٢] ،

﴿ ومِن آياتهِ أَنْ خَلَقَكُم مِن تُرابٍ ثمَّ إذا أنتُم بَشرٌ تنتَشرون ومن آياتهِ أن خَلَقَ لكُم مِن أنفُسكُم أزواجًا لتَسكنوا إليها وجَعَلَ بينكُم مودَّةً ورحمَةً إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقَومٍ يتفكَّرون ﴾ إلى قولِه : ﴿ ومِن آياتهِ أن تَقومَ السَّماءُ والأرضُ بأمرِهِ ﴾ [الروم : ٢٠ - ٢٥] .

ونوَّعَ سبحانهُ الآياتِ في هذه السُّوَرِ ؛ فَجعَلَ خَلْقَ السَّمواتِ والأرضِ واختلافَ لُغاتِ الأُمَمِ وألوانهم آياتٍ للعالَمينِ كلِّهم ؛ لاشتراكهم في العلمِ بذلكَ وظهورهِ ووضوحِ دلالتهِ .

وجَعَلَ خَلقَ الأزواجِ التي تَسكُنُ إليهنّ الرِّجالُ وإلقاءَ المودَّةِ والرَّحمَةِ بينهم آياتٍ لقومٍ يتفكَّرون ؛ فإنَّ سكونَ الرَّجلِ إلى امرأتهِ وما يكونُ بينهما من المودَّةِ والتَّعاطفِ والتَّراحمِ أمرٌ باطنٌ مشهودٌ بعَينِ الفكرَةِ والبَصيرَةِ ، فمتى نَظَرَ بهذه العَينِ إلى الحكمَةِ والرَّحمَةِ والقُدرَةِ التي صَدَرَ عنها ذلكَ دلَّهُ فِكْرُهُ على أنَّهُ الإلهُ الحقُّ المبين الذي أقرَّت الفِطَرُ بربوبيَّتهِ وإلهيَّتهِ وحكمتهِ ورحمتهِ .

وجَعَلَ المنامَ باللَّيلِ والنَّهارِ للتَصرُّفِ في المعاش وابتغاءِ فَضلهِ آياتٍ لقومٍ يسمعونَ ؛ وهو سمعُ الفَهمِ وتدبُّرِ هذه الآياتِ وارتباطِها بما جُعِلَت آيَةً لهُ ممَّا أخبرَتْ به الرُّسُلُ من حياةِ العبادِ بعدَ موتهم وقيامهم مِن قُبورهم كما أحياهم سبحانهُ بعدَ موتهم وأقامَهم للتَّصرُّفِ في معاشهم .

فهذه الآيَةُ إنَّما ينتفعُ بها مَن سَمِعَ ما جاءَت به الرُّسلُ ، وأصغى إليهِ ، واستدلَّ بهذه الآيَةِ عليهِ ، وجَعَلَ إرادتَهم البَرقَ وإنزالَ الماءِ من السَّماءِ وإحياءَ الأرضِ بهِ آياتٍ لقومٍ يعقلونَ .

فإنَّ هذه أُمورٌ مَرْئِيَّةٌ بالأَبصارِ مُشاهَدَةٌ بالحِسِّ ، فإذا نَظَرَ فيها ببصَرِ قلبهِ

- وهو عقلُهُ - استدلَّ بها على وجودِ الرَّبِّ تعالى وقُدرتهِ وعلمهِ ورحمتهِ وحكمتهِ وإمْكانِ ما أخبرَ به مِن حياةِ الخلائقِ بَعدَ موتهم كما أحيا هذه الأرضَ بعدَ موتها .

وهذه أُمورٌ لا تُدْرَكُ إلّا بِبَصرِ القَلبِ - وهو العقلُ - فإنَّ الحِسَّ دلَّ على الآيَةِ ، والعَقلَ دلَّ على ما جُعِلَت آيَةً له ، فَذَكَرَ سبحانهُ الآيَةَ المشهودَةَ بالبَصرِ ، والمدلولَ عليهِ المشهودَ بالعَقلِ فقال : ﴿ ومِن آياتهِ يُريكُم البَرقَ خَوفًا وطَمعًا ويُنزِّلُ من السَّماءِ ماءً فَيُحْيي بهِ الأرضَ بعدَ موتها إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقَومٍ يعقلون ﴾ [الروم : ٢٤] .

فتبارَكَ الذي جَعَلَ كلامَهُ حياةً للقلوبِ وشفاءً لما في الصُّدورِ .

وبالجُملَةِ ؛ فلا شيءَ أنفعُ للقَلبِ من قراءَةِ القرآنِ بالتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ ؛ فإنَّهُ جامعٌ لجميعِ منازلِ السَّائرينَ وأحوالِ العاملينَ ومقاماتِ العارفينَ ، وهو الذي يُورِثُ المحبَّةَ والشوقَ والخَوفَ والرَّجاءَ والإنابَةَ والتَّوكُّلَ والرِّضا والتَّفويضَ والشكرَ والصَّبرَ وسائرَ الأحوالِ التي بها حياةُ القلبِ وكمالُهُ .

وكذلكَ يزجُرُ عن جميعِ الصِّفاتِ والأفعالِ المذمومَةِ التي بها فسادُ القَلبِ وهلاكُهُ .

فلو علمَ النَّاسُ ما في قراءَةِ القرآنِ بالتَّدبُّرِ لاشتَغلوا بها عن كلِّ ما سواها ، فإذا قرأَهُ بتفكُّرٍ حتى مرَّ بآيَةٍ هو مُحتاجٌ إليها في شفاءِ قلبهِ كرَّرَها ولو مِئَةَ مرَّةٍ ، ولو ليلَةً ، فقراءَةُ آيَةٍ بتفكُّرٍ وتفهُّمٍ خَيرٌ من قراءَةِ خِتْمَةٍ بغيرِ تَدبُّرٍ وتفهُّمٍ ، وأنفَعُ للقَلبِ ، وأَدْعى إلى حُصولِ الإيمانِ وذَوْقِ حلاوَةِ القرآنِ .

وهذه كانَت عادَةَ السَّلَفِ يُرَدِّدُ أَحدُهم الآيَةَ إلى الصَّباحِ .

وقَد ثبتَ[١] عن النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قامَ بآيَةٍ يُردِّدُها حتى الصَّباح ؛ وهي قولُهُ : ﴿ إنْ تُعَذِّبْهُم فإنَّهم عبادُك وإنْ تَغفِرْ لهُم فإنَّكَ أنتَ العَزيزُ الحكيم ﴾ [المائدة : ١١٨] .

فقراءَةُ القرآنِ بالتَّفكُّرِ هي أصلُ صلاحِ القَلبِ ، ولهذا قال ابنُ مسعودٍ : لا تَهُذُّوا القرآنَ هذّ الشِّعْرِ ، ولا تنثُروهُ نَثْرَ الدَّقَل ، وقِفُوا عند عجائبهِ ، وحرِّكوا به القلوبَ ، لا يكُن همُّ أحدكُم آخرَ السُّورَةِ[٢] .

وروى أيُّوب عن أبي جمرَةَ ، قال : قلتُ لابن عبَّاس : إنِّي سريعُ القراءَةِ ، إنِّي أقرأُ القرآنَ في ثلاثٍ ! قال : لَأَنْ أقرأَ سورَةً من القرآنِ في ليلَةٍ فأتدبَّرَها وأُرتِّلَها أحبُّ إليَّ مِن أن أقرأَ القرآنَ كما تَقرأُ .

والتَّفكُّرُ في القرآنِ نوعان :

تفكُّرٌ فيه ليقعَ على مُرادِ الرَّبِّ تعالى منه .

وتفكُّرٌ في معاني ما دعا عبادَهُ إلى التَّفكُّرِ فيه .

فالأوَّلُ : تفكُّرٌ في الدَّليل القرآني .

والثَّاني : تفكُّرٌ في الدَّليلِ العِياني .

الأوَّلُ : تفكُّرٌ في آياتهِ المسموعَةِ .

---

(١) رواه أحمد (٥ / ١٤٩) ، والنَّسائي (٢ / ١٧٧) ، وابن ماجه (١٣٥٠) ، والحاكم (١ / ٢٤١) عن أَبي ذَرّ .

وصحَّحه البوصيري في « مصباح الزُّجاجة » (١ / ٢٤٢) ، والحاكم ، ووافقه الذهبيُّ .

وللحديث شواهد عدَّة ؛ فانظر « فتح العزيز الغفَّار .. » (ص ١٣٤) ، للأَخ عطاء بن عبداللطيف .

(٢) أي : أَن يَختِمَها فقط ؛ رواه ابن أَبي شيبة في « المصنَّف » (١٠ / ٥٢٥) .

والثَّاني : تفكُّرٌ في آياتِهِ المشهودَةِ .

ولهذا أنزَلَ اللَّهُ القرآنَ ليُتَدَبَّرَ ويُتفكَّرَ فيهِ ، ويُعمَلَ بهِ ، لا لِمُجرَّدِ تلاوتِه مع الإعْراضِ عنهُ .

قال الحَسَنُ البَصريُّ : أُنزلَ القرآنُ لِيُعْمَلَ به ، فاتَّخِذوا تلاوتهُ عملًا .

□□□□□

فهرس الجزء الأوّل

بين يدي الكتاب ٥
موجز ترجمة الإمام العلاّمة شمس الدّين ابن القيّم رحمه الله ٧
مدخل ٩
سَرْد الترجمة ٩
« مفتاح دار السعادة » : أَهميته ومنهجه ١٥
حول اسم الكتاب واستمداده ١٥
منهج المؤلّف في كتابه ٢١
طريقته في الاستدلال والبحث والتّرجيح ٢٢
حول تقسيم الكتاب ٢٥
نسبة الكتاب إلى مؤلّفه ٣٠
تقييم الكتاب ٢٨
النسخ المعتمدة في التحقيق والمنهج المتّبع في ذلك ٣٢
الطبعات السّابقة لـ « مفتاح دار السعادة » عرضاً ونقداً ٤٥
أَوّلًا : حول « الصحيحين » ومسائل أُخَرُ !! ٤٨
ثانياً : في الحكم على الأَحاديث ٥٤
ثالثاً : في العَزْو ٧٣
رابعًا : التصحيفات والتحريفات ، والسَّقَط وأَغلاط الضبط ٨٥
مقدّمة المصنِّف : ١٠٣

١ - فصل : [عهد الله سبحانه لآدم وبنيه] ١٧٦
٢ - فصل : [حظُّ الأَعداء وحظُّ الأَولياء] ١٨٧
٣ - فصل : [ثواب الجنّ وعقابُهم] ١٨٩
٤ - فصل : [مدار الإِيمان وقاعدته] ١٩٥
٥ - فصل : [صفة القلب السليم] ٢٠٠
٦ - فصل : [التّلاوة هي الاتّباع] ٢٠٢
٧ - فصل : [معنى الذّكر] ٢٠٤
٨ - فصل : [المعرضون عن الذّكر] ٢٠٦
٩ - فصل : [عمى البصر أَم البصيرة ؟] ٢١٠
١٠ - فصل : [العِلم والإِرادة] ٢١٤
الأَصل الأَوّل في العلم وفضله وشرفه ٢١٩
١١ - فصل : [تخريج حديث يحمل هذا العلم] ٤٩٧
١٢ : فصل : [بين العلم والفكر] ٥٤٢

التنفيذ الطباعي
دار أولى النهى - بيروت . ص.ب: ١١/٤٤٥٦
☎ : ٥٨٠٣٤١ - ف: ٦٣١٥٥٣ خليوي: ٠٣/٨٧٥٠٥٨